AYMAN AL. OTOOM
أيمن العتوم
رواية
مسغبة

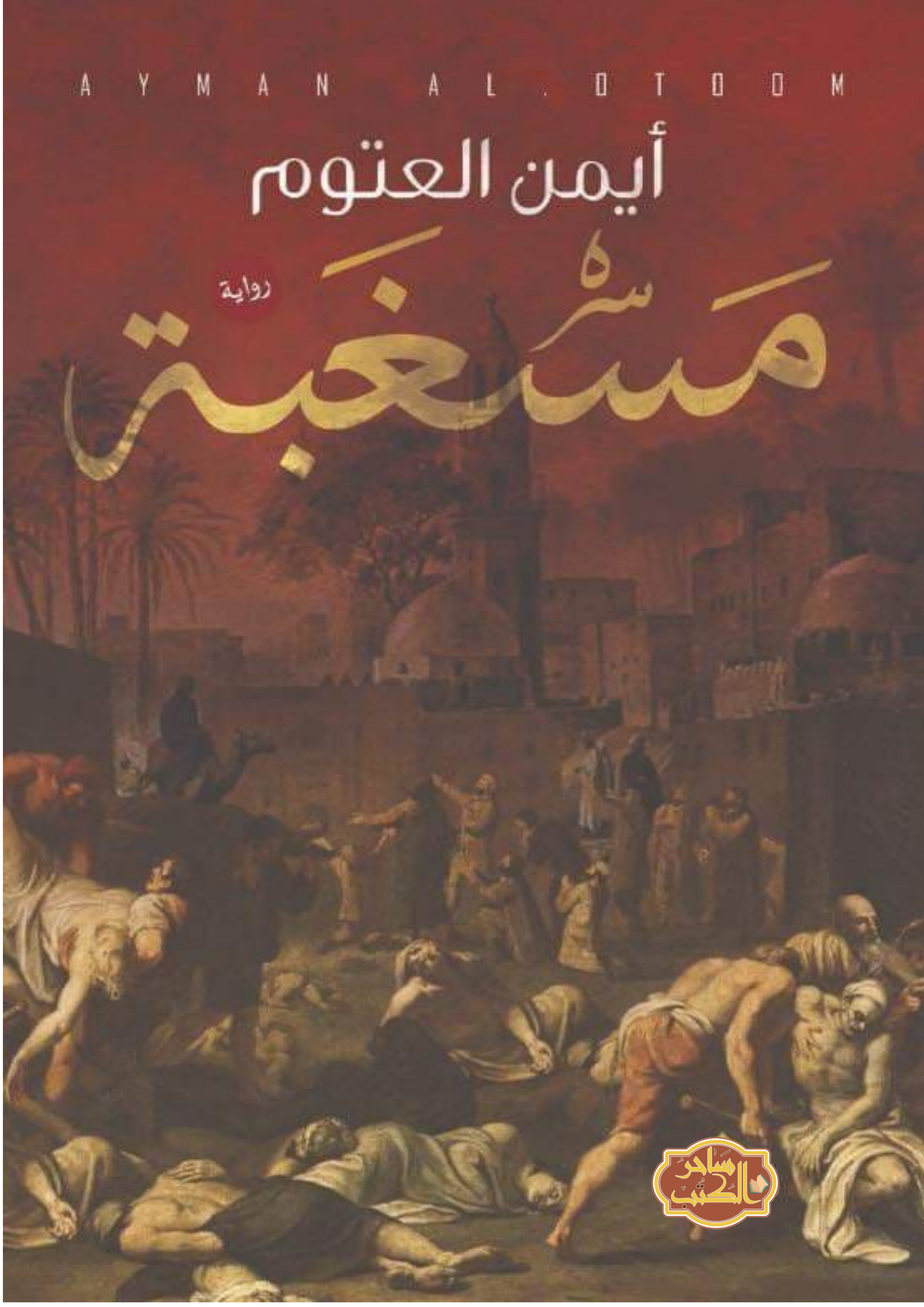

❞ قبل البداية

قبل أنْ تقرأ هذا المخطوط، أريدُ أنْ أقولَ شيئًا، أنا اسمي عبد اللّطيف بن يوسف البغداديّ، تتلمذتُ لأساتيذ كبار، وارتحلتُ في بلادٍ كثيرة، وجُبتُ آفاقًا واسِعة، وعايشتُ أحداثًا جِسامًا، هذا المخطوط الّذي لم يُنسَخ لأنّني لم أدفعْه إلى أيّ دارٍ من دار الورّاقين، وبقي معي إلى آخر تطوافي الطّويل ورجوعي إلى بغداد، سأعهد به إلى من بقي من أقاربي، أبي وأمّي - عليهما شآبيب الرّحمة - ماتا منذ زمنٍ طويل، ما أريدُ قولَه أنّ مَنْ سيطّلع على هذا المخطوط بعد رحيلي عن هذه الفانية سيتوقّف كثيرًا عند بعضِ صفحاته، وسيعتريه الذّهول مِمّا يقرأ، بعضُ المشاهد لا تُصدّق، بعضُها لا يقع حتّى في الخيال، ولكنْ حسبي أنّني نقلتُ بأمانةٍ كلّ ما رأيتُه أو سمعتُه من ثِقاتٍ، وستأتي كتُبٌ تهتمّ بالتّاريخ تُصدّق ما أقول وتُثنّي على ما ذكرتُ. كلّ ما يهمّني ألاّ تموتَ المخطوطة معي، وأنْ يأتي زمنٌ يقرأ فيه النّاس ما عايشَتْه بلادُنا من أهوالٍ وفظائع، لم تكنْ لتتمّ لولا أنّ الله أرادَ لها أنْ تتمّ.

وبعدُ؛ فأنا اليوم محموم، مُعتلّ الجسم، ضعيف القُوّة، خائر العزم، قد وهن العظمُ منّي واشتعل الرأس شيبًا، أصابني ما رأيتُ من محنٍ بِما أُلتُ إليه من عِلّة دائمة، تلازمني في صحوي ومنامي، وفي حلّي وارتِحالي؛ فلا أنا حَيٌّ ولا أنا ميّت!

وأنتَ يا مَنْ سيقع هذا المخطوط بين يديه، ربّما سأكونُ قد صِرتُ تحتَ الثّرى وأنتَ تقرأ هذه الكلمات، كلّ ما أرجوه ألاّ تنساني من دعوةٍ صالحة إذا مررتَ بهذه السّطور.

عبد اللّطيف بن يوسف البغدادي

على مشارفِ بغداد

عام ٦٢٩ من الهجرة. ❝

❞ القِسم الأوّل

بغداد ... النّشأة والحلم

فِدًى لكِ يا بغدادُ كُلُّ قَبيلةٍ

مِنَ الأرضِ حتّى خُطّتي ودِيارِيا

فقد طُفتُ في شَرقِ البِلادِ وغَرْبِها

وَسَيَّرْتُ رَحْلي بينَها وركابِيا

فلمْ أرَ فيها مِثْلَ بغدادَ منزلاً

ولم أرَ فيها مثلَ دِجْلةَ وادِيا

ولا مثلَ أهليها أرَقَّ شمائِلاً

وأعذبَ ألفاظًا وأحلى مَعانِيا

وكم قائلٍ لو كان وُدُّكَ صادِقًا

لبغدادَ، لم ترحلْ. فكانَ جوابِيا:

يُقيمُ الرّجالُ الأغنياءُ بأرضِهِمْ

وتَرمِي النّوى بالمُقْتِرينَ المَرامِيا

(محمد بن عليّ الهَمَدانيّ) ❝

❞ (١)

ما رأيتَ الدُّنيا

ضربَ شُعاع الشّمس المُتسلّل من النّافذة وجهي، رِجلي بارِدة، طرف السّرير بارد، واللّيلة الرّبيعيّة الفائتة باردة، أشعرُ أنّ يدًا خشنة تقرصُ أذني، أخرى تُمسِكُ بعودٍ رفيع، وتضعه في أنفي... أفقتُ مدهوشًا، بحثتُ عن الدّفء. تمطّيتُ كقطّة، بانَ وسطي النّحيل، نظرتُ إلى الحائط، كان الضّحى قد حلّ. لطمتُ جبهتي بكفّي، وصحت: «يا ولد... لقد تأخّرت... سيلعنك الشّيخ». نهضتُ كالملدوغ، جريتُ إلى الحمّام، غسلتُ وجهي، ورجّلتُ شَعري، ثُمّ خرجتُ، فلبستُ الصدّاريّة، والجُبّة، أبي يُصرّ على ذلك مع أنّها أطول مِنّي، ووضعتُ العِمامة الصّغيرة على رأسي، وأصلحتُ هِندامي، ولبستُ نعلي المخصوفة، وركضتُ في دربِ الفالوذج وأنا أُجرّر النّعل الواسع: «يجب أنْ ألحقَ بالشّيخ قبل أنْ يُغادر المسجد». وصلتُ وأنا ألهث: «يا سيّدي...» وانحنيتُ وهممتُ أن أعتذر عندما رفع الشّيخ كَفّه: «لا تبدأ... لقد تأخرّت... اغرُبْ عن وجهي... لا أريدُ أنْ أراكَ بعدَ اليوم». كانتْ صفعة، صفعة حارّة. سيُخبر أبي بلا شكّ، جثوتُ على رُكبتَي، وتوسّلت، صرخَ غاضِبًا: «قلتُ لكَ لا تبدأ... لا وقتَ لديّ للمُهمِلين...». ظَلِلْتُ جامِدًا على رُكبتَيّ كأنّني صخرة، خافِضًا رأسي، ومُسدِلاً ذِراعَيّ الرّفيعتَين على جانبَيّ، وصامِتًا صمتَ القبور. مرّتْ لحظاتٌ بطيئة، رفع الشّيخ الثّمانينيّ رأسَه من جديد، وهتفَ: « ما زلتَ هنا؟ ألم أقلْ لكَ...». وخضعتُ من جديد: «سيّدي..». وقاطَعني: «أتيتُ من الرّيّ وتعلّمتُ في بغداد، وحججْتُ عشرينَ مرّة، وطفتُ البِلاد وصنّفتُ الكتب، وأنا الآن قد جاوزتُ الثّمانين، وبيني وبين القبر مسافةُ درسٍ أو صلاة، فما الّذي يدفعني أنْ أحتمل صبيًّا مثلك...؟». وبقيتُ صامِتًا، وإنْ راحتْ رُكبتاي تهتزّان قليلاً، وجسدي يرتعشُ كذبابة. وتابع الشّيخ (أبو زرعة) مُهتاجًا: «لقد حضر مجلسي ابن الجوزيّ، وأحمد بن صالح الجِيليّ، وأبو محمّد بن قُدامة وكِبار المُحدِّثين، فما تأخّروا عن الدّرس لحظة، وما تغيّبوا عنه يومًا، أيّها الصّبي الأرعن... وأنتَ تأتيني بعد أنْ ترتفع الشّمس، آه... لولا أنّ أباك..». ورفعتُ رأسي قليلاً، ونظرتُ إليه من زاوية عيني: «نعم يا سيّدي بحُرمةِ أبي عندك». وخبطَ بباطن كَفَّيه ظاهر فخذَيه، وتأوّه: «آه لولا أنّ أباك أوصاني بك، وهو خيرُ صديقٍ وخير تلميذ، وله عليّ أيادٍ، لَعَلوتُك بنعلي أيّها الولد...». «نعم ياسيّدي، هذا عنقي، اعلُه بالنعل... اصفعْني بِعصاك، الطمْني على وجهي، جُرّني بسلسلةِ المسجد في الشّارع... افعلْ أيّ شيءٍ إلاّ أنْ تطردني... إنّني أعوّل على درسِكَ كثيرًا». أخذ الشّيخ (أبو زرعة) نَفَسًا طويلاً، وأطلق زفرةً حارّة، قبل أنْ تهدأ ثائرتُه قليلاً، ويسأل: «فلماذا تأخّرت يا بُنيّ؟». «إنّه الشّيطان». «وماذا فعل بك الشّيطان؟». «لقد بال في أذنَيّ». ضَحِكَ الشّيخ ضحكةً خفيفةً، ومدّ يده فقرصَ أذني: «بدأنا يا عبد اللّطيف...». «احذر يا سيّدي، إنّ بَوْل الشّيطان ما زال في أُذني... أخافَ على يدك أنْ تتنجّس..» وبسطَ الشّيخ هذه المرّة ضحكته، وأفلتَ أذني الّتي احمرّتْ، وقال: «لن أقبلكَ في دَرْسي إنْ عُدت لمثل هذا». ووقفتُ مُبتهِجًا على قدَمَي، تفترّ شفتاي عن أسنانٍ صفراءَ صغيرةٍ مُدبّبة، وهتفتُ: «لن أتأخّر لحظة... أعدكَ يا شيخي».

إنّها بغداد، النّشأة والحلم، المدينة الّتي ظلّتْ ساحرةً رغم ما أصابَها من نكباتٍ، والعَروس الّتي ظلّتْ تفتح ذراعيها للعُشّاق رغم أنّهم لم يعودوا موجودين، والفِكرة الّتي كانتْ تبحثُ عن الحقيقة، فكرةٌ نبتت في رأسِ مجنونٍ، يبحثُ عن مجدٍ هاربٍ، ذاتَ انتِصارٍ دمويّ، فأوقعها خطوطًا على الرّقوق، وقال لها كوني فكانتْ.

آه يا بغداد، كم عليّ أنْ ركض في حواريك وأزقّتك القديمة من أجل أنْ أجدني، أبحثُ عنّي في الدّروب الضّائِعات، في دجلة، في الرّصافة، في الجسر، في عيونِ المَها، في درب الورّاقين، في اللّيالي المُقمِرة، وفِيّ... مُتشابِهان نحن، نبحثُ

عن أنفسِنا فينا، عن تلك النّجوم الّتي تساقطتْ يومَ ولادتَينا من أجل أنْ تبعثَ هذا الجوّ الأسطوريّ الّذي يُحيط بِنا معًا، أنا سليل هذه الفاتنة القبيحة، اللّعوب الرّشيدة، المِغناج التّقيّة، والقديمة الجديدة، أنا نِتاجُ أحرفها الّتي خَطّتْ مجدًا سيظلّ خالِدًا، يخبو؟ نعم. يُصيبه النّسيان؟ نعم. يضعُف كأنْ لم يُوجد؟ نعم، ولكنّه لا يموت، أنا لا أموت يا بغداد. أنا لا أموت، وإنْ نَكِر النّاس فضلي، وإنْ ثقبَ الحسدُ والحقد أفئِدتَهم فخاضوا فِيّ مع الخائضين، وطمسوا ما فعلتُ، لكنّني أكتبُ لهما، لعينيكِ اللّتَين خبا نورُهما لكنّه ما انطفأ، وأعيشُ من أجلهما، من أجل هذا المجد؛ هذه الكأس، الّتي يدعونها كأسَ الخلود!!

أمسِ رأيتُ الحاوي، يُخرج الأفعى من الصّندوق بالنّغم، إنّه ماهرٌ لكنّه مُخادِع. إنّه فَنّان ولكنّه كاذب. إنّه يُعجِب النّاس ولكنّه لا يُعجبني. إنّهم حُواة هذا الزّمان يا بغداد، لا يُريدون لأيّ نجمٍ أنْ يسطع، ولا لأيّ حقيقةٍ أنّ تظهر، يتّهمونني بكلّ شنيع، وما أزرتْ بهم إلاّ همّتي، وما كانوا إلاّ فأرة مأرب، لّما أزاحوا الحجر عن قلوبهم انداح طوفان البغضاء ليُهلِكني، ولكنّه لم يُهلِكْ سِواهم!

وإنّها بغداد، حاضرة الدّنيا فيما غَبَر، وإنّني أحبّها على عِلاّتها، ولا أصبر على فراقها مع أنّ أهلَها قالُون لي، ولقد قال الشّافعيّ ليونس بن عبد الأعلى: «يا يونس، دخلتَ بغداد؟». فقال: «لا». فقال: «ما رأيتَ الدّنيا». ولقد صدق، ولكنّ هذا كان فيما مضى، أمّا اليوم فعاثتْ فيها الفِئران، وجاستْ خلالَها الجُرذان، وقلّ ماؤها، وما ماؤها إلاّ علماؤها، وذابَ في فِجاج الأرض أخيارُها، وعدتْ عليها أشرارُها، وغابَ في البؤس سَعدُها، وغار في الحُزنِ فرَحُها، وقبلتْ بُشذّاذ الأرض بعدَ أنْ كانتْ مُتمنّعة، وباللّصوص بعد أنْ كانتْ مُتحصّنة، وبالزُّناة الخَطَأة بعد أنْ كانتْ عفيفة، وإنّها كما قال السّائل الأوّل: «جميلةٌ لا تردّ يدَ لامِس».

وإنّ بغداد كانتْ وقفًا فصارتْ حتفًا، وإنّني كنتُ لا أرى فيها رأي الفُضَيل بن عِياض، وكنتُ أتطيّر به وبقوله؛ فإنّ بغداد حبيبةٌ، والحبيبةُ تملك على المُحِبّ العقل والقول، ولكنّني مع مرور الأيّام وتمادي البين وانقطِاع الوصل وانبتات العشق رأيتُ الفُضَيل مُحِقًّا حين حَثّ على الخروج منها، وكَره الإقامةَ بها، وأبطلَ الصّلاة فيها، وجعل مُؤذّنيها أخبثَ أهلها، لأنّها أرضٌ غَصْبٌ! ولقد قال سفيان الثّوري من قبلُ: «المُتعبّد في بغداد كالمُتعبّدِ في الكنيف». ولكنّها رغم ما قالوه أو سيقولونه، ستظلّ حبيبة، وإنّني وإيّاها كما قال الشّافعيّ: «ما دخلتُ بلدًا قَطّ إلاّ عَدَدْتُه سَفَرًا، إلاّ بغداد فإنّني حينَ دخلتُها عددتُها وطنًا». وكما قال صاحبُ بُثينة:

وما زادَها الواشونَ إلاّ كرامةً

عليّ، وما زالتْ مَحبّتها عِندي

وإنّها مع محبّتي لها، ليصدقُ فيها قول القائل: «إنّها أسرعُ انقِلابًا بأهلها من الوتد الحديد في الأرضِ الرّخوة». ولقد رأيتُ في منامي وأنا صبيٌّ أتعثّر في الطّرقاتِ مَلكَين، هبطا من السّماء حتّى صارا فوق بغداد، فقال الأوّل للثّاني: «اقلبْها فقد حَقّ القولُ عليها». فسمعتُ الثّاني يقول: «كيفَ أقلبُها وفيها خُتِمت الليلةَ خمسةُ آلافِ خَتْمة؟».

ثُمّ إنّه ما نال منّي هُراء المُتعالِمين إلاّ كما نال نُباح الكلب من المُرتحِل، وما ضَرّني أنْ نَكِرني النّاس في زماني هذا، فإنّ لي أزمانًا آتية يذكرونني ولا يُنكرونني، ويعرفون فضلي ولا يجحدونه، ولقد قلت: «إنّ العلوم تَغور ثُمّ تفور، تغور في زمانٍ وتفور في زمان، بمنزلة النّبات أو عيون المِياه، ينتقل من قومٍ إلى قومٍ، ومن موضعٍ إلى موضع». ❝

❞ (٢).

دَربُ الفالوذَج

«كم معك من القُرآن يا ولد؟». سألني الشّيخ أبو زرعة وقد سقط حاجِباه الأبيضان على عينَيه، وراحَ ينظر إليّ من تحتهما، رافِعًا ذقنه إلى الأعلى، يكادُ لا يرى. «القرآن كلّه» أجبتُه. شهق الشّيخ. وهتف: «صلّى الله على مُحمّد... يا مُحمّاااد». ومَطّ الكلمة الأخيرة غيرَ مُصدّق، وأعادَ بنبرةٍ ترتعشُ بالدّهشة: «القرآن كلّه!!». «نعم، يا سيّدي، حفظتُ نصفَه على يد جدّي، وابتدأتُ ذلك وأنا في السّادسة، فلمّا توفّاه الله، حفظتُ النّصفَ الثّاني على يد أبي». هَزّ الشيخُ رأسَه من جديدٍ، وهتف: «وكم مضى من عُمُرك؟». «ثمانٍ». «وهل معكَ غيرُ القرآن؟». «أحبُّ الحلوى»، أجبتُه. ضيّقَ عينَيه، وبدا أنّه لا يرى مع كثافة حاجبَيه: «وما شأنُ الحلوى؟». «إنّها كانتْ مكافأة أبي على إتقاني الخَطّ». «وهل تفعل؟». «بالطّبع يا سيّدي». وضع رُقعةً خاليةً على المسند الخشبيّ الّذي يضع عليه كُتُب الحديث، ويتّكِئ عليه أحيانًا، ويأخذ فوقه غفوةً قصيرةً أحيانًا أخرى، وله فيه مآربُ أخرى، وغمسَ الرّيشة الّتي عن جنبه بالدّواة، ومدّ الرّقعة مع المسند الخشبيّ إليّ، وأشارَ بإصبعه: «اكتبْ... اكتبْ...». «ماذا أكتب؟». «ما شِئتَ مِمّا تحفظ». «من القرآن أم من غيره؟». «وتحفظُ غير القرآن؟». «أحفظُ مقامات الهمذاني عن ظهر قلب، ومُختصرًا في النّحو، ومُختصرًا في الفقه، وأحفظُ الكُرّاس الأوّل من ديوان المُتنبّي». شَهَقَ الشّيخ من جديد، اهتزّ طربًا هذه المرّة، مال جنباه يمنةً ويسرةً من ذلك، وكادت دواة الحبر تسقط في اهتِزازه وتنسكب مُلوّثةً الأرض لولا أنّه تداركَ الموقف، وقال: «الخيار لك». كتبتُ له بخطّ الثّلث، قولَ المتنبّي:

أريدُ مِن زمني ذا أنْ يُبلّغني

ما ليسَ يبلغُه من نفسِه الزّمنُ

ومددتُ الرّقعة له، قرأ البيت، وصاح من الإعجاب: «بديع، ولكنْ هل هذا البيت في الكُرّاس الأوّل من ديوان المتنبّي؟». «لا، ولكنّني أحفظه». «وما الّذي أعجبكَ فيه حتّى تحفظه قبلَ غيره؟». «إنّه أنا». ضيّق الشّيخ من جديدٍ عينَيه، ورفع رأسه قليلاً، فبانت لحيته من زاوية النّظر هذه كاملة، وراحَ يعبثُ بها بأطراف أصابعه: «امممم... غفرتُ لك». سألتُه: «وهل أخطأتُ يا سيّدي؟». «أنسيت؟». أجبتُه حاثًّا إيّاه على أنْ يُذكّرني: «ولقد عَهِدْنا إلى آدمَ من قبلُ فنسي». ضحك، وقال: «تأخّركَ عن الدّرس المرّة الفائتة». «وأنتَ يا شيخ أما نسيتَ؟». ضحك. وقال: «نبدأ اليوم؟». «نعم». «لن نبدأ بعلم الحديث، بل بالحديث». «أنتَ أستاذي وسيّدي». «العلوم تأتي بعدَ الحفظ». «أنا طوع يدَيك».

ولدتُ في هذه الدّار عام ٥٥٧ للهجرة، دارٌ مُنيفةٌ، دار جدّي، في درب الفالوذج في بغداد، دربٌ أشبهُ بالدّنيا، والدّنيا ليستْ لونًا واحِدًا، إنّها من أصنافٍ شَتّى، وفيه درجتُ، وركضتُ، وصِحتُ، وناديتُ على أمّي أنْ تنتظرني وهي تسبقني إلى دكاكين الخَيّاطين والبَزّازين والصّفّارين.

بيتُنا بيتُ عِلم. لن أقولَ: إنّني تعلّمتُ كلّ هذا وحدي، ولن أقول إنّ أبي كان سَقّاءً وكنتُ أنا فقيرًا، ولن أقولَ إنّني يتيم وإنّ أُمّي كانت تملأ البيت صِياحًا في الصّباح والمساء وهي تتشاجر مع جدّتي، ولن أقول إنّني كنتُ أصيدُ السّمكَ من نهر دِجلة من أجل أنْ أُطعِم أُمّي وأقيها شَظَفَ العيش، ولن أقول إنّني كنتُ أبيتُ في دار الوَرّاقين من أجل أنْ أقرأ كلّ ما كتبه الكُتّاب، وما خَطّه النَسّاخون في العلوم كلّها لأنّي لم أكنْ أملكُ ثمنَ كتابٍ واحد... لن أقول شيئًا من هذا، بل سأقول إنّ جدّي كان عالِمًا بالتّاريخ، وإنّ أبي كان عالِمًا بالحديث، وإنّ أُمّي كانتْ حنونةً تُحبّ العِلم، وإنّني سرقتُ منهم قلوبَهم، فخصّوني بالعِناية والتّعليم، وجئتُ لهم على قَدَر!

وبغداد؟ حاضرةُ الدُّنيا، فيها كلّ شيء، وفيها من كلّ شيءٍ شيءٌ، ليسَ يفوقُها في الحواضر شيء، وحكاياتُها لا تنفَد، وقِصصها لا تنتهي، وأيّامها لا تُعدّ، وحورايها لا تُنسَى، وأسواقُها تتفرّد، وباعتُها أظرفُ الباعة، ولصوصُها كُثر، وشُطّارها غلبوا الخليفة على أمره، وماؤها أعذبُ ماء، فهو من كوثر دجلة، ودجلة من الجنّة، والجنّة جَنّات، وأنا؟ عاشقٌ مُتيّم.

كان درسي مع الشّيخ (أبي زرعة) في الحديث ثلاثةَ أيّام في الأسبوع، بدأ بالبُخاريّ، فكان يشرح لي الباب، وأنا أحفظُ ما شرح، المتن والسّند، وكانتْ أيّام الأسبوع الثّلاثة الأخرى لإتمام هذه المهمّة، وكان الشّيخ يُدرّس في المدرسة النّظّاميّة، وهي يومئذٍ تعجّ بالعُلماء والأساتيذ وأهل الرّأي، وفيهم الجهابذة الّذين طلبَ علمَهم أهلُ الحواضِر الأخرى في القاهرة أو حلب أو دمشق أو تونس. وكان يُحرّكهم كما يُحرّك كلَّ إنسانٍ المالُ، المالُ الّذي يرتق جيوبهم المثقوبة، ويكفل لهم حياةً طيّبة، ولم يُزرِ ذلك بالدّين ولا بالتّقوى، فإنّ العلماء بشر، ولهم مِعدٌ تجوع، وأبدانٌ تمرض، وهم محتاجون لدرئهما إلى المال.

كان بيتُنا في درب الفالوذج بعيدًا عن المدرسة النّظاميّة، وكان عليّ أنْ أعبر المسافة الطّويلة في الفجر لكي ألحق بالدّرس، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة، إذ ينتشر اللّصوص في هذا الوقت، وأنا صبيٌّ صغير، فكنتُ لأتغلّب على ذلك أصلّي الفجر في المسجد الّذي بِجوار بيتنا، وأقرأ على شيخه نصيبَ اليوم مِمّا أحفظ، وعليّ إذا انبلجَ الفجر أنْ ألحقَ بالشّيخ في المدرسة، فأركضُ، ولا أصلُ إليه إلاّ لاهِثًا، فقال لأبي: «إنّه يأتيني وأنفاسُه تتقطّع، فهلاّ قرّبتَ مزارِكَ من مزارنا؟». ولم يكنْ أبي ليترك دار جدّي، ولم أكنْ أنا لأتركَ درب الفالوذج الّذي عاشَ فِيّ، فاقترحَ أبي عليه أنْ يأتيه في مسجد التّوابين الّذي يقع في منتصف المسافة بيننا وبينه، على أنْ يُجريَ له زيادةً في المال على احتمال المشقّة في ركوب الدّابة من بيت الشّيخ إلى هذا المسجد، وسيّر أبي معه كذلك حَمّارًا يأتي به من بيته ويُعيده إليه، ولولا الفضل الّذي بينهما والودّ لَما قَبِل، ولكنّه قال لأبي: «إنّ ابنَك هذا نابغة، وإنّ تعليمه واجبٌ، وأنا أقبلُ لصحبتي لك». وظلّ الشّيخ معي عامًا وشهرَين يُقرِئني البُخاريّ حتّى حفظتُه، ولَمّا بدأنا بعلوم الحديث كان قد مات، فبكيناه أنا وأبي، وصلّى عليه خلقٌ كثير، ودُفِنَ في المقبرة الورديّة.

ظلّتْ ذكرى الشّيخ في ذهنِ الطّفل الّذي كنتُه مرتبطةً بباب الفتن الّذي قرأتُه عليه في البُخاريّ، وكان أكثر حديثَين يطرقان بالي، هما: قوله عليه الصّلاة والسّلام: «ستكونُ فِتَن، القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائمُ فيها خيرٌ من الماشي، والماشي فيها خيرٌ من السّاعي، مَنْ تَشرَّف لها تَستشرِفْه، فمَن وجد فيها ملجأ، أو مَعاذًا، فَلْيَعُذْ به». وقوله: «لا تقومُ السّاعة حتّى يمرَّ الرّجلُ بِقَبر الرّجل فيقول: يا ليتَني مكانَه». بل إنّني كنتُ أُردّدهما في اليوم أكثر من مرّةٍ وأنا أقرأ أو

أحفظ أو أتابع الدّروس، أو أمشي في الطّرقات، وكانا يبرزان لي من زاوية كلّ كتاب، وزاوية كلّ درب. في الجمعة الّتي تلتْ موتَه، كنتُ عندَ شيخٍ آخر أتلقّى علوم الحديث.

ماتَ أبو زرعة، ولقد كان عَلَمًا من أعلام بغداد، جاورها - ولم يقبل على جِوارها غيرَها- مدّة أربعةٍ وثمانين عامًا حتّى رحل، وكنتُ أنا أصغرَ تلامذته، وكان هو أكبرَ شُيُوخي، وما حفظتُه عنه ظلّ معي إلى أنْ رحلتُ أنا كذلك. ❞

❝ (٣)

وَجْها بغداد

أخذتْني أمّي معها إلى سوق الصَّفّارين، محلاّت كثيرة، تتدلّى من أمام واجهاتها أواني النّحاس الصّفراء، كانتْ تلمع على ضوء أشعّة الشّمس، بريقُها ربّما كان يجذب النّساء من جهتَين: يُشبه الذّهب؛ والذّهب يُقيم في قلوب النّساء. ثُمّ فيه كل ما تحتاجه المرأة من أوانٍ نحاسيّة لمطبخها، ولقد رأيتُ القيّم في المدرسة النّظاميّة فيما بعدُ يبعثُ مَنْ يأتي بأكواز الماء ليشتريها من هناك.

خرجْنا من درب الفالوذَج حيثُ نسكن، ودربُنا واسعٌ قليلاً، ويمتدّ في العمق، وعلى جانبيه البيوتُ الّتي تختفي خلفَ كثيرٍ من الدّكاكين، كان هناك دُكّان يبيع الجِرار والقُلَل، وأقدم جرّةٍ في بيتنا اشتراها جَدّي منه، لو نزلتُ في مائها لغرقت، وكانت الجِرار والقُلَل تجعل الماء في الصّيف باردًا. وكان هناك دُكّان العتّابيّة وهو دُكّان ثِياب، تُباع فيه الثّياب العتّابيّة؛ وهي مصنوعةً من حريرٍ وقُطن، وذات ألوانٍ متعدّدةٍ زاهية، وكان أكثر زبائنه من النّساء، ومنه كانت تُجهّز العَروس. وكان هناك غيرُ دُكّان للحبوب، ومثلها للأعشاب، والتّوابل وكانتْ رخيصةً الرّطل بدينار، وكانتْ تأتي من الهند، وكان كلّ دُكّانٍ له سقيفةٌ من الأعلى تُشبه الشّرفة لكنْ من دون أنْ يكون فيها مكانٌ للجلوس، وكانت السّقيفة أو المِظلّة هذه ترتكز على سقالات من الخشب، بارزة للنّاظر إليها، وكانتْ تتدلّى من تلك السّقالات مَشابكُ يعرض فيها صاحب الدُّكّان بعضَ بِضاعته لتكون مَرئيّة للشّارين. وكان هناك أيضًا باعة العَرَبات المَجرورة، يبيعون على عَرَباتهم الرُّمّان أو البِطّيخ أو الأشنان. أمّا أشهر تلك الدّكاكين وعليه سُمّي دربُنا، فكان دُكّان أبي سليمان الحَلَوانيّ الّذي كان يبيع فيه حلوى الفالوذج، واشتُهِر بها، وكانَ النّاس يأتونه من أماكنَ شتّى، وكان عنده صِبيةٌ يُساعدونه لكثرةِ مُرتاديه، وكثيرًا ما أكلتُ حلواه، وكان أبو سليمان كلّما اشتريتُ من عنده واحدةً يقول: «حَلْوايَ تُظهِر الكرش، وتزيد السِّمَن، إلاّ معك، كلّما أكلتَ منها زادَ نُحولك، وتقصّفتْ ساقاك كأنّهما ساقا سَعدان». ويضحك مع أنّ دُعابته لم تكنْ تُعجبني.

والفالوذَج، كما وصفها سفيان الثّوري: «لُبَابُ الْبُرّ بِلُعَابِ النَّحْلِ بِخَالِصِ السَّمْنِ». وكنتُ أجلسُ عند الحَلَوانيّ، آكلُها أمام دُكّانه، فيُحدّثني أحاديثَها، فيقول: جلس الغاضريّ يأكل الفالوذَج على مائدة يزيد بن عبد الملك الأمويّ فجعل الغاضريّ يأكل ويُسرع، فقال يزيد: ارْفِقْ بنفسك فإنّ الإكثار منه يقتل. فقال الغاضريّ: منزلي على طريق المقابر». ويُطلِق أبو سليمان ضحكةً لها دويّ، وأضحك معه، وزَبَدُ الحلواء يسيل من زوايا فمي، فلقد كنتُ ألتهم لُقَمًا كبيرةً منها في فمٍ ذي بابٍ صغير وأسنانٍ مُدبّبة. ثُمّ يقصّ عليّ خبرًا آخر، فيقول: «دخل أعرابيٌّ على عبد الملكِ بنِ مروانَ وهو يأكل الفالوذَج. فَقَالَ عبد الملك: يا بنَ عمّ ادْنُ فَكُلْ من هذا الفالوذَج فإنّه يزيد فِي الدّماغ. قال: إنْ كان كما يقولُ أميرُ المُؤمنين فينبغي أن يكون رأسُه مثلَ رأسِ البغل». وقد زَعم ابنُ السّمّاك أنّها سيّدة الحَلْواء، وزعم آخَرون أنّها حلوى الأغنياء، وكُنّا نأكلها ولم نكنْ منهم.

اشترتْ أُمّي من سوق الصّفّارين طستًا وأكوابًا وملاعق، وكانتْ تُجادل الباعة وهي تُغطّي رأسَها ووجهها بخمار، وكنتُ أستمتع بمجادلتها، وعُدنا، فناشدْتُها الله والرَّحِم أنْ تشتري لي حلوى الفالوذج من دُكّان أبي سُليمان، فنهرتْني: «لن تأكلها كلّ يومٍ». فأشرتُ إلى جسدي النّحيل الّذي لو هبّتْ ريحٌ خفيفةٌ لأطارتْه من فوق الأرض، وقلتُ: «أريدُ أنْ أسمنَ قليلاً». فتزفر: «مُخادِع». وأكلت الحلوى، واستمعتُ

إلى قِصّة جديدةٍ من أبي سليمان عنها وأنا آكلها، وكنتُ أستمتع بذلك، ولم أعدْ بعد حينٍ من الدّهر أدري بِمَ أستمتع؛ بها أم بالطّرائف الّتي تدور حولها؟!

ولمّا صِرْنا على عتبة البيت سبقتْني أمّي إلى الدّاخل، وكانتْ تبدو مُغضَبة، ونادتْني إلى المطبخ، كانتْ تضع الأواني الّتي اشترتْها في صُندوق، وقالتْ وهي تَستعبِر: «تنفعك إذا انتقلتَ إلى دارٍ أخرى». واستغربتُ من قولِها هذا، وهتفتُ في سِرّي دون أنْ أسألها: «أيّ دارٍ أخرى هذه الّتي سأنتقل إليها!!».

ولبِغداد وجهان، كلّما غدوتُ إلى الدّرس أو عبرتُ الطرّقات رأيتُهما، وجهان كما لو استَعارا من الشّرق والغرب، وأخذا من ضِفّتَي النّهر، إنّ بغداد سوقٌ ومسجد، وماءٌ وملح، وداء ودواء، ومِحنةٌ ومِنحة، قتلتْ عُلماءَ ورفعتْ آخرين، وفتحتْ صدرها للزّهّاد والنُّسّاك تمامًا كما فتحتْه للّصوص والعَيّارين، ولعلّ كلّ محلّةٍ كُبرى في بلاد الله كذلك، ولكنّها غلبتْ بالحديث كلّ أرضٍ، وبالفِتنة كلّ صِقع.

مسغبة _ أيمن العتوم:

ووجهاها وجها المليحة، مستورًا ومكشوفًا، فهي جميلةٌ في الحالَين، فإذا أسدلَتْه رأيتَه، وإذا رفعَتْه رأيتَه، والجَمال طريقان، أحدهما إلى الله والثّاني إلى الشّيطان، تلك هي بغداد، إنّها تتأبّى على الوصف، كيف يُمكن لي وأنا ابن الحادية عشرة أنْ أعبّر لكم عن حُبّي لها، إنّ هذا الشّيء مِمّا يعتمل في الوجدان دون أنْ يُقال أو يُفسّر، هل أحسّ أحدكم أنّ غمامةً حملتْه في أندائها وهو نائمٌ وسافرتْ به فوق بِقاع الأرض فرأى كلّ شيء؛ تلك هي بغداد، وذلك هو عِشقها!

ولقد دعاني (ابن البغويّ) الّذي كان يدرسُ معي درس الفِقه إلى دارهم، فدخلتُها، فإذا هي أقربُ للقصر، بناها لهم جدّه الّذي كان في الجيش، رأيتُ منها عجبًا، كانت الدّار عالية الأبهاء، فسيحة الأفنية، تقوم سقوفها على أقواسٍ عظيمة، ترتكز على أعمدةٍ رُخاميّة، بتيجانٍ مُذهّبة، نوافذها عالية، تضربُ الشّمسُ ستائرها الدّيباجيّة، وتُلقِي بالظّلال على الأرائك والنّمارق، يجلسُ إلى بعضِها القِيان، فتحسبُ أنّها الجَنّة.

وكان صديقي قد دعاني إلى الغَداء معه، فمُدّت المائدة، وحمل الطّعامَ إليها خدمٌ كثيرون، كلّهم يلبسون سراويل بِيضًا واسِعةً، ويتمنطقون بمنطقة زرقاء على أوساطهم، وكانوا شبابًا سُودًا، ليس فيهم أبيض أو أصفر، يحمل كلّ واحدٍ منهم الطّعام بكلتا يدَيه، صَحَفاتٍ صَحَفات، وكانت الصّحون تحوي كلّ ما لذّ وطاب، كانت هناك اللّحوم المشويّة، البطّ والإوزّ والدّجاج والشّياه، وكانت المُحمّر والمُقمّر والمُدوّر والمُفلطح والمستطيل والمُستدير، وما لا يُحصَى... فشهقتُ، وسألتُه: «هل ستدعون أهل بغداد إلى هذه الوليمة؟». فردّ: «بل هو لَنا». فسألتُه: «فمن يأكل هذه الأطنان من الطّعام؟!». وما عتم سؤالي أنْ أجابتْ عنه الوفودُ الأخرى من الخدم الّذين بسطوا مائدةً أخرى وعليها البِطّيخ والعنب والرُّمّان والأشربة من كلّ لون... فسألتُه عن الفالوذج، فقال: «نأتيك بأشهاه، فاصبر صبرًا جميلاً». فقلت: «ما لي عنه صبر»، فردّ ضاحِكًا: «اعتبرْه يوسفَ في الحُسن وأنتَ يعقوبه». فرددتُ: «أنا لا أريدُ أنْ أفقد بصري حُزنًا عليه». وأكلتُ حتّى لم يعدْ في المعدة موضع، واستثقلتُ، فقال لي: «ما أكلتَ شيئًا!». فرأيتُ الطّيور تحوم في فضاء الأبهاء العالية، تحطّ من علٍ

وتقترب من الطّعام تنقر من العنب، أو تشرب نُغبةً من هنا أو هناك، ورأيتُ قِططًا تدخل، فتموء، وتنهشُ من الطّعام المشويّ. ثُمّ دخلتِ الكلاب، فتعجّبْتُ، ثُمّ رأيتُ الكلاب تقفز على المائدة وتأكل وما أحدٌ يمنعها، ثُمّ رأيتُ كلابًا أخرى أضخم من الأولى سوداء مُرعِبة، تُزمجر، وقد هجمتْ على أهل القصر، وبدأت بالخدم القريبين منّي، فنفضتُ رأسي وأنا مذهول، واقتربَ منّي (ابن البغويّ)، وقدّم لي صحنَ الفالوذج: «كُلْ». فقلت: «لقد أكلت». فقال: «أنتَ طلبتَ المزيد». فتعجّبتُ، ودارتْ بي الأرضُ دورةً خفيفةً، فرأيتُ النّاس مقلوبين، والمائدة قد مادتْ وتناثر ما عليها من طعامٍ وشراب، فتمايلتُ وكدتُ أسقط على رأسي لولا أنّني استندتُ إلى أحد الأعمدة، وبان لي وجه صديقي ممغوطًا ممعوطًا ليس فيه شَعرة، فضربتُ رأسي في العمود، فعادَ إليّ بعضُ الرّشد، وسألتُه: «ماذا وضعتَ في الطّعام يا مجنون؟». فضحك، وقال كلامًا لم أسمع منه إلاّ كما يسمع الغريق من هدير البحر، وفتّحتُ عيوني لكي أعرفَ طريقَ الخروج، فلمّا استبان لي سلكتُه هارِبًا لا ألوي على شيء، واستعذتُ بالله من الشّيطان الرّجيم.

وقصدتُ المسجد من جهة باب الظّفريّة، حيثُ سيكون درسي بعدَ العصر، وفي الطّريق عَرَضَ لي أناسٌ يتجمهرون في ساحة إلى سورٍ قديم، وقد صنعوا مثل الحَلَقة، فمددتُ عنقي في الفراغات بين جذوع الواقفين لأعرفَ ما يحدث، فرأيتُ ناسًا يُرقّصون القِرَدة والسّعادين، وقد لبسوا الخِرق المُلوّنة، ويُحاكون البّبغاءات، ويُعلّمون البلابل الألحان، ويُهَمْلِجون الخيل، ويحصلون من هذا الهُراء على نقودٍ، فعرفتُ أنّهم أهل اللّهو، فسللتُ عنقي، ورجعتُ إلى الوراء ومضيت.

فلمّا وصلتُ إلى مسجد الظّفريّة ودخلتُ ساحته وأنا لا أكادُ أصدّق ما حدث معي، رأيتُ في فِناء المسجد أكثر من مئةِ طالبٍ، قد انتظم كلّ خمسةٍ أو ستّة في حلقةٍ، وهم يتذاكرون، فهذه تتذاكر أشعار المتنبي، وتلك فقه أبي حنيفة، وتلك القرآن، والرّابعة أحاديث البُخاريّ، فاستراحت إليهم النّفس، وكانوا يَفَعَة، وأكثرهم في سِنّي، قد لبسوا ثيابًا خفيفة، يحرّكها النّسيم إذا هفا لنحول أجسامهم، وراحتْ جذوعهم تهتزّ على إيقاع محفوظاتهم طَروبةً، فعرفتُ أنّني أنتمي إلى هؤلاء، وقد رأيتُ على رأسِ كلّ حلقةٍ شيخًا، يُمسك بين يديه كُرّاسًا، يُتابع فيه استظهار التلاميذ لما يحفظون، وكان بعضُ الأساتذة قد طوى الكُرّاس، ووضعه تحت إبطه، وراح يختبر مع طلبته محفوظه هو الآخر، فدَسَستُ نَفْسي في حلقتي، وكنتُ قد بدأتُ أحفظ الكُرّاس الثّاني من ديوان المتنبّي، ولكنّني لم أجدْ مَنْ يُقرئني الدّيوان مثل (ابن جنّي)، فرُحت أدعو الله أنْ

يرزقني بمن يعرفُ أسرار المتنبّي كما كان يعرفها. ❞

❝ (٤)

الوجيه الواسطيّ

فلمّا مرّ عامٌ، على وفاة (أبي زرعة)، كنتُ قد أتممتُ علم الحديث، فانتقلتُ إلى أبي البَرَكات الأنباريّ، وما كان يقبل أحدًا في سِنّي ولو كان ابنَ الخليفة، ولكنّ أبي أطال الله في عُمره، كانت صُحبته بالعُلماء تشفع لي، ثُمّ إنّ يده كانتْ مبسوطةً، يُجري عليهم المال دون أنْ يطلبوا، وكان أبو البَرَكات هذا ربيبَ أبي عندما كانا طالِبَين في المدرسة النّظاميّة قبل بضعة عقود، وصِرتُ في حلقة هذا العالِم النّحويّ، فلمّا ابتدأ مجلسَه ابتدأ بمسائل الخِلاف بين النّحويّين والبصريّين، فهذَى بكلامٍ لم أفهم منه شيئًا، وهَدَر بقولٍ لم أتبيّنْ منه حرفًا، وهَدَر بجُمَلٍ دخلَ أوّلُها في آخِرها، وعرضَ مسائل لم أفقهْ منها واحدة، وكان تلامذته يُصغُون إليه كأنّ على رؤوسهم الطّير، ويتعجّبون من فَنّه في فَنّه، وأنا غارقٌ في الغُموض مثل الرّاقص على الماء، فلمّا رأى إنكاري ما يقوله، سألني: «أعدْ لي مسألة الخلاف بين البصريّين والكوفيّين في الاسم». فقلت: «وما أدراني؟». فغضب، وهتف: «فما حَمَلَكَ على أنْ تحضر مجلسي؟». فأجبتُه: «أبي». فردّ: «أنا أكبر من تعليم الصّبيان». وزفر وهو مُحنَق، ثُمّ أردف: «أتريدُون مِنّي أنْ أكون مثل مؤدّب الصّبيان في رسائل الجاحظ؟!». فسألتُه: «وماذا كان يفعل؟». فهمّ بصفعي، ونظرَ لعلّ أحدًا يفعل ذلك عنه، أو يحملني خارجَ الحلقة، ولم أكنْ أدري أنّ ذلك يُسخِطه، فهمستُ: «اغفرْ لي يا سيّدي. أنا أعرفُ ما قال الجاحظ، إنّ رسالتَه تلك، هي أوّل ما استهواني من الكتب».

وسكتّ، قبل أنْ أُكمِل: «أعانكَ الله على سَوْرة الغضب، وعَصَمَكَ من سَرَفِ الهوى، وصَرَفَ ما أعاركَ من القُوّة إلى حُبّ الإنصاف، ورجّح في قلبِكَ إيثارَ الأناة». فاحمرّ وجهه، وصرخ: «أتقصدني بهذا الكلام؟». فرددتُ: «كلا يا سيّدي، إنّما أستظهر لك الرّسالة كلّها، وهذا أوّلُ ما جاءَ فيها، وأنا أعرفُ – كما قال - أنّ المعلّمين أشقَى بالصّبيان من رُعاةِ الضّأن ورُوَّض المِهارة. فإنّ شئتَ عدلتُ إلى قوله: فمِمّا أعان الله تعالى به الصّبيان، أنْ قَرّبَ طبائعَهم ومقادير عقولهم من مقادير عقول المعلّمين... وأنا يا سيّدي صبيّ كما ترى». وتطلّع الشّيخ حوله، وقد شعرَ أنّ ورطته مع هذا الصّبيّ لا خلاصَ منها، وانتظر أنْ يُنقِذه أحدُ تلامذته الكِبار، ولكنّهم ظلّوا جامدين كالجلامد، فقال وهو ينثر يده في وجهي: «لن ينفعكَ أنْ تكونَ معنا، دونكَ أحد تلامذتي الوجيه الواسطيّ، فلْيكنْ شيخك، فإذا وصلتَ إلى مراتبنا في النحو ضممناكَ إلى حلَقَتِنا». وقمتُ من وسطهم مطرودًا، لا أدري إنْ كنتُ أستحقّ، لكنّني اعتذرتُ له: «بحقّ الله، ثُمّ بحقّ أبي، لم أكنْ أقصِدُ أنْ أُغضِبك».

لم يعاتبْني أبي على ما فعلت، إنّه يفهم ما يعتمل في داخلي، لكنّه أخذني من فجر اليوم التّالي إلى الوجيه الواسطيّ، وقال: «إنّه يحتمل كلّ الصّغار، ولن تجدَ عنده إلاّ كلّ خير». «إنّني أحبّ العِلم يا أبي مثلما أحبّ الفالوذج وأكثر». ضحك. دخلنا إلى باحةِ دارٍ يبدو عليها الثّراء، لكنّها مُوحِشة، كان في الباحة أربعة صِبيان أو خمسة، وكان بعضُهم يرمي في التّنبوك، وبعضُهم ينفخ في السّبطانة، ولم يكنْ إلى الشّيخ إلاّ صبيٌّ واحدٌ يقرأ بين يديه، فهالَني هذا اللّهو بين يدي الأستاذ، وسمع الشّيخ الوجيه وَقْع أقدامنا، فقال وهو يمدّ عنقه: «مَنْ؟». نظر إليّ أبي، ثُمّ مال وهمسَ في أذني: «إنّه أعمى». هتفتُ: «معلّم صِبيان، وأعمى، والأولاد بين يديه يلعبون؟». فردّ: «اصمتْ، إنّه خيرُ مَنْ أخذ النّحو عن أبي البَرَكات، ولو شهدَ الخليل بن أحمد أو سِيْبَوَيْهِ لَشَهِدا له». صمتّ. فيما سأل الشّيخ الوجيه هذه المرّة بصوتٍ أعلى: «مَنْ هُناك؟». فردّ أبي، ونحن نقترب منه: «أنا يوسفُ وهذا ابني». «يوسفُ مَنْ؟». «يوسفُ بن محمّد بن عليّ». فرأيتُ الشّيخ وقفَ فجأةً على قدمَيه، وفتَحَ ذراعَيه، وهشّ وبَشّ، وهتف: «أهلاً بشيخنا، ما حَمَلَكَ على أنْ تُتعب نفسَك؟ لو دعوتَنا لأتيناك». وأخذ أبي بالأحضان، فيما كان هناك سَهمٌ صغيرٌ من الخشب يستقرّ في الحائط الطّينيّ فوقَهما. ولمّا أزّ السّهم مروقًا من فوق رأس الشّيخ، خفضه، وهتف: «يا أولاد... كفى... اذهبوا إلى أهلكم... يكفي اليومَ ما أخذناه...». ردّ أحدهم: «لم نأخذ شيئًا يا شيخ». فردّ كأنّما يَستمِيلهم: «عودوا غدًا، وستجدون السّبطانة والتّنبوك، والدّبوق أيضًا بانتِظاركم»، تقاطَر بعضُهم خارجًا من فِناء الدّار، فيما راح بعضُهم الآخَر ينظر إلينا مُستطلِعًا. وجلسَ أبي إلى جوار الشّيخ على مصطبةٍ حجريّة، مفروشةٍ بوبر النّعام، ترتفع أقلّ من ذراعٍ عن الأرض يجلسُ عليها الشّيخ إذا ابتدأ التّدريس، وجلستُ إلى جانبهما، وقال أبي: «هذا ولدي عبد اللّطيف، إنّه لَطيف، وهو يُحبّ العلم وأهلَه، وقد بعثَ به...». قاطَعه الوجيه قائِلاً: «بعث به شيخُنا أبو البركات الأنباريّ، أليس كذلك؟». «بلى، ولكنْ كيفَ عرفت؟». «إنّه دأبَ على ذلك حينَ يعجزُ مع أحدهم».

وسأل أبي مُتشكّكًا: «فهل ستقبله؟». «بالطّبع، ما دمتَ أنتَ معه، فهل أستطيع أنْ أرفض؟». «إذا كان ثقيلاً عليكَ ذلك، عدلْنا عن طِيّتنا». «لا يا شيخ، لكنّ كثرةَ الصّبيان الّذين يلعبون هنا تمنعهم عن العِلم، أو تُبطِئ ذلك، فإذا كان مثلهم سيلهو، فلن يتعلّم كثيرًا، وإذا سَمِع منّي، تعلّم ما أرادَ وزيادة، الأمر مَنوطٌ به». ونظرَ أبيّ إليّ، فقلت: «أنا أريدُ أنْ أتعلّم».

كان الشّيخ عَزَبًا، أو ماتتْ امرأته، لا أدري، ولكنّه لم يكنْ أحدٌ في البيت معه، وكان البيتُ مُظلِمًا إذا دخلتَه، لأنّه لا نوافذ له، ولا تدخل الشّمس إلاّ من بابه وقتَ الشّروق، فإذا تَخَطّتِ الشّمسُ وسط القُبّة من السّماء حلّ الظّلام في البيت مُبكّرًا، مع أنّه ما زال بينها وبين الغروب مسافةٌ، وقال لي أبي: «البيتُ الّذي لا امرأة فيه مُوحِش، مُظلِم؛ ألا ترى إلى بيت الشّيخ الوجيه؟».

وكنتُ أصلّي الفجر في مسجدنا كُلّ يومٍ فإذا بزغَ قرصُ الشّمس، عدوتُ إلى بيت الشّيخ الواسطيّ، وكنتُ أصلُ في كلّ مرّةٍ لاهِثًا، فلا أجدُ أحدًا من الصّبيان الآخرين، وكانوا يأتون قُبيل الظّهر، فكان حظّي في التّعلّم من طلوع الشّمس إلى الظّهر عظيمًا، ودأبتُ على أن أنقف الحصى بين يدَيه قبل أنْ أدخل الباب لأُعلِمه بمجيئي، فكان يقول من خلفِ الباب: «يا

عبد اللطّيف ادخلْ ولا تنقف الحَصى» فأدخل وبيدي مزيدٌ من الحصى فأنقفَ به الباب، فإذا برز منه، طارتْ حصاةٌ فأصابتْ وجهه، فأُطرق خَجِلاً لا أدري ما أفعل، فيهتف: «لا عليك». وكنتُ أرى أنّه غير لائقٍ بالتّدريس، ولا بأنْ آخذ عنه، ونقِمتُ على طردِ أبي البركات لي، وتغيّبْتُ في البدايات أكثر من مرّة، وكنتُ أختلق الأعذار لذلك، فأقول مرّة إنّني مريض، ومرّة إنّ سلطان النّوم قد غلبني فلم أستيقظ، وأقول ثالثةً إنّني تعثّرتُ في الطّريق، فوقعتُ فجُرحتْ ساقي، وأقول رابعة إنّ أمّي أخذتْني إلى سوق البَزّازين، وغيرها من الأعذار، وكان يحتمل ذلك وهو غيرُ مُكرَه، ولا أدري لماذا احتمل صبيًّا مثلي، وقال لي ذات مرّة: «ألم يأنِ لعبد اللّطيف أنْ يكون لطيفًا كما قال أبوه؟». فسألتُه: «كيف؟». «يأتي درسَنا من دون أنْ يعتذر». فلَيّنَ ذلك قلبي، ثُمّ إنّه عرفَ من أبي أنّني أحبّ الفالوذج، فكان يأتيني به، فأحببته، وأحببتُ درسَه، وأقبلتُ على العِلم، فأخذَ هو كذلك بكلتا يديه، وجعل يُعلّمني من أوّل النّهار إلى آخره بوجوهٍ كثيرةٍ من التّلطّف، وكانتْ له حلقة بمسجد الظّفريّة فانتقلتُ إليه هناك، ثُمّ إنّه كان يقرأ درسَه ويشرحه للتلاميذ، فإذا فرغ خَصّني من دونهم بشرحٍ أَزْيد، ثُمّ إذا خَرَجَ من المسجد إلى داره، قدْته أنا إليها، فكان يُذاكر معي الدرّوس في الطّريق، فإذا بلغْنا داره، أخرجَ الكتبَ الّتي يشتغل بها، ودفعَ بها إليّ فأحفظُها ويحفظها، ولم يكنْ ذلك لأيّ تلميذٍ سِواي، ثُمّ صِرتُ أرافقه بعد بضعة شهورٍ إلى درسِ الشّيخ أبي البركات الأنباريّ، فلم يكنْ يملك إذ يراني معه أنْ يطردني، فكنتُ أسمع تجادلهما، وتحاورهما، ونقاشاتهما، فأحفظُ وأعي، فإذا انقلبَ من درسِ الشّيخ كنتُ أنا رفيقه، وقائده في الطّريق إلى بيته، وكان الشّيخ أعجوبة في اللّغات، يُحسِن الفارسيّة والتّركيّة والحَبَشِيّة والرّوميّة والأرمنيّة والزّنجيّة، ولا أدري كيفَ تسنّى لأعمى أنْ يُتقن هذه اللّغات كُلَّها، واستملتُ قلبَه فعلّمنيها، ولم يجدْ في ذلك كثيرَ عَناء، وكنتُ تلميذه الأثير، وكان إلى ذلك كلّه شاعرًا، وكثيرًا ما أنشدنا من شعره، مُترنّمًا:

ما مَرّ يومٌ ولا شَهرٌ ولا عِيدُ

فاخضرّ فيه لنا مِنْ وَصْلِكُم عُودُ

عُودُوا تَعُدْ بِكُمُ الأيّامُ مُشرِقةً

وإنْ أبيتُم، ففي الأسقامِ لي عُودُوا

وكان صَبورًا صبرَ الجِبال، لم يُحرّكْه لغضبٍ صغيرٌ ولا كبيرٌ، وقد حدثَ معه حادثةٌ شبيهةٌ بتلك الّتي حدثتْ لمعن بن زائدة في اختبار حِلمه، فقد جاءه نَجّارٌ أعرفُه وأعرفُ أنّه لا يفقه شيئًا، وكنتُ شاهِدًا على ذلك، فدخل النّجّار وسلّم عليه، ثُمّ سأله عن مسألةٍ نحويّة، فأجابه الشّيخ أحسنَ جواب، فقال له النّجّار: أخطأت، فأعادَ الشّيخ الجواب بألطفِ من سابِقه، وسهّل طريقته، وبيّن حقيقتَه. فعادَ النّجّار إلى قوله الأوّل وزاد فيه، فقال له: أخطأتَ أيّها الشّيخ، والعَجَبُ مِمّنْ يزعُمُ أنّكَ تعرف النّحو ويُهتدى بكَ في العُلوم، فهل هذا مبلغُ معرفتك؟ فلاطفه شيخُنا ونحن بين يدَيه في عَجَب، وقال له: يا بُنيّ لعلّكَ لم تفهم الجواب، فإنْ أحببتَ أعدتُه لكَ مرّة ثالثةً بأسهل وأبينَ من المرّتين الفائتتَين، فقال له النّجار: كذبتَ، لقد فهمتُ ما قلتَ، ولكنْ لجهلِكَ تحسبُ أنّني لم أفهم. فقال له الشّيخ وهو يضحك: قد عرفتُ مُرادَك، ووقفتُ على مقصودك، وما أراكَ إلاّ غُلِبت، فأدِّ ما بايعْتَ عليه مع رُفقائك، فلستَ بالّذي تُغضِبني أبدًا.

وبعدُ يا بُنيّ فقد قيل: إنّ بَقَّةً جلَسَتْ على ظهر فيلٍ فلمّا أرادتْ أنْ تطير قالتْ له: استمسكْ أيّها الفيل فإنّني أريدُ الطّيران، فقال لها الفيل: والله يا هذه ما أحسستُ بكِ لَمّا جلسْتِ، فكيفَ أستمسِكُ إذا طِرتِ؟ والله يا ولدي ما تُحسِن أنْ تسأل، ولا أنْ تفهمَ الجواب. فامضِ إلى سبيلك وسلّمْ على رُفقائك.

ولقد كان الشّيخ إذا بدأ مسألةً نحويّة، عطفَ عليها أخرى فِقهيّة، فإذا الفقهيّة تُخرجه إلى آية من كتاب الله، فإذا الآية تُدخِله في البلاغة، فإذا البلاغة تستدعي بيتًا من الشّعر، فإذا البيت يحضُرُ معه قائِلُه، فإذا القائل يتحدّثُ عن نفسه، ونعرفُ نسبَه ودرجته وطبقَتَه في الفُحول... ولعلّ هذا الاستِطراد، والدّخول من بابٍ والخروج من آخَر كما كان يفعل الجاحظ هو الّذي قلّل عدد تلامذة الشّيخ الواسطيّ، ولكنّه كان ممتعًا بالنّسبة لي، ولقد طوّف بي في أفانين الأدب والشّعر والنّحو والصّرف واللّغات والفِقه وحتّى الفلك حتّى شممتُ من أزاهيره كلّ عابقٍ شذيّ.

ثُمّ إنّ الشّيخ اتّخذني ابنًا، وعَجِب لسرعة فهمي وحِفظي، واعتنى بي كما لو كنتُ كنزه الّذي أفنى عمره باحِثًا عنه، إلى أنْ حدثَ ما قلبَ المُعادَلة، إذ ظهر تلميذٌ آخر فاز بقلب الشّيخ الأعمى مثلي أو أكثر، وبدأتُ أغار منه لكثرة عنايته به، واحتِماله على قلّة إدراكه، ودخل القلبَ ما دخل، وأنا يومئذٍ ابن خمسةَ عشر ربيعًا، ولا أدري ما الّذي حَمَله على احتِماله، كلّ ما يُميّزه أنّه لم يكنْ يلعب التّنبوك في فناء البيت كما يفعل بقيّة الصّبيان، ثُمّ تنافستُ وإيّاه في الحِفظِ، وتسابقْنا في ذلك عند شيخنا الأعمى، فاستمع لنا، وأُعجِبَ بنا معًا، ولكنّه حَكَمَ لي، كان ذلك التّلميذ هو (ياقوت الحمويّ)، ونشأتْ بيننا بعدَ ذلك صداقةٌ وطيدة، لم يقطعها غيرُ الرّحيل عن بغداد، وبغداد إذا قُطِعَ وُدُّها، قُطِعَ وُدّ أهلها؛ وهل تصفو على كَدَرٍ نُفوسٌ؟!

"

" (٥)

سنواتُ الصَّفاء

وبغداد تُحبّ الحياة مثلَنا، ونَهرَاها طَرُوبان بَكّاءان، ولو أصختَ إلى حَمامِها لشَجاكَ ما شَجا أبا فِراس وهو في أسْرِه حين شَدَا: «أقولُ وقد ناحتْ بِقُربي حَمامةٌ». ولو نظرتَ إلى نِسائِها لفَتَنكَ منها ما فَتَنَ (مسكين الدّارميّ)، حينَ قال: «قُلْ لِلمليحةِ في الخِمارِ الأسودِ». ولو أبصرتَ الشّمس وهي تتخلل خلفَ عذوق النّخل، لظنَنْتَها حسناءَ تختفي خلفَ الجذوع إذْ عايَنَتْها أحبُّ العيون وأَشْوَقُها. وكثيرًا ما غنّيتُ في المساءات وأنا عائدٌ من أحدِ الدّروس: «رُبّ وَرقاءَ هَتُوفٍ في الضُّحى...».

كنتُ في العاشرة لمّا رأيتُ بغداد تأخذُ زينتَها عند كلّ محلّة، وتتزيّا عند كلّ دربٍ، فسألتُ أبي عن ذلك، فقال: إنّ خُطبة العاضد آخر خلفاء الفاطميّين قد قُطِعتْ، وإنّه صارَ يُخطَب للخليفة العبّاسيّ المستضيء بأمر الله». فسألتُه: «وهل تتزيّن بغداد كلّما غيّرتْ خليفة؟». فضحك. وقال: «إنّه صِراعٌ بين مذهبَين يا بُنَيّ». «وهل الصّراع ينتهي إذا تغيّر الدُّعاء في الخطبة يا أبي؟». فضحك من جديد، وقال: «عندما تكبر ستعرف». وسألتُه: «إنْ كانت الأمور تنعقد على الخطبة فما الّذي غيّر رأي الخطيبِ في أنْ يخطبَ لفُلانٍ دون فُلان؟». فلم يجب أبي، وسألتُه من جديد: «فإنّ تغيّر الدُّعاء في الخطبة فهل يتغيّر الخطيب؟ أم أنّ الخطيب يخطب لفلان أو لعلاّن كما يُؤمر؟». فردّ بطويلِ صبرٍ يكاد ينفد: «كما يُؤمر يا بُنيّ...

كما يُؤمَر». فسألتُه: «وما سبب تغييره يا أبي؟» فقال: إنّها قصّة طويلة». فقلتُ: «وإنّ الطريق إلى المسجد طويلةٌ فقُصّها عَلَيّ».

قال أبي: «إنّه مَنام، رأى الخليفة العاضد في منامه أنّ عقرب خرجتْ من مسجد الشّافعيّة بمصر، وقطعتِ الطّريق من المسجد إلى القصر، وتسلّلت في الرّدهات حتى وصلتْ إلى فِراشه ولَدَغَتْه، فذُعِر، ودعا المُعبّرين ليُفسّروا منامه، فإنّ ملوكَ مِصر يا بُنيّ منذُ أنْ كانوا، يحكمون بما يحلُمون، ويقضون بما يُقضَى لهم في المَنام، فقال له المُعبّرون: يخرج من ذلك المسجد مَنْ يقضي عليه، ويُنهي خلافتَه، فأصاب الهلعُ الخليفةَ الشّابّ، وقال لرئيس شُرَطَتِه ائتني بِمَنْ يقيم في ذلك المسجد، فأتوه بشيخٍ مسكينٍ متصوّفٍ زاهدٍ ليسَ له من الدُّنيا إلاّ كراريسه يُدعَى (نجم الدّين الخَبُوشاني)، فسأله الخليفة عن مقدمه، ومن أينَ جاء، وعن مولده، وعن سبب إقامته بالمسجد، فقال له إنّه من (خَبُوشان) من قُرى (نيسابور) وبها مولده، وإنّه مُقيمٌ في تربة الشّافعيّ يدرّس الفِقه، وسأله عن أمورٍ أخرى لعلّها تكشف النِّقاب عن حقيقته، فأجابه (الخَبُوشانيّ) عن كلّ سؤال، فرآه صادِقًا مِسكينًا، وأضعفَ من أنْ يناله بِشَرّ، فأعطاه مالاً، وصرفَه، وقال له: «ادعُ لنا يا شيخ». فلمّا خرج، سكبَ الدّراهم على باب القصر، ورَكَلَها بنِعاله. لم تمرّ على تلك الرُّؤيا إلاّ أشهر حتّى استفتى صلاحُ الدّين الأيّوبيّ الشّيخَ (الخَبُوشانيّ) ضمن مجموعةٍ من الفُقهاء في أمر عزل الخليفة العاضِد وإقامة الخُطبةِ للخليفة العبّاسي، فأفتى بذلك، وبالغ في الفُتيا وصرّح بتعديد مساوئهم، وسلب عنهم الإيمان. وهكذا تحقّقتْ رُؤيا العاضد، وأُزيح عن الخِلافة ومات بعدَها مريضًا». قلتُ لأبي: «قِصّةٌ تُروَى». ظلّ أثرَ القِصّة يعمل في عقلي وتفكيري، حتّى هذيتُ بها، وهكذا كلّما تأثّرتُ بشيءٍ دار في خَلَدي حتى برز لي في كلّ شيءٍ، في اللّيلة نفسِها حلمتُ حُلُمًا شبيهًا بالّذي حلمه العاضد، رأيتُ في المنام أفعى تخرج من أكبر مقبرةٍ في القاهرة، وتطوفُ شوارعها وأحياءَها تلدغُ كلّ مَنْ تمرّ به، حتّى لم يبقَ بيتٌ في القاهرة إلاّ دخلتْه، ورأيتُ رجلاً قيل لي إنّه صلاح الدّين، تلدغه أربعَ مرّات، ولكنّه لا يموتُ من حينه، ويموتُ فيما بعدُ مريضًا. وصحوتُ من النّوم مُفزّعًا، فهُرِعَ إليّ أبواي يسقياني حتّى يذهبَ عنّي الرّوع، فلمّا أخبرتُهما الرّؤيا رأيتُ الفزع في عين أُمّي، ولكنّ أبي قال لها: «إنّني قصصتُ عليه رؤيا العاضد فهو مُتأثّر بها».

أقمتُ بمدرسة الظّفرية زمنًا، كان زمنُ إقامتي فيها ثلاثة أعوامٍ، فيهنّ أخذتُ من كتب الوجيه الواسطيّ كلّ ما كتبه أبو البركات الأنباريّ فحفظتُه، حفظتُ (اللُّمَع) لابنِ جنّي في ثمانية أشهرٍ، أسمعُ كلّ يومٍ المتنَ والشّرح، ثُمّ أنقلبُ إلى بيتي فأطالع شرح (الثّمانينيّ الضّرير) له، وشرح الشّريف (عمر بن حمزة)، وشرح أبي الفتح (ابن بُرهان)، فلمّا حفظتُ ذلك كلّه، صرتُ أشرحُها لِمَنْ طلبَ العِلم أو سأله. وكانوا يقولون: يحفظ ثلاثين كُرّاسًا لشروح (اللُّمَع) وهو في هذه السّن؟». فاستعظَموا ذلك مِنّي، فَزَهِدوا بِما عندي، وكان عندي كثير لو تدبّروا. حتّى أخذني أبي إلى المدرسة النّظاميّة، المدرسة الكبرى، وكنتُ في السّادسةَ عَشْرَةَ، وكانتْ بعيدةً في كلّ شيء، في الطريق، والشّأو، والأساتذة.

وحفظتُ آنئذٍ (أدب الكاتب) لابن قُتَيبة حفظًا مُتقنًا؛ أمّا النّصف الأوّل ففي شهور، وأمّا تقويم اللّسان ففي أربعةَ عشرَ يومًا؛ لأنّه كان أربعةَ عَشَرَ كُرّاسًا، ثُمّ حفظتُ له (مُشكِل القرآن)، و(غريب القرآن)، وكلّ ذلك في مُدّة يسيرة.

وكبرتُ، كبرتُ في حبّ بغداد، وإنّها لَتُحَبّ، ومَنْ عرفها معرفتي تعلّقَ بها، وإنّ لَها حِبالاً تشدُّك إليها بوثاقٍ لا ينفصم، وبغداد ملءُ العين، فأينما وجّهتَ وجهكَ تَرَها، وأينما سارتْ بِكَ الخُطا قادَتْكَ إليها، وحيثُما حلّ الهوى تحلّ، وحيثُما يرتحل الجَمال ترتحل، إنّها بغدادُ يا أبي، وهل أتاكَ نَبَؤُها؟!

وكنتُ أقطعُ المسافةَ إلى المدرسة النّظاميّة على بغلةٍ لنا، وكانتْ بغلةً بلقاء جميلة، اعتنى بها خدمُنا وزركشوها، فكانتْ محطّ أنظار اللّصوص، وتلك قِصّة أَسِيّة، لولا أنّ اللّطيف لطف بعبد اللطيف للحقتُ بشيخي أبي زرعة.

ولصوص بغداد ظريفون مثلها إذا أرادوا، لم يكنْ لأحدٍ أنْ يُصبح في بغداد لِصًّا، فبغداد لا تقبل السّقطَ من النّاس فتجعلهم لصوصًا، كان لصوص بغداد يتمتّعون بقوّة في الجسم اكتسبوها من تدريبٍ طويل، وبمروءةٍ يعزّ نظيرها عند أهل المروءة، وكان فيهم فُقَهاء، وأهل علمٍ ورأي، ولقد زادهم الله كما زاد (طالوتَ) بسطةً في العِلم والجِسم. فإذا وقعوا في يدِ الشُّرَطة استهانوا بالجلد، وتبارَوا في استعذاب السياط، ولهم قدرةٌ عجيبةٌ على تحمُّل الألم، حتى قالوا في ذلك: «لو أنّ أحدهم ادّعى النبوة وجعل معجزته الصّبر على الضّرب بالسّياط لفَتَنَ النّاس». وما زالتْ إلى اليوم تُروى قصّة أحمد بن حنبل مع (أبي هيثم الطّرار) اللّصّ، حينما سُجِن أيّام فتنة خَلْق القُرآن، إذْ لَمّا مُدّد ابنُ حنبل لِيُجلَدَ بالسياط، إذا برجل يجذب ثوبه من خلفه ويقول: يا ابن حنبل، أما تعرفني؟ فقال ابنُ حنبل: لا، فقال: أنا اللّصّ الطّرّار أبو الهيثم، ضُربت ثمانية عشر ألف سوطٍ تَحمّلتُها من أجل الدنيا ومن أجل الشّيطان، أفلا تصبر أنتَ لطاعة الرّحمن؟».

وأمّا فِقهُهم فعميق؛ فقد استوقف لصٌّ أحدَ أصحاب البساتين وأراد أن يسرقه ويأخذ ملابسه، فقال له صاحب البستان: أمهلْني حتى أصل إلى بيتي ثم أُرسل لك ملابسي، وأُقسمَ على أنّه صادق، ولن يحنثَ بِقَسَمِه. فقال له اللّصّ: إنّا رَوَينا عن الإمام مالك أنّه قال: لا تلزم الأيمانُ التي يُحلَف بها للّصوص. فقال له صاحب البُستان: فأحلف ألاّ أحتال في يميني هذه؛ فقال: هذه يمين مُركّبة على أَيْمان اللصوص، ثُمّ إنّني راجعتُ أمرَ اللّصوص من عهد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وإلى وقتنا هذا فلم أجدْ لِصًّا أَخَذ بـدَيْنٍ نسيئة، وأنا أَكْرَه أن أبتدع في الإسلام بِدعةً يكون عليّ وزْرُها ووزْرُ مَنْ عمل بها بعدي إلى يوم القيامة، اخلعْ ثيابك. فقام صاحب البُستان فخلعها ودفعها إلى اللّصّ الفقيه، فأخذها وانصرف!!

ولقد كان اللّصوص يكتبون، وبعضُ مَنْ يزعمون العِلم لا يكتبون مثلهم، وكان بعضُهم يَعِظُ أصحابه، ويضع لهم شريعةً يتّبعونها، ويتوعّد كلّ زائغٍ عنها، فلقدْ سمعتُ أنّ أحدهم جمَعَ اللّصوص، فقال: «اضمنوا لي ثلاثًا أضمنْ لكم السّلامة: لا تسرقوا الجيران، واتّـقوا الحُرُم، ولا تكونوا أكثرَ من شريكٍ مُناصِف، وإنْ كُنتم أَوْلى بما في أيديهم لِكَذِبهم وغِشّهم وتَرْكِهم إخراجَ الزّكاة وجُحودهم الودائع».

فأمّا قِصّتي مع اللّصوص، فقد كنتُ ذاهِبًا فجر أحدَ الأيّام إلى المدرسة النّظاميّة لدرس الشّيخ أبي البركات، فبرز لي ثلاثةٌ عند منعرجٍ بعد أنْ خرجتُ من درب الفالوذج، وجاوزت باب الظّفريّة، وكانتْ بقيّةٌ من عتمةٍ تسترُهم، فهلعتُ أوّل ما سمعتُ أحدهم يصيح بي أنْ أتوقّف، فجذبتُ عنان البغلة فجمدتْ مكانها وجمدتُ فوقَها، ثُمّ تضاحَكوا بينهم: «صبيّ، ويركبُ بغلةً بلقاء، إنّكَ لغَنيّ». وتذاكروا بينهم أنْ يختطفوني ويُطالبوا أهلي بِفِدية، وبينما هم كذلك، أمروني أنْ أترجّل، ففعلتُ، ثُمّ أمروني أنْ أُعطيهم ما معي من مال، وكان معي صُرّة لم أحملْ مثلَها إلاّ هذا اليوم المشؤوم، فدفعتُها إليهم، ثُمّ أمروني أنْ أخلعَ ثيابي، فتردّدتُ، فلمّا أشهرَ أحدهم السّيف في وجهي، سارعتُ إلى ذلك، وبينما أنا أخلعُ قميصي، إذ عنّ ببالي أنْ أُداري خوفي بما أحفظُ، فرحتُ أقرأ بعضَ الآياتِ، فانتبه إليّ أحدهم، وقال لي: «فما معك من القرآن؟». قلتُ: «كُلّه». فقال: «غنيّ، ويحفظُ القرآن؟!». قلتُ: «نعم». قال: «فاقرأ». فقرأتُ حتّى قال لي: «حسبُك». فتوقفْتُ. فأمرني أنْ أُبقي على ثِيابي، ثُمّ قال لي: ما معك من شِعر اللّصوص؟ فقلتُ له: «معي من شِعر السُّلَيك وعُروة ويسيرٌ من شِعر الأُحيمر السّعدي». فقال: «وما تحفظ للأُحَيمر؟». قلتُ: «قوله:

عوى الذّئبُ فاستأنستُ بالذِّئبُ إذْ عوى

وصَوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ»

فردّ إليّ مالي، وقال: «خُذْه فإنّكَ تستحقّه» فهدأتْ نفسي، وطمعتُ في أنْ يُعيدوا إليّ بغلتي، فكأنّه رأى ذلك في وجهي، فضحك، وقال: «أمّا البغلة فَلَنا، ولو كنتَ هَرِمًا لتركناها لك تُبلّغك مقصدك، ولكنّكَ فتًى يافع، وتُحسن أنْ تمشي». فأخذوا البغلة وذابوا على ذُبالة اللّيل المُنطفِئ!

فلمّا عدتُ ذلك اليوم إلى البيت، وقصصتُ القِصّة على أبي عزَمَ أنْ يكتريَ لي دارًا قريبةً من المدرسة النّظاميّة حتّى لا يقع ما وقع مرّة ثانية، وكانت الدُّور القريبة من المدرسة غاليةً لكثرة مَنْ يطلبون القُرب من المدرسة، ولو بحثتَ عن الدّور في بغداد في أيّ موضعٍ غير ذلك الموضع لما عَييت، فقد كان سهلاً في بغداد أنْ تنتقل من ضِفّة إلى ضِفّة، ومن دارٍ إلى دار، ومن سِكّة إلى سِكّة، ومن شارعٍ إلى شارع، ومن زُقاقٍ إلى زُقاق، كان أهل بغداد أهل حياة، وكانوا أهل حَرَكة، وأمّا بجوار المدرسة النّظاميّة فكنتَ تدفع في الدّار ما تدفعه في عشر دورٍ غيرها. ولكنّ أبي – رحم الله أبي – لم يتوانَ في الإسراع لإيجاد دارٍ لي هناك، وكان يُمازحني: «وَمَنْ يَخطِبِ الحسناءَ لم يَغْلُه المَهرُ».

واكترى لي أبي دارًا مفتوحةً على السّماء، فِناؤها واسِع، وخيّرني بين أنْ أعيشَ فيها وحدي، أو أضمّ إليها مَنْ طابتْ صُحبته من طلاّب المدرسة النّظامية، فاخترتُ أنْ أكونَ وحيدًا، وكانت الدّار مملُوّةً بالكتب، المنسوخ منها بخطّ يدي، أو المُشتَرى من دار الكتب في رباط المأمونيّة فيما يُعينني على أنْ أُتِمّ ما أنا فيه.

وكانتْ خلوتي في البيت خيرَ رفيقٍ لي، ومكثتُ في الدّار أربع سنين، كانت سنيّ الصّفاء، والجلوة، والحِفظ والمُذاكرة، ففي هذه الدّار الأنيسة حفظتُ الإيضاح لأبي عليّ الفارسيّ في بضعة شهور، ولازمتُ مُطالعة شروحه وتتبّعتُه التّتبّع التّامّ حتّى تبحّرتُ فيه، وجمعتُ ما قالَه الشُّراح، ومكتبتي يومئذٍ تربو، وأمّا التّكملة فحفظتُها في أيّامٍ يسيرةٍ، كلّ يومٍ كُرّاسًا.

ولقد كان هناك في الشّارع الّذي يؤدّي إلى المدرسة مطاعم كثيرة، وكان فيها أكلٌ كثير، وأصنافٌ شَتّى، وكان الطّعام الّذي يُطبَخ في تلك المطاعم يتنوّع بتنوّع الطّلبة، فكان فيه الطّعام البُخاريّ والهنديّ والعربيّ والشّاميّ والمصريّ والمغربيّ، وكان يُؤكل في المطعم نفسِه في أوقات الفُسحة ما بين الدّروس الّتي تكون عادةً بعد صلاة الظُّهر، وأمّا أنا فقد كان يُحمَل الطّعام إلى بيتي، واكتريتُ لذلك خادِمًا يأتيني به، وساعدَني أنّ البيت قريبٌ من المدرسة.

وفي المساء بعد أنْ نُصلّي العصر في المدرسة، كان أكثرنا يعود إلى بيته، فبيوت الكثيرين في أحياء بغداد البعيدة، وبعضُها في الأكوار، أو في الأصعدة. وكان هناك نفرٌ قليلٌ يبقى حتّى يُصلّي العِشاء الأولى قبل أنْ يغادر أبهاء المدرسة، وهؤلاء كانوا يقطنون في البيوت القريبة، وإذا لم يُبقِني درسٌ آخذٌ فيه عن شيخٍ في المدرسة، فإنّني كنتُ أعودُ إلى الدّار، فأجلس في مكتبتي، وأحيانًا أخرج إلى الفِناء قبل أنْ تغرب الشّمس، فأقرأ في الكتاب الّذي أنا فيه، فإنّني آليتُ على نفسي مُذ بدأتُ ألاّ أخرجَ من كتابٍ حتّى أستظهره، فإنْ كنتُ مُكِبًّا على دراسةِ كتابٍ وتفهّمه فإنّني لا أنشغل بآخر معه، ولا أصرفُ الزّمان وإن اتّسع إلاّ معه، ولم أكنْ لأشتغل بعِلمَين في آنٍ واحدٍ، فإذا فرغتُ من أحدهما، صرفتُ هِمّتي للآخَر.

ثُمّ كانتْ تلك المساءات الجميلة، تذهبُ في مطالعة الكتب المبسوطة والمُختَصرات، وواظبتُ على دراسة كتاب (المُقتَضب) للمُبرّد، وكتاب (ابن درستويه)، وكنتُ أثناء ذلك لا أغفل عن سماع الحديث - إذا أسعفني الزّمان - والتّفقّه على شيخنا (ابن فضلان) بدار الذّهب وهي مدرسةٌ مُعلّقة، بناها (فخر الدّين بن المُطّلب).

وكان بعضُ شيوخ هذه المدرسة يروون هذا الحديث: «نهرُ النّيل نهرُ العسل في الجنّة، ونهرُ دجلةَ نهر اللّبن في الجنّة، ونهرُ الفُرات نهرُ الخمر في الجنّة، ونهرُ سيحان نهر الماء في الجنّة. فأطفأ الله نورهنّ لِيُصيّرهنّ إلى الجنّة». ولم أكنْ أجد له ❞

❝ إسنادًا يُصحّحه، فأنكرتُه على راويه، فَنَهَرني، وابتدرني بفُحش القول، فلزمتُ الصّمت، فهيّج عليّ النّاس، فأخذوا بتلابيبي حتّى كدتُ أختنق، وكنتُ رقيق العُود، فلمّا رآني شيخُهم، صاح بهم: «دَعوه، فإنّني أعرفه وأعرفُ أباه، وإنّه تلميذ أبي زَرعة»، فاستنقذني من بين براثنهم، فخلّوا سبيلي، ولمّا استوضح الأمر، قال: «يا بُنيّ، إنّما المُراد من كَوْنِ هذه الأنهار من الجنّة أنّ أصلها منها، كما أنّ أصل الإنسان من الجنّة، فلا يُنافي الحديثُ الحقيقةَ المعلومةَ المُشاهدةَ من أنّ هذه الأنهار تَنبعُ من مَنابعها المعروفة في الأرض، فإذا لم يسلمْ لك ذلك، فالحديث من أمور الغيب التي يجب الإيمان بها، والتسليم بخبرها». فلم أقتنعْ! ❞

❝ (٦)

الأذى يذهب والعِلم يبقَى

إنّ (بَغْ) صَنم و(دَاد) أعطاني، بلغة أهل فارس، فلمّا أرادَ أنْ يقول: أعطاني الصّنمُ هذا، قال: (بَغْ داد)، فصارتْ (بغداد)، فعلى أيّ شيءٍ تُحبّها؟ خَلاكَ ذَمّ؛ أُحبّها لأنّها هي؛ لأنّها بغداد، المدينة الّتي صنعت الحلم، والمدينة الّتي طارتْ بي بعيدًا. ولكنْ كيفَ تُحبّها، وتنوي أنْ تُسافر بعيدًا عنها؟ أُسافر من أجل أنْ أملأ العقل والفؤاد بأثقال العلم وأعودَ لها عذوقًا في نخلها، وماءً في نهرها، وديمة في سمائها، سيقولون هذا عبد اللطّيف البغداديّ، وأكرمْ بها من نسبة!

كَفَى بِبَغدادَ أنّ اللهَ باركَها... وأنّ فيها مِنَ الجنّاتِ أنهارَا... حُوريّةٌ مِن أعالِي الخُلدِ نازلةٌ... لِتَفْتِنَ النّاسَ رُهبانًا وأَحْبارَا... كأنّها حِينَ تُبدِي لِي مَحاسِنَها... (راعِيلُ) تُبدي إلى (الصّدّيقِ) أَوْطارَا... وهل يُقالُ لِمَنْ عَزّتْ نَظائِرُهُ... إلاّ (تبغددَ)، أو للمُنتمِي دارَا؟!

وسُقاة بغداد ظُرفاء حُكماءُ كلصوصها، ولقد كانوا يبيعون الماء، ويُشيعون الأمثال، ويسقون ذا الحاجة، ويُنشِدون الشّعر، ويقصّون الحكايا، ويغنّون الألحان، وكانوا يحملون الماء في عِدلَين، مربوطَين بحبلٍ إلى طَرفَي عصا، والسّاقي يضع العَصا عل عاتقه، ويمشي وهو واضِعٌ ذراعَيه على طَرفَيها يُنادي في الأحياء وفي الأزقّة على مَنْ يشتري الماء، وكان الماء في بغداد كثيرًا، ولكنّ أكثر السُّقاة كانوا يسقون تفكُّهًا، وكانوا يأتون به من دِجلة، وماء دِجلة إنْ سَلِمَ من لوثة البشر فهو صافٍ رقراق، إذا انسكبَ في الأفواه وجدتَ فيه عذوبةً كأنّه الكوثر الّذي إذا شربْتَ منه شربةً واحدةً لا تظمأ بعدَها أبدًا، وإذا نفذَ فيه شُعاع الشّمس رَقّ، فعادَ في البِلّور بِلّورًا. وكانت مياه الشُّرب تجري في مجارٍ مُبَلَّطة من أسفلها بالصّاروج الأحمر ومعقودة من أعلاها بالآجُرّ، وتدخل المدينة في شوارع الأرباض جاريةً صيفًا وشتاءً، في هندسة لا ينقطع هواؤها. وبُنِيتْ قناطرُ عِدّة بالآجُرّ والجِصّ وتكاثرت أحواض مياه السبيل. أمّا النّاس فكانوا يحفرون الآبار في بيوتهم، أو ينقلون الماء من دجلة على دوابّهم. وكان أهل الله منهم يَسقُونه في الجوامع ابتغاءَ وجهه.

ولقد قال ذو النّون المصريّ: «مَنْ أرادَ أنْ يتعلّم المروءة والظَّرْف فعليه بسُقاة الماءِ في بغداد. قيل له: وكيفَ ذاك؟ فقال: لَمّا حُمِلتُ إلى بغداد رُمِيَ بي على باب السُّلطان مُقيَّدًا، فمرّ بي رجلٌ مُتّزِرٌ بمنديلٍ مِصريّ، مُعتمٍّ بمنديلٍ دَبيقيّ، بيده كِيزانُ خَزَفٍ رِقاقٌ وزُجاجٌ مخروط. فسألتُ: هذا ساقي السُّلطان؟ فقيل لي: لا، هذا ساقي العامّة! فأومأتُ إليه: اسقِني. فتقدّمَ وسَقاني، فشممتُ من الكُوز رائحةَ مسك، فقلتُ لمن معي: ادفعْ له دينارًا. فأعاطاه الدّينار. فأبى, وقال: ليسَ آخذُ شيئًا. فقلتُ له: ولِمَ؟ فقال: أنتَ أسيرٌ، وليسَ من المروءة أنْ آخذَ منكَ شيئًا».

ثُمّ قال لي أبو البركات: إذا أنهيتَ حِفظَ أسرار العربيّة، فيُستَحسنُ أنْ تحفظَ ديوان المتنبيّ». فقلت له: «إنّني أحفظُ الكُرّاس الأوّل». فقال: «وما يمنعكَ من أن تُكمِله؟». فقلتُ: «لا شيءَ، ولكنّني أريدُ شيخًا له». فقال: «إنّ أباكَ يعرفُ أبا البقاء العُكبَريّ الضّرير وأنا أعرفه». فقلت: «إنّ أبي لا يعرفُ إلاّ الأضرّاء!». فلم يجدْها دُعابةً، وقال لي: «إنّ عقلهم أصفى من عقولنا». فسألتُه: «لِمَ؟». فقال: «لأنّنا نُسكِن الخراب في عقولنا بما نرى وهم لا يفعلون، ثُمّ إنّهم استعاضوا عن البصر بالبصيرة، فَقَويتْ». فقلتُ: «وما عنده؟». قال: «هو أعلم النّاس بشعر المتنبّي اليوم، فاجعلْ أباكَ يسوقُكَ كما يسوقُ الدّابّة إليه». فلم يُعجبني قولُه الأخير، ولكنّه شيخي، وإنّ أذاه يُغتَفر إلى جانب علمه الزّاخر، والأذى يذهب والعِلم يبقَى.

فحدّثْتُ أبي، فقال: «نِعْم ما أشارَ به عليك، وإنّني أعرفُه، ولكنّني لا أريدُكَ أنْ تحضر مجلسه في المسجد، فإنّ التّلاميذ كثيرون بين يدَيه، ولن يصرفَ قلبَه إليكَ وأنتَ بين العشرات، فإنْ ذهبتُ بك إلى بيته مُفرَدًا فإنّ ذلك أدعى إلى أنْ تعرفَ من الشّيخِ المتنبّي وغيرَه». فقلتُ: «وهل ستُسيّر له لِقاءَ ذلك مالاً؟». فقال: «الغاية إلى معرفة المتنبّي تُهوّن كلّ سبيل».

ولَزِمْتُه عامًا أو أقلّ، هو زُبدة أعوامي في النّظاميّة، فما وجدتُ بحرًا أوسعَ منه، ولا جبلاً أشمّ منه، ولا قلبًا أرقّ منه، وكان سريعَ العَبرة، بكّى وهو يشرح أبيات المتنبّي لي في غير موضع، بكى لَمّا شرح:

٠ولا ذكرتُ جميلاً من صنائِعها

إلاّ بكيتُ، ولا وُدٌّ بلا سَبَبِ

وبكى حين مرّ بقوله:

حُشاشةُ نفسٍ ودّعتْ يومَ وَدَّعوا

فلمْ أدرِ أيَّ الظّاعِنَين أُشيّعُ؟

ولو عدّدْتُ مواضع بُكائه لَمَا أحطتُ.

وكانتْ دارُه في بغداد قربَ (باب حَرب)، وسَيّر لي أبي حَمّارًا يُرسلِني معه من المدرسة النّظاميّة - بعد فراغ دروسها - إليه، وكان بيتُه متواضعًا، ولم أدخلْ عليه الدّار إلاّ وجدتُ زوجته إلى جانبه ترعاه لِعَماه، وكانتْ تقرأ له أو تكتب، وصنّفَ شيخُنا أبو البقاء عشرات الكُتُب، لم يقرأ إلاّ مِن سَماعه لزوجته، ولم يكتبْ إلاّ وهي تكتبُ عنه، وكان يطلبُ منها أنْ تأتيه بعشرةِ كتبٍ، تقرأ بين يديه، وهو يسمع، ثُمّ يقول لها: ائتِي بالكتاب الفُلانيّ، فتقرأ منه، ثُمّ يقول لها: قد أشفيتُ، فيطلب منها أنْ تذهبَ إلى الكتاب الثّالث والرّابع، وهي صابرةٌ تقرأ له بدَأب، فإذا جمع ما سمع من زوجه فوَعاه، طلبَ الدّواة والمحبرة والرّقوق، وسألها أنْ تكتب، فتكتب ما في صفحة عقله على ذلك الرّقّ، فلو كان من فضلٍ فإنّ أكثره يذهب إلى هذه الزّوجة الوفيّة الصّابرة، ولئن أخمل النّاسُ ذِكرَها ورفعوا ذِكر أبي البقاء، إنّها عند الله أعلى وأجلّ، فكلّ مَن أخذ عن عِلم الشّيخ فإنّها كانتْ سببًا فيه، فلها منه النّصيب الأوفى.

وكنتُ إذا فرغتُ من القصيدة شرحًا، حفظتُها عنده قبل أنْ أغادر بيتَه، وكان يهشّ لحِفظي، فإذا أنهيَنا الكُرّاس بعد أسبوعَين أو ثلاثة، طلبتُ منه يومًا أو اثنين أراجع فيه الحِفظَ وأعودُ إليه به، فكنتُ في هذين اليومَين، أكتري زورقًا من زوارق دِجلة بعد العصر، وأطلبُ من صاحبه أنْ يطوفَ بي في النّهر بين القناطر حتّى تغرب الشّمس، فكنتُ في هذا الوقتُ أراجع ما حفظتُ، وكان امتداد الأفق، وزرقة الماء، وتَوق النّفس إلى المعالي، وأشجار النّخيل تلوح في البساتين البعيدة، وهي تسمح إذ تُحرّكها الرّياح لخيوط الشّمس أنْ تعبر من خلالها فتسقطَ على وجهي، أو على الماء، فيتلألأ كأنّه الجُمان، كلّ ذلك كان يساعدني على إتمام حِفظي.

ولقد كان هناك صاحبُ زورقٍ فيه ظُرفٌ ومعه من الأدب شيءٌ، واعتدتُ أنْ أصعدَ زورقَه إذا أردتُ الحِفظ، فكان ينتظرني، فإذا صِرنا في عُرض الماء طلبَ منّي أنْ أقرأ له المتنبّي بصوتٍ عالٍ، ويقول: «لَمْ يقل المتنبي في بغداد ما قاله في حلب، أكلّ المُدن سواء؟!» ويأسف على ذلك، فأقول له: كفاه قولُه:

أرىَ العِراقَ طويلَ اللّيلِ مُذْ نُعِيَتْ

فكيفَ ليلُ فتى الفِتيانِ في حَلَبِ؟!

وكانتْ زوجُ العُكبَريّ تُعِدّ لنا العَشاء إذا ما فرغْنا من الدّرس، وكانتْ أصغَر منه بكثيرٍ على تقدير منّي، ثُمّ إذا ما أنهينا الطّعام، ورفعنا المائِدة، صاحَ الحَمّار في الباب، فخرجتُ فعادَ بي إلى المدرسة، فأنسلُّ إلى فِراشي وأنا في سَعادةٍ غامرة.

ثُمّ شهدتُ مع زوجِه أحسنَ ما شهدتُ فيما مضى في بيته، فلقد عزم العُكبَريّ على شَرح الدّيوان، وكنتُ قد أتممتُ حِفظَه، فقال: «إنّني لَمّا رأيتُ كثرةَ شُرّاح أبي الطّيّب، واختِلاف أحكامهم فيه، نويتُ أنْ أكتب هذا الكِتاب». فسألتُه: «وهل ستقفُ إلى جانب المتنبّي؟» فقال: «سأقفُ إلى جانبِ شِعره، وأوفّق بين الآراء فيه». فقلت: «تقصد الوساطة كما فعل الجرجانيّ؟». فقال: «لا، ولكنّني سأعوّل في هذا الكتاب على ابن جنّي والتّبريزيّ وأبي العلاء المعرّيّ». فقلت: «فأيّ شيءٍ تفعل؟». فقال: «أبدأ بغريب إعرابه فإنّه مُشكِل، ثُمّ غريب لغته فإنّه أشكل، ثُمّ أخرج منهما إلى معانيه». فمكثَ على ذلك زمنًا طويلاً.

ولقد مرّت أماسيّ كثيرة عليّ وأنا أحفظُ في زوارق بغدادَ شِعْرَ المتنبّي، وكَلِفتُ به كلفًا شديدًا فصار يدور منه على لِساني أكثر مِمّا يدور من القرآن، وشعرتُ أنّ لِساني مِغزلٌ به أغزلُ أبياته، وبلغ بي الوجد أنْ صرتُ أصحو من النّوم في اللّيل وأنا أردّد أبياته، وبلغ الأمر غايتَه، حينَ رأيتُ المتنبّي في المنام، فاستعظمْتُه لِما له في قلبي من مكانة، فرأيتُني أقفُ على قدمَي، فقال لي: «لا عليكَ. انهضْ نَسِرْ أنا وأنتَ في بغداد». فقلتُ: «أفي هذا اللّيل؟». قال: «فإنّني رحلتُ عن هذه الدُّنيا وما شبعتُ منها؟ وإنّ حُسّادَها أحوجوني إلى تركِها، وإنّني أرى أنّكَ ستفعلُ ما فعلت». فعجبتُ من قَوله، وسألتُه: «لقد رحلتَ في بِلادٍ كثيرةٍ يا أبا الطّيّب، ولقد رأيتُ قولكَ قد أبانَ عن ذلك:

ولقد أفنتِ المَفاوِزُ خَيلِي

قَبلَ أنْ نَلتَقِي وزادي ومائي

فضحك، وسرّه القول، وهتف: «إنّكَ سترتحل في بِلادٍ كثيرةٍ مثلي، فإذا فعلتَ فاكتب ما تمرّ به، فإنّ الكتابة عُمرٌ آخَر يُضاف إلى أعمارنا»، فابتلعتُ ما عَلِق في حلقي مِن صدق ما أَجِد، وقلت: «سأفعل». فنصحني: «اتركْ بغداد، فإنّ إقامة الماء في الموضع تُخبّثه». فسألتُ: «وأنتَ؟». فردّ: «ما أنا؟» فقلتُ: «ألم تكتبْ سيرتك في أسفارك؟». فهزّ رأسه، وقال: «قد كتبتُها، ولكنّني بعثتُ بها مع أحدِ الأولياء إلى المغرب، وإنّني لأنتظر مَنْ يأتي لينفضَ عنها الغُبار». وصحوتُ فإذا صوتُ الطّلبة يتناهَى إليّ في الصّباح من بعيدٍ وهم يتقاطرون إلى النّظاميّة. ❞

(٧) ❝

الأنباريّ ودلاّل الكتب

كان أبو البركات غزير العِلم، ولكنّه كان شديدًا، وكانتْ حلقاتُه في النّحو يحضُرها المِئات، بل إنّ الطّلاّب كانوا يفيضون عن المسجد في المدرسة إلى الساحة، فيتسامعون دَرْسه، ولربّما اضطرّ تلامذته في بعض الأيّام إلى مُبلّغين، يردّدون ما قال الشّيخ بعد كلّ فِقرة. وكان التّزاحم عندَ قدمَيه شديدًا، وكنتُ أحرِصُ على أنْ أجلس في الحلقة الأولى القريبة منه، إذ ليس بيني وبينه أيّ صَفٍّ من التّلاميذ، وكان الطّلبة الّذين ينوون ذلك عليهم أنْ يأتوا مُبكّرين، وإذا كان درسُه بعدَ الظّهر فعليهم من الضُّحَى أنْ يُرابِطوا في الحلقة، وإذا كان بعدَ العصر فعليهم أنْ يُصلّوا الظّهر ولا يلتفتوا حتّى يأتي هو إلى صلاة العصر، وكنتُ من هؤلاء، ولربّما انتظرْناه طويلاً حتّى يهلّ هِلالُه، وكان مَنْ في الصّفّ الثّاني يحسد مَنْ في الصّفّ الأوّل، ومَنْ في الصّف الثّالث يحسدُ مَنْ في الصّفّ الثّاني والأوّل، وهكذا... ولربّما تباهَى التّلاميذ بعد أنْ تنتهي حلقتُه بقولهم: «لقد أخذتُ عن الشّيخ وجاهةً»، لأنّ بعضَنا كان طَوال العَام لا يراه، بل يسمعه من خلف الصّفوف، ومِن وراء الحُجُب، وهؤلاء كانوا إمّا غير عابِئين بقيمة ما يأخذون، أو كانوا يسكنون في أماكن بعيدةٍ، ولم يكونوا يملكون دوابّ يركبونها حتّى يصلوا على الوقت، وإنّنا نحن الّذين كُنّا نسكن في جِوار النّظاميّة لم نكنْ لنرى الشّيخ لولا انتظارنا الطّويل هذا، فهل كان يستحقّ كلّ هذا؟ الحقيقة أنّه كان يستحقّه وزِيادة، لأنّ الشّيخ كان مِمّن صانَ العِلم فصانه، فصدق فيه قول الجرجانيّ:

ولَوْ أنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُم

ولَوْ عَظَّمُوهُ فِيْ النُّفُوسِ لعُظِّمَا

وللشّيخ أبي البركات الأنباريّ مئةٌ وثلاثون تصنيفًا، أكثرها في النّحو، وبعضُها في الفقه والأصول وفي التّصوّف والزّهد، وأتيتُ على أكثر تصانيفه سماعًا منه، أو قراءةً مع الطّلبة، أو حِفظًا في البيت، وكان قد شرع في تصنيفَين كبيرَين أحدهما في اللّغة والآخَر في الفِقه، ولم يتّفق له إتمامهما. ثُمّ حفظتُ أثناء دراستي بين يدَيه كراريس من كتاب سيبويه، وأكببتُ على المُقتَضب للمُبرّد، وكان النّاس في زمانه قد اختلفوا فيه، فبعضُهم اتّهمه بأنّه يضع في اللّغة ما ليسَ فيها، وقال آخَرون إنّه لكثرة حِفظه للغة وغريبِها لم يكونوا يصدّقون ذلك، فنسبوا إليه الوضع والانتِحال، ولكنّ كُتُبه كانتْ لي شِفاءً.

والمدرسة النّظاميّة بِناء ضخم مَهول، ودارٌ منيفةٌ عاليةٌ واسعة، متعدّدة الطّوابق، فإذا أتيتَ جهتها الّتي منها يدخل التّلاميذ في بوابّتها الأولى، هالك الشّموخ، وواجهتُكَ الأقواس، والزّخارف، فلقد كان المدخل يرتفع أكثر من ثلاثين ذراعًا، وكان المدخل قوسًا كبيرةً على طريقة العبّاسيّين في بِنائهم، وترتكز القوس المُدبّبة من الأعلى على عمودَين أسطوانيَّين يرتكزان بدورهما على قاعدة ضخمة تكاد يصل ارتفاعها إلى طول الرّجل الرّبعة، ليس إلى طولي، فأنا كنتُ قصيرًا، ولا ملاحةَ في وجهي، وبعضُ ندوب الجُدريّ من الصّغر ما زالتْ ظاهرة في صفحة خدَّيّ، وربّما لأجل هذا كان يتأبّى مَنْ يراني أنْ يأخذ عنّي!!

وكانتْ واجهة المدخل واسعةً، تمتدّ عن اليمين والشّمال أكثر من مئتي ذراع، وفي كلّ جهةٍ طابقان، يُمكنك أنْ تميّز كلّ طابقٍ من الأقواس الصّغيرة قِياسًا إلى القوس الكبيرة الّتي على المدخل، وكلّ قوسٍ أو قوسَين يعني غرفةً من غرف التّعليم، وكانت الأقواس في الواجهة الأماميّة وحدها تربو على عشرين قوسًا. فإذا عبرتَ المدخل العظيم، واجهتْكَ السّاحة الفسيحة، الّتي كان يتلقّى فيها بعضُ الطّلبة العُلوم الخفيفة، أو كان بعضُهم يُراجِع لرفيقه محفوظَه من القرآن أو من الحديث أو من النّحو أو من غيرها، وكانت المدرسة على حروفٍ أربعة، كلّ حرفٍ منها يُشبه حرف الواجهة الأماميّة، والمدخل الكبير تواجهه بوّابة تماثله على الجهة المقابلة، وعلى الجهتَين الأُخريَين من الدّاخل مثلهما أيضًا، وفي السّاحة أربع نخلاتٍ

في زماني لا أدري إنْ زِدْنَ عن ذلك أو نقصْنَ بعدَ أنْ تركتُ هذه المدرسة ولم أعدْ إليها، وكانتْ واحدةٌ منهنّ نخلتي، أعني النخلة الّتي أركنُ ظهري إلى جذعها إنْ لمْ يكنْ سبقني أحدٌ إلى ذلك الفضل، فأُراجِع تحتها محفوظي، أمّا محفوظ المتنبّي فكنتُ أراجعه بالزّورق في نهر دجلة.

وكانت السّاحة تعجّ بالطّلاّب في ثلاثة أوقات، الأوّل حينَ يبدأ توافدهم من أنحاء بغداد وضواحيها قبل أنْ يدخلوا إلى غُرَفهم، والثّاني في الاستراحة بعدَ صلاة الظّهر من أجل تناول الطّعام، والثّالثة وهم يخرجون كأسراب النّمل قبيلَ العشاء الآخرة عائدين إلى بيوتهم، أو مُرتحلين إلى قُراهم ومُدنهم على الدّوابّ، وكان هناك خانٌ للدّواب الّتي يركبها طلبة العِلم، وخانٌ آخَر خاصّ لدوابّ الأساتذة، وعلى الخانَين يقوم خدمٌ يرعون تلك الدّواب ويُقدّمون لها الشّعير والماء والعناية، مقابل أُكرة، وتستريح الدّوابّ في

تلك الأثناء، وتتناول طعامَها مثلَنا حتّى تكون قادرةً على حملنا إلى مناطق دانيةٍ أو نائية.

وكانت فُسحة الطّعام فرصةً للالتِقاء بالطّلاّب من أصقاع الأرضِ كلّها، والتّعرف إليهم، وسَماع أخبارهم، وأخبارِ بلادهم، بعيدًا عن أمور العِلم والتّحصيل، ولقد سمعتُ أخبارًا عجيبةً تأتي من بلادِ الرّوم، وأخرى أعجبُ منها تأتي من بلادِ ما وراء النّهرَين، وكنتُ أعدّها تهويلاً أو تزويقًا، وأقول: لا بأسَ من سَماعها من أجل التّرويح عن النّفس، مع أنّني لم أكنْ لأصدّقها، فما معنى أنْ يقول لك أحدهم إنّ في بِلاده أناسًا يعيشون برأسِ إنسان وجسم دابّة، أو يقول لكَ آخر إنّ التّماسيح في بلادهم أكبرُ من عشرة فِيَلة، وأنّها إذا أرادتْ أنْ تدخل من باب المدرسة النّظاميّة ما استطاعت لضخامتها، أو يقول ثالث: إنّهم في بلادهم يأكلون الخفافيش والأفاعي والدّيدان والصّراصير، لكنّ الأدهى من ذلك كلّه أنّه كان عندنا في المدرسة مَنْ يعتقد أنّ الأرض موضوعةٌ على قرنَي ثورٍ كلّما حرّكَ قرنَيه حدثت الزّلالزل، فإذا سكنَ هدأتِ الأرض، أو مَنْ يقول بأنّ الأرضَ على ظَهرِ حوت، والحوتُ يسبح في الفضاء!!

كانت أمّي تزورني كلّ شهرٍ مرّة، تأتي من درب الفالوذج، وهي محمّلة بالأطعمة والأشربة، ولم تكنْ تنسى أنْ تأتيني بالحلواء الّتي أحبّها، وكانتْ تُعايناني في هيئتي، وهي تهتفُ بإشفاق: «إنّكَ ازددتَ نحولاً يا بُنيّ، ألا تجدُ ما تأكل؟». وكانتْ تمكثُ عندي في الدّار ثلاثة أيّامٍ أو أربعة، تصنع لي فيها طعامي، وتغسل ثِيابي، وتُجهّز لي كراريسي، وكنتُ في اللّيل حينَ تفرغ مِمّا شَغَلَتْ به نفسَها أستظهر لها ما حفظتُ في ذلك اليوم، ولقد درستْ على يدِ أبي، وكانتْ تصغره بعشرينَ عامًا، ولكنّها تعلّمتْ منه علمًا وافِرًا. وقالتْ لي: «ألا تذهبُ معي إلى سوق الصّفّارين أشتري لكَ أكوازًا جديدة، وآنيةً نظيفة، فإنّني رأيتُ ما عندكَ قد صَدِئ ورثّ؟». فأقول لها: «لقد صَدِئ لقلّة ما أستخدمه يا أمّي». فتضرب بكفّها على صدرها، وتقول: «فكيفَ تأكل يا بُنيّ؟ ألا تطبخُ هنا؟». فأجيب: «لا يا أمّي، إنّما يأتيني به الخادم، ولقد وجدتُ وقتَ القِيام بالطّبخ إذا جُمِعَ في العام فإنّه يُساوي معرفةَ عِلمٍ جديد». فتسألني: «وهل تريدُ بعدَ القرآن والحديث واللّغة من عِلم؟». فأقول: «نعم يا أمّي، أتوقُ إلى الفلسفة والمنطق والطّبّ».

ثُمّ عزمتُ على أنْ أوفِي كلّ ما أنتجتْه المدرسة النّظاميّة وشيوخها في علوم اللّغة، وفرّغتُ لذلك عامًا حتّى إذا ما أنهيتُ ذلك، انتقلتُ إلى بغيتي في الطّبّ. وكان لي ما أردتُ، إذْ تجرّدتُ لما تبقّى من كتاب سيبويه وشرح السّيرافيّ له، ثُمّ قرأتُ على أبي عُبيدة الكرخيّ كتبًا كثيرةً منها كتاب (الأصول) لابنِ السّرّاج، وقد أخذتُها من رِباط المأمونيّة، إذ لم يكنْ في مكتبة النّظاميّة منها نسخة، وكانتْ وقفًا لابن الخشّاب، وقد اتّخذتُ منه أستاذًا فتعلّمتُ على يديه الفرائض والعروض للخطيب التبريزيّ، وفي الحقيقة فهمتُ منه دوائر الخليل بن أحمد، وكانتْ قد أُشكِلتْ عليّ في السّابق، ولَئِنْ كان عميقَ الغور إلاّ أنّ له من الأخبار ما هو أشدّ غورًا في التّعجّب من جَلَده، فمن ذلك أنّه حصلتْ له نسخةٌ من كتاب (التّهذيب في

اللّغة) للأزهريّ الّذي يُقيم في المعرّة يومئذٍ، فجعل الكِتاب في مِخلاةٍ وحَمَلَها على كَتِفه من (تبريز) في بلاد فارس إلى (المعرّة) في بلاد الشّام، ولم يكنْ له ما يستأجر به مركوبًا فنفذَ العَرَق من ظهره إليها فأثّر فيها البَلَل!!

ورأيتُ اختيارات (التّبريزي) لشواهد الأبيات في عَروضِه طريفةً تدلّ على ظرفٍ وسَعَة، ولا يكون ذلك إلاّ لمن أحسّ بموسيقى الشّعر تجري في جوارحه، ولا عجب فقد كان (التبريزيّ) شاعرًا، وإنّ أجملَ ما حفظتُ له قولَه:

فَمَنْ يسأمْ من الأسفارِ يومًا

فإنّي قد سَئِمْتُ من المُقامِ

أقمْنا بالعِراق إلى رِجالٍ

لِئامٍ ينتمون إلى لِئامِ

ولقد كان صادقًا في البيت الأوّل، وهو في بيته الثّاني أصدق، فهل يكون ذلك داعيةً للرّحيل؟!

ونهدتُ من جديدٍ لابن الخَشّاب، وهو حديثُ عهدٍ بموت، إذْ لم يمرّ على موته عَقدٌ من الزّمان، لكنّ تصانيفه حَيّة، وهل بعدَ الموتِ حياةٌ في دُنيا المرء إلاّ تلك الّتي تنهضُ بها كُتُبه، ولقد كان.

ثُمّ تركتُ هذا العامَ خلفي، وأقبلتُ على علومٍ جديدةٍ، فقرأتُ مقدّمة (ابن بابشاذ) في النّحو لتكون سبيلي إليه، لأعرفَ منه علوم الكيمياء والطِّلِّسْمات، ومنه قرأتُ كتب (جابر بن حَيّان) بأسرها، وأتيتُ على كتب (ابن وحشيّة) في العِلم نفسه، ومنها كتابَي السّحر الكبير والصّغير، وكتاب (طرد الشّياطين).

وكنتُ مع كلّ هذه الأوقات المملوءة بالدّراسة والتّحصيل والبُعدِ عن اللّهو، أجدُ ملالةً في نفسي، فأجلوها بركوب الزّوارق مع صاحبنا، نتذاكر أشعار المتنبي، أو أزور رِباط المأمونيّة، فأطّلع على كنوزه، أو آتي سوقَ الكُتُب، ودور الورّاقين، فأجدُ الدّلالين وهم يتفنّنون في عرضِ ما عندهم، وكانت الكتب تخطفُ قلبي بأشدّ مِمّا كان الذّهبُ يخطف قلوب النّساء،

ولقد كنتُ أنظر إلى الكتاب في يدي، مثل العقد في جِيدِ الحسناء، وأتذكّر بيت أبي الطّيّب: «وفي عُنُقِ الحسناءِ يُستَحسنُ العِقْدُ»، فأهمسُ لنفسي: «وفي يد أهل العلم تُستَحسنُ الكُتْبُ».

كان دلاّل الكتب الأشهر (أبو المعالي الخزرجيّ) قد رحلَ هو الآخَر، قبل تسع سنواتٍ، ولكنّه على شاكلة دلالي الكُتب اليوم لم يكنْ فقط يبيع الكتب، فقد كانتْ عشرته الطّويلة لتلك الكتب الدّاخلة إلى متجره، والخارجة منها قد صنعتْ منه أديبًا أو ذَوّاقًا، فقد ألّف الخزرجيّ، وهو لم يجلسْ يومًا واحِدًا في مجلسِ علمٍ، كتاب (لُمَحِ المُلَح)، وكتاب (الإعجاز في الأحاجي والألغاز) وقد صدّره بمقدّمة في فنون الألغاز وأقسامها، وجاء بالألغاز مُرتّبة على الأبجدية حسب حروف الرويّ، وهو يذكر بعد كلّ لغز تفسيره وما ألغز به. و(صفوة المعارف) وهي قصيدة في تاريخ الطّبيعة، وكتاب (زينة الدّهر وعصرة أهل العصر) وذكر فيه ألطافَ شِعر العصر، وفيه أخبار شعراء عصره، ومَنْ تقدّمهم. وأنتَ ترى أنّ أكثرَ كتبه في مختاراته مِمّا وجد في بطون الكتب الّتي تستقرّ في بطن دُكّانه، وكنتُ أقضي مع هؤلاء الدّلالين وقتًا خفيفًا، أسألهم عمّا لديهم من الكتب، وأناقشهم في بعضِ المسائل، وأشتري ما كان نادرًا وثمينًا.

وكانتْ في بغداد سوقٌ كبيرةٌ للكتب، مثل أيّ سوقٍ من أسواقها الأخرى، من الخيّاطين والبزّازين والنّجارين والصّفّارين، ... وغيرهم، وما كانتْ سوقٌ لِتَجور على سوق، وكان كلّ واحدٍ يأخذ حَظّه مِمّا يشاء.

وإنّني بدأتُ أضيقُ بأهل بغداد، أو يضيقون بي. أو أنّني لم أجدْ جديدًا في كتاب من كتب أساتذتها، أو أنّني أتوقُ إلى بلادٍ أخرى، فإنّ أرضَ الله واسِعة، ولقد شعرتُ أنّه لم يعدْ في وُسعي أنْ آخذَ من علوم اللّغة والنّحو والفقه والكيمياء ما يُضيفُ إلى ما عندي، وأنّه لا مزيد إلاّ بعِلمٍ طريفٍ كلّ الطّرافة، فمالتْ نفسي إلى ثلاثةٍ؛ المنطق، والفلسفة، والطّبّ، وإنّني لساعٍ إليها بأشدّ من سعيِها إليّ.

وتغيّب أبو البركات عن حلقته في المدرسة النّظاميّة، وكان قدرُه على بابِ بيته، فلم يُخطِئْه، بيدَ أنّني كنتُ قد وعيتُ كلّ ما لديه، فلمّا كان ذلك انفرطَ عِقده، ودُفِنَ وسطَ بُكاءِ تلامذته في (باب أبرز) بتربة الشّيخ (أبي إسحق الشّيرازيّ) عام ٥٧٧ للهجرة، وكنتُ في العشرين من عمري، وكأنّ الموتَ كان يُمهِل الشّيوخ حتّى أتلقّى على أيديهم غاية ما أؤمّل، ثُمّ يشربون من كأسه، وينبتّ الحبل، وإلى الله تصير الأمور! ❞

❝ (٨)

أنا سَجينُ خَيالاتي!

انهدّت الواجهة الأماميّة في المدرسة النّظاميّة، سقطتْ كأنّها ضُربتْ بمنجنيق فيه قذيفةٌ تزنُ عشرين قنطارًا، هوتِ الحجارة وتناثرت على الأرضِ مُخلّفةً دمارًا كبيرًا، دُفِنَ تحت الرّدم العشرات من أولئك الّذين كانوا يمرّون تحتها لحظتئذٍ، وخفتتْ صَرَخاتُهم رويدًا قبل أنْ تنتهي تمامًا وهم يستغيثون طلبًا للنّجاة من الموت الّذي لم يتركْ حيًّا منهم، هل قامت الحرب؟ مَنْ يُعلِن الحربَ على بغداد؟ مَنْ يُعلِن الحرب على مدينة السّلام؟ كيفَ لمجنونٍ حتّى ولو كان ملكَ الزّمان، وسيّد

الدّهر أنْ يضرب منارة العِلم؟ مَنْ تُسوّل له نفسي أنْ يعتدي على حرمة المُقسَم به في الكتاب؟ هل ما يحدثُ حقيقيّ؟ أهناك عاقلٌ يقوم بهذا؟ كانت الأسئلة تنهمر على عقلي وأنا لا أزال تحتَ تأثر المشهد المُفزِع، لكنّ ذلك المشهد لم يكنْ سِوى البداية، لقد كان القَتَلَة يُعِدّون المنجنيق لقذائف كثيرة ظلّتْ تقصف المدرسة وبغداد وأنهارَها وقناطرها وبيوتَها من الصّباح حتّى المساء. إنّها الحرب إذًا؟ لكنْ مَنْ سيّد هذه الحرب الطّاغية؟ لماذا لم يكنْ لهذا الهول من مقدّمات؟ لماذا أفقْنا عليه من دَعَة؟ وصحونا على ناره من تَرَف، وجاءَ على سَهو؟ هل الحرب المُعلَنة حربٌ رابِحة؟ كلا؛ على الحربِ أنْ تكون مُباغِتة تمامًا مثل الموت! كانت النّيران تشتعل في كلّ مكان، هل هي النّيران الّتي تأتي من المشرق وتُضيء أعناق الإبل في بصرى؟ هل قامت القِيامة؟ ما الّذي يجري في دار السّلام؟ هل صِرنا على أبواب جهنّم؟ أينَ هي الآخرة؟ هل هناك مهربٌ؟ صوتٌ قال لي: «لا مُقام لك فيها، لقد خَربتْ، كما خربت المدائن من قبلها، إنْ لم يكن اليوم فغدًا، إنْ لم يكنْ هذه السّنة فبعد سنوات، إنّها ليستْ دِيارك، لا تكنْ واهِمًا؟ إنّها حتفُك، بغدادُ حتفٌ مذ كانتْ، ليس فيها من السّلام شيءٌ، إنّها تِلالٌ من الجماجم المتفحّمة، والعِظام البالية، والأجساد المحروقة، لم يعدْ لكَ فيها موضعٌ فارحلْ أيّها العاشق!! من فوقَ أسطح داري، رأيتُ نهر دجلة يشتعل هو الآخَر، كانت السّفن والزوارق فيه تحترق، وبساتين النّخيل القريبة منه تحترق، والماء يفور بالنّار!!

كان حُلُمًا كأنّه حقيقة، لا بُدّ أنّه حُلُم، صحيحٌ أنّني أسمع أصواتَ القذائف في هذه السّاعة المُتأخّرة من اللّيل، صحيحٌ أنّني أرى من نافذة داري من هنا الحرائق تشتعل في تلك البُقعة الّتي من المُرجّح أنّها المدرسة النّظاميّة، كلّ شيءٍ في هذا اللّيل، وفي هذه الأحلام، وفي هذه الدّار يبدو حقيقيًّا.

نزلتُ إلى الأسفل، ركضتُ حافِيًا في الفِناء وأنا عاري الرّأس خفيف الثّياب، وصلتُ إلى الباب، فتحتُه، فرأيتُ أناسًا بملابس بيضاء يركضون في الزُّقاق، كانوا يركضون فَزِعين ينظرون خلفهم كأنّهم يهربون من شيءٍ ما، وكان أكثرهم نِساء، ما هذا؟ أإلى هذا الحدّ تتجسّد الأحلام؟! لا يُمكن أنْ يكون هذا حقيقةً، لكنّني أشاهده، وأنا ما أزال أفتحُ الباب، مُمسِكًا إحدى ظَرْفتَيه بيدي، هززتُ رأسي، ازدادَ عددهم، كانوا يصيحون بكلماتٍ لم أفهمهما؟ حاولتُ أنْ أُصغي إلى الصّرخات، هل هم يتكلّمون العربيّة؟ أمسكتُ أحدَهم مِمّن أستطيع الإمساكَ به لقلّة حجمه مثلي؟ سألتُه: «ما بك؟ مِمّ تهرب؟ إلى أين؟». لكنّه شدّ ذراعه من يده، ونظرَ إليّ نَظَراتٍ مرعوبةٍ وركضَ وراءَ الجموع!!

استولَى عليّ الفَزع، ركضتُ إلى الماء، غسلتُ وجهي، تذكّرتُ المكتبة، هُرِعتُ إليها، لا تزال بخير، عُدتُ إلى السّاحة، الكرسيّ الّذي أجلسُ فوقَه في الأماسي لمراجعة ما أحفظ كان لا يزال على هيئته كما تركتُه في اللّيلة السّابقة، إنّه بخيرٍ هو الآخَر. صعدتُ ثانيةً إلى سطح الدّار، رأيتُ ذوي الملابس البيضاء يذُبحَون، الرّجال والشّباب والفتيان، كانوا يُلقَون بعدَ الذّبح في النّار، أو في الحُفر العميقة، ويُهال فوقَهم الرّدم؟ هل أنا أرى ما أرى؟ لماذا هذه الأحلام في هذه اللّيالي؟! أهو تأثير قراءاتي لكتب الكيماء والسِّحر؟!

عُدتُ للهبوط، ذرعتُ فِناء البيت بحركةٍ مُضطربة، من هنا لا زلتُ أشاهد النّيران تصعدُ إلى الأعالي، لا بُدّ أنّ حلمًا كهذا لا يعيشُ إلاّ في عقلي، هممتُ أنْ أجلسَ على الكرسيّ القريب وأرتاح، عدلتُ عن ذلك، هُرِعتُ إلى الحَمّام، توضأتُ، كان الماء باردًا مِمّا ساعدَني على أنْ أستعيدَ بعضَ الوعي والصّحو، صلّيتُ ركعتَين، وأطلتُ السّجود في الثّانية، وهتفتُ: «يا الله عجّلْ بخلاصِنا!».

تركتُ الصّلاة، وصعدتُ إلى الغرفة الّتي أنامُ فيها، اضطجعتُ وأنا أتلمّس جوانبي، لم تتركْني المشاهد، ظلّتْ تعتمل في عقلي، لم أنمْ، لكنّني صحوتُ على صِياح السّاقي في الفِناء وهو يطلبُ أجرته بعد أنْ ملأ الجِرار والقُلَل. لعنةُ الله عليك أيّها السّاقي. أعني، لم يكنْ ذلك كلّه حقيقةً؟!

إنّهم يفعلون ذلك في (البيمارستان)، شيوخ الطّبّ يقومون بتشريح الأجساد الميّتة، أو المُتفحّمة، إنّهم يفحصونها بأدواتٍ من حديد، وملاقط معدنيّة، ورؤوس مُدبّبة، ويُديمون النّظر في أطرافِها، هل يفعلون ذلك من ليلةِ أمس؟ لماذا يقفون منشرحي الصّدر وهم يُعدّدون أعضاء الجسد للطّلاب الّذين يقفون مثل البُلَهاء؟ ألهذا الحدّ مهنة التّشريح مُمتِعة؟!

صارتْ نظرات الرّيبة تأكل قلبي، عيناي لم تعودا لي، أعني صرتُ أُبصِر بهما ما أفكّر به وما أتخيّله، أتخيّل أشياءَ كثيرةً جميلة، وأخرى غايةً في القُبح، أنا رهينُ ما أفكّر به، أنا سجينُ خيالاتي. جسدُ الإنسان المعجزة. ذوو الملاءات البيضاء هم ضحايا الإنسانيّة، وهم مُنقِذوها، كيفَ يُمكن تفسير اللّون الأبيض في حالة الحرب أو الموت أو الرّحيل؟!

حدائق الزّهور الّتي تملأ السّاحة أمام (البيمارستان) خادعة، تُخفي غيرَ ما تُبدي، مُواربة، إنّها مثل الحقيقة الخياليّة الّتي رأيتُها قبل أيّامٍ في منامي، إنّها تريدُ أنْ تُريكَ النّور فيما العتمة تُسيطر على كلّ شيءٍ، تريدُ أنْ تهبكَ أمل الحياة فيما جَزَع الموت يُخيّم على كلّ روح، ويُطلّ برأسه من كلّ زاوية!

الفلسفة قد تكون مخرجًا. العقل الّذي لا يكفّ عن التّفكير تُريحه الفلسفة، لا بُدّ من الغزاليّ إذًا. عُزلته صنعتْ منه فيلسوفًا. العُزلة الّتي تضجّ بالإنسان، بالعقل، بكلّ كلمةٍ هي من الله. العزلة الّتي تهبُ خَلْقًا آخَر. ما كان لعقلٍ مثل عقل الغزاليّ أنْ يكتب (إحياء علوم الدّين) لو لم يَعِشْ هذه العزلة. أنْ تكون وحيدًا في مواجهة أفكارك. تتخلّصُ من أناك، من أجل الأنا العالية، أنا الفلسفة، حينَ يكون ذلك التّجرّد صادِقًا يتمثّل لك الوحي. لا وحي دون عزلة. ولا كتابةَ دونَ وحي.

كان كتابه (الإحياء) هو الأَسْيَر، لكنّه لم يكنْ لامرئٍ أنْ يعرف ما هو الغزالي إنْ لم يقرأ كتبه الأخرى، كان صوفيًّا فيلسوفًا زاهِدًا، لعلّ ما قاله النّبيّ لأبي ذرّ، هو الّذي ساقَ الأخير إلى أنْ يجيء إلى هذه البقعة الطّاهرة في بيت المقدس؛ «يا أبا ذرّ: أترى كثرةَ المالِ هو الغِنى؟ قلتُ: نعم يا رسول الله. قال: إنّما الغِنى غِنى القلب، والفقر فقرُ القلب». كُلّ هؤلاء فقراء القلوب أيّها الإمام، لولا هذا الفقر لمكثَ هذا العِلم في هذه الأرض!

لم يعدْ لي من النّوم بعدَ اليومِ إلاّ اليسير، إنّها سنواتٌ، وهذا الجسد يختم رحلته، أريدُ أنْ أرى الله في كلّ مكانٍ، أريدُ أنْ عرفَ حِكمته في كلّ سبيل، لقد جِئنا لنراه فيما صنع، فهل نظرنا إلى ما صنع بعيون القلوب؟ ها أنذا أعودُ إلى ملاذي وحيدًا، خاليًا من كلّ شيءٍ إلاّ منك، فلماذا أملأ أُذُنَيّ بطنين البشر الّذين يحجبون عنّي حِكمتك؟!

أكببتُ بعدَ تلك اللّيلة على قراءة ما استطعتُ الوصول إليه من كتب الغزالي، قرأتُ (مقاصد الفلاسفة)، و(ميزان العمل)، ثُمّ (معيار العلم)، و(محكّ النّظر) وكلاهما في المنطق. وعرفتُ أنّ رحلة الغزاليّ مع الشّكّ قد زادتْني شَكًّا، كتب الفلسفة تُبعثِر لكي تجمع، وتبتعدُ مسافةً كافيةً عن الذّات لكي ترى.

صار البيتُ موحِشًا، باردًا، يمرّ فيه الزّمن ببطء. ما أبطأ الزّمن! مللتُ من كلّ شيءٍ فيه، جدرانه، شجرته الّتي في الفِناء، وكرسيّ الأماسيّ الرّائعة، وغرفة القراءة، والكتب الّتي تتراكم فوق الرّفوف، والصّناديق، والرّقوق، والمحابر، والأقلام، والكراريس... إنّني أتوقُ إلى أُنْس، أفكون أبحثُ عن زوجةٍ؟ كلاّ، فأنا ما زال أمامي دروبٌ عليّ أنْ أسلكها قبل أنْ أقع في هذا الفَخّ، لكنْ ما الّذي يُؤنس غيرُ الكتاب؟ هل كتب الفلسفة هِي مِمّا يبعث على هذا الوَحَشَات المُتتابِعات؟ ألم تكنْ لك شِفاءً أوّل ما غمستَ روحكَ في حِبرها؟ ما الّذي يحدث لروحي حتّى تبحثَ عن سبيلٍ أخرى، وحياةٍ جديدة؟

تسلّلتْ عبر الدّرجات المُفضِيات إلى الطّابق الثّاني حيث أنام، تنساب انسِيابَ الماء في المنحدر، وهي تزحفُ بجسمها اللولبيّ اللّين إليّ، إنّها أفعى سوداء، تلك الأفعى الّتي رأيتُها تخرج من مقابر القاهرة، إنّني أراها كما لو كنتُ مُستيقِظًا، إنّها تقترب من سريري، ذُعِرتُ، أعرفُ أنّها ستلدغني، ما الّذي عليّ فِعلُه؟ حاولتُ الهروب، لكنّني لم أستطعْ، إنّها تواصل زَحفَها المُميت إليّ، شددتُ الغِطاء على رأسِي كي لا أراها، لكنّني بقيتُ أراها، ها هي تقترب، رِجلايَ مكشوفتان، قدمايَ عارِيتان، وهي تتسلّل إليهما، إنّها تُخرِجُ لِسانَها ذا الشّعبتَين، ها أنذا أراه يهتزّ في الهواء مُلوّحًا بالسّمّ الّذي ستصبّه أنيابُها في جسدي، إنّني لا أستطيع الحَراك... لقد... لقد لدغتْني الملعونة، لدغتْني وانسلّتْ عائدة، ماذا؟ هل سأموت؟ ماذا يحدثُ لجسد المرء إذا سَرى فيه السّمّ؟ هل هذا سؤال؟ بالطّبع سيموت! لكنّني لا أريدُ أنْ أموت، ما زالتْ أمامي بلادٌ كثيرةٌ أحلم بالسّفر إليّها، ومسافات بعيدة عَلَيّ أنْ أسير فيها... وصرختُ بكلّ ما أوتيتُ من قُوّة: أنا لا أريدُ أنْ أموت... لا أريدُ أنْ أموت... وصحوتُ

في (البيمارستان)! ❞

❝ (٩)

البِيمارِسْتان

على النّهر، قريبًا من محلّة باب البصرة، في مهيعٍ ممتدٍّ من الأرض من أجل أنْ يطيبَ الهواء، بعيدًا عن السّوق حتّى لا تكون أصواتُ الباعة والدّوابّ مسموعة، وفي أرضٍ مفتوحةٍ يقع (البيمارستان). بناؤه فخم، يتوزّع على أبنيةٍ متعدّدة كلّها فسيحة الأبهاء، مكوّنةً من طابقٍ واحدٍ، الأبنية من الجهات الأربع، الجهة الّتي تقع على النّهر كانتْ أجلّهنّ وأجملهنّ. كلّ بِناء يتخصّص على الأغلب في مجالٍ من مجالات الطّبّ، كان هناك قِسْمٌ للأمراض الداخلية، وقِسْمٌ للعيون، وثالثٌ للجراحة والتّشريح، ورابعٌ للكسور والتّجبير، وحتّى قسم الأمراض الدّاخليّة كان يتوزّع على أقسامٍ أخرى متفرّعة عنه، وفيما بعدُ استُحدِث قسمٌ للأمراض العقليّة، وجُعِلَ جهةَ النّهر.

كان يتوسّط الأبنية الكثيرة ساحةٌ واسعةٌ خضراء، دائمة الظّلّ والنّدى، تسقيها نوافير من الماء فتبقيها رَيّانة، وكانتْ مغروسةً بالأشجار المَشمومة والمَأكولة، وكان الماء يُسحَب من دجلةَ إليها كلّ يومٍ، ويجري في أوصالِها جَريان الدّم في العروق.

صحوتُ على السّرير فرأيتُ رجلاً يبتسم وهو يكتبُ على ورقٍ كان معه، سألني: «أتيتَ البارحة؟». لم أُجِبْه، تلفّتُّ بتثاقلٍ حولي، وسألتُ: «أين أنا؟». ردّ: «أنتَ في البيمارستان، لقد مرّتْ». قلتُ مُستغربًا: «ما الّذي مرّ يا حكيم؟». مبتسمًا من جديد: «السّمّ لم ينتشر في جسدكَ كثيرًا، بجراحةٍ بسيطة استطعْنا أنْ نُسيطر عليه». «هل...» وتردّدتُ، وأكمل عنّي كمن يتوقّع أنّني أعرف أو أنّني متأكّد: «نعم، لقد لدغتكَ أفعى، أفعى سامّة جِدًّا، لو لَدَغتْ...» وقبل أنْ يُكمِل نهضتُ من سريري كمن لدغتْه أفعى بالفعل، وكدتُ أقفز على الأرض لولا أنّ الطّبيب تداركَني، فيما رحتُ أنظر في وجهه وفي ما حولي، وأهمس: «غريب، هل الّذي رأيتُه...»، وتوقّفتُ لبرهةٍ قبل أنْ أُكمِل: «كان حقيقةً؟! يعني لم يكنْ حُلُمًا؟!». وبدتْ علامات الاستِفهام على وجه الطّبيب، لكنّه قال: «عليكَ أنْ ترتاح حتّى يستعيدَ بدنُكَ عافيته».

بِتّ ليلتَين، في اليوم الثّالث، حيثُ كانت الشّمسُ قد ارتفعتْ قليلاً في الأفق، ودخلَ ضِياؤُها القلوب قبل الجدران، نزلتُ من السّرير، ورحتُ أطوفُ على الأقسام، وأدور بين الغرف، كان كلّ شيءٍ هنا يُشعِر بالرّاحة، قلتُ لنفسي: «لو كانتْ هُنا مكتبةٌ لأقمتُ في هذا المكان عامًا لأقرأ كلّ ما فيها...». قبلَ أنْ يخطر ببالي خاطِرٌ آخَر: «ولِمَ لا آتي بكتبي إلى هنا، واقرأ». ثُمّ راحَ خاطرٌ ثالثٌ يدور في خلدي: «ولماذا تريدُ أنْ تأتي بكتبك إلى هنا لتقرأ؟ إنّما هذا المكان للاستِشفاء...» ووجدتُني أغالِطُ نفسي: «وما الّذي يمنع، فالقراءة أيضًا استِشفاء». «ولكنّ (البيمارستان) ليسَ دار قراءةٍ ودروس، إنّما أنتَ مريضٌ عابرٌ، وعليه أنْ يستقبلَ مزيدًا من المرضى الّذين يُريحون أجسادَهم أو أرواحهم هنا قبل أنْ يواصلوا مسيرهم أو مصيرهم خارجين من هنا إلى غاياتٍ شَتّى». وعنّ ببالي وأنا أطوف حول الحديقة الغنّاء أنْ أسأل أحدَ الأطبّاء فيما إذا كانتْ هناك مكتبة!

كان المرضَى يُحمَلون من محلاّتهم أو مُدنهم أو قُراهم على عَرباتٍ نظيفة، تجرّها خيولٌ قويّة، أو على دوابّ إن استطاعوا، أو راجِلين، ويكون في استقبالهم عددٌ من المُمرّضين، وكانتْ ساعة الضُّحى تعجّ بالمرضى أو ذويهم أو الزّائرين أو الأطبّاء، كان هذا (البيمارستان) يستقبل المرضى من أهل بغداد والعراق كلّها، ولكنّه لا يُغلِق أبوابه في وجه أيّ غريبٍ كذلك، ولا يدفع فيه المريض شيئًا لِقاء تشافيه، إذْ لن تجمع عليكَ السُّلطة فقر المال إلى فقر الصّحّة، ولو كنتَ لا تملك مالاً، فإنّها تعطيك ما يُبلّغك حاجتك أوانَ تخرج مُشافًى. هكذا قِيلَ لي من مساء أمس حينَ سامرتُ أحدَ المُمرّضين الظُّرفاء، عَنّ ببالي أنّه يُمكن أنْ يكون الشّخص المُناسِب أنْ أسأله عن المكتبة!

مرّ نهارٌ كاملٌ وأنا أطوفُ فيه، الأطبّاء يتفقّدون المرضَى، يومَي الاثنَين والخميس، كلّ طبيبٍ حسب اختِصاصه، يُطالِعون أحوال المرضى، ويُرتّبون في الأوراق الّتي بين أيديهم أخْذَ ما يحتاجُون إليه، ويتبع للأطبّاء عددٌ من الكيميائيّين الّذين يمتثلون لهم في طَبْخِ الأدوية والأغذية، ويُحدّدون معهم المِقدار لكلّ مريضٍ، وكانتْ توضع لكلّ مريضٍ دوارق صغيرة أو محاقن تحتوي الأدوية الّتي عليه أنْ يتناولها، وعلى كلّ دورقٍ تجد اسم المريض، وعدد المرّات والمقادير الّتي عليه أنْ يبدأ بها.

وعدتُ إلى الغرفة الّتي خرجتُ منها، فوجدتُ على بابها الممرّض الظّريف عاتِبًا عليّ: «لقد خرجتَ دون أن تُعلِمني، عليكَ أنْ تتناول هذه المقادير»، وسألتُه إنْ كان وصفَها الطّبيب، أم هو، فردّ: «أنا». فقلتُ: «وأنتَ تُحسِنُ ذلك؟». فقال: «نحن مُساعِدو الأطبّاء، بيننا وبينهم درجةٌ في التّحصيل، فإنْ حصّلْناها صِرنا مثلهم». فأعجبني ذلك، وسألتُه: «وهل في المستشفى مكتبة؟». فردّ: «أكبر من مكتبة المدرسة النّظاميّة».

اتّسعتْ حدقتا عيني، وفتحتُ فمي مُندهِشًا: «هل أنتَ واثقٌ مِمّا تقول؟ أنا أدرسُ في المدرسة النّظاميّة، ولم أرَ أكبر منها في بغداد، ولا حتّى في سوق الكتب، ولا في بيوت الشّيوخ والأساتيذ». فردّ مُناكِفًا: «ذلك لأنّكَ لا تعرفُ ما بغداد، بغداد

الّتي في عقلك غير بغداد الّتي في الحقيقة». فأمسكتُ به من ذراعه، وقلت: «دُلّني الآنَ عليها». «سأفعل، لكنْ لا تُحيجني إلى أنْ يُسائلني الطّبيب عن غِيابك». «ألا يأتي الأطبّاء لمُعاينة مرضاهم صباحَ يومَي الاثنين والخميس؟». «بلى». «إذًا أكون حاضِرًا هنا فيهما، وأكون حاضرًا هناك فيما سِواهما». «هذا ينفع مدّة إقامتكَ هنا». «وكم قال لك الطّبيب إنّني سأقيم؟». «أربعة أيّام فحسب». « إذًا أمامي يومٌ واحدٌ، هَيّا لا تُضيّع الوقت».

وانفتحتْ أمامي كنوزٌ، كان يومًا واحِدًا في العَدّ، ولكنّه استمرّ عامًا كامِلاً. إنّها بالفعل مكتبةٌ ضخمة، صحيح أنّها ليستْ أكبر من مكتبة المدرسة النّظاميّة، ولكنّ كتب الطّبّ فيها أكثر بكثيرٍ من كتب الطّبّ في مدرستنا، بل أكثر من أيّ كتبٍ في أيّ مكتبةٍ أخرى. ومن هنا بدأتْ رحلتي مع الطّبّ!!

كان (البيمارستان) مدرسةً في الطّبّ، ولم يكنْ مشفًى فحسب، كان يدرسُ فيه طلبةُ الطّبّ كما يدرسُ في النّظامية طلبةُ العِلم، وكان طلبةُ هذه المدرسة الجديدة أشدّ ورعًا في النّظر إلى العِلم من أهل تلك المدرسة لو أردْتُ المقارنة، وأدقّ نظرًا، وأصبرَ على الدّرس، وأخوفَ على الفهم!

ولقد رأيتُ الطبيب الأستاذ الشّيخ، يمرُّ على المرضى في الصّباح، ومعه مُساعدوه من صِغار الأطباء الذين لم يُتِمّوا درجاتِ تحصيلهم، فيُعلّمهم، ويجعل جسدَ المريض كُرّاسته، فيشرحُ عليه أمامهم، فيتبعونه بأبصارهم يدوّنون ما يقول في رقوقهم أو كُتُبهم، ثُمّ يصف العلاج، أو مقادير الأشياء الّتي تُنتج العِلاج، وهم يراقبون ويتعلّمون ويكتبون مِن ورائه، ثم ينتقل الشّيخ الرّئيس معهم من تلك الغُرَف بعد ذلك إلى قاعة كبيرة ويجلس حوله المُتعلِّمون، فيفتح الكتب الطبّيّة الّتي يدرسونها وقتئذٍ، ويقرأ عليهم، ويشرح أعراض الأمراض، وأسبابَها، واحتِمالات الإصابة بها، ويجيب بعدها عن أسئلتهم.

وانخرطتُ أنا في هذه السبيل، ووجدتُ في تعلّمه لذّة، وكان عليّ أنْ أبيت في (البيمارستان) عامًا كامِلاً كيْ أحصّل العِلم، وبدأتُ بقراءة كتب الشّيخ الرّئيس (ابن سينا) صغيرها وكبيرها، كانتْ كتُبه كلّها موجودةً في صناديق (البيمارستان)، فحفظتُ كتابه (النّجاة)، ثُمّ عرجتُ على كتابه (الشّفاء)، ثُمّ (القانون)، ومضيتُ في الوسائل المُتّبعة عنده، ولأنّني أخذتُ النّقد عن أبي البركات، وتعلّمتُ منه ألاّ أقبلَ كُلّ ما يُعرَض عليّ فقد خالفتُه في بعضِ وسائله، وفي بعضِ وصفاتِ أدويته، وزعمتُ أنّ دهرَه وقد مضى عليه قرنان من الزّمن قد كان يصلح لأهل زمانه، وأنّ لزماننا ما يصلح له غير ما قاله (ابنُ سينا)، ووجدتُ عنده بعضَ التّهويمات في المنطق، وبعضَ التّخاريف في الفلسفة، وأمّا ما أخذتُه عنه في الطّبّ فكان وافِرًا.

ثُمّ كان عليّ أنْ أعيشَ في هذا (البيمارستان) عامًا آخر أتبعُ ذيول الأطبّاء الأساتيذ إلى قاعاتهم، وإلى غُرَف التّشريح، ومطابخ الأدوية، وكان ذلك من أجل أنْ يسمحوا لي أنا والطّلبة الآخرون بأنْ نصبح أطبّاء، وننفردَ بالمُعالِجة، إذْ إنّه لم يكنْ من قبلُ يُسمَح لنا أنْ نعالِجَ أيّ مريضٍ في هذا (البيمارسان) من دون وجود طبيبٍ شيخٍ يُراقبنا. وكان من أجل ذلك يُعقَد امتحانٌ مرّتَين في العام، وقبل الامتِحان كان علينا أنْ نتقدّم برسالةٍ في الفنّ الّذي نُريدُ أنْ ننفردَ بممارسته، فاخترتُ التّشريح، ووظائف الأعضاء، وعرضتُ الرّسالة على مجموعةٍ من الأطبّاء الشّيوخ فناقشوني فيها، ثُمّ أجازوها، ولم يعدْ بيني وبين لقب الحكيم إلاّ الامتِحان.

ليلةَ الامتِحان أرادَ الطّبيب الشّيخ أنْ يبثّ فينا الحذر، ولكنّه في الحقيقة بثّ في قلوبنا الرّعب، قال لنا كأنّه يقرأ من كتابٍ: «وقد اتفق في عام ٣١٩هـ أيّامَ الخليفة المُقتدِرِ أنّ بعضَ الأطبّاء أخطأ في علاج رجلٍ فمات...» فضجّتْ القاعة بالهمهمات، ولكنّه نظرَ في عيوننا مُتحدّيًا، ماطًّا الكلمات حتّى يكونَ تأثيرها أقوى: «فأمر الخليفة أن يُمتحَن أطبّاء بغداد جميعهم من جديد، فامتحَنَهم سِنانُ بن ثابت كبير أطباء بغداد وقتئذٍ، فبلغ عددُهم في بغداد وحدها ثمانمئة طبيب ونيّفًا وستّين طبيبًا، هذا عدا عن أولئك الّذين لم يُمتحَنوا من مشاهير الأطباء، وعدا عن أطباء الخليفة والوزراء والأمراء...» ثُمّ سكت قبل أنْ يُتِمّ: «وليس أمامكم إلاّ أنّ تجتازوا هذا الامتِحان، فإنْ أخفقتُم طُرِدتم، وإنْ مات بينَ أيديكم مريضٌ مُتّم».
“

” (١٠)

الخُروج من بغداد

وكان أعجب ما في (البيمارستان) المرضَى الّذين فقدوا عُقُولهم، وكنتُ أطوفُ بينهم، أجلسُ إليهم وأُحادِثهم، وأستمع إلى أقاصيصهم، فلو أردتُ أنْ أؤلّف في ذلك كِتابًا لفعلتُ، ولكنّني شُغِلتُ بالاستِماع إلى طرائفهم عن الكتابة فيها. وكانوا - على جنونٍ فيهم - أظرفَ النّاسِ وأَمْلحَهم حديثًا.

وكان عددٌ من هؤلاء مِمّن وردوا من الثّغور بعدَ الحروب، ومِن الحَشّاشين الّذين تبعوا (الحسن بن الصّبّاح)، ومن الّذين لا وارثَ لهم، ومن أولئك الّذين غلبَ عليهم السُّكر حتّى أُخِذوا من المزابل وجيء بهم إلى هنا كي يبرؤوا. وكانت الأشجار والأزهار الّتي في رِواقهم أجملَ ما في (البيمارستان) كلّه، وكان رئيس الأطبّاء يصرف لهم طعامًا أوفر مِمّا يصرفه لسِواهم.

ورأيتُ فيهم مَنْ كان يمشي في شوارع بغداد في اللّيالي لا يجد ما يسدّ به رَمَقَه، فيتبع القذر، فيتسخلصُ منه ما وجده صالِحًا للأكل، فيمسحه بيده ويأكله، فإذا أكل خرج إلى برّ دِجلة، فنام في ظلّ نخلةٍ حتّى يُصبِح، فإذا أصبحَ عاد إلى المشي يستصلح الأقذار، ويتبع المزابل، فلمّا أوى إلى هنا أنشدني:

يا دارُ غيّركِ البِلى ومَحَاكِ

يا ليتَ شِعري ما الّذي أبلاكِ؟!

فعلمتُ أنّه كان صاحبَ عِزّ فذلّ. فرقّ له قلبي.

في السّنة الثّانية في (البيمارستان)، وفد إلى هنا رَحّالةٌ قادمٌ من المغرب، كان رجلاً في الأربعين من عمره، وجيهًا في قومه، حسنَ الهيئة، رقيق الحاشية، فطافَ معه عددٌ من الأطبّاء يُرونَه (البيمارستان)، ويَصِفُون له أنحاءه، وهو يستمع استِماع الأديب الأريب، وكان قد قَدِم من الأندلس من غرناطة، وقد طاف بلادَ أفريقيّة وركب البحر والبرّ وعَبَر بلادَ الشّام، حتّى وصلتْ رِكابُه إلى بغداد، وجلسْنا معه مرّة أو اثنتين بعدَ ذلك، فحدّثنا أحاديثَ عجيبة عن أسفاره، وكان أكثرها هولاً ما رواه مِمّا رآه في ركوبه البحر، ومخاطره، وأنّهم فيه كانوا يموتون في الأمواج العاتية والرّياح العاصفة في اليوم عشر مرّات، وقد وصفَ لنا الصّواري والسّفن بأدّق وصفٍ، ورتّب الكلام حتّى خُيّل إلينا أنّنا نراها بأعيننا، فأثّر ذلك فِيّ، وعزمتُ في نفسي أنْ أتّبع منهجه في هذا الوصف، ثُمّ حدّثنا عن النّاصر (صلاح الدّين)، فقال عنه: «إنّه لا يأوي إلى راحة، ولا يخلدُ إلى دَعَة، ولا يزال سَرجُه مجلسه». فذكّرتني عبارته الأخيرةُ قولَ المتنبّي:

مَفْرَشي صَهوةُ الحِصانِ ولكنّ قميصي مَسرُودةٌ من حديدِ

وحبّبَ إليّ وصفُه لصلاحِ الدّين صلاحَ الدّين، فتقتُ إلى أنْ أراه، فعقدتُ على ذلك العَزم أيضًا. كان هذا الرّحّالة الأندلسّيّ هو (ابنَ جُبير).

ثُمّ حدثتْ بيننا جِواراتٌ، وكان في زماننا شيخُنا (ابنُ الجوزيّ)، وهو فقيهٌ وأديبٌ وخطيبٌ، وكان لطيفَ الصّوت، حُلو الشّمائل، رخيم النّغمة، موزون الحركات، لذيذ المُفاكَهة، يحضر مجلسَه مئةُ ألفٍ أو يزيدون، ويتوافدون إلى السّاحات حين يُعرَف موعدُ ذلك. لا يُضيّع من زمانه شيئًا، يكتبُ في اليوم أربعَ كراريس، ويرتفع له في كلّ سنةٍ من كتابته ما بين خمسين مُجلّدًا إلى سِتّين. وله في كلّ علمٍ مُشارَكة. وكان يُراعِي حِفظَ صِحّته، وتلطيفَ مِزاجه. لِباسُه الأبيض النّاعم المُطَيَّب. ولكنّه إلى ذلك كلّه كان كثير الوقيعة في النّاس، لا سيّما في العُلماء المُخالفين لمذهبه والمُوافقين له. فقال لي ابنُ جُبير: «إنّني أريدُ أنْ أحضرَ له مجلِسًا قبل أنْ أتركَ هذه البِلاد». فقلتُ له: «حُبًّا وكرامةً، أتريدُ مجلسَ العامّة أم مجلسَ الخاصّة؟». فقال: «وما شأنُ كلّ واحدٍ منهما؟». فقلتُ: «إنّ مجلسه الّذي يجلسُ فيه العامّة يكون يومَ السّبت في دار الشّيخ بإزاء شطّ دجلة، وأمّا مجلس الخاصّة فيكون يومَ الخميس بباب (بدر) في ساحة قُصور الخليفة ومناظره مُشرفةٌ عليه». ففكّر قليلاً ثُمّ قال: «بل مجلسُ العامّة». فأخذتُه إليه، وكانتْ دار ابن الجوزيّ في باب (البصليّة) من آخر أبواب الجانب الشّرقيّ، فاجتمع النّاسُ له، فصعد المِنبر، وكان أمامه العامّة، وأمامه القُرّاء، فابتدؤوا بالقِراءة وعددهم قد نيّف على عشرينَ قارِئًا، فيأخذ الاثنان منهم أو الثّلاثة آيةً من القرآن يتلونها، على نَسقٍ شفيفٍ، بتشويق، وتجويدٍ، وتطريب، فإذا فرغوا، تلتْ طائفةٌ أخرى على عددهم آيةً ثانية، ولا يزالون يتناوبون على قراءة الآيات حتّى ينتهي عددُهم، وقد أتَوا بآياتٍ مُتشابِهات من سور مُختلفات، فقام الإمام ابن الجوزيّ فابتدأ خُطبته ودَرسَه، فأتى برقائق من المواعظ طارتْ لها القلوب اشتِياقًا، وذابتْ بها الأنفسُ احتِراقا، فبدأ النّاسُ بالبُكاء حتّى ضَجّوا به، وسحّتِ الدّموع مدرارا، وولهتْ لقوله النّفوس حِرارا، فكان آخذَ النّاس بخِطام قلوبهم. والتفتَ إليّ ابنُ جبير وقال: «لو لم نركب ثَبَجَ البحر، ونعتسف مفازات القَفْر، إلاّ لمُشاهدة مجلسٍ من مجالسِ هذا الرّجل، لكانتِ الصّفقةَ الرّابحة، والوِجهة المُفلِحة النّاجحة».

ولقد جررتُ في بغداد بعدَ ذلك ذيولي، وملأتُ من علومها قلبي فوَعى، ولم يكنْ لي بعدَ أنْ فعلتُ ما فعلتُ إلاّ أنْ أمشي، أمشي في طرقٍ لا تنتهي، بغدادُ لا تبلغها وحدها، طرقٍ قصيّة، ودروبٍ بعيدة، وماذا على المَشّاء إلاّ أنْ يظلّ ماشِيًا حتّى يجد ما يؤمّل، ويعقد ذلك الأمل على ما يُحصّل؟!

كان النّاس يقولون: «إنّه هو، ولقد صارَ طبيبًا» فتهاوتْ إليّ القلوب تهاوي الفراش على النّار، فلم يجدوا عندي إلاّ بردًا وسَلامًا، ولقد أقسمتُ بعدَ أنْ رأيتُ ما رأيتُ في (البيمارستان) أنْ أكون نصيرَ الفُقراء، وأنْ أقفَ إلى جانب المحرومين، وأنْ أقتطع من مالي وجسدي من أجل المكلومين، ولقد وجدتُ في نيّتي هذه عزاءً لمن لا عَزاء له!

وها أنا أرى مَنْ مشى قبلي، (أبقراط،) و(جالينوس)، و(ابن سينا)، كلّهم خرجوا من هنا، من هذه الفِكرة العِظيمة، يومَ تكون أعظم من كلّ نازلة، وأكبر من كلّ طامّة، تلكَ يد الله، تعيد ما يَبِس أخضر، وما احترق أنضر، وما جفّ أندى، إنّ هؤلاء البشر ليس لهم في الأرض ولا في السّماء إلاّ طبيب، ففي السّماء كان الله، وفي الأرض خَلْقُ الله، ولولا تلك الرّحمة لهلك النّاس!

لقد تمّ لي في بغداد سنة ٥٨٥ للهجرة ما أردتُ، ولم يبقَ فيها مَنْ يأخذُ بقلبي ويملأ عيني، ويحلّ ما يُشكِل عليّ، وإنّني مثلما فعلوا أفعل، كُلّ عظيمٍ ارتحل خلفَ ذلك النّداء السّماويّ الّذي يسمعه في قلبه مُشوّشًا إلى بلادٍ بعيدةٍ من أجل أنْ يسمعه هناك صافِيًا، وإنّه لن يشعر بأنّه عاشَ إلاّ إذا سمع ذلك النّداء بذلك الصّفاء مهما امتدّ به العمر ولو عاشَ ألفَ سنة!

ليسَ عليّ أنْ أقول أكثر من هذا: أنا من بغداد، سائحٌ يبحثُ عن الحكمة، والحكمة إشراق. كلّ ما في يدَيّ من مال لم يُغنِ عمّا أريدُ شيئًا، كان المال بُلغة أتبلّغ بها غايتي في السّفر، وإلاّ فيكفيني من الدُّنيا ثوبٌ أبيضُ ألبسُه، وعمامةٌ أعتمرها، ودابّةٌ أركبُها، وبِلادٌ واسعةٌ أطوفُ فيها بحثًا عن الحِكمة، ولقد بحثتُ عنها كثيرًا، في تراتيل الآيات قُبيل الغروب في رمضان، وفي أناشيد الفُقراء، وفي كتابات المعزولين، وفي أغاني العُشّاق، وفي تأمّلات الفلاسفة، وفي سُويعات الأصيل في ماء دجلة حينَ يكون خالِيًا من كلّ إنسيٍّ إلاّي، وفِيّ، في روحي الّتي عندما رأت نور الله اضطربتْ، فظلّتْ في اضطرابِها وضَلّتْ، فما وقعتُ على ما أريدُ منها، كانت تَبدّى مثلَ غبش الظّلام في الفجر ثُمّ تختفي في الصّباح، ولقد كانتْ أعزّ مفقود، وأجلّ مطلوب، ولقد بحثَ عنها قبلي كثيرون، (ماني) و(ديوجين) و(زرادشت) و(لقمان)، وغيرهم... فما وجدوها، ولئن أعيتْ هؤلاء فما تفعل بي؟ ولكنّها النّار المُقدّسة تضيءُ لي من بعيدٍ في اللّيل فأتبعها، حتّى ولو ظلّتْ تبتعد كلّما اقتربْتُ، فإنّني لن أتوقّف عن السّعي إليها!

قال لي أبي: «النّاس يسعَون وراءَ أمورٍ كثيرةٍ، ولكنّهم لا يعرفون أنّ ما يسعون إليه سيموتون عنه، فلا تسعَ إلى ثروة فمن سعَى إليها مات عنها، ولا يكون المال إلاّ لمن خَلَفك. ولا تسعَ إلى الشّهوة، فإنّ زمن انقِضائها قصير، ولا إلى شُهرةٍ فإنّ حِينَ انقضائها قريب، ولكن اسعَ إلى العلم، فإنْ مُتّ عنه، كان لكَ نورًا في القبر يُضيء ظُلُماته ويُؤنِس وحشته، وكان لمن خلفكَ نورًا في دروبهم يجعل للحياة معنى، وللوجود قيمة».

****

كان طاهرًا ولكنّه ليس نبيًّا، وكان عاشِقًا ولكنّه ليس مجنونًا، وكان واضِحًا ولكنّه ليسَ الضُّحى، وكان غامِضًا ولكنّه ليسَ الدُّجى، وكان سهلاً ولكنّه ليس البحرَ، وكان صعبًا ولكنّه ليس الصّخر، وكان هو!

في عام ٥٨٥ غادر بغداد إلى الأبد... غادرها ليعود إليها، ولكنّه لم يعدْ، أو لم تبسط له الدّربَ ليعود، كأنّها تقول: مَنْ تركني تركتُه ولا أبالي... ولربّما حَزِنَ حتّى الموت على أنّها لم تفتح له قلبَها، ولا بابَها، ولا حتّى عينَيها. ولقد حال بينهما موج البِعاد فكان من المُغرَقين!! ❝

❞ القِسم الثّاني

مِصرُ الغاية

تغرّبَ لا مُستعظِمًا غيرَ نفسِهِ

ولا قابِلاً إلاّ لخالِقِهِ حُكما

ولا سالِكًا إلاّ فُؤادَ عَجاجةٍ

ولا واجِدًا إلاّ لمكرمةٍ طَعْمَا

يقولون لي: ما أنتَ؟ في كلّ بلدةٍ

وما تبتغي؟ ما أبتغي جَلَّ أنْ يُسمَى

(المتنبّي) ❝

❞ (١)

لو قلتُ كلّ ما أريد، لما وجدتُ في الأرضِ كراريس تملأ ذلك، لكنهم كانوا يقولون: «حسبُكَ مِن السّوار ما أحاطَ بالمِعصم». قالتْ أمّي: «تتركُنا؟!». أجبتُها: «أبي عندك، وفيه عنّي غِنًى»، كنتُ أناكِفُها، لكنّها استدركتْ: «بعضُ الأزهار للشّمّ، وبعضُها للرّيح». «إنّني مُرتَحِل، ولعلّ غايتي أكبرُ من وقتي، ومنّي. دُعاؤك قد يُقرّب الغايةَ يا أُمّي». «إنّني أخافُ عليك». سألتُها ورأسُها إلى صدري: «مِمّ؟». «الغربة موت يا بُنيّ، أخشى أنْ تذهب في دربٍ لا تؤوبُ منه إلينا». «غايتي مِصر يا أمّي، والنّاصر صلاح الدّين، وأهل العِلم، أريدُ أنْ أتفرّغ للتّدريس والكِتابة، وإذا أسعفني الحظّ، أهديتُه ما صنّفتُ أو بعضَه». «لقد حلمتُ أمسِ يا عبد اللّطيف أنّكَ ستكون مُنقِذَ مِصر». ضحكتُ ساخِرًا: «كبرتِ يا أُمّي، فبدأتِ... ثُمّ... أنا لا أؤمن بالأحلام». نهرتْني: «لا تقلْ ذلك، إنّها تتحوّل إلى واقع، وأنتَ تعرفُ ذلك أكثر مِنّي». تذكّرتُ الأفعى و(البيمارستان) قبل أربع سنواتٍ، فرجفتُ، بلعتُ ريقي، وهتفتُ: «لستُ أنا الّذي أقول ذلك، الله قال: «أضغاثُ أحلام». كادتْ تلطمني على وجهي: «يا أحمق». فاجأتْني الشّتيمة، نظرتُ في عينَيها، تابعتْ: «لقد قاله الله على لسانِ الكَهَنة؛ لأنّهم لم يستطيعوا تعبير الحلم، أمّا يوسُف فكان تعبيره للرّؤيا حقيقة، أمْ أنّكَ تتغابَى على أُمّك؟ وتقول مسكينة لقد خَرفتْ؟!». «يكفي يا أمّي، أنا مُرتحِل». «والحلم؟». «ما شأنه؟». «أقُصّه عليك؟». «لن يتغيّر شيءٌ يا أمّي». «آه منك... أنا أعرفُ أنّكَ تهرب، ألمْ تُعجبكَ بغداد؟». «ومن قال ذلك؟ إنّني أقمتُ بها إلى اليوم، أليسَ هذا دليلاً على أنّني لم أخترْ من البِلادِ سِواها». «وها أنتَ ترتحل عنها». «لأعودَ لها». «لن تعود... أنا أعرفُ ذلك... لن تعود...». اضطربتُ قليلاً: «الحلم قال لك ذلك؟». «نعم، لن تعودَ إلاّ في تابوت». أردتُ أنْ أضحكَ وسطَ الانقِباض الذّي ملأ المكان فأكملتُ: «تحمله الملائكة». قطعتُ ضحكتي من مُنتصفها، حينَ شدّتْ على أسنانِها: «هَيّا... هيّا أيّها العنيد، الرّاحلة تنتظرك، لقد جهزّتُ لكَ بعضَ الطّعام لتستعين به في سفرك». كان أبي يسمع ويهزّ رأسَه، شَدّ على يدي: «لو قدّر الله لنا ألاّ نراكَ مرّة ثانية... أقول لو قدّر الله... فأريد منكَ أنْ تُعطي العلم الّذي أعطاه الله لك حَقّه...» عانقتُه، وأردف: «وأدمْ صُحبةَ المساكين، فإنّهم يعزّفونك الله، ويُعزّفونكَ كيفَ تشكره».

كانت مصر غاية، ومَنْ لم تكنْ مصرُ غايتَه قصرتْ به السّبيل فبعثرتْه في المنافي، وكلّ غايةٍ لا تمرّ بها تظلّ مبتورة. ولَمّا خرجتُ في ضُحى ذلك اليوم، لَوى عِنانَها ما لَوى عِنان راحلة ابن الوليد، فطوّفتْ في بلادٍ كثيرةٍ، قبل أنْ تحطّ رِكابَها في مصر.

وصلتُ إلى المَوْصِل، كانتْ باردة، وكان الوقتُ الّذي تراءتْ لي دورُها فيه من بعيدٍ ليلاً، فزادَ ذلك من رجفة القلب، وكنتُ أعرفُ أنّني لا أريدُها هي، ولكنّني أريدُ أخواتِها، وبعضُ الوصل إلى المحبوب يكون عبر مَنْ لا تُحبّ، وقد لا تكفي الإشارة، فيكون في العبارة رَسول، ولا يحمل العبارة إلى المحبوب إلاّ رَسول، كانت المَوْصِل رَسولَ مَنْ ضربتُ أكبادَ الإبل لأجلها.

لم أجدْ في المَوْصِل بغيتي! لكنّني وجدتُ (كمال الدّين بن يونس) جيّدًا في الرّياضيّات والفِقه مع شيءٍ من الطّبّ، فوعيتُ ما عنده، ثُمّ عَرَضَ عليّ صاحبُ الموصل أنْ أدرّس في بعضِ المدارس، فاخترتُ مدرسة (ابن مُهاجر) المُعلّقة، ودار الحديث الّتي تحتَها، وأقمتُ هناكَ سنةً أدرّس الفقه واللّغة، ثُمّ طلبتُ من ابن يونس شيئًا من تصانيف (شهاب الدّين السّهروردي)، وكان النّاس قد فُتِنوا بما يكتب، فلمّا اطّلعتُ على (التّلويحات) و(اللمحة) و(المعارج) وجدتُ جهل النّاس فيما يعتقدون فيه فاشِيًا، والنّاس تتبع المُصوّت لا الصّامت، وتُميل الأعناق إلى المُشتهِر لا إلى المُستتِر. ورأيتُه يُثبِتُ في كُتُبه حروفًا مُقطّعة يُوهِمُ بها أمثالَه أنّها أسرارٌ إلهيّة، وما أدري كيف يُعطي الله أسرارَه لمثل هؤلاء؟!

وتركتُ الموصِلَ إلى دمشق، فوجدتُ بعضَ أساتذتنا الّذين أخذْنا عنهم العِلم قد جاؤوها يعلّمون أهلَها، مِمّن جَمَعهم صلاحُ الدّين لذلك، واجتمعتُ بالكنديّ البغداديّ النّحوي، وجرتْ بيننا مُباحَثات، وكان من أهل صِلة السُّلطان، وقد رأيتُ فيه إعجابًا برأيه، وإيذاءً لجليسه، فعرفتُ أنّ الكِبر أصلُ القواصِم، فمنْ قُصِمَ في عِلمٍ أو في ظهر، فلا بُدّ أنْ يكون وراءَه الكِبر، وأظهرني الله عليه في مسائل كثيرة.

وكانت أعوام دمشق أعوامَ استقرار طيّب، وعملتُ فيها تصانيف كثيرة، منها غريب الحديث الكبير جمعتُ فيه غريب أبي عبيد القاسم بن سَلاّم، وغريب ابن قتيبة، وغريب الخطّابي، وكنتُ قد بدأتُه في الموصل، وعملتُ له مُختصَرًا سَمّيتُه (المُجرّد)، وأنهيتُ كتاب (الواضِحة في إعراب الفاتحة).

وتركتُ دمشقَ إلى القُدس، فبالقُدس تطيب النّفس، بذل لها الفاتِحون دِماءَهم، والعلماء مِدادَهم، والمُجاهِدون جِلادَهم، والعُشّاق وِدادَهم، وتركوا من أجلها بِلادَهم، وفيها البقعة الّتي درجتْ عليها أقدام النّبيّ، والسّاحة الّتي صلّى خلفَه فيها النبيّون، وسجدتْ عليها جِباههم الطّاهرة، فأيّ قلبٍ ليسَ فيه حُبّ القدس فهو قلبٌ بلقع.

أخذني من القدس بعضُ المعارف إلى عَكّا، واجتمعتُ فيها ببهاء الدّين بن شَدّاد، قاضي العسكر يومئذٍ ومُؤرّخ صلاح الدّين، وهو من أهل الموصل ابتِداء، وكان العام الّذي قضيتُه في الموصل أُعلّم أهلَها قد أوصلَ سُمعتي إليه، فاستقبلني أحسنَ استِقبال، وأقبلَ عليّ، ورحّب، وبسطَ الرّداء، وقال: «نجتمع اليوم بِعماد الدّين الكاتب»، فقلتُ: «إنّه سَبَقَنا إلى العِلم في المدرسة النّظاميّة ببغداد، وقد كنتُ أنا وأصحابي نتذاكر بعضَ رسائله، ونُثني عليه». فقال: «وإنّه سَمِعَ بك، وفي شوقٍ للقائك». ومضينا إلى خيمته، وكانتْ قريبةً من خيمة ابن شدّاد، فلمّا دخلنا عليه، وجدناه يكتبُ كتابًا إلى الدّيوان بقلم الثُّلُث من غير مُسوّدة، وكنتُ من أهل الخطّ أيّام بغداد، فرأيتُ خَطّه بديعًا، وراجَعَ معي بعضَ مسائل عِلم الكلام، وقال: «قوموا بِنا إلى القاضي الفاضل». فقلتُ: «أهو هنا؟». فقالا: «نعم، وإنّ لك عنده ورقة». فقلتُ: «أجتمع بثلاثة أفذاذٍ في ليلةٍ واحدةٍ، إنّ هذا لمن طالع السّعد». فَضَحِكا، ودرجْنا إلى القاضي الفاضل، فدخلْنا عليه، فرأيتُ شيخًا ضئيلاً كُلّه رأس وقلبٌ، وهو يكتب ويُملي على اثنين يجلسان بجِواره، ووجهه وشفَتاه تلعب ألوان الحَرَكات لقوّة حرصه في إخراج الكلام، وكأنّه يكتبُ بجملةِ أعضائه. فلمّا فرغ من إملائه، سألني عن جواب (إذا) في قوله تعالى: «حتّى إذا جاؤوها وفُتِحتْ أبوابُها وقال لهم خَزَنتُها...» فأجبتُه، ثُمّ سألني عن جواب (لو) في قوله تعالى: «ولو أنّ قرآنًا سُيّرتْ به الجِبال أو قُطّعتْ به الأرضُ أو كُلِّمَ به الموتى...». فأجبتُه. وسألني عن أشياءَ أخرى، فقال لي: «تذهبُ إلى دمشق ونُجري عليكَ الجِرايات بأمرٍ من النّاصر صلاح الدّين نفسِه». فقلتُ: «قد كنتُ في دمشق، وإنّني أريدُ مصر». فقال: «إنّ السّلطان مشغولٌ بِقِتال الفرنجة في عكّا هو وأخوه العادل، وإنّها حصينةٌ عليه، ولا أدري إنْ كان سيفرغ من ذلك في وقتٍ قريب أم سيطول الأمر، ونتركها دون أنْ نفتحها». فقلتُ له: «لا بُدّ مِن مِصْرٍ وإنْ طالَ السَّفَرْ». فضحك، وقال: «لو سمعكَ ابنُ حنبل لَما أجازك، فهو أوّل مَنْ قال: لا بُدّ مِن صنعاء وإنْ طال السّفر».

وكتب القاضي الفاضل إلى وكيله في مصر ورقةً صغيرةً لكي يعتني بي وبمقامي فيها، فأتيتُ مصر، فدفعتُها إلى الدّيوان، فإذا وكيلُه هو (ابنُ سناء المُلك) وهو شاعرٌ مُفلق، وشيخٌ جليل القدر، نافذ الأمر، فأنزلني دارًا مُريحة، وجاءني بمالٍ وطعام، ثُمّ مضى إلى أرباب الدّولة، فقال لهم: «إنّ عبد اللّطيف هذا ضيفُ القاضي الفاضل». فاجتمعتْ إليّ الصِّلات، ودارتْ عليّ الهدايا من كلّ جانبٍ، فارتحتُ إلى ذلك، وكان القاضي الفاضل يبعثُ إلى ديوان مصر كلّ عشرةِ أيّامٍ تذكرةً فيها مهمّات الدّولة، وفيها فصلٌ يؤكّد الوصيّة في حقّي، وكان هذا كرمًا بالِغًا منه، ثُمّ عُهِدَ إليّ التّدريس في مسجد الحاجب، فأقمتُ فيه على ذلك مُدّة يسيرة.

ثُمّ عرفتُ أنّ الطّبيب (موسى بن ميمون) في القاهرة، وهو يهوديّ، كان طبيبًا لصلاح الدّين، وقد قرأتُ بعضَ كراريسه، وكانوا يُسمّونه الرّئيس موسى، على غِرار الرّئيس ابن سينا، وقد تُقتُ إلى لِقائه وحِواره والأخذ عنه، وقد عرفتُ أنّه كان يسكنُ في الفُسطاط، وأنّه كان يُقابل السّلطان صبيحة كلّ يومٍ في القاهرة، ويعودُ إلى بيته في النّصف الثّاني من النّهار فيجد أروقة البيت مُمتلئةً بالنّاس مِن اليهود، ومِن المصريّين، وفيهم ذوو الشّأن والبُسطاء، والقُضاة ورجال الشّرطة، والأحبّة والكارهون، وخليطٌ عجيبٌ، فإذا ترجّل عن دابّته، غسل يدَيه، وخرجَ إليهم يستأذنهم بعضَ الوقت ليأكل فهو جائع، ثُمّ يعودُ إليهم، ويُعالِجهم واحِدًا واحِدًا، ويكتبُ لهم ما يحتاجونه من وصفاتٍ دوائيّة. أمّا في (البيمارستان) فكان يقضي معظم النّهار يطوفُ حول الأسرّة والمرضى دون أنْ يرتاح ساعةً واحدة... إنّ رجلاً كرّسَ نفسَه طبيبًا لخدمة النّاس بهذه الصّورة ليستحقّ أنْ يُسعَى إليه.

فلمّا التقيتُه وجدتُه فاضِلاً، لكنّه غلبَ عليه حبّ الرّياسة وخدمة أرباب الدُّنيا، وما شأني بهذا، إنّما أريدُ كُتُبَه، ولقد فعل، فأخذتُ عنه كِتابًا في الطّب جَمَعه من ستّة عشر كتابًا لجالينوس. وبهذا تمّ لي ما أردت! ❞

❝ (٢)

كيفَ تعرفُ النّاس؟!

ومصر الّتي تُعلّمك ما يملأ العقل، هي ذاتُها الّتي تُعلّمك ما يملأ البطن. وكان هذا؛ امرأةٌ من أحياء الفُسطاط كانتْ تأتيني لِقاء أكرةٍ بالطّعام في كلّ مساء، فسألتُها: «وهل تُعلّميني الطّبخ، فأطبخَ أنا». فازورّتْ، ولم ترضَ ذلك، وسألتْ: «ولِمَ تريدُ تعلّم الطّبخ؟». أجبتُها مُستغربًا: «وهل تعلّم الطّبخ حرام؟ أم أنّه مقصور على النّساء دون الرّجال؟». فزمَّتْ شفتَيها غيرَ مستظرفةٍ دُعابتي، وقالت: «لا، ليس حرامًا، ولكنّه قَطعٌ لرزقي، فهل يُرضيك هذا؟ قطع الأرزاق ولا قطع الأعناق!». شهقتُ: «وكيفَ فيه قطعٌ لرزقك؟». «لن أعودَ أطبخ لك، فما كان يسوقه الله من رزقٍ من خلالك ينقطع». ضحكتُ، وقلت: «ولكنّني قد أجوع في غير الوقت الّذي تأتين فيه بالطّعام، ثُمّ إنّكَ تطبخين لي ولِسواي، ولن أكون أنا وحدي الّذي أُجري عليكَ جرايتَكِ وعيالكِ كلّها، إنّما أنا واحدٌ». فأمّنتْ: «صحيح، ولكنّ يدكَ مبسوطة». فطربتُ: «هل هذا مديح؟». «المديح له ثمن يا سيّدي». ضحكتُ هذه المرّة من قلبي: «اسمعي يا دُرّيّة... أليسَ هذا اسمَكِ؟». «بلى، يا سيّدي الشّيخ، دُرّيّة...». «اسمعي يا دُرّيّة، أنا سأُعطيك على كلّ طبخةٍ أتعلّمها منك عشرة أضعاف ثمنها؛ هل هذا جيّد؟». رقصَ قلبُها من الفرح، كادتْ تُزغرد، أو فعلتْ، صوتٌ ما يُشبه الزّغرودة أطلقتْه من فَمِها قبل أنْ تبترها في آخرها، لتقول: «فإذا تعلّمْتَ الطّبخ منّي، هل ستجدُ لي خدمةً أقدّمها لك مقابل بعض الدّراهم؟». سألتها: «أينَ تُقيمين يا دُرّيّة؟». «في الجَبّانة في...» حوقلتُ قبل أنْ تُتِمّ، وقاطعتُها: «هل تُقيمين في المقبرة؟». «نحن لسنا مثلك يا سيّدي، أنا وأبواي وأجدادي كلّهم أقاموا في هذه التّربة، ثُمّ إنّه ليس مكانًا سيّئًا، يقولون إنّها التّربة الّتي دُفِنَ فيها الشّافعيّ، فنحن نعيشُ في بَرَكته». سألتُها: «وكيفَ تأتين من هناكَ إلى هنا؟». «أمشي على رجلَيّ، كيفَ سآتي؟ هل تظنّ أنّني أملك عربةً أو حتّى حِمارًا لأطوف بالطّعام الّذي أطبخه لبعضِ الشّيوخ لِقاء بعضِ الدّراهم». «لا بأس، أعني أنّكِ تمرّين بكلّ هذه الأسواق والمساجد والتّكايا والشّوارع والأزقّة وأنتِ تطوفين؟». «إي يا سيدي، أنا أطوف القاهرة والفسطاط على رِجلَيّ شبرًا شبرًا كلّ يوم». «إذًا عظيم». «ما هو العظيم يا سيّدي؟». «ستكونين دليلتي لبعض الأماكن يا دُرّيّة، وربّما أطلب منكِ أنْ تأتيني ببعض الأخبار أيضًا». سألتْ بتشكّكٍ: «وتُعطيني مقابل ذلك بعض الدّراهم؟». «بالطّبع يا دُرّيّة، بالطّبع». هذه المرّة زغردتْ على الحقيقة، وصاحتْ: «سأُعلّمكَ إذًا كلّ الطّبخات المصريّة يا سي...» توقّفتْ قبل أنْ تحكّ ذقنها، وتقول: «هو اسمك إيه يا سيدي؟». «أنا عبد اللّطيف يا دُرّيّة، أنا عبد اللّطيف...».

كان البيت الّذي أجراه عليّ ابنُ سناء المُلك بيتًا واسِعًا، ومُجهّزًا بكلّ أدوات الرّاحة، ومع أنّه لم يكنْ يلزمني غير غرفةٍ للنّوم، وغرفةٍ أخرى فسيحة تكون للقراءة والكتابة، فإنّ البيت الّذي أسكنه يحمل كثيرًا من التّفاصيل الأخرى غير المُتوقّعة؛ يُمكنك أنْ ترى قوسَ المدخل الحجريّ الأصفر من هنا، من الخارج عالِيًا مُزخرَفًا بنقوشٍ عربيّة من آياتٍ قرآنيّة، فإذا ولجتَ البوّابة الخشبيّة الحمراء الضّخمة، والتي تُدفَع بمقبضٍ نُحاسيّ أصفر، وتُغلَق بمزلاجٍ حديديّ من الدّاخل بشكلٍ أفقيّ، راعَك البَهو، السّاحة الواسعة الّتي أمام البيت، ساحةٌ تمتدّ بطول خمسةٍ وعشرين ذراعًا، وبالعرضِ ذاته، مُشجّرة، بحوالي عشرةِ أصنافٍ من الشّجر الفوّاح، الّذي تنشطُ رائحته في اللّيل أكثر منها في النّهار، فتبعثُ أشذاؤه الهناءة للنّائم في الغُرَف. على حروف الأطراف الأربعة يقفُ شامِخًا اثنا عشر عمودًا أسطوانيًّا، ثلاثة أعمدةٍ في كل ضلع، تفصل بين كلّ عمودٍ وآخر خمسة أذرعٍ تقريبًا، ويقفُ فوق هذه الأعمدة بناءٌ آخَر، مكوّن من غرف الطّابق الثّاني، من الأعمدة إلى الجدار هناك ستّة أذرعٍ هي سقوفٌ للذي ينظر من هنا؛ من هذا الطّابق السّفليّ، وهي أرضيّة الطّابق العلويّ والممرّات الّتي أمامه، فإذا نظرتَ إلى الزّاوية البعيدة عن يسار البّوابّة في الطّابق الأرضيّ، رأيتَ إسطبلاً للخيل الّتي أُهْدِيتُها مع البيت، كانت خيلاً بلقاء، مُحجّلة، يعلو وجهها نمشٌ أسود، وأهدابُها طويلةٌ تُزيّن عيونًا سوداء واسعة شديدة الجَمال، ولقد ألفتْني الخيلُ من أوّل مجيئي إلى هنا.

فإذا تجاوزْتَ الإسطبل بغرفةٍ للعلف المُخزّن أو اثنتين جِهةَ القبلة، وجدتَ غرفةَ المطبخ، حيثُ كانتْ تُعدّ هنا أصناف الأطعمة المتنوّعة.

كان الممرّ الّذي هو بعرضِ ذراعَين أو أقلّ قليلاً في الطّابق الثّاني والّذي يكون أمام الغُرف، في الجهات الأربع مُحاطًا بطفّ عن يساره، مثل درابزينٍ، وكانتْ فيه نُقوشٌ وكُوىً يُمكن للنّاظر إليها من ساحة الطّابق الأوّل أنْ يُعاين جَمالَها، وتنسيقها.

في الطّابق الأرضي، خصّصتُ الغرفة الّتي عن يميني للمكتبة، وقد أمر لي القاضي الفاضل بعددٍ وافرٍ من الكُتُب حتّى إنّها ضاقتْ بالرّفوق بعدَ أربعة أشهرٍ فحسب، وكنتُ أجلسُ في الغرفة الثّانية للقراءة والكتابة، وصارت الكتب الّتي تفيض عن سعة الغرفة الأولى، توزّع على بقيّة الغرف في هذا الطّابق، فإنِ امتلأتْ فإنّ هناك غرفًا في الطّابق الثّاني تكفي لذلك.

الطّابق الثّاني كان مُخصّصًا لغرف النّوم، تلك الغُرَف الأوسع، والّتي في كلّ واحدةٍ منها شُبّاك وسيعٌ يُطلّ جهة الشّرق على شارعٍ خالٍ من الدُّور، بعكس الغُرف الّتي كانتْ جهة الغرب تُطلّ على أحياء سكنيّة تضجّ بالنّاس، وكانت نوافذ هذه الغُرَف من الخشب المحفور الحافل بالزّخارف، وكانتْ عليه نُقوش لحيواناتٍ مُزخرَفة، محفورةٍ بشكلٍ دقيقٍ ومُتقَن، وكان الخشب بُنّيًا لامِعًا، مُعتَنًى به، لا تعلو زخارفه ونقوشه ولا فَتَحاته الصّغيرة أيّ ذرّة غُبار. وكانتْ النّافذة مُقسّمة إلى أربعة أو ستّة أقسام، على مرحلتين أو ثلاث، كل مرحلة تعلو الّتي تحتها وفي كلّ مرحلة ظرفتان، يُمكنك أنْ تختار أيّ واحدةٍ لتفتَحها حسبَ رغبتكَ دون سِواها، إذا كان ذلك من أجل الشّمس أو النّور، ويُمكنك أنْ تفتحها كلّها لتُمكّن الشّارع الأنيق الّذي تحتها من أنْ يبتلع غرفتك!

كان الشّارع الّذي تُطلّ عليه الغرفة الّتي أنام فيها هو شارع العَرَبات، أكثرها عربات الأمراء أو الوزراء أو التُّجّار أو الأثرياء، أو القُضاة، إذا ما أرادوا اختصار المسافة إلى غاياتهم، وإنْ كان يلذّ لكثيرٍ منهم أنْ يستخدم شارع السّوق ليرى النّاس، ولربّما ليستمتع بمنظر البُسطاء أو الفقراء؛ فيمارسوا شيئًا من الرّفق والكَرم الّذي يغزو قلوبهم فجأةً، بعد أنْ يكونوا قد نَسُوا أنّ هناكَ شعبًا كامِلاً يرزح تحت الفقر! أمّا في الجهة الأخرى فكان الحيّ الّذي يتكوّم فيه النّاس في الشّارع الّذي أقيم عليه مسجد (الصّالحيّ) الكبير، المسجد الّذي عَهِد إليّ ديوان مصر بالتّدريس فيه.

كان المسجد قريبًا من البيت، وكنتُ أذهبُ إليه وأعودُ منه مشيًا، فإذا طلبني ابنُ سناء الملك أو ذهبتُ لغايةٍ في ديوان مصر، اعتلوتُ صهوة حِصاني الّذي سمّيتُه (الأبلق)، وخرجتُ من البوّابة، ومضيتُ أطاردُ فوقَه في شوارع القاهرة، إلى أنْ أصل إلى ما أريد، وكان المسجد لا تُقام به خُطبة الجمعة، وقد بناه من قبلُ الصّالح طلائع بن رُزّيك، ولهذا سُمّي الصّالحي، وكان الصّالح وزير (الفائز) و(العاضد) من الفاطميّين، وكان ينوي نقل رأس الحُسين بن عليّ من عسقلان إليه لأنّه خافَ من هجوم الصّليبيّين عليه، فلمّا فرغ منه لم يُمكّنه الخليفة (الفائز) من ذلك، وبنى له مسجد الحُسين بجوار قصره، ونقل رأسَ الحُسين إليه في عام ٥٤٩ للهجرة قبل أنْ أجيءَ إلى هذا الكون. فلمّا أتيتُ مصر وقد دالتْ دولتهم، وذهبَ صلاح الدّين بكلّ آمالهم درّستُ في (الصّالحي) على أمل أنْ تعود الخُطبة إليه.

كان المسجد بناءً مُتقنًا فخمًا على نمط ما ابتنى الفاطميّون لأنفسهم من القُصور، وفيه من الأبّهة ما فيه، وله ساقيةٌ تنقل الماء إليه من النّيل على القرب من باب الخَلْق. وقد اعتنى به ديوان مصر، ودرّستُ فيه أوّل ما ابتدأتُ اللّغة والنّحو، ثُمّ عكفتُ على تدريس الطّبّ والحِساب، وكان لدرس الطّب مجلسان يومَي الاثنين والخميس بعدَ صلاة العصر. وقد حضر هذا المجلس مَنْ كان في طريقه إلى أنْ يُصبح طبيبًا منفردًا، وبعضُ الأطبّاء من البيمارستان الصّلاحيّ الّذي أُقيم على ما تبقّى من أحد قصور الفاطميّين.

ومصر تفيضُ بالنّاس يومئذٍ، والنّاس فيها أطيابٌ أحبابٌ، يَهَشّون لكلّ حادثة، ويَبَشّون حتّى في النّوازل، ولا تجد منهم جازِعًا واحدًا على كثرةِ فقرٍ فيهم، وكنتُ أخطّط إلى أنْ أقتطع جزءًا من وقتي أطوفُ به أسواقَ مصر، وأبوابَها وحواريها حتّى أرى النّاس، فإنّك إنْ لم تخالطْهم وتبعْ معهم وتشترِ منهم لن تعرفهم، وأكثر أهل مصر إذا عُرِفوا أُحِبّوا؛ لأنّهم يجدون في كلّ شيءٍ فُسحةً للبهجة والنّسيان، وهم كما قال الشّاعر:

إذا جاءَ باغي الخيرِ قُلْنَ بَشاشَةً

لَهُ بوجوهٍ كالدّنانير: مَرْحَبَا

وأهلاً، ولا ممنوعَ خَيْرٍ تُريدُهُ

ولا أنتَ تَخشَى عِندَنا أنْ تُؤَنَّبا

كان المطبخ في بيتي مُجهّزًا بموقدٍ كبير يحتلّ وسط الواجهة الّتي عن يسار الدّاخل، وكان الموقد مبنيّا من الطّين، وفوقه بسطةٌ من الحجر، ويرتفع من الموقد إلى الأسطح منفذٌ يُصرّف الدُّخان إذا ما أوقدتْ فيه النّار من أجل إنضاج الطّعام، وحتّى لا تملأ البيتَ روائحُ الطّبخ، وكان الدّاخون هذا يصرف الرّائحة في الشّارع المُكتظّ بالنّاس، وكان الحطب وفيرًا في

غُرف المؤن والغِلال الّتي تجاور الإسطبل، وفي الجهة الّتي تقع بجانب الموقد في المطبخ هناك أرفف خشبيّة تستقرّ فوقَها أواني الطّبخ من الصّحون والملاعق والآنية الفَخّارية، وبعضُ الدّوارق الزّجاجيّة الّتي كان يُنقَع فيها الشّراب، كما أنّ أدوات الموقد

كانت تتدلّى بدلالٍ على الحائط بجانبه، فكان هناك المشبَك الّذي يُشوَى فوقَه اللّحم، وكان هناك المنفاخ الّذي يُنفَخ فيه على اللّحم حتّى ينضج بشكلٍ أسرع، وكان هناك الذّراع المعدنيّة الّتي تقلّب اللّحوم، ناهيك بعددٍ آخَر من السّكاكين والصّحفات.

وفي وسط غرفة المطبخ تستقرّ الطّاولة الخشبيّة الثّقيلة، لم أكنْ أنا قادرًا بجسدي النّحيل والضّئيل على زحزحتها من مكانها، ويُمكن أنْ يجلسَ إليها أربعة أشخاصٍ أو ستّة على مِقعدَين خشبيَّين مُستطيلَين، مُتقابلَين تحتَ سطحها.

لا يُوجَد عددٌ من القطط أكثر من تلك الّتي في مصر، وكانتْ تتمسّح بكلّ أحدٍ، وتهوي إلى كلّ رائحة، وفي بيتي هذا عاشتْ عشرات القِطط على ما يُلقَى إليها كلّما أوقدتْ النّار في المطبخ وفاحت الرّائحة! ”

”(٣)

امرأةٌ مِصريّة

«كيف تكون امرأةٌ مصريّة؟». «امرأةٌ مصريّة؛ النّساء يتشابَهْنَ، بعدَ الثّلاثين يتشابهْنَ أكثر، نمطٌ لا يُمكن أنْ تُخطِئه، ما الّذي سيميّزها؟! ماذا في النّساء غير اللّسان الّذي لا يكفّ عن الدّوران كأنّه مِغزل؟! هذه الّتي قلتَ لي ما اسمُها... درّيّة هه... ما المختلفُ فيها؟». «أشياء كثيرة، لن تراها في حلب، ولا في بغداد، ولا في القدس، ولا في أيّ مكان». «مثل ماذا؟ هل أنتَ متزوّج؟». «ستعرف من خلال قصّتي مع دُرّيّة». والشّقّ الثّاني من السّؤال؟». «دَعْكَ منه؛ فالإجابة عنه لن تقدّم ولن تؤخّر شيئًا».

(البامية)؛ تعرفها؟ هي بقدر إبهام اليد، شديدة الخُضرة، عليها وَبَرٌ يمكن الإحساس به إذا مررتَ بإصبعكَ فوقَه هكذا، عليكَ أنْ تكون رقيقًا؛ هكذا يا سيّدي، المرور الرّقيق يُشعرك بوجود هذا الوَبَر النّاعم، لو دَعَكْتَه بقوّة أو بسرعة فكأنّما مررتَ على بُستانٍ جميلٍ وأنتَ أعمى، هل تفهمني يا سيّدي؟ أعرف أنّني كثيرةُ الكلام، وأنا أمام شيخٍ مُعمَّم، يفقه في الطّب كما يفقه في اللّغة، ولكنْ ماذا في الشّيوخ المُعمَّمين؟ يكفي أنّ قلوبَهم تظلّ خضراء مهما كبروا في السّنّ... هل تعشقون مُتأخّرين أيّها الشّيوخ؟! مهما يكنْ، أعرفُ زَلّاتِ لِساني، سأحاول أنْ أكبح جِماحه، فقط أردتُ أنْ أجارِيَك، وهذا كلّ ما في الأمر. لنعدْ إلى طبختنا؛ إذا شققتَ البامية، وجدتَ فيها صَفًّا من الحبوب المُستديرة بيضاء كأنّها لوبياء هَشّة، وتضرب إلى الحلاوة.. هلاّ تذوّقتَ يا سيّدي بنفسكَ حتّى تتأكّد من صِحّة كلاميّ... نعم، ستجدُ كلامي صحيحًا؛ فأنا لا أكذب. حينَ تُطبَخ البامية مع اللّحم تُصبح أشهى، نحن في التّربة لا نأكل اللّحم كثيرًا... هل تشتري اللحم كثيرًا يا سيّدي؟ لو كان لكَ أنْ تشتريه غدًا مثلاً، سآتي وأطبخها باللّحم أمامك، لكنّها تُطبَخ كذلك مع المَرَق، والمَرَق كثير، يُمكن أنْ يكون لكلّ نباتٍ مَرَق، البامية لا تتأثّر بالمرق كثيرًا من ناحية اللّعابيّة، ستجدها تمطّ في فمك، وهذا سِرّ شهيّتها، لو لم تمطّ، وتكون لَزِجة، تنزلق في الفم بسهولة، فإنّها لن تكون بامية جيّدة. هل هذا يكفي لهذا اليوم يا سيّدي... تريدُ أنْ نجرّب من دون لَحم، أو يُمكنك أنْ تخرجَ إلى السّوق وتأتي باللّحم، اللحم رخيصٌ في السّوق الدّاخل من باب زويلة، وهو ليسَ بعيدًا عن هنا، هل أذهبُ لآتيكَ برطلٍ منه، هل لديك المال؟ تذهبُ أنتَ أم أذهبُ أنا؟ الوقتُ يمرّ يا سيّدي، وعليكَ أنْ تقرّر، وأنا

عليّ أنْ أعودَ إلى أولادي في التّربة قبل أنْ تهبطَ الشّمس، واليوم لأنّني أريدُ تعليمكَ لم أَطُفْ إلا على ثلاث دورٍ كنتُ قد طبختُ لهم، هل تفعل؟!

ركبتُ الحِصان، وخرجتُ من البوّابة مثل الرّيح، سوق اللّحم قريبٌ كما قالتْ، إنّها فرصةٌ لأعرف القاهرة، منذ مجيئي إلى هنا لم أعرفْ أكثر من الشّارع الّذي يصل بين البيت والمسجد، هذا الشّارع لا يُعرّفكَ شيئًا، ولا وجهًا واحِدًا من وجوه القاهرة الألف، ولا لونًا واحدًا من ألوان حياتها الألف كذلك، خرجتُ، صَهَلَ حصاني وأنا أمدّ جسدي الخفيف فوقَ عُنُقِه ونحن نعبر البوّابة الّتي فتحتْها درّيّة، قالتْ وأنا أُعطيها ظهري على الحِصان الجامح: «ولا تنسَ البصل والثُّوم والعدس والقِثّاء... أمّا الماء، فهذه البِئر الّتي في ساحة بيتك تكفي لأنْ نطبخ لمصر كلّها...». وضحكتْ وهي ترمي جملتها الأخيرة.

كانت السّوق تفيضُ بالنّاس فيضًا، إنّه العصر أو قريبًا منه، ومع أنّ الحرّ شديد، إلاّ أنّ النّاس كانتْ تملأ الشّارع الممتدّ من أمام باب زويلة إلى آخره، عبرتُ بحصاني القوس العالي الّذي يصل بين البُرجَين المَهولَين، بعدِ مسافةٍ قليلةٍ ترجّلتُ عن الحِصان، وقُدتُه بِلِجامه خلفِي في السّوق، لم يكن الشّارع يتّسع للخيول وللّناس معًا لكثرة الزّحام، مررتُ على البَقّال، كان يفردُ في صناديق مائلة أمام دُكّانه أنواعًا مُلوّنة من البقول، رأيتُ البُرّ، والشّعير، والذّرة، والأرزّ، والحِمّص، والعدس، والباقِلاّء، والبِسِلاّ، والجُلبان، واللّوبيا، والسّمسم، والقرطم، والخِشخاش، والخِروع، والسَّلجم، وبزر الكتّان، وأنواعًا لا حصر لَها، كان كلّ نوعٍ مع لونه يُشكّل لوحة مائلة كبيرةً بديعةً أمّام الدُّكّان، وضعتُ يدي في العدس، أخذتُ قبضة اليد منه، فركتُه، إنّه ناشفٌ وجيّد، وغير مبلول، علّقتُ لِجام الأبلق حول خصري، ورحتُ بإبهام يدي اليُمنى أبحثُ في حبّات العدس المفرودة فوقَ كفّي اليُسرى، كان العدسُ نظيفًا، سألتُه بكم الرّطل من العدس، تفرّس البَقّال فِيّ قبل أنْ يُجيب، كان ذا أنف حمراء كبيرة، ويعتمر عِمامة بيضاء ملفوفة بكسلٍ فوقَ رأسِه، وصدّاريّته المفتوحة من أعلاها تكشف عن صدرٍ شديد الأسر، هتف: «أنتَ جديدٌ على السّوق؟». «نعم. بكم الرّطل من هذا العدس؟». «ضيف؟». «لا... أعني كنتُ ضيفًا. بكم الرّطل؟». «مِنْ أينَ أنتَ قادمٌ إذًا؟». «هل تريدُ أنْ تعرفَ أصلي وفصلي أم تريدُ أنْ تبيعني؟».

«بالطّبع أريدُ أنْ أبيعَك، وأصلُكَ وفصلُكَ على الله، ولكنّني أريدُ أنْ أعرفَ زبائني أيضًا». أجبتُه مُتأفّفًا: «أنا عبد اللّطيف... قدمتُ من بغداد، أعني أنا بغداديّ، وأدرّس الآن في مسجد الصّالحيّ...». هَشّ وجهه، وازدادَ أنفُه احمِراراً، ودار من خلفِ صناديقه وفتح ذراعَيه، وهتف: «أهلاً بمولانا. ابني يدرسُ في حلقتِك». زممتُ شفتَيّ، لم يكنْ لديّ وقتٌ كافٍ لكي أقضيه في الحِوار معه، ودرّيّة تنتظرني، لكنّه كان قد اعتنَقَني، وأخذني بالأحضان، وهتف: «ابني سعد يدرسُ في حلقتك». هززتُ رأسي: «بكم الرّطل؟». تجاهل سؤالي، قبل أنْ يُتمّ: «هو...» ووضع إصبعه البيضاء على طرف أنفه الحمراء، وحَكّها قليلاً، قبل أنْ يقول: «هو في حلقة النّحو على ما أعتقد... بالمناسبة، ابني هذا مجتهدٌ جِدّا، وهو ذو قلبٍ رقيق، وأريدُك أنْ تحنو عليه، وتعدّه ابنَك...». تلفّتّ حولي: «ابني؟ أنا يا... « ساعدَني هو: «محسوبك إسماعيل البَقّال». «أنا يا إسماعيل البِقّال أهتمّ بكلّ طلبتي، لا تقلق... والآن كم ثمن الرّطل من العدس، أنا في عجلةٍ من أمري». ردّ وهو يحرّك يدَيه في الهواء: «عيب يا مولانا، نحن لا نأخذ من مُعلّمينا». كان صبري قد نفد، أعدتُ العدس إلى الصّندوق، وجذبتُ لِجام الأبلق، وتركتُه ومضيت، لحق بي: «لا تزعل يا مولانا... أنا فقط أردتُ أنْ أكرمك». «أكرمْني بوزن رطل منه، ودعني أدفع الثّمن وأمضي». هزّ رأسه، وانحنى وهتف: «حاضر يا مولانا. سأبيعك الرّطل بدينار، وهو في السّوق بدينارَين أو ثلاثة». أخذتُ الرّطل ووضعته في رَحل الأبلق، ومضيتُ، سمعتُ صوته في ظهري: «لا تنسَ أنْ تهتمّ بابني سعد يا مولانا». نفضتُ اللّجام رافِعًا يدي خلف رأسي، وأنا أهمس: «أعتِقْنا يا رجل».

مضيتُ في الطّريق أبحثُ عن دُكّان للّحم، كان التّزاحم قد زادَ من الحرارة، وكان العابِرون يلبسون ثِيابًا خفيفة، والنّاس يبدو عليها الرّاحة والبهجة، وكان المكان لعلوّ أبنيته، واتّساع المسافة بين دكاكينه يبدو مُشرقًا، القاهرة ذهبيّة القَسَمات، عاشقةٌ مِغناج، غنّاءة الطّرقات، كلّ شيءٍ فيها يتحرّك، كلّ شبرٍ فيها ينبضُ بالحياة والتّاريخ، تذكّرتُ ما غبر من أمور الفاطميّين، شارع المُعزّ هذا كان أكثرَ بهجةً وكان أرحبَ وأجمل، وهو اليوم مع كلّ ما أصابَه لا يزال يختزن الجَمال في كلّ تفاصيله.

على طرفٍ من دُكّانٍ كان هناك شابٌّ يجلسُ على دَكّةٍ حجريّةٍ تحت مظلّة يُمسك بآلة نفخٍ مُوسيقيّة ويُغنّي موشّحًا لأهل زماننا:

تالله قدْ سَمِعتُ في الأسْحارِ

جارِيةً تَدُقُّ بالأوتارِ

والنّاس تتحلّق حوله، وخاصّة النّساء الشّابّات يسمعْنَ له، ثُمّ يُطلِقْنَ بعضَ صيحات الإعجاب، أو يرمين بعضَ الدّراهم على سِجّادة وضعها أمامه، ويتمايَلْنَ على إيقاع صوتِه الشّجيّ، ولولا أنّ درّية تنتظرني في البيت لوقفتُ معهنّ أستمع إلى هذا الصّوتِ السّاحر، ولكنّ أمرًا إذا ملأ رأسكَ كان مهمازًا شَغَلكَ كلّما صرفتَه عن ذهنك، ومضيتُ أنظر في الوجوه الباشّة، والثّياب المُهفهَفة، وأردتُ أنْ أسأل أحدَ العابرين عن دُكّان اللّحم، فخفتُ أنْ أتحوّل بالسّؤال إلى أضحوكةٍ فعدلتُ عنه إلى البحثِ بنفسي، وقلتُ أستمتع بمنظر النّاس والدّكاكين، وأبحثُ بنفسي.

ثُمّ رأيتُ دُكّان الفاكَهانيّ، فقلتُ أشتري بعضَ الفاكهة آكلُها بعدَ الغداء، فلا بُدّ أنّ في كلّ هذه النِّعم ما يُغري، كان دُكّان الفاكهة أكبر من دُكّان البقول، وكانت الفاكهة تتدلّى من أسقفه، وجوانبه، ومن مِظلاّتٍ مركوزةٍ أمامه لهذه الغاية، فضلاً عن الصّناديق الّتي تعرضُ أشهاها في المُقدّمة، وتكون في متناول اليد لمن أرادَ أنْ يُعاينها، كانت تلك الصّناديق تحوي الرُّطَب، والعنب، والتّين، والخوخ، والمِشمش، وما كان موسمه من البِطّيخ، والقَراصيا، والبرقوق، واللّوز، والنّبق، والإجّاص المُجفّف، وعددًا لا يُمكن إحصاؤه من الأنواع، وخفتُ أنْ أسأل الفاكهانيّ عن سِعر الرّطل من التّين، فأعلق معه في دوّامة الأسئلة، فملأتُ يدَيّ من حَبّاته، وهممتُ بإعطائها له كي يزنها، فإذا هو يخرج من دُكّانه، ويتفرّس في وجهي، وقبل أنْ يقول كلمة واحدةً، دفعتُ حبّات التّين في صدره لكي يزنها، تناولها وهو يقول: «أنتَ غريب؟». «لستُ غريبًا أيّها الفاكهانيّ». «بل أنتَ غريب، هل أنتَ معلّم الطّبّ في مسجد الصّالحيّ؟». زفرتُ وأنا أُجيبه بسرعة: «أنا هو يا...». فأسعفني مثلما أسعفني الأوّل: «محسوبك حسن الفاكهانيّ، وابني يدرسُ في حلقة الطّبّ في المسجد يومَي الاثنين والخميس، واسمه سالم، وهو...»، قاطعتُه: «لا تخفْ على ابنكَ سالم يا حسن سأتولّى أمره حتّى يُصبح في الطّبّ أحسنَ من ابنِ سينا... ماذا يكون ابن سينا أمام عقول أهل مصر الأفذاذ...؟!». ومططتُ الكلمة الأخيرة، وأنا أشير بيدَيّ من أجل أنْ يقوم بوزنِ ما أعطيتُه. «بكم الرّطل؟». «بدينارٍ ونصف الدّينار». وضعتُ التّين في الرّحل، ومضيتُ مُسرِعًا. همستُ: «سوفَ أتأخّر لو بقيتُ أشتري من كلّ دُكّان».

أمسكتُ بكتفِ أحد العابرين، نظر في وجهي قبل أنْ تبدو عليه علائم الدّهشَة: «أنتَ الطّبيب عبد اللّطيف...». رفعتُ إصبعي أمامه، وأنا أهزّها في وجهه: «لا تقلْ لي إنّ ابنَك يدرس في إحدى حَلَقاتي». ضحك ضحكةً مُجلجِلة، قبل أن يقول: «لا يا مولانا، ابني... انظر إليّ أنا في العشرين، ولم أتزوّجْ بعد، كيفَ يكون لي ابنٌ يدرسُ في حلقاتك؟!». وضحكَ من جديد: «هل أبدو كبيرًا إلى هذا الحدّ؟!». أطلقتُ نَفَسًا طويلاً، وقلت: «كلّ الّذين التقيتُهم قالوا لي إنّ ابني يدرس في حلقتك...». «هذا طبيعيّ يا مولانا، أنتَ تمرّ بسوق باب زويلة القريب من المسجد الّذي تُدرّس فيه، فمن المتوقّع أنْ يكون طلبتُكَ من الّذين يسكنون قريبًا من هنا، وآباؤهم من الّذين يبيعون في هذه السّوق... على كلٍّ ماذا تريد؟». «أريدُ أنْ أعرفَ أينَ دُكّان اللّحّام». «تريدُ أنْ تشتري لحمًا؟». «لا، سأشتري سيفًا من عنده... أو أطلب منه أنْ يُغنّي لي مُوشّحًا... يعني ماذا سأشتري؟ بالطّبع سأشتري لحمًا». «في الحقيقة، أعرفُ ذلك، ولكنّني أردتُ أنْ أدلّكَ على

بائعِ لحمٍ جيّد، كلّ باعة اللّحم هنا لا يُطمأنّ لهم». تساءلتُ بانزِعاج: «لا يُطمأنّ لهم؟ ماذا يبيعون يعني؟ إنّهم يبيعون اللّحم، وهذا...». قاطَعني، وهو يقتربُ منّي، ويهمس: «يبيعون اللّحم صحيح، ولكنّكَ لا تعرفُ أيّ لحمٍ هذا الّذي يبيعونه». شهقتُ: «ماذا تعني؟». «لا أعني شيئًا. اطمئنّ، المعدة تهرسُ كلّ شيءٍ، باعةُ اللحم في الثّلث الأخير من هذا الشّارع، عليكَ أنْ تتجاوز باعة الأطعمة، وباعة النُّحاسيّات، قبل أنْ تصل إليهم». شكرتُه ومضيتُ، وقبل أنْ أغذّ الخُطا، سألتُه: «كيفَ عرفْتَني؟». أجابني، وهو يضحك: «أنا شريف، خادم القاضي الفاضل، وقد رأيتُكَ في مُنشأتِه أكثرَ من مرّة». ❞

❝ (٤)

دُرّيّة

اللّحم يتدلّى على خُطّافات كبيرة مركوزةً في سقف الدُّكّان، تُشبه إنسانًا مذبوحًا ومسلوخًا ومُعلّقًا من رِجلَيه، صدمَني المشهد، تقزّزتُ، وشعرتُ بأنّني أمام مذبحة لا ملحمة، تردّدتُ في أنْ أتقدّم من البائع وأسأله عن رِطل اللّحم، ليس لأنّه قد يعرفني، بل لأنّني فقدتُ الرّغبة في أكل اللّحم بعدَ هذا المنظر فضلاً عن شِرائه. رأى اللّحّام تردّدي، فنظر في وجهي، وعرفَ أنّ عليه أنْ يصطادني سريعًا قبل أنْ أنفر أو أفرّ من هنا. تقدّم نحوي، وسِكّينه الكبيرة الّتي كان يشحذها للتّوّ تلمع في يده، فزادَ ذلك من إجفالي، كان رجلاً ثاقب النّظرات، طُوالاً، يلبسُ سراويلَ فضفاضًا، وعيناه كبيرتَين، وشارباه طويلَين يتهدّلان فوق شفتَيه فيغطّيانهما ولا يبدو منهما شيءٌ إلاّ إذا تكلّم، وكان يتكلّم لغةً مبعوجة، تُشبه تلك اللغّة الّتي يتكلّم بها الحانوتيّ، أو أصحاب المدافن. اقتربَ أكثر، فشعرتُ بالخوف، مدّ السّكّين في وجهي، فتراجعتُ إلى الوراء، ابتسم فبانتْ أسنانه الصّفراء، ازدادتْ ابتِسامته، كان يريدُ طمأنتي، أمّا السّكين فكانتْ حركتُها في وجهي انسِياقًا مع الكلمات الّتي قالَها: «عندي أفضل أنواع اللّحم في مصر كلّها... أنا في تِجارة اللّحم منذُ كنتُ صبيًّا». اقتربَ أكثر، بعدَ أنْ بقِيتُ صامِتًا، رقّق عبارتَه هذه المرّة، وقالَها بصوتٍ رخيم: «لا تخفْ يا مولانا، نحنُ في خِدمتك، وعبد اللّطيف البغدادي يستحقّ أنْ يأكل لحمًا ممتازًا». نُطقه باسمي أخافني أكثر، همستُ في داخلي: «كيفَ عرفني هذا السّفّاح؟». تذكّرتُ ما قاله (شريف) من أنّ أهل المِهن في هذا الشّارع لا بُدّ أنْ يكون أبناؤهم في حلقات الأساتذة الّذين يُدرّسون في المساجد القريبة من هنا، حاولتُ أنْ أضع يدي على قلبي ليسكنَ قليلاً، تابعَ وهو يغمِز بإحدى عينَيه السّوداوَين: «ابني مثل بقيّة أبناء أهل هذه السّوق، يذكركَ أمامي دائِمًا... أنا أعرفُ لو أنّني قلتُ لكَ اسمه فلن تتذكّره، ولكنّني متأكّد أنّكَ لن تنساه مع الزّمن، اسمه...» وتوقّف قليلاً، قبل أنْ يقول الاسمَ بصوتٍ قويّ وجِدّي ومُفعَمٍ بالفَخر: «خليل... خليل في حلقة الطّبّ، لن أقول لكَ ما قاله الآباءُ الآخَرون، ولكنّه يطمح إلى أنْ يُصبح ناظر البيمارستان الصّلاحيّ هنا، وقد وجدَ في حلقتك غايته». «لا تقلقْ يا...» أكمل هو: «أنا صِدقي، صِدقي اللّحّام، لن أغشّكَ في اللّحم كما يفعل اللّحّامون الآخَرون، إنّهم غشّاشون، لا تُصدّقْهم ولو ذبحوا الشّاة أو العِجل أمامك... والآن ماذا تريدُ؟». «أريدُ رِطلاً من لحم الضّأن». «عندي جديٌّ صغير، لحمُه كأنّه الفُستُق، لم يرضَع أكثر من ثلاثة أشهر، سوفَ أَزِنُه لك كامِلاً، واعتبرْ وزنه رطلاً مهما كان». رفعتُ يدَيّ في وجهه: «لا... لا يا صديقي... أنا لن آكل جَدْيًا وحدي، ليس في البيتِ سِواي». «لا غُبار... يُمكنك أنْ تأكل ما تستطيع، وتُقدّد الجزء المتبقّي». «ليسَ لديّ وقتٌ لأقدّد اللّحم، ثُمّ إنّني لستُ من الّذين يشتهون اللّحم كثيرًا، ولولا أنّ درّيّة قالتْ إنّها ستطبخ لي البامية باللّحم ما اشتريت». «عندكَ درّيّة وتقول إنّكَ وحدك؟ الّذي عنده دُرّيّة لا يكونُ وحده». وضحك مع الجُملة الثّانية وغمز بعينَيه، كنتُ قد تسرّعتُ بذِكر اسمِها أمامه، خِفتُ أنْ يكون يعرفها، ويعتبر ذلك مثلبةً في خُلُق الّذي يُدرّس ابنه، وهممتُ أنْ أوضّح له الأمر، غير أنّه أحيانًا يكون السّكوت عن أمرٍ ما أسلمَ من الحديث عنه؛ فالنّاس لا تفهم إلاّ ما تريد. ولهذا آثرتُ الصّمت.

راحتْ سِكّينُه تغوصُ في اللّحم الطّريّ بمهارة، فَصَل الرأس، ونزع ما كان على الأضلاع، وقطع الأطراف، وقسّم اللّحم، وسالَ الدّم من بين القِطع كلّما غاصت السّكين في خُطوطٍ صغيرةٍ، وكوّم القِطَع بعد انتهاء الأمر، ومدّ الرّطل إليّ: «جاهز يا مولانا. لن أوصيك...» أكملتُ عنه: «بخليل... سيكون أبقراط، لأنّ ابن سينا حجزتُه لابن الفاكِهانيّ». ضيّق

عينَيه، وفتل شارِبَيه، وبدا أنّه لم يفهم شيئًا. وضعتُ اللّحم في الرّحل، وركبتُ الأبلق، وقلتُ في نفسي: «لن أتوقّف أبدًا أمام أيّ دُكّان، عليّ أنْ أُسابق الرّيح لأعودَ إلى دُرّيّة، لا بُدّ أنّها الآن تفور من الغيظ على تأخّري».

كانَ الهواء العابر أنفي وأنا فوق الأبلق أنقى من ذلك الّذي بين أجساد العابرين في السّوق، من هناك شممتُ أشهى رائحةٍ يُمكن أنْ تعبر الأنوف، إنّها رائحة الخُبز، قلتُ لنفسي: إنّ تناول بعض الأرغفة لن يعوقني كثيرًا عن دُرّيّة، وهمستُ مُؤكّدًا: «بالطّبع، لا بُدّ أنْ أشتري خُبزًا؛ هل سآكل اللّحم بيدي؟».

كانت الرّائحة تفوح من مخبزٍ صغير، تبيع فيه الخبزَ امرأةٌ في الثّلاثينيّات من العُمر، كان المخبز عبارةً عن كُوّة في الجدار إلى الدّاخل، توقد فيها النّار، وتُلقَى فيها رقائق العجين حتّى تنضج، ثُمّ تخرج مع رائحتها الشّهيّة، وكانت الخبّازة تعرض الخبز النّاضج على صندوقٍ خشبيّ عالٍ يغطّي بعرضه مدخل المخبز، وكانت الأبخرة تتصاعد من الأرغفة، وهي

تواصل سَفَرها في الهواء، وكانت الرّائحة الشّهيّة تزيدُ من جوعي، ولو أكلتُ بعضَ الأرغفة لشبعتُ عِوَض أنْ أنتظر هذا الوقت كلّه حتّى تُجهّز دُرّيّة الطبخة... ترجّلتُ عن الأبلق سريعًا، نفضَ رأسَه نفضتَين أو ثلاثًا، وأخرجَ صوتًا من براطيمه ففهمتُ أنّه هو الآخَر تعب ومَلّ، وأنّه يشعر بالعطش، وأنّ الجوّ الحارّ قد أسال العرقَ الفِضّيّ على ظهره. طَمْأنْتُه بنظرةٍ من عينَيّ: «أَعِدُك؛ سيكون هذا المخبز آخر محطّة لنا، قبل أنْ نُطلق أنا وأنتَ سيقاننا للرّيح». كان بعضُ المشترين اثنين أو ثلاثة، يملؤون بعضَ الأكياس من الخبز، وينقدون البائعة دراهمهم، رأيتُ أحدهم يمدّ يده، ويتناول من الكيس رغيفًا، ويقطعه، ويبدأ بأكله وهو يهزّ رأسه من المتعة، كانت هناك صبيّة صغيرةٌ تلبسُ ثوبًا زهريًّا، تُمسِكُ بيدَيها الصّغيرتَين وعاءً من الخزف مملوءا باللّبن، وتضع فوقَ رأسِها كيسًا فيه بعضُ الأرغفة، وصاحبة المخبز تقول لها: «اذهبي بها إلى حسن الفاكهانيّ، وخُذي منه دينارَين مقابل ذلك». والصّبيّة تمضي كما قالتْ لها أمّها. حانَ دوري، تناولتُ ثلاثة أرغفة، خِفتُ أنْ تتفرّس الخَبّازة في وجهي كما فعل السّابِقون، لكنّها كانتْ تُعطيني ظهرها، لكي تُخرِجَ بعضَ الأرغفة الأخرى النّاضجة للتّوّ، وهي تقول لي: «ستّة دراهم». أعطيتُها الدّراهم، تناولتْها دون أنْ تنظر في وجهي، أضفتُها إلى الرَّحل، وقفزتُ فوقَ الأبلق، صهل صهيلاً طويلاً، قال فيه وهو يركض: «لن أتوقّف حتّى لو أَمَرْتَني بذلك إلاّ في إسطبلي العزيز... سامِحْني هذه المرّة يا مولاي، أمْ تريدُ أنْ أقولَ لك إنّ ابني المُهر الصّغير يدرس في حلقة عِلم الأدوية عندك؟!». وضَحِكتُ من الخاطر الطّريف، ومضينا!

عندما عدتُ، كانتْ دُرّيّة في انتظاري عند البوّابة العالية، توقّعت أنْ تُعاتبني أو أن تقول إنّها لن تعودَ لِمِثل هذا العمل مرّة أخرى، لكنّها كانتْ تتفحّصني بنظراتها كأنّها تراني لأوّل مرّة، كانتْ تلك النّظرات تمس كلّ موضعٍ في جسدي، هل تفعل النّساء هذا دائِمًا؟ يَقُمْن بهذا المَسْح الكامل للجسد؟ لهنّ عيونٌ سابرةٌ ليستْ كعيون الرّجال عابرة؟ لم تفعلْ دُرّيّة شيئًا بعد تلك النّظرات، أخذتْ لِجام الحِصان في اللّحظة الّتي ترجّلتُ أنا عنه، وراحتْ تقوده وهي تضحك، سألتُها: «فيمَ تضحكين يا دُرّيّة؟». ردّتْ: «لا شيء». «قولي». «أخاف أنْ تجدني وَقِحة». «قولي يا دُرّيّة». «يا سيّدي، أنتَ رجلٌ ربعةٌ تميلُ إلى القِصَر، كبير الهامة، ناتِئ اللّحية، تبدو أصغر من عمرك..». قاطعتُها: «وهل تعرفين عمري؟». «نعم، أعرفه». «كيف؟». «دَعْني أكملْ، وسأقول لك». سمحتُ لها بيدَي أنْ تُكمِل، وكُنّا لا نزال واقِفَين أمام الإسطبل، ولِجام الحِصان في يدها: «جاحظَ العينَين، أسمرَ البشرة، بارز الصُّدغَين، كثير البُقَع في الوجنتَين، ضامر البطن، تبدو لم تأكل منذ سنة... ولكنّكَ مع ذلك كلّه فارسٌ». ضحكتُ حتّى كدتُ أقع على الأرض، وسألتُها: «عرفتِ صفاتي هذه من لقاءٍ واحدٍ، إنّكَ لعجيبة». أكملت: «وعقلُكَ يزنُ نِصفَ القاهرة». سألتُها وأنا أنفجر بالضّحك من جديد، وأضربُ كِفًّا بكفّ: «فمنْ سَرَقَ نصفَه الثّاني؟». أجابتْ بحزم: «الحَشّاشون». دحرجتُ ما تبقّى من ضحكتي على الأرض، وتصنّعتُ الجِدّيّة مِثلها، وتلفّتّ حولي أُمثّل دور الخائف، وهمستُ وأنا أقتربُ منها: «لمْ تقولي لي كم عمري؟». «عُمرك أربعون، وتبدو في العشرين». «وكيفَ عرفتِ؟». «أنا عَرّافة» قالت الجملة الأخيرة وهي تنظر في عيَنيّ، لم تكن المرّة الأولى الّتي تقول فيها ذلك، شعرتُ أنّ نظراتها نفذت من عينَيها إلى قلبي فوخزتْه، وضعتُ يدي اليُمنى جهته، وضيّقتُ عيوني لشعوري بالوخزة فِعلاً، وبدأ خيطٌ من الخوفِ الحقيقيّ يتسلّل إليّ، قلتُ بلهجةِ السّيّد الآمر: «أنا جائع، يجب أنْ تعلّميني هذه الطّبخة بشكلٍ سريع. الآن أَنْزِلي ما أحضرتُه من الرّحل، وأدخلي الحِصان إلى الإسطبل، ولا تُضيّعي وقتي».

وأردفتْ وهي تُعطيني مع الحِصان ظهرَيهما فتبدو امرأةً أخرى: «وستنقذ مصر». رجفتُ لعبارتها الأخيرة، لقد قالتْ لي أمّي العبارة ذاتها قبل سنواتٍ، سألتُها بصوتٍ راجف، وهي ما تزال تتهادَى في مشيتها: «كيفَ عرفتِ؟». ردّتْ بلا مُبالاة: «لقد قلتُ لكَ إنّني عرّافة!». ❞

❝ (٥)

المُلوخيّة

درّيّة امرأةٌ فاتنة على الحقيقة، وطعامُها فاتنٌ هو الآخر، وتقول بعض الكلمات غير المفهومة، وتُحدّثني عن أشياء لا أتخيّل أنّها موجودةٌ في القاهرة، مهلاً؛ قلت: أشياء غير موجودة في القاهرة؟ ولكنْ ماذا أظنّ نفسي؟ ماذا رأيتُ من القاهرة كي أحكم؟! القاهرة أمّ الدُّنيا، عاصمة الدّهشة، وربيبةُ النّغم، وصديقةُ الوجوه الّتي لا تعرفك ولكنّها دائمة الابتِسام.

دُرّيّة امرأةٌ شابّة، تفيضُ بالحيويّة والحركة، وتضحكُ كثيرًا، وتعبسُ أحيانًا، لها وجهٌ أقربُ إلى الطّول، حنِطيّ، بشرةٌ صافِية مع سُمرةٍ لذيذة، كانتْ عيناها لوزيّتَين، واسعتَين جهةَ المُؤق، ضيّقتَين في زاويتَيهما البعيدَتين عن الأنف، ولم أستطعْ تحديدَ لونِهما إلى اليوم، كانتا أقربَ إلى عينَين رماديّتَين تُشبِهان عينَي الذِّئب، لكنّ الشّمس إذا ضربتْهما صارتا عسليّتَين غامِقتَين تُشبِهان عينَي الصّقر، لا أدري كيفَ يحدثُ هذا، ولكنّه كان يحدث. وكانتْ جبهتها الحنطيّة فوقَ عينَيها واسعة وعريضة، ومفتوحة للقراءة، وكانتْ تلبسُ فوقَ رأسِها شالاً أخضرَ من أطرافِه، وأصفر مَشوبٍ بتدرّج لألوانٍ شَتّى في وسطه، وكانتْ تعقده خلفَ عنقها، فيبدو شيءٌ من خُصُلاتِ شَعرها الأماميّة، ولم تكنْ نِساء القاهرة تفعل ذلك، كان أكثرهنّ يُغطّي شعره بالكامل، هذا إذا لم يُغطّين وجوهنّ، وكانَ يتدلّى من تحتِ أذنَيها قُرطان ذهبيّان على شكلِ لوزةٍ كبيرةٍ، يتأرجحان كلّما مشتْ ويهتزّان على إيقاعِ حركةِ رأسِها إذا تكلّمتْ، وكانتْ شَفَتاها مُمتلِئتَين، وَرْديّتَين تُشكّلان لوحةً عجيبةً مع الوجه الحِنطيّ، وتبدو عليهما ابتِسامةٌ هاربةٌ أكثر الوقت، إذْ كانتْ حينَ تبتسم أو تتكلّم يظهر من خلفِ تلك الابتِسامة صَفّان من الأسنان البيضاء اللاّمعة، وفي الشّفة السُّفلى كان هناك خَطّ في المنتصف، يقسم الشّفةَ نصفَين، فإذا ابتسمتْ انشدّ ذلك الخيط فبدا واضِحًا جميلاً يفصل صَفّ الأسنان السُّفليّ إلى نِصفَين. وكانتْ عنقها الّتي تبدو من أمام غِطاء رأسِها المعقود إلى الخلف غليظةً شيئًا قليلاً لا يتناسَب مع وجهها الجميل، ولكنها مع ذلك ملساء يزلّ اللّبن عن مَتْنِها. أمّا جسدُها فكانَ ربعةً، قَوامها مُمتلِئ، وتميل إلى السُّمنة قليلاً، ومع ذلك فإنّ حركتها كانتْ سريعة، ونظرةُ عينَيها أسرع، ومِشيتها عابرةً من المطبخ إلى الرّواق إلى الإسطبل أسرعُ منهما. وكانتْ تلبسُ عباءةً سوداء، تُظهِر شيئًا من جسدها المُمتلِئ، وإذا تحدّثتَ إليها فلن تستطيع أنْ تعرفَ كم تعرف من الحياة والنّاس والعِلم، مع أنّها لا تعرفُ القراءة، ولا الكِتابة، ولم تدخلْ في أيّ حلقةٍ دِراسيّة في حياتها، وقضتْ كلّ عمرها بين المقابر!

مرّ أسبوعان على طبخة البامية الّتي تعلّمْتُها من دُرّيّة، لقد تعلّمتُ منها الكثير، كانتْ كثيرة الكلام، لكنّني كنتُ أجدُ في كلامها بعضَ السّلوى، هل يحتاج الوحيد إلى أُذُنٍ تستمع إلى همومه؟ مَنْ كان مِنّا بلا هَمّ فلْيرْمِني بحجر، الكلمات الّتي تُقال للفراغ تبقى سابحةً في الفضاء لا تجد مأوى، وحدها الكلمات الّتي تجدُ أُذُنًا تُتقن الإصغاء قد تجد طريقَها إلى القلب، لو كان للقلب أنْ يُؤوي بعضَ الكلام فإنّه سيجد طريقةً للتّرعرع، وسيخضرّ كما لو كان قد غُرسَ في أرضٍ مُخضلّة.

قالتْ لي هذه المرّة: «سأعلّمكَ كيفَ تُطبَخ الملوخيّة، ماذا تعرفُ عنها؟». «أعرفُ من النبّات ما كان صالِحًا للاستِشفاء، إنّها مِهنتي، يُمكنني أنْ أصفَ لكِ كثيرًا من الأدوية الّتي تعتمد على ذلك». «ليسَ هذا وقتَه. نريدُ أنْ نأكل ملوخيّة اليوم. الغِذاء حقيقة. الدّواء خُدعة». «وما المطلوب؟». «ائتِنا بقدر طبخةٍ منها في السّوق، وبالخبز بالطّبع، وبالسّمن». توجّهتُ إلى حِصاني بسرعة، قالتْ وهي تزمّ شفتَيها، وتُصعّد فِيّ النّظر: «لا تتلكّأ في السّوق وأنتَ تنظرُ كالأطفال في الوجوه». ضحكتُ: «إنّها تعرفُ أنّني أنظرُ في الوجوه، لن يسرقَ النّظر في الوجوه الكثيرَ من الوقت».

«أوقيّتان من السّمن» طلبتُ من السّمّان. كان سمينًا، وقصيرًا، وأحول؛ يستقرّ بؤبؤ عينه اليُمنى جهة الشّمال فيزدادُ البَياضُ فيها، وكان أجشّ الصّوت، كأنّه ابتلع مِطحنة، وكان لسمنه ثقيل الحركة لا يكاد ثوبه الفضفاض أنْ يُخفي الكتلة اللّحميّة الضّخمة الّتي تتكرّش أمامه! وكان دُكّانه دُكّان الألوان هو الآخَر، رأيتُ فيه الألبان والأجبان والعسل، العسل الّذي يبدو أنّه أشهى من أيّ عسلٍ في أيّ بلدٍ آخَر، والسُّكّر، قصبُ السّكر المُكرّر الّذي يساوي عندهم تاريخ مصر. هتف: «أيّها المُعلّم الكبير، أوقيّتان على حِسابك والثّالثة على حِسابي». قلتُ بشيءٍ من الضِّيق: «مَنْ أُدرّس من أبنائك في حلقات الصّالحيّ؟». ابتسمَ وقال مُعاتِبًا: «أَمِنَ اللاّزم أنْ يكون لي ابنٌ يدرسُ في حلقتك حتّى نُكرمَ مُعلّمنا؟!». خجلتُ، وأطرقتُ إلى الأرض، وأكمل: «لا يوجدَ لديّ ابنٌ، أنا متزوّجٌ منذ عشرةِ أعوامٍ ولم أُرزَق إلى الآن بطفل. حاولتُ.

الأوقيّة الثّالثة إكراميّة يا مولانا». «كيفَ تعرفني؟». «ومَنْ لا يعرفُ الحكيم عبد اللّطيف البغداديّ؟». وأنغضَ رأسَه قبل أنْ يقترب منّي، ويُمسِكَ بذراعِي، ويضغط عليها قليلاً، ويهمس: «محسوبك ناجي السّمّان... نحن نحترمك يا حكيم، ولكنْ لماذا تسمح لدرّيّة أنْ تبيتَ عندك؟». اضطربتُ، نفضتُ يده، وقلتُ بصوتٍ حادّ: «مَنْ قال لكَ إنّها تبيتُ عندي؟». «لا شيء في هذه السّوق يبقى خبيئًا يا حكيم». «إنّها تطبخ لي، كما تطبخُ للعشرات الآخرين». «لكنّ النّاسَ شاهدوها تدخل ساعاتٍ طويلةً إلى بيتك، ولا تخرج إلاّ في المساء، النّاس يأخذون منها ما تطبخه وهي واقفةٌ على أبوابهم، وأنتَ تُدخِلها إلى مخدعك». أجبتُه بغضب: «كُفّ عليكَ لسانَك». واستعجلتُه: «أعطني السّمن، وخُذ نقودَك ودعنا من ثُرّهاتك». تجاهل عبارتي، وبنى على عبارته السّابقة: «أتعرف لماذا لا يُدخِلونها إلى بيوتهم، ويأخذون الطّعام وهي واقفةٌ بالباب؛ لأنّهم يخافون منها». استمْهلتُه: «لماذا يخافون منها؟». اقتربَ منّي أكثر، وضغطَ على ذراعِي مثل المرّة السّابقة: «إنّها عَرّافة... و... وساحرة... ولا أريدُ أنْ تُلحِقَ الأذى بمولانا». «إذا كانتْ كما تقول فلماذا يَقبلُ النّاس أنْ تطبخ لهم». «الّذين يقبلون بذلك مجانين مثلها، أو سحرَتْهم، أكْلُها لا يُمكن مقاومته». «ليس لديّ وقتٌ لخرافاتك، بِكم الأواقي الثّلاث؟». «بثلاثة دنانير».

الملوخيّة أشدّ مائيّةً من البامية يا سيّدي، ولكنّ أهل مصر يُحبّونها أكثر، إنّها لذيذة، وتُطبَخ مع أصناف اللّحم كلّها، وأحسنَ ما تُطبَخ به مع الأرانب، إنّها أكلة أهل الوجه البحريّ المُفضّلة، وتُؤكل ساخنةً وباردة، ولكنّها ساخنةً أشهى، وهي لُعابيّة قليلاً، ولكنّها أخفّ وأجرى في الحلقوم، ولونُها يجب أنْ يكون مع اللّحم داكن الخُضرة، فإذا رأيتَ ملوخيّة بيضاء أو فاتحة أو تميل إلى الصُّفرة فاعلمْ أنّها فاسِدة، وأنّ صاحب الدّكان قد غَشّك. ويُنضَج بها اللّحم لتأخذ شيئًا من دُهنِه مع المَرَق، وشيئًا من طَعمِه، وإذا بدأتَ بأكلِها فَسَمِّ الله ثلاثَ مرّات، لأنّ فيها بعضَ الأذى لِمَنْ لا يعرفُ أصلَها... استوقفتُها: «ماذا تعنين؟». «يا سيّدي إنّ لها تاريخًا طويلاً». «وتعرفينه أكثر منّي؟». «بالتّأكيد يا سيّدي، فأنتَ طبيب وأنا عَرّافة، وإنّما تستخدمُ أنتَ منها ما نفع الجسد في داء، وأنا من اسمي أعرفُ عنها أكثرَ مِمّا تعرف هي عن نفسِها... أوّلاً لأهمّيّتها سَمّى المصريّون دربًا باسمها، فهناك دربٌ اسمه دربُ الملوخيّة قريب من منطقة السّيّدة عائشة، وهو دربٌ مزدحمٌ أكثر من شارع المعزّ ومن سوق زويلة، وثانِيًا كانتْ تُسمّى (الملوكيّة) لأنّها كانتْ طعامَ الملوك، وكانت الملوك لأنّها لذيذةٌ جِدّا تُحرّمها على العامّة، فلمّا طالَ شوقُ العامّة إلى أكلها، سَمّوها المُلوخيّة تغييرًا لحرفٍ في اسمِها، وكلُّ مَنْ كان يُلقَى عليه القبض وهو يأكل أكلة الملوك من العامّة يتخلّص من الحبس بقوله: «معاذ الله أنْ أقربَ ما أباح الله للملوك وحَرَّم على السُّوقة، إنّما هذه العُشبة الضّارة الخضراء تُسمّى الملوخيّة، وهي تلعّ في المعدة، وتدعو إلى القيء، فشتّان بين ما نأكل وما يأكلون... وبهذا ينجو من الحبس»، وشاعتْ في أهل مصر وفشتْ، حتّى جاء الفاطِميّون فحرّموها من جديدٍ، لأنّها كانت الطّبخة المُحبّبة لمعاوية بن أبي سُفيان، وحُرّمتْ على أهل البِلاد كلّهم، وعاشَ النّاس من ذلك في ضنك، فلمّا ذهب بهم الحِمار ولم يرجعوا، عادت الملوخيّة إلينا، وها أنتَ يا سيّدي، تتنعّم بأكلها دون أنْ تكلّف نفسك ببعثِ صحنٍ معي لآكل كما تأكل!

أبديتُ اهتِمامي، وأجبتُ: «بل أنا الّذي سآخذُ صحنًا واحِدًا لي، وسأبعثُ معك البقيّة». «وهل أنتَ جادّ؟». «وهل رأيتِني أمزح؟». «كلاّ، ولكنّ هذا كثير». «ليسَ كثيرًا على مَنْ علّمني». زوتْ رأسَها، وقعتِ الكلمة منها موقعًا، رفعتْ رأسَها ثانيةً نحوي، وقالت: «أنتَ رجلٌ طيّب، يا سيّدي، وبسيط، ولا تعرفُ من الدُّنيا شيئًا». إنّها تقول كلامًا يبعثُ في اللّحظة على التّناقض في الشّعور، ولِذا سألتُها: «كيفَ ترينني بكلمةٍ واحدة؟». واستغربتُ من نفسي أنْ أضطُرّ إلى سؤالها سؤالاً كهذا، وودتُ أنّني لم أنطقْه، كيفَ لعالِمٍ مثلي أنْ يسأل امرأةً رأيَها فيه، ولكنّها قطعتْ عليّ سَرَحاني، وقالت: «يبدو أنّكَ ندمتَ على السّؤال. لكنّك لم تُخطِئ. وإذا أردتُ أنْ أصفكَ بكلمةٍ واحدةٍ كما طلبْتَ، فأنتَ: أحمق». وصعقتْني وقاحتُها وجرأتها، ولكنّني بلعتُ ريقي وصبّرتُ نفسي، وهممتُ أنْ أسألها لماذا تراني أحمق، غير أنّها أكملتْ: «أنتَ أحمق إنْ لم تعرفْ ما تُخبّئه الأقدار لك». وخفّفت الجملة الأخيرة من الصّدمة الّتي سقطتْ في جوفِها قبل قليل. وسألتُها: «لماذا قلتِ ذلك؟». وأمرتْني أنْ أبسطَ كفّي: «هاتَ يدك أقرأ لكَ طالَعك». «أليس هذا حرامًا في ديننا؟». «إنّه حرامٌ عندَ مَنْ لم يعرفْ من الدّين إلاّ قُشُوره». وغضبتُ قليلاً، وهتفتُ: «تأدّبي يا امرأة».

وردّتْ: «إنّني أريدُ لكَ الخير، لا تكنْ أعمى مثل الباقين!». ❞

❝ (٦)

في القاهرة ما لا تَرى!

ودخلتُ السّوقَ بعدَ أيّامٍ، فوجدتُه ملآن، ورأيتُها تُفاصل الفاكِهانيّ، وهو يتنذّر معها، وهي تهمّ بضربه على وجهه، فلمّا رأتْني ابتسمتْ، وهتفتْ: «أنسيتَنا، فلا ينسَى إلاّ ذو قلبٍ خالٍ». واقتربتُ منهما، ودفعتُ لحسن الفاكهانيّ ما أخذتْ من الأغراض، ولم تتمنّع أو تُمانع، ورمقني الفاكِهانيّ بنظرةٍ خبيثة، وسمعتُه أو خُيّل إليّ أنّه قال ذلك: «لقد صادَتْكَ أيّها المِسكين». وقلتُ لها: «أنا في البيت، هل يُمكن أنْ نتعلّم اليومَ طبخةً جديدةً؟». ورفعتْ رأسَها إلى السّماء فبانتْ عُنُقها الملساء، وعادتْ برأسِها، وهتفتْ: «الشّمس سريعةٌ هذه الأيّام، وسوفَ ترحل عن قريب، إذا أردتَ ذلك، فأخافُ أنْ أتأخّر عن التّربة». «علّميني شيئًا يكون سهلاً وسريعًا». ضحكتْ، ولمعتْ عينا الصّقر فيها، وأردفتْ: «سأسبقك إلى بيتك يا سيّدي». وحملتْ أغراضَها بين يدَيها، وولّتْ جهة البّوابة. وضربَ الفاكهانيّ كَفًّا بكفّ، وكان صدى صوتِ ابنه في حلقة الطّبّ يردّد عبارة أبيه: «لقد صادَتْكَ أيّها المِسكين».

وكان في الجهة الغربيّة من السّوق عن يسار الدّاخل من القنطرة الكبيرة بيّاع وَرْد، كان دُكّانه يُعطي كثيرًا من البهجة للمكان، ومصر الّتي تحبّ الألوان، لم تخالف هذا في أكثر الدّكاكين الّتي رأيتُها، كان يبيعُ فيه شابٌّ ذو بشرةٍ بيضاءَ لَدْنةٍ، وقَوامٍ رَخصٍ أشبهَ بقَوام الفَتَيات، وكان كلامُه يقطرُ عسلاً لحلاوته، مع رخاوةٍ فيه، فرأيتُه عرَضَ في كلّ جانبٍ من الدّكان أصنافًا شَتّى، وقامَ يدور بينهنّ بالسّاقية يرشّ الماء على الورد حتّى يظلّ ناضِرًا. كان هناك الآس، والبنفسج، والنّرجس، والياسمين، والنّسرين، والبانُ، واللّيْنُوفر، والرّيحان، والمنثور... واشتريتُ من عنده أضمومةً كبيرةً من البان، كانتْ زهورًا بيضاء في ورقٍ أخضر، فوّاحة، تصبر على العطش، لو لمْ تسقِها فإنّها لا تتوقّف عن الشّذى، الحُبّ هو أنْ تُعطي وإنْ حُرمت، هكذا يُمكن تلخيص هذه الحالة العجيبة مع البان، ودخلتُ البيت، فقدّمتُ الأضمومة إلى دُرّيّة، فابتسمتْ، وقبل أنْ تتّسع ابتِسامتُها وتبالغ في خفض رأسِها خَجَلاً، هتفتُ: «يُمكن أنْ تزرعيها في وسط هذه السّاحة, من حقّ المُتعَب أنْ يشمّ هذه الرّائحة العَطِرة إذا ما أوى إلى فِراشه». انقبضت ابتِسامتُها، ودفعتِ الأضمومة إليّ، وقالتْ بصوتٍ غاضب: «أنا هنا لأعلّمك الطّبخ، لا لأتحوّل إلى فلاّحة. يُمكنكَ أنْ تزرعها بنفسك». فعلتُ. زرعتُها في الوسط، نمتْ بشكلٍ سريع، إنّ لها ساقًا طويلة، بعد أسابيع، صارتْ درّيّة إذا دخلت البيت، قامتْ بسقايتها، وتعهّدها بالرّعاية، بدتْ ذاتَ صباحٍ وهي تأتيني بالحليب من السّوق لكي تُعلّمني صناعة الحلوى، وتقف إلى جانبها لوحةً دريّة الجَمال، وتذكّرتُ قول الشّريف الرّضيّ:

يا ظَبْيةَ البَانِ تَرْعَى في خَمَائِلِـهِ

لِيَهْنِكِ اليَوْمَ أَنَّ القَلْبَ مَرعاكِ

علّمتْني درّيّة كثيرًا من طبخات أهل مصر وحلوائهم، لا يُمكن أنْ أقول لكم كم هي ماهرة، ولكنّها على عادتها تقول كلماتٍ مُخيفةٍ أحيانًا، ويتبدّل لونُ عينَيها على ضوء الشّمس النّافذ من كوى المطبخ أو بابه كلّما أردتُ أنْ أقفَ على حقيقتهما. لكنّها دافِئة، ولا أدري ماذا تعني هذه الكلمة بالنّسبة لحقيقتها، ولكنّها دافِئةٌ في كلّ شيء. وكانتْ تقول لي: «لو سمعتَني بقلبِكَ فستتعلّم أسرع. لكنّ قلبكَ مشغول بالوصف. دعْكَ مِمّا يجري اليوم، وفَكّرْ بما سوف يجري غدًا»، وكلّما سألتُها مُتوجّسًا: «ماذا سيجري غدًا؟». تشدّ على شفتَيها المليئتين، وتهتف: «وهل سأقول لك كلّ ما سوف يحدثُ دفعةً واحدة؟ أعطني يدك. وإلاّ، سترى بعينَيك أحسنَ مِمّا أقول...» وتوقّفتْ قليلاً متردّدةً قبل أنْ تتابع: «هذا إذا كان لكَ عينان لترى!!».

وعلّمْتُها كثيرًا من الأدوية، «اللّبخ الّذي ورقته كورق الجوز، وله رائحة عطريّة يكون جيّدًا للمعدة، وإذا جُفّف وسُحِق وعُجِن بالماء حتى صار كالمرهم، ومُسِحَ على الجرح قَطَع الدّم، وإذا طُحِنَ وأُكِل قطَع الإسهال. وأمّا الجُمّيز فشجرتُه عاتية وكبيرة، وإذا فَصَدْتِه خرجَ منه لبنٌ أبيض إذا طُلِيَ على ثوبٍ أو غيره صَبَغَه بالأحمر، وخشبُه تُعمّر به المساكن...» وقاطعتْني: «ليس في الجَبّانة إلاّ بيوت الطّين يا سيّدي». وأكملتُ: «ويُمكن أنْ يُصنَع من ثمرته خَلٌّ حاذقٌ، ولبنُه يُليّن الجِراح ويُخفّف ألمها، ويفشّ الأورام، وإذا لُطّخ على مواضع لَسْعِ الهوامّ أزال الألم، وشرابُه يليّن تصلّب الطّحال، ويخفّف أوجاع المعدة، ونشافَة السُّعال. والقلقاس مفيدٌ لإيقاف السُّهال، والبلّسان يشفي من سموم المعدة، وسموم الأفاعي إذا صُنِع منه دُهنٌ».

****

طلبة مجلس الطّبّ نابِهون بالفعل، أمّا أولئك الّذين قصّروا عن اللّحاق بالرّكب فقد اختصروا المسافةَ على أنفسهم؛ خرجوا من الحلقة إلى دكاكين آبائهم، بعضُهم من تلقاء أنفسهم، وبعضُهم لنصيحة أبيه: «إنّ الدّرهم الّذي تُحصّله من التّجارة يركضُ أسرع بكثيرٍ من الدّرهم الّذي تُحصّله من الطّبّ، وما في الجيب أضمنُ مِمّا في الغيب».

كُنّا نجلسُ في مسجد الصّالحي يومَي الاثنين والخميس، نتذاكر كتب الأطبّاء، وبدأتُ معهم بكتاب المعرفة والفصول لأبقراط: «يتداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تفزع إلى عاداتها، فقيل لأبقراط: لِمَ أَثْوَرُ ما يكون البدن إذا شرب الإنسان الدواء؟ فقال: لأنّ أشد ما يكون البيتُ غبارًا إذا كُنِس».

فلمّا أتمّوا معي عامًا أو أقلّ قليلاً، أخذتُهم إلى البيمارستان، وكان البيمارستان في منطقة القَشّاشين قريبًا من الجامع الأزهر، وكنتُ أركبُ إليه الخيل، ويلحقُ بي الطّلبة في العَرَبات، أو يوافونني إليه مشيًا على أرجلهم، وكان البيمارستان فيما مضى قصرًا للعزيز بن المعزّ لدين الله الفاطميّ، فلمّا صار الأمر إلى صلاح الدّين استولى على القصر، وجعله بيمارستانًا، وسبب صنيع صلاح الدّين هذا أنّه كان في القصر طِلِّسْمًا لا يدخله النّمل، فوقر في ذهنه أنّ موضعًا لا يدخله النّمل هو موضعُ صِحّة، فجعله البيمارستان، ولمّا سألتُ فيما بعد درّيّة عن سبب ذلك، قالتْ: «إنّ في المكان بقايا من تعاويذ الفراعنة»، ولمّا رأتِ الإنكار في عَينَيّ قالتْ: «إنّ الأغرار كالأغيار، لا يؤمنون إلاّ بِما رأوا».

وكان المدخل إلى البيمارستان هو بوّابة القصر الّذي كان، وهي بوّابة مُنيفة، تكادُ تطاول باب زويلة في الارتِفاع، ولكنّها تُفضي إلى بهوٍ فسيحٍ، وقاعةٍ وسيعةٍ، هُيّئت غُرَف القصر الّتي كانتْ على جوانبها إلى غُرفٍ للاستِشفاء، وكان خلفَ هذا القصر حديقةٌ هابطةٌ من الجِنان، جعَلَها ناظر المستشفى موضع النّقاهة لمن أكمل مراحل العِلاج.

وكان في البيمارستان غرفٌ كبيرةٌ للتّدريب على التّشريح، وأخرى للمُعاينة، وثالثةٌ للتّعلّم، وكان فيها – كما كان في كلّ بيمارستان – مكتبة ضَخمةٌ فَخمة، فمن قال لك إنّ الكتب فيها تزيد عن خمسمئة ألفِ كتاب فَصَدِّقْه.

والبيمارستان هذا غير الّذي بناه ابنُ طولون في القطائع سنة ٢٦١ للهجرة، وكان يُنفِق عليه ستّين ألف دينارٍ في اليوم، وحَبَسَ عليه عدّة دورٍ وأسواقٍ للدّولةِ يقومُ ريعُها بنفقتِه، واشترطَ ألاّ يُعالَج فيه جنديٌّ ولا مملوك، وكان يُشارفه بنفسه، ويركب إليه يومًا في كلّ أسبوع. وهو إلى ذلك غير البيمارستان الّذي بناه كافور الإخشيديّ سنة ٣٤٦ للهجرة. وكان كلّ أميرٍ أو حاكمٍ لمصر إذا جاءَ بنى بيمارستانًا يتفوّق على ما بناه سابِقه، وما كان هذا التّفاخر ليكون مُحبّذًا لولا أنّ هذه البيمارستانات كانتْ تفتح أبوابها للفقراء قبل الأغنِياء، ولأهل الفاقة قبل أهل اليَسار، وكان يُعالَج فيها الغريب قبل صاحب الدّار، والمُسافر قبل المُقيم.

وكان لي غرفةٌ فيها أَسِرّة مُجهّزة بالأجساد البشريّة للتّشريح، وبالحيوانات المُحنّطة، والحشرات وغيرها، وكان فيها من المحاليل المحفوظة ما يُعين على فَهم المُحاضَرات، وكان الطّلبة يقفون حولي، ويُدوّنون ملاحَظاتهم، وأكثرهم من مساعدي الأطبّاء الّذين بينهم وبين كونهم أطبّاء عامٌ من التّطبيق في هذا البيمارستان أو عامان، ومنهم من كان يحمل الدّوارق والمحاليل وأدوات التّجربة بين يدَيه، ينتظر منّي إشارةً ليُعطيني ما أريدُ منها عند الحاجة لتبيان معلومةٍ أو طريقة.

وكان فيه آبارٌ للماء، محفورةً عميقًا، وبعضُهم قال – وأنا لا أصدّق ذلك – أنّ قنواتٍ من الماء كانت تُمدّ من البيمارستان تحت الأرض إلى النّيل، وتندفع من هناك إليه، ولولا أنّ المسافةَ بين الأزهر والنّيل كبيرةٌ لصدّقتُ ذلك. ولكنّ درّية قالتْ: «عليكَ أنْ تُصدّق؛ في القاهرة ما لا ترى أكثرَ مِمّا ترى». ❞

إنّ الفراعنة جعلوها آمنةً غيرَ مُطمئنّة. فلديهم سحرٌ يُصيبها بالموت، ولديهم تعويذةٌ تُنهِضها من هذا الموت كلّما أُحيطَ بهم. إنّها مصر. تختصر الكلمة الكثير، وتقول كذلك الكثير!

كان الصّوت العذب ينتشر في الهواء على شكل دوائر، تُسافر في الفراغ، فإذا وجدتْ بناءً تكسّرتْ، فإذا سلمت من حاجزٍ يكسرها، اتّسعتْ تلك الدّوائر من مركزها حتّى طرقتْ نافذتي الخشبيّة في اللّيل، حيثُ يبدو الصّوتُ صافِيًا، لا يُعكّر صَفوه لا أصوات الباعة، ولا المُتصايحين في الأسواق، ولا الدّلاّلين على بضائعهم، ولا حتّى حركة العابرين لهذا الشّارع أو ذاك... إنّه اللّيل العميق، حيثُ أوى كلّ حَيٍّ إلى مسكنه، ونامَ كلّ ذي قلبٍ خليّ، ولم يبقَ ساهِرًا إلى هذه اللّحظة غير العُبّاد والعُشّاق، وكلاهما يُناجي حبيبه، فلمّا جاء هذا الصّوتُ العذب، وهذه المُوسيقى الرّخيمة، صار سُلّمًا لتلك المناجاة الصّاعدة إلى المحبوب.

كان ذلك الصّوتُ صوتَ (عجيبة) تُغنّي إحدى موشّحات ابن سناء المُلك، في داره، أو في دار أحدِ الوزراء، بمصاحبة آلة (الجنك)، وكان معها عددٌ من المُغنّيات يضربْنَ بالدّفّ، وكانتْ (عجيبةً) عجيبةً في غِنائها، وجَمالِها، وعذوبةِ صوتِها، وكانتْ بيضاء غير مُفاضَةٍ، أصابِعُها خُلِقتْ للعزف، وشَفَتاها للنّغم، كانتْ تجلس إلى كرسيّ خشبيّ ذي قوائم أربعٍ ليس له مِسند، ومُغطّى بالجِلد اللّيّن، وتمدّ أصابِعها إلى أوتار آلة (الجنك)، وقدمَيها إلى الدّوّاسات في أسفلها، وكانتْ أصابِعها رقيقة ناعمة، تتحرّك على الأوتار بانسِيابةٍ سَمكةٍ صغيرةٍ في الماء، كأنّ الأوتار شَعْرُ غانيةٍ أخرى تعبثُ فيه بأصابِعها. وكانتْ عيناها سوداوَين صافِيتَين في بشرةٍ بيضاء أشدّ صفاءً، وكانتْ تبدو وادعةً، فإذا بدأتِ الغِناء والعزف، اهتزّ قلبُ كلّ مَنْ حضر مجلسها للإيقاع السّاحر، وكانتْ لا تغنّي إلاّ في مجالس الكُبراء، ولقد رأيتُ بعضهم يبكي، وبعضهم يتمايل، وبعضهم يشكو، وبعضهم يشدو، وينوح من وجدٍ ولهفةٍ حتّى لتكاد الجُدران ينفطر قلبُها لذلك، وغنّتْ موشّح ابن سناء الملك الشّهير يومئذٍ، فجاءتْ بأجمل لحنٍ يُسمَع:

كَلّلي

يا سُحبُ تِيجانَ الرُّبا بالحُلِي

واجْعلي

سِوارَها منعطفَ الجدولِ

وكان الجمع يتمايل في موضعه، فلمّا غنّتْ:

لا أُلِيْمْ في شُرْبِ صَهْباءَ وفي عِشْقِ رِيْمْ

فالنّعيمْ عيشٌ جديدٌ، ومُدامٌ قدِيْمْ

لا أَهِيْمْ إلاّ بهذَينِ فَقُمْ يا نَدِيْمْ

وَاجْلُ لي

من أكؤُسٍ صُيِّرَتْ مِنْ فَوْفَلِ

أَلَذّ لي

مِنْ نَكْهَةِ العَنبَر والمَنْدَلِ

تواجَدوا حتّى شَقّ بعضُ الأمراء ثِيابهم.

فلمّا حضر (الكامل) مجلسَها ذات مرّة في بيتِ أحدِ الوزراء، استأثر بها لنفسِه، فكانتْ تُغنّي له كلّ ليلةٍ بِجَنْكِها، وتظلّ عنده اللّيل كُلّه، فإذا ضَوَّأ الصُّبح، وصار للنّاس وللشّارع عيونٌ، تنزل من قَصْره وهي تتمايلُ سَكرى على أيدي الجَواري. ولقد علّمتْ عجيبةُ كثيرًا من المُغنّيات، فَكُنّ يغنّين في الأسواق، ويضربْنَ بالأعواد، ولقد مررتُ بأكثرَ من عشرين سوقًا في القاهرة وحدها، وما خلا سُوقٌ من مُغنّية، ورأيتُ حولَها الشّباب مثل الفَراشِ حول النّار.

وكان في القاهرة أسواقٌ قائمةٌ للقُطن وحده، تُباعُ فيه ثِيابٌ، ومراكب، وكَلّوتات، وفُرُشٌ، وبُسُط، كلّها منسوجةٌ من القُطن، وكان النّاسُ في الشّام يأتون إلى مصر ليشتروا ما تُنتِجه أسواقُها من القُطن، ولم يكنْ أحدٌ يُتقِنُ صناعة القُطنِ غير المِصريّين، وكان أقباطُ مِصر هم سادَتَه، والقيّمِين عليه، ولهم فنونٌ فيه يعجز الوصفُ عن الإحاطة بها!

وكان الأمراء إذا أرادوا أنْ يخلعوا على شريفٍ أرديةً وألبسةً فنصيبُ القطن يكون فيها وافِيًا، فإذا ما غَضِب عليه الأمير خلع عنه ما أعطاه، بما في ذلك النّياشين، ثُمّ عَرَضَها في الأسواق على العامّة - مبالغةً في إذلاله - فيشترونها بأثمانٍ زهيدة، وكان النّاس ينتظرون غَضَب الأمراء على خاصّتهم لكي تسنح لهم الفُرصة لشراء الأردية القُطنيّة الفاخرة على قَدْر ما في جيوبهم المهترئة من مال.

وكان الأمراء والخلفاء يحتكرون في مصر ما يريدون من تِجارة، وكان لهم مصانع خاصّة لأثوابهم ومناماتهم وسِلاحهم ودروعهم وأثاث قصورهم، لا يقربها أحدٌ من العامّة، وكان لهم مزارع خاصّةٌ مِثْلُها تنتج لهم مطاعمهم دون سِواهم، وكان يعمل في هذه المزارع والمصانع عددٌ كبيرٌ من أهل الفاقة.

ولم يكنْ لعامّة أهل مصر رأيٌ في تنصيب الأمراء والسّلاطين أو خلْعِهم، ولربّما كان يتبدّل في الشّهر مَلِكٌ أو اثنان، وعشرةُ أمراء أو عِشرون، لا يعرفُ مَنْ يمشي في الأسواق أسماءَهم ولا ألقابَهم ولا متى أُمّروا ولا متى نُزعِتْ منهم الإمارة، وكانتْ غايةَ ما يرونه من الأمراء مواكبُهم عندما يخرجون على النّاس في زينتهم، ويستمتعون بمنظرها وجَلالِها وهيبتها.

جاءتْني درّيّة في صباح الأحد، كنتُ لا أزال نائِمًا، لم ترتفع الشّمس كثيرًا، كان نورها قد بدأ يتخلّل شقوق النوافذ من غرفتي ويسقطُ على عينَي، حينَ سمعتُ صوتَها المألوف، الّذي فيه بَحّة مثل رَجْعِ صوتٍ في بِئر فارغةٍ مُغلَقة، ولم أكنْ لأخطِئ ذلك الصّوت، دخلتُ الحَمّام، وغسلتُ وجهي على عَجَلٍ، وكانتْ لا تزال تُنادي بين فينةٍ وأخرى: «أينَ أنتَ يا حكيم... ألم تستيقظ بعد؟ إنّ الشّمس جفّفت النّدى على أوارق أشجارك؟ ويلي من النّهارات الّتي تمرّ على الغافلين... استيقظْ أيّها الكَسول». ولم أدرِ ما الّذي يُصيب هذه المرأة وما الّذي يُجرّئُها حتّى تنادي بهذه الطّريقة الفَظّة؟ إنّها تُناديني كما تُنادي جارتَها!

فتحتُ الباب، بدتْ من خلفِه وقد عقدتْ ذِراعَيها على وسطها، ورَقّصتْ جذعها قبل أنْ تقول: «النّوم موت». «حكيمة». «العارِفون أدرى بفنون ما يقولون». «ماذا تريدين والدّيكة ما تزال تصيح؟». «لقد طلبتُ منكَ أنْ تبسطَ كفّك أمامي لأقرأه لك، ولكنّكَ لم تفعل». «هل قَطعتِ هذه المسافة كلّها من تربة الشّافعيّ إلى زويلة من أجل أنْ تقرئي لي الكفّ؟! هل جُنِنْتِ يا امرأة؟!». «لا، ولكنّني رأيتُ مناماتٍ في اللّيل، أيقظتْني، وأعرفُ أنّها ستكون، ولا بُدّ أنْ أقرأ لك الكفّ لأحذّرك مِمّا هو قادمٌ». «هل يُمكن أنْ نُؤجّل ذلك إلى غدٍ، أو على الأقلّ إلى المساء؟ أنا ما زلتُ تَعِبًا من سَهر أمس». وتثاءَبْتُ، ورُحتُ أغلِق البَوّابة، حينَ وضعتْ ذِراعها لتوقفها، وراحتْ تفتحُها من جديد، وشعرتُ برغبةٍ في عدم مقاومة ما تفعل، خاصّة حينما راحتْ عيناها تغوصان فِيّ، وتنتهكان ساحات دِفاعي. تركتُها تُكمِل فتح البوّابة، لأختلق لها عِبارة: «ما الطّبخة الّتي سأتعلّمها منك اليوم؟». شدّتْ على كلماتها البطيئة: «لن تتعلّم منّي طبخةً، اليوم ستتعلّم منّي ما سيحدثُ حينَ ينكشف الغِطاء». أردتُ أنْ أقول لها: «كُفّي يا امرأة، ليس من المنطق أنْ أصحو وعيناي ما زالتا نِصفَ مُغمَضَتين، وأنا مرهقٌ جِدّا، لكي أبسطَ كفّي أمام امرأةٍ ساقَها إليّ نِداء الجوع قدَرًا ذات مرّة، ثُمّ التزقتْ بي، وصارتْ تتحكّم في حياتي، ولم يعد الهروب منها مُمكِنًا!». لكنّني بقيتُ صامِتًا كأنّني أخرس، فيما أتمّتْ هِيَ دخولها، وراحت تُغلِق الباب من خلفِها، كأنّها سيّدة هذا البيت!

«نجلسُ هنا، تحتَ شجرة البان، ربّما ستكون شاهدةً هي الأخرى على ما سيحدث... هل لديكَ كُرسيّان؟». أشرتُ إلى إحدى الغُرَف، أحضرتُهما. وجلسْنا، كُنتُ قد نَسيتُ ما طلبتْ منّي، حينَ بادرتْ هِي، فأخذتْ كفّي اليُمنى بين يدَيها، فانحنيتُ بجذعي إلى الأمام قليلاً، وخفضتُ رأسي، واستسلمتُ لها!

مسحتْ بإصبع السّبّابة على باطن كفّي النّحيلة، والّتي تبدو أصغر من كَفّها وأضعف، فيما كانتْ تُغمِضُ عينَيها، وتُتمتِمُ بكلماتٍ غير مفهومة، لم يُعجِبْني ما تفعل، أخذتُ كَفّي، أردتُ أنْ أسحبَها من بين يدَيها، أنْ أقول لها: «ليسَ لديّ وقتٌ لهذا الهُراء». ولكنّ يدَيها كانتا قويّتَين إلى الحدّ الّذي خُيّل إليّ فيه أنّ كَفّي تُمسكُ بها أذرعٌ من حديدٍ، ثقيلة وقاسية. استسلمتُ لها من جديد، فأرختْ قبضتَها الحديديّة قليلاً، وهمستْ: «أرى لكَ ما أرى». سألتُها: «وماذا تَرَين؟». كانتْ تُغمِضُ عينَيها في تلك اللّحظةِ فلم تَبْدُ لا ذِئبًا ولا صَقرًا. جاء صوتُها رفيعًا خافِتًا، لم يكنْ يُشبِه صوتَها المعتاد. مرّتْ لحظةُ صمتٍ رهيبة، كنتُ لا أزال أنظر إلى شفتَيها وهما تتحرّكان كجناحَي نحلةٍ، قبل أنْ تقول: «رأيتُ أفواجًا من الناس يخرجون إلى الشوارع». «لماذا يخرجون إلى الشّوارع؟» سألتُها. هتفتْ: «اششش». فسكتُّ: «إنّهم يركضون في كلّ اتّجاه». «سألتُها: «يهجمون على شيءٍ أو يهربون من شيءٍ؟ هل هم يحتجّون على أمرٍ ما؟». هتفتْ وهي تنفض رأسَها مرّاتٍ مُتتابعة: «كلاّ، إنّهم يهربون». بقيتُ صامتًا، عندما أكملتْ: «أرى الحريق يُحيط بالقاهرة، يأتيها من أبوابها الأربعة، وأرى....» صمتتْ قليلاً، قبل أنْ تُكمِل: «وأرى بيتَك هذا يحترق». اضطربتُ، سحبتُ يدي، أردتُ أنْ أقول لها إنّها تُخيفني، وإنّ هذا يجب أنْ يتوقّف، لكنّ يدي كانتْ مُسمّرةً بين كفّيْها، فيما راحتْ هي تُكمل: «أرى رِياحًا تهبّ من الفيّوم، تذرو أهراء القمح فيها، وتدور بالقمح في عاصفةٍ تظلّ تدور حتّى تقتلع معها البيوت... وأرى حريقًا يخرج من البحر، يتصاعد في السّماء، ويظلّ يجري على الماء حتّى لا يعودَ في البحر ماء، وأرى... أرى كلّ ما في القاع قد يبس... وأرى المساجد والجوامع والبرابي والتّكايا تحتفل بالنّار، ترقصُ في باحاتها ألسنةُ اللّهب، ثُمّ تسير تلك الألسنة إلى البيمارستان... لكنّها لا تدخله». فتحتْ عينَيها فجأة، كانتا ذِئبِيّتَين، ونفضتْ يدي من يدَيها نفضًا، وتلفّتتْ حولَها، وهتفتْ: «هل سَمِعتني أقول شيئًا؟ هل كنتُ أهذي؟».

بقيتُ مُحدِّقًا فيها، لا أدري ما أقول، لكنّها قامتْ من فوق الكرسيّ، نظرتْ نظراتٍ زائغة عن يمينها وشمالها، وخبطتْ بباطن كَفَّيها على ساقَيها، ورفعتْهما إلى رأسِها، وأحكمتْ رَبط الشّال على شعرها الّذي تهدّل، ثُمّ انسحبتْ بهدوء مثل أفعى، وانسابتْ من البوّابة، وغابتْ عن ناظِرَيّ!! "

" (٨)

أهل الصّعيد

اشتدّ العمل في البيمارستان، صرتُ أذهبُ إليه ثلاثةَ أيّامٍ في الأسبوع، أهل مصر يعانون مع الحرّ حُمّى لا يكادُ ينجو منها صغيرٌ ولا كبيرٌ. وأولئك القاطنون في الجنوب أو في الصّعيد على ضِفاف النّيل يُعانون من الإسهال كثيرًا، يشربون ماءً مُلوّثًا، إنّهم لا يتركون النّهر يجري كما أراد، حينَ تُمسِك بعنق النّهر تحاول أنْ يجري على هواك لن يفعل، وسيعصيك، النّهر لا يَقودُه أحدٌ، إنّه يجري على سجيّته، يتداعَى على هواه، يُغنّي على ليلاه، ويعرفُ متى يَفيض، ومتى يَغيض، ومتى يجري مُتمهّلاً، ومتى يُسرع... من الحُمق أنْ تتدخّل فيما يفعله النّهر، إنْ أغضبْتَه حلّتْ بِكَ اللّعنات، وإنْ أرضيتَه حلّتْ عليكَ البركات.

وكانت الغِيطان الّتي يكثر فيها الفَلاّحون تأكل من عافيتهم، وكان يحدثُ أنْ يكون أحدهم خلف العِجل الّذي له خُوارٌ يجري بمحراثه، وهو ينادي على فلاّحٍ آخر يبذر البِذار في فَدّان بعيدٍ، أو تحجز بينهما حقولٌ من أشجار الجُمّيز، فيتكسّر الصّوت، فيُضطرّ إلى رَفع صوته، فيُبحّ، ويجري بطيئًا واهِنًا، ويحدث أنْ يقضي الفَلاّح نهاره كلّه وهو يصيح: هاتِ الميّة من التّرعة... أو اسقي الجاموسة يا ابن... أو الله يلعن ميّتينك... والأمر يجري بالصّلاة على النّبيّ، وكلّ مشكلة يُمكن حلّها باسم النّبيّ الأعظم، ومصر كلّها تحبّ النّبيّ، ويكفيها هذه الصّفة لتكون المحروسة!!

ولقد كنتُ يومَ الخميس بعد الضّحى أهبطُ إلى فدادينهم، فيجتمع المرضى منهم في بيتِ كبير النّاحية، فأُعالِجهم واحِدًا واحِدًا دون أنْ آخذ مقابل ذلك شيئًا، ونشأتْ بيني وبين الفَلاّحين صداقةٌ وطيدة، وكانوا ينتظرون كلّ خميسٍ بفارغ الصّبر، ولا أفرغ من مُعالجتهم إلاّ إذا انتصف اللّيل، وأسهر عندهم تلك اللّيلة على أغانيهم الشّفيفة، الّتي تُعبّر عن همومهم البسيطة وأبيتُ في الصّعيد، وأعودَ يوم الجمعة بمراكب النّيل إلى القاهرة. وتأخّرتُ مرّة، فاضطُررتُ إلى حضور خطبة الجمعة في أحد مساجدهم، فإذا الخطيب يملك عِنان اللّغة لكنّه شَؤوم، أشأمُ من طُوَيس؛ ولمّا وقف قال: «أينَ كِسرى؟ أين قيصر؟ أين شدّاد؟ طوتْهم يدُ النّوائب. أين قوم نوح؟ جَرَفهم الطّوفان. أين قوم فرعون؟ ابتلعهم البحر. أين قوم عاد؟ اقتلعتْهم الرّيح. أين قوم ثمود؟ مزّقتهم العواصف. أين قوم لوط؟ خَسَفَ الله بهم الأرض. أيّها النّاس لا تخدعوا ولا تنخدعوا إنّ غضبَ الله لآتٍ». فلم يتركْ مُصيبةً ولا هَلاكًا في أقوام الغابرين إلاّ جمَعه في لسانه وضَرَبَ به وجوهَنا، كأنّه النّحاس المُذاب يُصَبّ في الآذان.

وقد بلغ حُبّهم لي وثقتهم بي أنْ لم يبقَ فَلاّحٌ إلاّ عَرَض عليّ ابنته للزّواج، وكان أكثر البنات في الثّانية أو الثّالثة عشرة «ولم يبدُ للأتراب من ثديها حجمُ». ولم تكنْ لي رغبةٌ بالانصِراف عمّا أنا فيه، فإنّ النّساء مَشغلة. وكانوا يعتقدون أنّني أعرفُ كلّ شيءٍ، وأنّني أقرأ النّجوم، وأتوقّع الطّالع، وأكشف المخبوء، وأنّ لديّ قدراتٍ خارقة، وأنّ الطّبيب حكيم وعرّافٌ وخبيرٌ ودَجّال كذلك، وتذكّرتُ قول عروة بن حزام وتسميته الطّبيبَ عرّافًا في قصيدته الّتي ناحَ فيها على عفراء:

جعلتُ لعرّاف اليَمامةِ حُكمَه

وعَرّافِ نجدٍ إنْ هُما شَفَياني

وأهل الصّعيد يجلسون للحشيش ليلة الجمعة، ويقولون إنّها تقرّبهم من الله، ويُغنّون من القلب، ويفرحون من القلب، ويبكون من القلب، ويشتمون كذلك من القلب، وكانوا يعرضون عليّ حَيَواناتِهم لكي أعالِجها، الأبقار والخِراف والكِلاب والأرانب، وكانوا يعرضون عليّ مشاكلهم العويصة، فهم يعتقدون أنّ لديّ حلاًّ لكل شيءٍ. جاءتني امرأةٌ تشكو أنّها لم تحمل منذ خمس سنين، وأنّ زوجَها سيتزوّج عليها، وأنّها تشكّ أنّه تزوّج بأخرى ولكنّه يُخفي ذلك عنها... وجاءتْني امرأةٌ أخرى حامل، وطلبتْ منّي أنْ أضع يدي على بَطْنِها لأبارك المولود... وجاءني رجلٌ يقول لي إنّه كلّما هَمّ أنْ يأتي امرأتَه تحوّلتْ إلى رجل، وهو يعتقد أنّه مسحور، وطلبَ منّي أنْ أصنع له تعويذة أو تميمة أو سحرًا يفّك هذا السّحر عنه... وجاءني رجلٌ يشكو أنّه يحبّ أكل الحشرات، وأنّها رغم تسبّبها بآلامٍ شديدةٍ في معدته لم يتمكّن من الإقلاع عنها...

وكانوا يُحمّلونني بهدايا وأنا عائدٌ يومَ الجمعة، كانتْ أكثر هداياهم أرغفةً من الخبز البلديّ، وأقفاصًا من البطّ والإوزّ والدّجاج، وألواحًا من خشبِ الجُمّيز، وقلائد لجلب الأرواح الخيّرة وطرد الأرواح الشّرّيرة!

كانت الحرارة في الصّعيد عالية، لا تُطاق، والجوّ خانقًا، وفي كلّ شهرين أو ثلاثة من زياراتي المُتكرّرة لهم يذبحون لي عِجلاً، ويشوونه على النّار، وكان ذلك يُفاقِم من درجات الحرارة المُلتهبة، وكان البَعوض عندهم كثيرٌ، يأكل من لحم النّائم لا يشرب من دمه فحسب، وكان حجمه بحجم الصّرصار الطّائر، أو بحجم الذّباب الأزرق، وكان يكثر في الثُرَع، وكانوا يُبلّلون أَجْوِلة من قماشٍ يرفعونها على عِصيّ فوقَ رأسي، ويقفُ أحدهم خلفَها

بريشٍ يهشّ به على القِماش المبلول لتبريد الهواء في وجهي، وطرد البَعوض ما أمكن.

وكنتُ أستعمل فيما أستعمل في مُداواة أهل الصّعيد ورقَ (القلقاش)، وهو ورقٌ شديد الخضرة، رقيق البشرة، شبيهٌ بورق الموز في خُضرته ورونقه ونضارته، ويُعمل منه دقيقٌ يُشرَب كالسّويق، ويُعمَل منه حِساءٌ، فيُقوّي المعدة، ويمنع الإسهال، وسحوج الأمعاء، وإذا سُحِق الورق وخُلِطَ بدهن، وقُطِرَ في الأذن سَكّنَ وَجَعها.

والتّماسيح في الصّعيد كالدُّود كثرةً، ومنها الكبير الّذي يصل إلى نيّفٍ وعشرين ذراعًا طولاً، لو مددتَ إلى جانبه نخلةً مُعمّرةً لطالَها، ويوجَد على سطح جسده مِمّا يلي بطنه سلعةً كالبيضة تحتوي على رطوبةٍ دمويّة وهي كنافجة المِسك في الصّورة والطِّيب، وكَبِد التّمساح تُهيّج الجِماع، وكُلْيتاه وشَحمُه كذلك مُفيد في ذلك، وجِلدُه سميكٌ جدًّا لا يقطع فيه السّيف ولا الحديد، وهو إذا باضَ دفنَ بيضَه الطّويل في الرّمل، فإذا فقس أخرج كالجراذين في جِسمها وخِلقتها، ثُمّ تكبر حتّى تصل من العِظم أنْ تبتلع رجلاً كامِلاً مرّة واحدة. وجاءني أيّام الخميس في الطّبابة مَنْ فقد ذراعه أو ساقَه بلقمةٍ عابرة من فم تمساح كان يلبد كالصّخرة في وسط التّرعة، ولم يكن المسكين يراه.

وأهل الصّعيد داؤهم ودواؤهم فيما يأكلون، فإنّهم يعملون وقت الحصاد في الحرّ الشّديد، ويأكلون الفول ويطحنون القمح، ويزرعون البرسيم، ويداومون على شُرب اللّبن دون أنْ يغلوه، والماء من التّرع، أو مِمّا داستْ أقدامهم، ولم يكونوا – حتّى مع تنبيهي لهم – لِيُقلِعوا عن عاداتهم، ولذلك كان على طبيبٍ يزورهم في الشّهر مرّةً أن يَقبَلهم على ما هم عليه، فإنّ تغيير عادات مجتمعٍ ما، أصعبُ من تغيير الكلبِ إلى حمار، وبعضُ الرّؤوس الّتي تعلو الأكتاف لا يُمكن إصلاحُها إلاّ بقطعها!

والنّيل في الصّعيد مِسكين، يقبل كلّ ما يُلقَى فيه، ولذلك يأسنُ ماؤه أحيانًا، ويتغيّر لونُه ويفسد طعمُه، فلقد رأيتُ أهل هذه النّواحي يُلقون جواميسهم النّافِقة، وكِلابهم الميّتة، وحميرهم في النّيل، وإذا كان جَرَيانه قويًّا حَمَل الحمار، وطفا فيه، وسارَ به يَعرضُه في مسيرته الطّويلة، ثُمّ يلقيه إلى الشّاطِئ بعد فرسخين أو ثلاثةٍ أو أكثر. ويحدثُ أنْ ترى جثثًا لحيواناتٍ لا تعرفها، فرسَ النّهر، طيورًا، أو حتّى بشرًا، وهي تجري مُسرعة مع الماء كأنّها تُودّع أو تُسلّم على السّاكنين من الجنوب إلى الشّمال حيثُ يكثر النّاس، فإذا حجزها حاجزٌ من صخر، أو تغيّر اتّجاه الماء فرمى بها إلى التّراب، وتعرّضتْ للشّمس، انتفختْ، ثُمّ عطنتْ، ثُمّ أنتنتْ، ثُمّ امتلأتْ بالدّود، ثُمّ أفسدَتِ الهواء والماء وجلبَتِ الأمراض المعروفة والمُنكَرة!!

ما زال لديّ مرضى كثيرون في الصّعيد، فقراء، بائِسون، لكنّهم طيّبون، وأهل كرمٍ، ولقد أصابني من الحُمّى ما أصابهم، واتّفق مرّة أنْ بقيتُ في الفِراش على إثر حمّى معدية عشرةَ أيّام لم أبارحْ بيتي. ولكنّني مع ذلك لم أكنْ لأرى من المروءة أنْ أتركهم يُحاربون جيشًا من الأمراض وحدهم!

وتنوُّع الشّمال ليسَ أكثر في العدد من تنوّع الجنوب، وإن اختلفَ في الهيئة، فإنّ الحياة في الوجهَين ضاجّة، وإنّ النّاس لتملأ الغِيطان في الصّعيد كما تملأ الأسواقَ في القاهرة. وإنّ قلوبهم لترقصُ للنّغم الشّجيّ في الصعيد كما ترقص للنّغم الشّريد في القاهرة، وإنّهم في الحالَين ليبكون بكاءَ مَنْ فقد عزيزًا بكاءً مريرًا كلّما سمع أحدُهم موعظةً أو عبرة، ولو سمع العِظة مرّة ثانيةً وثالثةً... وعاشرةً لعادَ إلى البُكاء؛ وتلك عادةُ القلوب الرّقيقة! ❝

❞ (٩)

لَعنةُ النّيل

سيمرّ موكبُ الأمراء من الشّارع الكبير الفاصل بين المسجد الصّالحي وباب زويلة يوم الأحد، بعثَ لي ديوان مصر لكي أكونَ مُشاركًا في الموكب، يحبّ الأمير أنْ يخرج في موكبه الفقهاء والعُلماء والوُجهاء وكبار التُّجّار. وأعلن الدّيوان في الأسواق عن موعد الموكب. الموكب فرصة لا تتكرّر كثيرًا. الفقراء يشتاقون لظهوره في الشّارع مع أنّهم يكرهون أصحابَه!

«هل أنتِ مُتزوّجة؟»سألتُ دُرّيّة. أجابتْ: «حسب». «حسب؟ لم أفهم؟ إما أن تكوني مُتزوّجة أو لا!». «حسب المقصود من السّؤال». «كيف؟». «إذا كان من ورائه زواجٌ أو لا؟». «لا، لم تفهميني، سألت لأعرف إن كان لديك أولاد». «أيضًا حسب». «مرّةً أخرى؟!». «ماذا تريد من معرفة ذلك؟». «أن أرى أولادك، أن أُعطيهم شيئًا يدخل الفرحة إلى قلوبهم، أنْ أقبَلهم في حلقات الصّالحيّ...». «وهل تعني ذلك؟». «بالطّبع». «إذًا أنا متزوجة من اثنتي عشرة سنة وأنا ابنة خمس عشرة، ولي ثلاثة أولاد وبنت، الكبير مات، والثاني في السّادسة، والثّالث في الثّالثة، وأمّا البنت ففي الحادية عشرةَ من عمرها». «هاتيهم معك يوم الخميس أريد أن أراهم». «وأنت لماذا لم تتزوّجْ؟!». «كيف عَرفتِ؟». «وهل هذا يحتاج إلى ذكاء؟ لو كنتَ مُتزوّجًا لَمَا دَعوتَني لأُعلّمك الطّبخ!». «لربّما تركتُها في بغداد؟». «وأنتَ في بِلادنا من سنين وتصبر على النّساء؟». «الصّبر على العِلم أصعب». «وما بغداد؟». «دِجلة، ماؤُها الصّافي يُشبه عينَيك؛ إذا حلّ المساء كان لونُ الماء رماديًّا كأنّه عيون ذِئب. وإذا ضَرَبتْه الشّمس، فترقرقَ ترقرق الذّهب كان لون الماء أصفر كأنّه عيون الصّقر». «تتغزّلُ يا شيخ... ولكنْ لِمَ لا يكون صفاؤهما يُشبه ماءَ النيل؟». «النّيلُ وَسِخ، لا يكاد يصفو». ضربت بكفّها على صدرها وشهقتْ: لا تقلْ ذلك يا سيدي... لئلاّ تُصيبَك لعنةُ النّيل». للنّيل لَعنة؟». «وأيّة لَعنة». «كيفَ يكون لماءٍ لعنة». «أنتَ تدّعي المعرفة ولا تعرفُ شيئًا». «لو أخبرتِني لعرفتُ». «لقد كانوا إذا غضب النّيل ولم يَفِضْ جَهّزوا عروسًا بِكرًا، وزيّنوها بأحلى زينة، وألقَوها فيه، فإذا قَبِلها فاض ماؤه، وإذا لم يقبلْها لم يفضْ شيء». ابتسمتُ، قلتُ لها: «إنّني أعرفُ هذه الحِكاية، لقد حدثتْ مع عمرو بن العاص، فلمّا أرادوا أنْ يرموا العروس، قال لهم: إنّ هذا لا يكون في الإسلام، وإنّ الإسلام يهدم ما قبله، فأقاموا مُدّة والنّيل لا يفيض حتّى هَمّوا بالجَلاء من بيوتهم خوفَ الجفاف والموت، فلمّا رأى عمرو ذلك كتبَ إلى عمر بن الخطاب يُعلِمه بالأمر، فكتب إليه عُمر: قد أصبتَ؛ إنّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثتُ إليكَ ببطاقة فألْقِها في النيل، فلمّا قَدِم الكتابُ على عمرو، فتحَ البطاقةَ فإذا فيها: (مِن عبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلى نيل أهل مصر، أما بعد، فإنْ كنتَ تجري مِنْ قِبَلِك فلا تَجْرِ، وإنْ كان الله الواحدُ القَهَّارُ الّذي يُجرِيك، فنسألُ اللهَ الواحدَ القَهَّارَ أنْ يُجريَك). ثُمّ إنّ عَمْرو بن العاص ألقى البطاقة في النيل قبل جلاء أهل النّيل بيوم، فأصبحوا وقد جرى النّيل وفاض، وقَطَعَ الله تلك السَّنةَ السُّوءَ عن أهل مصر». نظرتْ إليّ وقد ساءَها أنّني لم أقلْ إنّني أعرفُ من البداية: «أنتَ

تُراوِغ». ثُمّ هَزّتْ رأسَها هزّاتٍ ببطء، وقالتْ: «ابسطْ كَفّك. الآنَ بعدَ الحديث عن لعنة النّيل أريدُ أنْ أقرأ لكَ الكفّ».
تظارفتُ معها: «إذا أردتِ أنْ تبدئي حفلة التّنبُّؤ فتنبّئي لي بشيءٍ يخصّني، ولْيكنْ شيئًا جميلاً، فإنّ الأشياء المُخيفة الّتي تنبّأتِ بها لم تحدث... نريدُ أنْ نبتهج قليلاً يا دُرّيّة، أليسَ هذا من حَقّ الشّيخ؟». لم يُعجبْها ما قلتُ. نقرتْ رأسَها: «أنتَ من الحُمق بمنزلة أولئك الّذين لا يُصدِّقون إلاّ ما يرون. وهل أنتَ ترى كلّ شيء، إنّه لا يرى كلّ شيءٍ إلاّ الله». «إذا كان لا يرى إلاّ الله فلماذا تُريدين إقناعي بأنّكِ تُشاركينه الرّؤية». «أنا أرى بنور الله يا مولانا». «يا دُرّيّة، لقد تنبأتِ بأشياء هي في علم الغيب الّذي لم يطلع الله عليه أحدًا سِواه، ثُمّ...» قاطعتْني: «بل يُطلِع عليه مَنْ يشاء». أكملتُ: «ثُمّ إنّ مصر محروسة، بل هي المحروسة من بين البِلاد كُلّها، هل تعرفين أنّ التّوراة تقول: «مِصْرُ خزائنُ الله، فمنْ أرادَها بسوءٍ قَصَمه الله». هزّتْ كتفَيها، على عادتها، لا يُعجبها غالبًا ما أقول، في رأسِها يدور كلامٌ كثيرٌ، لا تؤمن إلاّ به. قبضتْ على يدي، شدّتْها كما فعلتْ في المرّة السّابقة، كُنّا واقفَين في السّاحة، لم تأتِ بكرسيّين وتضعهما قربَ شجرة البان، أغمضتْ عينَيها، مشتْ بأصابِعها على باطن كفّي، استسلمتُ بانتِظار ما ستقول. قالتْ بصوتٍ أقربَ إلى فحيح أفعى: «سيفرّ المرء من أخيه، وأمّه وبنيه، ولن ينتظر أحدٌ أحدًا». ضحكت، ورفعتُ رأسي في ضحكتي إلى الخلف، وقلتُ وأنا أكاد أدمع من الضّحك: «يا درّيّة، هذا لا يكون في الدُّنيا، بل هذا يكون في الآخرة وأهوالِها».

ضغطتْ بأصابِعها على جهتَي كَفّي حتّى شعرتُ أنّ عِظامها ستتكسّر، وصرختُ: «توقّفي... توقّفي...». نفضتْ يدي، وبدا على وجهها الحنق، كانتْ عيناها في الظّلّ عينَي ذِئب. أخذتُ نَفسًا عميقًا، أردتُ أنْ أُطمئِنَ نفسي قبلَ أنْ أُطمئِنَها: «يا دُرّيّة، إنّ كعبَ الأحبار قال: مصرُ بلدٌ مُعافًى من الفِتَن، فمنْ أرادَها بسوءٍ كَبّه الله على وجهه... يا دُرّيّة، لو علّمْتِني طبخةً لكان أحسنَ من هذا الكَلام، أليس لديك شيءٌ آخر تقولينه غير ما سمعتُ؟».

لم تقلْ شيئًا، أدارتْ رأسَها بشكلٍ رتيبٍ، وعقدتْ شالَها على رأسِها بطريقةٍ بطيئة، وبدا الهمّ في وجهها، شَحُب، وبَهتُ لونه، وقالتْ بأسى، وهي تقصد البوّابة للخروج: «ما أكثر الحمقى!». هتفتُ بها: «يا درّيّة... يا دُرّيّة... لا تتغيّبي كثيرًا، لا أريدُ أنْ تكونَ هذه آخر مرّة أراكِ فيها، لو أتيتِني يومَين في الأسبوع لتؤدّي لي بعضَ الخدمات فسأكون لكِ شاكِرًا». ظلّتْ تمشي بهدوء صامت، حتّى إذا عبرتِ البوّابة، سمعتُها تقول: «ستموتُ عقيمًا، لن يكون لك عَقِب». كرهتُها وكرهتُ نفسي، الخُرافات مُعدِية، إنّها أعدى من الأمراضِ الخبيثة. لو توقّفتْ لحظةً قبل أنْ تغيبَ في زاوية الشّارع لقلتُ لها: «لا أريدُ أنْ أراكِ مرّةً ثانية». لكنتُ طردتُها، و... بصقتُ في وجهها، لا أدري لماذا أصبرُ على وقاحتها إلى اليوم؟!

ولقد كَثُرَ الخيرُ في مصر، فلا أدري هذه الثّرثارة ما تقول لو رأيتُها مرّة أخرى. لقد صار رِطل اللّحم بنصف درهم، وبعضُهم يبيع العِجل بأقلّ من ذلك، والسُّكّر الرّطل بدرهمٍ ونصف، والإردبّ من القمح بخمسةَ عشرَ درهمًا، والإردبّ من الأرزّ بعشرة دراهم، ولقد رأيتُ من الخير والبركة في الأسواق ما لم أرَ طوال عشرين عامًا في بغداد. النّاس يتبايعون ويتسامَحون، ويأكلون ويشربون، ويخوضون في الأعراض والأمراض، وكان مَنْ لا يملك يملك الفدادين، ويبيع لأهل الشّمال غِلاله، وتعودُ عليه وعلى عِياله كلّهم بأوسع الرّزق.

وكان أعيانُ مِصر ووزراؤها يُقيمون المآدب، ويُنفِقون فيها ما لا يسع الكلامَ وصفُه، ولقد دُعيتُ إلى مأدبة في مُنشأة القاضي الفاضل، وكان فيها بساتين، إذا ركبتَ الخيلَ فيها غربتْ عليكَ الشّمس وأنتَ تجري في أفيائها وتنظر إلى خيراتِها، وكان فيها من الثّمار الأُترجّ والحُمّاض والكباد الّذي يُصنع منه الرُّبّ، والنّارنج، واللّيمون، وكانتْ تُزرَع فيها ثِمار الفصول الأربعة، فلا تكادُ تخلو من شجرٍ مُثمِرٍ في كلّ أوقات السّنة، فتأكل الحامض والحلو والحاذق واللاّذع. وكان في مُنشأة الفاضل أبراجٌ للطّيور وبيوت، وكانت تضمّ الحَمام والدّجاج والإوزّ والصّقر والعُقاب والنّسر والكُركيّ واللّقلق والمرزم والبَجَع والبَلَشون والحُبرُج والحَجَل والكَرَوان والسُّمَانيّ والبُلبل وسائر أنواع العصافير. وكانتْ هناك طاقاتٌ للحَمام الزّاجل تحمل بريد القاضي الفاضل إلى أصقاع مِصر، وكان الحَمام يعرفُ طريقَه ومنازله ومواضع رسائلِه أكثرَ من البشر.

ولم يكتفِ القاضي الفاضل بذلك، فبنى الإسطبلات للخيول والحمير والبِغال، والمرابض للجِمال، والزّرائب للأغنام والأبقار، وكان على كلّ صنفٍ منها قيّمون يرعَون أمور تغذيتها، وحَلْبِها إنْ كانتْ تُحلَب، وطرْحِ ما تُنتِجه في الأسواق.

وأقام القاضي الفاضل في طرفِ المُنشأة جهةَ الشّرق للدّاخل من أوّل سورها قصرَه المُنيف، فيما بينَ باب اللّوق وظاهر القاهرة، وكان للعابر من هذا الشّارع المُؤدّي لَها يرى القصر الّذي يحجبُ ما خلفَه من البساتين والدّور، وكان القصر على ثلاثة طوابق أو أربعة، من حجرٍ يُشبه حجر الأهرامات، ولا أدري إنْ جُلِبَ منها أم لا، وكان يقصده الأمراء، فلا يرون في عَظَمته قصورهم، والُعلماء فلا يجدون أمامه إذا دخلوا مسجده الأزهر، والسّور عالٍ، ولكنْ إذا كنتَ على بُعدِ فرسخٍ منه جهةَ الشّرق رأيتَ القصر من على نَشَزٍ في الأرض لا يحجب السّور فهالكَ المنظر.

وكانتْ بساتين المُنشأة تُطعِم أهل القاهرة كلّهم من ثِمارها وأعنابِها وخيراتِها، وكان يبذل منه للزّكاة وإطعام الفُقراء ما درّ عليه البَرَكة. ولَمّا أقامَ لنا ولبعض الأمراء والعُلماء الوليمة، دخل إليه أولئك الأمراء بالطّيلسانات، والعلماء بالعمائم، تحفّهم الورود والرّياحين من كلّ جانبٍ، فكأنّهم أهل الجنّة يتقلّبون في النّعيم !

” (١٠)

عَيْناها

والقاهرة مثل دمشق وحلب، مُدُنٌ تجمع المُتناقضات، فإنْ بحثتَ فيها عن الله وجدتَه، وإنْ بحثتَ فيها عن الشّيطان وجدتَه، تجد المساجد مثلما تجد الكنائس والصّوامع، تجدُ مجالس الذّكر مثلما تجد مجالس الغِناء، تجدُ دُور القرآن كما تجد دُور البِغاء، تجد البَرابِي والخوانق كما تجد الملاهي والمفاسِق، تجد فيها الخَمْر والجَمْر كما تجد التَّمْر والأَجْر، وتجدُ فيها أهل الصُّفّة كما تجد فيها أهل الزَّفَّة، وهي تقف على النّجدَين وتقول بكل ثقة: «اخترْ لنفسِكَ ما تشاء».

قال لي السّمّان وهو يَزِنُ لي أوقيّتين من العسل: «هل ما زلتَ على علاقةٍ بها؟». رفعتُ ذقني، وقلتُ باهتِمام: «مَنْ هذه؟». «دُرّيّة». «درّيّة؟ ماذا تعني؟». «إنّها يصلح فيها قولُ القائل ابعدْ عن الشّر وغنّي له». «وما شأنُكَ أنت؟». «أنا أحبّك، نحن كلّنا في السّوق نعرفك، ونُقدّر عِلمَكَ ومكانتك، ولا نريدُ لسمعتكَ أنْ تتلوّث». «سُمعتي تتلوّث؟». اقتربَ منّي، بصوته الأجشّ الّذي تحول إلى ضُباح ثعلب عندما حاول أنْ يهمس: «إنّها حملتْ سِفاحًا، ولا أحد يدري مَنْ زوجُها... إنْ كانتْ صادقةً فلْتقلْ لكَ مَنْ زوجها...». «وهؤلاء الأولاد الّذين عندها؟». «إنّهم أولاد حَرام». انتفضتُ: «اخرسْ، لا تخضْ في أعراضِ النّاس». «إنّكَ مِسكين. وإنّ فضلكَ بتدريسِ أبنائِنا لَيغفرُ لك سذاجتك. وإذا أردتَ ألاّ آتي بسيرتها مرّة أخرى فسأفعل». «نعم، أريد. لا تخضْ فيها مرّةً أخرى». مدّ لي أوقيّتَي العسل مَصبوبتَين في المرطبان، وأمال رأسَه، كانتْ عينُه الحولاء تتّجه نحوي، حينَ قال بسخرية: «تُحبّها؟». أخذتُ العسل ونقدتُه الثّمن، وأسرعتُ في الخروج من دُكّانه. كنتُ أهرول في الشّارع باتّجاه صِدقي اللّحّام، اشتقتُ لأكل اللّحم، إنّ هذه البطن لا تشبع ولكنّها لا تسمن؛ كأنّني لا آكل شيئًا!

وصلتُ إليه وما زال أثر الغضب بادِيًا على مُحيّاي، سلّمتُ عليه بشيءٍ من العصبيّة. ابتسم: «يا حكيم لو تركتَ قلبَك الرّقيق لكلام النّاس فسيمتلِئ بالثّقوب». رفعتُ نظري، صَعّدْتُه إلى وجهه، كان يُنهي غمزةً بعينه اليُسرَى، مع هَزّةٍ في الرأس وفتلةٍ في الشّارب الغليظ، لولا ابتِسامته الّتي بدتْ لي مُصطَنَعةً لَما رأيتُ شَفَتَيه، قلتُ له: «لماذا تقول لي مثل هذا الكلام؟». «اهدأْ يا حكيم، أنا أعرفُ النّاسَ من وجوههم، وأقرأ ما في قلوبهم، لا بُدّ أنْ أحدهم أغضبَكَ بكلامٍ تافهٍ حتّى ولو كان حقيقة، أهل السّوق هكذا يا حكيم، أَجْودُ ما يقولونه تافه**!**». «يا صِدقي، أعراض النّاس لا تسلم من ألسنتهم**!!**». فتل شارِبَه، واقتربَ مِنّي: «وفي عِرض مَن خاضوا هذه المرّة؟». بلعتُ ريقي، وأخذتُ نفَسًا قبل أنْ أنظرَ في عينَيه اللّتَين شَجّعَتاني على البَوح: «في دُرّيّة». وضربتُ كَفًّا بكفّ. وشهق صِدقي اللّحام، وبدا شارِباه الغليظَان يهتّزان فوق شفتَيه: «اخصّ... دُرّيّة... لعنة الله على السّاقطين». «نعم، دُرّيّة... ولكنْ...» صمتُّ قليلاً، قبل أنْ أتفحّصه فيما أعطاني هو ظهره في تلك اللّحظة وراح يتناول فَخِذَ شاةٍ مُعلّقة على خُطّاف، ويهمّ بتقطيعها، فأكملت: «صِدقي... ماذا تقول أنتَ في دُرّيّة؟». «دُرّيّة؟ إنّها أشرفُ من ثلاثة أرباع نسائهم يا حكيم». وراحتْ سِكّينُه تغوصُ في اللّحم**!**

تركتُ السّوق الصّاخب، وعدتُ إلى البيت، لم تهدأ لي ثائرة، كنتُ أفكّر فيما قاله السّمّان، ومن قبلُ ما قالَه الفاكِهانيّ، كان يبدو أنّهما نموذجٌ لأهل السّوق كلّه، أهل الفِتنة، وأهل الخوض مع الخائضين، رأيتُ السّوق، كلّ مَنْ في السّوق، وقد وقفَ على قدَمَيه، وراح يتكلّم فيما يتخيّله عن جاره أو جارته أو ابنة فلانٍ أو عَلاّن، كانتْ أفواههم مفتوحة بشهيّة للكلام، كانوا يَدلقون العبارات من تلك الأفواه دلقًا في كلّ اتّجاه، كانوا يقيئون الكلام قيئًا، رأيتُ كلّ مَنْ في السّوق يفعل ذلك، كلّهم بلا استثناء يُثرثرون ويَغتابون ويَنمّون، ما عدا المُغنّي الشّاب الذي بدا وجهه صفيقًا قد انشغل بالغِناء وبالعزف على القَصَبة عن الحديث على الآخرين. وتخيّلتُ أسواقًا أخرى في أحياء القاهرة كُلّها تقفُ هي الأخرى بكاملها على أقدامها الألف وتدلق الكلام النّتن من أفواهها، كانتْ هناك لحومُ أوجُهٍ تتساقط، وكانتْ هناك عيونٌ تسيل، وكانتْ هناك أقدامٌ تسيح في الأرض، وكانتْ هناك أنيابٌ تغوص في لحومٍ بشريّة... والنّاس رغم ذلك مُستمرّون في نهشِ أعراضِ بعضهم بعضًا. نفضتُ رأسي، أردتُ لهذه الخيالات أنْ تنتهي، قمتُ، توضّأت، صلّيتُ ركعتَين لم أدرِ ما قرأتُ فيهما، ثُمّ ذهبتُ إلى غرفة المكتبة، ونسيتُ نفسي بين الكتب.

اشتقتُ لطبخةٍ من طبخات درّيّة، لها أكثر من عشرة أيّام مُختفِية، إنّها تأتي عندما تريد، وتغيب عندما تريد، لا قانون يحكم هذه المرأة العجيبة، لكنّني أستطيع أنْ أقول إنّني... لا، لا يمكن أنْ أكون قد أحببتُها... يُمكنني أنْ أقول إنّني أفتقدها؛ لكنّ الافتِقاد علامةٌ من علامات الحبّ، لو لم تكنْ تحبّها فلماذا ستفتقد امرأةً

ما وتشتاق إليها...؟**!** ربّما جَذَبني فيها جرأتُها، وقاحتُها أحيانًا... لطمتُ خدّي بباطن كفّي، أنا رجلٌ مريضٌ؛ هل هناك أحدٌ تعُجبه امرأةٌ وقحة تتطاول عليه؟**!** لا أدري ما الّذي يحدث؟ أتكون قد سحَرَتْني كما قال الفاكِهانيّ مرّة؟ لا.. لا... ما هذا الجنون؟ أنا لا أؤمن بالسّحر بهذه الطّريقة... كلّ ما في الأمر أنّني وحيدٌ في هذه البِلاد، وأحتاج إلى طعامٍ يكون جاهِزًا عندما أجوع، وهي الّتي كانتْ تُحقّق لي هذه الرّغبة... هذا كلّ ما في الأمر، واضحٌ أنّني أشتاق إلى معدتي لا إليها**!** يبدو أنّني من هذا الصّنف من الرّجال الّذي يحبّ عندما تمتلئ معدته... تَبًّا... كيفَ وصلتُ إلى هذا الحَدّ.. تلفّتُّ حولي وأنا في غرفة النّوم، كنتُ مُستلقيًا على سريري، لم أرَ ما يلفتُ انتِباهي، قمتُ من السّرير، أردتُ أنْ أمشي في أروقة الطّابق الثّاني، أنْ أقتل بعضَ الفراغ والمَلَل، خطوتُ في الرّواق بالفعل، نظرتُ من أعلى إلى السّاحة الّتي في مدخل البيت، كانتْ هادِئةً ساكنة، لا يبدو فيها أيّ حَيّ، فجأةً... قطعَ الصّمتَ المُطبِق صهيلُ الأبلق في الإسطبل، كان الإسطبل تحتَ قدمَيّ، يبدو أنّ الحِصان أحسّ بي وبوحدتي فأرادَ أنْ يُسلّيني، شعرتُ أنّ صهيلَه قالَ لي: «عمتَ مساءً يا أخا العرب... الخيلُ خيرٌ لكَ من النّساء... ما رأيُكَ بجولةٍ في شوارع القاهرة؟». قلتُ لنفسي: «اقتِراحٌ جميلٌ. انتظرْني ريثما ألبسُ ثِيابي وأوافيك يا حِصاني العزيز». هممتُ بالالتِفاف والسّير إلى غرفة النّوم لأبدّل ثِيابي عندما حانتْ منّي التِفاتةٌ إلى شُجيرة البان في وسط الحديقة، فرأيتُها هناك؛ كانتْ دُرّيّة تقف بجانب الشّجرة، وتنظر إلى أعلى، التقتْ عيناها بعينَيّ، كانتا في الظّل عينَين ذِئبيّتَين، شيءٌ ما غريبٌ تراءَى لي فيهما، كانتْ تُحدّق بي بطريقةٍ لم أعهدْها، قلتُ مُتسائِلاً: «دُرّيّة...؟ ماذا تفعلين عندكِ؟». لم تقلْ شيئًا، واصلتِ التّحديق في عَينَيّ... ارتختْ مفاصلي، ارتعشتْ رُكبتاي، شعرتُ بدُوارٍ خفيفٍ، تمايلتُ قليلاً، أردتُ أنْ أستندَ إلى أقربِ جِدارٍ، أو إلى طُفّ الدّرابزين، لكنّني سقطتُ قبل أنْ أفعل... كما لو أنّني جُذِبتُ إلى بئرٍ عميقةٍ لا قَرارَ لها**!**

صحوتُ قُبيل الغُروب على قَرع البوّابة الكبيرة في الأسفل، فتحتُ عيني، فرأيتُ سقف الرّواق أوّل ما رأيت، احتجتُ قليلاً من الوقت لأدركَ أنّني كنتُ في غيبوبةٍ، تلمّستُ بيدَيّ المكان، إن شمسَ الأصيل ما زالتْ تُضيئُه بخيوطها الأخيرة، استرجعتُ ما حدثَ معي، ما الّذي أوقعني في الغيبوبة؟ هل هو الإجهاد، أم قِلّة الطّعام، أم نحول الجسد ووهن القُوى، أم الجوع، أم شيءٌ ما في الطّعام الّذي أكلتُه أمسِ، أو... ثُمّ تذكّرتُ هيئَتها إلى جانب شُجيرة البان، فهتفتُ: «إنّه عيناها... درّيّة... درّيّة هل أنتِ هنا؟». لكنّ صوتي انزلق على الرّواق، وخفتَ تدريجيًّا قبل أنْ ينتهي بسكونٍ تامّ. أردتُ أنْ أنهضَ، فسمعتُ القرع على البوّابة من جديد، وصوتٌ من الأسفل يقول: «مولانا.. هل أنتَ هنا يا مولانا؟». رشقتُ الماء على وجهي سريعًا، وهبطتُ الدّرجات، وهُرعتُ إلى البَوّابة ففتحتُها، فإذا هو جنديٌّ عرفتُ من لباسه أنّه يتبع ديوان مصر، سَلّمني بريدًا، وأعطاني ظهره ومضى.

كان البريد من الوزير ابن سناء المُلك، يُذكّرني بدعوته إلى حضور موكب الأمير يوم الأحد، سيمّر بالسّوق الّذي هو في باب زويلة ويخرج منه إلى الشّارع الّذي يفصل بين السّوق ومسجد الصّالحي، وسيتوقّف في محطّة تبعد عن المسجد فرسَخا، وعليّ أنْ أكون فيها بحلول الظّهر لكي أنضمّ إلى الموكب. طويتُ الرّقّ، وصعدتُ إلى غرفة النّوم، وعبثًا حاولتُ أنْ أنام، كانتْ عينا دُرّيّة تظهران على الجدران والسّقف وزُجاج النّافذة، لم أستطعْ أنْ أُفلِتَ منهما. فكّرتُ أنْ أركبَ الأبلق، وأطوي المكان إلى تربة الشّافعي لأراها، ولكنّني استخففتُ بنفسي؛ لماذا سأراها؟ ماذا سأقول لها عندما نتقابل؟ هل سأقول إنّني مشتاقٌ لكِ؛ فأنتِ لم تزورينا في البيت منذ أكثر من عشرةِ أيّام؟ ماذا لو ظهر لي زوجها؟ صمتُّ قليلاً، قبل أنْ أتساءَل من جديد: ولكنْ ماذا لو لم يكنْ لها زوجٌ كما قال ناجي السّمّان؟ ماذا لوكان على حَقّ؟ سيكون الأمر صعبًا. ماذا لو لم يكن على حَقّ؟ سيكون الأمر أصعب؟!

لم أنجحْ في النّوم، كان اللّيل قد هبطَ على القاهرة، من نافذتي من هنا شاهدتُ المشاعل العالية من بعيدٍ وهي تُزيّن باب زويلة، وشاهدتُ مِئات من المشاعل في الشّارع الفاصل بيننا، وفي شارع المُعَزّ نفسِه، فاستأنستُ بالأضواء قليلاً، القاهرة في اللّيل ساحرة، تبدو حوريّة إغريقيّة خرجتْ من البحر فأضاء نورُها السّماوات. ما الّذي يمنعني من أنْ أخرج الآن في هذه الشّوارع الفاتنة؟ آه لو أنّ درّيّة هنا لتخرج معي؟ لُمتُ نفسي على هذا الخاطر الآثِم؛ كيفَ تُفكّر بهذه الطّريقة يا شيخ؟ درّيّة امرأةٌ عابرة، امرأةٌ مُتزوّجة، لها حياتُها الخاصّة، لماذا تُصرّ على أنْ تُقحمها في حياتك؟ وتأفّفتُ طويلاً: لو كنتُ أملك إجابةً على سؤالٍ كهذا

لكنتُ ارتحتُ من زمنٍ. وهتفتُ: آآآه... وصعدت الآه كأنّها نارٌ تتّقد في الأضلاع. لن أخرج وحدي كالأبله لأطوف في هذا اللّيل شوارع القاهرة، وإنْ كان التّجوّل في القاهرة في اللّيل مُغريًا جِدًّا. قرّرتُ في النّهاية أنْ أصلّي، وأدخل غرفة المكتبة، وأغمس نفسي بين المخطوطات، ولكنّني شعرتُ بأنّ هذا سوفَ يحدّ من حضور درّيّة في قلبي؛ اللّعينة، هتفتُ، إنّها تُسيطر على أفكاري حَقًّا، ورحتُ ألتمس وسيلةً بها لأنسى، فلم يكنْ من وسيلة أنجع من النّوم، وفجأةً جذبني النّوم من يدي بقوّة وأسقَطَني في جوفه في لَحَظات!! ❞

❞ القِسم الثّالث

الزّلزال

لم يَترُكِ الموتُ مِنهمْ مَنْ يُخبّرني

عنهم، فيُوضِحَ ما لاقَوه تِبْيانَا

بادُوا جميعًا، وما شادُوا، فواعَجَبًا

للخَطْبِ؛ أهلكَ عُمّارًا وعُمْرانا!

هذي قُصُورُهُم أمستْ قُبُورَهُمُ

كذاكَ كانُوا بِها مِنْ قَبلُ سُكّانَا

ويحَ الزّلازلِ أفنتْ مَعْشَري فَإذا

ذَكَرْتُهُمْ خِلْتَني في القومِ سَكْرانَا

(أسامة بن منقذ) ❞

❝ (١)

اللّهو المُباح

القاهرة كلّها أسواق، حتّى أولئك الّذين يريدون أنْ يذهبوا إلى المسجد ليُصلّوا، لن يَلِجُوا إلى باب المسجد حتّى يذرعوا شارع السّوق كلّه من أوّله إلى آخره؛ كان عليك أنْ تعبرَ – مَثَلاً - سوقَ القَمّاحين شبرًا شِبرًا قبل أنْ تدخل إلى مسجد الأقمر، تدخل من باب الفتوح، وتظلّ ماشِيًا ودكاكين القمح تحفّ بك من كلّ جانبٍ، فتشمّ رائحة السّنابل من عهد يوسفَ

إلى اليوم، وهل رائحة الخبز المغموس بالدّم الّذي أكلتْ منه الطّير فوقَ الرّأس المصلوب، تُشبه رائحة الخُبز المغموس بالعافية الّذي كان يأدِمُ به الملكُ طَعامَه؟! ستشمّ روائح هذه العصور كلّها قبل أنْ تضع قدمكَ اليُمنى على عتبة مسجد الأقمر. كان أكثر السّوق مسقوفًا. حين مضى زمنُ الفاطميّين صار السّوق في أنحاءٍ منه يُباع الشّمع، ولهذا سُمّي لاحِقًا بسوق الشّمّاعين. لكنّه مع الزّمن انفلتَ من عِقاله، وصار يُؤوي الأجسادَ الّتي تبيع المُتعة الرّخيصة لكلّ مُشتهٍ يبحثُ عن وِعاءٍ يُلقِي فيه نَزَواته الجَسديّة!

هنا، حينَ يُلقِي اللّيل سِربالَه، ويقلّ عددُ الأرجل العابرة، ولا يأتي إلاّ مَنْ كانتْ له نِيّةٌ في المجيء، في هذا السّتار تجلس بغايا يقال لهنّ زعيرات الشّمّاعين، لهنّ سِيْما يُعرفْنَ بها، وزيّ يتميّزن به، وهو لبس الملاءات المفتوحة الّتي تُظهر فتنة الجسد، ويلبسْنَ في أرجلهنّ سراويلاتٍ من أديم أحمر.

قد تكون البَغِيّ سيّدة نفسِها، تعرضُ جسدَها دون وسيطٍ، وقد يكون هناك مَنْ يعرضُ أو تعرضُ عنها ذلك، فإذا وجدتَ ذلك الصّنفَ من الرّجال، ذوي الذّقون الحليقة، والوجوه الصّفيقة، والعيون العميقة، سيسألونك: بكم تريدُ أنْ تتمتّع؟ وعلى مِقدار ما في الجيب تكونُ السّلعة؛ فإذا كان جيبُكَ دافِئًا، ودينارُكَ وافِيًا عرضوا عليك الصّغيرات في السّنّ الممتلِئات في الأجساد. وإذا كان جيبُكَ مُهترِئًا، فربّما لن تحظى إلاّ بعجوز، وإذا جئتَ تسترق النّظر وما معكَ شيءٌ، فلربّما هجم عليكَ الدّلالون بالحديد، وطردوكَ من المكان، فرجعتَ لا أنتَ رأيتَ، ولا أنتَ نِلْت، هذا إذا لم يُحدِثوا فيكَ عوارًا يسيل له بعضُ دمك!

كان ذلك ليلةَ جمعةٍ، وقد دخلَ إلى قلبي بعضُ الملل، فقلتُ أطوفُ في الأسواق، فقادَتْني قدَماي إلى هنا، فعثرتُ بهؤلاء البغايا، وكانتْ مجموعةٌ منهنّ قد نثرنَ شعورهنّ، وزجّجْنَ حواجبهنّ، وكحّلنَ عيونهنّ، وتمايلْن يمضغْنَ الكلام مع كلّ مَنْ يطلب عندهنّ حاجته، وتذكّرتُ قول المتنبي:

حُسنُ الحضارةِ مَجلوبٌ بتطريةٍ

وفي البداوة حُسْنٌ غيرُ مَجلوبِ

أفدي ظِباءَ فلاةٍ ما عرفْنَ بها

مَضْغَ الكلامِ ولا صَبْغَ الحَواجيبِ

وكان عددٌ منهنّ يسترقُ النّظر إليّ، يدعونني بأطرافهنّ، ويَقُلنَ بحركاتهنّ كلّ شيءٍ؛ وتحرّكَ فِيّ ما يتحرّك في الرّجال، فخفتُ أنْ أقعَ في الحرام، فنكصتُ على عقبَيّ، أنوي الخروج من المكان كلّه والرّجوع للبيت، وفعلتُ، غيرَ أنّني سمعتُ صوتًا من خلفِ ظهري، يُنادي: «مولانا...» فرجفتُ، وتبدّل لوني، واختلجَ قلبي، وخفتُ أنْ أُعرَفَ في مثل هذا المكان فتلحق بي الفضيحة، وينالني ما ينالني. وشددتُ العزم على المُضيّ بأسرعِ ما يُمكن، فسمعتُ الصّوتَ من جديد، يقول: «لا تخفْ يا مولانا...» وخُيّل إليّ هذه المرّة أنّني أعرفه؛ إنّه صوتُ دُرّيّة، وجمدتُ لمّا سمعتُ الصّوت في مكاني، ولم أجرؤ على أنْ أستدير فأراها أو تراني، وقلتُ: «لعلّه يُشبِه صوتَها». لكنّها أكملتْ: «إنّ ما يقولُه السّمّان والفاكِهانيّ محضُ افتِراء». ولم أصدّقْ أنّني أسمعُ صوتَها، إنّها امرأةٌ متزوّجة، ولديها أولاد، ولا يُمكن أنْ تبيع جسدها!! وحاولتُ التّخفيف من صدمة ما أنا فيه، فقلتُ في نفسي: لا بُدّ أنّ هَوَسي بدرّيّة جعلني أُركّبُ صوتَها فوقَ صوتِ هذه البغيّ. غير أنّها أردفتْ: «يا عبد اللّطيف... إنّه لطيفٌ بعباده، ولا بأسَ من بعضِ اللّهو المُباح». وبينما أنا في دوّامة الشّكّ إنْ كانتْ هي أو سِواها، تتصاعدُ أنفاسي، ويُرى ارتِجاف جوارحي، ويُسمَعُ خَفَقان قلبي، نقلتُ قدمَيّ الثّقيلتَين ما استطعتُ وأنا أُوَلّي للصوتِ ظهري، ثُمّ جاهدتُ لأتحرّر من ذلك الثّقل، فتحرّرتُ، ثُمّ رحتُ أركضُ كالأبله، وأنا أتعثّر في رَكضي، ورأيتُ في طريقي صِدقي اللّحّام بشاربَيه الغليظَين قد سربل نفسه بلباسٍ أبيض، تفوح منه رائحة الطّيب من بعيدٍ، وهو يمشي تُجاه البغايا كأنّه يريدُهنّ، فتجافَيتُه، وتعامَيتُ عنه حتّى خرجتُ من السّوق كلّها. ولم أدرِ إذا أطلقتُ ساقَيّ للريح هربًا من نظراتها، مَن هو الذي سيلحق بي؟ آلصّقر الذي في عينيها، أم الذئب الذي هو فيهما؟!! وكان صوتُها لا يزال يطنّ في أذني: «اللّهو المُباح... اللّهو المُباح...». حتّى إذا وصلتُ إلى البيت، دخلتُ إلى السّاحة، وكان اللّيل قد مضى أكثرُ من نصفه، فسمعتُ صهيل الأبلق، كأنّه يقول لي: «عيبٌ عليكَ يا مولانا».

وتحاشيتُ النّظر تُجاه الإصطبل، وصعدتُ الدّرج وأنا أحسّ بالحُمّى تسيل في جسدي كلّه، وألقيتُ بنفسي على السّرير، ولم أصحُ إلاّ حينَ لَسعتِ الشّمس صفحةَ وجهي.

ثُمّ تلتِ السّوقَ من بعدِ تلك الأيّام سوقُ الشّمّاعين، وكان يعمرُ أكثر ما يعمرُ أيّام رمضان؛ وكان يباع في هذه السوق في كل ليلةٍ شمع كثيرٌ، وكان فيه من التزّيّن والتّرف الكثير أيضًا. والشّارع الطّويل الّذي يمخر عُباب هذه السّوق مليء بهذه الحوانيت الّتي تبيع الشّمع أشكالاً وألوانًا، وكانتْ تبيع الفوانيس أيضًا، فإذا كانتْ أوّلَ ليلةٍ في رمضان، أوقدَ كلّ دُكّان عددًا من الفوانيس أمام بابه من الجانبيَن، وتنافَسوا في حجمها وشِدّة ضوئها، فإذا وقفتَ في أولّ السّوق وأرسلتَ نظركَ إلى آخره هالكَ الجَمالُ المُعلّق بهذه الفوانيس، كأنّها كواكبُ دُرّيّة تهبطُ من قبّة السّماء، وكان منظرها من أجمل ما يُمكن أنْ تقع عليه العينُ في ليالي رمضان.

وكانت السّوق تعجّ بالنّاس في هذه اللّيالي لكثرة ما يشترون من الفوانيس والشّموع، وكان عددٌ من الفتيان أو الفَتَيات يشترون أزواجًا منها، ويطوفون بها في مواكب باهرة. وبعضُ الآباء كانوا يشترون عجولاً أو خيولاً مصنوعةً من هذا الشّمع في ألوانٍ زاهية، ويُرغّبون الصّبيان بركوبها إذا حضروا معهم صلاةَ التّراويح.

فإذا خرجتَ من حوانيت الشّمّاعين، بدأتْكَ حوانيتُ الدَّجَّاجين. وفي سوق الدّجّاجين يُمكن أنْ تتعرّف إلى وجهٍ جديدٍ من وجوه القاهرة. هل يمكن أنْ تنتهي وجوه القاهرة؟!

والنّاس في رمضان تأتي من الفُسطاط، ليشهدوا الجُمعة في جامع الحاكمي، بدلاً من جامع عمرو بن العاص، ولكنّهم يحرصون على ذلك ليس من أجل سماع الخُطبة فحسب، بل من أجل أنْ يروا الدّراويش وهم يخرجون من خوانقهم إلى الجامع، فلم تكن صلاة الجمعة تُقام في تلك الخوانق، وأهل مصر يعدّون أهل الخوانق من الأولياء، فإذا خرجوا، وقف أهل القاهرة مع نسائهم وأطفالهم لكي تحصلَ لهم البركةُ برؤيتهم. ويخرجُ شيخُ الخانقاه وبين يدَيه خُدّام الرّبعة الشريفة، قد

حُمِلتْ في صِحافٍ تلمع فوقَ رأسِ أكبرهم، والدّراويش يتبعون الشّيخ في سكونٍ وهدوء وخشوع، مُطرقين برؤوسهم إلى الأرض، في زِيّهم المَهيب، حتّى يُوافوا باب الجامع الحاكمي الّذي يلي المنبر، فيدخلون إلى مقصورةٍ هناك على يسار الدّاخل تُسمّى مقصورة البسملة، سُمّيتْ بذلك لأنّه مكتوبٌ في أعلى حجارتها (بسم الله الرّحمن الرّحيم) بحروفٍ واضحة. فإذا تكامل عددُهم داخل المقصورة - وأهل مصر بنسائهم وأطفالهم ورجالهم يحفّونهم - صلّى شيخُهم تحيّة المسجد، فإذا سَلّم، جلسوا في حلقةٍ مرسومةٍ بدِقّة، فقام خادمهم يوزّع عليهم أجزاء الرّبعة، فيقرؤون القرآن، ويشتغلون بالذّكر، حتّى يؤذّن المُؤذّن لصلاة الجمعة، فيطوف عليهم الخادم من جديدٍ، فيأخذ منهم أجزاء الرّبعة ويُعيدها إلى صحافها. فإذا صعد الخطيب المِنبر، رأيتهم كأنّما ألقَوا رُؤوسَهم على صدورهم، يستمعون إلى الشّيخ في خشوع. فإذا قُضِيت الصّلاة، قامَ قارِئٌ من قُرّائهم فقرأ بصوتٍ نديّ ما تيسّر له من القرآن، ثُمّ دعا، فأمّنوا خلفَه، ثُمّ اصطفّوا على هيئتهم الأولى، وخرجوا يقصدون الخانقاه من جديدٍ، وأهل القاهرة تحفّ بهم، والأطفال ينظرون مُولَعين بما يُشاهِدون، والأمّهات مسروراتٌ بالبَرَكة الّتي ستحلّ بالعِيال لمجرّد النّظر. ثُمّ يمشون في الشّوارع إلى أنْ يعودوا إلى خوانقهم، فإذا دخلوا إليها، انقطعَ سعيُهم، ولم يعدْ أحدٌ يراهم في أيّ مكانٍ من الأرضِ إلاّ إذا حلّت الجمعة القادمة.

وعُدتُ إلى البيمارستان، أعالجُ المرضَى عصارى يومَي الاثنين والخميس، وقد بدأتُ أتعرّف على الأمراض الّتي تحلّ بهؤلاء القوم، ولكلّ بلدٍ أمراضُه، فما يشيع في القاهرة غيرُ ما يشيع في الصّعيد، وبالطّبع غير الّذي كان يشيع في بغداد. ❝

❞ (٢)

سوق السَّجّادين

أين اختفتْ دُرّيّة، إنّه شهرٌ أو يزيد، وأنا لا أصبر كلّ هذا الصّبر! وَمنْ تكون درّيّة حتّى لا تصبرَ عليها، لو سمعَ الأبلقُ خاطركَ هذا، لقال لك: «عيبٌ عليكَ يا مولانا، تُعلّق قلبكَ بامرأةٍ غامضةٍ، ينكشفُ لك في كلّ مرّةٍ سِرٌّ من أسرارها، وينزاح عن وجهها قِناعٌ من أقنعتها؟». «لا تَلُمني يا حِصاني العزيز، إنّ في عينَيها نِداءً عجيبًا، أسمعه في قلبي، لا يكاد يهدأ. أتمنّى أنْ أُسكته، لكنّني لا أستطيع».

كنتُ قد توسّعتُ في المكتبة، واشتريتُ عددًا جديدًا من الكتب، غير تلك الّتي أُهديتْ إليّ، فصارَ لِزامًا عليّ أنْ أُؤثّث غرفةً جديدةً لها، لأنّ الأولى فاضت عن السَّعَة، وفي الغرف هنا مُتّسع، ففكّرتُ أنْ أذهبَ إلى سُوقِ السّجّادين من أجل ذلك، ولمع في ذهني أنّه يُمكن أنْ أجدها هناك، فَسُوق السّجّادين تعجّ بالنّساء، ثُمّ انطفأتِ التِماعة الخاطر هذا، عندما تذكّرتُ أنّها تعيشُ في تربةٍ، وأنّ السّجّاد بالنّسبة لها يُعدّ ترفًا، ومن غير الممكن أنْ تذهبَ إليه لتفرشَ تراب المقابر بالدّيباج!! لكنّ الخاطر عاود الالتِماع من جديد عندما فكّرتُ أنّها يُمكن أنْ تذهبَ إلى هناك من أجل التّسكّع فقط، أو أنّها تُوصِل بعضَ طبخاتها لبعض بيوت السّوق، فأكون محظوظًا وأجدها، ثُمّ قلت لنفسي: هذا احتمالٌ ضئيلٌ جِدّا، وإذا لم أجدْها هناك فلماذا لا أذهب إلى حيثُ تعيش في تربة الشّافعيّ؟ وأحسستُ أنّني فقدتُ كلّ وقارٍ يجب أنْ أتمتّع به بعدَ هذا الخاطر، أنا؟ الشّيخ؟ الطّبيب؟ النّحويّ؟ العالِم؟ ماذا سيقولون: مولانا الجليل عبد اللّطيف البغداديّ يذهب برجلَيه، وبإرادته، ليزور امرأةً في تربة الشّافعيّ تكثُر فيها الأقاويل؟ ومَنْ تكون هذه المرأة بالنّسبة له؟ أمّه، أخته، زوجته، ابنته، رَحِمَه،...؟ إنّها ليستْ أكثرَ من امرأةٍ عابرةٍ ظهرتْ له فجأةً حينَ كانتْ تسأل سُكّان البيوت الجُدُد عمّا إذا كانوا يرغبون فيمن يطبخ لهم طَعامهم. لا بُدّ أنّني جُنِنت، وشعرتُ باحتِقارٍ لنفسي، ومع هذا الشّعور المُذلّ إلاّ أنّ عينَيها لم تُفارقاني، وسقطتُ غريقًا في أمواجٍ من الحيرة المُتلاطِمة.

سأذهبُ إلى سُوق السّجّادين على أيّ حالٍ، قلتُ، هذه أفضلُ فِكرةٍ يُمكن أنْ أخرجَ بها مِمّا أنا فيه، ولبستُ ثِيابي، وشددتُ المنطقة على وسطي، وأحكمتُ لَفّ العِمامة البيضاء الّتي على رأسِي، وعرفَ (الأبلق) ذلك من خُطُواتي السّريعة وأنا أنزل الدّرجات، فصهل، وأخرجَ عنقه من أعلى الباب المنخفض الّذي يُغلَق على إسطبله، وحرّك رأسَه الكبيرة، فراح اللّجام يتراشق، وسمعتُ مع صهيله صوتَ الحدائد الّتي في اللّجام، فقلتُ له: «أنا قادم».

ومررتُ بسوق (بين القصرَين) قبل أنْ أصلَ إلى سوقَ السّجّادين، وهو أعظمُ أسواق القاهرة، واسعٌ جِدًّا، شارعه ليسَ ضيّقًا كشارع المعزّ الّذي في سوق باب زويلة، وتلعبُ فيه الخيول، ويتّسع لعشرة آلاف فارسٍ بكامل عدّتهم لا يضيقُ عنهم، وترى الخيول فيه تُطاردُ نفسَها، والخُيول أجمل من البشر حينَ تجتمع في مكانٍ واحد! وكانت السّوق أيّام الدّولة الفاطميّة أعظَمَ مِمّا هي الآن، فلقد أخمل الأيّوبيّون بهجتَها، وأطفؤوا كثيرًا من بريقها، ومع ذلك ظلّتْ يُباعُ فيها كلّ ما يتعلّق بالخيل من السُّرُج، واللُّجُم، والحَدَوات، والأَعِنّة، والزّينة، ويُباع فيها إلى ذلك كلّ ما يتعلّق بالسّلاح، من سيوفٍ ورِماحٍ، ودِلاصٍ، وزردٍ، ودروع، وخُوَذٍ، ومَناجِل، وسكاكين، وخناجر، وقِسِيّ، ونُشّاب، وحدائد... ولقد أدركتُه وقد صارَ باهِتًا، فدخلتُه، فغيّرتُ حَذَوات الحِصان، واشتريتُ له سرجًا جديدًا، ففرح، وعرفتُ ذلك في عينَيه، فقبّلتُه بينهما، ومسحتُ على عنقه البيضاء، فسَرتْ بيننا وشائج المودةّ، ولولا أنّنا خلقان مُختلفان لقلتُ إنّني أخُوه، ولم يكنْ لي أخٌ في حياتي مثله، وشعرَ هو بذلك، فأغمضَ رموشَه البيضاء الطّويلة على عينَيه الكَحلاوَين، ثُمّ اعتنقتُه وقلتُ له: «إنّني قدّمتُكَ على نفسي، ومن الوفاء أنْ أشتري لكَ أثاثَكَ قبل أنْ أشتري لنفسي». ثُمّ مررتُ به على الخان، فأكَل وشَرِب، وكان في الخان خيولٌ كثيرةٌ، فهل تتعارف إذا تلاقتْ؟! وهل يكون بينها في مجلسها هذا حديثٌ كما يكونُ بين البشر في مجالسهم؟! وطلبتُ من صاحب الخان أنْ يُوافي طعامَ الأبلق لستّة أشهرٍ من تبنٍ وشعيرٍ إلى بيتي، وكان الخان في وسط الجهة المقابلة للشّارع، وعلى جانِبَيه حوانيتٌ تجلسُ فيها الصّيارف طَوال النّهار، يبيعون أنواعًا شتّى من المآكل، وأصنافًا مُشتهاة من المَطاعِم، فإذا هبطَ اللّيل، أُشعِلت السُّرُج والمصابيح الّتي لديوان مصر من الجهتين، ووفد عددٌ كبيرٌ من النّاس، وراحوا يتمشَّون في الشّارع، ويتنزّهون، وأكثرهم فتيانٌ، وأصحابُ مجون، يتفكّهون، ويتندّرون، ويتسكّعون، وتبدُر منهم من أعمالٌ فيها من الخلاعات وسوء الأخلاق ما يضيق القول عنه؛ ومَنْ فرغ عقلُه وكَثُرَ مالُه ساءَ فِعلُه... ثُمّ إنّني خرجتُ إلى سوق السّجّادين.

وكانت السّوق رحبةً، لم أرَ مثل هذه العَظَمة من قبلُ، فبعضُ السّجّاد يبلغُ طولُه ثلاثين ذراعًا، وعرضُه عشرون، وكان صاحبهُ يعرضُه من طابقٍ ثانٍ أو ثالثٍ، فيتدلّى من الأعلى ويهبط، وينتهي قبل أنْ يمسّ الأرض بقليلٍ، فتنفرد السّجّادة كاملةً حتّى يتسنّى للمُشتري أنْ يعاينَ ألوانَها، ويرى اللّوحة المرسومة عليها، وكان يحدثُ أنْ تكون الرّسومات على تلك السّجاجيد تصويرًا لحروبٍ، أو تصويرًا لمساجد، أو تصويرًا لمجالسِ القِيان، وكانتِ التّصاوير من الإتقان بحيثُ إنّكَ تكاد تعتقد في أنّ ما تراه ليسَ إلاّ حقيقة، فالفرسان في صورة الحرب يلبسون الخُوَذ، ويضربون بالسّيف، ويطعنون بالرّمح، كأنّ ذلك يحدثُ أمامكَ لا في نسيجٍ مُصوّر فوقَ قطعةٍ من الدّيباج، ويُخيّل إليك - لدقّة التّصوير - أنّكَ تسمع صيحات المُتقاتلين، وصليل السّيوف، وضَبَحَ الخيول، وشهيقَ الموتى، وأنينَ الجرحى... وتُفكّر بأنْ تلحقَ بهم كي تُسعفهم وتخفّفَ آلامَهم!!

كنتُ لا أزال في ذهولي، وأنا أنظر إلى أصحاب هذه السّوق يعرضون سجاجيدهم على الجدران العالية، أو في أكراتٍ مُخصّصة للعرض، وطفتُ أبحثُ عن غايتي، فلم أرَ ههنا إلا نساء الأمراء والوزراء وأعيان التُّجّار وأهل الثّراء والغِنى، وكلّ سيدةٍ معها جاريتان أوثلاثٌ، يتْبَعْنَها اتّباع الكلبِ صاحبه، وهنّ يتقصّفْنَ جميعًا في مشيهنّ كأنّما رُكّبتْ أقدامهنّ على زئبق.

وأَدَرْتُ طَرْفِي فِي الوُجُوهِ لعلّني... ألقاكِ أو ألقى الّذي يلقاكِ... فَرَدَدْتُ طَرْفِي خائِبًا مُتَحسِرًا... ما كنتُ أرجعُ خائِبًا لولاكِ...!!

وكان بعضُ السّجاد يتدلّى من أُسطواناتٍ بألوانٍ شَتّى، والنّساء يتلمّسْنَه تلمّس الخبير، ويُدقّقْنَ فيه النّظر ويُطِلْنه، ويُقلّبْنَه من جِهةٍ إلى أخرى، وكان بعضُ عبيد السّجّادين يستخدمه سيّده وسيلةً لعرضِ سِجّاده، فتراه يحملها على كتفه وتتدلّى أمامه، حتّى تغُطّي الأرض بين قدَمَيه، فتأتي المرأة فتقلّبها، وتتفحّصها، من أمامٍ ومن خلف، وعن يمينٍ وشِمال، والعبدُ واقفٌ في موضعه لا يتحرّك قيدَ أنملة، كأنّه صخرةٌ مصبوبة. ولقد تمرّ على العبد عشرون امرأةً في اليوم أو ثلاثون، مايشتريْنَ سجّادةً واحدةً، وما يُرحن هذا المسكين من وَقفته طوال النّهار في الحرّ!

وكان يحدثُ من أجل عيونِ النّساء أنْ يصعدَ صاحب السّجّاد إلى دكّةٍ عالية، ويقفَ فوقَها، ويقوم بِبَسْطِ السّجّادة أمام المرأة، وتُوقفه هذه زمنًا طويلاً وهي تتلمّس وَبَر السّجّاد، وتتمعّن في تفاصيله وألوانه، وقد تُعجِبها سجّادة بعد أنْ تُعاينَ عشرًا أو عشرينَ منها، وتهمّ بالشّراء، ثُمّ تتراجَع عن ذلك؛ لأنّ الألوان الّتي في أطرافِها، ليستْ متناسقةً مع اللّون الّذي في وسطها، وإنْ كان لونَها الّذي تحبّ... وينزل السّجّاد بعد أنْ تخرج المرأة من دُكّانه، وهو يزفر، ويلعنَ النّساء جميعًا.

«أنتَ مِن هنا؟». «إنّكم تسألونني هذا السّؤال دائِمًا». «نحن نعرفُ وجوهنا، سِحَنُنا لا تخفى علينا، والغُرباء لا يخفَون». «أنا غريب... نعم... أنا غريبٌ، قدمتُ من المشرق». «من الشّام؟». «كلاّ مِنْ بغداد». «خيرُ النّاس... أنا حَمّاد السّجّاد..». ومدّ يده إليّ وابتسم، فسلّمتُ عليه، وجزيتُه على ابتِسامته بابتِسامة، وقلت: «أنا عبد اللّطيف...» فرفع ذقنه قليلاً، وقال وهو يحكّها: «تعمل في البيمارستان؟ أليس كذلك؟». «بلى، بعضَ أيّام الأسبوع... ولكنْ كيفَ عرفتَ؟». «أزوره بينَ فترةٍ وأخرى، فأنا...» وسعل، ثُمّ أكمل: «كبيرٌ كما ترى، وشاهدتُكَ هناك». «عظيم». «بماذا يُمكن أنْ أخدمك؟!». «أريدُ سجّادة تُصوّر مكتبة الإسكندريّة». «المكتبة؟». «وهل في ذلك غرابة؟». «لا، ولكنّ المكتبة اندثرتْ...». «وهذه التّصاوير لهذه المعارك وتلك المجالس أما زالتْ تدور إلى اليوم؟» وضحك، حتّى رأيتُ الإقرار في وجهه، وأكمل: «لديّ شيءٌ مُشابِه... تصويرٌ لكتب». تبعتُه لأراها، وأعجبتْني، قلتُ له: «هذه صغيرة، وسأعلّقها على الجِدار... هل هناك سجّاد من وبرٍ كثيفٍ، وخيطٍ غليظ، من أجل نعلي هذا». ردّ: «بالطّبع، لدينا ما تشتهي». اشتريتُ السّجّادَتين، ووصفتُ له موضعَ منزلي، وقال لي: «قبل أنْ يرتفع أذان العصر سيكون صِبياني قد أوصلوها إلى بيتك، وبَسَطوها في غرفتك».

عُدت، قلتُ وأنا عائدٌ: «لا بُدّ من الوَرْد، وإنْ بَعُدَ الورد». وقصدتُ السّوق القريب من بيتي، وظللتُ أردّ تحايا أصدقائي من أصحاب الدّكاكين الّذين ربطتْني بهم علاقة الجِوار، حتّى وصلتُ إلى بائع الورد، الشّاب الأبيض الّذي يتقصّع في الكلام، فاشتريتُ من عنده أضمومةً من البنفسج، ورأيتُ عنده أكثر من عشرةِ صبيان، يضع لهم أفانين من الورد في وِعاءٍ عميق، ويضمّ جذوع كلّ وردٍ على حِدة، ويُرتّبه في الوعاء، فإذا انتهى من الأوّل عمدَ إلى الثّاني، والثّالث، وهكذا... حتّى يملأ أوعيتهم جميعًا بأصنافٍ شتّى من الورد، ثُمّ ينطلقون إلى الشّوارع ومواضع تَزاحُمِ الأقدام، ويضربون في القاهرة، ينادُون على الورد: «مين يشتريك يا ورد؟».

ومِصرُ يومئذٍ تفيضُ بالورد، وشوارعها تمتلِئ بالشّذا حتّى يسترَ اللّيلُ البيوت، فهي وَردٌ وأهلها وَرْد، وبائِعو الوَرد وردٌ على وَرْد!!

ثُمّ في يوم السّبت الّذي يسبق يوم الموكب، دعانا القاضي الفاضلُ إلى مُنشأته على مأدبةٍ يحضرها عددٌ من أهل العِلم وأهل الرّياسة، وكانتْ مُنشأته على درب الملوخيّة، وفي الدرّب كذلك مدرسته الّتي سُمّيتْ باسمه.

فلمّا وصلتُ إلى باب القصر بالأبلق صهل، فهُرع العبيد إليّ يحفّونَ بي، وجفل الحِصانُ منهم، فرفع قوائِمه الأماميّة، وعلا صوتُه بالصّهيل، فهدّأتُه باللّجام، وعاتبتُه: «ليسَ في هذا المكان يا صديقي، ماذا سيقول القاضي الفاضل؟!». ولكنّه رفع قوائمه من جديدٍ، وصهل صهيلاً طويلاً وعالِيًا، وتراجَعَ العبيد إلى الوراء، فيما حنيتُ ظهري فوقَه، والتزمتُ عُنُقُه ليهدأ، وكانتْ عيناه جاحِظتَين، قد بان في سَوادهما احمِرارٌ هالَني، وبقيتُ أمسحُ على عنقه بباطنِ كفّي حتّى خفتَ صوتُه وهدأ تمامًا. وطلبتُ من العبيد أنْ يدلّوني على خان الخيول، لأقوده بنفسي، لأنّني شعرتُ أنّه لا يريدُ أنْ يكون معه أمام القصر سِواي.

كان القصر يشهق بأكثر من خمسة طوابق، تعلوه الأقواس من فوقها الأقواس، ويقوم على أعمدةٍ تصطفّ بعضُها خلف بعضٍ حتّى ليُخيّل إليك إذا نظرتَ إليها من زاوية ما أنّ بعضَها يتّصل ببعضٍ لكثرتها ودِقّة هندستها، كأنّما هي جِدارٌ ممتدّ من أسطواناتٍ تنفلتُ من العَدّ. وكانتْ أبهاؤه كثيرة، وعالية، كلّ بَهوٍ يُفضِي إلى بهوٍ، وكلّ بهوٍ تدخل إليه، أجمل من الّذي تتركه خلفَك!

وجلسْنا في حديقةٍ مُخضلّة، بالنّدى مُبتلّة، في روضةٍ من فُلّة، يجري وسطها نَهرٌ لا هو النّيل ولا هو الفُرات، ولا أدري كيفَ أحدثَه القاضي في مُنشأته، وكان يقسم الحديقة الكبيرة نِصفَين، وبين كلّ مئة ذراعٍ وأخرى قنطرةٌ تمرّ فوقَه، يتّخذها العابرون في التّنقّل بين الضّفّتَين، وجلسنا نحن إلى النّصف الّذي يلي القصر، وكُنّا أكثرَ من ألفِ مدعوّ، لا يكاد بعضُنا يعرفُ الّذي بجانبه، وكان صوتُ أحاديثنا ولَغَطنا يعلو على خرير النّهر الّذي يجري من تحتنا، وكانت الحديقة ملأى بأشجار النّخيل، وأصنافٍ من الورد وأزهاره لو طافَ بها الرّائي دون أنْ يقفَ عندَ أيّ نوعٍ منها لقضَى النّهار بأكمله دون أنْ ينتهي منها!!

ولَمّا حانَ وقتُ الطّعام، وقف القاضي الفاضل أمامنا، وخطب فينا خُطبةً قصيرة، ورحّب بنا، وقال: «إنّ الله يُحبّ أنْ يرى أثر نِعمته على عبدِه، وإنّني لا أقول كما قال قارون: إنّما أوتيه على عِلمٍ عندي، بل أقول إنّ كلّ هذا لله في يدي، ولا تدوم النِّعَم إلاّ بالشُّكر، وربّ العِزّة يقول: «لئِنْ شكرتُمْ لأزيدَنّكم». وراحَ يدعو عبيده إلى الإسراع في إكرام الضّيوف.

ومَدَّ حاشيةُ القاضي الفاضل المائدة. فلم أرَ حفاوةً مثل هذه الحفاوة، ولم أرَ طعامًا مثل هذا الطّعام، ولم أرَ ترفًا مثل هذا التّرف؛ لقد ذبحَ القاضي الفاضل عجولاً وأبقارًا وخِرافًا وبطًّا وإوزًّا تكفي لأنْ تُطعم مصر كلّها، بل تكفي لأهل الإقليم بأجمعه، ولقد وجدتُ في نفسي من ذلك، ولكنّني لم أتكلّم مخافةَ أنْ أكونَ شؤومًا في مجلسِ كَرَم. ثُمّ رُفِعَ الطّعام، فاحتاجوا ما بين أذانَي المغرب إلى العِشاء الأخيرة حتّى يُتِمّوا رَفْعه، و(شريف) قائمٌ على أمر العبيد، يوزّع بينهم الأدوار، ويصيح بكلّ مُتلكِّئ، وينهر كلّ مُتقاعِس. وجاءَني غيرَ مرّةٍ يسألني إذا كنتُ محتاجًا لشيء. كان (شريف) هذا غلامًا أسود، مسبوك العَضَلات، شفتاه غليظتان، والسّفلى تتهدّل قليلاً حتّى ترى باطنها ذا اللّون الأحمر. وكانتْ عيناه زرقاوَين، في بشرةٍ سوداء صافية، كأنّه ديك الجنّ، لكنّ روحه لطيفة، دائم البسمة، وشديد الحيويّة والحركة.

ثُمّ إنّني أخذتُ (شريف) من طرفِ كمّه، فنظر إليّ بعينَيه مُستفهِمًا، ومال برأسِه نحوي، وهمس: «أنا في خدمةِ

❞ مولاي!». فقلتُ: «أريدُ أنْ أرى المكتبة الّتي في القصر». فابتسم، وأشارَ بيدِه إلى أحدِ العبيد، فجاء سعيًا، فأمره أنْ أنْ يصطحبني إلى قاعة خِزانة الكتب، فتبعتُه، نجتاز غرفًا من خلفِها غرفٌ مبنيّة، حتى وصلْنا إلى المكتبة، فلمّا دخلتُها، شهقتُ حتّى حسبتُ أنّ النّفسَ انقطع من صدري لِهَول ما رأيتُ، فسألتُ العبد بعدما ذهبَ عنّي الرّوع: «كم كتابًا هنا؟». فردّ: «مئة ألفِ كتابٍ أو يزيد». فشهقتُ شهقةً أخرى، وقلتُ له: «دَعْني بعضَ الوقتِ هنا أختلي وحدي بها، ثُمّ عُدْ إليّ لترشدني إلى طريق الخروج من هذه المتاهة». فانصرف.

فطفتُ وأنا في غاية الذّهول مِمّا أرى، كانتْ أعظمَ مكتبةٍ أراها في حياتي، ليس مثلها مكتبة بغداد، ولا مكتبة البيمارستان على فضلها هناك، ولا مكتبة البيمارستان هنا، وأخذتْني الرعدة وأنا أرى فيها كتبَ ابن قتيبة بخطّ يده، ومختارات المُفضّل الضّبّي بخطّ يده، وخِفتُ أنْ يكون القاضي الفاضل أخفى عنّا رؤيةَ المكتبة لأنّه لا يُريدُنا أنْ نراها، فاستعجلتُ بالطّواف بين رفوفها الّتي كانتْ تمتدّ في غرفٍ متلاصقةٍ يُفضي كلّ بابٍ إلى آخرَ بقوسٍ كبيرةٍ في أعلاها، كلّ غرفةٍ تطول أكثر من مئة ذراع، وكان هناك أكثر من مئة غرفةٍ كلّها مليئة بالكتب عن بكرةِ أبيها. وعرفتُ من خلال تَطوافي السّريع أنّ القاضي الفاضل قد صنّفها على أبوابها، فرأيتُ فيها كتب النّحو واللّغة والحديث والتواريخ وسِيَر الملوك والتّنجيم والرّوحانيّات والكيمياء، وغيرها... ولقد رأيتُ فيها تاريخ ابن الأثير المُسمّى الكامل في التّاريخ، وهو مُعاصِرٌ لنا، ولا بُدّ أنّه كتبَه هو أو أحدُ نُسّاخه وجيءَ به إلى هنا من فَوره، ولا أدري إنْ كان تامًّا على هذه الهيئة، فقد رأيتُ منه ثمانية مجلّدات!

ورحتُ أتجوّل في أبهاء المكتبة، تستوقفني كلّ غرفةٍ بما فيها، ثُمّ يهمزني الوقتُ أنْ أتركها لأرى ما في غيرها، حتّى برز لي العبدُ الّذي ساقني إلى هنا وأنا في غمرة انشِداهي، وقال لي: «إنّهم يدعونكَ للشّراب». فتركتُ ما في يدي، وتبعتُه وأنا أجاذب النّظر غيرَ مُصدّق إلى هذه الرفّوف الطّويلة الّتي تغصّ بها الغرف في كلّ شبرٍ منها.

ثُمّ دار الولْدان بأكوابٍ من فضّة، وكؤوسٍ من قوارير بالشّراب، وسُكُرُّجاتٍ من ذهبٍ، فكان الشّراب من كلّ لونٍ، وطعمٍ، فما تركَ في مِعَدِنا فراغًا ليهبطَ فيها، ثُمّ صُفّتْ أنواع الحلوى، فمنها ما عرفتُ، ومنها ما أنكرت، وظللنا حتّى اقتربَ أذان الفجر في ضِيافته، نسمع أفانين من الأقوال العِذاب، كأنّها الشّهدُ المُذاب، من كلّ عالِمٍ أو قاضٍ أو أديب يغرفُ لنا من الأدب اللُّباب. وخشيتُ أنْ تفوتني صلاةُ الفجر في المسجد الصّالحي، فاستأذنتُ الوزير، وركبتُ الأبلق، الّذي سمعتُ في صهيله عِتابًا عميقًا بتأخّري عليه، همزتُه همزةً واحدةً برجلي، فطار، ولم تستقرّ له قائمة إلاّ على باب البيت! ❝

❞ (٣)

أَبْعِدوا هذا القِرد!

هل تستطيع الغِناء؟ لو كانتْ تغنّي لكانتْ ساحرةً حقيقيّة، لكنّها تبدو ناعمةً كأنعم ما تكون الأنثى أحيانًا، وغليظةً كأغلظ ما يكون الرّجال في أحيانٍ أخرى. عيناها تصفُوان كنهرٍ من عسلٍ في الشّمس، وكنهرٍ من لبنٍ في الظّلّ، لكنّها إذا غضبتْ اتّقدتا شررًا، أيّ أنثى يُمكن أنْ تكون؟ ثلاثةٌ وثلاثون يومًا ولم تظهر درّية، أينَ تختفي هذه المرأة؟! فلتختفِ، لِتَمُتْ، لِتَذُب في الرّمال، لتَسِحْ في السَّبِخات، لتندفنْ في المقابر، ما لي وما لها؟ ما شأني أنا بها؟ لماذا على عقلي هذا الّذي ملأتُه بكلّ هذه العلوم منذُ طفولتي ألاّ يتوقّف عن التّفكير بها؟

ابتدأ الموكبُ مسيرته من القصر، إنّه يوم الأحد، وينتظر الفقراء في كلّ مصر الإعلان عن مثلِ هذا الموكب مثلما ينتظرون الإعلان عن العيد وزِيادة. سار خارجًا في زينته، يتقدّمه الأمير وقد لبس البردة المنقوشة في دار الطراز بالإسكندريّة، وعليها اسم المَلِك، حمراء من الدّيباج، وكان نقش الاسمِ مُذهّبًا، موضوعًا بشكلٍ طوليّ على الجزء الأيمن منها، وكان صاحب الرّكاب يسير في المقدّمة عن يمين الأمير قليلاً يحمل (الغاشية)، وهي غاشيةُ سُرُجٍ من أديمٍ مخروزةً بالذّهب، تلمع تحت الشّمس كأنّها كلّها من الذّهب، وكان صاحب الرّكاب يعرضها رافِعًا يدَيه بها ذاتَ اليمين وذات الشِمال، وكان الأمير يركبُ في مقدّمة الموكب الّذي يتكوّن من أكثر من مئةِ خيلٍ يركبها الحرس والفُرسان الأشدّاء. وكان خلف الأمير فارسٌ قد تقنّع فلم تبدُ إلاّ عيناه، وكان يحمل مِظلّة فوق رأسِ الأمير، وهي قُبّة من حريرٍ أصفر مُزركش بالذّهب، على أعلاها طائرٌ من الفضّة الخالصة.

أمّا الخيول الّتي خلفَ حِصان الأمير، فكانتْ غايةً في الجمال والرّوعة والمهابة، فقد وضعوا على عنقِ كلّ فرسٍ منها رقبةً من أطلسٍ أصفر، مُزركَشَةٍ بالذهّب، فلا تكاد ترى على أعناق الخيل إلاّ الذّهب، وكانت هذه الرّقبة الذّهبيّة تُوضَع على رقبة الفَرَس من تحتِ أُذنَيها إلى نهايةِ عُرفِها.

وكانتْ تسير خلفَ الأمير عن يمينه وشماله مُباشرةً (الجفتة)، وهما فارسان يركبان فرسَين بالرّقبة المُذهّبة إيّاها، عليهما ثوبان أصفران من حريرٍ بطرازٍ أحمر، وعل رأسيهما قُبّعتان من زركش، وفرساهما أشهَبان، يختلفان في اللّون عن باقي الخيول الّتي تكون في الأغلب سوداء، وكان هناك انتِظام في اللّون، فلم يكنْ لونٌ من ألوان الخيل ليختلطَ بالأخرى. وكان هذان الفارِسان هما اللّذان يتولّيان توزيع صدقات الأمير حينَ يحينُ وقتُ ذلك.

وفوقَ كلّ فرسٍ كانتِ الأعلام ترتفع، ولم تكن الرّايات واحدة، فلكلّ مقامٍ راية، فأمّا الّتي فوق حِصان الأمير فكانتْ رايةً عظيمةً من حريرٍ أصفر مُطرّزةٍ بالذّهب، منقوشًا عليها اسم المَلِك. وكانتْ هناك راياتٌ أخرى في الصّفوف المتوسّطة، سوداء وعلى ساريتها خُصلةٌ من شَعْر، وكانتْ هناك راياتٌ للصّفوف الخلفيّة خضراء مُهدّبةً بحريرٍ أصفر.

وإلى الخَيّالة الّذين في الموكب، وأكثرهم حَرَسُ الأمير، كان هناكَ بعضُ الرّاجِلين، فقد كان يمشي عن يمين حارس الملك المُلثّم وعن شماله، وداخل (الجفتة) أربعةُ عازفين، اثنان في كلّ جهة، وخلفَ كلّ جهةٍ صفّان مثلهما، وكان الرّاجِلون يحملون الطّبول والأبواق والمزامير، وهم يأتمرون في الإيقاع بإشارةٍ من يدَي الطّبّال الأوّل عن يمين الموكب. ويمشون على إيقاعات مدروسة.

وكان الأمير الّذي في المُقدّمة، يلبسُ تاجًا من الذّهب الخالص، التّاج الشّريف، وفي مقدّمة التّاج فوقَ جبهة الأمير كانتْ هناك جوهرةٌ لازورديّة اللّون عظيمة، يخطف بريقُها الأبصار، وكانتْ في يد الأمير عصًا من ذهب طولها يقترب من ذراعٍ مرصّعة بالدّر والجوهر، وكان يرفعها في وجوه الفُقراء المُحتشدين لرؤية الموكب وهو يبتسم!

كنتُ – حسب الاتّفاق مع ديوان مصر – أنتظر الموكب في محطّة للتّشريفات الأميريّة تبعدُ فرسخًا عن بيتي، وكان عليّ أنْ أكون في المحطّة قبل الظّهر، وقد فعلت، وذلك من أجل أنْ يُزيّنوا حِصاني الأبلق كي لا تبدو هيئته غير منسجمةٍ مع هيئة الموكب بأكمله.

عندما اقتربَ المُزيّن من الأبلق ثار، ورفَعَ قوائمه، وصَهَل، فلم يُمكّنه من الاقتِراب منه، فجِئتُه، فخفضَ طرفَه، واقتربتُ منه، وهمستُ في أذنه بعد أنْ مسحتُ على عنقه: «لا تفضَحْنا، دَعْهم يَضَعون لكَ الزّينة، قبل أنْ يفوتنا موكب الأمير». فصهل كأنّه لم يُعجبْه ذلك، وكردش، وهزّ رأسّه هَزّات مُتتابعة، فابتعدتُ عنه قليلاً، فهمّ بأنْ يعودَ إلى عِناده ويرفع قوائمه الأماميّة، فابتدرتُه بيدي، وصرختُ: «كفى... ليس هذا وقتَه».

إنّ هذا الجموح صار يُصيب الأبلق في الفترة الأخيرة كثيرًا، منذ عشرةِ أيّام، أراه كلّما اقتربتُ منه أو هممتُ بركوبه يرفع قوائمه، ويُطلق صهيلاً شَجِنًا طويلاً، ما الّذي يُريد أنْ يقوله يا تُرى؟ نظرتُ في عينَيه، كانتا تبدوان جاحِظتَين! هل هو مريضٌ؟ كلاّ إنّه يحبّ بي في أرحبة القاهرة كما لو كان ريحًا مُرسَلة؟! هل هو خائف؟ لكنْ مِمّ يخاف؟ فكّرتُ قليلاً قبل أنْ يخطر لي هذا الخاطر: «أمعقولٌ أنّه يشتاق إلى صاحبةٍ تُؤنس وحَدته، وتُدفئ ليله الأبكم». صمتّ في خاطري، قبل أنْ أتابع: «ولِمَ لا؟ له حاجاته هو الآخر، وفِيّ فَطانةٌ كما قال الأوّل». نظرتُ في عينَيه، هزّ رأسَه، وطَرَف، اقتربتُ منه: «هل حَقّا تريدُ أنثى إلى جانبك؟». وضحكتُ بصوتٍ عالٍ بينما كان ساسة الإصطبلات الملكيّة ينظرون إليّ مُستغربين من ضَحِكي المُفاجِئ. اقتربتُ منه أكثر، وداعبْتُه: «يا صديقي، لا يخفَى عليك شيءٌ، كلانا عَزَبٌ، وكِلانا فيه من الشّوق إلى أُنثاه ما فيه، ولكنْ علينا أنْ نصبر، فإنّ الصّبر عن الأنثى أعظم أنواع الصّبر، ثُمّ... نحن ما زلنا شبابًا؛ وفي مثل هذه السّنّ يَحسُن بنا عدم الإفراط في الاقتراب من الإناث». أزاح عنقه إلى الجهة الأخرى، وثنى إحدى قائمَتَيه الأماميّتَين... مسحتُ على عنقه من جديد، ثُم وقفتُ قُبالته، وحنيتُ جذعي إلى الأمام قليلاً، ووضعتُ وجهي في وجهه، وقلتُ له: «أعدكَ أنْ ألبّي رغبتَك أوّل ما يتسنّى لي ذلك، وثمرة الصّبر حُلوة يا صديقي، والآن دَعْهم يبدؤوا بتزيينك، فلقد تأخّرنا، وأخاف أنْ يغضبوا منّي، وأنا هنا غريبٌ». هزّ رأسَه، وصهل صهيلاً خافِتًا، وحرّكَ أذنَيه إلى الأمام، وانفرجَ مِشفراه، فبانت من خلفِهما أسنانه العريضة. حينَها قلتُ للسُّوّاس: «الآن يمكنكم أنْ تبدؤوا».

وانتظرتُ في البهو، ريثما يُتِمّون تجهيزه، ويكون الموكب قد وصل المحطّة فأنضمّ إليهم. حينَما جاءني أحدُ السّائسين ليخبرني بأنّ الأمر قد تمّ، خرجتُ لأرى ما فعلوا بالأبلق، اتّسعتْ حَدَقتا عَينَيّ، أباليس هؤلاء السُّوّاس؛ لقد تغيّر عليّ تمامًا؛ أزالوا عنه سَرجه القديم مع أنّني لم أكنْ قد غيرّته له منذ فترةٍ بعيدة، ووضعوا مكانَه سرجًا من ديباجٍ أحمر خميلٍ، يخفسُ بالجالِسِ فوقَه لجودته، وركّبوا للسّرجِ قربوسًا من الذّهب، ووضعوا فيها ستّة أطواقٍ من الفِضّة، تُحيطَ بها إحاطةً تامّة، وأبدلوا بلجامه لِجامًا من فِضّة كذلك، تصل به سيورٌ من الجلد، وأهبطوا على جانِبَي رأسِه غواشٍ من حريرٍ مضفورةٍ بعضُها إلى بعض على شكلٍ حَلَقاتٍ، تهبط إلى ما فوقَ منخريه، ولا أدري إنْ كانوا كَحّلوه أم لا، لأنّني رأيتُ كَحَلَه قد ازداد، وقد لا يكونون فَعَلوا، وإنّما لتدرّج الألوان حول عينَيه شعرتُ بذلك، وكانوا قد وضعوا له رقبة من ذهبٍ كتلك الّتي يلبسُها خيلُ الملك، وقَصّوا قليلاً من شَعْرِ ذيله فبدا متناسق الطّول، وسرّحوه له، فبدا ذاهِبًا إلى حفلة، وقد كُنّا ذاهبين إلى حفلةٍ بالفعل.

ومضيتُ في الموكب، واتّجه الموكب إلى الجنوب، يطوفُ بالأسواق، والطّبّالون في المقدّمة يصدحون بالألحان، ويُغنّون الأشعارَ في مدح الملك، فلمّا ولجْنا إلى سوقٍ قريبةٍ من مسجد ابن طولون، تكاثَر المُتسوّلون على الموكب، وكانت السّوق ظليلة، وحدثَ أنْ سقطتْ ساريةٌ في السّوقِ من تزاحم النّاس على الأمير طلبًا لجدواه، فتشاءَم الأمير بذلك، وأصلَح الحرسُ ما انفرطَ من عقد خيّالة الموكب بسبب ذلك السّقوط، ومضى. وكنتُ أنا في المقدّمة، وكاد يُصيبني من سَقطة السّارية أذًى لولا لُطفُ الله، وكان المُوكّل بالتّصدّق بالدّراهم يرمي صُرَر النّقود عن يمينه، وذلك الّذي في الشّمال عن شِماله، وكان الأمير يرفع عصاه الذّهبيّة كلّما مرّ بفقير وهو يبتسم، ورأيتُ من المُتسوّلين مَنْ كان شيخًا كبيرًا يقودُه ابنُه الصّغير، ورأيتُ فيهم الأعمى، والأحدب، والّذي يزحفُ على خلفيّته تكادُ أقدام الخيول العابرة أنْ تدهسه... وفجأةً قفزَ ولدٌ صغيرٌ قدّرتُ أنّه في الخامسة أو السّادسة من عمره، وكان شبهَ عارٍ، وينطّ كالقِرد، ولم يستطع الحرس أوّل الأمر منعه، لأنّه

باغَتَهم بقفزِه أعلى من خيولهم، وظنّ كثيرٌ منهم أنّه قِردٌ بالفِعل، ولكنّه راحَ يتكلّم كالبشر، ويقول: «صَدَقة لله». ويمدّ يده فوقَ رأسه المنحنية قليلاً، والّتي تعلوها كُتلةٌ من الشّعر الكثيف، ويتابع استِجداءَه. وصاحَ أحدُ الحرَسَ: «قرد؟». فردّ عليه الحارس الّذي بجانبه: «لا». وراح ينطّ بين الموكب، وقد دخل فيه، فكاد يعرقل خُطا الخيل بجسده الضّئيل، فعاجَله أحدُ الحرس بعصًا يريدُ دَفْعَه بها، فتشبّث بها، وجذبها جذبةً قويّة حتّى اختلّ لها توازن الفارس الّذي جحظتْ عيناه دهشةً من قُوّته، ثُمّ إنّه راح يقفز أمام الموكب حتّى سبَقه، وكانتْ عورته قد بانتْ في وجه الأمير، فانزعجَ، وصاح: «أبعِدوا هذا القِرد من هنا». فردّد الولد مقولة الأمير، وهو يشير إليه: «أبعِدوا هذا القِرد من هنا».

فاستشاطَ الأمير غضَبًا ولم يدر ما يفعل، كان الطّبّالون وقتئذٍ قد توقّفوا أمام هذا المشهد عن إنشاد قصائد المديح المُفخّمة، وهم يتابِعون ما يحدث، واختلطَ الأمر في الموكب، وهاجَ مَنْ فيه، لولا أنّ أحدَ الحرس هَمَزَ حِصانه الأسود، وعاجل الولد بطعنةٍ من رُمحه، فراح الولد يختلجُ كالذّبيحة، ثُمّ عاجله آخر، فقبض على ذراعه الرفيعة، ورَماه خارج الموكب، فتدحرجَ على الأرض، وندّتْ منه آهةٌ واحدةٌ ثُمّ خَمَد.

اضطربْتُ، شددتُ لِجام الأبلق إليّ، وتوقّفْتُ في منتصف الموكب، تلفّتّ حيثُ سقطَ الصّبيّ، لعلّي أجدُ أحدًا رفَعَه، أو أسعفه، لكنّ الشّحّاذين كانوا مشغولين بملاحقة الجفتة لعلّهم يظفرون بصُرّةٍ من خير الأمير، وأمّا الفُرسان، فلم يتوقّف منهم أحدٌ، ولا من الطّبّالين، كأنّ الّذي ألقِيَ للتّو خِرقةٌ بالية. وثنيتُ آنئذٍ عِنان الأبلق، وخرجتُ من الموكب، وعدوتُ به إلى حيثُ الصّبيّ، نزلتُ، عاينتْه، كانَ خيطٌ رفيعٌ من الدّم ينزّ من طرفِ فمه، حملتُه خلفي على الأبلق، وأحكمتُ شَدّه إليّ، وطِرتُ به إلى البيمارستان. ❞

❝ (٤)

زَرقاء اليَمامة

وجدتُ (سالم) ابن حسن الفاكِهانيّ في البيمارستان، كان في أحدِ دروسِه العمليّة، لقد ألزمتُ تلاميذي منذ فترةٍ بالإقامة في البيمارستان من أجل مساعدة الأطبّاء، ولكي يُحصّلوا درجتهم في التّحوّل من مُساعدين إلى أطبّاء مُمارِسين، صِحتُ به: «الحَقْ بي إلى غرفةِ التّطبيب». أخذَ الصّبيّ منّي وتقدّمني إلى هناك.

مسَحنا الدّم الّذي تخثّر عند زاوية فمّه، كان لا يزال يسيل بعضُه في جذعه من الطّعنة، تفحّصتُ الجرح، يبدو أنّ الطّعنة قد غاصتْ عميقًا في جسده الضّئيل، كان لا يزال في غيبوبة، نبضُه ضعيف، لكنّه حَيّ، وإذا كان محظوظًا فسيعيش، سألني (سالم): «ما الّذي حدث؟». كُنّا لا نزال ننظر في آثار الطّعنة، رددتُ على سُؤاله بسؤال مُبلَّلٍ بالرّجاء: «هل يُمكن إنقاذه؟». ضَيّقَ عينَيه: «إذا لم يحصلْ تهتّك كبير في الأنسجة، فيمكن ذلك». «علينا أنْ نراقبه». «مَنْ طَعَنه؟». «جُندُ الأمير».

قضينا بعضَ الوقتُ نُعالِجُ جرحه بالمساحيق والمحاليل لمنع استمرار النّزيف، نظّفْناه جَيّدًا، لففْناه بِقماشٍ أبيض... تنهّدتُ، اتّكأتُ على قائمة السّرير القريبة من رأسِه، رأيتُ عينَيه المُغمَضَتين ساكِنتَين كأنّهما تريدان الابتِعاد عن هذا

العالَم، والخروج منه، كان يبدو وادِعًا، بريئًا، بائِسًا، مُشرّدًا، لم يَرَ من الدُّنيا إلاّ الشّقاء... غرقتُ في الهَمّ، لقد اخترمَ مشهدُ اختِلاجه رُوحي، ما الّذي فَعَله هذا الطّفل حتّى تأتيه تلك الطّعنة؟! شردتُ في استرجاع المشهد، آنئذٍ جفلْنا أنا وسالم على صوتِ صُراخٍ قادمٍ من أوّل البيمارستان، كان بعيدًا في البداية، لكنّه اقترب، وبدأ الصّراخ يعلو، إنّه صُراخُ امرأة، كان يحمل شتائم ولَعَنات وتهديدات، نظرتُ في عَينَي سالم، وسألتُه: «مَنْ تكونُ صاحبة هذا الصّراخ؟». زَمّ شفتَيه: «لا أدري». كان الصّوتُ يتبعثر في الأروقة، ويسأل: «أينَ وضعتموه يا قَتَلة؟!». خُيّل إليّ أنّني سمعتُ مثل هذا الصّوت من قبل، لكنْ ليس بهذه الحِدّيّة، صار الصّوتُ يُصدّع رؤوسَنا، خرجتُ إلى باب الغرفة لأتفاجأ بها، كانتْ هي، دُرّيّة... قد شمّرتْ عن ذراعَيها وراحتْ تضربُ رأسَها، هتفتُ: «دُرّيّة...أنتِ هنا؟». نظرتْ في عينَيّ نظرةً تشتعل بالغضب، وأزاحتْني بِيَدَيها، وعبرت الباب، وركضتْ باتّجاه الصّبيّ، واحتضنَتْه: «ابني... حبيبي...»، ثُمّ أجهشتْ بالبُكاء.

بقيتُ ذاهِلاً مِمّا رأيتُ، اقتربَ منّي سالم، سألني: «أهي أمّه؟». أجبْتُه: «الآن عرفت. ها أنتَ ترى ما يحدث مثلي». ظلّتْ مُحتضنةً له، تُقبّله بين الفينة والأخرى، وتخرج كلماتها من بين دموعها: «لقد قتلوك يا حبيبي». اقتربْتُ منها، حاولتُ أنْ أخفّف عنها: «لن يموت، سينجو». لم تلتفتْ إليّ، ظلّتْ غارقةً في نشيجها. أتيتُها بكأسِ ماء، لم ترفعْ يدها لتأخذها، سألتُها أنْ تجلس وتهدَأ، لكنّها لم تتحرّك. قلتُ بهمسٍ: «لو أنّه لم يقفزْ داخل الموكب». حينَها رفعتْ إليّ رأسَها ببطءٍ، وبدا ذئبٌ مُفترسٌ في وسط عينَيها في الظّلّ: «القَتَلَة. لقد كنتَ معهم؟». رددتُ: «لقد حملتُه إلى هنا». ردّتْ: «قاتل». صُعِقت. قدّرتُ أنّها ما زالتْ تحتَ تأثير الصّدمة، حِرتُ ماذا يُمكن أنْ أفعل، همستُ من جديد: «عليكِ أنْ تتركيه، إنّه بحاجةٍ إلى الهَواء». نظرتْ إليّ ثانية، كانتْ عيناها غائمتَين، مُنهكَتَين، بدتَا كذُبالة مِصباحٍ يوُشِك أنْ... أنْ ينطفِئ، وانطفأتا بالفعل. هتفتُ بالمُمرّضين أنْ ينقلوها إلى غرفةٍ أُخرى، قال سالم: «إنّها في غيبوبة». قلتُ: «ستصحو قريبًا». كان جسدها المُمَدّد على السرير يقول كلّ شيءٍ. خرجتُ من عندها حتّى أرتّب أفكاري. في العصر استيقظتْ، كانتْ أوّل كلمة تقولها: «أدهم... أينَ أدهم... ابني... حبيبي». ناولتُها كأسَ الماء، شربتْ هذه المرّة، وبلعتْ ريقَها بصعوبة، ثُمّ وقفتْ على قَدَمَيها وخرجتْ مسرعةً من الغرفة، تبعتُها، وقفْتُ معها إلى جانبِ أدهم، كان لا يزال مُسجًّى فوق السّرير وعيناه مُسبلَتَين، وجسدُه العاري مُغطًّى بالقِماش الأبيض. أتيتُها بكرسيّ، قلت: «اجلسي. دعينا نتحدّث». جلستْ. شهقتْ من آثارِ بُكاءٍ لم تزلْ قَطَراتُه تندَى في عيونها: «إذا لم تُعِدْه لي فأنتَ مُشارِكٌ في قتله». طمأنْتُها: «سأبذل كلّ ما في وُسعي». ردّتْ: «هؤلاء الملوك القَتَلَة، سينهدمُ كلّ هذا البِناء على رؤوسهم». سألتُها: «البِناء؟». «قُصورهم». أردتُ أنْ أمازحها: «نبوءة جديدة؟». «بل حقيقةٌ واقِعة». «واقعة؟». «سترى. يسرقوننا، ثُمّ يمدّون لنا فُتاتًا مِمّا سَرَقوه، ثُمّ يقتلوننا. إنّ الله سيقتلهم». «أتفهّم حُزنَك». «وأتفهّم سَذاجَتَك». حنيتُ جذعي إلى الأمام بعدَ شتيمتها، واتّكأتُ على باطن كفّي فوقَ رُكبَتي اليُمنى: «سينجو». «لن ينجو أحدٌ». ضِقتُ ذرعًا بردّها: «نبوءةُ أم تخاريف؟». «بل نبوءة». أنتِ عرّافة، ولستِ نبيّة». «أنا أرى ما لا ترى». «تعالَي نخرجْ إلى الحديقة، نشربُ شيئًا، عليكِ أنْ تهدئي».

«لن أهدأ قبل أنْ أرى قصور الملك والأمير وبيوت حاشيته، وكلّ مَنْ في السّوق تتهدّم حجرًا حجرًا فوقَ رؤوسهم».

أطاعتْني في الخروج إلى حديقة البيمارستان، كان المساء قد زحف باتّجاه الأبينة الحجريّة، فضربتْها أشعّة الشّمس الواهنة فبدتْ واهنةً مِثلَها. الشّمسُ تحزنُ، فتَلبسُ الحجارةُ في المغيبِ حُزنَها، لكنّ بعضَ النّسائم العليلة بعثتْ شيئًا من الإنعاشِ للنّفوس، فاسْتَرْوَحتْ مِنْ تعبٍ وحُزن.

«ليسَ هنا شجرةُ بانٍ كتلك الّتي في بيتي». «ستسمع الرّدم من بيتك». «يا دُرّيّة، شبعتُ من نبوءاتك، كلّ ما أريدُه أنْ أساعدك في الإبقاء على أدهم حَيّا». «عليكَ أنْ تفعل». «لكنْ عليكِ أنْ تهدئي». جرّت الحديث إلى ناحيةٍ أخرى: «ماذا يفعل المغلوب إذا كان لا يملك من أمره شيئًا؟!». سألتُها: «أنتِ تتكلّمين بالألغاز». «ليستْ ألغازًا، إنّها واضِحةٌ وضوحَ الشّمس، ولكنّك لا تفهم؛ إمّا لأنّكَ لا تُريد، أو لأنّكَ لا تُشرع للفَهم بوابات عقلك، انظرْ يا حكيم، تأمّلْ يا عبد اللّطيف...» وبسطتْ كَفَّها اليُمنى، وأدارتْها على كلّ ما حولَها، وأكملتْ: «كُلّ هذا سينتهي... كلّ هذا سيُصبح خرابًا». أردتُ بدوري أنْ أجرّ الحديث إلى ناحيةٍ أخرى: «كيفَ عرفتِ أنّ أدهم في البيمارستان؟». «أنا عَرّافة». «هل كنتِ هناك؟!». «أنا

أرى». ضحكتُ هذه المرّة بصوتٍ عالٍ: «أنتِ زرقاء اليمامة إذًا». ردّتْ بثقة: «أنا هي». رددتُ: «ماذا تشربين؟». ظلّتْ صامتة. سألتُها بإقرار: «ماء الرّيحان».

كان اللّيل قد هبطَ تمامًا، مضينا إلى الغرفة، كانت الأروقة قد بدأتْ تخلو من الأطبّاء والمُمرّضين ومُساعديهم، كانتْ بعضُ الآهات المكتومة تُسمَع بين فينةٍ وأخرى من هذه الغرفة أو تلك، هل البيمارستان بيتُ الآهات؟ لا؛ إنّهم يُطلِقونها هنا لكي يتخلّصوا منها، فإذا أفرغوا كلّ ما في أرواحهم من آهاتٍ وأشجانٍ، استراحوا وخرجوا من هُنا معافَيْنَ.

اقتربْنا من (أدهم) كان يبدو أنّه يحتاج إلى وقتٍ ليتَعافى، احتضنَتْه من جديدٍ، جلسْنا في الغرفةِ حتّى انتصفَ اللّيل، طلبتُ منها أنْ تعود، قالتْ: «لن أتركه». عرضتُ عليها أنْ أقومَ بمرافقتها إلى تربة الشّافعيّ، رفضت: «سأنام اللّيلةَ هنا». لم أستطعْ أنْ أقولَ أكثرَ من هذا. قلتُ: «سأعودُ إلى بيتي».

ركبتُ الأبلق، وانطلقتُ في شوارع القاهرة، كُنّا قد تجاوزنا منتصف اللّيل، لم يكنْ شيءٌ ليغيّر وجه هذه المدينة القاهرة لا من ليلٍ ولا من نهار. كان النّاسُ يمشون في الشّوارع، والضّحكات تتدحرج من كلّ مكان، وصرخات الابتِهاج تتعالَى من كلّ زاوية، الأسواق تبقّ النّاس، والزوايا تكتظّ بالعُشّاق، وتلك الشّوارع المُضاءة بآلاف السُّرُج تعبرها آلاف الأقدام، والنّاس من كلّ حدبٍ يَنسِلون.

في منتصف الطّريق، حَرَن الأبلق، رفعَ قوائمه إلى الأعلى فجأة، وكادَ يُسقِطني من فوقه، صرختُ مُغتاظًا: «لن تعودَ إلى الأمر ثانية». لكنّه جمد مكانه ولم يتحرّكْ، حاولتُ أنْ أحضّه على السّير، لكنّ حِرانَه زاد، مِلتُ وأنا فوقَه إلى ناحية عنقه: «أنا مُتعَب يا صديقي، وأريدُ أنْ أرتاح... هيّا تحرّكْ». لم يتحرّكْ، صرختُ: «أنتَ تريدُ ذلك، فلْيكنْ». ترجّلتُ عنه، ومضيتُ إلى مصطبةٍ من تلك الّتي يجلسُ فوقَها المتُنزّهون، ومددتُ جِذعي فوقَها، وقلتُ له: «سأنامُ هنا... هل أنتَ مُرتاحٌ الآن؟». اقتربَ منّي، صهل صهيلَ المُعتذرين، تشمّمَني بمنخريه الكبيرَين، على ضوء الفوانيس رأيتُ عروقَ وجهه تملأ صُدغَه الأيمن، بدا جميلاً مع الظّلال، قلتُ له: «هه.. ماذا تريد؟!». حرّك ظهره كأنّه يُريدُ إسقاط السّرج، سألتُه: «تريدُ أنْ تنام هنا معي؟!» ضحكتُ: «لا يُمكن أنْ يتّسع المكان لنا معًا، أنْتَ ستنام عندما نعودُ إلى البيت، إسطبلكَ أولى بك». كردشَ، لمعتْ عيناه على الضّوء، وأدار رأسه بعيدًا، وهبطَ بظهره وهو يهزّه، كان واضِحًا أنّه يريدُ أنْ يُسقِطَ السّرج عنه، قلتُ له: «تريدُ ذلك، سأفعله لك». قُمت، أزلتُ عنه السّرج، ورميتُه بعيدًا، وأزلتُ عن رقبته الرّقبة الذّهبيّة، وحللتُ لِجامه الفِضّي، ورميتُ كلّ ذلك على الأرض، بدا بلا أيّ زينةٍ إلاّ مِنْ بَياضه الأخّاذ، قلتُ له بغضبٍ: «هل ارتحت الآن؟». هملجَ، دارَ حول نفسِه دورتَين، كان يبدو بالفعل أنّه ارتاح. ضحكتُ لمنظره، وقلت: «إبليس... والآن؛ هل يمكن أنْ نعودَ إلى البيت...؟ أُقسِمُ أنّني لا أحتمل مزيدًا من التّعب». ذلّل لي ظَهره، بدا مُطِيعًا. اعتليتُه بقفزةٍ واحدةٍ، وحثثتُه فطار كأنّه الضّوء، كان جَرَيانه السّريع يقذف بيوت القاهرة وشوارعها وأحيائها خلفي، لم أُصدّقْ أنّنا وصلْنا إلى البيت، رافقتُه إلى إسطبله، تأكّدتُ أنّ لديه ما يكفي ليلته من الشّعير والماء، وصعدتُ الدّرجات إلى غرفتي، وآلاف الأفكار تتصارع في روحي؛ ماذا تعرفُ هذه المرأة أيضًا؟! ❞

❝ (٥)

مَنْ يُعتِقْ عصفورًا يدخل الجنّة!

شددتُ في الصّباح على الأبلق، وطِرتُ إلى المُستَشفَى، كانتْ لا تزال نائمةً وهي تحتضنه بين ذراعَيها كأنّها تخافُ أنْ يطيرَ منها، أيقظتُها: «أنتِ تُسبّبين له الأذى بهذه الطّريقة. على جُرحه أنْ لا يمسّه أحدٌ، ولا يضغطَ فوقَه شيءٌ». راحتْ تفتحُ عينَيها ببطء، وتفركهما، كان الصّقر والذّئب يتعارَكان فيهما، سقطَ شُعاع الشّمس عبر النّافذة على عينَيها، فرحل الذّئبُ لصالح الصّقر آنئذٍ. استدارتْ، وضعَتْه بهدوء على السّرير، أصلحتْ من هِندامِها، ونظرتْ في عَينَيّ وقالتْ: «كيفَ هي أخباره؟». «عليكِ أنْ تخرجي، لكي أرى ماذا يُمكنني اليوم أنْ أفعلَ له». رفضتْ. ناديتُ على أحدِ المُسعِفين، برزَ لي (سالم)، كان قد عرف أنّني قدمتُ، سألتُه مُستغربًا: «ليسَ هذا يومَك؟». ردّ بلطف: «قَدّرتُ أنّكَ ستعودَ لترى ما حال الصّبيّ، فقلتُ لا أتأخّر عن أستاذي». طلبتُ من درّيّة أنْ تنتحي زاويةً على الأقلّ، وكشفْنا على أدهم، كان موضع الجرح ملتهبًا، قد تحوّل إلى اللّون الأزرق، وحول مركزه كان لونُ جلده بنفسجيًّا، يبدو أنّ ليلةَ أمسِ قد تراجعتْ في الشّفاء إلى الوراء خطواتٍ بدلاً من أنْ تتقدّم خُطوة، أزلْنا اللّفافة كاملةً عنه، ونظّفْناه من جديدٍ، سألتُ سالم: «ماذا ترى؟». «حدثتِ التهاباتٌ داخليّة. الرّمح لم يرحمْه. الّذي ضربَه به فَعَلَها بحقدٍ». «يبدو ذلك. ولكنّ الالتِهاب لا يحدث بهذه الصّورة إلاّ إذا كان الرّمح...». انحبستِ الكلمة تحتَ لِساني، أصابتْني رِعدة من إكمالِها. نظر سالم في عينَيّ، وفَهِمَ كلّ شيءٍ، اقتربَ منّي، وهمس: «مسمومًا». سارعتُ بوضع يدي على فَمِه، ونظرتُ إليها بزاوية عيني، وهمستُ: «إنّها هنا». انتبهتْ دُرّيّة، اقتربتْ مِنّا: «لماذا تتهامَسان هكذا؟ قولا لي ما حال ابني؟ هل...». قاطعتُها وأنا أنحني على الجرح، وأضع عليه بعضَ الأدوية: «سينجو». ردّتْ من ورائي بحزمٍ: «تكذب». غاصتِ الكلمة في ظهري مثلما تغوصُ السّكّةُ في الطّين، رفعتُ جذعي، واستدرتُ نحوها، أردتُ أنْ أقول لها شيئًا، ولكنّني بقيتُ صامِتًا. يبدو أنّها كانتْ تعرفُ كلّ شيء؛ في مساء ذلك اليوم كان قد فارقَ الحياة!

دفنتُه في قرافة الشّافعيّ، على يمين الباب الّذي تخرج منه حينَ تنام، كانتْ كُتلةً من الحُزن الثّقيل. بقيتُ إلى جانِبها ثلاثة أيّام أعودُها، وأشدّ من أزْرِها، وآتيها بما تحتاجه من طَعامٍ وشراب، حتّى هدأتْ نفسُها قليلاً، لم يزرْها للتّعزية في الأيّام الثّلاثة أحدٌ، خشيتُ أنْ أسألَها عن زوجِها الّذي لم يظهر على الأقلّ، فخفتُ أنْ يفتح السّؤال جروحًا حامضة؛ فيكون زوجُها قد طَلّقها، أو جروحًا مالِحة؛ فيكون زوجُها قد مات! تسعة أعشار الأسئلة الّتي نسألها، تقول لنا: كان من الأجدى أنْ تصمتوا!

تعرّفتُ في هذه الأيّام إلى ما تبقّى من أبنائها؛ (ماريّة) الصّبيّة الجميلة الّتي تُشبه السّوسنة؛ رقيقة، تشفّ عن دلالٍ في بُؤس، خمريّة اللّون، كأسُ سُلافَة لم يُشرَب، وماء وَردٍ لم يُرَشّ، كأنّها عِنبُ الشّام إذا نَفَج ولم يحنْ بعدُ قِطافُه. و(كرم) في الثّالثة، لا يُشبه أخاه الرّاحل، كانَ أبيضَ، في وجهه مَلاحة، ونظراتُه تدلّ على ذكائه، وفي وسط ذقنه شامةٌ سوداء تُكمِلُ ملاحته، وأذنه اليُسرَى تحمل في أعلى الصّيوان حبّةً حمراء صغيرة. أحببتُه كأنّه ابني.

بعدَ شهرٍ، ألقتْ عنها سِربال الحزن، أو لنقلْ إنّ السّربال نفسه بهتَ لونُه، فلم يعدْ يُرَى إلاّ في لَمَحاتٍ خاطِفة، قالتْ لي: «قد عرفْتَ الطّينَ الّذي نسكنُ فيه؛ نحن الأحياء الأموات، فهَلُمّ أعرفْكَ الطّين الّذي يسكن فيه الأموات الأحياء». «القبور؟». «إنّهم يسمعونكَ، وهم يعيشون حياةً أفضل مِمّا نعيش».

مشينا في دروبٍ ترابيّة ضيّقة، يعلو على جانِبَيها جدرانٌ من الآجرّ الأحمر، حتّى انتهَينا إلى بسطةٍ من الأرض، وقفتْ وقالتْ: «هنا يرقدُ مولانا عليّ بن الحُسين بن عليّ بن أبي طالبٍ؛ زين العابدين، أمّا رأسُ جَدّه فهناك كما تعلم، لو كانوا يفقهون لدفنوهما معًا، وهل يحنّ الجذع إلاّ إلى أصله؟». ومضينا على قبورٍ صغيرةٍ قالتْ إنّها لآل البيت، حَصَدَهم الموتُ الّذي كان يسيل على السّيوف أيّام الفِتَن الّتي لا تنام، واستدركتْ: «ومَنْ قال إنّ تلك الأيّام قد ولّت؟ وَمَن قال إنّ الفِتَن تنامُ أو تأخذ استِراحة؟». ومضينا، فقالت: «وهنا رأسُ زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالبٍ، قُتِلَ بالكُوفة، وأُحرِق، وطافوا برأسه في الشّام قبل أنْ يُحمَل إلى مصر، ويستقرّ هنا... أسمعهم... في اللّيل، في منتصف الشّهور القمريّة، يتحدّثون، همسًا، الهمسُ من تحت التّراب أصفى في أذني من الصّوت الّذي تدلقه الحِيَف العابرة في الأسواق. الأمواتُ

أبلغُ من الأحياء يا عبد اللّطيف لو كان لكَ أذنان لتسمع، إنّما الخَلْقُ ما لم يكنْ لهم من قلوبهم موضعٌ صُمّ». وتعجّبتُ من قولِها، وعَظُمَ ذلك في نفسي، وخِفتُ أنْ أسألها السّؤال القديم: «كيفَ عرفتِ؟».

فتردّ عليّ بشتيمةٍ أنا في غِنًى عنها وخاصّةً في مثل هذا الموقف المهيب، وفي بعض السّؤال أذًى. ومضينا، فقالتْ: «وهنا قبر عبدُ الله، مولى عائشة، لو كان النّدم بعدَ الفَوات يُفيد، لكانتْ أوّل مَنْ يُقدِم عليه، إنّما ذهبَ برأيها الزُّبَير والجَمَل». كنتُ أستمع وأعماقي تتصارع بين الدّهشة والخوف، إنّ هذه المرأةَ أكثرُ من عَرّافة. ثُمّ نظرتْ إليّ وكُنّا في كنفٍ من الشّمس إلى حائطٍ في الظّلّ، فبان الذّئب الّذي في عينَيها، فشعرتُ أنّها عرفتْ ما يجول بخاطري، وأنّني افتُضحت، فأدرتُ رأسي بعيدًا عنها، وشغلتُ نفسي بالسّؤال وأنا أنقل خُطُواتي إلى قبرٍ آخر، قلتُ لأنقذ نفسي: «وهذا؟». فقالتْ: «قبرُ دِحية الكلبيّ». فمضينا والرّهبة تأخذُ بتلابيبي، فتكاد تخنقني، ووقفْنا عندَ قبرٍ قد دَرَس، وقالتْ: «إنّني أرعاه كما أرعَى أولادي». فسألتُها: «فمن صاحبه؟». قالتْ: «روبيل بن يعقوب أخو يوسف» ثُمّ أشارتْ إلى قبرٍ بجانبه يُشبهه: «وذاك قبرُ يهوذا أخوه». فسألتُ: «فأين قبر يُوسف؟». فقالتْ: «لقد نقلوه من هنا!».

وعدتُ إلى التّدريس في الصّالحيّ، والإقامة في البيمارستان يومَين أو ثلاثة في الأسبوع، وازدادَ عددُ الطّلبة، وكان فيهم الّذي جعلَ من العِلم بُغيَته من الدُّنيا، وكان بعضُهم يأتي من أنحاء بعيدةٍ من مصر، فيبيتُ اللّيلة في المسجد أو يكتري دارًا، ويقوم في مصر، يلزمُ الحلْقةَ كأنّها سفينةُ نجاته من الغرق أيّام الأسبوع، ويحضر كلّ حلقةٍ، فإذا هبطَ الصّيف، عادَ إلى أهله فمكثَ عندهم شهرًا يُحدّثهم بما رأى وسمع من مصر، ثُمّ لمّا ينقضي زمنُه، يجيء ثانيةً فيلتزم الحلَقات، كما يلتزم الصّوفيّ خانِقاه.

وسَرَى بيني وبين (ماريّة) و(كرم) ماءُ المودّة، فدأبتُ على زيارتهم، وكنتُ أشتري لهم وأنا قادمٌ ما يُحبّون، ثُمّ صرنا نخرج أربعتُنا إلى الأسواق، أكتري عربةً يجرّها حِصانان مُطهّمان، ونطوفُ في الأسواق، ثُمّ قالتْ لي درّيّة مرّةً: «إنّ ألسنةَ النّاس ألسنةٌ من اللّهب، ولن أسلَمَ لا أنا ولا أنتَ منها ونحن خالِيان، فكيفَ إذا ركبتُ إلى جانبك في عَرَبةٍ فخمةٍ تجرّها الخيول المُطهّمة؟!»، فقلتُ لها: «ائذني لي على الأقلّ أنْ آخذ كرم معي، أُسلّيه، ولو مرّة في الأسبوع». فأذنتْ.

وذهبْتُ مع الصّغير، إلى حانوت العصافير في سُوق الدّجّاجين، وكان في الحانوت عصافيرُ صغيرةٌ كثيرةٌ، وقد اعتادَ الآباء على أنْ يشتروها لأطفالهم من أجل أنْ يُعتِقوها لوجه الله. وقلتُ لكرم: «هَيّا، أيّ عصفورٍ تختار؟». وقال لنا صاحب الحانوت أوّل ما رآه: «أهلاً بالعصفور الصّغير... العصفور يريدُ عصفورًا؟». وابتسم الطّفل، وسأله وهو يُداعب الشّامة السّوداء على ذقنه: «اخترْ» وأخذه من يده وراح يمرّ به على الأقفاص، واختار كرم عصفورًا أصفر، كان ثمن العصفور فَلْسًا واحِدًا، وفرح الطّفل عندما دفعتُ العصفور له، وابتهجَ به وهو يتحرّك بينَ يدَيه، وقلتُ له: «لماذا تريدُ أنْ تُعتِقَ العصفور؟». وضحكَ غافِلاً عن سُؤالي ولم يجب، فأجبتُ أنا: «لأنّ مَنْ يُعتِق عصفورًا يدخل الجنّة». وقلتُ: «هَيّا أطلِقْه يا كرم». ومدّ كرم وهو يُكركِر من الضّحك يديه عالِيًا فوقَ رأسِه الصّغيرة ذات الشّعر الأشقر، وفتحهما، فانطلق العصفور إلى السّماء وهو يُزقزِق، وكانت ضحكة كرم تُشبه تلك الزّقزقة، وكان إذْ يُكركِر تظهر غمّازتاه، وإذْ يضحك تبدو سنّاه الأماميّتان. وسألتُه: «هل أعجبتْكَ هذه اللّعبة؟». فهزّ رأسَه بالموافقة، واشتريتُ له عصفورًا ثانيًا، وأطلقَه، وهو يُكركِر، وكلّما سألتُه: «هل أعجبتْكَ اللّعبة؟». هَزّ رأسه، وظللتُ أشتري له عصفورًا وراء عصفورٍ، يُطلِقه حتّى يدخل الجنّة، إلى أنِ اشتريتُ له في ذلك اليوم عشرينَ عصفورًا، لم يكنْ لونُ أيّ عصفورٍ منها يُشبه الآخَر. وعُدْنا.

في الطّريق عرّجْنا على حانوتٍ يبيعُ الحلوى، وكان الحانوت فيه رجالٌ ونِساءٌ، وصِغارٌ وكِبار، وأطفالٌ وشيوخٌ، لا ينجو من حُبّ الحلوى أحدٌ، وكان الحانوتُ مشهورًا في سوق الحلوائيّين، وأعادَ لي عقودًا سحيقةً من الذّكرى، أيّام كنتُ أستبطِئ أمّي من أجل أنْ تشتري لِيَ الفالوذج، لكنّ الفالوذج الّذي كانتْ تعرفه بغداد يومئذٍ تحوّل إلى أكثر من خمسين

نوعًا من الفالوذج الّذي يُباع هنا في القاهرة، إنّهم هنا لتفنّنهم في صُنع الحلوى يُخصّصون لها أسواقًا بأكملها، وكانتْ أواني صِناعة الحلوى تزيدُ الحانوتَ بهجةً، فلقد كانت أواني من النّحاس مُتعدّدة الأشكال والأحجام، يطرقُ بها الصُّنّاع بإيقاعاتٍ موسيقيّة جميلة يُرغّبون فيها الزّبائن بالشّراء، وكانوا يصنعون بالسّكّر الّذي تنفرد به مصر أشكالاً من الحلوى على هيئة خيولٍ أو سِباعٍ أو قِططٍ وغيرها، تُسمّى العلاليق، لأنّها تُعلّق بخيوطٍ في الحانوت، وتتدلّى من علٍ وهي تدور مع أيّ حركةٍ للخيط فتزداد رغبةُ الأطفال بها، فاشتريتُ لكرم منها ما اختاره هو، ومنها ما اخترتُه أنا، وما أظنّ بيتًا في مصر كلّها لا يدخل أحدُ أفراده سوقًا للحلوى في كل

يومٍ، لِقاء طعمٍ يذوب فيه النّعيم.

ثُمّ عُدْنا، أردفتُه خلفي، وأمرتُه أنْ يُطبِقَ بيدَيه على جذعي حتّى لا يسقط، ورَمَح الأبلق، غيرَ أنّني وهو في جَرْيه السّريع تذكّرتُ أنْ أشتري لماريّة شيئًا يُبهِجها، فثنيتُ عنانه إلى سوق (القفيصات)، وهي جمع (قُفيص) الّتي هي تصغير (قَفَص)، وهذه القُفَيصات توضَع أمام الحوانيت، ويُعرضُ فوقَها كلّ ما يستهوي البنات الصّغار، من الخواتم المُلوَّنة، والأساور، والخلاخيل، والعُقود، والعرائس الّتي تكون من الشّمع، وغيرها، فاشتريتُ منها أسورةً بألوانٍ مختلفة، وعدتُ بها مع كرم إلى تربة الشّافعيّ. ❞

❝ (٦)

الأهرامات؛ البِناءُ صِفةُ بانِيه

لم يكنْ في مصر أعظمُ من الأهرامات، ومع ذاك فالنّاسُ لا تعرفُها، فالأهراماتُ الّتي على الحقيقة غيرُ تلك الّتي في أذهان النّاس، إنّهم يعرفون من الكِتاب عنوانه، فإذا سألتَهم ما يضمّ هذا الكتاب بُهِتوا! وإنّهم لا يعرفون مِن الاسم غير الاسم، فإنْ ذهبْتَ تسألهم ما معناه سَكَتوا! ذلك أنّ الأهرامات لم تكنْ يومًا عنوانًا فحسب، ولا اسمًا فقط، لقد كانتْ عالَمًا من السّحر والعجائب لم يدركْها أحدٌ على كثرة مَنْ خاضوا فيها، وعلى كثرة مَنْ ذهبَ في تفسير نشأتِها وسِرّها، وبقيتْ عصيّةً عليّ مثلما استعصتْ على مَنْ أرادَ أنْ يفكّ طلاسِمَها من الآخَرين!

ولقد بنى (قراقوش) من الأهرامات لِذِكْر الأيّوبيّين ما بنتِ الأهرامات مِنْ ذكرٍ للفراعنة، وإنْ كانوا الأصل، وجاء قراقوش هذا فاستعار من الأصل ما يُمكّنه من خلود الذِّكر لسيّده، ذلك أنّ عدد الأهرامات في مصر بالمِئات، بعضُها صغيرٌ وآخر أكبر منه، وثالثٌ كبيرٌ جِدًّا، وبعضُها بُنِي من الطّين، وبعضُها من اللّبن، وآخَر من الحجارة، وأشكالُها مُتشاكِلة، فبَعضُها مَخروطيٌّ أملس، وبعضُها مُتدرّج، ولقد غَبَر بها الزّمن وعَبَر، فهُدِمَ ما كان منها صغيرًا، فأخذه قراقوش هذا وبنى سور القاهرة والفُسطاط، وبنى بينَهما القلعة الّتي على المُقطّم، وهي قلعةٌ عظيمةٌ مُشرِفة، وحفرَ فيها البِئرَين العجيبَين، وهما آيتان من آياتِ البِناء، يُنزَلُ إليهما بدرجٍ عميق الغَور فيه ثلاثمئة درجةٍ. ولعلّه استفادَ في هذا من الفكرة الّتي بُنِي لأجلها بِئر المقياس الّذي في الرّوضة.

وإلى ذلك بنى (قراقوش) من حجارة الأهرام المُهدَّمة القناطر الّتي في الجيزة، وهي من أعمال الجَبّارين، وتكون نيّفًا وأربعين قنطرةً، وفي هذه السّنة الّتي نحنُ فيها سنة ٥٩٧ من الهجرة تولّى القِيام عليها مَنْ لا بصيرة له بقوّة الماء، فسَدَّها رَجاء أنْ يحتبس الماء فيَروي الجِيزة، فلمّا اجتمع الماء، وضغطَ بقوّته المَهولة على القناطر تزلزلتْ، وشَقّها فانهدم ثلثُها، فعادَ حبسُها نَكالاً على النّاس من حيثُ أرادَ صاحب الأمر الخير، وإذا ساءَ التّدبير فلا يقي حُسنُ النّيّة من سوء المصير.

أمّا الأهرامات الخالِدة؛ فهذه مِمّا تتحيّر فيها الأفهام، وتتعجّب منها العقول، وهي ثلاثةٌ، موضوعةٌ على خَطٍّ مُستقيمٍ بالجيزة، وبينها مَسافاتٌ يسيرة، وزواياها مُتقابِلة نحو المشرق، واثنان منها عظيمان جِدًّا وفي قَدْرٍ واحدٍ، ومبنيّان بالحِجارة البِيض، وأمّا الثّالث فينقصُ عنهما بنحو الرُّبع، لكنّه مبنيٌّ بحجارة الصُّوّان الأحمر المُنقَّط الشّديد الصّلابة، ولا يُؤثّر فيه الحديد إلاّ في الزّمن الطّويل، وتجده صغيرًا بالقِياس إلى أخَوَيه، فإذا اقتربتَ منه وأفرَدْتَه بالنّظر هالكَ مَرآه، وحسر الطّرف عند تأمّله.

ولقد سُلِكَ في بناء الأهرام طريقٌ عجيبة من الشكّل والإتقان، ولذلك صَبَرتْ على مَرّ الأيّام، فإنّكَ إنْ تحرَّيْتَها وجدتَ الأذهان الشّريفة قد استُهلِكتْ فيها، والعقول الصّافية قد أَفْرَغتْ عليها مجهودَها، والأنفس النّيّرة قد أفاضتْ عليها أشرفَ ما عندها. والبِناءُ صِفةُ بانيه؛ والأهرامات تُخبِر عن مُهندِسيها، وذلك أنّ وَضْعها على شكلِ مخروطٍ يبتدِئ من قاعدةٍ مُربّعة وينتهي إلى نُقطةٍ واحدة، ومن خواصّ الشّكل المخروطيّ أنْ مركز ثِقَلِه في وسطه، فهو يتسانَد على نفسِه، ويتواقَعُ على ذاتِه، ويتحامَلُ بعضُه على بعضٍ، فليسَ له جهةٌ أخرى خارجةٌ عنه يتساقطُ عليها. ومن عجيبِ وَضْعها أنّ زواياها الأربع تتقابل مع مهابّ الرّياح الأربعة، فإنّ الرّيح تنكسر سَورتُها عندَ مُصادمتِها الزّاوية الّتي تُقابلُها، وليسَتْ كذلك عندما تتلقّى هذه الرّياحُ السّطح!

أمّا قاعدة الهرم الأكبر فهي أربعمئة ذراع طولاً ومثلها عرضًا، وارتفاعها أربعمئة ذراعٍ، وينقطع المخروط في أعلاه عند سطحٍ مساحته عشرةُ أذرعٍ في مثلها، ولقد جرّبتُ ذلك، إذ عرفتُ أنّ أهل القرية القريبة من الأهرامات فيهم مَنْ يستطيع أنْ يصعدَ حجارته حتّى يستوي على قمّته، فدعوتُ بواحدٍ منهم، وأعطيتُه عشرة دنانير على أنْ يقيسَ قاعدةَ القِمّة بعِمامته، وكان عليه أنْ يبسطها، ويقف عند ما ينبسط منها، ورأيتُه يصعدُ حجارة الهرم كما أصعدُ أنا الدّرج المؤدّي إلى الطّابق الثّاني من بيتي، فلمّا فرغ بعدَ مدّة ونزل، دفعَ إليّ عِمامته، فقستُ ما انبسطَ منها، فإذا هو إحدى عشرةَ ذراعًا.

وفي أحد هذين الهَرَمَين مدخلٌ يَلِجُه النّاس يُفضي بهم إلى آبارٍ ومهالك وغير ذلك مِمّا يحكيه مَنْ يَلِجُه ويتوغّل فيه، فإنّ ناسًا كثيرين لهم غرامٌ به وتحيُّلٌ فيه يُوغِلون في أعماقه، ولا بُدّ أنْ ينتهوا إلى ما يعجزون عن سلوكه بعدُ، وأمّا ذلك الجزء المَسلوك المَطروق كثيرًا فزلاّقة تُفضي إلى أعلاه، ويوجدُ فيها بيتٌ مُربّعٌ فيه ناووسٌ من حجرٍ، وهو مَنقوبٌ نقبًا، وجُلّ مَنْ كان معنا وَلَجُوا فيها، وصَعِدوا إلى البيت الّذي في

أعلاه، فلمّا نزلوا حَدّثوا بعظيم ما شاهدوه، وأنّه مملوءٌ بالخفافيش على أبوابها حتّى كادَت الخفافيش أنْ تمنع السّالك من أنْ يستمرّ، ويعظُمُ فيها الخُفّاش حتى يكون في حجم الحَمام، وله عجيجٌ مُرعِب، فإذا تردّد صدَاه بين الحجارة الصّمّاء في سكون الوقت صار أكثرَ رُعبًا. وفيه طاقاتٌ ورَوازنُ جُعِلتْ مسالكَ للرّيح ومنافذ للضّوء، وولجتُه مرّة مع جماعةٍ، وبلغتُ نحو ثُلُثَي المسافة فأُغمِيَ عليّ من هول المُطّلع، فرجعتُ بيني وبين الموت خيط، وحلفتُ ألاّ أعودَ لمثلِ هذا، فإنّ الرّوع يمحقُ العُمر.

وهذه الأهرامات مَبنيّةٌ بحجارةٍ جافيةٍ يكونُ طولُ الحجر منها ما بين عشرةِ أذرعٍ إلى عشرين ذراعًا، وسُمكه ما بين ذراعَين إلى ثلاثٍ، وعرضه نحو ذلك، والعَجَبُ كلّ العَجَب في وَضْع الحجر على الحجر بهندامٍ ليسَ في الإمكان أصحُّ منه؛ بحيثُ لا تجدُ بينهما مدخل إبرة، ولا خَلَل شَعْرة، وبينهما طينٌ كأنّه الورقة لا أدري ما صنفُه ولا ما هو، وعلى تلك الحِجارة كتاباتٌ بالقلم القديم المجهول الّذي لم أجدْ بديار مصر مَنْ يزعم أنّه سمع بمن يعرفها أو قرأها، وهذه الكتاباتُ كثيرةٌ جِدًّا، حتى لو أنّه نُقِلَ ما على الهَرَمَين الكبيرَين فقط إلى صُحُفٍ لكانتْ زُهاء عشرةِ آلاف صحيفة.

ومن زمنٍ قريبٍ سوّل بعضُ الجَهَلة للملك (العزيز) أنْ يهدمَ هذه الأهرام ويتّخذ منها قصورًا أو ما ينفع النّاس، فبدأ جماعتهُ بالهرم الأصغر، ووُكلّ بذلك قومٌ من عُظماء الدّولة وأمراء المملكة، فحشروا للأمر الرّجال والصُّنّاع المَهَرة، فخيّموا قُربه بخيولهم ومتاعهم ثمانية أشهرٍ، وأُجرِيتْ عليهم النَفَقَات، وكان هؤلاء الرّجال الأشدّاء يهدمون كلّ يومٍ بعدَ بذلِ الجُهد واستفراغ الوُسعِ حجرًا واحِدًا أو اثنين، فقومٌ يدفعونه من الأعلى بالأسافين والأمخال، وقومٌ من الأسفل يجذبونه بالقُلوس والأشطان، فإذا سقطَ الحجر سُمِعَ له دويٌّ عظيمٌ من مسافةٍ بعيدةٍ، حتى ترتجف الجِبال وتُزلزَلُ الأرض، ويغوص في الرّمل، فيتعبون تعبًا آخر أشدّ من الأوّل حتّى يُخرجوه من سَقطته، ثُمّ ينقبون للأسافين موضعًا فيه، ويضربونه بها، ويبيتون ليلتهم يقطعون فيه قِطَعًا تُحمَل على العُجُول، فتُسحَب حتّى تُلقَى في ذيل الجبل وهي مسافةٌ قريبةٌ، فلمّا طال ثواؤُهم، ونَفِدتْ نَفَقاتهم، وخارتْ قُواهم، وتضاعفَ نَصَبُهم، ووَهَتْ عزائمهم، كَفُّوا مَحسورين مَذمومين، لم ينالوا بُغية، ولا بلغوا غاية، بل كانتْ غايتهم أنْ شَوّهوا الهرم، وأبانوا عن عجزٍ وفشل. وإذا أنتَ عاينتَ الحجارةَ المُلقاة تحت الهرم الأصغر ظننتَ أنّه استُؤصِل، فإذا رجعتَ إلى الوراء قليلاً، ونظرتَ إليه من بُعدٍ رأيتَ أنّه لم يُهدَم منه شيءٌ، وإنّما جانبٌ منه قد كُشِطَ بعضُه، كخطٍّ قصيرٍ شائهٍ في ورقةٍ ملساء. ولقد عنّ ببالي أنْ أسألهم، فأتيتُ كبيرَ الحَجّارين الّذين وُكِلَ إليهم العمل، فقلتُ له: «إنْ بذلتُ لكَ ألفَ دينارٍ على أنْ تردّ حجرًا واحِدًا إلى مكانه وهِندامه، فهل تستطيع ذلك؟». فأقسمَ بالله إنّه هو ومَنْ معه لا يستطيعون ذلك ولو دُفِعَ لهم أضعافه!

وبإزاء الأهرامات من الضّفّة الشّرقية مغارات كثيرة العدد، كبيرة المِقدار، عميقة الأغوار مُتداخِلة، وفيها ما هو ذو ثلاث طبقاتٍ، وتُسمّى المدينة، حتّى إنّ الفارسَ المِغوار إذا دخلها برمحه، فإنّه يبقى يومًا كامِلاً يتخلّلها ويمرّ في طبقاتها ولا يُنهيها؛ لكثرتها وسَعَتها وبُعدِها، وقيل إنّها كانت بيوتًا تأوي العُمّال القائمين على مقاطع الأحجار، وقيل كان الكَهَنةُ يبيتون فيها.

وعند هذه الأهرامات صورةُ رأسٍ بارزةٍ من الأرض، في غاية العِظَم، يُسمّيه النّاس (أبا الهول)، ويزعمون أنّ جُثّته مدفونةٌ تحتَ الأرض، ويقتضي القِياس أنْ تكونَ جُثّته بالنّسبة إلى رأسِه سبعين ذراعًا فأكثر، وفي وجه (أبي الهول) حمرةٌ ودِهانٌ أحمرُ يلمعُ عليه رونق الطّراءة، وهو حَسَنُ الصّورة مَقبولُها، عليه مِسحةُ بَهاءٍ وجَمال، كأنّه يضحك تبسُّمًا! وسألني بعضُ الفُضَلاء: «ما أعجبُ ما رأيتَ؟» فقلتُ: «تَناسُبُ وجهِ أبي الهول؛ فإنّ أعضاءَ وجهه كالأنف والعين والأذن مُتناسبةٌ كتناسُبها في الإنسان».

ولقد مرّتْ عليّ ليالٍ طِوالٌ وأنا أتقلّب في فِراشي أفكّر في الطّريقة الهندسيّة الّتي بُنِيت بها هذه الأهرامات، ولقد قرأتُ في تفسير بِنائها كثيرًا فلم أقتنعْ بما قالوا، وفكّرتُ بطرقٍ تقتضيها ما عرفتُ من علم الهندسة فعييتُ، ولقد نِمتُ ليلةً، فرأيتُ في المَنام كبيرَ الجِنّ، ولا أدري كيفَ عرفتُه أنّه هو، فقال لي: «أنا الّذي بنيتُها مع مَرَدة الجِنّ، فكُفّ عن التّفكير في ذلك»، فلم يُعجبْني التّسليمُ له بهذا، فقلتُ له: «وما أدراني أنّكم أنتم مَنْ بنيتموها؟!» فردّ مُحنقًا: «لا أدراك». فقلتُ: «لا سلمت».

فرأيتُ في وجهه الغضب، ورأيتُه قد تمَعَّر، وتكوّر، وتلظّى حتّى كأنّه النّار المُلتهِبة، ففزعتُ، فأردتُ أنْ أهربَ، فقلتُ لنفسي: «إنّني في الحلم، ولا يكون هذا صحيحًا». فاستعذتُ بالله من الشّيطان الرّجيم، فانتفخ بدل أنْ يذوب، وعَظُمَ جسده الأسود، ثُمّ إنّه أخذ يكبرُ فوقَ رأسي، وأنا أراه يزداد جسامةً وهولاً، وهتف: «أتجادولنني في أسماءٍ سمّيتموها أنتم وآباؤكم». فأردتُ أنْ أضحك مِن رَدّه بالقرآن ولا يكون ذلك للجنّ، فانخنق صوتُ الضَّحِكة فِيّ، فوجدتُ حَرّها في عينَيّ، فأوشكتُ أنْ أبكي، ثُمّ إنّني قلت: «كيفَ تقول ما تقول؟». فردّ عليّ: «وما أوتيتم من العِلم إلاّ قليلاً، وإنّ الحفر في جحر الأفعى يُخرجها، فلا تسألني ما ليسَ لكَ به علمٌ». فأردتُ أنْ أُولّي وجهي إلى الجهة الأخرى لكي لا أراه، ففعلتُ، فما قدرتُ على نَفْيه خارج الحلم، فقلتُ في نفسي: «فلْتفعلْ ما بدا لك». فما مرّتْ لحَظاتٌ حتّى شعرتُ أنّني خرجتُ من الحلم، وتابعتُ النّوم.

فمضتْ مُدّة لا أدري كم هي، حتّى شعرتُ بأنّ السّرير اهتزّ من تحتي، فقلتُ في نفسي: «إنّني أحلم». ثُمّ ازداد اهتِزاز السّرير، فوَجِلت، فقلتُ: «لعلّه كبير الجنّ قد عاد، وعلى أيّ حالٍ فهو وَهْم، وهذه كلّها أضغاثُ أحلام». لكنّ اهتِزاز السّرير لم يتوقّف، فصحوت، وفركتُ عينَيّ، ونظرتُ نحو النّافذة فلم أجدِ الفجر على ظَرْفتِها، فقلتُ ما زلنا في الثّلث الثّاني من اللّيل، فنهضتُ، وجلستُ على حافّة السّرير، فشعرتُ بالهزّة من جديد، فدخلني الشّكّ في أنّه الحُلم، وقلتُ: «لو كان حُلمًا لَما استمرّ». لكنّ الهَزّة بعدَ هذا الخاطر كانتْ قد توقّفتْ، فقمتُ لكي أشربَ الماء من الخابية في أوّل الرّواق، كان المشعل الّذي أجعله على أوّل الدّرجات ما يزال مُضيئًا. لكنّني ما إنْ خرجتُ من باب الغرفة حتّى شعرتُ بهزّةٍ جديدة، وكانتْ قويّةً لدرجةِ أنّني تمايلتُ، وأمسكتُ بالدّاربزين المقابل لباب الغرفة في الرّواق حتّى لا أقع، وأقعيتُ على الأرض باسِطًا رِجليّ في الرّواق، ومُمسِكًا بمشربيّات الدّرابزين بكلتا يدَيّ، استمرّت الهَزّة لَحظَاتٍ قبل أنْ تتوقّف من جديد، فدَخَلَني من الخوف ما دَخَلَني، ولا أدري لماذا خطرتْ دُرّيّة على بالي في تلك اللّحظة، تمنّيتُ أنْ تكونَ موجودةً لأسألها ما الّذي يجري، وبدلاً من ذلك، بقيتُ في مكاني أتلفّتُ حولي، أؤجّل فكرة الوقوف على قدَمَيّ، والمشي إلى الخابية لأتناول كأسًا من الماء، كان الجفاف قد بدأ ينتشر في حلقي من تسارع ضَرَبات قلبي. ثُمّ... ثُمّ حدثتْ هَزّة جديدةٌ أكبر من سابِقاتها، لدرجة أنّ إحدى مشربيات الدّرابزين القريبة من الدّرج قد سقطتْ، فارتعتُ لذلك، ورأيتُ الكأسَ البلوريّة المركوزة فوقَ فم الخابية قد سقطتْ هي الأخرى وتحطّمتْ، فارتعتُ أكثر؛ كان صوتُ تحطّمها حادًّا، حتّى شعرتُ أنّ زُجاجَها جرحَ قلبي، ثُمّ بقيتُ على تلك الحال مُمسِكًا بالدّرابزين، حتّى رأيتُ أنّ الأمور قد هدأتْ تمامًا، فمضيتُ إلى أوّل الرّواق وقد انتعلتُ حِذاءً سميكًا، فكنستُ الزّجاجَ المكسور، وأتيتُ بكأسٍ معدنيّة، فمددتُها في الخابية فوجدتُها خاليةً، ليسَ فيها قطرةُ ماءٍ واحدةٌ، فتعجّبتُ لذلك، فلقد اعتدتُ ألاّ يمرّ يومٌ دون أنْ أملأها، ولكنْ يبدو أنّني مع زحمة الأحداث قد نسيت.

أوقدتُ مِشعلاً جديدًا، وأخذتُه بينَ يدَيّ، وهبطتُ به الدّرَجات، لا أدري ما الّذي دفَعَني أنْ أسير باتّجاه الإسطبل، تراءى الأبلق لي من بعيدٍ على ضوء المشعل، وقد لمعتْ عيناه، صهل، فرحتُ بصوتِه، في وسط هذا الجوّ المشحون بالغرائب، أسرعتُ الخُطا، علّقتُ المِشعل على باب الإسطبل، فتحتُ بابه النّصفيّ، ومددتُ ذراعَيّ على اتساعهما، واعتنقتُ الأبلق طويلاً وأمواجٌ من الطّمأنينة تملأ روحي الخائفة.... كان أذان الفجر يرتفع من مسجد الصّالحي، فازدادتْ روحي طُمأنينة، في الأذان راحةٌ لا يُمكن التّنبّؤ بسِرّها. ❞

❝ (٧)

لا يكونُ نُقصانٌ إلاّ بعَد تَمام

قبلَ أنْ تُشرق الشّمس، ركبتُ الأبلق، وطرتُ إلى قرافة الشّافعي لألتقي بدريّة، لم أصبرْ أكثر من هذا، ثُمّ إنّني خفتُ أنْ تخرج من التُّربة لبعضِ شأنِها فلا أجدُها، ولديّ كلامٌ كثيرٌ لأقوله لها، وعندي أسئلةٌ أكثر، وأشعر أنّه لا أحدَ يُمكنه أنْ يُجيبني عنها أفضلَ مِنها.

عندما هبطتُ الدّرجات إلى الغرفة الّتي ينامون فيها، رأيتُ ماريّة، وهي تغسلُ وجه كرم، وتفرك له رأسَه، الأخت الكبيرة أمٌّ ثانية، كانتْ خُيوطُ الشّمس تتسلّل عبر حوائط القبور وأشجار القرافة فتُعطي بعضَ الأمان، وكان صَباحًا رائقًا بديعًا مثل أيّ صباحٍ يصنعه الله دون أنْ يكون للإنسان تدخّلٌ فيه. رأتْني ماريّة أهبطُ الدّرجات فابتسمت، ثُمّ إنّها نادتْ على أمّها: «مولانا قادمٌ يا أمّي». فانتبه إليّ الطّفل، وما إنْ رآني حتّى ضحك وكركر، وحاول الإفلات من بين يدَي أخته لكي يركضَ نحوي، لكنّها قالتْ له: «حتّى أنهي لك الغسيل يا كرم». ومدّ هو صوتَه: «مَنْ يُعتِق عصفورًا يدخل الجنّة». فضحكتُ حتّى سُمِعَ صوتُ ضَحِكتي، وأردفتُ: «سأشتري لك مِئةَ عصفورٍ هذه المرّة».

كنتُ قد أتممتُ هبوطَ الدّرجات وصار باب الغرفة عن يميني، حينَ برزتْ دُرّية من الداخل، وهي تعقدُ شالَها فوقَ رأسِها، وتربطُه على عادتها خلفَ عنقها، وتنظر إليّ بعينَين سرعان ما جعلتَاني أضطرب، سَرَتْ فِيّ رعدةٌ لا أدري مصدرها، أنا الّذي كنتُ أضحك من قليلٍ قبلَ أنْ تُطِلّ من داخل الغرفة، كذّبتُ ما أُحِسّ به، وهتفتُ لنفسي: «لستُ جَبانًا إلى هذا الحدّ، وليستْ مُخيفةً إلى هذا الحدّ لولا... لولا عيناها». لم أكدْ أُنهي هذا الخاطر حتّى قذفتْ سُؤالَها المُباغِت في وجهي: «ما الّذي جاءَ بك؟». أردتُ أنْ أقولَ لها: إنّ النّاسَ تتلاقَى بالتّحايا، وبالسّلام، وبالسّؤال عن الأحوال، وإنّ الضّيوف يُقدّم لهم الشّراب أو الطّعام، قبلَ أنْ يُواجِهوا سؤالاً سهلاً وصعبًا في الآنِ نفسِه مثل سؤالِها هذا، لكنّها لم تمهل خواطري هذه كثيرًا على عادتها، فقذفت السّؤال في وجهي من جديد: «لماذا أنتَ هنا في مثل هذه السّاعة من الصّباح؟». فكّرتُ في إجابةٍ مُقنِعة، غير أنّ الإجابات تهربُ حينَ تبحثُ عنها، ذلك يحدثُ كثيرًا، بحثتُ أكثر، عن أيّ إجابةٍ مهما تكن، فقلتُ: «جِئتُ لأتعرّف على مزيدٍ من قبور الأموات الأحياء». قالتْ دون أنْ تتردّد وهي تنظر في عينَيّ: «تكذب». من جديدٍ تطعنني، أخذتُ شهيقًا عميقًا لكي أعوّض الهواء الّذي سحَبَتْه كلمتُها الأخيرة، وقلتُ: «أنا لا أكذب». ردّتْ: «أنا أعرفُ أنّكَ تكذب، وأنتَ تعرفُ أنّني أعرفُ أنّكَ تكذب». شعرتُ بالإهانة فِعلاً، أردتُ أنْ... لا أدري ماذا أردتُ، ربّما أنْ أعود من حيثُ أتيتُ، أو ألعنَ الحاجة إلى امرأةٍ مثلِها، أو أنْ أفعل شيئًا، لكنّها على عادتها لم تتركني كثيرًا مع أفكاري، إذ قالتْ: «إنّ للكذب فأرًا صغيرًا يقضم حدقة العين؛ فكلّما هَمّ الإنسان بالكذب تصغر، فإذا كذب تصغُر أكثر، وأنا رأيتُ عينَيك كأصغر ما تكونان». أقررتُ بقولها وأنا أنظر في الأرضِ صامِتًا، قالتْ: «الآن قُلْ لي ما الّذي أخرجكَ من بيتِكَ يا عبد اللّطيف..؟». قلتُ: «أردتُ أنْ أتحدّث معكِ عن...». أكملتْ هِيَ كأنّها تعرفُ كلّ شيءٍ: «عن الهَزّات الّتي حدثتْ ليلةَ أمس». هتفتُ: «تمامًا». نظرتْ في عينَيّ بصرامة، كنتُ بينها وبين الشّمس فلم تصلْ إلى عينَيها أشعّتُها مُباشرة، وكان جدار من خلفِها يُلقِي عليها بعضَ الظّلال، فبدتْ عيناها تتقاسَمان الصّقر والذّئبَ معًا، وكان لونُهما هذا المخلوط بين الأصفر والرّماديّ أرحمَ من اللّون الصّافي منهما، قالتْ وهي لا تزال تنظر إليّ تلك النّظرة: «إنّها البِداية يا عبد اللّطيف». سألتُها: «البِداية؟». ردّتْ: «أعني الهَزّة، وإنّ هذا سوفَ يستمرّ ثلاثين شهرًا». «ثلاثين شهرًا؟». «الغلاء والوباء والموت». ورجفتُ، ونظرتُ إلى ماريّة وكانتْ قد أتمّتْ حَمّام الصّغير، وأشارتْ لها أمّه، فدخلت إلى الغرفة لكي تُلبِسه، ومشتِ الأمّ فمشيتُ خلفَها، حتّى إذا صِرْنا في القرافة عند أوّل القبور، قالتْ: «اسمع يا عبد اللّطيف...»، فشعرتُ في تلك اللّحظةِ أنّ جسدي كلّه قد تحوّل إلى أذنٍ تريدُ أنْ تسمع. فتابعتْ: «لقد كان في مصر من المساجد ستّة وثلاثون ألفَ مسجدٍ، وثمانية آلافِ شارعٍ مسلوك، وألفٌ ومئةٌ وسبعون حمّامًا، ولقد شهدتُ وأنا صغيرةٌ حَمّام القرافة هذه، فما كان يُتوصّل إليه إلاّ بعدَ عناءٍ شديدٍ لكَثرةِ الزّحام...» ثُمّ كأنها أرادتْ أنْ تقول شيئًا فصمتتْ، ولم أدرِ ما معنى ما قالتْ، أو ما علاقتُه بالهَزّة، أو بالثلاثين شهرًا! فاستدارتْ بعد أنْ كانتْ تُعطيني ظَهرها فجأة نحوي، وسألتْ: «في أيّ عامٍ نحن؟». فرددتُ مستغربًا: «عام ٥٩٧ للهجرة». «فأينَ نحنُ منها؟». «في وسطها؟». فبرقتْ عيناها، وقالتْ: «ففي تمام ٦٠٠ للهجرةِ يتمّ كلّ شيءٍ». فسألتُ بشيْءٍ من الضّيق: «إنّكِ تتكلّمين بالألغاز».

فردّتْ: «بالطّبع، عندَ مَنْ لا يدري». فمضتْ عائدةً إلى غرفتها، وأنا أتبعها مُنقادًا خلفَها، فلمّا وصلتْ قريبًا من الباب التفتتْ إليّ، وقالتْ: «وسيكون زوالهم سريعًا». فسألتُها: «مَنْ هؤلاء؟». فقالتْ: «بنو أيّوب». فاستغربتُ مِمّا قالتْ على أشدّ ما يكونُ الاستِغراب، وقلتُ مُنكِرًا قولَها: «إنّ هذا من الشّيطان، وأنتِ ترينَ مُلكَ بني أيّوب اليوم على أتمّ ما يكون». فردّتْ: «لا يكونُ نُقصانٌ إلاّ بعَد تمام»، فقلتُ: «وكيفَ عرفتِ؟». قالتْ: «إذا نزلَ زُحَل بُرجَ الجوزاء عَزّتِ الأقواتُ في مصر، وقلّ أغنياؤهم، وكَثُرَ فُقراؤهم، ويكونُ الموتُ فيهم». فهممتُ أنْ أقولَ لها: «كذب المُنجّمون ولو صَدَقوا». لكنّني صمتّ. وحاولتُ أنْ أُخطِّئ نبوءَتها، فقلتُ مُستدرِكًا: «انظري إلى القاهرة اليوم؛ إنّ مُلكَ الأيّوبيّين فيها عالي السّماك والسّناء». فردّتْ: «لقد صَنعَه لهم صلاحُ الدّين، أما وقد مات، فإنّ مُلكهم إلى زوال». فسألتُها: «وكيفَ يكونُ ذلك». فرجعتْ خُطوتَين إلى الوراء، وتناولتْ كيزانًا فضربتْ بعضَها ببعضٍ فانكسرتْ، وقالتْ: «هكذا؛ يهجم عليهم عدوٌ من خارجهم فيُهلكهم».

لم أستطعْ أنْ أسمع أكثرَ من هذا، كان لا بُدّ أنْ تتوقّف هذه النُبوءات، لويتُ طرفَ ردائي، قلتُ لها: «أراكِ قريبًا». ومضيتُ، لم أكد أصعدِ الدّرجة الأولى، حتّى جاءني سؤالها: «مِمّ تخاف؟». «مِمّ سيأتي». «لا تَخَفْ ما لم تُفتَن». ومضيت.

قضيتُ نهاري ذلك، وأنا في ضياعٍ بين ما رأيتُ من أمر الزلزلة في تلك اللّيلة، وبينَ ما سمعتُ من درّيّة، لا بُدّ أنّ في الغيب ما لا نعرف، ولا نُدرك خيره من شَرّه، وإنّ كثرة التّفكير فيه لَتُورثُ الوَهَن، وإنّ انتظار الشّرّ شرٌّ من الشّرّ نفسِه، وإنّ تَرْكَ المقادير تجري في أَعِنّتها خيرٌ من الإمساكِ بتلك الأعنّة ومحاولة جرّها أو فهمهما، فإنّ بعضَ المقادير لا يجري معها الفهم، ولا ينبغي معها إلاّ التّسليم.

وشعرتُ بحاجةٍ إلى خلوةٍ بعيدةٍ عن التّدريس في مسجد الصّالحي، أو متابعة المرضى مع المساعدين في البيمارستان، فركبتُ الأبلقَ ذاتَ مساء، ومضيتُ به إلى الأهرامات، فلمّا تراءتْ لي تراءتْ لي ضآلتي معها، فشعرتُ أنّني ذرّة من رِمال هذه البيداء الفسيحة، وأنّني غائصٌ فيها عن قريب.

لم يكنْ قريبًا من الأهرامات أحدٌ، كان اللّيل قد غطّى الرّمال والدّور البعيدة والقرى الأبعد، فلم يبنْ شيءٍ، إلاّ بعضَ أضواء القاهرة تتراقصُ مشاعلها في أسواقِها من مسافاتٍ مُتطاولة. كان السّكونُ سيّد الوقت، وكان الهَواء عليلاً، فأطرقتُ أُصغي لحديث النّفس، وكان القمر في تلك اللّيلة قد اكتمل، وكان يقف من موضعي هذا على قمّة الهرم الأكبر، فبدا تاجًا يُرصّع رأسَه، وكانتْ إلى جانب الهرم عن يساره نخلةٌ عاليةٌ قد بدوتُ قزمًا على حِصاني عندها، وبدتْ أشدّ قَزامةً إلى الهرم العالي، ولقد وجدتُ من الخشوع في حضرةِ الغابرين ما زادني إيمانًا بعظمة ما أعطاهم الله إلى ما أعطانا، ولا أدري إنْ كانتْ القصور في الفُسطاطِ والقاهرة ستصمد مثلما صمدتْ هذه القبور؟!

ثُمّ نزلتُ عن الأبلق، وتركتُ عِنانه يجرّ على الأرض، ومضيتُ في تأمّلاتي، وأنا لا أزال أنظر إلى القمر يتحوّل شيئًا فشيئًا عن قِمّة الهرم، وهو يسقط في الأفق البعيد حتّى يصير على الأرض كأنّه بين قدمَيه، ثُمّ إنّني رأيتُ الأبلق في هدوء اللّيل يمضي مُبتعِدًا، فناديتُه فلم يسمع، فقمتُ أتبعه، فأمسكتُ بلِجامه أريدُ أنْ أقوده، فهزّ رأسَه هزّاتٍ شديدةٍ حتّى أفلتَ اللّجام، فعرفتُ ما يريد، فمشى، فمشيتُ خلفه، وظلّ ماشِيًا وأنا أتبعه، حتّى دخلَ بي إلى البرابي، كانت الأهرامات الثّلاثة قد صارتْ بعيدة، بعيدةً إلى الحدّ الّذي فقدتْ فيها نصفَ حجمها، فلمّا دخلتُ بعضَها عبرتْني أرواح مَنْ سَكنوها فشعرتُ بالرّهبة، ثُمّ طلبتُ من الأبلق أنْ ينتظرني أمام الباب، فأطاعني هذه المرّة، وأخذتْ أقدامي تسير، فما إنْ ولجتُ البرباة الأولى، حتّى رأيتُ المشاعل تُضاء وحدها في الدّاخل، فجفلتُ أوّل الأمر، ثُمّ اطمأننتُ، كأنّ المشاعل أُضيئتْ من أجلي، فعبرتُ، فسمعتُ صوتًا يقول: «لا يغرّنّك لينُ الأفعى، فإنّما السُّمّ في نابِها»، فالتفتُّ فلم أرَ أحدًا، غير أنّني رغم وحدتي لم أشعر بالخوف، وتساءلت مَنْ تكون هذه الأفعى؟ فمضيتُ، فسمعتُ صوتًا جديدًا يقول: «إنّ الثّور يخلع الباب، ولكنّك تحتاجُ إلى نَجّارٍ ماهرٍ لإصلاحِه». فسمعتُ صوتَ انخِلاع الباب يرنّ في سكون البرباة، فشجّعتُ نفسي رغم ما أنا فيه ومضيتُ، فسمعتُ صوتًا يقول: «سَهمُ الظّالم يرتدّ إلى صدره»، فهززتُ رأسي ومضيتُ خُطُواتٍ أخرى، فكأنّ الصّوت السّابق امتدّ إلى قوله: «وإنّ بناء المُستبدّ لينهدمُ فوقَ رأسِه»، وبقيتُ أمشي، وأنا أرى فوقَ الجدران على ضوء المشاعل الّتي تُضاء وحدها كلّما توغّلتُ أكثرَ كتاباتٍ باللّغة القديمة الّتي لا يفهمهما أحدٌ، وشعرتُ أنّ هذا الصّوت كان يقرأ ما كان مكتوبًا في اللّحظة الّتي أمرّ فيها بجانب

تلك الكتابة. ثُمّ إنّني أحسستُ أنّني امتلأتُ بالحِكمة، فخرجتُ، ووجدتُ الأبلقَ في مكانه، وهو يبحثُ في الأرضِ على ما تبقّى من النّجوم الغائرة، فركبتُه، وهمزتُه فطار، ومضينا عائدَين إلى القاهرة. ❞

(٨) ”

إنّها البداية!!

وصلتُ إلى البيت في الثّلث الأخير من اللّيل، لم يبقَ للفجر إلاّ القليل، قلتُ أصلّي بعض الرّكعات ريثما يصعد المؤذّن سطحَ المسجد فيُنادي لصلاة الفجر، دخلتُ غرفتي، فشعرتُ بالتّعب، فنمت. ليسَ في النّوم إلى الرّاحة غيرُ الحلم. ما أكثر ما أرى هذه الأيّام!

صوتُ ارتِطامٍ قويّ، صخرةٌ بقدر الهرم الأكبر حجمًا، تسقطُ من جبل المُقطّم، وتهوي مثل جِرمٍ مُخيفٍ من السّماء، وتتحطّم في الوادي أسفل القلعة، وتتشظّى إلى عددٍ لا يُحصَى من الشّظايا، والشّظايا تدخل البيوت، فلم يبقَ بيتٌ إلاّ دخلتْه شظيّةٌ أو اثنتَان، قمتُ فَزِعًا، أتفصّد عرقًا، أرتجف، شعرتُ بالبرد الشّديد، سال العرق باردًا على جبهتي، مسحتُه بطرفِ يدي، ونظرتُ من النّافذة، وهتفتُ: «حُلُم؟» سمعتُ صهيل الأبلق في الأسفل، إنّه حلمٌ إذًا، لكنّ الأبلق كان يصهل صهيلاً مُخيفًا هو الآخر، تمنّيتُ أنّ يسكت، فأنا لا ينقصني الرّعب الّذي يبثّه صوتُه في نفسي، أردتُ أنْ أصرخَ به: «كفى». ولكنّ الصّوت ذاب في حنجرتي، كأنّني فقدتُ القدرة على الكلام، جررتُ رِجلَيّ عن السّرير، ووضعتهما على الأرض، إنّ أمرًا ما يجري، ماذا يُمكن أنْ أفعل؟ هل أذهب إلى دُرّيّة لكي تُفسّر لي كلّ هذا؟ لماذا عليّ أنْ أذهبَ إليها في كلّ مرّة؟ هل هي عرّافتي أو طبيبتي؟ أنا الطّبيب هنا لا هي؟ لماذا أشعر أنّها تعرفُ كلّ شيء؟ لماذا تخطر ببالي كلّما وقعتْ مُصيبة أو جرتْ حادثةٌ غريبة؟ ردّدتُ في سِرّي بعضَ الآيات، ووقفتُ على قدَمَيّ، كدتُ أسقط، كان لا يزال الأبلق يصهل صهيلاً مجروحًا، كان تفكيري مُشوّشًا، قدّرتُ أنّ هذا الحلم نتيجةٌ طبيعيّة لدخولي إلى البرابي هذه اللّيلة، ولإرهاقي الشّديد، لا بُدّ أنّني عبرتُ موضعًا مُحرَّما، وتجاوزتُ حدّي، بعضُ الأماكن دخولها لعنة، والخروج منها لعنةٌ أكبر، تذكّرتُ ما قاله الرّسول الأعظم لعبد الله بن مسعود في حادثة الجنّ عندما خَطّ له في الأرض خَطًّا برجله الشّريفة، وقال له: «إيّاكَ أنْ تعدوه حتّى لا تحترقَ بهم». هل كنتُ أمام هولٍ كهذا وأنا لا أدري؟

وقفتُ أعلى الدّرجات، مددتُ الكوز المَعدِنيّ إلى الخابية، كانتْ مليئة بالماء هذه المرّة، شربتُ ماءً عذبًا أزاحَ عنّي بعضَ الخوف الّذي نشب في ضلوعي، نزلتُ إلى الطّابق الأرضيّ بعدَ أنْ شربت، كان الأبلق قد سمع صوتَ أقدامي فهدأ قليلاً، مسحتُ على عنقه، كانتْ عيناه على ضوء المشعل المركوز أمام باب الإسطبل تبدوان مُتّقدَتَين، كأنّهما جمرتان، ظللتُ أمسح على عنقه وأُحادثُه حتّى هدأ تمامًا، وحتّى خبت النّار الّتي كانتْ تشتعل في عينَيه، رَفَع عنقه إلى أعلى، سألتُه: «تريدُ الخروج؟». هزّ رأسه، كأنّما كان يريد ذلك، حللتُ رباطه، ووضعتُ عليه السّرج، وركبتُه، وخرجتُ، كانتْ شوارع القاهرة شبهَ خالية ليس فيها إلاّ النّزر اليسير من النّاس، بعضُ العائدين من سوق الشّمّاعين، ربّما أولئك الّذين يبحثون عن المُتعة ولا يجدونها إلاّ في آخر اللّيل، وبعضُ التُّجّار أو صِبيانهم، وبعضُ الزّعّار، وآخرون، كثيرةٌ هي المشاعل المُطفأة، وقليلةٌ هي الأقدام السّائرة إلى المساجد، كان بيننا وبين أذان الفجر ساعةٌ أو بعضُ ساعة.

لم أكنْ أدري في تلك اللّحظة ما أريد، ولم أكنْ أعرفُ إلى أينَ أسير بالأبلق، أو يسير هو بي، غير أنّنا بقينا ماضِيَين، دار في خلدي أنْ أذهب إلى الأهرامات، فلويتُ عنقَ الأبلقِ شرقًا، فمضى، لكنّه في عَدْوه السّريع توقّف، كأنّه لا يريدُ أنْ يستمرّ في الطّريق الذّاهبة إليها، أردتُ أنْ أسأله، لكنّني قبل أنْ أفعل، كان يمضي بنفسِه إلى القلعة، القلعة الّتي بناها صلاح الدّين ولم يسكنْها، كانتْ في ذلك العهد ما تزال غير مسكونةٍ مع أنّ أخاه العادل يَحكم الدّولة اليوم، لم يكنْ على أبوابها الكثيرة حرسٌ كثيرٌ، دخل الأبلق من أحد تلك الأبواب، وظلّ يصعد ساحاتها المرصوفة، ودرجاتها، حتّى وقفنْا على الزّاوية الّتي تُرى منها القاهرة بأكملها. بقيتُ فوقَ الأبلق، أنظر في البعيد نحو مساكن القاهرة وحدائقها وقصورها وشوارعها وأحيائها، كانتْ غارقةً في النّوم، مُنطفِئة حّى كأنّ المشاعل القليلة المتبقيّة في بعضِ أزقّتها تبدو مثلَ روحٍ

هاربةٍ من جسدٍ يُواجه الموت في لَحَظاته الأخيرة، نزلتُ عن الأبلق، وجلستُ على مصطبةٍ، وسرحتُ في البيوت النّائمة، والآفاق البعيدة، فجأةً رأيتُ الصّخرةَ إيّاها الّتي رأيتُها في المنام تهوي، رجفتُ، وقفتُ على قدمَيّ مذعورًا، لا يُمكن أنْ يكونَ هذا حُلُمًا، إنّني في صحوٍ، ليسَ في ذلك شَكّ، كانتِ الصّخرة لا تزال تهوي، وأنا أرجعُ دون أنْ أنظر إلى ما خلفي، فاصطدمتُ بالأبلق، فتأكّدتُ أنّني لا أحلم، فأخذتُ عنقه بين ذراعَيّ كمن يلوذ به ويحتمي، كانتِ الصّخرة قد سقطت على البيوت، وتناثرتْ قِطَعًا، فتهدمَ تحتَها كلّ شيءٍ، وتوزّعتْ تلك القِطَع الصّغيرة حتّى نقرتْ جدران البيوت البعيدة، وخُيّل إليّ من هيئتها أنّها طيورٌ تملأ السّماء، وأنّ بعضَها سيدخل في

عينَيّ، فاحتميتُ منها بالنّكوصِ إلى ظهر الأبلق، واختبأتُ خلفَه، كان لا يزال صوتُ الدّويّ يترجرج في أذني، عندما سمعتُ من مسجد القلعة المُؤذّن يُنادي لصلاة الفجر، فهدأ صوت الدّويّ، وانسحبَ لصالح الأذان، استدرتُ من خلفِ الأبلق، ونظرتُ شيئًا فشيئًا، وأنا أمدّ جزءًا من رأسي لأرى ما حدثَ للصّخرة، فما وجدتُ غيرَ أضواءٍ هزيلةٍ من المشاعل والقناديل، تتراقَصُ على ما تبقّى فيها من حياة، فهدأتُ، غير أنّ ذلك زادني خوفًا مِمّا يحدثُ لي، إنّني أرى ما ليسَ موجودًا، صمتُّ قليلاً قبل أنْ أسأل نفسي: ولماذا لا أكون أرى ما سيحدث؟ وخطرتْ ببالي زرقاء اليمامة في عصرنا؛ درّيّة، وتمنّيتُ على عادتي أنْ أقفَ بين يدَيها وأسْألها عمّا يجري، إنّها نائمةٌ بين القبور. نائمة؟ مَنْ يدري؟!

صلّيتُ في المسجد القريب، كان التّلاميذ ينتظرونني في مسجد الصّالحي في درس النّحو، (سعد) ابن البَقّال سيقرأ عليّ كتاب اللّمع لابن جنّي، وسيأخذُ فيه إجازة، وهذا يومُه، همزتُ الأبلق، وطرتُ به إلى مسجد الصّالحي لكي أدركَه والتّلاميذ، فلمّا دخلتُ كانوا لا يزالون على هيئتهم في انتِظاري بعدَ الصّلاة كأنّني كنتُ كل هذا الوقتَ بين أيديهم.

أنهيتُ الدّرس النّحويّ، وتفرّغتُ لسعد، وبدأتُ في اختِباره، وقرأ عليّ دِراستَه للكتاب، وأعطيتُه الإجازة في ذلك. كان الضّحى قد ارتفع، ولم يبقَ الكثير إلى صلاة الظّهر، شعرتُ بالتّعب، عُدتُ إلى البيت، في الطّريق رأيتُ عددًا لم أره من قبلُ من القِطَط يجوبُ الشّوارع بخُطا سريعةٍ، ورأيتُ كلابًا بأحجامٍ مختلفةٍ وألوانٍ عجيبةٍ تتّجه غربًا، كانتْ تركضُ وهي تدلق ألسنتها من بين أنيابها وتنبح نباحًا مُستمرًّا، فيما كانتْ أُذنا كلّ كلبٍ مُنتصبتَين فوقَ رأسِه كأنّها تُصغي إلى شيءٍ ما، ورأيتُ عجولاً تعبر الشّوارع وقد فكّتْ النّير الّذي حول رقبتها وراحتْ تهيم على وجهها، تساءلتُ من أين يُمكن أنْ تكونَ قد جاءتْ يا تُرى؟ لم يكنْ مألوفًا أنْ ترى عجولاً تسير على هذا النّحو في هذه المدينة؟! ثُمّ رأيتُ ما هو أعجب، كان ذلك قطيعًا من الأُتُن والحمير، وهي تتناهق، وتمضي مُسرعةً جهة الغرب، تساءلتُ عن سِرّ أنْ تمضي الحيوانات كلّها إلى تلك الجِهة، فلم تَخطرْ ببالي أيّة إجابة!!

شددتُ عِنان الأبلق لكي أُوقفه، فلم يُطِعْني بسهولة، عندما توقّف نظرتُ إلى السّماء لعلّني أرى فيها برقًا أو غيمًا أو شيئًا يدلّ على قربِ هطول مطر، لكنّني رأيتُ السّماء صافيةً، والرّيح شبه ساكنةٍ، وشمسُ الضّحى تتوهّج، ثُمّ عدلتُ عن فكرة الرّياح وخطّأتُ نفسي، هذا في غير أوانه؛ إذ لا يُمكن أنْ تُمطر السّماء في شهور الصّيف! لكنّ الغرابة ظلّتْ تنقر هدأة عقلي، مِمّ تهربُ هذه الحيوانات كلّها؟ ولكنْ هل تهربُ حَقًّا؟ بالطّبع، وإلاّ لما كانتْ تخرج من زرائبها وإسطبلاتها بهذا العدد. إذا كانت العجول تهرب من ظُلمِ أصحابها، فما بال القِطَط الّتي لا يملكها أحدٌ، كان صوتُ مُوائِها أشبه بالنّواح؛ هل القِطط تبكي؟!

حينَ لا تجدُ لأسئلتك إجاباتٍ، فإنّ أحسنَ شيءٍ تفعله، أنْ تتركها خلفَ ظهرك، وتحاول أنْ تُغلقَ الباب عليها تُصارعُ نفسَها حتّى تنتهي، ولا تفتحْه إلا على رَمادِها. همزتُ الحِصان، ومضيتُ باتّجاه البيت. أدخلتُ الأبلق إلى غرفته، وصعدتُ إلى غرفتي، وغطستُ في نومٍ عميق؛ يبدو أنّه أعمق مِمّا يجب!!

صحوتُ على جَلَبةٍ كبيرةٍ، وصياح شديد، وهيعةٍ أشدّ، كانت الأصواتُ عاليةً لدرجةِ أنّني لم أكنْ أسمع هِياج الأبلق الّذي كان يصهل هو الآخر، ويرفع قدَمَيه في الهواء عاليًا، ويكادُ يُحطّم كلّ شيءٍ من حوله، يبدو أنّه أفلتَ من عِقاله، وكسر الباب النّصفي الّذي أمام الإسطبل، وراحَ يصعدَ الدّرجات إليّ، هل كان يريدُ تحذيري مِمّا هو قادمٌ أو كائنٌ؟ هل كان يريدُ إنقاذي؟ كان صهيله على الدّرج قد باتَ مسموعًا وسطَ هذه الصّيحات، قمتُ من السّرير فَزعًا، ركضتُ إلى النّافذة، ألقيتُ من خلالها نظرةً سريعةً على الشّارع والنّاس فرأيتُ عَجَبًا، كان النّاسُ يتراكَضون في الشّوارع، يصدُم بعضُهم بعضًا، وهم يتصايحون.. نظرتُ إلى ظلّ الشّمس، كان الوقتُ قد اقتربَ من الزّوال، إنّه العصر أو قريبًا منه، فكّرتُ بالصّلاة، لكنّ صوتَ الأبلق الّذي يبدو أنّه أتمّ صعود الدّرجات كان قد صار أمام باب الغرفة، لم يتمكّن من الدّخول، فخرجتُ إليه، كان يرفع رأسه إلى الأعلى، ترشحُ عيناه رُعبًا، والأحمر الّذي في أطرافِ جفنَيه كان كأنّه يسيلُ دمًا، لم أدرِ ما يحدث، ولا ماذا أفعل، أحسنُ شيءٍ أنْ أخرج على ظهر الأبلق لأتأكّد مِمّا يجري في الخارج، لم ألبس أيّ ثِيابٍ غير تلك الّتي ألبسها للنّوم، ركبتُ الأبلق، وانبطحتُ على ظهره، وراحَ ينزل الدّرجات وأنا أتقلقل بجسدي الضّئيل النّحيل فوقه، كان رأسي حاسِرًا هو الآخَر، في أعلى الدّرج رأيتُ الخابية قد انكفأتْ على وجهها، وانكسر فمها! في السّاحة الأرضيّة رأيتُ بعضَ المشربيّات قد سقطتْ من الرّواقات الأربعة في الطّابق

الثّاني، البوابّة كانتْ مفتوحة، المزلاج مكسور، والحجر الّذي في وسط النّصف الأيمن من القوس الّتي تعلوه قد تزحزحَ من مكانه، الشّجرات الّتي في السّاحة قد نزلَ عليها بعضُ الرّكام من السّماء المفتوحة فوقها، كان هذا مدعاةً لمزيدٍ من الخوف، قبلَ أنْ أخرجَ من البّوابة الكبيرة على ظهر الأبلق، ثنيتُ عِنانه باتّجاه غُرفَ المكتبة، لا بُدّ أنْ ألقي نظرةً على أثمنِ ما أملك، من الباب رأيتُ الرّفوفَ قد انكسر بعضُها، وسقطتْ على الأرض بعضُ الكتب، تقدّمتُ قليلاً، ونظرتُ من باب الغرفة الثّانية، كانت الكتب قد تكوّمَ عددٌ كبيرٌ منها جرّاء السّقوط في أرضيّة الغرفة، خرجَ السّؤال من فمي دون أنْ أشعر: «ما الّذي يحدثُ يا دُرّيّة؟».

لويتُ عِنان الحِصان، وهمزتُه بخوفٍ وغضبٍ معًا، فطار بي، في الشّارع لم أستطعْ أنْ أعدو بالحِصان كما يحلو لي، رأيتُ الهِياج يملأ الشّارع، كاد الحِصان أنْ يوقع بعضَ الرّاكضين اللّاهثين، رأيتُ بعضَ النّاس يحملون بين أيديهم بعضَ الأمتعة، الصّحون، الطّعام، الثّياب، وأشياء أخرى لا يُمكن معرفتها وسط هذه الفوضى... ما الّذي يجري يا دُرّيّة؟ لا بُدّ أنّكِ أكثرُ مَنْ يعرف؟ ولكنْ ليستِ الوحيدةَ الّتي تعرف؟ أنا أعرفُ أيضًا؛ إنّه زلزالٌ شديدٌ، ضربَ كلّ هذا... نشر الزّلزال ذُعرًا كبيرًا بين النّاس، مشى في أفئدتهم فنقبَها، وفي أرجلهم فحرّكها في البحثِ عن نجاة.

توجّهتُ نحو باب زويلة، أريدُ أنْ أرى ما يحدثُ للنّاسِ في السّوق، كان النّاسُ يخرجون أفواجًا وهم يركضون رَكَضَ الحُمُر المُستنفِرة الّتي فرّتْ من قَسْورة، كان باب السّوق ينحشر بالهاربين، وهم يتخلّصون، ويتخبّطون، كان بعضُهم أقوى في الجسد من سِواه، فيزحمُ الأقوى الأضعف فيلقيه على الأرضِ، فتدوسُه الأقدام، و... يختنق، أو يموت، النّاس تُهرَعُ في كلّ اتّجاه، تهربُ إلى الحياة فِرارًا من الموت، الموتُ يختبئ في الهدم والرّدم، الزّلزال يهدم البيوت والأبنية والمساكن والدّور على النّاس، في السّوق لماذا تهرب النّاس؟ الحوانيت هي الّتي تداعتْ أمام ضربات الزّلزال فتقوّضتْ.

رأيتُ أصحاب الحوانيت والدّكاكين، يتركون بضاعتَهم ويهربون، يهربون دون أنْ يُفكّروا في إغلاق تلك الحوانيت، أو حماية ما فيها، رأيتُ صدقي اللّحام بشارِبَيه، يُمسِكُ ثِيابَه بإحدى يدَيه، ويركضُ، كان شارِباه يهتزّان تحت اهتزاز أقدامه المذعورة، ورأيتُ السّمّان الأحول يبذل جُهده في الرّكض، لكنّ كرشه تمنعه من الحركة السّريعة، وهو يُطيح بيديه يمينًا وشِمالاً، تُوقِعان في ذلك التّطويح كلّ مرّةٍ أحدًا، أو تلطمه على وجهه أو صدره... ورأيتُ الفاكِهانيّ وهو يُهرول هو الآخر خارجًا من الباب، ومن هنا بدتْ فاكهته الّتي تركها خلفه، وقد انقلبتْ بعضُ صناديقها وراحتْ تتدحرج بين الأقدام الكثيرة الّتي تهرسها تحتها. كان الأبلق، يصهل صهيلاً شجيًّا فيه صَحْلة وغِلظة وخوفٌ وذُعرٌ، وكانتْ قدماه لا تستطيعان الرّكض بحريّة، فيجرّ الأرضَ من تحتِ حافرَيه وهو يصيح كلّما اعترضَه شيء، ووجدتُ نفسي أعيدُ السّؤال من جديد:

«ما الّذي يحدثُ يا درّيّة؟». وسمعتُ صوتَها القديم هذه المرّة وهي تردّ: «إنّها البداية يا عبد اللّطيف... إنّها البداية يا مولانا...!!». ❞

❝ (٩)

نَحنُ نَتَساوى أمامَ الخَوف

«إنّ الجبل السّاقطَ يَنتثِر، والصّخر يُزَحزَحُ من مكانه. الحجارةُ تُبليها المياه وتجرُفُ سيولُها تُرابَ الأرض».

هربَ النّاسُ إلى السّاحات، كانتْ تلك الهزّة الّتي وقعتْ وقتَ الظّهر هي البداية لسلسلةٍ من الهَزّات، لم يعدْ أحدٌ يعدّها بعدَ أنْ كَثُرتْ ولا يدري متى تتوقّف، بدأ النّاس يتركون بيوتهم، لم يعدْ بيتٌ واحِدٌ آمِنًا على أهله، يبدو أنّ هذه الزّلزلة تمتدّ عبر أراضٍ شاسعة، ربّما تصل إلى بلدانٍ مُجاورة، حلب، ودمشق، والقدس، لستُ أدري إنْ كُنّا قريبين من مركزها في القاهرة، أو على محيط دائرتها، لكنّنا قطعًا لسنا في المركز، فلو كُنّا كذلك، لَمَا بقي من الدّور والقصور حجرٌ فوقَ حجر، ولن تسلم من ذلك إلاّ القبور، هذا إنْ سَلِمَتْ!

كانت البيوت ترجفُ، كأنّها قطعةٌ من ورقٍ يزحفُ فوقَ ورقةٍ أخرى، كانتْ قشرة الأرض صفائحَ تموج، ويموجُ فوقَها كلّ ما هو فوقَها من البشر والشّجر والحجر، ظلّ النّاس في البداية يأملون أنْ تهدأ زلزلةُ الظّهر، وقد هدأتْ بالفعل، بعدَ أنْ نشرتْ ذعرًا كبيرًا، ومع أنّ النّاس اطمأنّوا قليلاً حينما وجدوا الأرض قد ثبتتْ من تحتهم ولم تعدْ تتحرّك، إلاّ أنّ اطمِئنانهم ظلّ ناقِصًا، ظلّ مَشوبًا بالخوف الّذي يجرح تلك الطّمأنينة، وليس أقسى من طمأنينةٍ مجروحةٍ على قومٍ مُجرّبين، وقد ظلّوا يترقّبون أنْ تحدثَ هَزّة أخرى، كان التّرقّب في حدّ ذاته مُخيفًا أكثر من الهَزّة نفسِها، إنّه لا يُريحكَ أبدًا، فالنّاس من حَذَرِ الخوف في خوف، وظلّوا يُراوحون في أماكنهم، تدور أعينهم كالّذي يُغشَى عليه من الموت، ينظرون من طَرْفٍ خفيّ، ولا أحدَ يستطيع أنْ يتكلّم في الأمر، فإنّ عددًا منهم، ظنّ أنّ الحديث عن الكارثة يجلب الكارثة، وإذًا فليصمتوا عن أحاسيسهم الرّاجفة خيرٌ من أنْ يبوحوا بها، ومَنْ سكتَ سَلِم.

ويبدو أنّهم كانوا في تلك الأمور على حقّ، إذْ لم يكد المساء يهبط، والشّمس تسحبُ ذيولها على مآذن القاهرة، وتصبغ حُمرتها الواهنة على جدران أسواقها، وتُغادر ببطء، حتّى حدثتْ هَزّة جديدة، ويبدو أنّ الهزّات تتصاعدُ في حِدّتها مع كلّ مرّةٍ تنوي فيها أنْ تزورنا هنا، على الأقلّ في القاهرة، فلا ندري ما حلّ بالأرياف، ولا بالأنحاء، ولا بجنوبِ البِلاد أو شَمالها!!

ومن جديدٍ، برزتْ في خاطري دُرّية، وتساءلت: أينَ أنتِ يا درّيّة من كلّ هذا؟ وفكّرتُ أنْ أركبَ الأبلقَ إليها، لعلّني أجدُ عندها ما يُطفِئ ظمئي إلى ما يحدث، إنّها أكثر من مجرّد عرّافة، لا أدري ما تكون، وجهلي بما تكون عليه هو الّذي يجعل من ظُهورها في خاطري أمرًا محسومًا ومحتومًا.

رجّتِ الأرضُ، فصاح كلّ مَنْ في القاهرة صيحةً واحدةً، كأنّ لهم فمًا واحِدًا، وذعرًا واحِدًا، وحينَ كانت الأرضُ ترتجّ بصوتِ الزلازل، كان فَضاء القاهرة يرتجّ بصوتِ الضّارعين إلى الله... ثُمّ حينَ سكنَتْ ضراعاتُهم، ارتجّتِ الأرضِ من جديدٍ، وبدأ الهدم، فسقطتْ أوّل ما سقطت الشّرفات الممدودة في الطّوابق، ثُمّ سقطتْ حِجارة البيوت، ثُمّ سقطتْ الأعمدة في الشّوارع، ثُمّ توالت السّقَطَات، حتّى بدا أنّ كلّ حجرٍ مُقامٍ فوقَ حجرٍ فارقَ صاحبه، كان كلّ شيءٍ يميد، كأنّ البيوت رُكّبتْ على زِئبق، فهي تترجرج وتتلجلج، وكان كلّ عمودٍ يحمل المصابيح يتراقصُ كأنّه بهلوان، ثُمّ تنقصف رِجله أو رأسه فيسقط، وكان صوتُ السّقطات يُغطّي على كلّ صوتٍ، كان يبدو أنّ الأرضَ قد فُجّرتْ من أركانها، وكان اللّيل قد أتمّ هُبُوطه، فزادَ الظّلام من رعب النّاس، وانطفأتِ المشاعل الّتي في الأسواق بسبب تلك الرّجّات، فغرقتِ القاهرة في الظّلام، ولم يكنْ يُسمَع أعلى من صوتِ الرّدم... دُم... دُممم... دُم دُم... كلّ شيءٍ يتهاوَى، كانت الغَبَرة تُشكّل بعد كلّ سقوطِ بيتٍ أو بِناءٍ غيمةً كثيفةً في السّماء تعلو في الفضاء، وتتعاظَم، وهي تقذف ببعضِ الحجارة من باطِنها، هل الحجارة تحتَ الضّغط تتفجّر؟!

كان نشيج الأبلق لا يُطاق، اعتليتُه على وجه السّرعة وانطلقتُ، أردتُ أنْ أذهبَ إلى قرافة الشّافعيّ حيثُ دُرّيّة، أعرفُ عن الزّلازل أكبر منها بالطّبع، لكنّني وجدتُ نفسي أهربُ إليها، شيءٌ ما لديها لا يتعلّق بالعِلم يجعلني دائم التّفكير بها، مُنجذِبًا نحوها، في الطّريق كان الرّدم قد بدأ يُغطّي الشّوارع، ما زال الأبلق قادِرًا على أنْ يمرّ من بين الحجارة المتراكمة. بدأتُ أشاهدُ بعضَ الجرحى، كانوا يركضون إلى المصحّات، ويُهرولون إلى المساجد، البيمارستان بعيدٌ من هنا، عليهم أنْ يجدوا بعضَ المُسعفين في المَصَحّات القريبة، لم آخذ احتِياطاتي من المراهم والقِماش الأبيض، والجبائر، من أجلِ أنْ أُسعفَ بعضَهم، كان الذّهول يُسيطر على الجميع، علينا أنْ نعترف أنّ الإنسان خُلِقَ ضعيفًا، هَزّة واحدةٌ مثل هذه تُغيّر نظرته إلى الكون ألفَ سنة، وتُعيد تفكيره في كلّ شيءٍ، وتجعل مِمّا كان يتذمّر منه نِعمة، كم هاربٍ الآن يتمنّى لو أنّ هذا الكابوس

ينتهي؟!

في الشّارع الّذي أعبره على الأبلق، محاولاً ألاّ أسقطَ عنها ماضِيًا إلى القرافة رأيتُ أحدهم يركض خارجًا من البيت، سقطتْ عليه مشربيّة الشّرفة، فعرجَ أوّل الأمر وعرجتْ معه صرخته، ثُمّ سقطتْ عليه مشربيّة أخرى فوقع على الأرض، وقد ارتطم وجهه بالشّارع فتهشّم فَكّه، واختلطَ دمُه في فمه مع التّراب، زحفَ بما تبقّى له من حياة، ولكنّ مشربيّة ثالثةً سقطتْ مثل قدر محتومٍ وأخمدتْ حركته إلى الأبد. ركضتُ إليه، وأنا أُحاذر أن يقع عليّ مزيدٌ من المشربيّات، كانتْ عيناه جاحِظتَين، ويداه مَمدودتَين إلى الأمام، ورأسُه قد هُشّم بالكامل تحتَ الحجارة الثّقيلة حتّى سالَ دِماغُه على الأرض. خلعتُ رِدائي، وغطّيتُه به، كنتُ أودّ أنْ أحمله إلى أيّ مأوى من أجل ألاّ تبقى جُثّته في الشّارع، أيّ مأوى آمنٌ الآن؟! ثُمّ إنّ الرّدم لم يُمكّنّي من سَحبِه، كانَ ثُلثا جسده يرزح تحته!

كان الظّلام يسحبُ ثوبَه الثّقيل على كلّ شيءٍ، كان يتنافس مع الموت في عُلوقِه بالأحياء، كان عددٌ كبيرٌ منهم يحمل المشاعل المُضاءة ويهربُ باتّجاه السّاحات الفسيحة بعيدًا عن الأبنية المُتداعية والبيوت المُتهاوية. فَصّ أحد الجوامع الّتي مررتُ بها سقطَ أمامي، لم يكنْ بالإمكان التّفكير في الاستِعانة بالنّاس من أجل إعادته، بعضُ الأفكار تبدو في المصائب بلهاء، هناك ما هو أهمّ منها بكثيرٍ. مضيتُ في طريقي بين الرّجال المذعورين والنّساء والأطفال، والمشاعل المُضاءة والصّيحات ماضِيًا جهة الجنوب من القاهرة لأصل إلى القَرافة، كنتُ خائِفًا كالآخَرين، المعرفة وحدها لا تحمي من القلق، نحن نتساوى أمام الخوف، أولئك الّذين يعرفونه أويجهلونه أو يحملونه في قلوبهم أو يركلونه بأرجلهم، جميعُنا أمام الخوف سَواء، هل تراني أُجاهدُ للوصول إلى درّيّة من أجل أنْ أنشد عندها بعضَ الأمان؟! أفي هذه الظّروف؟! أيّ مجنونٍ أنا؟!

سمعتُ من خلفي صوتًا يصيح: «اخرجوا إلى السّاحات أو إلى الأرباض». كان الصّائح يركبُ حِصانًا أدهم، صوتُه ليسَ غريبًا، مَنْ يكون يا ترى؟ التفتُّ نَحوه، فإذا هو مُساعدي الطّبّيّ (سالم)، إنّه سيُصبح طبيبًا عمّا قريب، بينه وبين الدّرجة خطوةٌ واحدةٌ، لولا الهزّة العنيفة هذه لكان بين يدي صباح غدٍ أختبره من أجل أنْ يُصبح طبيبًا مُسعِفًا. صحتُ: «سالم!». انتبه إليّ، عرفني من ضآلة جسدي، لم يكن الظّلام ليُعينه على معرفتي لأوّل وهلة، صاح: «الأستاذ». ترجّل عن حِصانه، وقادَه خلفَه، وترجّلتُ عن حِصاني، واعتنقْتُه، شعرتُ برغبةٍ كبيرةٍ في البُكاء، معرفة أحدهم في وسط المُصيبة له قدرةٌ عجيبةٌ على التّخفيف من وطأتِها. هتفتُ: «ما الّذي جاءَ بك؟». ردّ: «الواجب». «الواجب؟». «علينا أنْ نُساعدَ هؤلاء النّاس، كثيرٌ منهم يحتاج إلى رعايةٍ، الجرحى بالمِئات يا سيّدي... ما العمل؟». قلتُ له: «ادعهم، أعني ما استطعتَ منهم أنْ يتجمّعوا في تلك السّاحة، إنّها الأبعد عن الأبنية، ولم يصلْها من الرّدم إلاّ قليلٌ من الشّظايا... الهَزّة الآن قد تقلّصتْ، وأعتقد أنّنا نقدر على أنْ نُساعدهم...». «على الفور يا سيّدي... ولكنْ ليسَ لدينا ما يلزم من الأدوات الطّبّيّة». «قليلٌ منها يكفي، إنّهم بحاجةٍ إلى كلماتنا نحن الأطبّاء في هذه الحالة أكثر من أدويتنا، إنّهم مصدومون من وَقْع الزّلزال أكثر من كونهم مُصابين» هَزّ رأسَه، وأردفتُ: «يُمكنني أنْ أذهب إلى البيمارستان وآتي ببعضِ الأدوية، أمّا أنتَ فاخترْ ثلاثةً أو أربعةً مِمّن تعرف ليُساعدوك إلى إرشاد النّاس إلى السّاحة... ساحة العزيز، تلك...» هَزّ رأسَه مُوافِقًا، فيما انطلقتُ أنا بأسرع ما يُمكنني إلى البيمارستان، لم يكفّ عقلي طَوال الطّريق عن التّفكير بدرّيّة وابنَيها، شَغَلاني حتّى كادا يصرفانني عن الذّهاب إلى البيمارستان، وثنيتُ عِنان الأبلق أكثر من مرّة تُجاه القرافة لكنّه كان يعرفُ الواجب أكثر منّي، فلم يُطعني، وظلّ ماضِيًا إلى البيمارستان كأنّه سمع الحديث الّذي دار بيننا، وحدّد وجهته فلم يَحِدْ عنها.

وصلتُ إلى البيمارستان، كان يضيقُ بالنّاس ويموج بهم عن بكرة أبيه، قبل أنْ أصله بمِئات الأذرع رأيتُ النّاس يقصدونه، عندما تبّينوا وجهي على بابه، تعلّق بي العَشَرات رَجاءَ أنْ أُداوي جرحاهم، تخلّصتُ من كلّ ذراعٍ تشبّثتْ بي، وطمأنْته بأنّني سأفعل أنا أو أحد الأطبّاء، وشققتُ الجموع حتّى وصلتُ إلى خِزانة الأدوية، مررتُ من بين الجموع، ودخلتُ الباب، كان القيّم عليها يعرفني، سألني إنْ كنتُ سأتولّى مهمّة عِلاج النّاس هنا، فسألتُه بدوري عن عدد الأطبّاء المُقيمين؟ فقال إنّهم عشرون, فقلتُ فيهم كِفاية، إذا كنتم تستغنون عن اثنَين أو ثلاثة ليذهبوا معي إلى ساحة العزيز، فإنّ فيها عددًا ينتظر من الجرحى، وبعضُهم جِراحُه غائرة.

ردّ إنّه لا يستطيع أنْ يُخاطبهم بذلك، وأنّ عليّ أنا أنْ أُخاطبَهم إنْ أردتُ، حملتُ ما استطعتُ من الأدوية، كانت الخِزانة فيها فائضٌ جيّد، وتخلّصتُ من النّاس بصعوبة، وكنتُ أقول: «إنّ الأطبّاء ينتظرونكم في الدّاخل»، ومضيتُ شاقًّا طريقي إلى السّاحة، كان يبدو أنّ القاهرة كلّها قد نفرتْ من بيوتها جَرّاء الزّلزلة، وتجمّعتْ في السّاحات، كلّ مجموعةٍ في السّاحة القريبة من حَيّها، ولا بُدّ أنّ في كلّ حيّ مَنْ يتعهّد أهله بالمُداواة من أطبّائه!

تلقّاني (سالم)، كان معه عددٌ من المُتطوّعين، هتف: «الوقتُ مهم يا سيّدي، إنّ بين نجاةِ أحدهم وموته لَحَظاتٍ، علينا أنْ نُسارِع». على وجه السّرعة علّمتُ أنا وسالم المتطوّعين أساليب المُداواة، وتنظيف الجروح، وتعقيمها، وكيفيّة إعطاء الجرحى الأدوية المُسكِّنة، وبدأنا العمل... كُنّا نعمل دون توقّف، كان بعضُ الجرحي يكتفي بالنّظرة، وبعضُهم بالمسح مرّة واحدةً على الجرح، إنّ للكلام تأثيرَ السّحر على مَنْ يسمعه إذا قيل في موضعه الصّحيح. كان مرضُ الرّعب هو أكثر ما أصاب هذه النّفوس المُلتاعة... قضينا الوقت كلّه في الطّبابة... عندما انتصفَ اللّيل بدأت القاهرة تستعيدُ أنفاسَها، كانت الزلزلة قد توقّفتْ منذُ زمنٍ، وكانت النّفوس قد هدأت، ومع أنّ الدّموع كانتْ تنسابُ على خدود أولئك الّذين جلسوا ساهمين، وهم يُفكّرون فيما حصل لأحبّائهم، أو لمُمتلكاتهم، إلاّ أنّ بعضَ الرّاحة من المصيبة يبدو نعمةً تستحقّ الشُّكر.

بات أهل القاهرة ليلتهم في السّاحات، كانتْ جماعاتٌ منهم تبكي، وأخرى تتوسّل، وثالثةٌ تصمت، ورابعةٌ تقوم بين يدي ربّها تدعو، رأيتُ جماعةً وقفوا في زاوية السّاحة يصلّون، ويمدّون أكفّ الضّراعة إلى ربّهم، عندما انتهَوا من الصلاة،

قامَ بينهم خطيب، قرأ سورة الزّلزلة، وكان أوّل ما قالَه بعدَها: «إنّ هذا عذابٌ من الله، وعلينا أنْ...» فقاطعتُه، وهتفتُ بصوتٍ عالٍ: «بل هي رحمةٌ من الله». وهاجَ النّاس بيني وبينه، فأخذتُه من ذِراعه وانتحيتُ به جانِبًا: «النّاس في هذه اللّحظات مُحتاجون إلى مَنْ يبثّ الطّمأنينة فيهم لا الخوف، ألا ترى أنّهم يكادون يقضون حتفهم من الرّعب الّذي عاينوه، هل ينقصهم أنْ يأتي واحدٌ مثلك فيُجهِزَ عليهم تمامًا؟!». "

" (١٠)

وماذا بعدُ؟!

عادَ النّاسُ إلى بيوتهم، المُصيبة لا تُرى وقتَ حدوثها، إنّها تكون في القلب، وعليك أنْ تصبر عليها قليلاً حتّى تخرج من هناك، فإذا خرجتْ ستراها بكامل أركانها؛ حينَ دخل النّاس بيوتهم صبيحةَ اليوم التّالي تبيّن لهم حجم المأساة، فقدوا أعزّ ما يملكون، ماتَ العَشَرات، ديوان مصر لم يُعلن عن الموتى حتّى الآن، الإحصاء يحتاج إلى وقت، من المُمكن أنْ يكون عددُ الموتى في القاهرة وحدها حيثُ سيكون إحصاءُ العدد أسهلَ من غيرها، أقول من الممكن أنْ يكون أكثر من مئة؛ هذا تقديرٌ أوّليّ، مَنْ يدري ما حدث فيما لم يطّلع عليه أحدٌ. بعضُ النّاس ماتوا دون أنْ يتمكّنوا من إطلاقِ صيحةٍ واحدةٍ، بعضُهم كان آخر ما رآه هو حائطُ البيت الّذي كان يجلس تحته وقد ماجَ كأنّه قِطعةُ خشبٍ بيضاء تحرّكها موجةُ ماء، ثُمّ جاءتْ موجةٌ عاتية فألقتْ بالجدار فوقَه، فسادَ الظّلام.

عندما دخلتُ البيت، وجدتُ الباب بسبب تصدّع حجارة البوّابة قد تكسّر ووقع على الأرض، ووجدتُ في الدّاخل أنّ عشرات من المشربيّات قد سقطتْ في السّاحة، وأنّها قد حطّمتْ الأشجار المغروسة فيها، وحزنتُ على شجرة البان، فلها عندي ذكريات غالية، غير أنّها لم تُدفَن تحت الرّدم، إلاّ أنّ ساقَها قد تكسّرتْ، هُرِعتُ أوّل الأمر إليها، إنّ ساق الشّجر مثل ساق البشر، يُمكن تجبيره، ويُمكن إعادة الحياة ليسري فيه الغِذاء، فيعود ليعيش من جديد، دفعتُ الجزء المنكسر الّذي كان يبدو راكِعًا على الأرض، وقد مسّتْ أوراقها وجذوعها من التّقصّف تراب السّاحة، جاهدتُ لأعيد هذا الجزء إلى مكانه، فلمّا فعلتُ، أتيتُ بجبارة من خشبٍ طولها ذراع، فوضعتها على امتداد السّاق المكسورة، ولففتُها بقِماشٍ، وشددتُها عليها، ثُمّ طليتُ السّاق ببعضِ دواء الأشجار لتحميه من النّزيف خارجه، ثُمّ سقيتُها بالماء حتّى ارتوت، ورجعتُ إلى الوراء خُطوتَين، وأنا أمسح العرق عن جبيني وأبتسم لإتمام المهمّة، وشعرتُ أنّها تبتسم هي الأخرى، كانت ابتِسامتها شذًا عبق في الأجواء فملأ أنفي برائحته، وهل هناك تعبيرٌ عن الشّكر أبلغ من العِطر؟!

كان الأبلق يُراقبني من الإسطبل وأنا أفعل هذا، فصهل، فتذكّرتُ أنّ مِعلفه هو الآخر قد انقلبَ على الأرض بسبب الهَزّة، فسارعتُ إلى إصلاحه، ثُمّ مضيتُ إلى غرفة التّخزين، فملأتُ دلوًا كبيرةً من الشّعير، وفردتُها في المِعلف، ومسحتُ على عنقه، وقلت: «هل تظنّ أنّني أهتمّ بشجرة البان وأنساك؟ أنتَ صديقي في هذه البلاد العجيبة، وليس لي سِواك!» فصهل، كانتْ هذه تعني شكرًا، أعرفُها، ويعرفُ أنّني أعرفها، فمسحتُ على عنقه ثانيةً، ثُمّ ملأتُ له جُرنَهُ بالماء ليشرب بعد أنْ يأكل، وخرجتُ من عنده أتفقّد بقيّة أنحاء البيت.

كانت الكتب في الغرفة الأولى قد غادرتْ رفوفها بالكامل تقريبًا، وتجمّعتْ في كومةٍ كبيرةٍ في منتصفها، جرّاء سقوطها من الجدران الأربعة على الأرض، الكَوْمة أعلى منّي، كان بعضُ الكتب قد انفتح وسقطَ على وجهه، وبعضُها على حَرفِه،

وبعضُها قد تمزّق جرّاء السّقطة، وعددٌ منها قد تشبّث بالأرفف ما استطاع فظلّ نصفُه عالِقًا بها، ونِصفه الآخر مُؤرجَحًا في الهواء، وكان بينه وبين السّقوط شَعرة، وهو ينتظر مَنْ يأتي لكي ينقذه من هذا التّهاوي المُميت، يُمسك بيدَيه بآخر ما تبقّى فيهما من قُوّة بالزّاوية الخشبيّة للرّف... كان منظر الكتب مُحزِنًا، يُقطّع القلب حسرة، إنّ للكتب أرواحًا، ولا بُدّ أنّ لها قلوبًا، وإنّني أتخيّلها ليلة أمس وهي تبكي كالبشر، وتخافُ مثلهم، وتموتُ تحتَ الرّدم كما يموتون، وتنظر في عيون الآخرين من إخوانها لعلّها تجدُ عندهم عونًا على ما هي فيه، فتقول لها كلّ عينٍ: «إنّنا في الهَمّ يا أُختاه سَواء، إنّ ما يُشجيكِ يُشجيني، وإنّني مثلك لا حول لي ولا قُوّة!

قضيتُ نهار ذلك اليوم وأنا أنظّف الكتب، وأمسح جِراحها، وأُزيل عن وجوهها الغَبَرة والقَتَرة، وعن بطونها الحجارة، وأُقبّل كلّ كتابٍ بعد أنْ أُعالِجه، وأضعه على رأسي، ثُمّ أعيده إلى مكانه، كان عليّ أنْ أهتمّ بالكتب أكثر من أيّ شيءٍ سِواها، إنّها امتِدادي، وهي أنا، وفيها منّي أشياء وأشياء، وأجدُ لديها نفسي، وإنّ ما يُؤذيها يُؤذيني، ولذلك كان عليّ في البداية أنْ أعتني بكلّ ما يُزيل عن قلبي الهَمّ... كان كلّ كتابٍ يشكرني بعدَ كلّ اهتِمامٍ به وتطبيبه، يُمكنكَ أنْ تعرفَ ذلك إذا كنتَ تعرفُ الكتب، معرفة الكتب غير رؤيتها، غير معرفة عناوينها، غير الإمساكِ بها والنّظر إلى ألوانها، غير التبّجّح بعددها أو بقيمتها المادّيّة، معرفةُ الكتب تُعادل معرفتك بنفسِك، إذا كانتْ لديك الجرأة لتقولَ إنّك تعرفُ نفسكَ جيّدًا، فمعنى ذلك أنّكَ تعرفُ الكتب جيّدًا، وهذا يتطلّب أنْ تسكنَ قلبَك، أنْ تجول في عقلك، أنْ ترى العبارة الّتي غيّرتْ خليّة فاسدة في عقلك فأبدلتْ بها خليّةً صالحة، كما تراك، إذا كانت الكتب تُساويك، فانظر كم هي روحك غاليةٌ عليك، وكم تُقدّمها على كلّ ما عداها!

بعدَ ليلتَين، تمّ إعادة كلّ شيءٍ في الغرفتَين إلى ما كانتا عليه، من ترتيبٍ وتنضيدٍ ونظافةٍ، وأُصلِحَ كلّ مكسور، وأعيدَ كلّ مفقود، وأُنضِر كلّ باهت، وأُرجعت البسمة إلى شفاه الكُتب الشّاحبة.

في عصر اليوم الثّاني أعلنَ ديوان مصر أنّ الّذين ماتوا بسبب الزّلزلة الكبيرة هو مئة وثلاثة وخمسون نَفْسًا. أُقيمتْ لهم الجنائز اللّائقة، وصلّى المَلِك على مجموعةٍ منهم في المسجد الجامع في الأزهر، ومَنَحهم لقبَ شُهداء، ثُمّ أنعمَ على أهلهم براتبٍ شهريّ جَرّاء موتهم في هذه المحنة.

عادَ النّاس إلى أسواقهم وإلى شؤونهم، كأنّ أمر الزّلزلة مع كلّ ما فيها من الأهوال قد نُسِي، هل هي قدرة الإنسان على النّسيان؟ أم قدرته على التّعايش؟ أم كِلاهما؟ عادَ الصّخبُ واللّغطُ في الأسواق، والصّياح على البضائع، والمُساوَمة على الأثمان، وعادَ صوتُ باعة الوَرد، وعادتْ معه جَلَسات الأنس في شوارع القفيصات، وأصلح النّاس ما فسد من حياتهم أو مِزاجهم، الحارات نُظّفت، الرّدم أُزيل، الحجارة المُتساقِطة أُعيدتْ إلى أماكنها أو جُلِبتْ حجارة جديدةٌ تستطيع الصّمود أكثر، القطط عادتْ تموء، والكلاب رجعتْ تنبح، والموتى دُفِنوا، والبضاعة عادتْ تتدفّق إلى القاهرة من الشّمال عبر بحر الإسكندريّة، وراح النّاس يَصفِقُون في كلّ اتّجاه، ورجع القُضاة إلى مجالسهم يَقضون بين النّاس، والأمراء إلى كراسيهم، والملوك إلى أَسِرّتهم، والسّلاطين إلى صولجاناتهم، كأنّ ما مرّ لم يكنْ غير حُلُمٍ عابرٍ لا يستحقّ التّوقّف عنده كثيرًا، وكأنّها قرصةٌ واحدةٌ ليس منها سِواها، وليس هناك ما بعدها!! هل هذا هو الإنسان؟!

في سوق الشّمّاعين عادت البغايا إلى أعمالهنّ، عددُ الزّبائن قد زادَ بعدَ المُصيبة على غير المتوقّع! يبدو أنّ النّاس تغوصُ في الشّهوات أوقاتَ المصائب لتنسى، آخرون ينسون بطريقتهم؛ يجدون في اللّجوء إلى الله عَزاءً، إنّها أنفُس، وإنّ شيئًا ما في قلوبها يُحرّكها، مَنْ يلوم القلب؟!

الحجارةُ والتّراب والغَبَرةُ والدّم والموتى وقِطَعُ اللّحم والكسورُ والآهات وصَرَخات المذعورين وصيحات الثّكالى وأنين المفقودين... كلّها كُنِستْ من الشّوارع، ليعود إلى وجه الشّوارع جمالُها، ليس للإنسان وقتٌ كبير ليتذكّر بؤسَه، إنّه خُلِق ليفرّ منه لا ليفرّ إليه!

تابعتُ تدريسي في مسجد الصّالحيّ، عددُ طلبتي زاد هو الآخَر، إنّهم الصّنف الثّاني من النّاس، النّاس أجناس، وعدد الّذين طلبوا أنْ أعطيهم إجازةً في النّحو أو اللّغة زاد، وعددُ الأطبّاء المُساعِدين الّذين سيتحوّلون إلى أطبّاء مُسعفين زاد، سالم تخرّج، وثلاثةٌ آخرون خلال الأسبوعين اللّذين تَلَيا الهَزّة العنيفة أُعطوا الإجازة كذلك. الحياة بكلّ ما فيها من تَوافُقات وتَناقُضات تسير.

لم تظهرْ درّيّة، غِيابُها يُقلقني، تمنّيتُ لو أنّها لم تُعلّمْني الطّبخ، وبقيتْ تزورني كلّ يومٍ مع طبختها لأشتري ذلك منها، أنا محتاجٌ إلى الجلوسِ معها، لقد مرّتْ أيّامٌ لم يمرّ عليّ مثلُها بعد ما حدث، لا أدري إنْ كان قد مرّ عليها هي مثلها من قبلُ، مَنْ يدري ما تُخبّئ هذه المرأة؟ قد تكون عاينتْ أحداثًا يشيبُ لها رأس الوليد؟ إنّها خابية حكايا! قرّرتُ – على عادتي في الاستسلام لِنداء القلب - أنْ أذهب إليها، أحسنُ وقتٍ حتّى أجدها في القرافة هو الصّباح الباكر جِدّا، قبل أنْ تذهب إلى أيّ شأنٍ، صلّيتُ الفجر في الصّالحيّ، ودعوتُ الأبلق إليّ، واعتليتُه، ومضيتُ إلى تربة الشّافعيّ، الدّرجات الهابِطات لم يتغيّرْن، المكان كلّه كان كما تركتُه آخر مرّة كأنّه لم يُمسّ، تراءتْ لي صورة ماريّة وهي تغسل رأس أخيها في البسطة، ولكنّني لم أرها هناك، ربّما لم يستيقظوا بعدُ! طرقتُ الباب، جاءني صوتُها العميق: «مَنْ؟». كان الصّوتُ يكتسبُ وجهًا، إنّه وجهُها، لا يحضرُ صوتُها إلاّ ويَحضرُ وجهُها معه، حينَ فتحت الباب وهي تعقد شالَها بالطّريقة إيّاها على رأسِها، قالتْ: «هل تشربُ شيئًا؟». «جِئتُ لتدلّيني على قبر موسى بن عمران». ضحكتْ: «ليسَ هذا وقتَه، إنّكَ تريدُ أنْ تعرفَ ماذا سيحلّ بمصر وبالبِلاد كلّها بعد ما حدث». أنغضتُ رأسي موافِقًا: «صحيح». ردّت وهي تجلبُ إلى البسطةِ كرسيَّين وتجلس على أحدهما، وتدعوني للجلوس على الآخَر: «قلتُ لك، إنّها البداية، لكنّكَ لا تريدُ أنْ تُصدّقني، ولا أدري لماذا عليّ أنْ أخبر في كلّ مرّةٍ أولئك البُلهاء الّذين يشكّون فيما أقول، ولا يُصدّقون ما يَسمعون». فرددتُ وأنا مُنزعجٌ، ومشتاقٌ في الوقت نفسه لأسمع الإجابة: «وماذا بعدُ؟!». ❞

❝ القِسم الرّابع

الطّاعُون

وَإذا المَنِيَّةُ أَنشَبَت أَظفارَها

أَلفَيتَ كُلَّ تَميمَةٍ لا تَنفَعُ

لا بُدَّ مِن تَلَفٍ مُقيمٍ فَانتَظِرْ

أَبِأَرضِ قَومِكَ أَم بِأُخرى المَصرَعُ

كَم مِن جَميعِ الشَملِ مُلتَئِمِ الهَوى

باتوا بِعَيشٍ ناعِمٍ فَتَصَدَّعوا

فَلَئِن بِهِم فَجَعَ الزَمانُ وَرَيبُهُ

إنّي بِأَهلِ مَوَدَّتي لَمُفَجَّعُ

(أبو ذؤيب الهُذليّ) ❞

❝ (١)

مَنْ فَرّ عن نِيرانها

مرّ شهرٌ أو شهران، مَنْ يريدُ أنْ يتذكّر اليوم الّذي مات فيه أكثر من مئة نَفْسٍ؟ من الأفضل نِسيان حوادث الماضي من أجل الاستِمرار في الحياة، سيكون صعبًا دون النّسيان أنْ تسير حياة الإنسان بشكلٍ طبيعيّ، لكنّ النّسيان نفسه لا ينسى، فيعودُ إليكَ بوجوه جديدة، ربّما يغيّر الزّمان، ولربّما المكان، ولربّما الوجه، لكنّه لا يُغّير الأثر، الأثر عميقٌ جدًّا هذه المرّة!

كنتُ في مسجد الصّالحي ظهر الأربعاء الثّالثة من شهر شعبان لسنة ٥٩٧ هجريّة، كنتُ في درس النّحو، ولديّ مستويان للتّدريس، ينضمّ الصّغار الّذين لا تزيدُ أعمارهم عن عشرةِ أعوام إلى المستوى الأوّل، ويأخذون مبادئ في النّحو، يدرسون في هذا المستوى موجزًا لكتاب سيبويه، في المستوى الثّاني المُتقدّم يكون المجلس يضمّ مَنْ هم فوقَ العاشرة ودون السّادسة عشرة، على هؤلاء أنْ يأخذوا إجازةً في النّحو، النّحو بعدَ السّادسة عشرة يصبح عصيًّا، عليكَ أنْ تأخذ الإجازة فيه قبل هذه السّنّ.

كنتُ أُدرّس المستوى الأوّل، وكان في حلقتي حوالي عشرين صبيًّا دون العاشرة، بعضهم في الخامسة أو السّادسة، بعثَ به أبوه مُستمِعًا، ولربّما كان يقضي الوقت وهو يتكلّم أو يقفز من مكانٍ إلى مكان، وعليه فإنّني كنتُ أشتري سُكوتَهم ببعضِ الحلوى، أو أسمح لهم باللّعب في باحة المسجد. كان الموضع الّذي نأخذ فيه درسَ النّحو بِناءً صغيرًا مُلحَقًا بالمسجد، من الجهة الشّماليّة الغربيّة المُقابلة للقِبلة، وكان سقفه من الحجارة المسنودة بخشب الجُمّيز القويّ، كان الصّبيان يجلسون في دائرةٍ حولي، وكلّ صبيّ أمامه قرطاسُه موضوعًا على مِسندٍ خشبيّ يُمكّنه من بسط القرطاس، وكتابة ما يشاء على هامِشه، وكان مربط الأبلق على المدخل، ومن هنا إذا نظرتَ إليه من موضعي، رأيتَ بَياضه يملأ فراغ الباب، وكنتُ أختلسُ النّظر إليه من حينٍ إلى آخر. كنّا مأخوذين بما نقرأ، ولا أدري ما الّذي أزعجه في تلك اللّحظة حتّى بدأ يصهل صهيلاً عالِيًا، وراح يحفر في الأرض، ومن هنا رأيتُ منخرَيه ينفتحان وينغلقان بسرعة، كان هذا مُزعِجًا بالنّسبة لي، كان صوتُه إذا صهل أو حفر في الأرض أو رفع أقدامه عالِيًا واستند على كِفلَيه أعلى من صوتِ أيّ قارِئ من هؤلاء الصّغار، وكان هذا يمنعني من السّماع، وطلبتُ من الصّبيان أنْ ينتظروني قليلاً، خرجتُ إليه ومسحتُ على عنقه، وقلت: «أرجوك، ليس الآن، لدينا درس، وعليك أنْ تصون حُرمة العِلم» كنتُ أقفُ عن يساره حين رأيتُه ينظر إليّ من طرف عينِيه دون أنْ يحني عنقه، كانتا تبدوان مرعوبتَين، سألتُه: «لِمَ أنتَ خائف؟ نحن في بيت الله، مَنْ يخافُ هنا؟». لكنّه راحَ يحفر في الأرض بشكلٍ أكبر، سألتُه: «هل أنتَ جائع؟ اصبرْ قليلاً، في البيت الكثير من الطّعام». لكنّ ضَبْح فمه كان مسموعًا ومرئيًا. «أووووه...» هتفتُ: «لقد ضجرتُ منك، لم يكنْ ينقصني سِوى أنْ تنضمّ أنتَ إلى الصّبيان الّذين في الخامسة من المُزعِجين... هل أنتَ عَطِش؟ سأسقيك من ماء المسجد، لكنْ أرجوك، اهدأ حتّى أنهي الدّرس». أتيتُه بالماء من خابية المسجد، وضعتُه له في سطل، وراحَتْ شفتاه تعبّان منه بسرعة، كأنّه لم يشربْ منذُ دهر. تركتُه وعدتُ للحلقة، كان الأولاد يلفّون جذوعهم وهم في أماكنهم يُراقبونني ويضحكون، قلتُ حينَ صرتُ فوقَ رؤوسهم: «لا بأس، إنّه حصان مُدلّل». لم يقولوا شيئًا، غير أنّ ضحكاتِ بعضهم سُمِعتْ وهي تخرج محبوسةٍ من تحت أسنانهم.

جلستُ في موضعي، وطلبتُ من الصّبيّ الّذي حان دوره أنْ يقرأ عليّ من الكتاب. فقال: «وزعموا أنّ بعضهم قرأ: (ولاتَ حينُ مَناص) وهي قليلة، كما قال بعضُهم في قول سعدِ بن مالك القيسيّ:

مَنْ فرّ عن نيرانِها

فأنا ابنُ قيسٍ لا بَراحُ»

إذْ ذاك، شعرتُ بأنّ الأرضَ تتحرّك من تحتنا، وأنّ المساند الخشبيّة بدأتْ تهتزّ، وكانت أوراق القراطيس تتحرّك كأجنحة باشقٍ يهمّ بالطّيران، وعرفتُ أنّ زلزالاً سيقع، وكان عليّ أنْ أُنقِذ الأولاد، وبدؤوا هم يشعرون بالخوف، ونظرتُ إلى الباب، وإليهم، لأعرفَ الطّريقة الأسرع للهرب، وصحتُ: «إلى الباب... هَيّا...ةَ...» لم أُكمل الجملة، كان السّقف يهوي دفعةً واحدةً، الأبعد عن الباب دُفِنوا تحته للتّو، الأقرب نجا نِصفُهم، وأنا تمكّنتُ من النّجاة، ستّةٌ من الصّبيان، واثنان اللّذان كانا يلعبان في السّاحة، هم الّذين لم يموتوا، الآخرون، لم تُسمَع لهم صيحة، عدتُ، كان السّقف ما يزال ينهار، تجمّعتْ أمامي كومةٌ من الرُّكام، حاولتُ أنْ أجتازها، صعدتُ فوقَها، هوى حجرٌ على رأسي فأفقدني توازني، تمايلتُ، نزَّ بعضُ الدّم من عنقي، وضعتُ كفّي على الجرح، تماسكت، نظرتُ إلى موضع الرّدم حيثُ الأطفال، فلم أرَ طفلاً واحِدًا، كانوا قد دُفِنوا بأجسادهم الصّغيرة تحته، خرجتُ ورأسي تسيلُ دمًا، كان الأبلق قد اهتاج في السّاحة، والصّغار يبكون ويصيحون من الذّعر، لم أدر ما أفعل، ضممتُ الصّبيان إلى صدري واحِدًا واحِدًا، وبكيتُ أمامهم كطفلٍ،

ما الّذي يجري بحقّ السّماء؟ ليس للسّؤال من إجابة إلاّ أنْ تكون مزيدًا من الرَّجَفات، كان الزلزال لا يزال مُستمرًّا، سارعتُ إلى إخراج الأطفال الثّمانية النّاجِين، ولم أدرِ كيفَ سأُخبِر أهل الّذين ماتوا، كان على أهلهم أنْ يأتوا ليُعيدوهم إلى بيوتهم بعدَ انتهاء وقت الدّرس، فكّرتُ في أن أنتظر حتّى يأتوا، ونظلّ أنا والصّبيان والأبلق في السّاحة المفتوحة بعيدًا عن البناء، ريثما يأتون، «هذا أفضلُ حلّ» قلتُ بيني وبين نفسي، حاولتُ أنْ أعودَ إلى الرّدم فأجد حَيّا أو ناجِيًا من الّذين خرّ عليهم السّقف، لكنّ السقف كان لا يزال يتهدّم، والرّكام يتعالَى، وإذا كانت الفرصة في نجاتهم أوّل ما وقع الرّدم فوقَهم ضئيلة، فإنّها الآن بعد أنْ خرّ السّقفُ بأكمله ونصفُ الجدران فوقَهم ستكون معدومة، حتّى قراطيسهم دُفِنتْ معهم، لم يظهر إلاّ قِرطاسٌ واحدٌ، هو قِرطاس الصّبيّ الّذي كان يقرأ لحظة وقوع الزّلزال، يبدو أنّه قذفه من يده دون أنْ يدري بسبب الهول، كان القِرطاس مفتوحًا عندَ قوله: «مَنْ فَرّ عن نيرانها» ويبدو أنّه هو والآخرون من زملائه لم يستطيعوا الفِرار. مسحتُ جُرحي، نظّفتُه بالماء، شققتُ شيئًا من عمامتي، ولففتُه به، جرحٌ سطحيّ، لن يكون خطيرًا.

كان الزّلزال لا يزال يجعل الأرض كلّها تتحرّك، من الباب من هنا، رأيتُ جموعًا تفرّ كأنّها تُساقُ إلى المحشر، كانوا لا يعرفون إلى أين يفرّون، يركضون إلى لا جهة، ويفرّون من الزّلزال خوفَ الموت، والزّلزال مع الموت يبرز لهم في كلّ زاوية، كلّما هربوا منه وجدوه أمامهم.

مرّ وقتٌ بطيءٌ ثقيلٌ وأنا أنتظر أهل الطّلبة النّاجين أو الموتى أنْ يأتوا لكي يعودوا بأبنائهم أو ما تبقّى منهم، ولكنْ مع طول الانتِظار لم يأتِ أحدٌ، وكانوا لا يزالون يترقّبون مثلي بروز أحدٍ من ذويهم، وينظرون في الفارّين بحثًا عن وجهٍ يعرفونه، ولكنْ دون جدوى، وقدّرتُ أنّ أهلهم إمّا أنْ يكونوا قد ماتوا، أو ماتَ المُوكّلون بإحضارهم، أو أنّهم فَقَدوا صوابهم من هول الموقف فنسوا أبناءهم، أو أنّهم حُبِسوا في أماكنهم، ومن يحبسه الرّدم الآن فلن يُخرجه أحدٌ. ثُمّ حلّ وقتُ العصر، ومالت الشّمس وهي تنظر ما يحلّ بالأرض جهة الغرب، ولم يأتوا، وأنا في مكاني، قد حرتُ، وضِقتُ بما يحدث، فقرّرتُ أنْ آخذ الأولاد إلى أقربِ موضعٍ للإيواء. لا بُدّ أنّه في مثل هذه الظّروف تتشكّل مواضع إيواءٍ في السّاحات المفتوحة، وفي أفنية المساجد، وفي أبهاءِ البيمارستانات. بالفعل، أخبرتُهم بما نويتُ أنْ أفعله، وأمّنتُ النّاجين منهم في أحدِ هذه المراكز، وتعجّبتُ أنّه لم يسأل أحدٌ عنهم ألبتّة!!

ركبتُ الأبلق، واحترتُ إلى أينَ أمضي؛ البيت؟ ربّما أفضلُ خيار، لا تزال الشّمس موجودةً في السّماء، ويُمكن أنْ أرى ما يحدثُ في البيت، كانت الأرضُ تنشقُّ من تحت أقدام الأبلق، الشّارع الّذي يفصل بين المسجد والبيت تفسّخ من المنتصف، شَقّ طوليّ عَبَره من أوّله إلى آخره بسرعة الماء المنساب في المنحدر، سقطتْ فيه أقدام الأبلق، عرج، صهل، أزبدتْ شفتاه، مال شِقُّه، حُشِرتْ ساقُه، كادتْ تنكسر، نزلتُ عنه، ساعدتُه، أمسكتُ بقدمه، أزلتُ عنها قِطَعًا من الحجارة المُتشقّقة، وبصعوبةٍ بالغةٍ حرّرتُ قدمَه، صهل يشكرني، «نحن صديقان» همستُ في أذنه بصوتٍ لاهث، ركبتُه بقفزةٍ واحدة، وانطلقتُ إلى البيت، كان أثر الزّلزال هذه المرة أقوى بكثيرٍ من مرّته السّابقة، البّوابة انهارتْ بالكامل، هل يُمكن أنْ يتعرّض البيتُ للّصوص، صار سهلاً على أيّ أحدٍ أنْ يدخله وينهبَ ما فيه، ولكنْ هل يُمكن أنْ يجدَ ما يريدُ تحت الرّدم، في زمن الفوضى لا يحكمُ أحدٌ أحدًا، الفوضى هي المَلِكة المُتوّجة الّتي تحكم الجميع. دخلتُ بالأبلق رغم تراكم بعضِ الحجارة والقِطع تحت البوّابة، إنّ أمرًا ما سماويًّا يحدث، نحن في زمن الملك العادل، فلماذا يحدثُ كلّ هذا، دخلتُ بالأبلق إلى السّاحة، شجرةُ البان سلمتْ من الكسر أو الموت هذه المرّة أيضًا، فرِحتُ شيئًا ما، ارتسمتْ ابتِسامة شاحبةٌ على زاوية فمي، المشربيات كلّها سقطتْ مع أجزاء كبيرة من الدّرابزين، هل يمكنني الصّعود إلى أعلى؟ الدّرجات مُمتلِئة بما تهدّم، لكنْ يمكن القفز فوق الرّكام... مضيتُ، أشعلتُ المشعل الأوّل، أردتُ أنْ أجلسَ هنا وقتَ الغروب، وأشاهدَ كلّ شيءٍ، منظر الدّمار الّذي يحدثُ لك، أو فيك، قد تكون مُشاهدته مُمتعةً بعدَ أنْ يتمّ، أشعلتُ عشرة مشاعل على محيط السّاحة، ثُمّ صعدتُ إلى غرفتي، ليس فيها شيءٌ في مكانه، الأشياء تكوّم بعضُها فوقَ بعض، لم أكترثْ كثيرًا، لا أدري لماذا أصابتْني البلادة وأنا أرى هذا كلّه؟! ربّما لأنّ بقائي على قيد الحياة نعمةٌ تُزري بكلّ مُصيبة... أشعلتُ عشرة مشاعل في الرّواقات الأربعة في الطّابق الثّاني، وهبطتُ مُسرعًا إلى الأبلق، مسحتُ على عنقه: «هل أكلتَ جيِّدًا؟».

هَزّ رأسه، كانتْ تعني: «نعم»، همستُ: «أشعرُ برغبةٍ عارمةٍ في البكاء... البكاء على كلّ شيء... ولكنْ هل يُمكن أنْ نستعيضَ عن ذلك بالخروج من هنا... هيّا... هيّا يا صديقي». وركبتُه ومضيت. ❞

❝ (٢)

إنّه الله

هربَ النّاسُ من بيوتهم خارجَ القاهرة، مضوا في الشِّعاب المُوصِلة إلى الشّام، وآخرون اتّجهوا جنوبًا، وقسمٌ ثالثٌ لاذَ بالأرياف حيثُ لا تكون الأبنية العالية سببًا رئيسًا في الموت، الزّلزال لا يهدم تراب الحقول، وعليه فقد كان الفلاّحون وجواميسهم هم الأكثر حَظًّا في هذه الكارثة.

امتلأت بوّابات القاهرة كلّها بالنّاس الهاربين إلى النّواحي البعيدة، سرى بينهم كلامٌ كثير، قالَ بعضُهم: «عقابٌ من الله». قال آخرون: «نحن نستحقّ لأنّنا قبلنا بهذا الظّلم». ردّ عليه ثالث: «كما تكونوا يُولَّ عليكم». سأل رابع: «إنّها الطّبيعة؟». قال الخامس: «وتصنع ما تشاء». قال السّادس: «إنّه الله». وارتفعَ صوتٌ شَجِيّ من فوقِ مئذنةٍ في تلك اللّحظة: «الله أكبر».

إلى أينَ يهربُ النّاس؟ الأرضُ كلّها تتزلزل. الزّلزال يسكتُ لحظات كأنّه يزدردُ لقمةً كبيرة، ثُمّ يعودُ إلى الحركة، أحيانًا يضحك الزّلزال فتسمع صوتَ الرّدم والحجارة والحديد والصّفائح تُردّد صدى ضَحِكته، نحن نبكي يا الله؛ إنّنا نعوذ بك من غضبك. مَنْ يُفسّر لماذا كل هذا الغضب؟ أين فقهاء الأمّة ليقولوا لنا سبب ما يحصل، وكيفَ نردّه عنّا؟ إنّه لا سبب، الأرض تحرّكت، أرادتْ أنْ تتنفّس ففتحتْ فمها، فسقط فيه كلّ هؤلاء الأحياء، أرادتْ أنْ تتمطّى ففردتْ ذراعَيها، فابتلعتْ كلّ هؤلاء البشر، وأرادتْ أنْ تمدّ ساقَيها حتّى لا تتخدّرا فركلتْ إلى وادي الموت كلّ هذه الجموع الهاربة. إنّه الموت، والموت لا يُفسّره أحدٌ!!

قال أحدُ القوم: «إنّ بغايا سوق الشّمّاعين هنّ السّبب؛ لم يتّعظوا من الهَزّة الأولى فعاقَبَنا الله بسوء صنيعهم». ردّ عليه جاره: «دفعتْهم لقمة العيش، إنّهم أشرفُ من كثيرٍ من التّجّار الجَشِعين؛ هؤلاء التّجّار هم السّبب». قال ثالث: «لولا القاضي المُرتشي الّذي سمح بفتح سوق البغايا، ولم يردع التُّجّار الجَشِعين لما حدث ما حدث؛ القُضاة هم السّبب». قال الرّابع وهو يضحك ملء شدقَيه: «مَنْ عيّن القُضاة أيّها الفهيم؟ إنّه المَلِك؛ المَلِك هو السّبب». قال الخامس: «اخرسوا، أنتم السّبب، أنتم رضيتم بهم، لولا رِضاكم لما تجرّؤوا أنْ يُعيّنوا القُضاة المُرتشين، ويغضّوا الطَّرْفَ عن التُّجّار الجَشِعين، ولا أنْ يفتحوا بيننا المواخير». قال السّادس: «فلتُطامنوا من أصواتكم أيّها المُتفذلِكون، كلّنا السّبب، في داخل كلّ واحدٍ منّا بغيّ طاهرة، وتاجر جَشِع، ومَلِكٌ ظالم، وقاضٍ مُرتشٍ».

الزّلزال لا يتوقّف إلاّ ليأخذ استراحةَ المحارب، إنّه يستمرّ كما لو كان في سِباقٍ مع الموت، أيّهما يصل قبل الآخَر إلى أرواحِ البشر، ولكنّ الزّلزال والموت ليسا شيئين مُختلفَين، هل هما كذلك؟ بالطّبع، هما مختلفان، الزّلزال يُشيع الفوضى

والموت يكنس، الزّلزال يهدم فوق الأجساد والموت يرسم على الوجوه، الزّلزال يتقدّم والموت يتبع، الزّلزال يقتل والموت يعدّ، الزّلزال يضحك والموت يعبس، بالمختصر، الزلزال سبب والموت نتيجة، إنّه مقدّمة والموت خاتمة.

طرتُ إلى الأهرامات، كانت الشّمس قد احمرّ قرصُها خجلاً وبدأتْ تتوارى في الأفق البعيد، والنّاس تنشعبُ في كلّ اتّجاه، وتهرب في كلّ طريق، وتصرخ، وتبكي، وتسترجع، وتنهار، وتكثرث، وتتبلّد، وتفعل كلّ شيءٍ لا يُتوقّع، ما الّذي أخرجَ النّاس من بيوتهم؟! ما الّذي يُطاردهم فيهربون منه على هذه الهيئة، إنّه الخوف الّذي يركضُ وراءهم فيسوقهم كالأنعام الضّالّة، وليس الموت، الموت يلاقيهم من أمامهم في هربهم هذا، وإذًا فما الحل؟ التّحكّم في الخوف وحده في هذه الظّروف يُمكن أنْ يُنقِذ الإنسان، ولكنْ هل يستطيع؟!

مررتُ في طريقي إلى الأهرامات على مُنشأة القاضي الفاضل، كانتْ قد تهدّمتْ، وصعدت النّيران من ساحاتها وأبنيتها، كان الشّجر يحترق، رأيتُ ألسنة اللّهب تزحفُ على القصر، كأنّه وحشٌ يلحسُ بلسانه الأسطوريّ كلّ شيءٍ يجده في طريقه، ثُمّ يقوم بالتِهامه، وصلتِ النّيران إلى السّماء، لا أدري ما الّذي أشعل النّيران؟ لا بُدّ أنّها المشاعل الّتي سقطتْ فأحدثتْ كلّ هذا، وإذا امتدّ الحريق عبر أرضٍ مُهيّأةٍ له فإنّه لن يتوقّف حتّى يأتي على كلّ شيءٍ، ماذا حدثَ للمكتبة يا تُرى؟! هل تنجو من هذا؟ إنّ فيها أكثر من مئة ألفِ مُجلّد، أمعقولٌ أنّ النيران ستأكلها هكذا ببساطة؟ يا لَلكارثة! فكّرتُ أنْ أدخل وسط هذا اللّهب لأرى، كان قلبي يتمزّق، خفتُ أنْ يتمزّق أكثرَ إذا شاهد تلك الكتب وهي تموت أمامه، لكنْ لا بدّ من المحاولة؟ كان ذلك جنونًا؟ الجنون في الجوائح لا يعودُ له معنى!!

كنتُ أقف على بُعدِ ثلاثمئة ذراع، كان النّاس يخرجون من المُنشأة، الخدم والجواري والعبيد وآخرون، يهربون من البوّابة الكبيرة، يبحثون عن حياةٍ يبدو الإبقاء عليها صعبًا، كان القاضي الفاضل قد مات قبل ما يقربُ من عام، رَحمةُ الله على روحك يا سيّدي، لو بقيتَ إلى هذا الزّمن لتمنّيتَ الموت على أنْ ترى كلّ ما عشتَ من أجله يحترق أمام عينيك، كيفَ ينتهي ما

جَمَعه الإنسان عبر خمسين عامًا في لحظةٍ واحدة!

فكّرتُ في أنْ أبحثَ عن غُلامِه (شريف)، لا بُدّ أنّه في الدّاخل، إنّه يتدبّر أمره، ولكنّه ربّما يحتاج إلى مُساعدةٍ من أجل إيقاف هذا الحريق، لكنْ مَنْ يستطيع أنْ يفعل؛ أينَ ديوان مصر؟ إنّ في مصر حرائق في كلّ مكان تحتاج إلى ألفِ ديوانٍ من أجل أنْ يُجابهوها، لقد طغى الموتُ وطَمّ.

قلتُ في نفسي: «سأحاول». ثنيتُ عِنان الحِصان، ومضيتُ إلى البوّابة، إنّ عبورها ممكن، لكنّني ما إنِ اقتربتُ قليلاً حتّى شعرتُ بحرّ النّار يلفح وجهي، لقد وصل حَرّها إلى هنا، كيفَ تكون جهنّم إذًا؟ شعرتُ أنّ وجهي ووجه الأبلق سيُشوَيان في لَحظة، صهل الأبلق، ورفعَ قوائمه الأماميّة عالِيًا، وراح يُدير قدمَيه في الفراغ، رَبَّتُّ على عنقه: «اهدَأ». كان الظّلام قد بدأ يحلّ، وكانت النّيران ما تزال تجعل من اللّيل نَهارًا، في قلبي ألفُ غُصّة، تخيّلتُ منظر الكتب وهي تستغيث تحت وطأة النّيران وتبكي وتسيل بُطونها ولا تجد مُغِيثًا، لويتُ عِنان الأبلق، صارتِ المُنشأة المُحترقة خلفي، كانتْ ألفُ طعنةٍ تنشبُ في ظهري.

مضيتُ إلى الأهرامات، الطّريق الّتي كُنّا نقطعها أنا والأبلق على جناح الرّيح، صارتْ في الوحل والطّين، فَزَعُ النّاس، أمواجهم المُتدافِعة، الانهيارات، الخسف، الرّكام... كلّ ذلك أعاق طريقَنا، كنتُ أهربُ مثلهم، ولم أكنْ أدري إلى أين مثلهم كذلك، لكنّني على الأقلّ حدّدتُ وجهتي، الأهرامات. خطرتْ ببالي دُرّيّة؟ أكثر من ألفِ مرّة، لكنّ وجهي لم يعدْ فيه ماء، ولم أعدْ قادِرًا على التّحجّج بأيّ حُجّة، إضافةً إلى أنّني إنْ ذهبتُ فعَلَيّ أنْ آخذَ معي بعضَ الطّعام والشّراب والمال، وهذا مُتعذَّر الآن، ثُمّ مَنْ يدري ماذا حصل لها ولابنَيها؟!

وصلتُ إلى الأهرامات وقد هبط اللّيل تمامًا، بعضُ المساجد نادتْ لأذان العشاء الآخرة، بعضُها تهدّم، بعضُها مات مؤذّنوها، وبعضُها كانتْ تبكي مثلما يبكي النّاس على ما ترى.

مِن هنا، مِن مُحيط الهرم الأكبر أرسلتُ نظرةً إلى القاهرة، كان يبدو أنّ جحيمًا قد حاقَ بها، كانت ألسنة النّيران تصعد في السّماء، أدخنة كثيفة، نيرانٌ تتراقصُ فوقَ الأبنية، كانت القاهرة تحترق، القاهرة كلّها في جوف النّار، النّاس تركوا القاهرة وكلّ ما لهم من متاعٍ فيها، وهربوا إلى كلّ مكان. هنا حولي عددٌ كبيرٌ من النّاس، لجأ إلى ساحات الأهرامات، كانت الشّائعات قد بدأتْ تنتشر بينهم، قال أحدهم لمن كان في جِواره، كنتُ أسمعه: «انظر الهرم ينهار». نظرتُ معهما، لم يكنْ يبدو أنّه قد تأثّر، لكنّ القائل فَزِع، أخذ بيد جاره، وقال له: «انظر من هذه الزّاوية، إنّه يقفُ على حرفِه... إنّه مائل... سوفَ يقع علينا!!» كان صوتُه يرشحُ بالرّعب، عندما أكمل عبارته الأخيرة، هرب مُبتعِدًا، وتَبِعه جارُه، تراجعتُ إلى الوراء، ثُمّ انزويتُ إلى اليسار قليلاً، ونظرتُ من الزّاوية الّتي كان يُشير إليها، فهلعتُ، كان الهرم الأكبر بالفعل يقفُ على ضلعه الّذي جهة الشّرق، وكان يبدو مائلاً يتماثل للسّقوط، شهقتُ، وركضتُ هارِبًا، ثُمّ قلتُ في نفسي: «لقد سُحِرت، كيفَ يُمكن أنْ يحدث هذا؟! لا بُدّ أنّ الخوف يُريك ما لا يمكن أنْ يحدث، إنّه الوهم، العقل يتصوّر ما يخاف، والخوفُ في مثل هذه الحالة أسهل الطّرق إلى الجنون». نفضتُ رأسي، وعدتُ أنظر من الزّاوية إيّاها، فرأيتُه بالِفعل يقف على الحرف، حاولتُ أنْ أحافظَ على هدوئي وأركّز، النّاس كلّها مُشوّشة، وأنا واحدٌ منهم، فكّرتُ: «ماذا لو انهار الهرم بالفعل، وتدحرجتْ حِجارتُه العِملاقة من عَلٍ؛ ماذا سيحلّ بمصر؟ سوفَ تنهرسُ تحته كأنّها بَيضةٌ سُحِقتْ بأقدام عِملاق!». ❝

❞ (٣)

مِصرُ الشّهيدة

بِتُّ – مثل كثيرين - تلك الليلة في فِناء الأهرامات. كثيرون لم يناموا، رُسُلُ الأخبار قالوا ما لا يُقال في تلك اللّيلة. حدثَ خسفٌ فابتلع قريةً بأكملها، للزلزال آثارٌ مُدمّرة، الخسوف الّتي تكوّنتْ في القاطع الشّماليّ ابتلعتْ أبنيةً بالكامل في جوفِها بكلّ ما فيها من بشرٍ، لم يعدْ مُمكِنًا إنقاذُ الكثيرين، ولم يعدْ كذلك بالإمكان إحصاء الضّحايا، ربّما علينا أنْ ننتظر أسبوعًا أو اثنين بعد أنْ يهدأ الزّلزال لنرى حجم الحاقّة التّي حَقَّتْ بمصر وأهلها.

كانت الأفواه تتناقل أخبارًا لا تكادُ تُصدّق، كثيرون ظنّوا أنّه يوم القيامة، وأنّ هذه النّار الّتي تأكل القاهرة هي النّار الّتي تكون في آخر الزّمان، تخرج من بحر حضرموت تسوق النّاس إلى المحشر، وكانوا يعتقدون أنّ النّجاة تكون في الشّام، ولهذا خرجَ كثيرٌ من أهل مِصر إلى الشّام، منذُ الزلزلة الأولى وهم يخرجون تِباعًا وأفواجًا إلى الشّام، يلوذون بها من غضب السّماء. من هنا يُمكن رؤية التِماع النّار على حجارة الهرم، صُفرةُ قويّة تضرب إلى الحمرة، تُضيء كلّ حجرٍ، حتّى لتكاد ترى النّملة الّتي تدبّ عليه.

من هنا يُمكنك أنْ تتخّيل أنّ القاهرة تموج بالنّاس الهاربين في الشّوارع، كنتَ تسمعُ أصواتًا بشريّة مُرعِبة، كما يُمكنك أنْ تسمع أصواتَ الحيوانات والدّوابّ، تفرّ هي الأخرى من هذا الجحيم، القاهرة تخلو من كلّ حَيٍّ فيها، ما بالُ المَلِك والأُمراء وكِبار الأعيان والقادة والجُند والتّجّار وأهل المال؟! لم يبقَ منهم أحدٌ، النّار لا تميّز أحدًا، ولا تأنف عن ذي كُمٍّ طويل!

رأيتُ كثيرين هنا يضرعون إلى الله، جلابيبُهم سقطتْ عن أكتافهم وهم يمدّون أيديهم إلى السّماء، رؤوسهم مُلقاةٌ على صدورهم في خشوعٍ تامّ، جذوعهم تهتزّ لطول بُكائهم وتوسّلهم، رأيتُ آخرين يُمرّغون جِباههم في توسّلهم بالتّراب، بعضُهم سجدَ على الأرض، والأرض تتقلقلُ من تحتِ جبهته، ولم يقمْ من تلك السّجدة، كان يريدُ أنْ يموتَ ساجِدًا، يريدُ أنْ يلقى الله على هذه الشّاكلة.

لم تهدأ الحرائق طَوال اللّيل، كان يُمكن رؤية كثيرٍ منها بوضوحٍ من هنا، لم تكنْ ألعابًا، هكذا يتصوّر الخَيال، ما كان لمشهدٍ مثل هذا أنْ يحدث لولا أنّ أمرًا فوقَ طاقة التّصوّر يحدث؛ هل يُمكن أنْ ترى الجنّة تتحوّل إلى جحيم، حاضرة الكون، وأمّ الدُّنيا، ومَهوى الأفئدة، كلّ ذلك يُساقُ إلى النّار بهذه البساطة!!

استمرّتِ الخسوف، هكذا تقول الأفواه الّتي تنقل الأخبار، وانحَسر الماء من بحر الإسكندريّة، ونزلَ النّاس ليتلقطوا ما فيه من سمكٍ من الجوع، ثُمّ عاد فجأة وهم فيه فابتلع المِئات منهم في موجةٍ واحدة. النّاس تسمع طرفَ الخبر وتزيدُ عليه، الرّعب الّذي في القلوب ينسجُ حكاياتٍ غريبةً وعجيبة، بعضُها لا يُصدّق، قد تكونُ حقيقيّة، ولكنّ الحقيقة تختلطُ بألفِ شائبة، لِسان الرّعب يزيدُ في الرّواية، الوُعّاظ الجُدُد، حتّى من أولئك الّذين لم يركعوا لله مرّة واحدةً في حياتهم زادوا، تحوّلوا إلى فُقهاء ومشايخ وأصحاب تقوى، الإنسان الضّعيف يلوذ بالقويّ، لم يكنْ قويًّا يومئذٍ إلاّ الله، ولذلك لجأ إليه البَرّ والفاجر، والجاهل والعالِم، والصّغير والكبير، لجأ إليه كل أحد.

تعطّلتِ الحياة في مصر، استمرّ الحريق فيها شهرًا كامِلاً، لم تعد البِلاد معروفة، لم يعدْ لها وجه، النّاس لم تعدْ تعرفُ إلى أينَ تعود، بدا أنّ الحياة تحتاجُ إلى عامٍ كاملٍ من أجل أنْ تعود كما كانت، كانت الأدخنة من أثر الحرائق في الأمكنة العامّة ما زالتْ تتصاعد رغم مرور أكثر من شهرٍ على بدايتها، نقصَ بسبب النّزوح إلى الشّام نصفُ سُكّان القاهرة وحدها، ربّما هو أكثر من ذلك، ليس لدينا إحصاءٌ دقيق، ديوان مصر تعطّل هو الآخَر، لا يستطيع أنْ يقوم بمهمّته، عددٌ كبير من العاملين فيه هاجروا إلى الشّام شرقًا أو إلى ليبيا غربًا، أكثر منهم ماتوا تحت الرّدم أو في الحريق، كانت الجثث خلال هذا الشّهر لا تزال تحتَ الرُّكام، كثيرٌ منها تفسّخ أو تحلّل أوتعفّن، الجُثث الّتي أتى عليها الحريق كانت أحسنَ حَظًّا من تلك الّتي دُفِنَتْ تحت الرّكام، الأولى لن تتعفّن مثل الثّانية. بدأ النّاس يتفقّدون أحبابَهم، ومَنْ مات منهم، يبدو أنّ المصيبة أكبر من البُكاء، والحُزنَ أكبر من العُيون، استمرّت الفِرق المُتطوّعة، وتلك الّتي ظلّتْ من أهل ديوان مصر تقوم بجمع الجُثث، عددٌ من الأطبّاء ترأّسَ لِجان تجميع الجُثث، لم يكنْ هناك أطبّاء بالعدد الكافي لكي يقوموا على رأسِ كلّ فريقٍ يجمعُ ضحاياه، لم يكنْ سهلاً كذلك العثور على هذه الجُثث، فمَنْ يُمكِنه أنْ يتنبّأ بمكانها؟ بحثتِ الفِرق تحت كلّ كومةٍ من الرّدم، هذه أمكنة يُتوقّع أنْ يكون تحتها ضحايا، ولكنْ مع ذلك التّوقّع الّذي هو في مكانه، فإنّ عددًا كبيرًا منها لم يكنْ مُمكِنًا إخراجُه بسهولة، من بين أنقاض الحرائق كذلك يُمكن أنْ تعثر على جثث، ربّما في البيوت تجد بعضَ تلك الجُثث،

لكنّ غير المتوقّع أنْ تجد الجُثث في الجوامع والبرابي والصّوامع والحدائق، كانت الحدائق بعيدة، ومن الصّعب كذلك الذّهاب إليها وانتشال الجُثث المُتفحِّمة أو المُتفسِّخة فيها وحَمْلُها أو جَرّها إلى مكانٍ واحدٍ، ولذلك هناك عددٌ لا يُمكن معرفته من هذه الجثث ظلّ مكانه، وإذْ ظلّ مكانه فإنّ رائحته مع الرّيح بدأتْ تهبّ على القاهرة، كانتْ رائحةَ الموت، مَنْ يستطيع أنْ يصمدَ أمام رائحةٍ كهذه؟! كانت نفّاذة إلى الحدّ أنّها يُمكن إذا دخلتْ إلى الأنف دوّختْ صاحِبها وأسقطتْه على الأرض، عبرتِ الرّائحة الكريهة كلّ حيّ، وسكنتْ في كلّ بيتٍ، وعشّشتْ في جذوع كلّ شجرةٍ، كانتْ تزكم الأنوف، لم تسترح القاهرة منها لا في نهارٍ ولا في ليلٍ، كان قد مرّ على بدء تفشّي الرّائحة أكثر من عشرة أيّام، وظلّتْ قويّة كأنّها تفوح الآن، وبرزتْ لمواجهتها ألفُ فكرة، وُطبّقتْ جميعُها ولكنّها لم تُفِدْ بشيءٍ، وبدا أنّ ما تبقّى في القاهرة من الأحياء يستعدّون لنوعٍ جديدٍ من الموت، إنّه الموتُ بالرّائحة!!

الحريق الّذي لم يرحم الموتى، آثارُه لا ترحم الأحياء، تراكمتْ طبقةٌ من السّناج الأسود على كلّ شيءٍ، على الجدران الّتي ظلّتْ صامدة، على الطّرقات، على مآذن الجوامع، على الأرصفة، على المصاطب، على القُفيصات، على كلّ شيءٍ... حتّى تراكمتْ على القلوب، فلمْ تعدْ ترى فَمًا مُبتسِمًا، وبات الشّحوب يظهر في القَسَمات، وبدا أنّ الخوفَ من موتٍ جديدٍ يُخيّم على الوجوه، فيمنعها من أنْ تشعر بأنّها ما تزال حيّة! كان يُمكن أنْ تمرّ بشجرةٍ سلمتْ من الرّدم أو الحرق، فلا ترى فيها اللّون الأخضر أبدًا، فإذا أخذتَ ورقةً من أوراقها ومسحتَها بأصابعك تحاتّتْ في يدك طبقةٌ سميكة من السّناج الأسود، حتّى ليكاد إذا هَبّتْ ريحٌ خفيفةٌ أنْ يملأكَ بالسّواد في لحظة، فيغيّر لونك، فلا تعود إذا نظرتَ في المرآة تعرفك!

ثُمّ بدأ عهد الجنائز، كانت المصحّات والبيمارستانات تُخرّج آلاف الجُثث، صلّى المَلِك على أوّل مئةٍ منها، لا أدري كيف اختاروها لتحظى بصلاة المَلِك نفسه، إنّها بَرَكةُ السّماء، ثُمّ دُفِنَتْ في القرافة الجديدة، كلّ جُثّة في قبر، وكان ذلك غاية ما تريدُ لو خُيّرتْ وهي حَيّة، ثُمّ صلّى الأئمّة على ألفٍ في اليوم التّالي، فدفنوا في المقبرة، من الصّباح إلى المساء، كلّ ثلاثةٍ في قبر، ثُمّ لم يعدْ أحدٌ يجدُ مَنْ يُصلّي على ضحاياه، ولا مَنْ يدفنها، فدُفِنتْ في أرضِها، بعضِ النّاس حفروا الحُفَر في جنائنهم، أو أمام بيوتهم، وألقَوا فيها جُثث أقربائهم، وأهالوا عليها التّراب، كان هذا أحسنَ حَظًّا من ذلك الّذي لم يجدْ له قبرًا، أو دُفِنَ في مقبرةٍ جماعيّة بظاهر البلد، أو في سفح الهرم، أو في الأرياف، كان الموتُ يسخر من كلّ حَيّ؛ قَهَرَ بقدرة خالقِه كلّ جَبّار!

بعضُ الخسف ولّد حُفرًا كبيرة، احتاج النّاس إلى شهورٍ لردمها من أجل أنْ تُعبَر، بعضهم تحاشاها، لكنّ نوعًا من الخسف لم يكنْ مُمكِنًا تحاشيه، ذلك الّذي نجمتْ عنه عيونٌ حَمِئة، وخاصّة في المناطق الأكثر انخِفاضًا جهة الفسطاط القديمة، إذ كوّن الخسف بُحيراتٍ حارّة لا يدري أحدٌ من أين امتلأتْ بالماء، ربّما طبقات الأرض العميقة السّاخنة هي الّتي أخرجتْها، بعضُها كان يغلي، لو وقع فيها بشريٌّ لذاب لحمُه عن عظمه في لَحَظات، النّاس القريبون من تلك العيون الحَمِئة غادروا بيوتهم، الّذين لا يجدون أمكنةً أخرى لكي يُغادروا إليها، راحوا بمعاونة آخرين يُهيلون فيها الرّكام والتّراب وما أتتْ عليه الحرائق حتّى استطاعوا بعدَ مُدّة أنْ يردموها بالكامل، من أجل أنْ يستأنفوا حياتهم أو ما تبقّى منها.

مرّ ثلاثةُ أشهر على الحريق الكبير، ما زالتْ رائحة الجُثث تزكم الأنوف وتملأ فضاء القاهرة والبِلاد كلّها، التّعايش مع الموت ليس صعبًا كما يُظَنّ، قدرة الإنسان على ذلك عجيبة، نِداء الحياة في أعماقه أقوى من أيّ نِداءٍ آخَر، لكنّ المشكلة ليستْ في التّكيّف مع الرّائحة واعتبارها شيئًا عاديًّا، المُشكلة في تَبِعات هذه الرّائحة، لقد جرّتْ معها موتًا من نوعٍ جديد، ربّما تحتاج أقوى العقول إلى فترةٍ طويلةٍ من أجل أنْ تفهمه، أو تفهم كيفَ تشكّل!!

اليوم بعد مرور كلّ هذا الوقت، يُمكن أنْ نُفكّر بعدد ضحايا الكارثة الأخيرة، إنّهم أكثر من مِئتَيْ ألفٍ، بدا ذلك الرّقم مئة وثلاث وخمسون رقمًا ساذجًا، أبله، بدا أضحوكة أمام ضحايا الزّلزال الأعظم... بدا تكريم المَلِك لهم ضربًا من الهَذَيان... إنّ فكرة التّكريم نفسَها لا يُمكن أنْ تكون واردة، ولنفرضْ أنّه فعل، وأنّه أراد أنْ يُجري لأُسَرِهم رواتبَ شُهداءَ، فإنّه سيضطرّ إلى أنْ يصرف كلّ ما في خزينة الدّولة، وما في خزائن الدّول الصّديقة المُجاوِرة من أجل أنْ يدفع لهؤلاء الشّهداء رواتبهم، إذ لم يخلُ بيتٌ واحدٌ من شهيد، كان يُمكن أنْ تُسمّى مصر حينَها: مصر الشّهيدة. ❞

❝ (٤)

روائحُ المَوت

وعادَ إلى القاهرة مَنْ خرجَ منها، بعدَ أنْ مشى النّسيان في البيوت، أو بعد أنْ تناسَى النّاس، وأيقنوا أنّ دَفْعَ عجلة الحياة إلى الأمام مع ما أصابَها من خرابٍ خيرٌ من الإبقاء عليها واقفةً في مكانها تنهشُها جوارحُ الفضاء!

كان النّاس يكتشفون الجُثث يوميًّا، كانت الرّائحة تدلّ عليهم في البداية، ثُم تعوّد النّاس على الرائحة فصارتْ تدلّهم الكلاب، ثُمّ لم تعدِ الكلاب تفعل، فصارت تدلّهم العِظام البشريّة الّتي يعثرون بها في سَيرهم، أو تَعثُر بها أقدامُ دوابّهم.

لم تأتِ درّيّة لتعرفَ ما حلّ بي! ربّما عليّ أنا أنْ أذهبَ إليها، لم أستطعْ أنْ أفعلَ الكثير في البيت بعد كلّ هذا، كان الحريقُ قد أكل كُثُبي، المشاعل الّتي أوقدتُها قبل أنْ أخرج إلى الأهرامات في ذلك اليوم البعيد سقطتْ بفِعل الزلزلة، بعضُها انطفأ، وبعضُها وجدَ في سُقوطِه ما يزدادُ به اشتِعالاً، مرّ على هذا شهران، وما زلتُ أرى السّناج يُغطّي حوافّ النّوافذ، وزوايا الأروقة، وما تبقّى من الدّرابزين، شهران وأنا مع بعض الخدم نُنظّف ما حاقَ بالبيت، ولم نتمكّنْ من ذلك على الوجه الصّحيح، القاهرة كلّها سقطتْ على الثّرى بعدَ الحريق، فمن يستطيع أنْ يُنظّف رَمادَها؟ ومَنْ يستطيع أنْ يُنهِضَها من سَقطتها؟!

لم أستطعْ أنْ أنام في اللّيالي الأولى للكارثة في البيت، فضّلتُ أن أنام في باحة جامع الصّالحيّ، لكنْ فِكرة أنْ تنام قريبًا من جُثث الصّبيان الّذي قَضَوا تحت الرّدم مُرعِبة، كنتُ أتخيّل أنْ بعضَهم ما زال حَيًّا، ماذا لو كان يرى من تحت الأنقاض ومن بين تلك الشّقوق الفَضاء، يُغالبُ الحجارة الثّقيلة والسّقف الّذي يجثم على صَدْرِه، وتختنق أنفاسُه في صَدْره يريدُ أنْ يُطلِق صرخة استِغاثةٍ ولكنّه لا يستطيع، إنّه يرى بعينَيه موتَه، كان مجرّد تخيّلي لذلك يُصيبني بالرّعدة، كان ذلك يدعوني إلى أنْ أقوم في وسط اللّيل من الفِناء، أذهب إلى ذلك المُلحَق المُهدّم، وأقوم بمحاولات يائِسة للبحثِ عن ناجين، لكنّه كان جنونًا؟ إلى اليوم لم يأتِ أحدٌ ليسأل عنهم، أو يقول: «هل رأيتَ ابني؟!».

بعد مرور بضعة أشهر، كانت الأسواق قد شحّتْ من البضائع، لم يعدْ ميناء الإسكندريّة قادِرًا على رَفْدِ البِلاد بالطّعام، عددٌ كبيرٌ من الّذين يعملون في الأسواق ماتوا أو تركوا مصر إلى الشّام، فأُغلِقتْ نصفُ المحلاّت في معظم الأسواق، وبدأ الجوع يزحفُ على المدينة، كان لا بُدّ لديوان مصر، ومَلِكها والقائمين عليها أنْ يُؤمّنوا الطّعام من موانِئ الشّرق، لكنّ

الشّرق كان هو الآخَر يُعاني من آثار زلازله، فتأخّر الطّعام، الفلاّحون الّذين بَقوا على قيد الحياة، لديهم أراضٍ شاسِعة ليزرعوها، لكنّها أكبر من طاقتهم، فلقد فقدوا كثيرًا من الأيدي العامِلة.

قلّتْ تبعًا لذلك النّظافة في الشّوارع، كثيرٌ من الرّدم لم يتمكّن أحدٌ من إزالته، وكثيرٌ من الماء الّذي تجمّع في الخسوف هنا وهناك لم يستطعْ أحدٌ أنْ يُهيل فوقَه ترابًا أوصخورًا حتّى لا يأسَن، بدأتْ تتشكّل المُستنقَعات في الخسوف، وصارتْ هذه المُستنقَعات مراكز للأمراض، صار الماء الآسن فيها محضنًا لكلّ الحشرات والجراثيم والدُّوَيبيّات، ولم يعد النّاس يكترثون لكلّ ما يرونه في الشّوارع من ردمٍ، فصارت الشّوارع مرتعًا للكلاب الضّالّة، وانتشرتِ الأوساخُ في كلّ مكان، وبرزتْ جُثثٌ جديدةٌ هنا وهناك فركّبتْ إلى روائح المُستنقَعات والأسبخة والأوساخ رائحةً جديدةً، وكانت هذه الرّائحة النّفّاثة القاتلة بوّابةً لِما سيأتي بعدَها.

مكتبتي احترقتْ في اللّيلة الّتي قضيتُها في ساحة الأهرامات، احترقتْ بالكامل، ألفا مُجلّدٍ من أنفسِ المُجلّدات، جمعتُها عبر رحلتي الطّويلة في العِلم، بعضُها حملتُه معي من بغداد، والقدس، وعَكّا، وصُور، والمَوْصِل، وحواضر أخرى... كلّه احترق، بقي من الألفين حوالي عشرين كِتابًا، الأثمن من مكتبتي التهمتْه النّيران، بعضُ هذه الكتب بخطوط أصحابها، كتب الأنباري أكثرها كانتْ لديّ نُسَخٌ منها بخطّ يده، ابن جبير الرّحّالة أهداني كُرّاسة من كراريس رِحلاته بخطّ يده، نُسخةٌ من ديوان المتنبّي، عليها شروحاتٌ بخطّ تلاميذ العُكبَريّ كانت في هذه المكتبة، والآن كلّ هذا انتهى. انتهى لأنّ النّار كانتْ جائعةً في تلك اللّيلة! لا يُمكن أنْ يكون في الفقد أقسى من أنْ تفقدَ كتابًا عزيزًا عليك، فكيفَ بهذه المجموعة الّتي لا يُمكن أنْ تُعوّض. بقيتُ مريضًا بسبب هذا الفقدان شهرًا كامِلاً لا أبرح سريري، لم أكنْ لأفعل شيئًا سوى أنْ أُرسل نَظَراتٍ بلهاء لا معنى لها عبر نافذة الغرفة، وأبكي دموعًا حارّة تسيل على خَدّيّ بصمت.

توقّفَ التّدريس في جامع الصّالحيّ منذُ مدّة، لم يعدْ هناكَ طلبة، مسجدي بالذّات، لم يعدْ أحدٌ يُفكّر ببعثِ ابنه في مثل هذه الظّروف إلى حلقاته، وخاصّة أنّه المسجد المشهور بوقوع الرّدم على الصّبيان فيه، توقّف التّدريس في أكثر من نصف مساجد القاهرة، وظلّ بعضُه في المساجد الكُبرى كمشهد الحُسين والأزهر، وتحوّل في مساجد أخرى إلى ابتهالات وتضرّعات إلى الله.

عَنّ ببالي في هذه الأجواء الحزينة أنْ أذهبَ إلى مُنشأةِ القاضي الفاضل، فركبتُ الحِصان، الأبلق هو الآخَر لم يعدْ قويًّا كما كان في السّابق، زحفَ إليه الهُزال تدريجيًّا، إنّه لا يأكل جيّدًا، لم تعدِ الأسواق تطرح شعيرًا كثيرًا، بالكادِ أعثر له على كمّيّة معقولةٍ كلّ أسبوعٍ مرّة، لكنّه يبدو صابرًا ومُتفهّمًا لِما يحدث، فهو ما يزال يُطيعني، ولئن كان يَحرَن في أيّام الرّخاء، إنّه الآن في أيّام الشّدّة لا يفعل ذلك أبدًا، ثُمّ يُمكن القول إنّه صديقٌ وفيٌّ يُقدّر ما نمرّ به. مضينا أنا وهو، قلتُ له: «إلى مُنشأةِ القاضي الفاضل» كان يكفيه أنْ أضع قدمَيه على أوّل الطّريق في الجهة الّتي تُؤدّي إليها من أجل أنْ يجري بي إلى هناك.

في الطّريق مَرَرْنا بالقلعة، قلعة صلاح الدّين، كان جزءٌ من سورها قد تهدّم وملأ الطّريق، أربعة أبراج من أبراجها الثّمانية سقطتْ، وبوّابة واحدةٌ أغلقتْها الحجارة المُتساقِطة، على الأقلّ فيما بدا لي من هنا أنا والأبلق. الدّيار تُصبح بلقعًا، الأحبّة يموتون، والبيوت تخلو من أهلها، وما كان عالِيًا سُوّي أكثرُه بالأرض، كأنّ الزّلزال كان يُعجِبه أنْ يُسقِطَ الرّؤوس العالية!

وتذكّرتُ لمّا طلع إليها صلاح الدّين ومعه أخوه العادل، فقال صلاح الدّين له: «هذه القلعة بُنِيتْ لأولادك». فظنّ العادل أنّ أخاه لا يريدُه أنْ يسكنها، أو أنّه يُعجّل بموته، فتشاءَم، فرأى صلاح الدّين ذلك في وجهه، فقال له: «لم تفهمْ عنّي، إنّما أردتُ أنّ أولادي غير نُجباء، وأنّ أولادكَ نُجباء». وكان الأمر على ما قال صلاح الدّين، سكنها ابنُ أخيه، وهي اليوم خاليةٌ ليسَ فيها إلاّ مَنْ يحرسها، وقد تزلزلتْ فزالتْ عن رؤوسها تيجانُها.

ومضيتُ بالأبلق، فأشرفْنا على المُنشأة، فبدتْ خرابةً، وهالني أنّ أحدًا لم يلتفتْ إليها، بتنظيفها، وإزالة رُكامها، وإصلاح سورها وقصرها، وإعادة زراعة حدائقها، فلّما دخلتُ بالحِصان من الباب المُتهدّم، عبرتْ أنفي رائحة القاهرة الكريهة، إنّها مجموعةٌ من الرّوائح الّتي قطّرها الموت ونَثَرها في الجوّ. رأيتُ الصّمت يُطبِقُ في المُنشأة على كلّ شيءٍ، وخُيّل إليّ أنّها مهجورةٌ تمامًا، ليسَ فيها إلاّ الغربان تحوم على ما تبقّى من لحوم الموتى وتنهشُها، فقلتُ: «لا بُدّ من العبور إلى المكتبة لأرى إنْ ظلّ فيها أو منها شيء». ومضيتُ وسط الغَبَرة والحجارة المُبعثَرة، أدوسُ بالأبلق على كلّ ما في طريقنا حتّى أشفيتُ على الرّواق المُفضِي إلى المكتبة، فسمعتُ أصواتًا مُتداخِلة، وجلبةً عالية، فخفتُ أوّل الأمر، وظننتُ أنّهم لصوص أو قُطّاع طُرق، وأنّ الأمر فيه مُخاطَرة، ثُمّ سمعتُ من بينها صوتًا أعرفه، لكنّني لم أعرفْ صاحبه في البداية، كان الصّوت يقول: «الصّندوق بدرهم». ثُمّ لَمّا أصختُ إليه السّمع، عرفتُ أنّه (شريف) غلام القاضي الفاضل، فقلتُ في نفسي: «هل ظلّ يعيشُ في المُنشأة بعدَ موتِ سيّده؟» واستدركتُ: «ولِمَ لا؟ فَوَرَثة القاضي الفاضل كثيرون، ولربّما عاش عندهم، واستمرّتْ حياتُه بينهم... لكنْ ما قِصّة الصّندوق بدينار..؟!». نزلتُ عن الأبلق، وربطتُه، ورحتُ أمرّ على آثار الحريق، وقد غَطّى السّناج الجدران، وكان يزداد في الزّوايا مع العناكب الّتي تتّخذ لها في تلك الزّوايا مسكنًا، فتتدلّى فِخاخ العناكب إذْ صارتْ مضفورةً من السّناج الأسود. ولمّا انكشفَ لي الرّواق عن باب المكتبة عند أوّل غرفةٍ، هالَني ما رأيتُ، ووقفتُ أنظر دون أنْ أُشعِرهم بوجودي؛ لقد كان هناك أكثر من عشرةِ رِجال، يقومون بملء الصناديق بالكتب، أو ما تبقّى منها، إذْ كانت النّار قد أتتْ على نصفها، والزّلزال قد كَبّ أكثر النّصف الآخَر على وجهه في وسط الرّدم، وكان فيها قبل الكارثة أكثر من مئة ألفِ كتابٍ، ولعلّ هذه الكارثة أعدمتْ ثمانين ألفًا أو أكثر منها، وبقي عشرون ألفًا وإنْ كُبّتْ على وجوهها، وهذا العبد (شريف) يبيعُها على هواه، كلّ صندوقٍ بدرهم، فلمّا عرفتُه، وعاينتُ سَوادَ بشرته، وزرقة عينَيه، صحتُ به: «يا شريف... ما تفعل أيّها الأحمق؟». فلّما سمع القومُ صوتي، نظروا إلى موضعي، وتوقّفوا عن رمي الكتب في الصّناديق، ونظر إليّ شريف فعرفني، فهتف: «مولاي». فصرختُ: «كيفَ تبيعُ ما لا تملك أيّها اللّصّ؟!». فمضى نحوي وأرادَ أنْ يعتنقني، فرددتُه بباطن كفّي، فتراجع، ومسح على جبهته، ووضع ما كان في يده من الدّراهم في جيب قميصه، وقال: «لقد مات سيّدي». «فإنْ مات أفيكون لكَ الحقّ في ماله؟». «يا مولاي؛ لم ينجُ سِواي».

هزّتْني جُملته الأخيرة، وسألتُه: «ماذا تعني؟». «لقد قضى بعضُ ورثته في الزّلزال، وما زالتْ جُثثهم تحت الأرض لم أجدْ مَنْ يُعينني على إخراجها من هناك». «والعبيد؟». «بعضُهم مات، وبعضُهم هرب، ومَنْ تبقّى منهم نهبَ ما في القصر من طَعامٍ وشرابٍ ومؤونةٍ وغادر، العبيد الملاعين لم يتركوا غير الكتب، حتّى الخزائن والفُرُش والسّجّاد والصّحون أخذوها، وبقيتُ أنا هنا وحيدًا، أحرسُ القصر منذ ثلاثة أشهرٍ حتّى يأتي أحدُ الورثة، لكنّ أحدًا لم يأتِ، وداهَمَني الجوع، فكنتُ آكل ورقَ الشّجر حتّى لم يبقَ في الشّجر ورق، ثُمّ جاءني أحدُ الدّلالين، وعرضَ عليّ أنْ يشتري ما نجا من مكتبة القاضي، فقلتُ: أبيعها وأحمي نفسي من الموت، وإذا جاءَ صاحبُها أضع نفسي بين يديه يحكم فِيّ كما يشاء... وها أنتَ تراني يا مولاي، أقفُ على الحَرفِ بين الموتِ والحياة، وهذه الصّناديق الّتي يملؤونها بالكتب، أبيعها كما سمعتَ الصّندوق بدرهم أسدّ بهذا الدّرهم الواحدِ رمقي». شعرتُ بالإشفاق عليه، ربّتُّ على كتفه، أخذتُه زاويةً وسألتُه بصوتٍ خفيض: «كم صندوقًا بِعت؟». «بعتُ مئة صندوق». «وكم بقي؟». «أظنّه بقي ما يملأ مئةً أخرى». «إذًا، هذا يكفي، المِئة الّتي بِعتَها تكفي، دَعْ لصوص الكتب يرحلون من هنا، أنا سأشتري ما تبقّى، لا تقلق، هي عندي خيرٌ من أنْ تكون عند هؤلاء يجعلون منها لُعَبًا يبيعونها في سوق القفيصات أو الشّمّاعين». هَزّ رأسَه مُوافِقًا. ثُمّ هتف بالرّجال الّذين كانوا لا يزالون مُنهمِكين في إلقاء الكتب بدون ترتيبٍ أو حرمةٍ في الصّناديق: «هذا يكفي، لن أبيعَ شيئًا بعدَ الآن، هيّا، ارحلوا». خرج الرّجال وهم يرمقونني شزرًا. جلستُ على الأرض بعدَ أنْ خرجوا، ووضعتُ رأسي بين يدي، وانخرطتُ في بُكاءٍ شديد!! "

" (٥)

المَوتُ لا يَزور المَوت

الجوع يحاول المشي، كان يحبو، والآن قَويتْ رجلاه، إنّه يمشي بشكلٍ مُستقِيم، بعدَ قليلٍ سوفَ يمشي بشكل أسرع، ثُمّ سيتناول خنجرًا من أوّل تابوتٍ، ويبدأ بطعنِ مَنْ يجده في طريقه ذات اليمين وذات الشّمال. كان ظِلاً فصار مادّة، وكان خيالاً فصار واقِعًا، إنّه إنْ ألقَى ثوبَه على أرضٍ فلن يرتفع عنها إلاّ بعد أنْ ينهشَ فيها كلّ شيء.

استغاث المَلِك بكبار التُّجّار، بالدّيوان، بالقائمين على تأمين الغِذاء لأهل مصر، فقالوا إنّ قوافل طريق الحرير قادمة، لكنّ الزّلزال أخّرها، كان من المُفتَرض أنْ تصل منذ ستّة أشهر، لكنّها توقّفتْ كُلَّ هذه الفترة في ميناء أنطاكية بسبب ما حدث، وقريبًا ستُبحر إلى اللاّذقية، ومنها إلى الإسكندريّة، وعلى أهل مصر أنْ يصبروا شهرًا في الحدّ الأقصى حتّى يأتيهم الغِذاء ويستعيدوا عافيتهم. أمّا أهل الشّام فلم يتمكّنوا من إنجاد مصر؛ بسبب ما حدثَ أيضًا، فالزّلزال لم يرحمْ أحدًا.

كان الصّليبيّون يراقبون الأمر عن كَثَب، طَمِعوا في مصر والشّام والقدس بعد أنْ أخرجهم صلاح الدّين، والآنَ حان الوقت ليثأروا من الدّولة المُتداعِية، كانوا مثل كلابٍ قد سَمِنتْ في وقتِ الشّدّة وأرادتْ أنْ تهجم على الأسد الهزيل الّذي لم يعدْ قادِرًا على أنْ يتحرّك من مَرْبضِه.

كانت البضائع تبدأ طريق الحرير من الصّين، من مدينة (تشانغ آن)، تعبر طريقًا بريًّا، وآخَر بحريًّا إلى أنْ تصل إلى أنطاكية، لتُبحر من هناك إلى كلّ دول البحر الأبيض، ولقد اقتربَ موعدُ وصولها إلى الإسكندريّة، ولكنّ طول المدّة، وظروف بقائها في هواء البحر، وطرق تخزين البضائع أفسَدها، فلمّا هبطتْ ميناء الإسكندريّة، كانتْ قد فسدتْ تمامًا، فلقد عاث فيها العثّ والدُّويبّات، ولقد كانتْ مرتعًا للفئران، تنام وتأكل وتشربُ وتسرحُ وتمرحُ فيها، ولقد كانت الفِئران لكثرتها تنقبُ كلّ شيءٍ، حتّى لقد رُئِيتْ تتراكضُ على حِبال السّفينة، وشُوهِدتْ تصعد تلك الحِبال إلى الأشرعة، إنّها تعيشُ هنا بأمان، فلم يكنْ أحدٌ من بحّاري هذه السّفن لديه النّيّة في أنْ يقضي عليها، ولماذا يفعل ذلك إذا كانَ عددُها لا ينتهي؟ وهي تتوالدُ في كلّ يومٍ بالمِئات، إضافةً إلى أنّ القضاءَ عليها سوف يبخس من ثمن البِضاعة، فهي وزنٌ إضافيّ، وهي قَدَرٌ من الله، ومن الحمق التّعرّض لهذا القدر!!

نحنُ في الشّهر الثّاني من عام ٥٩٨ للهجرة، البيوت المهجورة أكثر من البيوت المعمورة، قلّ صَفْقُ النّاسِ بالأسواق، الجوع يزداد، بعضُ النّاس لجؤوا إلى السّرقة، ربّما حدثَتْ حادثةٌ واحدةٌ أرّقتِ المَلِك بنفسه، قَتَل أحدُ اللّصوص في سوقِ الحلوانيّين صاحبَ حانوت ليأخذ ما في حانوته من طعام، فخافَ القاضي أنْ ينتشر القتل في النّاس، فنصح المَلِكَ بأنْ يُعدِمه في ساحة المشهد حتّى يراه أكبرُ عددٍ من النّاس، ففعل. كان اللّص مُقيّد اليدَين خلفَ ظهره، جاثِيًا على رُكبتَيه، وكان رأسُه مشدودًا إلى صدره، وعنقه بارزةً لضربة السّيّاف، هوى السّياف عليها فتدحرجتْ بضربةٍ واحدةٍ أمام النّاس، وصاح المُتجمهِرون، وكان في ذلك إيذانًا من الدّولة أنّ السّيف جاهزٌ لكي يقطع عنقَ أيّ أحدٍ يظنّ التّلاعبَ بالأمن سهلاً.

سَكَت النّاس بعدَ أنْ شاهدوا الرّأس المُتدحرجة، لزمَ كثيرٌ منهم البيوت، حتّى أولئك الّذين لم يحضروا المشهد الرّهيب ووصلتْ إليهم أنباؤه لَبَدوا في بيوتهم، ثُمّ أخرجتْهم الحاجة، والحاجة أشدّ من الخوف، فبدؤوا يطوفون في الأسواق، يبيعون أيّ شيءٍ من متاع بيوتهم، ثُمّ لم يعدْ شيءٌ يُباع، فصاروا يأخذون من بعضِ التُّجّار بعضَ ما لديهم من أشياء، ويطوفون في الطّرقات من أوّل النّهار إلى آخره لا يكادون يُحصّلون مَنْ يشتري ما معهم، فلم يعدْ في جيوب النّاس مال، ولم يعدْ لدى أكثرهم عمل، ثُمّ في آخر النّهار يعودون إلى التّاجر الّذي أخذوا منه البِضاعة فإمّا أنْ يُرجِعوها إليه كما أخذوها لم

يشترِ منهم أحدٌ، أو يكونوا قد وُفّقوا إلى بيعها، فيعطوا التّاجر ماله، ويشتروا بما ربحوه؛ درهمين أو ثلاثة ما يسدّ رَمَقهم ورَمَق عيالهم لتلك اللّيلة!

ثُمّ وصلتْ بضائع طريق الحرير إلى الإسكندريّة، فتوزّعها التُّجّار الكِبار، فبيعتْ في أسواق البِلاد، فدخلتْ مع فِئرانِها إلى المدينة، وبعدَ أسبوعٍ من دخولها، صار مألوفًا أنْ تجدَ فأرًا يركضُ مُسرعًا وهو يعبر شارعًا، أو يدخل جُحرًا أو يتراكضُ بين أقدام المارّة، وبدا منظرها أوّل الأمر مُخيفًا، لدرجة أنّ بعضَ المارة هلعوا وخاصّة النّساء منهم، لكنّهم مع الوقت صاروا يعتادون ذلك، غير أنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، إذ بدأ النّاس يُشاهِدون تلك الفِئران ميّتة في الطّرقات، وكان من المُمكِن أنْ تلاحِظَ أحدهم وقد لَفّ الفأر في خِرقة وألقاه بعيدًا عن الشّارع. أو حمله من ذيله بين إصبعَيه، ووضع أصابعه الأخرى فوقَ أنفِه اتّقاءَ الرّائحة، ثُمّ رَماه عن قارعة الطّريق.

ثُمّ صارتِ الفِئران تموت في الشّوارع ويراها النّاس دون أنْ يُلقوا لها بالاً، ثُمّ صارتِ الفِئران تموتُ داخل البيوت، ثُمّ أَلِف كثيرٌ من النّاس النّوم مع الفِئران الميّتة، ثُمّ لمّا انقضى الرّبع الأوّل من تلك السّنة، صارتِ الفِئران تُشاهَد تركض حيّة، أو تجثم ميّتة في كلّ مكان، لقد كانت القاهرة آنئذٍ مدينةَ الفِئران!!

كنتُ أجلسُ في فناء السّاحة، أنظر إلى شجرة البان الّتي سلمتْ من الموت حتّى الآن، وأرى خيال درّيّة تحتها، وهي تنظر إليّ بعينَيها السّاحرتَين، وأسترجع صُورَها مع صُور الزّلزال والخسف والحرائق، وأهتف في نفسي: «أينَ دُرّيّة من كلّ هذا؟». إنّه شعورٌ طاغٍ بالوحدة، لأوّل مرّة أشعر أنّني غريبٌ إلى هذا الحدّ، كأنّ مصر تقول لي: «لم تعدْ لك هنا حياةٌ، فارحلْ». ولكنّ الرّحيل ليسَ سهلاً، ثُمّ إنّني وجدتُ ذاتي هنا، وقضيتُ في هذه البِلاد أكثر مِمّا قضيتُ في بغداد، ولقد عِشْتُ فيها زمنًا رغيدًا، وأصبتُ من العيشِ هناءةً، آلآنَ لأنّ المحنة أصابتْها صارتْ تراودني نفسي أنْ أتركها؟! أَمِنَ الوفاء أنْ أهجر بلدًا حنا عليّ، وعشتُ فيه أجمل أيّامي، بدعوى أنّه صار يتفجّر بالموت في كلّ زاويةٍ منه؟ وأينَ واجبي طبيبًا مَهمَّتُه أنْ ينقذ أكبر عددٍ من الأرواح في هذه الجائحة؟ ثُمّ إذا لم أقضِ حقّ هذه البِلاد وأردّ لها الجميل في مثل هذا الظّرف، فمتى سيكون ذلك؟!

صعدتُ إلى غرفتي، إنّها أيّام عصيبة، راودتُ النّوم عن نفسه، فلم يبذلْ لي مُبتغاي، فقمتُ، هبطتُ الدّرجات، من هنا في آخر الرّواق، يُمكنكَ أنْ ترى الأبلق، يبدو حزينًا هو الآخر، عيناه مُغمضَتان، ضَمِر بطنه، وخفّ لحمُ كِفلَيه، وبدا الهُزال في وجهه، صار صفيقًا بعد أنْ كان مُكتنزًا سمينًا، اقتربتُ منه، أردتُ أنْ أحضنه، لكنّه كان في عالَمٍ غير عالَمنا، لديه همومه هو الآخَر، ولديه أوجاعه، ومخاوفه، يُحزنني يا حِصاني العزيز ما نمرّ به، لكنّ ما يخفّف عليّ وعليك أنّنا نمرّ به معًا، وأنّ كلّ هذا سينتهي، وستؤول الأمور إلى خير. تركتُه ساهِمًا في أفكاره، وقلتُ لنفسي: أجلسُ في المكتبة أقرأ حتّى أنعس، ثُمّ أقوم إلى النّوم، كنتُ قد اشتريتُ ما تبقّى، أوما تمّ إنقاذه من مكتبة القاضي الفاضل، لكنّ الكتب اليوم تبدو حزينةً وشاحبةً مثل البشر، الغُبار يعلو أوراقَها، والكَسْر أصابَ كُعوبَها، والتّمزق حاقَ بأطرافِها، إنّها تبدو بالفعل بائسة، كلّ كتابٍ أُخرِجه من الرّفّ أسمعه يقول: «دَعْني في هَمّي، فإنّكَ إنْ قلّبتَ أضلاعي، تكون كمن أَثرْتَ أوجاعي».

بقيتُ في المكتبة حتّى انتصفَ اللّيل، صعدتُ ثانيةً إلى غرفتي، منذ أوّل هَزّة انقلبَ حالُها هي الأخرى، أقدام السّرير تهشّمتْ، ولم تعدْ قادرةً على حمل جسدي النّحيل رغم أنّني قمتُ بإصلاحها قدر المُستطاع، الجدران يزداد سوادُها من السّناج على ضوء القمر الّذي تنسابُ أنواره من النّوافذ، تمدّدتُ على السّرير، استجلبْتُ سَعْدَ النّوم لكنّه لم يأتِ، تقلّبْتُ كثيرًا، لم أنم، ظلّتْ درّيّة تخطر ببالي، كنتُ متشوقًّا جِدًّا لمعرفة ما حدثَ لها، بقيتُ حتّى الفجر أُفكّر فيها، نهضَ الفجر فنهضتُ، تردّدتُ في الذّهاب، إنّه لا وجه له، ربّما أقول إنّني أريدُ أنْ أقفَ إلى جانب مَنْ تضرّروا في هذه الأيّام، نِداءٌ أخلاقيّ قد يكونُ مُقنِعًا بعضَ الشّيء، ولكنْ لماذا هي وحدها دون غيرها؟! هناك مِئات الآلاف مثلها، إنّ البِلادَ كلّها أصابَها

ما أصابها، فلماذا هي دونَ سِواها؟ ظللتُ في تردّدي حتى صلّيتُ الظّهر، ثُمّ ولجتُ إلى المكتبة، فبدأتُ أطالع فيها بعضَ كتب الطّبّ، فكانَ وجهها يخرجُ لي من بين السّطور، أغلقتُ الكتاب الّذي بين يديّ، وتمشيّتُ في الأروقة قليلاً أطردُ بعضَ ما أصابَ ذاكرتي، وعدتُ، تناولتُ كِتابًا آخر، ثُمّ كُتبًا سِواها، وجميعها أغلقتُها بعد أنْ لم أُتِمّ قراءة صفحة أو اثنتين منها، لأنّ وجهها كان يظهر لي في كلّ كتاب!! «الحلّ في رؤيتها»، قلتُ ذلك لنفسي. «بعضُ الوجوه تُريح». أردفتُ. «وبالرّؤية ينبتّ الشّكّ». ركبتُ الأبلق وطِرتُ إليها.

نزلتُ الدّرجات إيّاها، بدتْ سليمةً تمامًا، لم تتأثّر بالزّلزال، ولم يأتِها الحريق، وكذلك بدتِ القبور من هنا، كأنّ الموتَ لا يزور الموت، فإذا مرّ بطريقه سلّم عليه وأعطاه الأمان ومضى، عندما أتممتُ هُبوطَ الدّرجات، وصرتُ في مواجهة الباب، طرقتُ عليه طَرَقاتٍ خفيفةً، وهتفتُ: «درّيّة». لكنّ الدّرجات والباب والعَتَبة ظلّتْ صامتةً مثل القبور الّتي في ظهري، طرقتُ بشكلٍ أشدّ، ورفعتُ صوتي: «دُرّيّة». فجاءني صوتٌ واهنٌ من الدّاخل: «ادخلْ». فتحتُ الباب ودخلتُ، كانتْ درّيّة تجلسُ على الأرض وفي حِضنها ابنُها (كرم)، وكانا يبدوان ميّتَين، لولا أنّ عيونهم كانت تتحرّك نحوي، ذُعِرتُ لمشهدهما، اقتربتُ أكثر، جثوتُ على قدمَيّ، وقلتُ بصوتٍ مجروح: «ماذا حدث يا دُرّيّة؟». ردّتْ بصوتٍ لا يكاد يُسمَع: «لم نأكل منذ شهرٍ». وقفتُ على قَدَمَيّ، وأنا أرتجف: «لماذا لم تقولي؟».

لكنّها ظلّتْ صامتة، خرجتُ مُسرِعًا، ركبتُ الأبلق، وقصدتُ أقربَ بَقّالٍ من التّربة، مررتُ على السّوق، فتّشتُه من أوّله إلى آخره، فلم أجدْ فيه بَقّالاً واحدًا يفتح دُكّانه، طرتُ إلى سوقٍ آخر، ووجدتُ أحد الحوانيت، فيه بعضُ العدس والفول والباميا والأقِط، فاشتريتُ منه ما وسعني، وعدتُ، جاهدتُ أنْ أجدَ مخبزًا، لكنّني عييتُ، وجدتُ عندَ سَمّان بعضَ الخُبز، يبيعه بأثمانٍ مُرتفِعة، فاشتريتُ منه بعضَ الأرغفة، وطرتُ من جديدٍ إلى التّربة, أوقدتُ على النّار، وطبختُ لهم ما أمكنني، وأكلوا.

كانوا يأكلون بشراهة، بَدَوا خلقًا آخر، لم أعرفْ درّيّة أوّل ما رأيتُها، جسدها المُكتنِز أصبح نحيلاً جِدًّا، وجهها المُمتلِئ صار صفيقًا، جبهتها العريضة ضاقتْ، وعيناها باهِتتَين، قد ماتَ فيهما الذّئبُ والصّقرُ معًا، أمّا كرم ذو الرّابعة فقد بدا أنّه قِطعةٌ من اللحم تتكوّر على نفسها، وهو يتضاغى وقد اختلج صوتُه الخارج من فمه الصّغير، رقّ قلبي لحالهم، بكيتُ في داخلي لما آلَوا إليه، لم يكونوا وحدهم في هذا، كان هناك آخرون يُعانون ما يعانون، ولكنّهم في قلبي.

سألتُها بعدَ أنْ شبعتْ، وشبعَ كرم: «أينَ ماريّة؟». تجاهلتْ سُؤالي، قامتْ وقالتْ: «سأعدّ لك شَرابًا». تركتُها مدّة، ثُمّ سألتُها ثانيةً: «أينَ ماريّة؟». كنتُ أنظر في عينَيها، فأزاحتْ رأسَها إلى الجهة الأخرى، درتُ حتّى صرتُ مواجِهًا لها، وسألتُها من جديد: «هل ماتت؟». خفضتْ طرفَها، ثُمّ همستْ بصوتٍ خافت: «يُمكن أنْ تعتبرها كذلك؟». «كيف؟ كيفَ ماتتْ؟ هل انهار عليها شيءٌ؟ هل...». قاطعتْني: «لا، لم تمتْ». «فأينَ هي إذًا؟». «في سوقِ الشّمّاعين». «في سوق الشّمّاعين؟». رفعتْ صوتَها قليلاً: «نعم في السّوق». «هل تقصدين...؟». وصمتُّ خوفًا من نُطق الكلمة، ثُمّ استجمعتُ شجاعتي، وسألتُ مُستنكِرًا: «هل تقصدين في دور البغايا؟». أسقطتْ نظراتها بعيدًا عنّي، كرّرتُ هذه المرّة السّؤال بطريقة أحدّ: «هل بعثتِ بها إلى البغايا؟». رفعتْ رأسَها إليّ فجأة، وحدّقتْ فِيّ بقوّة، وبدا الذّئب ينهضُ مُتثاقِلاً في عينَيها: «نعم». صرختُ: «أجُننتِ يا امرأة؟». «لا علاقةَ لك بالأمر». «مجنونة، أنتِ مجنونة يا درّيّة، كيفَ تُطاوعك نفسُكِ أنْ تفعلي هذا؟». صرختْ في وجهي: «اخرجْ من هنا، أنتَ لا تعرفُ شيئًا، أنتَ لا تعرفُ ما معنى الجوع؟». وبدا أنّ صوتَها لان، وأنّه مُندًّى بالدّمع. «وترمين ابنتَكِ لحُثالة النّاس وللحرام من أجل هذا؟». «وقّرْ على نفسِك وعظكَ أيّها الفقيه، إنّكَ لم تُجرّبْ أكل التُّراب في حياتك». صرختُ وأنا أضعُ كَفّي على جانبَي رأسي: «سأستعيدها رضيتِ أم سخطتِ، لن أسمحَ لكِ أنْ ترميها بين أنياب الذّئاب بهذه الطّريقة». نظرتْ إليّ ساخرةً وهزّتْ جِذعها، وهي تضع كفّها على وسطها: «ومَنْ أنتَ حتّى لا تسمح لي؟ عُدْ إلى دروسكَ البلهاء مع الصّبيان، مع أنّني متأكّدةٌ من أنّه لم يعدْ أحدٌ يستمع إليك، ودعنا وشأننا». «لن أدعكِ وشأنِك، سوفَ أخرجُ من هنا، وسأُخلّصها من الوحل الّذي رميتِها فيه، أنتِ مُجرِمة». وصفقتُ الباب خلفي. ❞

" (٦)

ماريّة

الشّمسُ ترحلُ مُسرعةً وأنا أُطارِدها، أركضُ خلفَها خارجًا من قرافة الشّافعيّ إلى سوقِ الشّمّاعين، سوفَ يبدؤون بعد أنْ تغيب، وعليّ أنْ ألحقَ بها قبل أنْ تكون قد تورّطتْ في هذه المهنة الملعونة، إنّها في الثّالثة عشرة، ربّما أصغر أو أكبر قليلاً، لكنْ كيفَ فعلتْ درّيّة بها هذا، تذكّرتُ وأنا أعدو فوق الأبلق، أحثّه بكلّ ما أستطيع كي يُسرع، تذكّرتُ يومَ لمحتُها في السّوق إيّاها، ويوم خُيّل إليّ أنّني أسمعُ صوتَها، ولا أدري إلى اليوم إنْ كان صوتَها أم لا، لكنّها بسماحها لابنتها مُمارسة هذه الرّذيلة قد يكونُ ذلك الصّوتُ صوتَها بالفِعل.

وصلتُ إلى السّوق، نزلتُ عن الأبلق كالمجنون، ربطته على عجلٍ في أحدِ المرابط، وتوجّهتُ إلى دُورهنّ، كان الزّبائن لا يزالون قليلين، هكذا يبدو المشهد من هنا، لكنْ مَنْ يدري ماذا يدور في الدّاخل؟ كم من زليخة خلفَ الأبواب تراودُ فتاها عن نفسِه! رآني القَوّاد ذا الجُثّة الضّخمة الّذي يقفُ على المدخل، كنتُ في هيئةٍ غاضبة، أُلَفّ عباءتي على جذعي كي لا تُعيقني، وأخطو بخطواتٍ واسعة، أرادَ أنْ يسألني: «ماذا تريد؟ لدينا كلّ ما تطلب» فلم ألتفتْ إليه، ومضيتُ أنهبُ ما تبقّى بيني وبين الباب، فلحقَ بي، وأرادَ هذه المرّة أنْ يُوقفني، فأزحتُه بغضبٍ عن طريقي، ومضيتُ. دخلتُ، فصاح: «هيه.. أنت... توقّفْ». لم ألتفتْ إليه، كان الغضبُ قد استبدّ بي، كان الرّواق مُضاءً بالشّموع ذات الألوان المُتعدّدة، صفراء، وحمراء، وبنفسجيّة، ووردّية... مشيتُ في الرّواق الّذي تنتشر على جانِبَيه غُرَف البغايا، أقتحمها والقَوّاد خلفي يصيح، كان الغضبُ قد أكسبني قوّة هائلة، وشجاعةً غير مُتوقّعة، فبقيتُ أفتح الأبواب، توقّعتُ في زمن المحنة ألاّ أجدَ خلفَ تلك الأبواب بغيّا ولا فاجرًا، ولكنّها كانتْ تغصّ بالزّبائن! فكّرتُ للحظات؛ بدل أنْ يلجؤوا إلى الله ينغمسون في الخطايا؟ لم أجدْها حتّى الآن في أيّ غرفةٍ من الغرف الّتي اقتحمْتُها، كانتْ بعضُ أصوات البغايا تنفجر من هلعٍ حينما أقتحمُ عليهنّ الباب وهنّ يستلقين في أحضان رذائلهنّ مع الرّجال، بعضُهنّ لم يكترثْن، واستمررن في أداء عملهنّ، أُخرَيات كُنّ يبتسمْن ويدعونني إليهنّ خاصّة أولئك اللّواتي لم يكنْ معهنّ من الفَجَرة أحدٌ، كنتُ لا أزال أخبطُ الأبواب، والقَوّاد يُمسكُ بي وأنا أُفلِتُ من ذراعه، وأتملّص منها بما ملأه الحنق فِيّ من قُوّة، وأصيحُ بأعلى صوتي: «ماريّة... يا ماريّة...». حتّى دخلتُ غرفةً، ووجدتُ فيها فتاةً صغيرةً نائمةً على السّرير، كانت وحدها، قلتُ: لعلّها هي، كان ضوء المِشعل الّذي أمام غرفتها أصفر، وهذا يعني أنّها بدون زبون, أولئك اللّواتي كُنّ مشغولاتٍ مع زبائنهنّ، كانتْ أضواء المشاعل أمام غرفهنّ حمراء. دخلتُ إليها، على الضّوء الخافتِ في الغرفة رأيتُها، اقتربتُ أكثر وقد صرتُ فوقَ رأسِها تمامًا، جثوتُ على رُكبتَيّ، وصار وجهي في وجهها، إنّها هي، هززتُها من كتفها، وهتفتُ: «ماريّة، استيقظي... ماريّة». تحرّكتْ في الفِراش، فتحتْ عينَيها ببطء، ونظرتْ إليّ مذعورةً، واستوتْ على السّرير، كان الذّعر يسيل من عينَيها، هتفتُ بحنوّ، وأنا أمسكُ بيدها: «أنا عبد اللّطيف يا ماريّة... عمّك عبد اللّطيف...». بدأتْ تتذكّر: «عبد اللّطيف... آه...» التفتَتْ حولَها، فرأت القَوّاد الضّخم، فلاذتْ بي، هتفتُ: «لا تخافي، سوف أُخرِجك مِنْ هنا.. هَيّا بنا». وقفتْ على قدمَيها، ومضينا، سَدّ القوّاد الباب بجُثّته: «إلى أينَ أيّها الشّيخ الجليل، إنّها مُلْك لنا». «ابتعدْ عن طريقي». «أقول لك إنّها مُلك لنا». «هل باعتْها أمّها يعني لكم؟». «تقريبًا؟». «ماذا تعني؟». «ليس لها أنْ تخرج حتّى تكونَ قد حصّلتْ لنا أجرةَ يومِها، وعليها أنْ تدفع ثمنَ ليلتها». «وإذا دفعتُه لك تتركنا؟». «أتركّكما، إذا دفعتَه مُضاعَفًا عنكَ وعنها». «لِمَ أنا مُضطرّ أنْ أدفعَ عنّي؟». «لأنّه كان من المُحتمَل أنْ يأتيها زبونٌ وسيدفع». كانتْ أنفاسي تتلاحق من الغضب: «كم أيّها الكلب؟». «خمسون دينارًا». دفعتُها، فخلّى بيننا وبين الخروج، قهقه بصوتٍ عالٍ ارتجّتْ له جدران الرّواق، هتف: «إنّ زبائن هذه الأيّام لا يدفعون دينارًا واحِدًا في ليلةٍ حمراء مع بغيّ، تعرف الظّروف، صرنا نبيع الأجساد بأقلّ من هذا الدّينار في هذه الأيّام، لكنّ رزق الله واسع، خمسون دينارًا هي غلّة شهرٍ بأكمله!!».

أركبْتُها على الأبلق خلفي، وانطلقتُ بها إلى بيتي، قلتُ لها في الطّريق: «ستعيشين معي ريثما نجدَ حَلاًّ». هَزّتْ رأسَها مُوافِقة، لم تكنْ قادرةً على الكلام، وصلنا بعدَ العِشاء الآخِرة، أرشدتُها إلى الحَمّام: «نظّفي جسدك من قذارات سوق

الشّمّاعين». كانتْ تنظر في الأرض، عيناها زائغتَين، بدتْ جميلةً حتّى مع شعثها، رقيقة، وردة أُلقِيتْ في مزبلة، ما الّذي تفعلينه بها يا دُرّيّة؟ أكّدتُ لها: «مِنْ هنا». مضتْ إلى الحَمّام، هتفتُ: «هل تحتاجين إلى ملابس جديدة؟». لم تقلْ شيئًا.

ظلّتْ تسير إلى الحَمّام، أردفتُ: «غدًا تذهبين معي، وتشترين ما تحتاجين له».

خرجْنا إلى السّوق معًا، إلى سوق الحريم، اشترتْ كلّ ما تحتاجه، كانتْ عيناها تنطق بالشّكر لكنّها كانتْ لا تتكلّم إلاّ كلماتٍ مُبعثرةً حتّى الآن: «ما الّذي حَبسَ لِسانكِ يا ماريّة؟». عُدْنا إلى البيت وقتَ الظّهر، توجّهتْ إلى المطبخ، لم تقلْ شيئًا، أخرجتْ ما فيه من طعامٍ، وطبختْ لنا ملوخيّة، جلسْنا إلى طاولة الطّعام الموجودة في المطبخ، وضعتِ الصّحون على الطّاولة، كانتْ رائحة الطّعام شهيّة، استرجعتُ بها زمنَ أُمّها، عندما طرقتْ بابي أوّل مرّة قبل ما يقربُ من سنتَين، تدور على البيوت تطبخُ لهم مقابل دُريهمات. كانت ماريّة قد أتمّتْ وضع ما تريدُ من الطّعام على المائدة، جلستْ قبالتي مُنكّسةَ الرّأس، كان واضِحًا أنّ في فمها كلامًا كثيرًا لكنّها لا تريدُ البوحَ به، بعضُ البوح يُريح وبعضُه يُعذّب، يبدو أنّ سكوتها منذ أمس حتّى هذه اللّحظة يُرجّح النّوع الثّاني منهما.

بدأتُ بالأكل، دعوتُها: «إنّه طعامُكِ... كُلي». كان شهيًّا أكثر مِمّا أتوقّع أو أريد، يبدو أنّها ماهرةٌ في الطّبخ بالفِطرة، لم تمدّ يدها إلى لُقمة. «إنّكِ جائعة، وأنتِ مَنْ أعددتِ هذا، فهيّا». قَسَمتْ بأصابعها الصّغيرة الرّقيقة لقمةً واحدةً من الخبز، وراحتْ تمضغها في فمها ببطء. كان الطّعام ساخِنًا ولذيذًا، وسائِغًا في الفم، لم آكل مثله منذ عامٍ، هكذا كنتُ أفكّر، بينما هي لم ترفعْ رأسَها إليّ. كدتُ أُنهي الطعام، وهي لم تأكلْ إلاّ على استِحياء، نظرتُ في عينَيها، لم تكنْ كعينَي أمّها، كانتا واسِعتَين، وبريئتَين، وحزينتَين: «إنّكِ في أمانٍ يا ماريّة. كُلي». هتفتْ بصوتٍ خفيض: «ماذا ستفعلُ بي؟». ابتسمْتُ: «الأمر إليك». ردّتْ بعجَلة: «افعلْ أيّ شيءٍ إلاّ أنْ تُعيدني إلى أُمّي». سألتُ مُستغربًا: «لماذا؟» ظلّتْ صامتة. قلتُ: «كُلِي الآن، سوفَ نتحدّث عن ذلك فيما بعدُ». قمتُ، حينَها راحتْ تأكل بنهمٍ وسُرعة، وأتتْ على ما تبقّى، كنتُ ألمحها تفعل ذلك وأبتسم، لا بُدّ أنْ تستعيدَ هذه الصّبيّة عافيتَها.

انشغلتُ بالكُتُب، قرأتُ في الأمراض الّتي تحدثُ في الكوارث، وما الّذي يُمكنُ فِعلُه حيالها، دخلتْ عليّ ماريّة المكتبة، سألتْ بحياء: «هل تريدُ شيئًا يا سيّدي؟». قلتُ لها: «لا، وشكرًا يا ماريّة». ظلّتْ واقفة، كانتْ تنظر إلى الكتاب الّذي بين يدي، رفعتُه، ونظرتُ مُستفهِمًا. قالت: «ماذا تقرأ يا سيّدي؟». رددتُ سؤالَها بسؤال: «هل تعرفين القراءة؟». «قليلاً يا سيّدي». «لا أحبّ هذه الكلمة». جفلتْ، تابعتُ: «أعني كلمة سيّدي. أنا لستُ سيّدكِ». فحصتِ الأرضَ بنظراتها، أردفتُ: «الكتاب في الطّبّ عن كيفيّة صِناعة الدّواء من الأعشاب، هل تريدين تعلّم ذلك؟». هزّتْ رأسَها هزّاتٍ سريعة وهي تفرك يدَيها: «بالطّبع يا سيّدي، إذا سمحتَ لي». «سوفَ أعلّمك يا ماريّة، لا تقلقي». مضتْ. بعد المغرب، قلتُ لها: «سنجلسُ في السّاحة، عندَ شجرةِ البان، لونها يبعثُ على الرّاحة، ما رأيك؟». هزّتْ رأسها: «حاضِرْ يا سيّدي».

أعدّت لنا حلواء مِنْ بقايا ما في المطبخ من الطّعام، أحبّ الحلوى منذ أنْ كنتُ طِفلاً، جلستْ قُبالتي، كانتْ لا تزال خَجِلةً، قلتُ لها: «سأُعلّمك صِناعة الأدوية، إنّها ليستْ صعبة، لكنّها ستكون كذلك إذا لم نمتلك تلك الأعشاب». تحمّستْ، تقلقلتْ فوقَ كرسيّها: «أنا سريعةُ التّعلّم يا سيّدي». قلتُ مُعاتِبًا: «لا تقولي سيّدي، لستِ جاريةً عندي». «ماذا أقول؟». «يمكنني أنْ تعتبريني عمّكِ أو أباكِ». هتفتْ: «أبي؟». كان صوتُها مجروحًا بالحزن، نظرتُ إليها: «أنا في عُمر أبيك». «بالطّبع، ولكنّني لم أرَ أبي في حياتي». سألتُها: «لِمَ؟». ردّتْ: «أمّي تقول إنّه رحل وأنا صغيرةٌ». «مات؟». ردّتْ: «تقول أمّي إنّه هَجَرنا إلى زوجةٍ أخرى». «وكلّ هؤلاء الّذين جاؤوا من بعدِك؟». «مَنْ؟». «أعني إخوتك». «ما بالُهم؟». «هل هم من أبيكِ؟». «لا أدري». كانتْ حزينة. يبدو أنّ في القصّة كثيرًا من الأسرار. سألتُها: «وأمّك؟». «ما شأنُها؟». «لماذا بعثتْ بكِ إلى سوق الشّمّاعين؟». «لستُ متأكّدًا من أنّها أمّي». أرسلتُ طرفي في البعيد، القصّة تتعقّد أكثر، «فمنْ تكون

إذًا؟». «وعيتُ على الحياة وأنا معها، لكنّ بعضَ الّذين ولدتْهم من بعدي لم أرَ لهم أبًا». تنهدّتُ طويلاً: «يُمكنكِ أنْ تبقَي هنا». فرحتْ: «حَقًّا يا سيّدي؟». «بالطّبع». «وسأكون خادمةً لك، أطبخ طعامك، وأنظّف فِناءك». «لستِ خادمة، أنتِ ابنتي، تُقيمين في بيتي كأنّه بيتُك. والأبُ لا يُحمّل ابنته ما لا تُطيق». «بالطّبع يا سيّدي. سأطبخ لكَ أكلاتٍ لم تأكلْ مثلَها في حياتك». وضحكتُ، فضحكتْ، وانفرطَ بيننا عِقدُ الكلام.

بقينا أسبوعًا نجلسُ في المساء تحتَ شجرة البان، علّمْتُها كثيرًا من صِناعة الأدوية، اقترحتْ عَلَيّ، بدلاً من أنْ نشتري الأعشاب من السّوق أنْ نزرعها في حديقة البيت: «إنّها مساحةٌ واسعةٌ، يُمكننا أنْ نزرع فيها عشرين صِنفًا من الأعشاب المُفيدة». «سآتيكِ بما تطلبين، هل تعرفين أسماءَها؟». «نعم، لقد حفظتُها كلّها من الكِتاب». وبدأت حديقة البيت تنمو بأنواعٍ جديدةٍ من النّباتات.

كُنّا نجلسُ على عادتنا في أحدِ الأيّام في السّاحة، حينما مرّ فأرٌ كبيرٌ، جفلتْ ماريّة، ووقفتْ على قدمَيها مذعورةً، كان قد مرّ من تحتِ ثوبِها، ضربتْ صدرَها بباطن كفّها هلعًا، وهتفتْ: «يا ربّي...». مرّتِ الحادثةُ بسلامٍ، مع الأيّام صار الفأر الّذي يمرّ في الأروقة وفي السّاحة ويتعربشُ على الدّرابزين تظهر منه أحجامٌ أكبر، شيئًا فشيئًا صارتْ تظهر الجُرذان، كان الهلع قد أصابنا معًا، هتفتْ بي: «علينا أنْ نربّي قِطَطًا في البيت». وافقتُها: «صحيح، ولكنّ القِطط شحيحةٌ، أينَ نجدُ قِطّة في القاهرة اليوم؟ ثُمّ إنّني حاولتُ من قبلُ فرأيتُ القِطط هزيلة، وإذا أتينا بمثلها إلى هنا، فأظنّ أنّها ستكون هي الضّحايا بدلاً من هذه الجُرذان الكبيرة». هتفتْ: «دَعْ ذلك لي». «ماذا ستفعلين؟». «أعطني الأبلق، ودينارًا واحِدًا، وخلال نهار هذا اليوم سوفَ آتيكَ بعشرٍ منها». ركبتِ الأبلق، كان أبيض، وكانتْ تلبسُ ثوبًا أبيض، وقد بدتْ ملاكًا والهواء يعبثُ بذيول ثوبها، وهي تجري به في المدى. عادتْ بعشر قطط كما قالتْ: «أعرفُ مَنْ يبيعُ السّمين منها بدرهم واحدٍ».

وزّعتْهنّ على الأروقة والغُرف، وتركتْ بعضَها أمام البوّابة. راحتِ القطط تستلم مهمّتها الجديدة، كانتْ لها عند ماريّة أسماءُ واضحة، وكانتْ تحفظهنّ وتعرفهنّ من صوتِ أقدامهنّ على الدّرج، ومُوائهنّ، أو من هيئتهنّ من بعيدٍ، ناهيك بألوانهنّ المُميّزة، وبعدَ ثلاثة أيّام، لم يعدْ يُعكّر صفو جلستنا في المساء جُرَذٌ واحد. لكنّ مواءَهنّ في اللّيل وهنّ يَنقضِضن على جُرذٍ أو يربوعٍ كان يُوقظني في بعض الأحيان.

مرّ شهرٌ ونصف الشّهر قبل أنْ تطرقَ درّيّة بابَنا ذاتَ صباحٍ، وتقفُ في السّاحة، وهي تصرخ: «خطفتَ ابنتي منّي أيّها الطّبيب؟ يا عبد اللّطيف... أيّها الوَرِعُ الكاذب... اخرجْ إليّ...». استيقظْنا أنا وماريّة على صُراخِها، ونزلْنا إليها: «لم أخطفْها يا درّيّة، عليكِ أنْ تخجلي من نفسِكِ، أنتِ الّتي أكرَهْتِها على البِغاء». سخرتْ: «وأنتَ الّذي أعدتَ إليها التّقوى؟ ماذا كنتما تفعلانِ خلال هذه المدّة؟». «لم أمسّ ابنتكِ يا امرأة، وهي عندي مثلَ ابنتي». «قُلْ هذا لغيري أيّها التّقيّ، فأنا الّتي تعرفُ الرّجال، وتعرفُ شَهَواتهم». تدخّلتْ ماريّة: «لم أجدْ ما تقولين عن الرّجال!». «لأنّكِ لا تعرفينهم». «أنا أعيشُ أحسنَ من العِيشة الّتي عشتُها عندك». كان ذلك يتطلّب جرأةً عالية منها، لكنّها فعلتْها، استشاطت درّيّة غضبًا: «تُريدين أنْ تتخلّصي منّي يا عاهـ...»، ولكنّها تراجعتْ عن إتمام الكلمة، وتابعتْ: «أنتِ ابنةٌ عاقّة، ربَّيتُكِ كلّ هذه السّنوات، حتّى صرتِ فتاةً بهذا الجَمال، وتتنكّرين الآن لي؟». «ربَّيْتِني لكي تقذفي بي إلى الرّجال، كما قذفَ بكِ أبوكِ إليهم». ركضتْ نَحوها، وهوتْ عليها بجمع كفّها، فأسقطَتْها على الأرض فتناثرتْ ضفائرها المجدولة فوقَ وجهها، وصرختْ: «اخرسي يا وقحة. لولا وجودي إلى جانبكِ لكنتِ ميّتة الآن». هُرِعتُ إلى ماريّة، أنهضتُها من الأرض، وقفتْ وهي تنظر بذهولٍ إلى أمّها، لم تقلْ شيئًا راحتْ تمسح أثر الصّفعة على وجهها الأسمر الرّقيق، وقد احمرّ موضعُها. وأردفتْ أمّها: «هَيّا معي، إلى البيت. هذا يكفي». لكنّ البنت تراجعتْ إلى الوراء، ولاذتْ بظهري، كأنّها تحتمي بي، آنئذٍ هتفتْ أمّها بصوتٍ حنونٍ: «أنا لنْ أتخلّى عنكِ يا ماريّة، إذا كنتُ أطلبُ منكِ أنْ تعودي إليّ، فليسَ من أجلي، بل من أجل أخيكِ كرم، إنّه يسأل عنك كلّ يومٍ». يبدو أنّ الكلمات الأخيرة فعلتْ فِعلها في قلبِ ماريّة، فبرزتْ من خلفي، وسألتْ: «هل هو بخير؟». «كرم؟ إنّه بخيرٍ، هذا الصّغير الّذي بحجم اللّقمة يكبر، وهو يتلفّظ باسمك دائمًا... هَيّا... هيّا يا

ماريّة». ومدّتْ يَدَها، فيما تراجعتْ ماريّة خلفَ ظهري من جديد، تدخلّتْ لحظتَها، وقلت: «أنتِ أمّها، ومن حقّكِ استعادةُ ابنتك، ولم أُرِدْ إلاّ إنقاذَها من الفاحشة، وقد فعلتُ، الآن يُمكننا أنْ نتركَ الخِيار لها،

" إذا أرادتْ...». قاطعتْني ماريّة، وهتفتْ بثقة: «أريدُ أنْ أبقى معك؟». أُسقِطَ في يد الأمّ، مسحتْ وجهها بظاهر كفّها، ونظرتْ إلينا مُصعّدة النَّظَر، فبدا الذّئبُ في الظّلال يفتح فكَّيه لتبرز منهما أنيابه، وقالتْ: «تريدين البقاء معه...؟» هَزّتْ رأسَها وراحتْ تخطو بعضَ الخُطوات كأنّما تدور حول نفسِها، وأردفتْ: «تريدينَ أنْ تبقَي هنا؟». ردّت البنت: «نعم». نظرتْ إليّ: «تريدُها أنْ تبقَى عندك؟». أجبتُها: «هي الّتي تريد، الخِيار لها». ابتسمتْ دريّة، وصوّبتْ إليها نظراتِها، وقالتْ كأنّما تريد أنْ ترتاح: «إذا أردتِ أنْ تبقَي معه فعليكِ أنْ تتزوّجيه». ردّتْ وهي تنزل رأسها، وتعقد كَفَّيها على صدرها: «أنا مُوافقة». «توقّفا... توقّفا... أنا لستُ في سِنٍّ يؤهّلني للزّواج منها». هتفتْ درّيّة بخبث: «تعني أنَكَ لا تشتهي النّساء؟». «ليسَ الأمر على هذا النّحو، لماذا لا تفكّرين إلاّ بهذه الطّريقة؟». «لأنّني أعرفُ الطّريقة الّتي يُفكّر بها الرّجال، أنا أكثر مَنْ خَبِرهم». تجاهلتُ الأمّ، ونظرتُ إلى ماريّة: «يا ابنتي، أنا في سِنّ أبيك». «هذا لا يمنع أنْ تكون زوجي». «كلاّ» تدخّلت الأمّ: «هه... أرأيتِ... إنّه لا يُريدك، لو كنتُ مكانكِ لحفظتُ ماء وجهي وخرجتُ، كيفَ يُمكن أنْ أبقى مع رجلٍ لا يُريديني؟!». قلتُ بشيءٍ من الضّيق: «لا تحاولي أنْ تصطادي في الماء العكر يا دُريّة، أستطيع أنْ أتزوّج مَنْ أشاء من نساء مصر كلّها، وغيرها، لديّ القُدرة على ذلك، وأنتِ تعرفين، ولكنْ، ماريّة...» وتوجّهتُ إلى ماريّة: «أنتِ ابنتي، لو تزوّجتُ وأنا في بغداد، لكانتْ لي ابنةٌ أكبرُ منك... أنا أزيدُ عنكِ بما يقربُ من ثلاثين عامًا، هذا غير معقول، أنا أُعاملك كما لو كُنتِ من صُلبي، أنتِ تعويضٌ لي عن ابنتي الّتي كانتْ يُمكن أنْ تكونيها لو...» وتوقّفتُ، حينَها، تدخّلَتْ أمّها: «هَيّا إذًا، عودي إلى بيتِك يا حبيبتي، هذا الرّجل كذّاب، ومُراوغ». وسحبتِ ابنتَها بغلظةٍ من يدها، وولّيا لي ظهرَيهما، هتفتُ حينَ عبروا البوّابة خارجين: «لا تُكرهيها على ما لا تريد يا دُرّيّة، أنا أحذّرك». ردّت من خلفِ البوّابة: «حَذِّرْ نفسَكَ أيّها الأبله». "

" (٧)

سقطَ فجأة!!

الماء يشحّ، كثيرةٌ هي الآبار الّتي لم تعدْ صالحةً للشّرب، سقطَ فيها الرَّدْم، وآثار الحريق، وبعضُ الجثث، فتلوّثتْ، القنوات الّتي تُمَدّ من النّيل تهدّم كثيرٌ منها، النّيل هو الآخَر يشحّ، مِقياسُه ينقص، الأمور تتّجه إلى المجهول، لو لم يجرِ النّيل بارتِفاعٍ هذا العام، فسوفَ يكونُ ذلك إيذانًا بالكارثة.

شاركتُ في قراءة القِياس هذه المرّة، ذهبْنا إلى مبنى المِقياس الّذي يقع في الطّرف الجنوبيّ للرّوضة، عمود رُخاميّ مُدرَّج، ومُثَمَّن القطاع، يعلوه تاجٌ رومانيّ، يبلغ طوله تسع عشرةَ ذراعًا، محفورٌ عليه علامات القياس.

هذا العمود يتوسط بئرًا مربّعةً مُشيّدةً بأحجار تزداد سماكتُها كلما زاد العمق، لأنّ الضّغط الأفقيّ للتربة يزداد بازدِياد العمق إلى أسفل. شُيّدَتْ هذه البئر من ثلاث طبقات: السُّفلى على هيئة دائرة، يعلوها طبقة مُربّعة ضلعها أكبر من قطر الدائرة، والمُربّع العلويّ والأخير ضلعه أكبر من المُربَّع الأوسط. حول جدران البئر من الدّاخل هناك درجٌ يوصل إلى القاع، يُمكن أنْ ننزلَ فيه حسبَ ارتفاع الماء، ويُمكن قراءة المِقياس حينئذٍ. كان المقياس ولا يزال يستخدم لقياس فَيَضان النّيل، وعلى أساسه يتمّ تحديد الضّرائب في العام الزّراعيّ المُقبل. وإذْ دَمّر الزّلزال كثيرًا من القُرى والأراضي المزروعة في الآونة الأخيرة، صار من غير المقبول مُطالبة النّاس بالضّرائب على زراعتهم، إذْ إنّ الحقول مع شُحّ الماء لم تعدْ مُنتجةً كما كانتْ في السّابق، إضافةً إلى موتِ عددٍ كبيرٍ من العاملينَ فيها.

يتّصل المقياس بالنّيل بواسطة ثلاثة أنفاق، يصبُّ ماؤها في البئر من خلال ثلاث فتحات في الجانب الشّرقيّ، يعلو هذه الفتحاتِ عُقودٌ مُدبَّبة ترتكز على أعمدة مُدمَجة في الجدران ذات تيجان وقواعد ناقوسيّة. وحينَ يدخل الماء إلى المقياس يبقى ساكنًا في البئر؛ فحركة المياه في النيل من الجنوب إلى الشمال، ولا يوجد حركة للمياه في النّاحية الشّرقيّة أو الغربيّة. وسُكونُ الماء في بِئر المقياس يُمكّننا من القراءة الصّحيحة. أمّا عمود المقياس نفسه فيرتكز على قاعدة من خشب الجُمّيز؛ لأنه الوحيد الذي لا يتأثّر بالماء، وذلك لتثبيته من الأسفل، وهو مُثبّت من أعلى بواسطة كمرة رابطة، وعليه نقش بالخطّ الكوفي لقوله تعالى: «وَجَعَلْنا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ». وكان العمود إذا وصل فيه الماء ما بين أربع عشرة ذراعًا إلى ستّ عشرة ذراعًا يكون أهل مصر في خيرٍ وبركة، فإذا زادَ عن ستّ عشرة يُخشَى الفَيَضان والهلاك، وإذا نقصَ عن أربع عشرة ذراعًا يُخشَى الجدب والقَحط، فلمّا قِسناه هذا العام وجدناه أقلّ من اثنتي عشرة ذراعًا فهبطَ الخوف في قلوبنا هُبوطَ الحجر الثّقيل في البُحيرة الرّاكدة.

كان الّذين يقيسون النّيل، يرفعون القياس إلى المَلِك أو أهل خاصّته، لا يُدرَى به ولا يُشاع؛ إذْ إنّه يكون سِرًّا، لِئلاّ يخاف أهل مصر من زيادته أو نُقصانه، ولعلّ صاحب المِقياس كان لا يقول الحقيقة للنّاس في حالة النُّقصان، حتّى لا يدبّ فيهم الهلع، وهذا ما كان؛ لم يجرؤوا في عام ٥٩٩ للهجرة عن أنْ يُعلِنوا للعامّة قياس النّيل، وظلّ هذا سِرًّا!

الجوع من جديد. الجوعُ في الإنسان، في الحيوان، في النّيل، في الحقول، في كلّ شيءٍ، ثُمّ تلك الفِئران الّتي ازدادَ عددُها بشكلٍ جنونيّ، ثُمّ تلك الجُثث المُتعفّنة الّتي ما زالتْ تُكتَشف إلى الآن، ثُمّ تلك الوساخة الّتي نتجتْ عن الرّدم والرّكام والخسف والزّلْزلات الكثيرة. ثُمّ ضاقَ الأمر بالنّاس.

أُغلِقتْ أكثر الحوانيت، وسُرِقَ بعضُها في غفلةٍ من عيون الشُّرَطة والعَسَس، وخربتْ الأسواق حتّى لا تكاد ترى فيها طَوال اليوم عابِرًا واحِدًا، وبدتْ فارغةً شاحبةً يتيمةً بعد أنْ كانتْ تضجّ بالحياة.

بدأ النّاسُ يتساقطون في الشّوارع، شيءٌ ما يحدث لم يتوقّعْه أحدٌ، هكذا على حين غِرّة ذلك الّذي يمشي على قَدَميه، يترنّح، ويسقط، يتلوّى على الأرض لحظاتٍ ثُمّ يسكنُ جسدُه تمامًا. انتشر الخبرُ سريعًا بين النّاس. هناك مرضٌ غامضٌ يصيبُ النّاسَ الأصحّاء ويقتلهم بلا مُقدّمات. الأخبار السّيّئة تنتشر أسرع من النّار، خرجتُ إلى الشّارع، مشيتُ مسافةً ليستْ قصيرة، قبل أنْ أرى سوادًا مُتجمّعًا على باب زويلة، هُرعتُ إلى النّاس، يبدو أنّ هناكَ أمرًا ما جمعَ النّاس على هذه الهيئة، عندما وصلتُ إليهم كان لَغَطُهم عالِيًا، سمعتُ أحدهم يقول: «كُنّا نمشي معًا، فسقطَ فجأة، إنّه أخي، كُنّا ذاهبين للبحثِ عن طعامٍ». هتفتُ بصوتٍ عالٍ: «أيّها النّاس، ابتعدوا قليلاً، أريدُ أنْ أُعاينه». تفرّس فِيّ بعضُهم، وأردفتُ: «أنا الطّبيب عبد اللّطيف البغداديّ...» ردّ آخَر يعرفني: «إنّه هو، دَعوه يرَ المريض».

ابتعدَ النّاس، فشققتُ الطّريق إلى الرّجل المُلقَى، كان يبدو في الثّلاثين، فحصتُ نبضه، يبدو أنّني تأخّرتُ؛ كان ميِّتًا، نظرتُ إلى شفتَيه كانتا مُغطّاتَين بالدّم، كأنّه بصقَ الدّم على هيئة دفقات، شققتُ القميصَ عن صدره، بدا لونه غيرَ طبيعيّ، أملْتُه على جانبه، كانتْ عنقه من الأسفل تحمل بعضَ البثور، إنّها علامةٌ سيّئة. تراجعتُ إلى الوراء بسرعة، تطلّعتُ حولي في الوجوه، أردتُ أنْ أنظر إلى أعناقهم جميعًا، على الأرجح سيكون المرضُ قد انتقلَ إليهم، أو هو في طريقه لذلك. أصابَني شيءٌ من الفزع. لا أدري ماذا أقول لهم، إنْ قلتُ لهم ما أعتقدُ فإنّني سأُصيبهم بالهلع، وليسَ من الحِكمة فِعْلُ ذلك، على الأقلّ الآن، وإنْ أخفيتُ ذلك، فسنشهدُ أيّامًا سُودًا في المستقبل، تطلّعتُ أعلى منهم، إلى قوسِ الباب، إلى البعيد حيثُ الحوانيت على الجانِبَين، يبدو أنّ هذا المرض سيُصيب السوقَ كلّها ومَنْ فيها. قلتُ لأخيه: «إنّه ميّت، لا جدوى من علاجه، بعباءتِكَ هذه لُفّ أخاك، وادفنْه إنِ استطعتَ اللّيلة». بكَى. أردفتُ وأنا أبتعد: «احفرْ له في الأرضِ أعمقَ ما

تستطيع» وركضتُ عائِدًا إلى البيت. في الطّريق كنتُ أشمّ رائحةً غريبة، تحسّستُ أنفي أكثر من مرّة، قد يكون الجهل في بعض الأمور خيرًا من العِلم بها. إنّني أعرفُ ما يحدث، لكنْ عليّ أنْ أتأكّد قبل أنْ أُطلِقَ أحكامي، التّريُّث هو ما يجب أنْ يحكم خطواتي القادمة، والحذر، والترّقّب، ومُتابعة سير الأمور.

دخلتُ إلى البيت، فكّرتُ بكلّ الأطبّاء الّذين تخرّجوا على يدَيّ، والأطبّاء المُساعدين، والمُمرّضين، والعاملين في المصحّات والبيمارستانات، إنّ مهمّة إنقاذ أرواحِ النّاس ستُثقل كواهلهم بعد قليل. فكّرتُ أوّل الأمر بسالم، وخليل، سنكون مُحتاجين إلى كلّ مَنْ يستطيع أنْ يُساعد في الظّرف القادم. وتنّهدتُ طويلاً، وأنا أجلسُ على حافّة السّرير، سرحتُ بعيدًا، وشعرتُ أنّ الظّلام يُحيطُ بكلّ شيءٍ حولي، وأردتُ أنْ أنامَ لأنسى، ولكنّ النّوم مع ما رأيتُ كان ضربًا من المُستحيل!!

قمتُ، غسلتُ وجهي، نظرتُ في المرآة، كان يبدو عليّ التّعب والهَمّ، قلتُ أنزلُ إلى المكتبة، عليّ أنْ أعرفَ أكثرَ عن المرض الّذي سيُهاجم مصر في الأيّام القادمة. قرأتُ ما قاله ابن سينا، وقرأتُ ما قاله غيرُه، نحنُ في المراحل الأولى، ويُمكن ببعضِ التّدابير أنْ نُسيطر على الأمور، هكذا كنتُ أفكّر. توجّهتُ إلى الأبلق، ركبتُه ومضيتُ إلى ديوان مِصر، علَيّ أنْ أُحذّر صاحب الولاية مِمّا هو قادمٌ، وجدتُ الدّيوان فارغًا إلاّ من عاملٍ وحيدٍ، كان يجلسُ في مُلحقٍ صغيرٍ على بابه، قال لي: «لقد انتهى عمل القائمين هنا». كررتُ راجِعًا، لم أستطعِ النّوم، في الصّباح، شققتُ شوارع القاهرة إلى البيمارستان الرّئيس، أعرفُ أنّه لن يطول الأمر حتّى تأتي إليه الحالات من كلّ مكان، تلقّاني عددٌ من المُمرّضين، سألتُ أحدهم: «أينَ سالم؟». ردّ: «لا أدري». طلبتُ منه أنْ يَجمعَ الأطبّاء المُسعِفين كُلّهم والمُساعدين، وأنْ يبعثَ إلى (سالم) ليوافينا إلى هنا، لديّ ما أقوله.

اجتمعتُ بهم بعدَ أنْ أتَوا من أماكن شتّى، ومن أقسامٍ مُختلفةٍ من البيمارستان في قاعة التّدريس الكبيرة، قلتُ لهم: «إنّنا مُقبِلون على أمرٍ من الصّعب التكّهّن بتبعاته, الأمر يتعلّق...» لم أكدْ أُكمل الجملة حتّى سمعنا صُراخًا شديدًا في الرّواق الّذي يؤدّي إلى الغرفة، خرجتُ مُسرِعًا وسط استِغراب الأطبّاء، وتبعني بعضُهم، قلتُ لهم: «أدخِلوه إلى أقربِ غرفة». طلبتُ من المساعدين أنْ يطلبوا إلى الأهل أنْ يبقَوا في الخارج ريثما نعرفُ ماذا أصابه، امتلأتِ الغرفة بالأطبّاء، أردتُ أنْ يرَوا ما أريدُ لهم أنْ يعرفوه. كان المريضُ مُمدّدًا على السّرير، تتدفّق من فمه دفقات من الدّم كأنّها نافورةٌ صغيرة، طلبتُ أنْ يقيسوا درجة الحرارة، كانت الحُمّى تجعل جسده قِطعةً من النّار الملتهبة، طلبتُ من أحدهم أنْ ينظّف فمه، لكنْ بعدَ أنْ يلبسَ في يدَيه ما يقي وصول الدّم إليه، ثُمّ فتحَ آخر له فمَه، وصَبّ فيه دواءً يُخّفضُ حرارته، كان المريضُ يهذي من الحُمّى، لم نفهم منه ما يقول، لكنّ الكلمة الّتي كان يُكرّرها وسطَ كلماتٍ كثيرةٍ غير مفهومه، هي: «الجرذان... الجُرذان...». ثُمّ راحَ صوتُه يخفتُ تدريجيًّا، هل يُمكن أنْ تكون حرارته قد انخفضتْ، لا تسيرُ الأمور بهذه السّرعة، قلتُ لأحدهم بعدَ أنْ خلعْنا عنه قميصَه: «ارفَع ذراعه»، رفَعها، طلبتُ منهم أنْ ينظروا تحتَ إبطه، نظروا، كانَ هناك دُمّل كبير كأنّها حبّة فول، ضَيّق الأطبّاء والمُمرّضون أعينهم: «ما هذا يا حكيم؟». «ألم ترَوا شيئًا مثل هذا من قبلُ؟!». هزّوا رؤوسهم بالنّفي، قلتُ: «لقد حدثَ هذا غير مرّة، لكنّ النّاس تنسى، إنّها لا تُصدّق أنّ مُصيبةً ستقع إلاّ إذا وقعتْ». أشارَ المريضُ إلى فمه، قلتُ لهم: «إنّه عطشان، ولكنْ لا يُفيده أنْ يشرب». «هل سيموت؟» سألني أحدهم. «لن ينتظره الموتُ طويلاً» أجبتُ.

حرّك المريضُ شفتَيه، كان يبدو أشدّ وهنًا، سكبَ طبيبٌ في فمه بعضَ الماء، مرّتْ لَحَظاتٌ، قبل أنْ تتباطأ أنفاسُه، وتخمد حركته بالكامل، سألني أحدهم: «هل مات؟». أجبتُ بأسًى: «نعم، وسيموتُ كثيرون إنْ لم نتدارك الأمر، إنّه الطّاعون أيّها الحُكماء». توقّفتْ قلوب الأطبّاء كلّها في اللّحظةِ نفسِها، إنّهم الآن يُدركون أكثر مِنْ غيرهم ماذا يعني ذلك.

ليسَ من السّهل أنْ يُغسَّل الميّت المطعون، على مَنْ يُغسّله أنْ يكون قد حكم على نفسه بالموت بفارقٍ زمنيّ لن يطول أكثرَ من بضعة أيّام. قلتُ لهم: «ليست المشلكة في جُثّة هذا الميّت، بل في النّاس الّذين عاشَ بينهم، إنّ هذا المرض مُعدٍ، ربّما لن يكون في الأمراض المُعدية عبر تاريخ البشر ما هو أشّد فتكًا منه». «وعليه؟». سألني سالم. أجبتُه: « ستكون هذه البِداية، وسترى مثلَ الّذي رأيتُه اليوم كلّ يومٍ، إذا لم يكنْ كلّ لحظة!».

عُدتُ إلى البيت، كان عليّ أنْ أفكّر مع بقيّة الأطبّاء، مع القائمين على ديوان الصّحّة في مصر بالطّريقة الّتي علينا أنْ نواجه بها الطّاعون، في العودة كانت الطّريق الخالية من البشر تعجّ بالفِئران، خُيّل إليّ أنّ الفِئران هيّ سيّدة الأمر في مصر، صارتْ ملكةً تتبختر في الشّوارع، في زاوية إحدى الزّقاقات الّتي تبدأ من سوق الحلوانيّين عندَ عتبة أحدِ البيوت، رأيتُ جُثّة مُلقاةً على الأرض، يبدو أنّ صاحِبها سَقَطَ فجأةً، إذ إنّ الطّاعون لم يُمهله حتّى يدخل بيتَه، كان الأمر – على الأقلّ بالنّسبة لي - عاديًّا، لولا أنّني رأيتُ عددًا من الجرذان بالعَشَرات تنهشُ جُثّته بِنَهمٍ وبسُرعة، كان يبدو جاحِظَ العينَين مُستسلِمًا، جاعِلاً من نفسِه وليمةً شهيّة لهذه الجراذين اللّعينة، كان رأسُ أحدها قد انحشر في فمه، وذيلُه يتراقصُ من خلفه. ❝

(٨) ❞

الجُرذان!!

على بوّابة البيت وجدتُ ثلاثةً من الجرذان تبدو ميّتة، تساءلت: «هل قَتَلَتْها القطط وتركتْها هنا». داسَ الأبلق على أحدها، فأخرج صوتًا حادًّا قبل أنْ تندلق أحشاؤه، ويُلطِّخَ دمُه حافرَ الحِصان، يبدو أنّه لم يكنْ ميّتًا، تقزّزتْ نفسي عندما رأيتُ المنظر، مضَينا عابِرين البوّابة، ترجّلتُ عن الأبلق، ومشيتُ في الرّواق الطّويل الّذي ينتهي بالدّرجات الّتي تصعدُ إلى غرف النّوم، على أوّل الدّرجات لفتَ انتباهي جُرذ آخَرُ ميّت، استغربتُ، أينَ القطط؟ توقّفتُ مليًّا، ونظرتُ حولي، لا أثرَ للقطط. إنّها عشرة كاملة؛ فأين ذهبتْ؟ هل يُمكن أنْ تكون هربتْ؟ إنّها لن تجدَ بيتًا فيه طعامٌ ومأوى في القاهرة كلّها مثل بيت عبد اللّطيف البغدادي، هكذا همستُ في أعماقي وأنا أبتسم. صرفتُ الخاطر عن أمر القِطط المُختفِية، وأزحتُ الجُرَذ برجلي، وقلتُ: «سأستدعي خادمةً تنظّف البيت منها». صعدتُ، سمعتُ صوت الفئران: «زق زقْ زيْقْ زيْقْ». دُهِشْتُ: «أوه إنّها ترتع في بيتي». خِفتُ، يجب التّفكير سريعًا بالتّخلّص منها، عُدتُ إلى فِكرة القِطط مرّة أخرى: «ولكنْ أين أنتِ أيّتها القِطط؟». مشيتُ وقد فكّرتُ أنْ أجوبَ البيت كلّه لأعرفَ من أينَ أتتْ. وصلتُ إلى غرفة النّوم، لم ألاحِظ فيها شيئًا غير عاديّ، بحثتُ تحت السّرير، وخلفَ الخِزانة، والرّفوف، وفي شقوق النّافذة الخشبيّة، وفي الملابس، لكنّني لم أعثر للفِئران على أثر، فرِحتُ، غيّرتُ ثِيابي، وخرجتُ أطوفُ الأروقة، لم يظهر لي في الأروقة أيّ فأر أو جُرَذ، داهمني تفكيرٌ بأنّ أحدَ الجيران، أو المارّة هو الّذي رَمى بعضَ الفِئران في بيتي من أجل أنْ يُخيفني؟ اطمأننتُ إلى هذا الخاطر، وقلتُ لو كان في البيت فِئرانٌ تلهو لكنتَ تسمع مُواءَ القطط وهي تلاحقها، لكنّني خِفتُ من جديدٍ لمّا تذكّرتُ أنّ القطط لم تظهر منذ وصولي إلى هنا، أحسنُ شيءٍ هو أنْ أتابع التّفتيش في أرجاء البيت عن هذه الفئران، الأروقة في الأعلى نظيفة، زواياها نظيفة، ربّما لاحظتُ في بعضِ الزّوايا بُراز الفِئران، ذلك البُراز الأسود الصّغير، لكنْ قلتُ: الأمر لا يستحقّ الالتِفات إليه، إنّه براز الفِئران الّتي قضتْ عليها قِططي الجميلة. تابعتُ التّفتيش، الدّرابزين ومشربيّاته وما تحت المشربيّات كلّها تبدو نظيفة، الغُرَف العلويّة نظيفة، هبطتُ الدّرجات، التقيتُ بالفأر الميّت الّذي أزحتُه برجلي، تجاوزتُه، قلتُ أبدأ بالمطبخ، دخلتُه، لم يبدُ فيه شيءٌ غير طبيعيّ، الأدوات في أماكنها، نظرتُ في الفرن، إنّه خالٍ، نظرتُ في داخل الصّحون العميقة، وتحت طاولة الطّعام، وفي النّافذة، كلّها تبدو خاليةً تمامًا، ربّما وجدتُ كذلك بعضَ البراز في زاوية تخزين الطّعام، لكنّني فكّرتُ – مثلما فكّرتُ في المرّة الأولى – أنّها مُخلّفات فِئران قُضِي عليها سابِقًا من قططي العزيزة. خرجتُ من المطبخ، أفتّش في الأروقة، إنّها خالية، الإسطبل كان خالِيًا، سلّمتُ على الأبلق وخرجتُ، ظَنّ أنّني أتيتُ لكي نمضي معًا في مَهمّة جديدة، مسحتُ على عنقه: «لا يا حِصاني العزيز، بالكاد دخلنا البيت والتقطْنا بعضَ الأنفاس، علينا أنْ نستريح أنا وأنت؛ لدينا أيّامٌ مُتعِبة عمّا قليل»، خرجتُ من عنده، فسمعتُ صوتَ: (زقْ زقْ زيقْ زيق)، خفق قلبي بسرعة، إنّه صوتُ الفِئران، أصختُ السّمع، فخمد الصّوت، وحلّ السّكون، كأنّه لم يكنْ هنالكَ شيءٌ، نفضتُ رأسي،

وقلتُ: «لا بُدّ أنّني أتخيّل... أنا مُتعَب... بالطّبع... كلّنا مُتعَبون، القاهرة كلّها تتمنّى لو تستريح!!». تركتُ الإسطبلَ ورائي، صارت البوّابة الكبيرة عن يميني، باستثناء منظر الفِئران الّتي عثرَ بها حافر الأبلق عندما دخلْنا لم يكنْ هناك ما يُثير الرّيبة، تجاوزتُها وصارتْ خلفي، الآن ستكون غرف المكتبة عن يميني، إنّها كتب القاضي الفاضل، أوما تبقّى منها، أمّا كتبي القديمة، فقد أكلها الحريق، كان الباب مُغلَقًا، ففتحتُه بحذرٍ، وأطللتُ برأسي رويدًا من وراء الباب المَشقوق، وهالني ما رأيتُ، لقد كان في الغرفة مِئات الفِئران الصّغيرة والجُرذان الكبيرة، وقد أسقطتِ الكتب عن الأرفف، فشكّلتْ كومةً في وسط الغرفة، وهي تروح وتجيء على قِمّة تلك الكومة، وتنقر في الكتب وتقرضُ الورق، لقد كانت الجرذان تأكل عقول الأدباء والعُلماء في تلك الغرفة، وتقضمُ ما أفنَوا فيه حياتهم لكي يصل إلينا، صرختُ، حتّى أذعرتْ صرختي الجرذان، فراحتْ تهربُ في كلّ اتّجاه، تناولتُ مكنسةً قريبةً من الغرفة، ورُحتُ أهوي عليها بلا وعي، وظللتُ أضرب بالمكنسة يمينًا وشِمالاً حتّى تعبْت، وحتّى سقطَ شعري على وجهي، والتفّ ثوبي على جِذعي، كنتُ ألهثُ، رحتُ أمسحُ العَرَق المُتفصّد عن جبيني، كنتُ أركنُ ظهري على الجدار خارج الغرفة في الرّواق، فكّرتُ: هل هذه الغرفة هي الوحيدة الموبوءة؟ ذهبتُ إلى الغرفة الثّانية فوجدتُ عددًا لا يقلّ عن عددها في الغرفة الأولى، ورأيتُ أحدَ القِطط ميّتًا، وقد راحتِ الجرذان تنهشُ أحشاءَه، وهي تُدير

رؤوسها المُلطّخة بالدّم في بطنه، وتنهش ما اندلق من أمعائه، كدتُ أتقيّأ، لولا أنّني أغلقتُ باب الغرفة، وهرعتُ بملابس البيت إلى الأبلق، وركبتُه، وطرتُ أضربُ في السّوق أبحثُ عَمّن يأتي معي ليُخلّصني من هذه الجرذان، أو يبعيني على الأقلّ بعضَ القِطط، لكنّ القطط كانتْ غالية الثّمن، إذْ إنّ كلّ الّذين كانتْ لديهم مقدرةٌ لشِرائها كانوا قد اشتروها بالفِعل بأثمانٍ عالية، ولعلّ قططي التّسعة المتبقّية كانتْ قد سُرِقَتْ أو بِيعتْ. اهتديتُ بعدَ عناءٍ إلى اثنَين يعملان معًا في هذا المجال، ساوَماني على عشرةِ دنانير، في السّابق، كان الواحد يتوسّل لكي يُستأجر بنصفِ دينار في اليوم، قلتُ لهما: «لماذا عشرة دنانير؟». «لأنّ الجرذان كثيرة، ولا أحدَ يرغب في أنْ تتمشّى على وجهه أثناء النّوم، أو تتغوّط في طعامه». أيّدْتُهما على الفور فيما قالاه، وهززتُ رأسي بشيءٍ من الرّجاء: «عشرة دنانير لكما معًا، أليس كذلك؟». «كلا، بل لكلّ واحدٍ عشرة». وافقتُ مُرغَمًا، وعُدنا إلى البيت، استغرقا ما تبقّى من النّهار، وكلّ اللّيل، حتّى اطمأننتُ إلى أنّني لن أسمعَ في أثناء نومي: «زِقْ زِقْ زِيْقْ زِيْقْ». لم يكنْ في المشهد أكثر بؤسًا وسُخريةً من رؤية الفئران وقد بالتْ وتغوّطت بالفعل على الكتب، كتب المُؤرّخين والنّحاة والأطبّاء والفلكيّين والمهندسين والقُضاة والفلاسفة،... ما الّذي أعجبَ الفِئران في الكتب أكثر من الطّعام مثلاً حتّى تجعل منها وليمتَها المُفضّلة؟!!

النّاس تخرجُ إلى الشّارع، الجوع يدفعها إلى ذلك، تشتري بما ادّخرتْ من مالٍ شيئًا من الطّعام، لم يكن الحُصول على الطّعام سَهلاً، الجدب بسبب نقصان مياه النّيل ضربَ الأراضي المزروعة، غريزة الجوع تنهش المِعَد الخاوية، عاد النّاس على سجيّة أجدادهم الأوائل، تدفعهم غريزة البقاء للبحث عن الطّعام بشكلٍ محمومٍ؛ حتّى ولو اضطرّهم ذلك إلى أنْ ينبشوا في كلّ موضعٍ، بقايا أكلٍ لبيتٍ ميسورٍ مطروحٍ في الأرض، قاذورات، أوساخ، أوراق ملوخيّة مُتعفّنة، ... أيّ شيءٍ يُؤكَل، رأيتُ نِداء الجوع في وجوهم أقوى من أيّ نِداءٍ إنسانيّ، يستغني الإنسان عن أخيه الإنسان، عن ابنه، عن زوجته، يُمكنه أنْ يعيشَ وحيدًا، أو راهِبًا، أو عَزَبًا طَوال حياته، ولكنّه لا يستطيع أنْ يعيشَ جائِعًا، الجوع بعدَ بضعة أيّام يُصبح عدوّ الإنسان الأوّل، إنّه الحَرْبة الّتي تسيل على حَدّها الحياة، ويلمع في شَباها الموت، وإذًا فنحن في حربٍ مع هذا العدوّ القاتل، لكنّنا يُمكن أنْ نُداريه؟ أيّامًا، صحيح، بعدَ ذلك لا يُمكننا أنْ نفعل، ربّما نُسكته قليلاً، بأكل ورق الشّجر، أو مُخلّفات خُضرةٍ مرميّة في قارعة الطّريق، هذا ما شاهدتُه في الأيّام الأولى، كانتْ هناك كومةٌ بالية من حشائش الجرجير والخسّ، وكانتْ تلعبُ فوقَها مجموعةٌ من الجرذان، ورأيتُ ثلاثةً من الفتيان يتقاتلون على تلك القاذورات، لا أحدَ يريدُ أنْ يموت!!

في البيوت، بدأتْ قِصّة الجرذان تنتشر، صارت مُضغة الألسن، وبرزتْ مجموعةٌ من الأسئلة عنها؛ من أينَ أتتْ تلك الجرذان؟ لا أحدَ يدري على وجه الدّقّة. قالَ العارف من التُّجّار: لقد جاءتْ مع السّفن؟ إنّ السّفن تنقل الجرذان وتنقل غيرها، فلماذا نقلتِ الجرذان على وجه الخصوص؟ جاء الجواب: لأنّها جاءتْ من بلادٍ تكثرُ فيها الجُرذان ويأكلها أهلُها كما يأكلون السُّمّن من الطّيور؟ تقصد تشانغ آن في الصّين؟ ربّما، أو أنطاكيّة، أو القسطنطينيّة أو الإسكندريّة؛ مَنْ يدري؟! أهل الإسكندريّة لا يأكلون الجرذان. لنقلْ إنّها مدينةٌ ساحليّة؟ لماذا على أهل المدن السّاحليّة أنْ يأكلوا الجرذان، ألا يشبعون من الأسماك الّتي تملأ البِحار؟

لم يتوقّف الحديثُ عن الجرذان في القاهرة، من المُفيد أنْ نعرفَ أنّ النّاس بدأتْ ترى الجرذان شيئًا طبيعيًّا، لم يعدْ مُمكِنًا مُحارَبة هذه الجرذان كلّها، من العبث فِعل ذلك، وعلى الطّبيعة أنْ تسير كما أرادَ الله لها أنْ تسير. الّذي جلبَ الجرذان هو الله، لنقلْ قَدَرُه الّذي لا يُردّ، وعليه، فمن المُستحسن أنْ نسكت أمام قدر الله. قال آخَر: الجرذان لم يأتِ بها الله، ولا قَدَرُ الله، يكفي الافتِراء على الله في كلّ مصيبة، الجرذان جاءت مع سفن الإسكندريّة الّتي جاءت من الصّين أو من آسيا الوُسطى أو من الجحيم، لكنّها جاءتْ مع البشر، وعلى البشر أنْ يخرسوا أو يقطعوا ألسنتهم قبل أنْ يُلصِقوا بالله أو بِقَدَره أو حتّى بالشّيطان كلّ شيء.

الخسف الّذي في أوّل درب الملوخيّة لم يُردَم جَيّدًا، يمكنك أنْ تسمع زِقْ زِيْق الفئران من مسافةٍ بعيدة، المياه الوسخة الدّافئة المُتجمّعة في الخسف تُعجبها، يُمكنك أنْ تشاهدها تسبح بأمان، وتحوم حول الخسف بحريّة، وإذا أردتَ ألا تفقد قدمك، أو شيئًا من رَبْلة ساقك، فعليكَ أنْ تبتعدَ عن المكان بسرعة، إنّ أعدادها هنا بالآلاف، إذا لم تكنْ أكثرَ من ذلك، إنّ بعضَها يلتصقِ ببعض ويُصدر هذا الصّوت الحادّ كأنّها صِيصان صغيرة، كيفَ استطاعت

الفِئران الإناث أنْ تلد كلّ هذه الأعداد المُذهلة؟!!

من أقبية البيوت المُهدّمة، يُمكن أنْ ترى الجُرذان تَنفِر في صفوفٍ مُتشعّبة كأنّها تخرجُ من مركز دائرة وتتشعّب في كلّ اتّجاه، لا أدري إنْ كانت الأرض دبقةً بالأساس، أم أنّها صارتْ كذلك بفِعل بُراز الجرذان وبَوْلها وبقايا الأوساخ المُتراكِمة، للجرذان طريقة مُدهِشة في المشي، إنّها تمشي سريعًا في خطّ مستقيم، قبل أنْ تتوقّف فجأة، وترفع قائِمَتيها الأماميّتَين الصّغيرتَين، وتُحرّك شواربها، وتُوصوِص بعينَيها، وتُخرج صوتَ: زِقْ زِيْقْ، أو تلوك شيئًا في فمها، ثُمّ تُنزل تلك القوائم القصيرة، وتهزّ ذنبها الّذي يشبه انحناء القوس هزّتَين أو ثلاثًا، ثُمّ تنطلق مسرعةً مرّة أخرى، أينَ القطط لكي تُشاركَ في هذا الاستِعراض!!

لم يتعوّد آخَرون على وجود الجرذان، كان منظرها تركضُ في جماعات، وتتراصّ بالمِئات يبعثُ الرّعب في القلوب، الجرذان ليستْ جميلة، مَنْ يحبّ جرذًا كريهًا؟! لنفترضْ أنّ أحدًا ما يُحبّها، مَنْ يستطيع احتِمال رائحتها؟! لنفترضْ أنّ أحدًا ما يعتبر تلك الرّائحة مقبولةً أكثر من رائحة البشر، فمن يحتمل صوتَها: زِق.. زِيق؟ لنفترضْ أنّ صوتَها موسيقيّ لدى بعضِ البشر، فمن يحتمل طريقة أكلِها، أو ما تأكل، إنّها تأكل القَذَر والوَذَر؟!!

أيُّ سوقٍ أو موضعٍ خلا منها؟ الشّمّاعين وبغاياها؟ السّجادين وسجاجيدها الجميلة ذات النّقوش الفارسيّة؟ الحلوانيّين وحلواها الشّهيّة ذات المذاق الطّريّ الّذي يذوب في الفم ذوبًا؟ الدّجّاجين، الجُوخيّين، بين القصرَين، القفيصات، زويلة، درب الملوخيّة، التّربة، المشهد، الجوامع، البرابي، الخوانق، البيوت، الأسِرّة، الحواري، الأزقّة، الغُرَف، العَتَبات،... لم يخلُ منها مفحصُ قَطاة؛ لقد بدأ غزو الجرذان لمدينتنا المسكينة، فيا أهل المحروسة استعدّوا!! ❞

مسغبة _ أيمن العتوم:

❝ (٩)

كيفَ أحاربُ عدوًّا لا أعرفه؟!

وقعتْ مِطرقة الطّاعون على رأسِ القاهرة، فصاحتِ القاهرة كلّها صيحةً واحدةً: «آآآآخ». لقد كانت المُصيبة ثقيلة، لم يرها أحدٌ من قبلُ، لم يُفكّر بها، لم يعرفْ كيفَ جاءتْ، ولم يكنْ يؤمن قبل مجيئها أنّها ستجيء. لكنّ الحقيقةَ تقول، إنّ الطّاعون صارَ جُزءًا من هذه الحياة الّتي على أهل القاهرة أنْ يعيشوها!!

من الصّعب أنْ ترفعَ رأسكَ من صفعةٍ قاسِية لتُواجه صفعةً جديدةً أقسى وأشدّ، لم يكنْ قد مضى على الزّلزال الكبير عامٌ حتّى وفدَ هذا الوباء، والنّاس في زمن الأوبئة لا تعرفُ ما تفعل؟ والطّاعون سُمّي كذلك لكثرة طَعْنه في النّاس، يُكثِر فيهم الطّعن بحربةٍ سامّة لا يكاد يبرأ منها أحدٌ، وأمامها كان النّاس في البداية في حيرةٍ من أمرهم؛ كيفَ يُمكن الهرب من هذه الجائحة؟!

توجّهتُ من فوري إلى ديوان مصر، طلبتُ منهم أنْ يجمعوني برئيس الدّيوان، حينما صرتُ بينَ يدَيه، طلبتُ منه أنْ يجمع رؤساء الدّواوين المهمّة، مثل ديوان القضاء، وديوان الشّرطة، وديوان الجُند، بصفتي رئيس قسم الجراحة والأوبئة في البيمارستان الرّئيس، لم يُفكّر رئيس ديوان مصر أنْ يستجيبَ لطلبي، لكنّ لِسانًا ما قال إنّ عليه أنْ يفعل!

حينما صِرنا في غرفةٍ مُغلَقة، لم أُردْ أنْ أُمهّد للموضوع كثيرًا، فالأمر لا يحتاج إلى مُقدّمات. كان رئيس الدّيوان قد اعتلى عرشًا يرتفع عن البِساط الّذي مُدّتْ فيه كراسيّنا، وقد جلسَ عن يمينه رئيس ديوان الجُند، وعن يساره رئيس ديوان القضاء: «تكلّمْ يا عبد اللّطيف» قال بلهجةٍ صارمة. «سيّدي، نحن نتعرّض للطّاعون، إنّه مرضٌ فَتّاك، تبدو جيوش الأرض كلّها بأثقال أسلحتها ذات تأثيرٍ هامشيّ بالنّسبة إليه، إنّه يستطيع أنْ يُضخّم بعضَ أعضاء الإنسان الدّاخليّة، ويؤدّي إلى تقيّحها أو انفِجارها في غضون ثلاثة أيّام إلى سبعة، والنّجاة منه لمن أُصيب به تُعَدّ ضربًا من المُستحيل إلاّ بمشيئة الله، وكلّ يومٍ يمرّ على القاهرة لا تُتّخذ فيه إجراءات حازمة لمُواجهته، فمعنى ذلك أنّنا نضع أعناق النّاس على حدّ السّيوف، إنّني أطلب...» قاطَعني رئيس الدّيوان: «توقّفْ... توقّفْ... هل الأمر خطيرٌ إلى هذا الحَدّ؟». «سيّدي، إذا لم تكنْ لدينا نحن أهل العِلم وأهل الأمر سرعةٌ في مواجهته، فإنّ هذا المرض الفَتّاك قادرٌ في بضعةِ شهورٍ أنْ يُبيدَ نصفَ سُكّان مصر بأكملها، ولِذا أطلبُ أنْ...» أوقفني هذه المرّة رئيس الجُند وهو ينظر إلى رئيس الدّيوان: «أرى أنّ في لغةِ الطّبيب شيئًا من العُنجهيّة، يُمكنك أنْ تُعلِمنا بالأمر، وهذا يكفي...». تابعتُ دون أنْ أردّ عليه: «إنّني أطلبُ أنْ تُبنَى المَصحّات والبيمارستانات في المدن والأسواق المُكتظّة من أجل...». قاطَعَني من جديد رئيس الجُند، وقد أحنقه أنّني أهملتُ كلامه: «مَنْ أنتَ حتّى تطلب شيئًا كهذا؟ لقد خُضنا عشرة حروب حتّى الآن مع أعدائنا من الصّليبيّين ولم نُضطرّ إلى أنْ نبني بيمارستانًا واحِدًا». «سيّدي رئيس الدّيوان، إنّني هنا لأقول هذه العبارات، ولا أظنّ أنّنا سنلتقي مرّة أخرى، وليسَ لديّ ما أقوله غيرَها، إنّكم إنْ لم تُسارِعوا في إنقاذ النّاس، فسترى العَرَبات تجوبُ شوارع القاهرة كلّها، تخرج من بيوتها الفقيرة وقصورها الغنيّة وهي تحمل جثث الموتى، لا تُفرّق بين أحدٍ... إنّني...». وتوقّفتُ أنا هذه المرّة، وتحشرج صوتي، بلعتُ ريقي، ومسحتُ دمعةً طفرتْ من عيني بظاهر يدي، وتابعتُ: «إنّني سأعمل بكل ما أستطيع من أجل أنْ أُنقِذ ما أستطيع إنقاذه أنا والمُخلِصين معي». بدوتُ واعِظًا في الجملة الأخيرة، وتحرّك الفقيه الّذي فِيّ، لكنّ الطّبيب صحا من جديد: «إنّ الكارثة أكبر مِنّا جميعًا». كان رئيس الدّيوان يُصغي مُضيّقًا عينَيه، حينَ سأل: «أيّها الحكيم، إنّني لا أعرفُ ما الطّاعون؟ هل تريدُ منّي أنْ أحاربَ عدوًّا لا أعرفه؟!». «سيّدي، الطّاعون مرضٌ ينتقل بالهواء، وبالملامسة، وسببه على الأرجح الفِئران، وأنتَ ترى أنّ الفِئران لولا حرسُكَ الّذين في الخارج لكانتْ تتهادَى الآن بين ساقَيك، وقد يكون سببه البراغيث، وقد يكون فسادَ الهواء، وما أطلقتْه الحرائق من أدخنة، أو ما صعد من باطن الأرضِ أيّام الزّلزال من أبخرةٍ سامّة، وقد يكون قلّة النّظافة، وما تعفّن من جُثث الموتى بعدَ الزلزال، لا يُمكن أنْ أحدّد لكَ سببًا واحِدًا». أوقفَ رئيس الجُند سيل الكلام المُتدفّق من فمي برفع يده في وجهي، وسألني بشيءٍ من البلاهة: «ولكنّني سمعتُ مَنْ يقول إنّ سبب الطّاعون ليس كما تدّعي، وإنّما هو بُذيرات سقطتْ من النّجوم إلى الأرض، وهي تتوالد في جسم الإنسان إذا دخلتْ إليه».

أجبتُه: «هذا تفسير كاهنٍ أو عَرّاف، وأنا أتحدّث هنا بوصْفي طبيبًا، لكنْ قد تكون له أسبابٌ أخرى مثل رداءة الطّعام، وشدّة الازدِحام، وإهمال الوضوء جيّدًا، والتّسمّم النّاجم عن تناول بقايا الطّعام المُلقاة في صناديق القمامة، أو اللّحم الفاسد، أو الرّائحة النّاتجة عن عدم تصريف فضلات الإنسان بشكلٍ صحيح، أو الحيوانات النّافقة في النّيل، أو... لديّ قائمة تطول». وتنهّدتُ وأنا أرفع كتفَيّ إلى الأعلى وأُهبطهما بشكلٍ سريع، وأطلق زفيرًا عالِيا كأنّني أريدُ أنْ أنتهي من قذف الأسباب بأسرع ما يُمكن في وجوه رؤساء الدّواوين. سألني رئيس الدّيوان أنْ أكمِلَ ما كنتُ أقوله من قبل أنْ يعترضَ عليّ رئيس الجُند، فتابعت: «سيّدي؛ إنّ الطّاعون إذا انتقل عبر الهواء الفاسد إمّا بالاستِنشاق أو مَسامّ الجلد، فإنّه يُولّد سُمًّا داخل الجِسم، فإذا تراكمَ السّمّ حول القلب كما قال ابنُ سينا، فإنّه يؤدّي إلى الموت، فإذا أرادَ الجسم أنْ يُصرّف السّمّ الّذي دخل إليه، ظهر في أماكن ثلاثة، هي منطقة العنق لقُربها من الدّماغ، وتحت الإبطين لقربها من القلب، والأُربيّة في أسفل البطن أو أعلى الفخذ لقربها من الكبد». تنهّد رئيس الدّيوان، وكان يبدو عليه أنّه شعر بخطورة ما أقول، فتابعتُ: «ولكنْ...». فانتبه إليّ بعدَ أنْ كان مُطرقًا، وقال: «ولكنْ ماذا؟ تكلّمْ أيّها الحكيم». فقلتُ: «ولكنْ يُمكن الوقاية منه، لأنّ عِلاجه إنْ وقع صار مُتعذّرًا في أكثر الأحوال، ومن أجل ذلك كان هذا الاجتِماع، إنّ ابن سينا قبلي، وآخرين قد رسموا طرق الوقاية، وإنّ الطّاعون ليسَ جديدًا على الأرض ولا على البشر، ولعلّه هبطَ مع أبينا الأوّل، وقد مرّ علينا نحن المُسلِمين أكثر من عشرة طواعين قبل هذا، وما طاعون (عمواس) الّذي قتل ما يقرب من خمسةٍ وعشرين ألفًا من المُسلمين عنّا بغريب... وطرق الوقاية مُمكِنةٌ ما لم يسبق السّيفُ العَذْل، فعدم الخوف من المرض، والبعد عن الأسواق، ومنع الآتين إلى القاهرة من دخولها، وعدم خروجنا من بيوتنا، ووقف الصّلاة في المساجد والصلاة في المنزل، والصّبر، كلّها وسائل قد تكون مُفيدةً في مثل هذه الحال».

خرجتُ لا أدري، إنْ وقع قولي في القلب، أم أنّه لم يُجاوز الآذان. الآن تبدأ مَهمّتي، وعليّ أنْ أعرفَ ما يتعيّن عليّ القِيام به على الوجه الصّحيح.

في الصّباح توجّهتُ إلى البيمارستان الرّئيس، النّاس سيبدؤون بالتّوافد إليه، هذا مُؤكّد، كانتْ هناك أعدادٌ كبيرةٌ بالفعل تُعالَج في الغُرَف المُخصّصة، وأخرى تنتظر، وثالثة تتجمهر من ذوي المرضى في الأروقة، وبعضُها يجلسُ على العشب في السّاحات الخارجيّة، وكان هناك لَغَطٌ يعلو هنا، وصِياحٌ يعلو هناك.

غُرَف مرضاي في قسم الجراحة، قريبًا من قاعة التّدريس الكبيرة، دخلتُ الغرفة الأولى، المريض يتكوّر على نفسه من الألم، كان المساعِدون قد نزعوا عنه ثِيابه، فظهر دُمّل في عنقه، كان ضخمًا، الدّمّل السّابق الّذي رأيتُه كان أصغرَ من هذا، كان لونه أحمر داكنًا يميلُ إلى السّواد، واضحٌ من حجمه ولونه أنّه مُحتقِن، كان المريض إلى ذلك محمومًا، وكان يهذي، طلبتُ من المُساعدين نقلَه إلى غرفة التّدريس الكبيرة، نقلوه، حينما ولجتُ من الباب تلقّاني سالم، وخليل، فرحتُ برؤيتهما، قالا: «لن نُفارقكَ بعدَ اليوم». ابتسمتُ: «نحن بحاجة إلى كلّ مَنْ يستطيع أنْ يُقدّم المساعدة». قلتُ لهما وهما يرفَعانه ليضعاه على سرير التّحضير لعمليّة الفصد: «الوقاية من العدوى للطّبيب أهمّ منها للمريض، علينا أنْ نُحافظ على أجسامنا صحيحة. اربطوا على أفواهكم وآنافكم اللّثام الخاصّ بذلك، ولا تمسكوا بأيّ آلةٍ جراحيّة قبل أنْ تكون القُفّازات في أيديكم».

أدوات الجراحة على الطّاولة، كان هناك المِقصّات، والسّكاكين الدّقيقة، والمشارط، والإبر، والخيوط لربط الجروح المفتوحة، والملاقط، والحلقات المعدنيّة، والمطارق الصّغيرة... أمرتُهم أنْ يتأكّدوا من تعقيمها جيّدًا، قال لي خليل: «إنّها جاهزة يا سيّدي». «ناوِلْني المِشرط»، كان المريض يئنّ من الألم، ويهذي من الحُمّى، وكانتْ عيناه زائغَتين، ويداه مُرتخيتَين، أمسكَ مُساعِدٌ لي عُنُقَه، وأعملتُ المِشرطَ ذا الطّرف الحادّ في الدّمّل، ثُمّ أعملتُه في الخطّ المتقاطع مع الخَطّ الأوّل، فسال الصّديد منه، كان مزيجًا من القيح الأصفر والدّم الأحمر، صرخَ المريضُ صرخةً عاليةً من الوجع، وحاول أنْ يحرّك رأسه لكنّها كانتْ مُمسَكةً بذراعَين قويّتَين من أحدِ المُساعِدين.

قلتُ لهم: «شِفاؤه مُمكِن، الآن سينام، حينَ يُفيق، سيكون قد قطع أوّل شوطٍ في التّعافي. علينا أنْ نراقبه خلال هذه المُدّة». مكث المريضُ ثلاثةَ أيّام، لم يتضخّم أيّ عضوٍ داخليٍّ أو خارجيٍّ فيه، تعافَى في اليوم الرّابع بشكلٍ ممتازٍ على ما يبدو، فرحنا أنا ومجموعة الأطبّاء لشِفائه كثيرًا، كانتْ تجربتنا الأولى! ❞

❝ (١٠)

الرّجل صِفر

في الأيّام الّتي تعافَى فيها المريضُ الأوّل، بدأتْ تَفِدُ إلى البيمارستان أعدادٌ كبيرةٌ من المرضَى، كان يبدو أنّ المكان يضيقُ بهم. صار تعافي المريض الأوّل حلمًا، نراه ولا نراه.

أعلنَ ديوان مصر: «على النّاس أنْ يبقوا في بيوتهم، ولا يُغادِروها أبدًا، إلاّ إذا اقتضتِ الضّرورة». التزمَ النّاس بأوامر الدّيوان، باتتْ شوارع القاهرة خاليةً من النّاس، لا يتجوّل فيها إلاّ الشّرطةُ والعَسَس، والفِئران الّتي لم تنقطع. في اللّيل انقطعت الأقدام من الشّوارع، كان يبدو أنّ نومًا طويلاً في ليلٍ أطول قد أصابَ المدينة، وأنّها لن تستيقظَ منه قريبًا.

أعلن الدّيوان مكافحة الفِئران: «إنّ مَنْ يصيدُ فأرًا ويأتي به إلى المحرقة الخاصّة سينال مُكافأةً قدرُها درهمان». بعدَ بضعة أيّام اكتظّ الشّارع المؤدّي إلى المحرقة بالنّاس وهم يحملون فِئرانهم من ذيولها أو في أَجرِبة، كان بعضُهم يحمل خمسين فأرًا، بعضهم كان يحمل مئةً من تلك الفِئران الميّتة في قفصٍ خشبيٍّ فوقَ رأسِه؛ لقد كانوا يُربّون الفِئران في بيوتهم ليحصلوا على المكافأة الماليّة!! من نافلة القول إنّ ذلك الاكتِظاظ، وتلك الفِئران الميّتة في الشّارع المؤدّي إلى المحرقة سوفَ تكون هديّة الديوان إلى أهل مصر، لقد سقطتْ مصر كلّها في هول الطّاعون.

اشترى النّاس بكلّ ما تبقّى لديهم من مالٍ آخرَ ما تبقّى في الأسواق من طَعام، إعلان عدم التّجوال في الشّوارع فاقم الإحساس بالموت، وبأنّ شبحه يُخيّم عليهم، كان الجوع يُرسّخ في عقول النّاس صورةَ الموت الأليمة، وكانوا يُحاربون الموت من خلال تلافي ذلك الجوع عن طريق شِراء ما كانوا يحتاجونه وما لا يحتاجونه، اشتَروا كلّ ما في مخابز القاهرة في الأيّام الثّلاثة الّتي سُمِحَ لهم فيها بالشّراء، لكنّ بُطونَهم الّتي ظَنّوا أنّهم يستطيعون أنْ يُلقوا فيها حمولة سفينةٍ كاملةٍ ليطردوا عن أنفسهم شبحَ الجوع، لم تستطعْ أنْ تأكل أكثر مِمّا يملؤها، وإذًا فإنّ هذه الأردبّات الّتي لا يُمكن تخيّلها، وتلك المئات من الأرغفة الّتي لا يُمكن عَدّها صارتْ وليمةً شهيّة بعد ذلك للفِئران، الّتي بدأتْ تتزايد بأعداد مُرعبة، آنئذٍ كان على الدّيوان أنْ يدفع لمُربّي الفِئران كلّ ما في خزينة الدّولة من ذهبٍ ومال، وعليه؛ فقد أعلن الدّيوان: «لا مكافأة ماليّةً بعدَ اليوم لصيّادي الفِئران».

الشّرطة في اللّيل مع العَسَس مع رِجال الدّولة يجوبون شوارع القاهرة والمدن القريبة، لكنّ الدّولة لا تملك هذا العدد الكافي من رِجال الأمن لكي تنتشرهم في كلّ مكانٍ، ولِذا، كان بعضُ الخارجين المُتلصّصين، ينسلّون من بيوتهم إلى الطّرقات خِلسةً وبعيدًا عن الأعين لالتِقاط بعضِ الفُتات، أو طرق أبواب النّاس الّذين لديهم طعامٌ يُمكن أنْ يتصدّقوا به، لكنّ أهل اليَسار أنفسهم بدؤوا لا يجدون ما يأكلون.

كان أهل القُرى أحسنَ حَظًّا من أهل القاهرة والمدن، كان يُمكن أنْ يأكلوا بعضَ ما تبقّى مِمّا تُخرج الأرض، لكنّ الأرض هي الأخرى بدأتْ تجوع، لا ماء النّيل الشّحيح أَرْواها، ولا ماء التّرعات، ولا ماء الخسف الحَمِئ الّذي أهلكَ خُضرة الزّرع منذ ما يقربُ من عامٍ، ولا ماء البِرَك ولا القَنَوات. لكنّ في الأرض ما يُمكن أنْ تجودَ به أكثر من البشر، لأولئك البشر الّذين لا يسألون النّاس إلحافًا، ولا يطرقون الأبواب المُغلَقة على الأغنياء، الأغنياء من الأمراء والوزراء الّذين بدؤوا يُخزّنون في بيوتهم وقُصورهم الطّعام، تاركين النّاس يأكلون التّراب.

«القانون يسري على أهل مصر كلّهم، لا أحدَ يمرقُ فوقَه، المارِقون لهم السّيف»، هكذا صار الشُّرَطة ينادون في الطّرقات، وهم يتابِعون: «لا أحدَ يخرجُ من بيته، الخارجون يُحاكَمون». ولكنّ النّاس حتّى لو كانتْ قِطَطًا، لا يُمكن أنْ تحشرها لتموت من الجوع في إحدى زوايا البيت راضيةً مُستسلِمة. لقد كان على عددٍ منهم أنْ يخرجوا؛ لأنّ لديهم أطفالاً يموتون، أو كِبارًا في السّن لا يستطيعون تحمّل الجوع مثل الآخَرين، ويحتاجون إلى العناية، وربّما إلى البيمارستان. ولِذا تجرّأ بعضُ النّاس لكسر القانون، وخرجوا من أجل أنْ يُحافِظوا على ما تبقّى في أجسادهم من حياة. بعضُهم نَجَح، ولكنّ بعضَهم ألقتْ عليه الشُّرَطَة القبض، فسِيقَ إلى السّجن ريثما تتمّ مُحاكمته، كان هذا أوّل سجينٍ يدخل إلى السّجن في زمن الطّاعون، لم يكنْ أحدٌ من نزلاء السّجن مُصابًا بالطّاعون قبلَه، بدخوله إلى هناك، فتحَ البوّابةُ على عددٍ لا يُمكن التّنبّؤ به من المَوبوئين، لنفترضْ أنّه الرّجل صِفر، دخل الرّجل صِفر إلى غرفة التّوقيف، غالبًا ما يكون فيها ذلك الصّنف من المقبوض عليهم قبل أنْ تُوجّه إليهم تُهمة، ويكون عددهم كبيرًا، كانوا لا يقلّون عن مئة في تلك النّظارة، الدّاخل الجديد إلى نظارة التوقيف يحمل الحكايا من الخارج، ولذلك فَرِح به الموقوفون، وتحلّقوا حوله في المساء ليروي لهم ما يجري في الخارج: «هل صحيحٌ أنّ

الدولة مَنَعت التّجوال في الشّوارع»؟! يسأله أحدهم، لكنّ آخَر لا يُعطيه الوقت ليجيب عن هذا السّؤال، فيقول بصوتٍ غاضبٍ: «أنا رزقي كلّه يعتمد على التّجوال في الشّوارع، أنا أبيع الورود، صحيحٌ أنّه لم يعدْ أحدٌ يشتري ورودًا هذه الأيّام، أنا أحاول، ولو كنتُ مكانَ الشّباب لاشتريتُ أضمومةَ وردٍ قبل أنْ أشتري رغيفَ خبزٍ...» ثُمّ تلينُ لهجته، ويضحك وهو يلوّح بقبضته في الهواء: «لن يمنعني أحدٌ من البيع في الشّارع، وإذا لم أبع الورد فسأبيع الشّعير، هؤلاء قومٌ لا يشترون إلاّ الشّعير!». ويضحك وتضحك معه جماعةٌ، فيردّ عليه الرّجل صِفر مُمازِحًا: «إنّه حتّى الشّعير فُقِدَ يا صديقي». فتسري همهمةٌ بين المُتحلّقين حوله، يقول رجلٌ ثالث: «دَعوه يا جَماعة يُخبرنا كيفَ ألقَوا القبضَ عليه». يردّ الرّجل صِفر: «لقد كنتُ أمشي في الشّارع أبحثُ عن طعامٍ لأبي الّذي جاوز الثّمانين، وهو مريضٌ في الفِراش، ومنذ ثلاثة أيّام لم يأكل شيئًا، فـَ...». يُقاطعه صوتٌ من آخر الحلقة: «الملاعين، ألا توجَد في قلوبهم رَحمة؟!». يُتابع الرّجل صِفر: «نزلتْ عليّ هراوةٌ فوقَ رأسي فشجّتْه، وأسقطتْ العِمامة، وسالَ دمي غزيرًا». يُميل رأسه نحوه يُريهم الجرح ليتأكّدوا من صِدق روايته، ثُمّ يمسح بإصبعه على موضع الجرح بما تخثّر فيه من دم، ويرفع الإصبع أمام عيونهم، ويتابع بلهجةٍ مُستخذِية: «لم أكنْ أريدُ أكثر من لقمة لأبي». يتقدّم إليه شخصٌ من الحلقة الثّانية، ويقبّله على رأسه، ويلعق موضع الجرح، ويهتف: «لا تحزن يا أخي... ستُفرَج». ويعودُ إلى مكانه. يأتي صوتُ الشُّرَطيّ من نافذة الباب: «ناموا أيّها الملاعين..». يضحكون، ويقول شخصٌ ما: «إنّه ابنُ حرام، دعكَ منه، نريدُ أنْ نسمعَ المزيدَ..». يُشبِع فضولهم بمعرفة ما يجري في الخارج، ثُمّ يستيقظُ أولئك الّذين كانوا نائمين أثناء حديث الرّجل صِفر، إنّهم مُتشوّقون كذلك إلى سماع ما فاتهم، ينام الّذين سَمِعوا، ويتحلّق حول الرّجل صفر الّذين استيقظوا للتّوّ، يُعيد لهم الحِكاية من جديد، ويزيدُ عليها، ويُؤدّيها أداءً تمثيليًّا أجمل هذه المرّة بعد أنْ تدرّب عليها في المرّة السّابقة، إنّ صوتَه المُتهدّج وهو يتحدّث عن أبيه: «لا أدري كيفَ هي حالُه الآن بعد أنْ ألقَوا عليّ القبض، ورمَوني في هذا السّجن، إنّني ابنُه الوحيد، وليسَ له مَنْ يرعاه سِواي» يجعل قلوب المُستمِعين تتفطّر، فيقوم إليه عددٌ من المُشفِقين ويحتضنونه، ويُهدّئون مِنْ رَوعِه.

الآن يُمكننا تخيّل السّلسلة، خمسون من مئة من الّذين قبّلوه على رأسِه أو احتضنوه أو جلسوا بجانبه وربّتوا على كتفه بين فينةٍ وأخرى، أوناموا قريبين منه، انتقلَ إليهم الطّاعون. هؤلاء الخمسون احتاجوا إلى يومٍ واحدٍ آخَر فقط من أجل أنْ ينقلوا الطّاعون إلى كلّ مَنْ في النّظارة، المئة الّذين كانوا في النّظارة انتقلوا إلى مَحاكم مُختلِفة، يتوزّعون على قضايا وتُهَم مُتعدّدة، نقلوا الطّاعون إلى أولئك الّذين في المحاكم، عندما عادوا إلى السّجن لم يعودوا إلى النّظارة لأنّهم صاروا من المحكومين، بل نُقِلوا إلى غُرَف أخرى في السّجن حسبَ قضاياهم، أو إلى سجونٍ أخرى حسب مدّة المحكوميّة، وكانوا جميعًا يحملون معهم الطّاعون في أجسادهم. بعدَ نحو أسبوعَين كانتْ سجون مصر كلّها مُصابة بالطّاعون؛ السّجناء، الشّرطة، الآمرون، الحُرّاس، رؤساء السّجون، كان كلّ سجينٍ يحمل نُسختَين منه؛ جسدَه وطاعونه. كان الطّاعون يمشي في الغرف، وفي السّاحات، وفي الأقبية، وفي الأروقة، وكان ينطبع على الحجارة، ويسيل في الأمعاء مع الطّعام، وبدأ يتجسّد في هيئاته المُحبّبة؛ أجسامٌ هزيلة، بأسمالٍ بالية، في غُرفٍ تحتَ الأرض، لا يصل إليها الهواء، تنبعثُ منها روائح لا تُطاق، يستلقون على الأرض، ينتظرون شَرْبةَ ماءٍ واحدةً لا يُمكن لأحدٍ أنْ يحصلَ عليها، فلا الماء موجود، ولا أحدَ قادرٌ على أنْ ينهضَ ويأتي به، أو أنْ يُقدّمه لسجينٍ بجانبه.

الّذين نجَوا من المساجين هم أولئك الّذين ماتوا في المُحاكمات قبل أنْ يعودوا بهم إلى السّجن، لقد نزلتْ بهم رحمةُ الله؛ أولئك الّذين هوتْ على رقابهم سيوفُ الجلاّدين تنفيذًا لقضاء الله فأطارتْ رؤوسهم من فوقِ أكتافهم!!

أعلنَ ديوان مصر أنّ السّجون موبوءةٌ بالطّاعون، وسيّر كلّ عَرَباته لنقلِ الموتى، واستغرقوا خمسةَ أيّام لنقل الجُثث، ودفنِها، جثث الّذين ماتوا، وأولئك الّذين كانوا يموتون في العنابر الأخرى أثناء نقل الموتى إلى مثاويهم الأخيرة. العَرَبات لا تتوقّف عن الحركة، لقد أصبحتْ لكثرتها مع الخيول، كأنّها جيوشٌ جرّارة، ومع ذلك لم تكنْ كافية! ❞

❝ القِسم الخامِس

المَوتُ الأَسود

(الّذين يَنتظِرون المَوتَ وليس هو، ويَحفرون عليه أكثرَ مِنَ الكُنوز، المَسْرُورين إلى أنْ يَبْتَهِجُوا، الفَرِحين عندما يَجِدُون قَبْرًا، لِرَجُلٍ قد خَفِيَ عليه طريقُه، وقد سيّجَ الله حوله، لأنّه مثلَ خُبْزي يَأْتِيني أَنِيْني، ومثلَ المِياه تَنسَكِبُ زَفْرتي، لأنّي ارتِعابًا ارتعبتُ فأتاني، والّذي فَزِعْتُ منه جاءَ عَلَيّ، لم أطمئنّ ولم أسكُنْ ولم أسْترِحْ، وقد جاء الرُّجْز).

(سِفر أيّوب، ٣: ٢١-٢٦) ❞

❝ (١)

لم يعدْ رئيس الشُّرَطة يحتمل الخُروقات، كان عليه أنْ يُفكّر بطريقةٍ تجعل النّاس يرتعدون، جمعَ ثلاثينَ رجلاً من الّذين ألقتِ الشُّرطَة القبضَ عليهم، وعلّقهم في جذوع النّخل، مَصلوبين، على قوارع الطّرق، كان منظرهم مُرعِبًا على الحقيقة، رِجالٌ في أواسط العمر، مَدقوقةٌ أجسامهم بمسامير كبيرة، وقدْ قُطِعتْ لكلّ واحدٍ منهم يده اليُمنى مع رِجله الشِّمال، وبعضُهم كان يتدلّى جسدُه مُعلّقًا من رقبته أو من جذعه بحِبال غليظة من تحت الأشجار العالية. كان رئيسُ الشُّرَطة يريدُ أنْ يجعلهم عبرةٍ لأولئك الّذين يُخالِفون أوامر رئيس الدّيوان بالبَقاء في البيوت، كان يقول لمن يعترض على إنزال العقوبة بهم: «هلاكُ شِرذمةٍ من النّاس فيه رحمةٌ لبقيّتهم، لن أغامر بحياة ألفِ ألفٍ في القاهرة وحدها من أجل حفنةٍ من المارقين». ولِذا صُلّب هؤلاء المارقون على مُفترَقات الطّرق في الشّوارع الرّئيسة والكُبرى، والّتي يتجمّع حولَها أكبر عددٍ من البيوت، ولِذا كان النّاس دون أنْ يخرجوا من بيوتهم، يستطيعون أنْ يرَوا هذه الجُثث المُرعبة من شُرُفات بيوتهم ومن الأبواب إذا أشرعوها، ومن النّوافذ إذا وقفوا ونظروا إلى الخارج. كان المنظر يُلقي في قلوب أشدّ النّاس شجاعةً خوفًا لا يُمكن الحدسُ به، وكان الآباء يُحذّرون أطفالَهم من اختِلاس النّظر من النّوافذ دون أنْ يقولوا السّبب، مِمّا زادَ في فضولهم لينظروا، وصار مجرّد التّحذير من النّظر عبر النّافذة أو الخروج إلى الشرّفة، يجعل منهما؛ النّافذة والشّرفة مكانَين مُخيفَين، لا أحدَ يريدُ أنْ يحدّق فيهما أو يتلفّظ باسمِهما، وصار فراغ النّافذة أو باب الشّرفة موطنًا خصبًا للخيالات المُرعِبة، فارتسمتْ عليه صُوَر الموت في أذهان الكِبار قبل الصّغار، وأشباح تتجوّل، وتظهر بأرديتها السّوداء، وأنوفها المَعقوفة، وصوتها القبيح، وأشداقها الّتي يسيل منها الصّديد، وإذا حدثَ أنْ حانتْ من الأطفال نظرةٌ في غفلةٍ من الآباء، فإنّ طاعون الخوف يتشبّث بخيالهم الخصب ولا يُمكن آنئذٍ التّخلّص منه أو الشّفاء من آثاره، ولذلك عاش الآباء على أعصابهم، وهم يراقبون ذويهم ألاّ يقتربوا من تلك الفراغات المُحرّمة!!

أمّا أولئك الّذين قُدّر لهم أنْ يسيروا في الشّوارع من الشّرطة أو المُتسلّلين فإنّهم يَرْوُون عن تلك الجُثث المصلوبة رواياتٍ تفوق الخيال، يروى هذا الشّرطي الّذي جاء إليّ في المُستشفى ليُعالَج من اضطراباته العصبيّة، كيفَ أنّه كان يركبُ حِصانه في ظِلال الصّباح قُبيل طلوع الشّمس، فإذا هو يرتطمُ دون أنْ ينتبه بجثّة مُتدلّيةٍ من تحتِ شجرة، وإذا هو ينظر إلى وجه الجُثّة فيرى عددًا من الأفاعي تخرج من عينَيها، ودودًا يخرج من فمها. وروى لي آخَر كيفَ أنّه كان يمشي في مهمّته للبحثِ عن المُتسلّلين في الشّوارع، فإذا هو يشعر بلحمٍ طريّ يسقطُ فوقَ خدّه، وعندما رفع رأسه ليرى ما الّذي يسقط وقعتْ عيناه على جُثّة قد نقبت الغربان لحمَها فصارتْ تتساقطُ أحشاؤها على المارّين من تحتها! وروى لي ثالثٌ أنّه شاهَدَ بأمّ عينَيه كيفَ قُطِع رأسُ أبيه أمامه، وإنّ كلّ ذنبه أنّه خرجَ لكي يخبز للنّاس الجوعَى، ولم تكن الشّرطة تعرفه، فظنّتْه أحدَ اللّصوص!

فاقمتِ الإجراءاتُ الأخيرة في انتشار الطّاعون، الجُثث المُتدليّة من تحت الأشجار صارتْ بالعفن والتفسّخ والروائح موضعًا خصبًا للإصابة به، ولذلك وفدَ إلى البيمارستان عددٌ كبيرٌ من الشّرطة، بل إنّ بعضَهم من شدّة الرّعب، ظَنّ أنّه أُصيب بالطّاعون من مجرّد النّظر إليها. وهذا ما استقرّ عليه رأيّ العامّة من أهل البيوت، إذ اعتقدوا أنّ مجرّد النّظر إلى المطعون يُعدِي، ولذلك راحَ بعضُ الآباء يُغلق النّوافذ بالمسامير، ويدقّ فيها الشّواقل، ويُنزل فوقَها السّتائر السّميكة، ويفعل ذلك مع أبواب الشُّرُفات، وآخرون أغلقوا على أنفسهم بيوتَ أبوابهم، ولم يفتحوا لطارقٍ حتّى ماتوا دون أنْ يشعر بهم أحد!!

نشرَ ديوان مصر تعميمَ بعض البيمارستانات، والمصحّات في القاهرة، لمحاولة احتِواء المرض: «على مَنْ يشتبه بإصابته بالطّاعون أنْ يتقيّأ مرّتَين في الصّباح دون أنْ يكون قد أكل لليلةٍ كاملة، وأنْ يَتمدّد في فِراشٍ دافِئ، ويشرب منقوع الزّنجبيل كي يتعرّق ويُخرِجَ السّموم من جِسمه، وإذا شعر بحكّةٍ تحت الإبط أو أسفل العنق، فعليه أنْ يذهب إلى أقرب بيمارستان أو مصحّة». كان تعميمًا لا فائدة منه؛ إذ وُزّع على الأهالي في وقتِ المنع من الخروج، لكنّ الدّولة أرفقتْ معه بيانًا آخَر؛ أنّ عَرَباتها ستقوم بنقل المرضى من بيوتهم إلى المشافي، وسمحت الدّولة للعَرَبات أنْ تتنقّل في

الشّوارع، وسخّرتْ كلّ عَرَباتها في دواوينها لهذا الغرض، ثُمّ ظَهَر من أهل القاهرة من يُؤجّر عربتَه لنقل المرضى، وكان هذا إيذانًا بسماع وقع حوافر الأحصنة على الطّرقات المرصوفة، أو وَقْع عجلاتها الحديديّة، وهي تعبر الشّوارع ماضيةً إلى المشافي في سكون اللّيل، بعدَ أنْ كانت المدينة

بكلّ ما فيها تغرقُ في صمتٍ مُظلِمٍ كثيف!

ازدهرتْ تِجارة تأجير العَرَبات مع ازدياد المرضى بشكلٍ جنونيّ، في البيمارستان الرّئيس، كان يُمكنكَ أنْ تشاهد المئِات تروح وتجيءُ في السّاحة أمام البوّابة الكبيرة، تصطفّ في أدوار لنقل النّاس. سيكون هناك جَشِعون، بالطّبع، تلك هي تجارة الأوبئة، كانت العربة تُستأجر في أيّام الرّخاء بنصف دينار، واليوم يطلبون عشرة دنانير لنقل مرضاهم أو موتاهم. لكنّ (شريف) الّذي كدتُ أنساه برز ذات يومٍ بلونه الأسود، وكان العَرَق قد جعل بشرته تلمع تحت الشّمس، وهو يبتسم لي عن أسنانٍ بيضاء كأنّها نهارٌ في ليل: «سيّدي، جِئتُ لأُقدّم المساعدة». كان يقفُ وفي يده لِجام حِصانٍ من خلفه عربةٌ تبدو فارهةً بصندوقها الواسع المصنوع من خشب الجُمّيز الفاخر، سألتُه: «مِنْ أينَ لكَ العَرَبة يا شريف؟». ردّ باعتِزاز: «لقد كانتْ في مُنشأة القاضي الفاضل، مُخبّأة في أحد المُلحَقات الّتي لم يصل إليها اللّصوص، ولذلك لم تُسرَق، في الحقيقة هناك اثنتان، هذه صالحةٌ للمباشرة في العمل، والأخرى تحتاج بعضُ التّصليح». ابتسمتُ: «وأيّ خِدمةٍ ستُقدّمها يا شريف؟». «أنا رهنُ إشارتكَ سيّدي؛ أنقل المرضى من البيوت إلى هنا، أو أُعيدهم». «مقابل مالٍ؟». «لا يا سيّدي، أفعل ذلك عن روح القاضي الفاضل». اتسعت ابتِسامتي، وقلتُ له: «يبدو أنّكَ ستتعبُ كثيرًا في هذه المهمّة!». «أنا جاهزٌ يا سيّدي».

في الغُرَف، نحاول مع الموت، نحن لا نحاول مع جسدِ المريض، نحن نحاول مع ذلك الموت المُستتر خلفَ هذا المرض الفتّاك. طلبتُ من شريفٍ أنْ يتولّى في هذه المرحلة إحضار الأدوية من ديوان مصر، كان بعضُها يأتي جاهِزًا، وبعضُها نقوم نحن بتجهيزه في البيمارستان، توافر في صيدليّتنا كثيرٌ من الموادّ الخامّ؛ الصّنوبر والزّنجبيل والنّعنع والصّعتر البرّيّ والقرنفل والمسك والعنبر والبخور والنّاردين والشّعير، والهال، والزّعفران، والكافور،... وكثيرٌ من العقاقير، صِرنا نمسح بها الدّمامل الّتي نقوم بِفَصْدِها من أجل تطهيرها، ونغلي بعضَها الآخَر ليشربها المريض، كُنّا نتّبع طريقة ابن سينا في العِلاج. كان الفَصْد أوّل المراحل، الفَصْد يزيدُ في نسبة الشّفاء، مع أنّها ضئيلةٌ جِدّا.

لم أستطع أنْ أعودَ إلى بيتي منذُ أكثر من شهرَين، وأنا أنام في البيمارستان، النّوم مع المطعونين المُقبلين على الموت في حدّ ذاته ليس سهلاً، قد يتآلف معه الطّبيب، ولكنّه لا يُمكن أنْ يتآلف مع أصواتهم وهي تصعدُ بأرواحهم إلى السّماء لشدّة الآلام الّتي يُعانونها. إنّني مع زملائي الأطبّاء لا نكادُ ننام في اليوم أقلّ من ثُلُث اللّيل، وإذا ما أردْنا أنْ نخلدَ إلى النّوم من أجل الرّاحة، لم نجد الهدوء، إذْ إنّ صرخات الموجوعين لا يُمكن أنْ تجعلك تغفو للحظة. كنتُ أهربُ من تلك الأصوات، صوت أحواض الاستِحمام الّتي تغلي بالماء أو تُبقبق من أجل التّطهير، صوت صنابير الماء الفضّيّة المَسكوبة على الدّوارق فوق أعمدة النّار، صوت الآهات المُعذَّبة، صوت الغَرْغَرات، صوت النَّزْع، شخير الخروج الأخير للروح، وصوت فَزَع المُمرّضات مع كلّ قادمٍ جديدٍ وهنّ يركضْنَ في الممرّات في محاولةِ الإمساكِ بالحَيَوات الهاربة. كنتُ أخرجُ في بعضِ اللّيالي إلى ساحة البيمارستان الفسيحة الّتي تربطُ بين أقسامه، وأتمدّد على العشب وأنظر في النّجوم الصّحيحة المُشرفة من عليائها على الأجسام العليلة، وهي تسبح في صفحة السّماء الدّاكنة، لم أعدْ أطيقُ أنْ أكونَ مسؤولاً عن سقوط العالم في حُفرة الموت، صار ينتابني شعورٌ أنّني منزوعٌ من هذا العالَم، آتٍ في غير زماني، وماكثٌ في غير مكاني، وأنّه عليّ أنْ أكون أقلّ اكتِراثًا بكلّ ما يجري، وأنّه عليّ ألاّ أفزع كثيرًا وأنا أرى الموت يتفنّن في الحلول في هذه الأجساد المُنهَكة. لقد خرجتُ إلى السّاحة في هذه اللّيلة أستجلبُ بعضَ الهدوء، ومع ذلك فإنّني لا أحظَى به دائِمًا، إذْ ما أكادُ أقتربُ من غفوةٍ بسيطةٍ حتّى تطرقَ سمعي صرخةٌ آتيةٌ مع عربةٍ من عربات نقل المرضى وهي تقفُ عند البوّابة الرّئيسة القريبة تدلق حمولَتها إلى المجهول!

بدأ النّاس يتذمّرون من وطأة الوباء، إنّه لم يحجرهم في بيوتهم فحسب، بل أجاعَهم، وجعل الأشباح ترتسم أمام نواظرهم، لقد بدؤوا يُفكّرون بمواجهته على طريقتهم، إنّ هذا الطّاعون قُوّة خفيّة غامضة، ولِذا لا يُمكن أنْ تقضي عليه إلاّ قوّة خفيّة غامضةٌ مثله، وكانت هذه القُوّة الخفيّة الغامضة هي قوّة الله عندَ بعضِهم، ولذلك راحوا يكتبون التعاويذ والتّمائم ويعلّقونها في الأعناق، وخاصّة أعناق الأطفال، وهذه القوّة الخفيّة الغامضة هي قوّة السّحر أو الجنّ عند قومٍ آخَرين، فراحوا يكتبون التّعاويذ الّتي تطلب حماية الجنّ لهم، ومع أنّ الاعتقادَين مُختلفَين تمامًا، إلاّ أنّهم على اختِلاف مذاهبهم واجهوا الطّاعون بالأسلوب نفسِه، كأنّ المذهب لا يحول بين الإنسان وتمائمه، وكأنّ هذه التّمائم تصلح لكلّ شيء!!

كانت التّميمة رُقعة خفيفةٌ من الجِلد، مُربّعة، تُكتَب فيها آياتٌ من القرآن عند المُسلمين، ثُمّ تُمرّر على طستٍ مَعدِنيّ فضّيّ، فيه ماء زمزم، وتُقرَأ على الماء والتّميمة آية الكرسيّ، ثُمّ توضع الرّقعة داخل جِرابٍ صغيرٍ من الجِلد الأحمر، وتُلفّ بخيطٍ من الكتّان، ويُثقَب أعلى الجِراب، ويدخل في الثّقب سلسلة من الفِضّة غالبًا يُمكن رَبط طرفَيها، التّميمة جاهزةٌ الآن للتّعليق في العنق، كانتْ أعناق الأطفال والنّساء أكثر الأعناق الّتي تتّخذ منها التّميمة موضعها، وإنْ لم تسلم أعناق الرّجال من ذلك أيضًا. أمّا عند الأقباط، فكانت التّميمة شبيهةً في الشّكل بتمائم المسلمين، لكنْ يُكتَب فيها آياتٌ من الإنجيل، وقد يُرَشّ عليها الماء المُقدّس، وقد تكون التّعويذة خاتمًا من الألماس، لاعتقاد الأقباط أنّ بعضَ الجواهر لها قدرةٌ على امتِصاص السّموم أو طردها.

غير أنّ تميمةً تحوي آياتٍ من القرآن أو الإنجيل أو التّوراة، تبدو مقبولةً ولم تكنْ مُستغربةً، إلاّ أنّ ما يبعثُ على الحيرة، هو ما كنتُ أراه من التّمائم الغَريبة الّتي نَحُلّها عن أعناق المَطاعين القادمين إلى البيمارستان، فقد اشترى أحدُهم تميمةً من توليفةٍ مُكوّنةٍ من أقدام أرنبٍ، وأعضاء علجومٍ مُجفّف، مُخيّطٍ في قُماشٍ من الكَتّان، مغموسٍ في الزّئبق، وملفوفٍ بعدَ ذلك حول الرّقبة!!

حينَ تهوي المصائب على الرّؤوس فإنّها لا تأتي وحدها، بل تجلب معها مصائب من أنواعٍ أخرى، فما إن انتشر الخوف والذّعر في كل مكانٍ، حتّى انتشر معه بيّاعو الوَهْم، وبيّاعو وصفات القَضاء على الخوف، كانت التّمائم الّتي سَخِرَ منها المجتمع من قبلُ قد صارت اليوم تُباع، وصار فيها مُتخصّصون، وكان يُمكن أنْ تُباع بأسعارٍ مُختلِفة حسبَ ما يريدُ المُشتري، فإنّ سِعر الّتميمة الّتي تقضي على الطّاعون تمامًا، غير سِعر التّميمة الّتي تحمي من تفاقُمه، غير سعر التّميمة الّتي توفّر للإنسان موتًا مُريحًا دون أوجاعٍ كبيرة، وفي هذه الحالة لم يجد الفقراء ما يُعينهم على الشّراء، فظنّوا أنّ الله لا يقفُ إلاّ مع الأغنياء!! "

" (٢)

الضّفادع

«ابتعِدوا من هنا، أيّها الملاعين، أريدُ أنْ أراه». كان هذا صوتًا أُنثويًّا حادًّا، أعرفُه، لكنّني كنتُ مُحتاجًا أنْ أتأكّد من أنّه يعودُ إليها. كانتْ تُبعِد المرضى والأطبّاء والنّاس من طريقها. حتّى وافتْني: «أينَ كنتَ يا حكيم؟ أهكذا نسيتَنا؟». تركتُ ما كنتُ أعمل على تحضيره من الدّواء وتوجّهتُ نحوها، وقد شعرتُ بالحنين إليها فِعلاً، وهمستُ في داخلي: «أنتِ الّتي دفعْتِني إلى ذلك». كانتْ تبدو أنّها استعادتْ عافيتها بعد عام الزّلزال، وبدتْ فاتنة، ركزتْ ذراعَيها حول جِذعها المُمتلِئ على عادتها: «قلتُ إنْ لم تسألْ عنّا في هذه المصيبة فإنّنا سنفعل». وأشارتْ بإصبعها خلفَها دون أنْ تنظر إلى الوراء، كانتْ قد وصلتْ ماريّة وهي تحمل الصّغير كرم، هششتُ لهم أكثر، سألتُ: «هل أنتم بخير؟». «نحنُ بخيرٍ، وجِئنا لنقفَ

إلى جانبك. قبلَ أنْ تبدأ بإلقاء مواعظكَ عليّ من أجل أنْ أهتمّ بصحّتي وصِحّة ابنَيّ، أنا أقول لكَ ما سنفعله». هززتُ رأسي وسُمِعتْ منّي ضحكة خفيفة: «ماذا يا دُرّيّة؟». «أستطيع أنْ أفعل أشياء كثيرة، أُعِدّ الطّعام في مطبخ البيمارستان، أو العقاقير، أو أقوم على تطبيب المرضَى، لديّ قُدرة سِحريّة على شِفاء الأوجاع». ضحكتُ هذه المرّة بصوتٍ عالٍ، وقلتُ: «لا يُمكنك إلاّ أنْ تطبخي يا درّيّة، أعرفُ أنّ حِسّ التطوّع عندكِ عالٍ، ولكنْ لكلّ شيءٍ اختِصاصُه». اقتربتْ منّي، ونظرتْ في عينَيّ مُباشرةً، ورأيتُ الذّئب على الظّلّ ينهضُ فيهما، وقالتْ: «لماذا تُصرّ على أنْ تكون ساذجًا؟ أنا لا أريدُ أنْ أرفعَ صوتي كي لا يسمعني هؤلاء الحمقَى الّذين حولك، ولكنْ تأكّدْ يا حكيم أنّني أفهم في معالجة المرضَى أكثر من نصفِ أطبّائك المَمْسوسين». أطلقتُ زفرةً حرّى، تصنّعتُ عدم الاكتِراث، ونظرتُ إلى ماريّة: «وأنتِ يا ماريّة؟». يُمكنني أنْ أركبَ حِصانًا أو أقودَ عربة؟». «والصّغير؟». «يكون هنا في منامات البيمارستان وساحة العشب يلعبُ فيها إلى آخر النّهار، وأعود به أنا وأمّي إلى القرافة بعد ذلك». فكّرتُ وقلتُ بصوتٍ واثق: «أمّا أنتِ يا درّيّة فمكانكِ المطبخ، وأمّا أنتِ يا ماريّة، فيُمكن لشريف أنْ يُصلح لكِ العربة الثّانية في مُنشأة القاضي الفاضل من أجل أنْ تحملي فيها المحتاجين للعلاج، وهذا الصّغير...». وهبطتُ إليه على رُكبتَيّ، وقرصتُ خَدّه النّاعم، ومسحتُ على شَعره الأشقر، فكركر فبانتْ غمّازتاه، وسألتُه: «هل تريدُ عصافير لِتُعتقها؟». فضحك وهَزّ رأسه.

أعلنَ ديوان مصر في أوّل أيّام الطّاعون عن موتِ خمسين، دُفِنوا بكرامة، أخذهم أهلهم في توابيت مُنفصِلة. بدأتِ الأرقام تزيدُ مع الأيّام بشكلٍ غير مُتوقّع، في اليوم الثّاني أعلنَ عن موتِ مئة، في اليوم الثّالث عن ثلاثمئة، وفي نهاية الأسبوع كان قد رَحَلَ بِدُمّل ينفجر في أسفل العنق وفي الأربيّة أكثرُ من ألفٍ.

لم تعدِ الفِئران وحدَها سيّدةَ الشّوارع في أسواق القاهرة وأحيائها، ظَهَرت الضّفادع، لا أحدَ يدري على وجه الدّقّة كيفَ ظهرتْ، قالوا إنّ النّيل لَمّا شَحّ ماؤه، وجفّتْ عيونه، أدّى ذلك إلى جفاف التُّرع والرّوافد الّتي تستقي منه، فخرجتْ من ذلك الجفاف تلك الضّفادع الخضراء، وراحتْ تبحثُ هي والفِئران عن غِذاء، كانتْ تُخرجُ لِسانها كأنّها أفعى، وتلعقُ أيّ جزءٍ من أيّ كائنٍ يتحرّك، وكانتْ تُصيبه بالرّعاش، حتّى الرّعاش لا أحدَ يستطيع التّأكيد من أنّ سببه لعقة الضّفادع الغريبة هذه، أم أنّه الخوف!! بعضُ المُتفائلين، قالوا: إنّ البرد أخرجَها من مِياه التّرع والسّبخات إلى الشّوارع، عندما يأتي الصّيف سوف تَعود إلى المياه لأنّها لا تُطيق الحرارة المُرتفِعة إلاّ إذا لجأتْ إلى البِرَك، قد يكون ذلك صحيحًا، ولكنْ بيننا وبين الصّيف ثلاثة أشهرٍ على الأقلّ، وإذْ بدأ النّاس يُصدّقون هذه الفرضيّة، فإنّ الضّفادع بدأتْ تملأ الشّوارع بالفعل حتّى نافستِ الفِئران في العدد، والغريب أنّ الفِئران لم تقاوم مزاحمة الضّفادع لها على الوجود، بل بدا أنّها تستسلم طوعًا أو كرهًا لهذا السّيّد الجديد الّذي بدأ يُسيطر على كلّ مكان!

كانت الضفادع خضراء الأطراف والرأس، حمراء الظّهر والبطن، وكان ظهرها يشفّ بحمرته عما في داخله من سائلٍ يتحرّك بصورةٍ دائمة، وكانتْ قادرةً على القفز إلى مسافاتٍ بعيدةٍ تطير فيها أعلى من الرّجل رَبْع القامة، وكانَ بعضُها إذ ذاك يعلق في جذوع الأشجار، أو يهبطُ على أكتاف النّاس فيزيدُ من هلعهم!!

وإذ بدأتِ الدّولة حملةً جديدةً لمُحارَبة الضّفادع، فإنّها واجهتْ عددًا لا يُتخيّل، وكانت الضّفادع إذا ديستْ بالأقدام يسيل ما في بطنها من سائل أحمر، فيصبغ الأرجل والأرض بصبغةٍ لا تزول إلاّ إذا رششتَ فوقَها التّراب، وكانتْ تُصدِر رائحةً تُشبه رائحة السّمك العَفِن، لكنْ بقوّةٍ أشدّ، وإذا عبقتْ في الأنف، فإنّها تحتاج إلى وقتٍ طويلٍ حتّى تخرج من هناك، حتّى لو ابتعدتَ مسافةً عن الموضع الّذي انبثقتْ منه الرّائحة، وسادَ

اعتِقادٌ جديدٌ بين النّاس أنّ هذه الرّائحة تُصيب بعدوى الطّاعون كذلك.

ولكثرةِ الفرضيّات في سبب الطّاعون، فإنّ جماعةً من الحُكماء نَعوا على أولئك الّذين يقولون إنّها بسبب الفِئران أو الضّفادع، واتّهموا عقولَهم بالضّعفِ أو الجنون، وقالوا: «إنّها عِقابٌ من الله بسبب الفِسق والفُجور الّذي شاعَ في أهل القاهرة، وابتِعادهم عن الله، فإنّ الله أمهلَ حتّى لم تعدْ للفَسَقَة مُهلة، وإنّ الهلاكَ لن يستثني أحدًا، وسوفَ يُهلك الله الصّالح بالطّالح لأنّه لم يأخذْ على يده». ولقد تجرأ أحد أئمّة المساجد فأُقيمت الصّلاة في مسجده بعدَ أنْ دعا إليه النّاس، وقام فيهم فقال: «إنّ الله الّذي جاء بالمرض هو الّذي يستطيع أنْ يذهبَ به، فما حاجة النّاس إلى الطّبّ إذًا؟ وإذا أرادَ أنْ يرفعه عن عِباده المُذنِبين، فإنّه سيرفعه عنهم بأمرٍ منه لا بِمُساعدةٍ من الأطبّاء، ولِذا فأنا أدعوكم إلى أنْ تصبروا على أوجاعه حتّى يقضي الله فيه أمرًا كان مفعولاً، وأدعوكم إلى أنْ تخرجوا رِجالاً ونِساءً، صِغارًا وكِبارًا، مُتذلّلين إلى ربّ العِزّة، تلبسون الأسمال البالية، وتَقلِبون الثّياب، حاسِري الرّؤوس، باكين خاشِعين، إلى الصّحراء، أو إلى ظاهر القاهرة، وتجأروا إلى الله حتّى يرفعَ عنّا هذا البِلاء». وضجّ المُصلّون بالبُكاء والنّدم، وكان أكثرهم يهزّ رأسَه مُؤمنًا بما سمع.

ثُمّ إنّ كنائس الأقباط حذتِ الحذو نفسَه، فاجتمع في الكنيسة كلّ مؤمنٍ بالرّبّ، وقد امتلأت مقاعدها حتّى لم يعدْ فيها موضعٌ لمؤمنٍ، ووقف الأب في المذبح، وقال: «إنّ الطّاعون سُمّ، وإنّ الرّبّ إذا بعثَه فَلِكَيْ يبتليَنا كما ابتلى ابنه أيّوب، وإنّه ينتشر مثل الخميرة في الخمائر لكي يُنضِجَ العاصين، ويقبلَ منهم تطهيرهم عن مَعاصيهم، وإنّ الرّبّ ربّما يُشهر السّيف بقدرته ومشيئته، أو يُطلِق سِهام الموت، وفي هذا الطّاعون الّذي أمامَنا تتجلّى يدُ القدير بوضوح. فأحنوا رِقابكم للرّبّ كي يقبلَ منكم». وضجّت الكنيسة مثلما ضجّ الجامع بالبُكاء والضّراعة.

ولكنّ فريقًا ثالِثًا من النّاس رأى أنّ سببه هو تآمرٌ من الصّليبيّين على المُسلِمين من أجل القَضاء عليهم، بعدَ أنْ عجزوا عن القضاء عليهم في ساحات القِتال، وأنّ الأمر يتلخّص في أنّ أحد الصّليبيّين المُكلَّفين من الرّبّ أو من قائد الجيوش النّصرانيّة قد تزيّا بزيّ المُسلمين، ولبس لباسهم وحضر مشاهدهم، وصلّى في مساجِدهم، مُتخفّيًا، فانتقل المرض منه إلى المسلمين. وذهبَ فريقٌ رابعٌ إلى أنّه يهوديٌّ حمَله بُغضُه لنبيّ الرّحمة أنْ ينقل المرض، فاليهود وَسِخون، قَذِرو الملابس والأفنية، لا تعيشُ مثل هذه الأمراض إلاّ في ديارهم... ولقد كان يبدو أنّه من السّهل جِدًّا في الجوائح أنْ تُلقِي باللّوم على تآمرٍ من الخارج، أوعلى الأديان الأخرى، أو على عدوّ تصنعه في عقلك!!

غير أنّ الجدل حول الطّاعون لم يتوقّف، ولم يستطعْ فريقٌ أنْ يُقنِع الفريق الآخَر، وإنْ كان كلّ فريقٍ يكسبُ إلى جانبه في كلّ يومٍ عددًا جديدًا من المؤمنين بنظريّته، لكنّه مع طول بقائه، وفَتْكِه بالأرواح أخرجَ العقول عن مدارها، فراحَ قومٌ يحكمون في سببه أحكامًا غريبة، فزعمَ قومٌ أنّه من الجِنّ، وأنّ الجنّ تريدُ أنْ تعيشَ وحدها على الأرض، وأنّه يتمّ بوخزٍ سامّ، وزعمَ آخرون أنّها الكواكب والنّجوم والسّماء، وأنّ هذا المرض صورةُ غضبها.

وأقبلَ النّاسُ على النّصوص الدّينيّة، فانكبّ المُسلِمون يرتّلون القرآن، وانقطع النّصارى في كنائسهم يقرؤون الإنجيل، وانبتّ اليهود في صوامعهم وكُنُسهم يلوذون بالتّوراة، ورأى المُنتفِعون من المصائب إقبال النّاس على هذه النّصوص، فراحوا ينسخون أدعيةً مأخوذةً من هذه الكتب في أوراقٍ، ويُزيّنونها بضراعاتٍ وأدعيةٍ من الأنبياء، ويبيعون تلك النُّسَخ لمن أرادَ النّجاة، ووجدت الأدعية المنسوخة والصّلوات والابتِهالات سوقًا رائجةً، ودفع الخوفُ من الموت وطلبُ العفو من الله، كثيرًا من النّاس إلى شِرائها، ووَضْعها في مِخدّاتهم تحتَ رؤوسهم، أو تعليقها على الحوائط فوقَ أسِرّتهم!!

ونجح أحدُ الأئمّة في إقناع رئيس الدّيوان بأنْ يدفع النّاس إلى الخروج إلى السّاحات المفتوحة، وظواهر مصر، وبقاعها المُمتدّة من أجل رفع الأكفّ إلى الله، والتوّسل إلى رحمته، وقَبِل رئيس الدّيوان على أنْ يكون ذلك في يومٍ واحدٍ، واقترح عليه الإمام أنْ يكونَ يومَ الجمعة من أجل أنْ يجمعَ أكبرَ عددٍ من النّاس، وكان له ما أراد، ليسَ هذا فحسب، بل إنّ عددًا من النّصارى واليهود وغيرهم، قد اقتنع بالفكرة فخرج مع المُسلمين يتضرّع مثلَهم، فهل وحّدَ الوباءُ أهلَ الأديان معًا ليتعرّضوا لنفحات الله، أم ليقعوا في مخالب الطّاعون!! "

" (٣)

يَومُ العَدوى

كنتُ نائمًا في غرفتي في البيمارستان، عندما سمعتُ طَرْقًا على النّافذة، تجاهلتُ الصّوتَ أوّل الأمر ظَنًّا منّي بأنّني أحلم، فكّرتُ: لو كانَ طَرْقًا حقيقيًّا لكان على الباب لا على النّافذة. مددتُ رِجلَيّ، ورفعتُ واحِدةً فوقَ الأخرى وأنا أسحبُ بها الغِطاء لأتّقي البرد. لكنّ الطَّرْق عادَ مرّة أخرى، فانتبهتُ، كنتُ أنام بجانب الجِدار المُقابِل للنافذة وظهري إليها، التفتُّ نحوها فرأيتُ شبحًا، ولأنّني مُتعَبٌ جدًّا، فقد كذّبتُ أنّني أرى ما أرى طمعًا في أنْ أستمرّ في النّوم، ولكنّ الطَّرْق عادَ مرّةً ثالثة، ورأيتُ الشّبح يقتربُ برأسِه إلى زُجاج النّافذة، ويضع يدَيه عليها، وهو يُحاول أنْ يرى في الظّلام ما في الغرفة... نهضتُ مُتثاقِلاً، فتحتُ الباب فرأيتُها؛ إنّها دُرّيّة. هتفتُ بصوتٍ خفيضٍ لكنّه غاضب: «ماذا تريدين يا درّيّة؟ لماذا تُوقظينني من وسط النّوم؟». «إنّ هناكَ أمرًا هامًّا عليّ أنْ أُخبركَ به». سألتُ بشيءٍ من الاستِهزاء: «نبوءات جديدة؟». ردّتْ بشيءٍ من الحنق: «لا تُعجبني نبرة الاستِهزاء الّتي في صوتِك، أنتَ تعرف أنّ ما أخبرتُكَ به في السّابق وقع». تذمّرتُ: «صحيح، ولكنْ...». أمسكتْ بيدي، وسحبَتْني نحوها: «يُمكننا أنْ نشربَ شيئًا في السّاحة، إنّها مكانٌ مُناسِب». تبعتُها مثلَ طفلٍ. جلسْنا على العُشب، تلفّتَتْ حولَها كأنّها تخشى أنْ يرانا أحدٌ، كان القمر مُحاقًا في السّماء الدّاكنة، وكانتْ بعضُ الغيوم تُغطّيه، فيبدو عُرجونُه شاحبًا يبعثُ بأضواء أشدّ هُزالاً، نظرتُ في عينَيّ، من الطّبيعيّ في هذا الظّلام أنْ أرى الذّئب مُتجلّيًا فيهما بأبهى صُورة، قالتْ: «سوفَ يسكنُ العَدَمُ كلّ جسدٍ». نظرتُ إلى الجهة الأخرى، لأُشعرها بأنّني لا أريدُ أنْ أسمع مزيدًا من هذه الألغاز، فأردفتْ: «وسيسكنُ جسدَك». فأرعبتْني العبارة، فالتفتّ إليها: «جسدي؟». «ينتشر فيه كما ينتشر الضّباب من رؤوس الجِبال هابِطًا إلى قيعان الشّعاب». ضيّقتُ عينَيّ. قالتْ: «لستَ أنتَ المَعنيّ بهذه المخالب». ضيّقتُ عينَيّ أكثر: «سوفَ يتسلّل دخانُ هذا الضّباب إلى أُنوف أهل القاهرة، فيرحلُ بهم، من كلّ عشر أنفسٍ تسعٌ، تنجو واحدةٌ ولا تنجو. وستنوحُ كلّ ثاكلة». وقفتُ على قدَمَيّ: «أشعرُ بالبرد». «لن تُصدّقني؛ أليسَ كذلك؟». «وأشعر بالتّعب». «سترى». «أريدُ أنْ أرتاح». «لكَ ما سمعتَ وللأحمق الحجر». «هل يُمكن أنْ تتركيني لأرتاح؟ مَهمّاتنا لا تنتهي».

عدتُ إلى غرفتي، بينما ظلّتْ جالسةً في مكانها تُحدّق فِيّ، وأنا أَعبُر من باب قسم الجِراحة حيثُ موضع غُرَف نومنا نحن الأطبّاء. كانتْ كلماتُها تسيل على ظهري، خَطًّا من العَرَق المُندَّى في هذا البرد الجارح. ليسَ من الحكمة تصديقُ كلّ شيء؛ لكنّني أعترفُ أنّها تُرعبني. دخلتُ غرفتي، أغلقتُ الباب خلفي وأنا لا أزال أفكّر بما قالتْ، تساءلت: «لماذا أيقظتْني في هذه السّاعة من اللّيل؟ أما كان يُمكنها أنْ تنتظر حتّى الصّباح؟ ثُمّ لماذا هي مُستيقظة إلى الآن، أليس من المفترض أنْ تكون قد نامتْ منذ وقتٍ طويل؛ لكي تستيقظ باكرًا، وتُعِدَّ مع الآخرين الطّعام للمرضى؟». مدّدتُ جسدي المُتعَب على السرير، وسرعان ما نمت.

في متاهة اللّيل، سمعتُ وَقْعَ أقدامٍ كثيرةٍ وسريعةٍ فوقَ رأسي، تبدو كأنّها وحوشٌ أسطوريّة تعبر جسرًا يمتدّ فوقَ وادٍ مُشتعِل، وقْع الأقدام يزدادُ قربًا، أسمعه بوضوح، إنّه فوقَ رأسي تمامًا، يكادُ يسحقُني، إنّها مخلوقاتٌ غريبةٌ، ليستْ بشريّة

ولا حيوانيّة، مزيجٌ منهما، لكنّها مذعورة، تهربُ من وحوشٍ أخرى أكبر وأقوى تُلاحقها، الأقدام تَتسابَق، وأنفاسي تختنق، شيءٌ ما ثقيلٌ يضغطُ على صدري، يجب أنْ آخذ جرعةً من الهواء حتّى لا أختنق، عليّ أنْ أستيقظ، نثرتُ النَّفَس المُنحبِس في صدري دُفعةً واحدةً بعد أنْ كادتْ رِئتاي تنفجران، واستيقظتُ مذعورًا... كان وَقْع الأقدام ما يزال مسموعًا، ليسَ حُلُمًا إذًا، أصواتٌ أخرى في الممرّات، وأقدام أكثر أسمعها تمضي في كلّ اتّجاه، هُرعت إلى الباب أستطلع ما يحدث، التقيتُ أوّل ما فتحتُ الباب بأحد المُسعِفين، جذبتُه من يده: «ما الّذي يجري؟». توقّفَ وهو يلهث، التقطَ أنفاسَه: «إنّهم يهربون؟». «يهربون؟». «نعم، المُصابون بالطّاعون يهربون». أفلتُّ يده، وخرجتُ أركضُ إلى البهو الّذي يُطلّ على السّاحة الّتي تنتهي إليها البوّابة الرّئيسيّة، كان المنظر عجيبًا بالفعل، مِئاتٌ من المرضى يهربون، كان بعضُهم يعرج، وبعضهم يزحف، وبعضُهم يتوكّأ على أعمدة من الحديد يتّخذ منها عُكّازًا، وبعضهم كان يهرشُ رأسه، ويضربُ عنقه، ويصيح بكلماتٍ غير مفهومة، وآخرون كانوا يسقطون ثُمّ يقومون وهم يلوّحون بقبضاتِ أيديهم مُتوعّدين!!

كانت البوّابة قد غَصّت بهم، المسؤولون عن أمن البيمارستان أبلغوا الشّرطة، فجاؤوا على خيولهم، يضربون بالعصّيّ والهراوات والسّيوف أحيانًا وجوه المرضى، وهم يصرخون: «عودوا أيّها المجانين». ولكنْ حدثَ ما لم يكنْ بالحُسبان، أحدُ هؤلاء الّذين أُصيبوا في عقله بسبب الطّاعون، استطاع أنْ يستحوذ على سيفِ شُرَطيّ، وراح يضربُ به يمينًا وشِمالاً دون وعي، يضرب النّاس من الأطبّاء والشّرطة والمرضى معه، يَهوي على كلّ مَنْ يَليه، حينَها انثعبتِ الجُروح وراحت الأجساد تتوشّح بالدّم، وسقطَ بعضُ القتلى، فيما استطاع ثانٍ أنْ يأخذ نُشّابًا، وراح يضع السّهم فيه ويرمي، ولم تستطع الشّرطة السّيطرة على المرضى إلاّ بعد أنْ وقعتْ أكثر من عشرين ضحيّة، وكانتْ مذبحة!!

استطاع – بالطّبع – بعضُ هؤلاء المطاعين الهرب، وانتشروا في الحواري، قليلٌ منهم كان يدري كيف يصل إلى بيته، الأغلبيّة دخلتْ بيوتًا غير بيوتها، أو أوتْ إلى خراباتٍ أو شوارع مُطفأة، وانتظرتْ مصيرها غير عابئة!

لم تمنع تلك الحادثة الفظيعة رئيس ديوان مصر من أنْ يُقيم صلاة التّضرّع إلى الله بعدَ يومَين من وقوعها. كان النّاس يسيلون في الشّوارع مثل الطّوفان وانضمّ إليهم كلّ الهاربين مِمّن لم يُلقَ عليهم القبض أو يُعادوا إلى البيمارستانات، وكان يومَ الفِرار إلى الله. «إلى ظاهر مِصر». كانت هذه دَعَوات المُلبّين للجموع: «إلى ظاهر مِصر يا إخوتي». وتوجّه النّاس بعَشَرات الألوف إلى تلك البِقاع. فئةٌ قليلةٌ لا يُمكن أنْ تُذكر بالقِياس إلى الكثرة الكاثرة آثرت البَقاء في بيوتها: «إنّ الله موجودٌ في ظاهر مصر، وهنا، فلماذا علينا أنْ نخرج لِنجدَه هناك؟!». فِئةٌ أقلّ من هذه الفِئة القليلة، وقفتْ على الشّرفات مُشفِقةً مِمّا يحدث، وصرختْ: «لا تخرجوا إلى ظاهر مِصر، ولا تتجمّعوا، الموتُ سيحصدُكم، الله لم يأمرْ بذلك». فكانتْ تُرمَى باللّبن وبالحجارة وبجذوع الشّجر، بعضُ هذه الحجارة أسالتْ خطوطًا من الدّماء على الوجوه. وكان المُنداحون في الشّوارع يصرخون في وجوه أهل الشُّرُفات: «كَفَرة، إنّ الله لن يرحمكم، سوفَ ترون عذاب الله قريبًا لأنّكم لم تخرجوا معنا إليه».

كانوا شُعثًا غُبرًا، أسمالهم بالية، ثِيابهم أخلاقٌ، وجوههم صفيقة، بطونهم ضامرة، قد أنحلَهم الجوع والمرض، وكان أكثرهم يرتدي الثِّياب - كما قال الإمام - مقلوبة، وبعضُهم كانوا يتركون الأكمام تتدلّى على جوانبهم من دون أذرعٍ تملؤها. وقفوا بعدَ أنْ غَصّ بهم ظاهر مصر، وضاقَ بهم الفَضاء، وكان عددٌ من الوزراء والأمراء ورؤساء الدّواوين يُشاركونهم الصّلاة، قال الإمام: «قد أتينا إلى الله خالين إلاّ منه، فأحنُوا رؤوسكم، وعفّروا جِباهكم بقذر الأرض، ومرّغوا أنوفكم بالتّراب، تذلّلاً إليه، وتضرّعوا إليه يرفعْ عنكم البلوى، ولا تكونوا قُساة القلوب، فإنّ الله يغفر للعاصي ليّن القلب، ولا يغفر للعابد قاسي القلب، وتلا قوله تعالى: «فلولا إذْ جاءَهم بأسُنا تضرّعوا ولكنْ قَسَتْ قلوبُهم». وإنّ هذا الطّاعون إنْ أصاب مُسلِمًا وهو صابرٌ فهو شهادةٌ وأجر، وإذا أصابَ كافِرًا فهو عذابٌ ووزر، وإنّ النّبيّ قال: «لا عدوى ولا طِيَرة، فإنْ قال جاهلٌ إنّه يُعدي، فقلْ له: فَمَنْ أَعْدى الأوّل؟ وإنّ الطّاعون من عَمَلِ الله، والله رحيمٌ بعباده، عادلٌ فيما يُنزله بهم، فمن رضي فله الرّضى، ومَنْ سَخِطَ فله السُّخط...». ثُمّ إنّه بكى، وأبكى النّاس، وظلّ النّاس يرفعون أيديهم، وتلهج ألسنتهم بالدّعاء، وتكادُ ثيابهم تنحلّ من فوقِ أجسادهم لطول رفع أيديهم، حتّى آذنت الشّمسُ بالمغيب، آنئذٍ راحوا ينسلّون من أمكنتهم، ويعودون إلى بيوتهم، وكانتِ الشّرطة تحثّهم وهي على ظهور الخيل وتُفرّقهم.

وأنا بكيت. بكيتُ طَوال يومَين، لأنّني لم أستطعْ أنْ أمنع ما حدث، بكيتُ لأنّ رئيس ديوان مصر سمع موعظةً من جاهل ولم يسمعْ رأيًا من طبيب، بكيتُ لأنّه غلَّب العاطفة ولم يُحَكّم العقل. كانت الشّمسُ في اليوم الثّالث تقول كلّ شيءٍ؛ صبغتِ الأُفُق بلونٍ قرمزيّ لا يُنسَى، كان اللّون يسيل في الفضاء البعيد، ويمتدّ على مساحاتٍ لا يُمكن أنْ تُرى لاتّساعها ولبُعدِها، وكان الأرجوان يُخضّب بالحرقة قلوب البائسين، كنتُ أعرفُ أنّه آخر مساءٍ في عافيةٍ مرجوّةٍ لمصر ولأهلها، وكنتُ أدركُ أنّ اللّيل لن ينتصفَ قبل أنْ أرى ضراعاتٍ مختلفةً من ذات الأفواه تتوجّه لي ولكلّ طبيبٍ ومُسعفٍ في كلّ بيمارستان.

قفزَ (شريف) في وجهي: «أتيتُ بخمسةٍ من المرضى يا سيّدي، وجدتُهم مُلقَين في الشّارع». «متى هذا يا شريف؟». «قبل الغروب بقليل». «أينَ وجدتَهم؟». «كنتُ أتجوّل بعربتي، تعرف؛ العَرَبات لا يسري عليها منع التّجوّل، فرأيتُ بعضَهم في درب الملوخيّة، وبعضَهم قريبًا من تربة الشّافعيّ». «أدخلتَهم إلى البيمارستان؟». «بالطّبع، تولاّهم سالم». «وأينَ ماريّة؟ هل أصلحتَ لها العَرَبة؟». «نعم يا سيّدي، كانتْ تطوفُ في مكانٍ آخَر، أعتقد أنّها سَـ ...».

لم يُنهِ جُملتَه، كانت الفتاة الجميلة ذات الأعوام الخمسةَ عشر تلهث: «لقد أصعدتُ إلى عربتي عشرةَ مُصابين...» التقطتْ أنفاسَها، وتابعتْ وهي تُنزل أخاها كرم من بين ذراعَيها: «لو ترى الشّوارع يا سيّدي، النّاس بدأتْ تتساقط فيها...». «اشربي ماءً، وارتاحي قليلاً يا ماريّة، وأنتَ كذلك يا شريف». «كلاّ» قالتْ ماريّة، وتابعتْ: «النّاس في الشّوارع بانتظارنا». هتفَ شريف: «وأنا سأخرج يا سيّدي، كثيرون من أصحاب العَرَبات يُطالِبون المرضى بأجورٍ مُرتفِعة لإيصالهم إلى البيمارستانات». سألتْ ماريّة قبل أنْ تُغادر: «أينَ أمّي؟». «إنّها في مطبخ قسم الجراحة». «هل تُعِدّ الطّعام كما طلبْتَ منها؟». «إنّها تقومُ بعملٍ جيّد، غير أنّ أفكارَها يُمكن أنْ تُسمّم مَنْ يعمل معها». «ماذا تقصد؟». «إنّها تُلحّ عليّ أنْ أُعلّمها كيفيّة استخدام المحاقن». «ولِمَ؟». «لكي تُساعِد في استِخدام المُهدِّئات من أجل الموجوعين». نظرتْ ماريّة إلى الجهة الأخرى بعيدًا عنّي، كانتْ تريدُ أنْ تتوسّل إليّ ألاّ أُعلّمها شيئًا، حوّلتْ مجرى الحِوار إلى جهةٍ بعيدة، وسألتْ: «أينَ أضعُ كرم؟». «هناك مكانٌ مُخصّصٌ لأطفال المُمرّضات أو الأطبّاء، يُمكنه أنْ ينضمّ إليهم». حذّرْتُهما: «ماريّة، وشريف، عليكما أنْ تلبَسا اللّثام الّذي يُغطّي الأنفَ والوجه، وحاذِروا من أنفاس المُصاب حينَ تحملونه».

كانت العَرَبات تصل إلى البيمارستان تِباعًا، لا يُمكن عَدّ المُصابين الّذين دخلوا إلى البيمارستان بعدَ غروب اليوم الثّالث من صلاة الضّراعة إلى مُنتصف اللّيل، لقد ملؤوا الأَسِرّة كلّها، والأقسام كلّها، وشغلوا الغُرَف، والأروقة، وحتّى ساحة العشب الّتي كانتْ مُتنفَّسًا للمُتعَبين.

الأدبال أو الدّمامل في المواضع الثّلاثة كانتْ موجودةً عند أكثرِ المُصابين، بعضُهم كان الدُّمّل لديه أصغر في منطقة العنق من الأربيّة، وبعضُهم لم تكنْ لديه إلاّ بثورٌ في البطن، مررتُ على كثيرٍ من المُصابين؛ كانوا تبدو عليهم حالات القيء، واضطراب العقل، واللّهاث المُستمرّ، وضيق التّنفّس، والبكاء، والتأوّه الشّديد، والهَذَيان، والإسهال، وفَقْد الشّهيّة، وكانتْ بثور أجسادهم سوداء، وأخرى أقلّ سوءًا لكنّها أوسع نفطًا، وكانت أرجلِ بعضهم مُتورّمة.

ظلّ شريف وماريّة يجمعون المُصابين من الطّرقات حتّى انبلج الفجر، كانوا أشدّ إرهاقًا منّا أنا وسالم وخليل، ونحن لم نكفّ لحظةً عن معاينة كلّ مَنْ نستطيع مُعاينته، لكنّ الأمر لم يعدْ مُحتمَلاً، لقد امتلأ البيمارستان الرّئيس، وامتلأتْ كلّ البيمارستانات والمصحّات الأخرى. رفعتُ الأمر إلى ديوان مصر، لم يردّ في اليوم التّالي، اقترحَ عليّ شريف أنْ يحمل

بعربته المُصابين إلى مُنشأة القاضي الفاضل: «يُمكنني أنْ آخذ الفائض إلى هناك يا سيّدي». فكّرتُ قليلاً قبل أنْ أقول له: «إذا جَهّزتَ المكان الّذي كانتْ فيه المكتبة سيكون الأمر جيّدًا». «كيفَ أجهّزها؟». «سأبعثُ معك ماريّة وسالم، سيتولّيان أمور التّجهيز الطّبّيّ، وسنكتري بعضَ الخادمات لتنظيف المكان وتهويته، على أيّ حال المكتبة أكثر مكانٍ مُلائمٍ للاستِشفاء، سنقوم بعزل النّاس فيها».

استغرقَ تجهيز المكان يومَين، فيما كانَ قد مات في البيمارستان الرّئيس خلال هذين اليومَين أكثر من مئة مُصاب. في أسبوع يوم الصّلاة مات أكثر من عشرةِ آلاف، قد لا يكونون من أولئك الّذين رفعوا أكفّهم إلى الله في ذلك اليوم المشهود، بل قد يكونون من الّذين لم يعرفوا الله، ولم يتوجّهوا إليه بطلب الرّحمة، ذلك أنّ الطّاعون كان يُعامل النّاس بعدلٍ من غير تمييز، ولِذا حَصَد أرواح كلّ من التقاه في طريقه دون أنْ يسأله عن دينه أو عمره أو مُعتقده، ثَمّة عدالةٌ في الطّاعون تعزّ في غيره من الأمراض.

صارَ الحُصول على كَفَنٍ أُمنية، لم يكنْ لأيّ ميّتٍ بالطّاعون أنْ يتمتّع بهذا الامتِياز، الأمراء والوزراء وبعضُ التّجّار حصلوا عليه، كانت الأكفان في الموت تعمل بطريقةٍ مختلفة عن الطّاعون؛ لقد اختارت أجسادَها الّذين ستُمكّنهم من أنْ يلتفّوا بها!! ❞

(٤) ❝

الموتُ المُريح!

فيما كان الطّاعون يُطلِق سِهامه دون توقّف وبشكلٍ عشوائيّ، فتصيبُ تلك السّهام كلّ مَنْ تجده في طريقِها دون أنْ تفرّق بينهم، كان المطعونون لا يزالون يتوافدون على البيمارستانات بلا انقِطاع؛ إنّ سِهام الطّاعون المسمومة تنطلق في كلّ اتّجاه، ويبدو أنّ كِنانتها مليئة، وأنّها تحتاج إلى زمنٍ طويلٍ جِدًّا حتّى تفرَغ!

في أحدِ الأيّام، رأيتُ أنّ مرضَى قسم الجراحة يتقيّئون طَوال اليوم. ليس من أعراض الطّاعون أنْ يستمرّ القيء، ربّما يحدث، لكنْ ليسَ بهذه الطّريقة المُستمرّة، كانتْ تنتشر مع القيء وصُفرة الوجه عروقٌ سوداء تنفر بالدّم في وجوههم، وفي شرايين أيديهم، وكانتْ تُصيبهم تشنّجات في منطقة العنق، ويُعانون وجعًا لا يُطاق في مِعَدِهم. قدّرتُ أنّ هناكَ مرضًا آخَر غيرَ الطّاعون قد ألمّ بهم. نسيتُ الأمر في غمرة الانشِغال، ولكنّ المرضى الّذين يتقيّؤون بشكلٍ مُستمِرّ عادوا إلى الظّهور، طلبتُ من سالم وخليل أن يأخُذا عِيْنةً من القيء ويقوموا بفَحصه، عادا إليّ في صباح اليوم التّالي، ليُخبراني: «إنّه السُّمّ». ضيّقتُ عينَي مُستغربًا، وسألت: «السّمّ؟». ردّ خليل: «نعني أنّ الطّعام الّذي يأكلونه قد دُسّ فيه السّمّ». «غير معقول؟ نحنُ في مَشفَى، ونُقدّم طعامًا صحّيًا، وفيه دواء». هززتُ رأسي، وتناسَيتُ الموضوع حتّى لا أُثير الفزع في المرضى قبل الأطبّاء. بعدَ يومَين ازدادتْ حالات التّسمّ، ومات منهم عددٌ كبير، طلبتُ هذه المرّة من سالم وخليل تشريح جُثّة أحدِ الموتى.

كان واضِحًا أنّ هؤلاء الضّحايا ماتوا مسمومين! والسّؤال: هل انتحروا؟ لو كان الأمر انتِحارًا لكان حادثةً واحدةً أو اثنتين، أمّا أنْ يموت خلال هذا الأسبوع بطريقة السّم نفسِها أكثر من ثلاثين، فهذا يعني أنّ في الأمر تدبيرًا، وتساءلتُ مَنْ يكونُ قد فَعَلها؟ وقفزتْ دُرّيّة إلى ذهني مُباشرة، فتركتُ الجُثّة وتشريحَها، وأمرتهم بإجراءات الدّفن السّريعة، ونزلتُ إلى المطبخ حيثُ دُرّيّة، في الطّريق فكّرتُ بألف طريقةٍ حتّى أجعلها تعترفُ بأنّها فعلتْها إنْ كانت بالفِعل قد فعلتْها، كنتُ أعرفُ أنّ لديها في المقابل أكثرَ من ألفِ طريقةٍ أخرى لخِداعي، وإبعاد التّهمة عن نفسِها. عندما وصلتُ إلى باب المطبخ، كانتْ تعقدُ شعرَها خلفَ رأسِها تحتَ شالِها الأخضر المشهور، وهي ترفعُ في وجهها دورقًا صغيرًا، ذا سائلٍ أبيض، ولو كان في كأسٍ لكان ماءً، ولكنْ ما يفعل الماء في الدّورق؟! عندما صرتُ بجانبها، كانتْ قد أتمّتْ سَكبَ ما في الدّورق كامِلاً في قِدر الطّعام الكبير، حانتْ منها التِفاتةٌ نحوي، ولكنّها لم تقلْ شيئًا، ولم يظهرْ عليها أيّ اهتِمامٍ أو اضطِراب، رفعتْ في تلك اللّحظة الدّورق أمام ناظِرَيها وصار بين وجهي ووجهها لتتأكّد من أنّه أُفرِغَ كامِلاً في القِدْر، وعادتْ إلى إتمام مَهمّتها في الطّبخ، ولم تقلْ كلمةً واحدةً، راحتْ تعمل كأنّني غيرُ موجود، اقتربتُ أكثر وأخذتُ الدّورق الفارغ، وقرّبْتُه من أنفي، وصُعِقت عندما شممتُ رائحته، ثُمّ إنّني لمستُ في فم الدّورق ما ظلّ على أحفافه من سائلٍ لأتأكّد، وبالفِعل كان ما توقّعتُ؛ إنّه السّم، هذه السّفّاحة تضع السُّمّ في طعام المرضَى إذًا!! وضعتُ يدي على صَدري لأُسكن قلبي الّذي كان يخفق بشدّة، واستعدتُ رباطةَ جأشي، وأطلقتُ زفرةً من صدري لكي أستطيع أنْ أقول: «هل يُمكننا أنْ نجلسَ معًا لبعض الوقت في السّاحة إيّاها؟!». ردّتْ دون أنْ تلتفتَ إليّ: «إنّني مشغولةٌ يا عبدَ اللّطيف كما ترى، والمرضى الجوعى ينتظرون طَعامي». «لن أؤخّركِ كثيرًا فقط بضع كلمات». حينَها تركتْ ما كانَ في يدها، والتفتتْ إليّ واقتربتْ منّي، وكان الذّئب ينهضُ في الظّلال داخل عينَيها، لكنّها عندما ضيّقَتْهما عادَ فجثمَ فيهما، قالتْ بصوتٍ واثقٍ: «تريدُ أنْ تسألني عن هذا الّذي سكبْتُه من الدّورق في الطّعام، أليسَ كذلك؟». أجبتُ وأنا أتصنّع الثّقة والقوّة: «بلى، فما هذا الّذي سكبتِه يا دُرّيّة؟». مسحتْ عن يدَيها ما كان قد عَلِق فوقَهما من طعامٍ، ووضعتْ أحدَ مِرفقَيها على خصرها، واتّكأتْ بالآخر على الطّاولة وقالتْ بكلّ هدوء: «إنّه السّمّ». بلعتُ ريقي بصعوبة، لأسأل وأنا مذهول: «السّمّ؟ تقولين السّمّ؟». «نعم يا عبد اللّطيف إنّه السّمّ. أنا أضع السّمّ في الطّعام من أجل أنْ أقطع حبل الحياة الواهن في أرواح هؤلاء المساكين». «وتقتلينهم؟». «إنّ أصواتَهم في اللّيل تُزعِجني، إنّهم يُقلِقون راحتي، إنّني لا أنام جيّدًا بسببهم». «ويكون الحلّ بقتلهم يا مُجرِمة؟». «هَوّنْ عليكَ أيّها الطّبيب الرّحيم، أنا أرحم منكَ ومن ذويهم بهم؛ إنّني أوفّر لهم موتًا سريعًا، أنتَ لا تُحسّن بهم مثلي، إنّ صرَخاتهم من الألم لا يُمكن معرفة ما يختبِئ خلفَها من مُعاناة، إلاّ إذا مررتَ بحالتهم، أنا عشتُ هذه الحالة مع أبي، أنتَ لا تعرفها، أنتَ طبيبٌ مُرهَف الحسّ والقلب، ولكنّه ساذجٌ، لا يعرفُ من عالم المألومين شيئًا».

«أنتِ قاتِلة». «بل أنا أُسدِي لهم خِدمةً لا يُمكنك أنتَ أنْ تُسديها لهم مع كلّ علمك في الطّبّ وأدواتِك وخُدَعك في علاجهم». تراجعتُ إلى الوراء، وضعتُ يدي على صَدري، لوهلةٍ تخيّلتُ أنّها دَسّتْ لي السُّمّ مثلهم في طعامي، تذكّرتُ أنّها ليست الطّبّاخة الّتي تُعدّ الطّعامَ للأطبّاء، كانتْ عيناها في تلك اللّحظة تقرأ أفكاري، ابتسمتْ عن شفتَين مُكتنزتَين وقالتْ: «لا تخفْ، لم أضعْ لكَ السّمّ، أريدُ أنْ أشاركك في خِداع النّاس عن طريق أَمَلهم الكاذب بكَ في مُداواتهم، أنا لن أقتل الأمل في النّاس، أنا أقتل – فقط - الشّيطان في المرضى، هذا الشّيطان المُسمّى بالطّاعون يتلذّذ بتعذيبهم، أنا أُخلّصهم من هذا العذاب». اقتربتْ منّي أكثر، فنفرتُ، قالتْ: «لا تخف». فتسمّرتُ مكاني، همستْ في وجهي، كان همسُها أقربَ إلى فحيح أفعي مُعمَّرة: «أهلُهم يعرفون ذلك، لقد شكروني كثيرًا، إنّهم يرفعون اسمي إلى الله بالدّعاء لأنّني خلّصْتُهم من هذه الأجساد الرّميمة، وأَرَحْتُهم من هذا العبء الثّقيل. لا أحد يريدُ أنْ يعيشَ مع الموت فترةً طويلة، فكّرْ بالأمر على هذا النّحو يا حكيم؛ مَنْ يُتاح له موتٌ سريع سيُفضّله على موتٍ بطيء؛ موتُ المرّة خيرٌ من موتِ المرّات، الموت الجميل والأنيق هو الموت الّذي يجب أنْ يجيءَ بضربةٍ واحدةٍ، وهذا السّم من النّوع الّذي لا يدع الشّمسَ تُشرِقُ على وجه صاحبه». «سأُقدّمكِ إلى القَضاء، يجب أنْ تُحاسَبي على هذا الجنون». «لن يُثبِتَ القَضاءُ عليّ شيئًا». أنتِ اعترفْتِ!». «أنا اعترفتُ لك، تلك مِيزةٌ تُحسَد عليها، أمّا أمام مجلسِ القَضاء، فأنا مُستعدّةٌ أنْ أخدعَ مِئةَ قاضٍ دون أنْ يدينوني بشيءٍ». كان ألفُ ذِئبٍ في تلك اللّحظات تنهضُ من مجاثمها، وتمضي في الدّروب البعيدة. تراجعتُ إلى الوراء خُطوتَين، وأنا لا أزال أضعُ يدي على الطّاولة خشيةَ أنْ أسقطَ مِمّا رأيتُ وسمعتُ، وخرجتُ من المطبخ مُسرِعًا وأنا أشعرُ أنّ ذئابَها تعوي خلفي.

لم تعدْ درّيّة تعمل في المطبخ، خرجتْ من البيمارستان بطلبٍ من رئيسه، وشُدّد الأمر على أدوية السّموم حتّى لا يُمكن لأحدٍ أنْ يصلَ إليها، لكنّني بالبحث عرفتُ أنّها لم تأخذْ من سموم الأدوية الّتي تعودُ ملكيّتها إلى البيمارستان شيئًا، لقد صنعتْ ذلك السّمّ بنفسِها!!

لم أقلْ لماريّة عن أمّها شيئًا، أعرفُ أنّها تعرف، كان يمكن لنهر الكلام أنْ يجرفنا بعيدًا لو نحنُ ناقشْنا أمر دُرّيّة، ربّما تعرفُ ماريّة منها ما لا أعرفه، بالطّبع تعرف لكنّها لا تقول، هل هي مُتواطِئة مع أمّها؟! هل هي الّتي علّمَتْها صِناعة السّمّ يومَ علّمتُها أنا وهي تنام في بيتي قبل سنتين صِناعة الأدوية من الأعشاب؟! أمْ أنّ كلا المرأتين تعيشان في عالَمين مُتوازِيَين، وإنْ كانتْ إحداهما تدّعي أمومتها للأُخرى؟!

سقطتْ جُثَثٌ تِلو أخرى، أجسادٌ تدلّتْ من تحت حبل الموت، كان الموت زائرًا مُقيمًا في البيمارستان، كانت الأجساد مجرّد ساحة يدوسُ فوقَها، أو ينامُ بجانِبها، أو ينظر في وجوهها قبل أنْ يصطحبَ بعضَها معه إذا خرجَ من هنا لبعضِ حاجته، ثُمّ يعود من جديد.

كان في البيمارستان موضعٌ مُخصَّصٌ لغسل الموتى، كان أهل الميّتِ يحضرون، أريدُ أنْ أُشير إلى أنّ هذا كان في البدايات الأولى للموت الأسود، نعم كانوا يحضرون، الجسدُ الجُثّة مُسجًّى على طاولةٍ خشبيّة مُستوية، ترتفع عن الأرضِ ذراعًا ونصف الذّراع، بأرجلٍ أربعة، وكانتْ مُستطيلة بحيثُ يُمدّد الجَسَدُ فوقَها كامِلاً، غالِبًا يحضر الأب إذا كان الابنُ هو المُتوفَّى، أو الابن إذا كان الأب هو المُتوفَّى، لم نكنْ نسمح للنّساء بحضور تغسيل الموتى، كان على المُغسّل أنْ يلبسَ ما يُشبه اللّثام الكامل يُغطّي وجهه وشعرَ رأسِه ولا تظهر منه إلاّ عيناه، ويلبسُ في يدَيه بعضَ الخيش واللّيف، وكانَ هناك ابنٌ آخَر، يملأ الإبريق من طستٍ بالماء ويسكبه على جسدِ أبيه، والآخَر يقوم بفرك الجسد بالماء، من هنا يُمكنك أنْ ترى الدّمامل في العنق تحت الأذن، وعلى الأربية أسفل البطن، وتحتَ الإبطَين، عندما يُقلَب الميّت على حرفه من أجل أنْ يصل الماء إلى جسده بالكامل. كان الابن الأصغر الّذي يملأ الإبريق بالماء مُتأثّرًا أكثرَ من أخيه، من هنا كذلك يُمكنك أنْ تسمعَ صوتَ البُكاء المكتوم يصعد من حنجرة الولدَين، كانت يدُ الصّغير ترتجف وهي تمدّ الإبريق إلى الكبير، أحيانًا يتراشَق الماء في هذا الارتِجاف، فيُؤثّر ذلك بالإيحاء على الأكبر، فيرتجفُ جسده هو الآخَر، وفي أثناء ذلك يُمكنك أنْ ترى الدّموع وهي تنسابُ من عينَيه الحمراوَين وهما تُبلّلان اللّثام، وفي لحظةِ ضعفٍ يهبطُ الصّغير على الأرض آخِذًا جِلسةَ القرفصاء، وهو يضع رأسَه عندَ قدمَي أبيه وينشج!

يحدُث أنْ يدخل واعِظٌ مكان الغُسل، ليسَ من أهل الميّت، ولا يعرفُ مَنْ هو الميّتُ من الأساس، كان هذا تطوُّعًا منه، كنتُ أسمحُ لهم أحيانًا بذلك إذا تأكّدتُ من أنّ لديهم علمًا شرعيًّا وليسوا من أولئك المُشعوِذين، كان الواعِظ يقف عند رأسِ الميّت، ويدعو له بالدّعاء: «اللهمّ اغسلْه بالماء والثّلجِ والبَرَد، وجافِ الأرضَ عن جنَبَيه. اللّهمّ أبْدِلْه دارًا خيرًا من داره وأهلاً خيرًا من أهله». كان صوتُ الواعِظ المسموع بالدّعاء يُثير شجنَ الولدَين، فتأخذ أجسادُهما بالارتجاف تحتَ وطأة البُكاء. ❝

❞ (٥)

مَنْ يختار الموتى؛ نحنُ أم الطّاعون؟!

العَرَبات قَدَرُ الله الماخر عُباب القاهرة، تنقل الأحياء، وتنقل الأموات، وتنقل الأموات الأحياء. تلك الّتي يقودها شريف أو ماريّة، عَرَبةُ الرّوح المُذهّبة، عَرَبةُ الفراعنة الّذين ما زالوا ينظرون مع الموتى إلى الأجساد المُتأرجِحة في سُكون الرّحيل، وعَرَبة الرّومان الّتي تجرّها الخيول الجامحة تُقاتل الوحوش الضّارية عن الفُرسان الأشدّاء، عَرَبةُ الرّوح الآمنة، المُسافرة إلى حتفِها مُطمئنّة، صوتُ وقع العَجَلات على الأرض صوتُ النّداءات الأخيرة، صوتُ صهيل الخيول الجامحة صوتُ النّزع الأليم، يختلطان، يذوب أحدهما في الآخَر، وهُما هُما شكل الحياة، وجهها الأصدق، ذلك الّذي يسكنه الموتُ

في كلّ قَسَماته، عربةُ ماريّة لا تتوقّف، تلتقطُ الذّاهبين في الرّحلة إلى الأبديّة، أو أولئك الّذين يُعلّقون على الأمل خيطَ نَجاتهم، ويربِطون بلِجام الخيل خيطَ حياتهم، وماريّة؟ تحاول أنْ تجعلهم يعبرون، ترسمُ على وجههم بسمة الأمل، تقول لهم: ما زال في العُمر بقيّة!! ما زال في الرّوح رمق!! لو أنتَ آمنتَ بوجوده في جسدك الواهن لربّما تنجو، أنا معك، سأذهبُ بك في الدّروب الموصِلة إلى وَهَج العمر لا إلى انطِفاءاته، تُشعِل قنديلكَ بجمالِها الأخّاذ، تملؤه بزيتِ الإصرار على الحياة، تُضيؤك قبل أنْ تنطفِئ، تقول: إنّ هذا الظّلام المُنداح في روحِكَ تهزمه ومضةٌ واحدةٌ تلمعُ في أغوار روحك العميقة!!

كانت مُنشأة القاضي الفاضل قد تمّ تجهيزها لاستِقبال المُصابين بالطّاعون، القصر المُنيف، ذو الرّدهات الفاخرة، والأبهاء الفسيحة، والغُرَف الأنيقة، والثُّريّات الفضّية، والأطباق الذّهبية، والأدراج اللّؤلؤيّة، تحوّل إلى بيمارستانٍ مُؤقّت لمجدورين، ومجانين، ومطعونين، وبائسين، ويائسين، كأنّ كلّ الّذين شَغلوه عندما كان قصرًا لم يُغنوا عنه لحظةَ امتِلائه بهؤلاء المساكين، لم يكنْ أحدٌ من الطّرفَين يحلم أنّه سيسكن في موضع الآخَر، لا القاضي الفاضل ولا الأمراء ولا أصحاب الأكمام الطّويلة توقّعوا أنّ هؤلاء الجَوعى المهزولين والمملوئين بالبثور سيحلّون في أرقى المواضع الّتي كان ينزل فيها الملوك، ولا هؤلاء الفقراء المُعذّبون كانوا يحلمون أنْ يعيشوا في ردهات هذا القصر المشيد الّذي لم يكونوا يرَون في السّابق أكثرَ من سوره الشّاهق يُخفِي خلفَه عالَمًا تدور حوله الحكايات الأسطوريّة. إنّها الحياة، تأخذ بِقَدْر ما تُعطي، وإنّها الحياة تَنقص بقدر ما تُكمل، وإنّه الموتُ، يَبطشُ بقدر ما يَعدل!!

غُرَف المكتبة العِملاقة هي أوّل ما نزله المُصابون، يُمكنكَ أنْ تميّز هذه الغُرف بالعقود العالية ذات الأقواس المتقاطعة في المركز لتصنع قُبّة سُداسيّة في منتصف كلّ غرفة، وذات الأعمدة الأسطوانيّة الّتي كانت مَطليّةً بالذّهب في السّابق ثُمّ صارت اليوم مُتقشّرةً يأكلها الصّدأ والعفن، مثلما تأكل البثور جلود مرضاها. وكانت الغُرف مُتّصلةً بعضُها ببعض بأبوابٍ وسيعةٍ مُقنطَرة، وتمتدّ بشكلٍ طوليّ في أربعةِ صفوف لأكثر من مئة غرفة، في كلّ صفٍ خمسٌ وعشرون، وكان القليل مِمّا تبقّى من الكُتُب بعد الزّلزال والحريق وما بيع وما أخذتُه أنا قد رُفِعَ على أرففٍ مُتواضِعة في بعضِ الغُرَف، وجُمّع أكثره في آخر ثلاثٍ منها من الصّفّ الرّابع من هذه الصّفوف.

كان في جدار كلّ غرفةٍ من جهة حدائق القصر نافذةٌ طولها ذراعان وكذلك ارتِفاعُها، وكانت هذه النّوافذ تُطلّ جهةَ الشّرق، فإذا أرسلتِ الشمس أشعّتها في الصّباح بعثتْ شيئًا من الحياة في الغُرَف، وإذا غربتْ خَيّم الظّلام على المكان فرأيتَ الموتَ في كلّ شيءٍ وسمِعتَه. كان المَرضى يتناثرون في الغُرَف دون انتِظام، لم يكنْ لهم أَسِرّة، كان عددهم أكثر من عشرين ألفًا يتوزّعون على مئة غرفةٍ تقريبًا، لم يكنْ في هذه الغرف جميعها أكثر من عشرة أسرّة، أُعطيتْ في البداية طوعًا لكِبار السّنّ، ثُمّ تقاتل الوارثون عليها بعدَ رحيل الكِبار حتّى ماتَ في سبيلها أكثر من ثلاثين، قبلَ أنْ يستوليَ عليها الأقلّ مرضًا والأقوى والأفتى من المطعونين، ولسوفَ يخترمُ الطّاعون قُوّة هؤلاء المُتسيّدين بعد بضعة أيّام، ويطغَى عليهم آخَرون يَرثون منهم بالقوّة أو بالحِيلة تلك الأَسِرّة العشرة، ولقد وعدَ ديوان مِصر أنْ يأتي بألفِ سرير كدفعةٍ أولى منذ ما يزيد عن شهر، ولكنْ لم يصلْ منها سريرٌ واحِدٌ إلى اليوم. ما تبقّى من المرضى يُمكنك أنْ تُشاهِدهم بوضوح، يرتمون في الزّوايا ينتظرون لحظتَهم في الرّحيل، أو ينفثون آخر الأنفاسِ من صدورهم، أو يعدّون أيّامهم وأوقاتهم عَدّ النّاكل لحبّات الرّوح. أولئك الّذين كانوا يجدون جِدارًا يُسندون عليه ظُهورهم المُتقرّحة كانوا – بلا شكّ – أوفر حَظًّا من أولئك الّذين اضطرّهم أنْ لا قُوّة عندهم ولا عُصبة إلى الارتِماء في وسط الغرفة.

ولعلّه ليسَ من الصّعب تخيّل أنّه لم يكنْ لهم ترتيبٌ، فقد حاولْنا بما نستطيع في البداية أنْ نجعل غُرفًا للنّساء والأطفال، وأخرى للرّجال، وقد نجَحْنا شيئًا ما، ولكنّنا وجدْنا مَنْ تطلب من النّساء أنْ نضمّ إليها ابنَها أو قريبَها فلانًا ليتكفّل ولو قليلاً بالقِيام برعايتها، ووجدْنا من المُسنّين مَنْ يطلبُ ابنته الوحيدة فُلانة أنْ تكون معه لتقومَ ببعضِ شؤونه قبل أنْ يدركهما الموت ويرحَلا معًا. وهكذا خلطَ الطّاعون النّاس، وألغَى بينهم الحدود! كما أنّه ليسَ من الصّعب أنْ تتخّيل أنّ النّاس كانتْ تتمدّد مكشوفة الصّدور والأذرع والبطون وحاسرة الرأس، كانت العورات مكشوفة، إلاّ من خرقةٍ باليةٍ أو ثوبٍ مُهترئ يُغطّي العورة المُغلّظة، لم تكنْ هناك ثياب يُمكن بها ستر هذه الأجساد العارية، وانشغل النّاس بأمراضهم عن النّظر إلى

العورات، وصرفَهم المرضُ القاتل عن شهوتِهم فلم تجدْ لها منفذًا، غير أنّ هذه الشّهوة النّائمة اضطرارًا لا يدري أحدٌ متى تستيقظ اضطرارًا أيضًا، فتسمع همهمات اللّذة تنطلق من هنا أو هناك، أو آهات الشّبق الّتي تَنفثِئ من بين الأفخاذ كما تَنفثِئ الدّمامل من الأربيّة تمامًا.

وهكذا، وجدتُ نفسي أضطر إلى مُغادرة البيمارستان يومَين على الأقلّ في الأسبوع وآتي إلى هذه المُنشأة لأقومَ مع عشرات من المُمرّضين والأطبّاء والمُساعِدين المُسعِفين على الإشراف على أحوال المرضَى هنا. كان يتبعني خليل وسالم، ومع كلّ واحدٍ منهما صندوقٌ خشبيّ صغير، فيه دوائر لاستِقرار الدّوارق المملوءة بالأدوية والمُطهّرات والمُهدّئات، كانت العيون تفيضُ بالرّجاء وهي تنظر إلينا، لقد كانت تقول كلامًا لا يُمكن للّغة أنْ تقوله، كانت العيون ترى فينا أملَها الوحيد في النّجاة، كانوا لشدّة تعلّقهم بهذا الأمل، يشتطّ بهم الأمر إلى الظنّ بأنّ أمر الحياة بين أيدينا، وأنّه مُعلّق بالقارورة الّتي تحوي سائل الكافور أو شراب الخلّ، أو منقوع الزّعفران أو زيت الحنظل، أو غيره من العقاقير، ولم يكنْ أحدٌ ليلومهم في ذلك، فإنّ الميّت يبحثُ عن قشّة الحياة في لُجّ اليمّ الهادر.

لم أكنْ أدري أنا ولا أيٌّ من أطبّائي أو الأطبّاء الآخرين مَنْ نُعالِج مِمّن نترك، لقد وضَعنا الطّاعون مع هذا العدد الهائل من المُصابين أمام مُعضلة أخلاقيّة، وكانت امتِحانًا عسيرًا، فإذا كان يُمكننا أنْ نُنقذ عشرةً في اليوم - مثلاً - من الموت، فلماذا لا نختارهم من الشّباب أو أولئك الّذين كان الطّاعون في مراحله الأولى ولم يتمكّن من الرّئتَين، فإنّ فرصةَ شِفاء هذا النّوع من النّاس أكبر بكثيرٍ من أولئك الكِبار الّذين استطاع الطّاعون في خلال يومٍ أو يومَين من الانتِشار في رِئتَيه الضّعيفتَين، وصارتْ فرصته في النّجاة شِبهَ مُستحيلة، لقد كان اختِبارًا حقيقيًّا، وُضِعنا أمامه نحن أطبّاء مصر يومئذٍ، مَنْ نختار لكي يعيش؟ وكُنّا نعرفُ أنّنا لن نستطيع أنْ ننقذ الجميع، وإذًا فالسّؤال الّذي يتبع السّؤال الأوّل: مَنْ نترك لكي يموت؟ ولقد دارتْ في أذهاننا جميعًا خواطر يخجل المرء أنْ يبوح بها، من مثل: إذا كان هؤلاء المُسِنّون قد أخذوا فرصتهم في الحياة فلماذا لا نتجاوزهم إلى الّذين لم يأخذوها بعدُ؟ ولْنفترضْ أنّنا أنقذْنا عشرةً من المُسنّين فما الفائدة من بقائهم أحياءَ بعدَ أنْ تستعيدَ البِلادُ عافيتَها؛ هل بإمكان هؤلاء العَجَزَة أنْ يعملوا في الأسواق، أو أنْ يُعِيلوا أُسَرهم، أو أنْ يُقاتِلوا في الجيوش؟ وعليه فلنذْهَبْ إلى مَنْ تعودُ فائدته على الدّولة بعد البُرء. وكُنّا نحسّ أنّنا نضع أنفسَنا موضع الإله القدير، نَختار مَنْ يعيش، ونختار مَنْ يموت!!

لم يتوقّف توافد المُصابين إلى المُنشأة طَوال ستّة أشهر، حتّى صار المُصابون ينامون في الأروقة، وفي الغرف الأخرى، وفي الحدائق، وكان يُمكن لمن يمرّ من جانب سور المُنشأة أنْ يسمع الضّجيج النّاجم عن ثلاثين ألفًا على الأقلّ مِمّن ملؤوا كلّ ناحيةٍ في المُنشأة وزاوية، كنتُ أمرّ على مَنْ أستطيع من المُصابين، خلفي سالم وخليل بالدّوارق، نفحصُ درجات الحرارة، كان يُمكن لو كانتْ لدينا إمكانات أنْ نعزل المُتماثِلين للشّفاء وإنْ كانتْ نسبتهم لا تزيدُ عن واحدٍ في الألف، نعزلهم في مكانٍ بعيدٍ عن هنا، حتّى يتعافَوا، ويعودوا إلى الحياة عندما تعودُ الحياةُ إلى طبيعتها. بعدَ فحصِ حرارةِ المريض كُنّا نسقيه بعضَ الدّواء، وكان يطوفُ معنا واعِظٌ أحيانًا يقرأ عليه بعضَ الأدعية، ويُذكّره بأجر الصّابرين.

ولقد كان ليلُ المُنشأة غيرَ أيّ ليلٍ، كان ليلاً أطول من ليل النّابغة الذّبياني، وسُمُّه أشدّ نقيعًا من سُمّ رُبده، وكان ليلاً مليئًا بالحشرجات والاختِلاجات والارتِخاء والانزِواء والهَذَيان والخوف والرُّعب. ولم يكنْ في المرض أشدّ على المرض من خوف ما سينزل بالمُصاب به من الأذى، فلقد كان أذًى فوقَ الأذى!

غيرَ أنّ للطّاعون بعضَ المزايا، فلقد جمَعَ منْ كان شتيتًا، وقرّب مَنْ كان بعيدًا، فكم من أبٍ لم يرَ ابنَه إلاّ في هذه المُصيبة، وكم من هاربٍ لم يجدْ أهلَه إلاّ تحتَ سقفِ الطّاعون، وكم من عاقٍّ لم يتذكّر أنْ يبرّ أمّه إلاّ بين جدران المرض، فكأنّ النّاس كانتْ تنتظر قَدَرًا إلهيًّا مثل هذا ليجمعها، تذاكر النّاسُ في الطّاعون ما لم يكنْ لظرفٍ آخَر أنْ يدفعهم إلى

تَذاكُره، تذاكروا النّشأة، والطّفولة، والصّباحات الجميلة، والأيّام الطّريّة، والضّحكات، وسَعِدوا كما لم يسعدوا من قبلُ وهم يسترجعونها، لقد قرّروا أنْ يضحكوا ملءَ أفواههم فيما تبقّى لهم من حياةٍ قبل أنْ يذهبوا في طريق اللاّعودة، ولقد فكّروا لأوّل مرةٍ بأسلوبٍ صحيح، لقد كانوا يقولون: إذا كان العُمر لَحَظات فلماذا لا نقضيه طيّبي الأنفُس، مُنشرِحي الصّدور، وإذا كانت هذه اللّحظات سوفَ ترحل بنا جميعًا فَلِمَ الحسد والبُغض والحِقدُ والكيدُ، إنْ كان أمدُنا وأجلنا فيها قصيرًا، وإذًا فعليه: اضحكْ فما من لحظةٍ أحلى من لحظة السّعادة الّتي تتوهّج في القلوب الرّاحلة... غيرَ أنّ هذا كان ديدنَ قومٍ ولم يكنْ ديدنَ آخَرين، فإنّ مرضًا كالطّاعون يُخرج أفضل ما فيكَ وأسوأه على حَدٍّ سواء، إذ إنّ مَنْ كان يرى من الحماقة أنْ تُنازع جارِكَ على شِبْرٍ من الأرضِ قبل أنْ يدخل إلى هنا، صار يذبّ عن هذا الشّبر بروحه، وصار مُستعدًّا أنْ يُقاتِل عنه ولو لآخر رَمَق!!

ولم يَعرفْ أحدٌ في الغُرف البعيدة في اللّيالي المُظلِمة أحدًا، كان الطّاعون يُوحّد بينهم في الجهل بالآخَرين عندما يحلّ الظّلام، إلاّ أنّ امرأةً واحدةً كانتْ تعرف ما يجهله سِواها، وكانتْ تعتقدُ نفسَها ملاك الرّحمة مُرسلةً من ربّ السّماوات إلى أهل الأرض البائسين، وأنّ واجِبَها المُقدّس في أنْ تفتح الباب لهذه الأرواح المُتعَبة كي تُغادرَ أجسادَها بهدوء، ذاهبةً إلى الأبديّة، لقد صارتْ خبيرةً بِصناعة الحُقَن القاتِلة، الزّرنيخ أو الزّئبق أو الرّصاص، ... ولِذلك كانتْ لا تطوفُ على مرضاها – الّذين تُسمّيهم هي كذلك – إلاّ في اللّيل، وتحتَ جُنحِ الظّلام، تفتح أفواههم، وتقول: «شرابُ الرّاحة... لا ألَمَ بعدَ اليوم»، ثُمّ تُفرغ السّائل فيها، وتبعثُ بالمريض في لحظاتٍ إلى الضّفّة الأخرى!! ❞

❝ (٦)

مُواجَهة المَوت

لم يكنْ لاجتِماعٍ أنْ يضمّ كلّ هؤلاء من أصحاب السّيادة لو لم يكونوا يُدركون مدى خطورة الأمر، إنّ البِلادَ كلّها تتردّى بالموت الأسود. كان السّماطان - عن يمين رئيس الدّيوان المُبلِّغ عن الملك وعن شِماله - يضمّان أكثر أصحاب السّلطة في مصر. قال رئيس الدّيوان: «إنّ تفاقم الأمور إلى هذا الحدّ يُنذِر بكارثةٍ لم تعرفْها البِلاد من قبلُ، فكيفَ استطاع الموتُ أنْ يخطفَ مِنّا شعبَنا وأهلَ دِيارنا بهذه الأعداد المَهولة؟». لم يتكلّمْ أحدٌ من الحاضرين، إذْ ليسَ في العبارات الّتي نطقَ بها أيّ سُؤالٍ حقيقيّ، لقد كانتْ تنقل إلينا مُستوى ذهوله مِمّا وصلَ إليه فحسب، ولو كان في الميدان مع الأطبّاء وسِواهم لكان قال كلامًا غيرَ هذا يصف حجم المأساة الّتي نغرقُ فيها. تابعَ رئيس الدّيوان: «أريدُ أنْ أعرفَ كيفَ استطاع الطّاعون أنْ يتسلّل إلى الدّيار المِصريّة الآمِنة العامِرة؟ أهو غضبٌ إلهيّ؟» استأذنتُه بالكلام: «لقد فاتَ الأمر على سُؤالٍ كهذا، حَرْبةُ الطّاعون المَسمومة بدأتْ عملها في النّاس منذ أشهر، ونحن لسنا في موضع البحث عن أسبابه، فقد صار واقِعًا أكيدًا وأليمًا، ولكنّنا في معرض مُواجهته، والتّخفيف من ضحاياه ما أمكن. إنّه عدوّ. لكنّه ليسَ عدوًّا تقليديًّا، إذ لو كان عدوًا من النّوع الأخير، لتكفّل بمُواجهته جنودنا الأشدّاء، ولشَنّنا عليه حربًا شَعواء، وخلّصْنا البِلادَ والعِباد منه، ولكنّه عدوٌّ خَفِيّ، لا يُرى لكنّه موجود، يمشي إلى جانبك، ويعيش معك، ويتقاسم معك كلّ شيءٍ، السّرير، والغرفة، والجِدار، وبيتَ الخَلاء، والطّعام، والثّياب، والأمل، والنّظرة إلى الأفق... وحينَ أقول كلّ شيءٍ، أعني ما أقول، إنّه يُشاركنا الآنَ هواء هذه الغرفة، وبالتّالي فقد يُصيب بعضَنا أو يُصيبنا جميعًا. إنّه يطعنُ بلا رمح، ويضرب بلا سيف، ويهوي بلا فأس، ولكنّه يملك ما هو أشدّ من الرّمح والسّيف والفأس، إنّ ضَرْبتَه إذا ضَرَب لا ثاني لها، وإنّه إنْ حلّ في جسدٍ لا يخرجُ منه إلاّ أنْ يُخرجه الله، ولِذا...». قاطَعني في استرسالي رئيس الجُند، وقال بصوتٍ خشنٍ غليظٍ لكنّه مهزوز تبدو فيه نبرة القلق: «لم نَجِئ إلى هنا، ولم نجتمع هذا الاجتِماع من أجل أنْ تُخيفنا بهذه الطّريقة... نحن قادرون على أنْ نهزمَ كلّ مَنْ نُجابهه، ومصر ما زالتْ بخير، وتهويل الأمور ليسَ من مصلحة بِلادنا ولا شعبِنا». ابتسمتُ ابتِسامة ساخرة قبل أنْ أقول: «أنا لا أريدُ أنْ أخدَع أحدًا سيّدي، مصر ليستْ بخير، وأنا لا أُخيفُ أحدًا، الوضع مُخيفٌ ومُرعِبٌ ومجنون، وأنا أفعل ما يُمليه عليّ واجبي، وأُدرك أنّ هذا المرض لا ينفع معه تهديد، ولا ينصرفُ بوعيد، ولا يُفرّق بين سادةٍ وعبيد، إنّه يُنشبَ مخالبه في عنق العَتّال الجَعْدة في الأسواق، كما يُنشب مخالبه في عنق الأمير البَضّة في القصور، نحتاج إلى رأيٍ لنواجهه لا إلى صوت، ونحتاج إلى حكمة لا إلى صُراخ، وإلى شجاعةٍ لا إلى عنتريّات». أغضبَ قولي رئيسَ الجُند، فصاح مُهتاجًا: «هل تقصدني أيّها النّكرة؟». لم أردّ، فاستشاطَ غضبًا: «مَنْ تقصد؟». رددتُ بهدوء: «لقد قلتُ ما سمعتَ، ومَنْ ظنّ أنّه المقصود فذلك ظَنُّه...». قاطَعَنا رئيس الدّيوان، وهتفَ مُحنقًا: «نحنُ نريدُ مجابهته على طريقتك يا حكيم، فماذا ترى؟» تنحنحتُ هذه المرّة، وعدّلتُ من أمر ثيابي، وقلتُ له: «سيّدي، قد تكون الحربةُ قد غاصتْ مُبتدِئة من البطن صاعِدةً إلى

الأعلى، لكنّها لم تصل إلى القلب، ولِذا يُمكن أنْ نستدرك هذا القلب قبل أنْ يتهاوَى هو الآخَر..». فسأل: «فماذا ترى؟». «سأقول لكنّني لا أريد لكلماتي ألاّ تُجاوز هذه الجُدران، قد يكون بعضُها فيه غَرابة، ولكنّكَ استشرتني، والمُستشار مُؤتمن». «قُل، ولا تتردّد». «سيّدي، يُمكن بالنّسبة للأجساد أنْ نوقِدَ على الطّين...». «الطّين؟». «الطّين الأرمنيّ، فإنّه يُفيد مع الدّمامل، ويُطرّي التّشقّقات، ويُعيد للجسد أملاحه ومعادنه الّتي فَقَدها. أمّا البيوت فيُمكن تبخيرها». «تبخيرها؟ هل نحن مُشعوِذون يا حكيم؟». ضحكتُ: «أكلّ تبخيرٍ شعوذةً يا سيّدي، نُبخّر البيوت لتنقية الهواء الفاسد، يُمكن أنْ يكون التّبخير بالعنبر والكافور والصّندل، أظنّ أنّ كمّيات من هذه موجودةً في القُصور والحدائق العامّة وبيوت الأثرياء، على الدّولة أنْ تجمعها من تلك الأماكن وتُوزّعها بالمجّان على النّاس ليبخّروا بها بيوتهم... ثُمّ...». قاطَعني رئيس الجُند هازئًا: «هل سنحوّل جنودَنا المُقاتلين إلى حَمّالي دِلاء الورد والعنبر كالنّساء، ألهذا ادّخرناهم». رددتُ بهدوء، وبحزمٍ: «الطّاعون تُقاتله الوردةُ خيرًا من ألفِ رمح، والعنبر خيرًا من ألفِ سيف، لكلّ عدوٍّ سِلاحُه القاتل، أنتَ لا تريدُ أنْ تفهم ما أعني، إنّكَ تريدُ أنْ تظلّ عصًا في الدُّولاب، دَعْكَ من مُقاطعتي، وآنَ لك أنْ تتركَ استِهزاءَك جانِبًا وتسمعَ لي، لأنّني لا أريدُ أنْ أُقاطَعَ بعدَ الآن، ولا أريدُ أنْ أُعيدَ من أجل أنْ أتحمّل هُراءَك،

ضَعْ عقلكَ في رأسِكَ مرّةً واحِدةً بدل أنْ تضعه في حِذائك..». كانتْ عيناه تتطايَران شررًا، سحبَ سيفَه وهَجَمَ نحوي، فسحبتُ سيفي وهجمتُ نحوه ونحن نصيح، استدركَ الموقفَ رئيس ديوان القَضاء، فوقفَ حائِلاً بيننا قبل أنْ تبدأ المُبارزة، صرخَ رئيس الدّيوان: «كُفّا أيّها الدّيكان الأحمقان، من العار أنْ تسحبا سيفَيكما في حضرتي». أعدتُ سيفي إلى قِرابه، وتراجعتُ إلى مكاني في السِّماط، وهتفتُ وأنا لا أزال في غضبتي: «أريدُ أنْ أقول كلّ ما لديّ دُفعةً واحدةً وأخرج من وجه هذا الأخرق، إنْ أخذتْ مصر بقولتي نجتْ، وإنْ لم تأخذْ فعلى نفسِها جنتْ براقش، وقد أعذرتُ إلى الله فيما أعلم». كنتُ قد بدأتُ أهدأ تدريجيًّا، فيما كانتْ أنفاسُ رئيس الجُند تخرجُ من منخرَيه الواسِعَين كأنّه حِصانٌ هائج، أمّا رئيس ديوان القَضاء، فاسترضاني بقوله: «نريدُ أنْ نسمعَ منكَ يا حكيم، لعلّ الخير فيما تقول، ولْيكنْ ذلك على وجهه الّذي يرضاه الله، ويخلق الله بعد ذلك ما لا تعلمون». عدّلتُ ثيابي على صدري، وأثبتّ العِمامة فوقَ رأسي، وهززتُ رأسي مرّتَين قبل أنْ أقول: «على الّذي يستطيع من النّاس أنْ يتختّم بالياقوت فلْيفْعل، أقول ذلك لمن يستطيع، أعلم أنّ أكثر النّاس فقراء، ولكنّ الياقوت والجواهر والأحجار الكريمة تُساعدُ في الحماية، وعلى رئاسة الدّواوين أنْ تُصدِر وصفةً بالأغذية الّتي تُساعدُ كذلك، يُمكن أكل البقل وخلّ السُّمّاق واللّيمون، والطّحينة، وعليهم الإقلال من المَرَق والفواكه، واستِنظاف الماء، إمّا بغَلْيه، أو بالتّأكّد من مصدره، فإنّ النّيل هذه الأيّام طِين، وإنّ أكثر أمراضِ أهل مصر منه، فلا تشربوا من مائه إنْ لم يُغلَ. وأمّا المأكولات؛ فيُؤكل اللّحم الأبيض من الطّيور، ومُرَبّى العنب قبل أنْ ينضج، أي مُربّى الحِصرم، كلّ هذا يُمكن أنْ يُدوّن من خلفي، كَتَبة الدّواوين يفعلون ذلك، والنُّسّاخ ينسخون منها ما استطاعوا لتكون بياناتٍ إرشاديّة لأهل مصر، هذا في البيوت. وأمّا خارج البيوت فإنّ هواء الطّاعون هو هواء القاهرة والبِلاد كلّها، فيُمكن استصلاحه بقطع تلك الأبخرة الفاسدة عن طريق حرق أشجار المرّ والمُصْطكَى والسندروس والكندر والميعة في الأجواء الباردة والصّباحات. أما في الحَرّ والجنوب والأماكن الجافة؛ فيُمكن تبخير الورد والصندل والكافور والعُود الهندي. وأمّا على مستوى المُمرّضين والأطبّاء والمُساعِدين والمُسعِفين والمُتدرّبين، ومَنْ أرادَ أنْ يخدم في هذه المِهنة، فيمكن تخفيف المرض أو عِلاجه بالفَصْد، وتقوية القلب بالأغذية أو بالتّبخير أو بالتّعرّض للهواء النّقيّ أو بالتّعطير أو بالتّبريد، ومَنْ كان من هؤلاء في المناطق المُرتفعة فلا ينزلنّ إلى المُنخَفَضات؛ فإنّ الهواء فيها مثل الماء آسِنٌ فاسد، وعلى المرضَى أنْ يعلموا أنّ هذا المرض يُستثار بالحركة، وأنّ خير ما يُمكن تهدئته به أو إنامته بمُلازَمة السُّكون والدَّعَة لتسكين هَيَجان الأخلاط».

وتوقّفتُ عن سيل الكلام، وزفرتُ زفرةً طويلةً، ثُمّ أطرقتُ إلى الأرضِ قبل أنْ أرفع رأسي لأقول: «أظنّ أنّ هذا ما كنتُ أريدُ قولَه». سادتْ لحظاتُ صمتٍ مُطبِق، قبل أنْ يقطَعها صوتُ رئيس الدّواوين: «هل هذا كلّ شيءٍ يا حكيم؟». ضيّقتُ عينَيّ، وتنفّستُ بهدوء، لأقول: «أريدُ أنْ أشرحَ معنى تسكين المرض أو إنامته». أشار إليّ رئيس الدّواوين مُشجّعًا: «تفضّل يا عبد اللّطيف». «على النّاس المَطعونين وغير المطعونين أنْ يلزموا أماكنهم الّتي هم فيها، فمنْ كان في بيته فلا يخرجْ منه، ومَنْ كان في البيمارستان أوفي السّاحات أو في المُنشآت فلا يُغادرها، وعلينا ألاّ نسمح مرّة أخرى بإقامة الصَّلَوات الجماعيّة في ظواهر البِلاد مهما كانت الدّوافع، وعلى أهل القصور أنْ يحبسوا أنفسهم فيها؛ فقد ولّى زمن الصّفق في الأسواق والإنعام على المُتسوّلين بالدّراهم، وعلى أهل القرى ألاّ يخرجوا من قُراهم، وعلى أهل القاهرة من حُبِسَ خارجَها أنْ يبقَى خارِجَها، ومَنْ حُبِسَ داخلَها أنْ يبقَى فيها، وعلى الدّولة ألاّ تسمحَ على الثّغور بدخول أيَّ قادمٍ من الشّام أو العِراق أو بلاد التّرك أو بلاد الفُرس، أو بلاد المغرب...». قاطَعني رئيس الجند، ولكنْ بأدبٍ هذه المرّة: «تريدُنا أنْ نحبسَ النّاس؟». «هو كذلك، نحبسهم فنحبسَ الطّاعون عنهم، إنّ الحركة والتّجمّعات تفتح شهيّته، فيضربُ ضربته الّتي لا نجاءَ منها». ردّ بأسَى هذه المرّة: «إنّ هذا يستلزم استنفار كلّ جنديّ في الجيش أو مُنتسبٍ للشرطة ودواوين الأمن؟». «تمامًا، فهذه معركتهم الكُبرَى، فإن انتظم عِقدُهم نجحوا وكان ذلك أدعَى لإنقاذ أكبر عددٍ من الأرواح». سأل رئيس ديوان القَضاء: «وإذا لم يلتزم المعزولون بالبقاء حيثُ هم، سواءً في البيت أو أماكنهم أو البيمارستانات، فلقد سمعتُ

عن فِرار المطعونين من البيمارستان الرّئيس؟». ردّ رئيس الجند: «سنوزّع حُرّاسًا من أجل أنْ يقفوا على أبواب هذه المُنشآت».

رَدّ عليه رئيس ديوان القَضاء: «يُمكن أنْ تحرس المُنشآت كلّها، ولكنْ لا يُمكن أنْ تحرسَ البيوت كلّها، إنّك لن تملك عددًا من الجنود لكل المُصابين بالطّاعون». «سنحرس مُفترَقات الطّرق، وقوارع الشّوارع، ونواصي الأزقّة، وأوساط الأحياء، وعلينا أنْ نكون جادّين في تطبيق القانون إذا خُتِمَ بخاتم المَلِك». تدخّلتُ: «لدينا أكثر من عشرين ألفًا معزولين في مُنشأة القاضي الفاضل، نحن بحاجةٍ إلى حمايةٍ لهم، لأنّه إذا فَرّ منهم مَنْ يريدُ الفِرار فسيكون بؤرةً لانتِشار المرض». رَدّ رئيس ديوان الجُند بحزمٍ: «سنؤمّن لهم حراسة، وسأشنقُ كلّ مَنْ يهربُ باعتِباره قاتِلاً، وإذا كان الهرب - حسب ما قُلتَ - يقتل النّاس، فسأقتلُ مَنْ يهرب، الّذين يظنّون بأنّ الهرب يُؤمّن لهم النّجاة، فسأجعله يُؤمّن لهم الموت». قلتُ: «من الحَسَن الحَزم في أمورٍ تهمّ الدّولة بأكملها، ولكنْ عليكم في ديوان الجُند أنْ تنتبهوا إلى أنّ هناكَ من سيخرج مُضطرًّا، وهذا يرجع تقديرُه لكم، لأنّنا لا نريدُ أنْ نحاسب كلّ خارجٍ، فيكون معه عذر، فيجتمع عليه موتان».

وسألني أحد رؤساء الدّواوين: «والرّيح؟». فقلتُ له: «وما شأنُ الرّيح؟». «يقولون إنّها إنْ هبّتْ نقلتِ الطّاعون معها». «ربّما هي كذلك. إنّ الرّيح لا يُمكن إيقافُها ولا تغيير مجراها، ولكنْ يُمكن أنْ نجعلها تهبّ على شوارع فارغة وجِهات خالية، وتلك هي الوقاية».

ثُمّ إنّني طلبتُ من رئيس الدّيوان أنْ يوقف البريد، لمُحاصرة العدوى، وأنْ لا يكتبَ إلى أيّ بلدٍ رسالةً ولا أنْ يستلم منها مثلها. فتساءل رئيس الجند مُستنكرًا: «تريدُ أنْ تعزلنا عن العالَم؟! البريد لا يحمله إلاّ عددٌ محدودٌ جِدًّا من الأشخاص، إنّنا بذلك سنموت محبوسين ولنْ يسمعَ مْن كان خارجَ مصر بنا؟ إنّ هذا الوباء يستعبدنا». رددتُ: «أنْ يستعبدنا خيرٌ من أنْ يقتلنا، ثُمّ إنّ البريد يُوصِله إلى الدّيوان عددٌ محدودٌ من الأشخاص، ولكنّه يُوزّع بعدَ ذلك على عددٍ غير محدودٍ منهم، وهنا تكون الطّامّة». سكتُّ قليلاً، فيما راح الكَتَبة يُسجّلون كلّ ما دار من أجل أنْ يرفعوه إلى رئاسة الدّواوين كلّها لصِياغة قوانين الدّفاع، ورحتُ أستطرد: «إنّني لا أطلب فقط إيقاف البريد، ولا حظر التّجوال فحسب، بل أطلبُ إيقاف حركة السّفن الكبيرة في الإسكندريّة، وإيقاف حركة المراكب الّتي تعبر النّيل قادمةً من هناك، إنّها تحمل الموت، وعلينا اليوم قبل غدٍ أنْ نمنعها من الإبحار». اكفهرّتْ وجوه رؤساء الدّواوين كلّهم، كانوا قد بدؤوا يستسلمون للفكرة، ويُدركون فداحة الخطب، فيما استثمرتُ أنا ذلك، وتابعتُ وهم صامِتون مُطرقون: «طلبٌ أخير، سينتشر المُحتكِرون، والمُنتهِزون لهذه الجائحة، فعليكم أنْ تسنّوا قانونًا يمنع الاحتِكار، ويُوقِع أشدّ العقوبات بالمُحتكِرين، فإنّني أعرفُ بَقّالاً احتجز في دُكّانه بِضاعته من الأغذية والبقول حتّى يبيعها بسعرٍ مُرتفِع، وستجدون أمثلةً كثيرةً لهذا البَقّال في كلّ مكان، وهناك مَنْ ينتظر من الأطبّاء نوعَ الأغذية الّتي يستلزم أكلُها في مثل هذه الجائحة ليرفعوا سِعرَها، إنّني أعلم - وأنا خبيرٌ بهذا - أنّ أسعار القِثّاء والبِطّيخ والدّجاج والخلّ وغيره مِمّا ننصح بأخذه سوف ترتفع، كما سترتفع موادّ التّعطير والتّطيّب مثل الكافور والسّدر والقُطن المُستخدَمة في تحنيط الموتى. فعلينا أنْ نكون حازمين إزاء هذه الفِئة من الانتِهازيّين».

وسرى قانون الحجر بين النّاس، وتمرّد عليه في البِداية عددٌ لا يُعجبهم أنْ تحشر الدّولة أنفَها في أمورهم الخاصّة، فهربَ أولئك من بيوتهم، وحملوا معهم أموالَهم، وغادروا خارج مصر، وطرقوا الأبواب فلم يفتحْ لهم أحدٌ، ودفعوا الأموال فلم يأخذْها أحدٌ، وكان لديهم من المال ما يُمكّنهم من شراء القُرى الّتي هربوا إليها بكلّ ما فيها، فلجؤوا إلى الحظائر والزّرائب، وعانوا مع الطّاعون قلّة النّظافة وفسادَ الهواء والرّوائح الكريهة والرّوث، فماتوا ولم تنفعْهم أموالُهم بشيءٍ! ❞

انظُرْ إلى الطّاعون، إنّه شيطان، جِنّيٌّ أسود، يقفز فوق الأسقف، يتجوّل في الطّرقات، يُحبّ الاكتِظاظات، يرى فيها صيدًا ثمينًا، يحمل حربةً تَقطُر سُمًّا، يسير بين النّاس، ينظر في الوجوه، ويطعن السّاهين، إنّ نظرته في الوجوه لم تكنْ ذات معنى إلاّ لكي يرى وجه ضحيّته، ويستمتع بنظرات الرّعب الّتي تسيل من عينَيها، لا يعرفُ الرّحمة، ولا يرقّ قلبُه لامرأةٍ وحيدة، ولا لطفلٍ رضيع، يغرز حَرْبتَه في الأحشاء، ثُمّ يَدُور بها داخل تلك الأحشاء حتّى يُمزّقها تمزيقًا، ثُمّ يخرجها من هناك تقطر لحمًا ودمًا، وينتقل إلى الضّحيّة الّتي تليها، وهكذا... لكنّه كان يجد صعوبةً في أنْ يدخل الأبواب، إنّ يده مشغولةٌ بالطّعن لا بفتح المغاليق، ومع ذلك يجدُ أحيانًا الأبواب نفسَها تُفتَح له فيدخل، وحدهم الّذين لاذوا بعزلةٍ بعيدةٍ عن الأماكن العامّة الضّاجّة بالنّاس كانوا بمنأى عن طعنةٍ نافذة من حربةٍ مسمومة يحملها شيطانٌ أسود، ليس في قاموسه موضعٌ للرّحمة!

«لن أموتَ وحدي. لستُ فاسِقًا حتّى يختارني الموت دونَ سِواي، ولم أقترفْ ذنبًا عظيمًا، ولم أُخطِئ بحقّ أحدٍ حتّى أتحمّل أنا هذه الجريرة، لن أرحل إلاّ بأكبر عددٍ مُمكنٍ معي، إذا كان ما يقوله الأطبّاء صحيحًا - وأنا أميل إلى هذا الاعتِقاد - فسوفَ أجعل العدوى تنتشر بين الّذين لم يلتفتْ إليهم الطّاعون، ما ذنبي أنْ أكون أنا من دونهم قد استوقَفْتُه، سأجعلهم أيضًا يستوقفونه، ويطلبون منه أنْ يدخل إلى أجسادهم، ألم يقولوا: الموت مع الجماعة رحمة، فموتوا معنا أيّها الأصحّاء حتّى لا تُعانوا الفقد بعدَنا، ولا نُعاني نحن الموت به من دونكم». هكذا يقول واحدٌ من الّذين نَقِموا على الدّولة إجراءاتها، ومن الّذين غاصتْ فيهم حربة الطّاعون، كان هؤلاء الصّنف من النّاس يَتّبعون الجنائز باكين على أنّهم من ذوي الميّت، ويقفون عند رأسِ القبر حينَ يجتمع عنده أهلُه، ويُصافحونهم مُعزّين، ويقولون في سِرّهم: «مرحبًا بكم معنا إلى الموت».

كانوا ينزعون عن أفواههم اللّثام، ويغمسون أيديهم بالطّعام، ويُقدّمون كأس الماء للآخرين بدعوى المُساعدة، وكانوا يزورون البيمارستانات مُتظاهِرين بأنّهم أصحّاء جاؤوا ليسألوا عن أقربائهم، ويختلطون بالأطبّاء والمُمرّضين والمُسعِفين، ويقولون لهم في أنفسهم قولتهم الشّهيرة: «مرحبًا بكم معنا إلى الموت». كان الحقد الأسود يُعشّش في قلوبهم مثل الموت الأسود، وكان أكثر سؤال ينتصب كرمحٍ في حلوقهم ويدفعهم إلى هذه الجرائم، هو: «لماذا نحن وحدَنا؟ وعليّ وعلى أعدائي». ولكنّ لِسان فِعلهم كان يقول: «عليّ وعلى أحبابي». وكانوا يرمون الألثمة الّتي تنفّسوا فيها ولطّخوها بصديد دماملهم إلى الشّرفات، أو أمام الأبواب: «لِنَمُتْ جميعًا أيّها النّاس، إنّ يومَ القيامة قريبٌ، وإنّه لا فائدة من الحياة، لماذا عليكم أنْ تعيشوا بعدَنا؟!».

كانوا يتزوّجون، يصنعون كلامًا معسولاً لزوجاتهم المُستقبليّات: «نحنُ أصحّاء، ولا بُدّ من زواجٍ بين صحيحَين من أجل أنْ ننجبَ أصِحّاء، إنّها الطّريقة الوحيدة لتعويض خسارات الموتى؛ الإنجاب، الإتيان بأطفالٍ جُدُد لَم يَمْسَسْهم الطّاعون إلى هذا العالَم الّذي يتداعَى». وكانوا يُعدُون منْ ظنَنَّ أنّهنّ عثرْنَ في وسط هذا الموت كلّه على فارس الأحلام... لقد كان فارسَ الحِمام.

كانوا يخرجون إلى الشّوارع مُتَحدّين الحَجْر ومنع التّجوال: «إنّنا ميّتون على أيّة حال، فلْنقمْ بمهمّتنا الشّريفة قبل أنْ تحينَ السّاعة»، يطوفون على البيوت يُلطّخون بدمهم أو بصديدهم أو بنُخامهم أو حتّى ببرازهم مقابضَ الأبواب، وعتبات المداخل، وأطراف النّوافذ، وكانوا يهمسون من جديد: «نحيا معًا، أو نموتُ معًا!!».

أدّى الحظر إلى بروز مُشكلةٍ جديدة، إنّ عددًا من المرضى بأمراضٍ أخرى لم يكونوا قادرين للوصول إلى البيمارستانات، ولم نكنْ نحنُ قادرين على زيارتهم، هذا إلى إصابة بعضهم كذلك بالطّاعون في أوّل مراحله دون أنْ يجد وسيلةً للخروج من البيت، ولذلك عملنا باتّجاهَين لحلّ هذه المُشكلة: وَجَّهْنا العَرَبات بالطَّرْق العشوائي على البيوت من أجل نقل المُصابين، وقُمتُ أنا ومجموعةٌ من الأطبّاء - كتبْنا في ذلك ميثاقًا – بالذّهاب إلى البيوت الّتي يُشتبه بوجودِ إصابةٍ فيها، أو نعرفُ من ديوان النّسَمات أنّ فيها مرضَى أو مُستّين.

أخذتُ (سالم) معي إلى أحد البيوت، صعدْنا الدّرجات إلى الطّابق الثّالث، كان ذلك سببًا في عدم قدرة أهل المريض على إيصاله إلى البيمارستان أو إحدى المصحّات، كان المريضُ رجلاً في العَقْد الخامس من عمره، وكان يُعاني الحُمّى لارتِفاع درجة حرارة جسمه بشكلٍ أدّى إلى دخوله في نوباتٍ مُتتابِعة من الهَذَيان، كان مُمدّدًا على السّرير، ومن تحتِ رأسِه تجلسُ زوجته باكية، وكان رأسُه مُغطّى بقِماشٍ مبلولٍ بماءٍ باردٍ لتخفيف أثر الحرارة، وكان جسده يرشحُ مع ذلك عَرَقًا.

تراجعتِ المرأة الباكية إلى الوراء لتسمحَ لي أنا وسالم بمحاولة العِلاج، طلبْتُ منها أنْ تأتينا بدلوٍ مملوءةٍ بالماء البارِد، ورُحتُ أُبلّل القِماشةَ بالماء وأمسحُ بها وجهه وجبهته وصدره وذراعَيه، كان مُغمَض العينَين، يفتحهما أحيانًا ثُمّ يعاودُ إغلاقَهما وهو يشدّ على أسنانه من الوجع، وصدره يعلو ويهبطُ ببطء، كان واضِحًا أنّ نبضَه ضعيفٌ، وأنّ تبريد القلب يُمكن أنْ يُساعِدَ في تنشيطه، كانت اثنتان من بناته تُشاهِدان أباهما وهما تقفان في زاوية الغرفة بجانب الباب، وتضعان أصابِعَهما الصّغيرة في أفواههما وتبكِيان بصمت، فيما كان ابنُه على ما يبدو ينظر إلى أبيه وهو يقف خلفَ سالم بعينَين زائغَتين، حُزنٌ مُعتّق؛ كان كلّ شيء في الغرفة يبكي حتى إنني تخيلتُ أن قطراتٍ من الدموع كانت تسيل على الجدار فوق رأسه، وشعرت أن المِخدّة المُندّاة التي يُريح عليها رأسه المُتعَب قالت: لو كان لي ذراعان لاحتضنتُك!

قلتُ لسالم: «إنّ وجعه شديد، فماذا تقترح أنْ نعطيه من المُهدِّئات». ردّ وهو ينظر إلى الصّندوق الخشبيّ الّذي يتكون من ثماني دوائر عميقة تستقرّ فيها العقاقير والأدوية: «سائل الخشخاش يا حكيم». وافقتُه، لم نكنْ نعطي هذا المُخدّر إلاّ في الحالات الصّعبة أو الآلام الشّديدة، إذْ كان من أقوى المُهدِّئات، وكان الخطأ في الجُرعة قد يُؤدّي إلى نوم صاحبه دون أنْ يستيقظ أبدًا. أعطيتُه في الفم نُغبةً منه، بعدَ أنْ قدّرنا أنا وسالم الكمّيّة المُناسِبة، وراحَ نبضُه يتباطأ وينتظم، يبدو أنّه يخلدُ إلى الرّاحة، لم يكنْ بأيدينا الكثير لنفعله، ربّما كان مَنْ يملك الكلمة الطّيّبة الحلوة خيرًا منّا في شِفاء هذه النّفوس المكدودة.

قلتُ للّزوجة: «هذه نصائح عامّة، لن تكون دواءً سِحريًّا، لكنّها قد تُفيد، الأطعمة الّتي يُفضّل أنْ يأكلها في هذه الحال الخلّ وقليلاً من اللّحم الأبيض، ولا تطبخي إلاّ بأوانٍ مغسولة بالماء المغليّ. بالنّسبة لتغيير الملابس أو شراشف الأَسِرّة، فيجب أنْ تغسليها جميعًا في ماءٍ مغليّ، وتجفّفيها في شمسَ الضّحى، بعدَ أنْ يسكنَ الهواء الفاسد، وقبل أنْ يثور بعدَ الظّهر من جديد، ويُمكن تجفيفُها بالنّار إذا أمكن، إذا لم تفعلي هذا من قبل، فعليكِ أنْ تفتحي فرشته الّتي ينام عليها وتغلي الملاءات في الماء، وتُعرّضي الحشوة إلى الهواء أو الطَّرْق بعصًا، ثُمّ بعد أنْ تجفّ الملاءات، تعيدينها إلى الفرشة مع تغليفها. وعليكِ أنْ تغسلي قوائم السّرير وتبخّريها بالصّندل أو الزّعفران، ولا تدعيه يمسّها، أمّا الفضلات والأوساخ الّتي تكون بعدَ الطّعام أو في أنحاء البيت فعليكِ أنْ تجمعيها في مكانٍ واحدٍ وتقومي بحرقِها... كانتْ تسمع وقد أثقل الحُزن رأسَها فلم ترفعْه من إطراقةٍ طويلة.

لم يكنْ هناك فِعلٌ خارقٌ يقضي على المرض، لكنّ (سالم) أعدّ لها بعض الأدوية، سكبَها في بعضِ المحاقن، وعلّمها طريقةَ إعطائها لزوجِها، خرجْنا من الباب، وكنتُ أعرفُ أنّ الزّيارة لم تفعلْ شيئًا سِوى إبقاء الأمل على قيد الحياة، فإنّ الجزع والخوف قد استبدّا بالنّاس حتّى كان يقضي على عددٍ أكثر من ذلك الّذي قضى عليه الطّاعون!

غير أنّ الأُسَر لم تكنْ كُلّها سواء، لا في البقاء ولا في الهرب، ولا في القدرة على استِقدام طبيبٍ أو الموت بصمتٍ. كان على ربّ الأسرة الّتي يُصابُ أحدُ أفرادها بالطّاعون أنْ يحجر على عائلته، ويُغلِق على نفسه وعليهم الأبواب، بعدَ أنْ يكونَ قد أمّنَ لهم كمّيّة من الطّعام والشّراب قادرةً على أنْ تصمدَ أسبوعًا على الأقلّ، حتّى تكون هناكَ فُسحةٌ للخروج من أجل الحصول على بعضِ الطّعام مرّة ثانية. لقد كان هذا الحصول حتّى من المرّة الأولى على الطّعام في هذا الحَجْر ترفًا بالنّسبة لأسرٍ أخرى وحُلُمًا صعبَ التّحقّق، إذْ لم يكنْ لدى بعضِ الفقراء خبزُ يومِهم عِوَضًا عن أنْ يحبسوا في بيوتهم الّتي تفتقر إلى النّظافة أسبوعًا دون كسرةِ خُبزٍ واحدةٍ، ولذلك حدث هذا: يقفُ الأب أمام أبنائه، والدّمعةُ تترقرقُ في مُقلتَيه ليقول: «لقد كتبَ الله علينا ذلك، إنّنا إنْ خرجْنا مُتنا، ولكنّنا أمتْنا معنا النّاس، وإنْ بقينَا فلعلّ الله يجدُ لَنا مخرجًا. والموتُ هنا خيرٌ من أنْ نكون اقترفْنا ذنبًا بالتّسبّب بالعدوى للآخَرين». وكان الأب يُنحّي من جِسمه ليضع لُقمةً ولو واحدةً في فَمِ أبنائه، أمّا ابنته المريضة، فلقد كان هو وأمّها يبكيانها بصمتٍ دون أنْ يكونا قادِرَين على أنْ يفعلا لها شيئًا. وكان من الفظيع حَقًّا أنْ ترى ابنتكَ تموتُ أمامكَ وأنتَ تنظر، لقد ماتَ الآلافُ بهذه الطّريقة. أجسادٌ حينَ طلَعتْ عليها شمسُ الصّباح لم تكنْ قادرةً على أنْ تتحرّك في سريرها، لقد رحلتْ أخيرًا. أمّا المُسِنّون فقد كانوا يقولون: «إنّنا نطلبُ من الله ألاّ نكون عبئًا عليكم أكثر من هذا، فيا موتُ زُرْ إنّ الحياةَ ذميمةٌ». ❞

❝ (٨)

يومًا ما سينتهي كُلُّ هذا

مشى الطّاعون فقضى بين النّاس وحَكم ما أرادَ الله له أنْ يقضي ويحكم، ففرّق مثلما قتلَ وزيادة، كان الرّعب من العدوى عندَ بعضِ النّاس قد ألجأ الأخَ إلى أنْ يهجر أخاه، والابنَ أنْ يتركَ أمّه مع مصيرِها غيرَ عابِئٍ بتوسّلاتها، والأب أنْ يرحل في اللّيل إلى قريةٍ نائيةٍ دون أنْ يُعلِمَ أبناءَه... كانوا يفرّون من الموت، وما كانوا يدرون أنّ الموتَ إمّا أنْ يُلاقِيهم في القُرى الّتي فَرّوا إليها، وإمّا أنْ يحملوه معهم، فيفتحوا له أبوابًا جديدةً لم يكنْ يحلُم بها ليدخل منها إلى البشر الّذين لم يتمكّن من الدّخول إليهم فيما مضى.

أفسدَ الطّاعون الأخلاق عندَ كثيرين، أو لِنقُلْ اضطرّهم إلى ذلك؛ لم تعدِ الأمّ تهتمّ بصِغارها، كأنّها ما أنجبتْهم يومًا، ولا عانتْ في حَمْلهم تسعة أشهر، ولا أعطتْهم من لحمِها ودَمِها حينَ أرضعتهم، ثُمّ حين اعتنتْ بهم حتّى صاروا أطفالاً يدبّون على الأرض، وهكذا لمّا آنَ للزّهرة أنْ يكتمل تفتّحها، ويعبق شَذاها، تخلّتِ الأمّ عنها وفرّتْ بعيدًا، ولم يكن حالُ الآباء بأحسنَ من ذلك، فلقد طلبوا من فِرَق التّطوّع أنْ يأخذوا أبناءَهم إلى تجمّعات الحجر أو العزل حتّى لا ينقلوا العدوى إليهم!!

ولقد دخلتُ بيتًا في القاهرة قريبًا من المشهد أُحاول مع أهله، فلمْ أجِدْ في البيت إلاّ الأب، وقد نخر الطّاعون جسدَه نخرًا، وكان لا تتحرّك فيه إلا عيناه وشَفتاه، وكانتْ رائحة البول والأوساخ تفوح من الشّقّة، فسارعتُ إلى تهويتها، وطلبتُ من المُساعِدين أنْ يبدؤوا بتنظيفها، وحَرْقِ كلّ ما يظنّون أنّه مُلوّث، واقتربتُ من المريض، قدّرتُ عُمره في السّتّين، كان حاسِرَ الرّأس، ليس في رأسه شعرةٌ سوداء واحدة، وكان جسدُه قد تصلّب فلم يعدْ قادِرًا على تحريكِه، وكان وجهه قد تجعّد وبدتْ غضُونه، وهو ينظر كأنّه لا يراني، وسألتُه: «هل لكَ زوجة؟». فلم يُجب، «وهل لكَ أبناء؟». فظلّ صامِتًا إلاّ أنّ دموعه راحتْ تنهمر على خَدّيه. هدّأتُ من حُزنه، قلتُ له: «يومًا ما سينتهي كلّ هذا». فازدادتْ دموعه، لا أدري إنْ كانتْ فرحًا أم يأسًا. طلبتُ من سالم: «حقنة الكافور». كانتْ صفراء، لكنّها لم تكنْ تسرّ أيّ طبيبٍ، إنّ فيها مُخدّرًا جيّدًا،

لكنّها ليستْ مُتوافرة، ولا يُمكن أنْ نُعطيها لكلّ مَنْ يموت. صَرّت قوائم سريره لمّا تحرّك مُمتنًّا للجرعة، ولليدِ الّتي مسحتْ على الجُرح، جلستُ عندَ رأسِه أُحدّثه أحاديثَ شتّى أخترعها من عندي، أو من تاريخ مصر أو من ذكريات الماضي، الحديثُ الحلو يطردُ الخوفَ من الموت، أو يشغل المستمع عنه إلى حين. حدّثْتُه كيفَ كانت القاهرة أوّل ما جِئتُها، وكيفَ كان النّاس يملؤونها بالبَهجة، وقلتُ له إنّها ستعودُ أجملَ مِمّا كانتْ عليه، وستعودُ إلى وجهها الضّحكة ويذهبُ هذا العبوس، فافترّتْ شَفَتاه عن بسمةٍ، وشَجّعتُه على أنْ يفتحَ جرّة ذِكرياته، فبدأ يتكلّم، وكان يضحك ضحكةً خفيفةً بين فينةٍ وأخرى، لقد وجد سلوانًا بوجودنا إلى جانبه.

لم يكنْ من الممكن أنْ نبقَى عنده أطول من ذلك، إنّ في القاهرة وحدها آلاف النّماذج الشّبيهة، ولن نستطيع حتّى لو أردْنا أنْ نمرّ على كلّ مريضٍ على هذا النّحو، إنّنا نحاول، الآخرون يُحاولون، لن نكفّ عن محاولاتنا حتّى لو بدتْ ضربًا من العَبَث. قلتُ له: «إنّنا سنمضي». بدا التّأثر في وجهه الشّمعيّ. أرادَ أنْ يقول شيئًا لكنّه توقّف. كانت عيناه تقولان بدل كلماته. وقفتُ، فبدا الرّجاء في تلك العينَين الضّيقتَين المُتعبتَين أكثر، قال بصوتٍ خفيض: «لا تتركْني. أنا وحيد». كدتُ أبكي، قلتُ له: «نحن معك». «أنا خائف». «لا تخفْ، سوفَ أبعثُ مَنْ يطمئنّ عليكَ كلّ يومَين أو ثلاثة». خفضَ رأسه وأسبل جِذعه الّذي كان مُرتفِعًا قليلاً، فيما وضع سالم له على الطّاولة القريبة منه بعضَ الطّعام الّذي أحضرْناه من البيمارستان. كانتْ شفتاه تتحرّكان، لم أسمعْ ما كان يهمسُ به، اقتربْتُ منه لأسمع: «ماذا قلتُ يا عَمّ؟». «ابنتي...». «لكَ ابنة؟». «نعم». «ما بالُها؟». «هربتْ وتركتْني مع الموت وحدي». وسالتْ دمعةٌ من طرفِ عينَيه، وانحدرتْ بسرعةٍ لتذوب في المِخدّة. «نحن أبناؤك». «لا تتركوني. خذوني معكم. أنا ميّتٌ هذا المساء أو صباح غدٍ». نظرتُ بعيدًا لأُداري دموعي أنا الآخر، تابع: «أنا مُمتنّ لك يا حكيم، أنا لا أعرفُ اسمك، ولكنّني أطلبُ منكَ أنْ تدعَو لي وأنْ تدعو لابنتي. أرى الصّلاح في وجهكَ يا بُنيّ». سألتُه: «أدعو لابنتك؟! ألمْ تقلْ إنّها تركتْكَ وهربتْ؟». «أنا سامحتُها يا بُنيّ، إنّها على حَقّ، رأتْني ميّتًا على أيّ حال، وكانتْ لها فرصة في النّجاة، فلماذا ألومُها، أنا فقط قَلِقٌ عليها، أخافُ ألاّ تنجو».

خرجْنا مُثقَلين بالهمّ، كان عليّ أنْ أنتهي من بعضِ البيوتِ هنا، وأعودَ مع سالم إلى المُنشأة لأرى كيفَ يجري العمل فيها. كانتْ تبدو قطعةً لا تنتمي إلى الأرض، ربّما تنتمي إلى الجحيم أكثر. المرضى مُلقَون في كلّ مكانٍ، لم يكنْ هناكَ اهتِمامٌ كبيرٌ بهم، لا تُوجَد فِرَق كافية من الأطبّاء أو المُمرّضين أو حتّى المُتطوّعين للعمل معهم. كلّ شيءٍ هنا كان بائِسًا، ومُضجِرًا، وغير مُجدٍ، وكئيبًا. حتّى إنّ الموت تأثّر بأجواء هذا المكان فلم يعدْ يكترث كثيرًا؛ كانَ مُلقَى مثلهم على الأرض، يُمدّد جسده الهَشّ إلى جانبهم غيرَ عابِئٍ فيما إذا انكشفتْ عورتُه أم لا. حتّى النّظر في وجوه الّذين سيختارهم كلّ ليلةٍ لم يعدْ مُثيرًا بالنّسبة له أو عملاً يتطلّب الجِدّيّة والالتِزام، في السّابق كان يقول لنفسه: «إنّ حصّتي من مُنشأة القاضي الفاضل هو مِئة في اليوم، عليّ أنّ أنتزع أرواحهم بانتِظام وبدون كلل، لأنّه ليسَ لديّ النّهار بِطُولِه، فهناك مِئةٌ تنتظرني أنْ أنتزع أرواحَها في البيمارستان الرّئيس، وخمسون في كلّ مصحةٍ أخرى، ومِئتان في الشّوارع، ثلاثون في حي باب زويلة وحدَها، إنّ لديّ عملاً شاقًّا، ولِذا عليّ أنْ أقوم به على أكمل وجه، لا وقتَ للدّلال ولا للاستِرخاء، وإنّ الأمانة تتطلّب منّي أنْ أُحسِنَ ما أعمل...» كان هذا فيما مضى، اليوم لم تعدْ للموت تلك الجِدّيّة ولا ذلك الشّغف بعمله، اليوم تراه يمشي مُتكاسِلاً، مُتثاقِلاً بين الأجساد، يتجاوز بعضَها دون أنْ ينظر في عينَيه، يُحدّث نفسَه بأنّ بعضَ ضحاياه يُمكن تأجيلُهم إلى الغد أو إلى نهاية الأسبوع، لِمَ العَجَلة؟ إذا كان مُحتَّمًا عليهم أنْ يموتوا فسيموتون، لكنّ العجَلة غيرُ مُحبّبة، وتورث النّدامة، الإنسانُ هو الّذي خُلِقَ عَجولاً؛ أنا لم أُخلَق كذلك!! ماذا لو منحتُهم بضعةَ أيّام أو بضعَ ساعاتٍ أخرى ريثما تكون لديّ الرّغبة القويّة في عملٍ كاملٍ...؟! بهذا كنتُ أرى الموت في المُنشأة، موجودٌ ولكنّه كَسول، الأجساد تُخزّنه فيها ولكنّها لا تخرج معه، يقول له الجسد: يُمكنك أنْ ترتاح قليلاً أيّها الموت، لا جدوى من العمل المُستمرّ، في النّهاية لا مناصَ من الرّحيل معك، لكنْ فلْيكنْ رحيلاً لائِقًا!

المُصابون المُتكشّفون كانوا صورةَ وجود الموت أكثر من أولئك الّذين غَطّوا سوءاتهم ببعضِ الملاءات. في الأجساد المكشوفة يُمكنك أنْ تعدّ أضلاع المرء في قَفَصه الصّدريّ ضِلعًا ضِلعًا، ويُمكن أنْ ترى عِظام تُرقوته بوضوح، ويُمكن أنْ ترى عظمة السّاق الطّويلة بادِيةً كأنّها خُلِقتْ دونَ مِزعةِ لحم، ويُمكنك أنْ ترى العُسقول أشدّ ما يكون هُزالاً... يُمكن لمشهدٍ مُخيفٍ ومُحزنٍ مثل هذا أنْ يحرمك من النّوم أسبوعًا. الأذرُع نحيلة جِدًّا، هي عظمٌ مُغطّى بجلدٍ رقيقٍ، ولا تكادُ تقوى على أنْ تحرّك نفَسها عن أنْ تكونَ عونًا لصاحِبها. العيون الغائرة. الأشداق المفتوحة، الفُكوك النّاتئة، والجفون الذّابلة، والشّعْر المُتساقط، والآهات المكتومة، والموت... كسولٌ مثلهم، يتحرك ببلادة، ويمشي بِتَؤُدة، وينظر مُتأفّفًا إلى

ضحاياه، لقد بدا أنّ الموتَ أصابه الضّجر أكثر منهم، ولِذا استبطأه عددٌ غير قليلٍ من المُصابين، وتأخّر هو عنهم حتّى صار حُلُمًا بالنّسبة لهم، وصاروا يهتفون به: «عَجّلْ، وأَرِحْنا... فلم تعدْ بنا طاقةٌ لنتعب أكثر».

في المُنشأة مُفعَمون بالأمل مثل أولئك اليائسين، أولئك الّذين ظلّوا يطلبون من الله ألاّ يبعثَ عليهم الموت، كانتْ أحاديثُهم بعيدًا عن خوفِهم المُختّر في نفوسِهم تدور حول مدّة الطّاعون، متى سيرتفع؟ ومتى ستحلّ رحمة الله على الأرض؟ ومتى سيمسح الله بيده على المخلوقات المطعونة فيُعيد إليها الحياة؟ لَمْ يفقدوا الأمل، لا لأنّهم أقوياء، بل لأنّهم وجدوا في الأمل درعًا من الجنون، وقايةً من السقوط في قِيعان الكآبة، وطريقًا إلى مُقاومة الموت، لا يهزمُ الموتَ أكثرُ من الأمل بالحياة.

في المُنشأة حدائق كثيرة، كانتْ تمتلِئ بالورود والرّياحين وكلّ ما هو مُثمِرٌ وزكيّ، ولقد شهدتُها قبلَ ثلاثة أعوام ما فيها إلاّ الجَمال، واليومَ عَدَتْ عليها عوادي الزّمن فأحالتْها بلقعًا، وبدّلتِ اخضِرارَها اصفِرارًا، وأُنسَها وحشةً، وبهجَتَها أسًى. غير أنّ البُكاء على الماضي لا يُعيده، فطلبتُ من سالم وخليل وشريف وماريّة أنْ يزرعوا الحدائق بالخشخاش، كُنّا مُحتاجين إلى كمّيات كبيرةٍ منه من أجل صِناعة المُخدِّرات والمُهدِّئات. وبالفِعل بدأنا بذلك، وساعدَنا عُمّالٌ آخَرون، وبرزتْ دُرّيّة فجأةً في وجوهنا، وعرضتِ المُساعدة، كنتُ قد تمنّيتُ لو أنّها محبوسةٌ، أو على الأقلّ بعيدةٌ عَنّا، قالتْ لي وهي تنظر في وجهي دون أنْ يظهر عليها أنّها خجلى مِمّا فعلتْ أو نادِمة: «إيش يا طبيبَ الأرواح المُعذّبة...؟! ماذا فعلْنا حتّى تُعرضَ عنّا هذا الإعراض...؟! نحنُ بخدِمة الأفعى الّتي تَهَبُ السُّمّ الشّافي في كأس الحياة... أنسيتَ؟ وعلى أيّ حالٍ فإنّني أعتقدُ أنّه ليسَ في مصرَ

كلّها مَنْ يعرفُ الخشخاش وكيفَ يُزرَع ولا كيفَ يُجنَى ولا كيفَ يُقطّر لكي يكون جاهِزًا مثلي... أنا أُقدّم خدمتي بالمَجّان، من أجل روح القاضي الفاضل ومن أجل مِصر ومن أجل الله...».

تعلّم القائِمون على أمر الخشخاش كيفَ يُقطّر، وماذا يُضافُ له من محاليل، وكيفَ يُصنّع ويُعبّأ في الدّوارق، وبدأنا نُنتج منه - بعدَ شهورٍ - كمّياتٍ تكفي لحقنِ نصفِ سُكّان مصر. كان دواءً جيّدًا، وسيلةً للتّخفيف من وخز الحربة الّتي يحملها الطّاعون، ولكنّه استُخدِمَ بعدَ ذلك لأغراضٍ شخصيّة، بعضُهم تناوَله ليغيبَ عن هذا الوجود، بعضُهم أخذه دون أنْ ننصحه به، وآخرون استخدموه لكي يُنهوا به حياتهم، وبعضُم انتحرَ بعد أنْ أدمنَ عليه، فشنق نفسَه، أو تردّى من فوقِ المُنشأة، أو طعنَ صدره بالسّيف، أو اتّكأ ببطنه على الرّمح وجعله يغوصُ في بطنه حتّى نفذَ من الجهة الأخرى أو كاد!!

هكذا هو الخشخاش، تريدُ أنْ يكون دواءً فيُصبح سُمّا، تريدُ أن تُعالِجَ به فيُصبح مرضًا، تُريدُ أنْ تُحيي به فيصير طريقًا إلى الموت. نعم، ليس هذا للخشخاشِ فحسب؛ بل إنّ كلّ دواءٍ هو سُمّ قاتلٌ إنْ لم يُؤخذ في الموعد والمِقدار والمكان المُناسِبين!

لم يعدْ أيُّ فِعلٍ هنا غريبًا، كلّ شيءٍ قابلٌ للتّفسير، ويُمكن تأويله، الغرائب مع الطّاعون ليسَ لها مكان، لأنّ الأغرب إذا حلّ أبهتَ ما قبلَه، ولقدْ رأيتُ أحدَهم طلبَ من أخيه أنْ يحفر له قبرًا، وحدّد له مكانه: «تحتَ تلك الزهرة». وكان يعني الخشخاش. لكنْ لم يكنْ هناك من أدواتٍ للحفر، ولو كانتْ موجودةً فإنّه لا أحدَ يقدر على استِخدامها، فما من قُوّة في مريضٍ لا يُغادر سريره أو أرضَه إلاّ زحفًا، لكنّ هذا الأخ أرادَ أنْ يُحقّق لأخيه أُمنيته، فحفر بيدَيه، وببعضِ جذوع الأشجار اليابسة الأرض طَوال أسابيع، ثُمّ كَسا قاع القبر بالقَشّ، ثُمّ اتّكأ أخوه على جذعه، ومَشَيَا إلى الحفرة، ونزل فيها أخوه، وتمدّد في الأسفل على القَشّ، وأمر أخاه أنْ يملأ صدره بالأوراق الصّفر لزهرة الخشخاش، وصلّب ذراعَيه فوقَها،

وراحتْ شَفَتاه تُتَمْتِمان ببعضَ التّعاويذ... ثُمّ أغمضَ عينَيه، ورحل، كأنّه كان يُؤقّت موتَه، أو كأنّ الموتَ لبّى له النِّداء أنْ يأتيه في الحفرة رغم انشِغاله الشّديد... ثُمّ أهال عليه أخوه التّراب، ورَجَع وهو يرجفُ من البُكاء!! "

" (٩)

قائمةُ الموتى

نَفَقتِ الجواميس، بعد أنْ شَحّ النّيل حتّى كادَ يُرى الطّينُ في بعضِ مواضعه، وهلكَ بهلاك الجواميس عددٌ كبيرٌ من النّاس، كلّ عائلةٍ كانت تعيشُ مع جاموسةٍ هلكتْ بهلاكها، ورحلتْ برحيلها، أُلقِيت الجاموسةُ في النّيل، ألقاها الأب الّذي لم يمتْ، ثُمّ ماتَ اثنان من أبنائه جُوعًا، فألقاهم خلفَها في النّيل، وابتلعَ النّيل في أقلّ من شهرٍ آلافَ الجُثث من البشر والحيوانات الّتي أُلقيتْ فيه لأنّها لم تجدْ كفنًا لتُلَفّ به، ولا موضعًا من الأرضِ لتُوارَى فيه.

تحوّل النّاس بعدَ أنْ قلّتِ الجواميس إلى أَكْل الدّواب، أكلوا في البداية الخيول، كان لدى بعضِهم فتوى صادرة من مجلس الإفتاء بجواز أكلِها، وإذا لم تكنِ الحال الّتي نحن فيها تدعو إلى ذلك فأيّ حالٍ سِواها؟ عُقِرت القوائم، وذُبحت الأعناق، وشَخَبتِ الدّماء، واجتمع على الحِصان أكثر من مِئةٍ تناهَبوا لحمَه في لحظاتٍ، كان الحِصان قد سَرَقَه أحدُهم من إحدى الإصطبلات الخاصّة. لم يكنْ سَهلاً سرقةُ حِصان، لكنّ الجوع يُسهّل كلّ مهمّة، ومحاولة البقاء على قيد الحياة في طوفان الموت يُذلّل كلّ عسير، وعندَ بعضِهم يُحلّل كلّ حرامٍ!

في المُنشأةِ كان يأتي ذوو المرضَى أحيانًا يسألون عن آبائهم: «هل ماتوا...؟ هل هم أحياء...؟ إذا ماتوا فأينَ دُفِنوا...؟» قلتُ لأحدهم: «لا نعرفُ عنهم شيئًا، أمامكَ خياران: أنْ تنتظر حتّى تنكشف هذه الغُمّة، أو تبحثَ بنفسِك». ردّ: «ومتى تنكشف؟». أجبتُه: «عِلمُها عند ربّي». «أهي السّاعة؟». «بل أدهى وأمرّ». «هل سأُصاب إذا بحثتُ بنفسي؟». «مُحتمَلٌ جِدّا، هذا إذا لم تكنْ مُصابًا بالأساس». حدّقتُ في عنقه، أردتُ أنْ ألتفتَ لأنظرَ خلفَ أذنه، ارتعب، سألتُه: «مَنْ لكَ هنا؟». «أبي». لماذا جئتَ تسأل عنه؟». «لكي نوزّع المِيراث إذا تأكّدْنا من موته». أردتُ أنْ أصفعه، أنْ أبصق في وجهه، ولكنّني تراجعتُ وأنا أُحدّث نفسي: «الموتُ الأسود يُعيدُ تشكيل النّاس؛ مَنْ يدري ماذا سيفعل في المُستقبل أكثرَ من هذا؟».

أعلنَ ديوان مصر منذ يومَين، عن وفاة عشرةِ آلافٍ بالطّاعون، كان الرّقم سيكون مُرعِبًا لو كان عُشر هذا الرّقم وأُعلِنَ قبلَ شهرَين في البِدايات، النّاس الآن تسمعُ بالأرقام كأنّها تسمعُ بخبر خروج السّلطان إلى الصّيد، لم تعدْ تهتمّ كثيرًا، الأنكَى أنّها لم تعدْ تسأل عمّنْ ماتَ من أقاربها لكي تتبع جنازتَه، بل إنّ الجُثث صارتْ تتفسّخ ولا يأتي أحدٌ ليسأل عنها، وهنا برزتْ أكبر مُشكلةٍ صنَعها الموتُ الأسود لنا، لقد صارتِ الحاجّة مُلحّةً جِدًّا للبحثِ عنْ حَفّاري القُبور، وبدتْ هذه المِهنة في الوقتِ الّذي نعيشُه اليوم أهمَّ من مِهنةِ الطّبيب، وإنّ النّاس لَتُجِلّ حَفّار القبور أكثر مِمّا تُجِلّ المَلِك نفسَه!!

صارتِ القطط هدفًا؛ رأيتُهم يركضون خلفَها في الشّوارع. القطط تستطيع الإفلات، لا يُمكن لمطعونٍ أنْ يلحقَ بها، لكنّ المطاعين اخترعوا طريقةً لصيدها، يبحثون عن فأرٍ ميّتٍ ليجعلوه طُعمًا لها، لكنّ الفِئران فُقِدتْ هي الأخرى، لقد أُكِلتْ جميعها، وصارتْ في بطون الجوعى. لا بُدّ من خُطّة أخرى، صار ثلاثةٌ يتّفقون على ذلك، أحدهم يصعدُ فوقَ الأسطح، ليرى المشهدَ من فوق كامِلاً، ويبقَى ربّما ساعاتٍ طويلة يتربّص بقِطّة تمرّ في الشّوارع، ويكونُ هناك اثنان على قوارع

الطّرق ينتظرون إشارته، إذا لاحَ خيالُ قِطّة يُسرع الّذي فوقَ الأسطح إلى صاحِبَيه، يُشير لهم نحو الشارع الّذي ظهرتْ فيه، على أحدهما أنْ يركضَ خلفَها ليدفَعها باتّجاه صاحبه الآخر الّذي يكون كامِنًا لها وهي هاربةٌ من صاحبه الأوّل خلفَ جدار بيتٍ مُتوجّهةً إليه، يُطلّ هذا الثّاني فقط من الزاوية بطرف رأسه، وينظر بإحدى عينَيه على القِطّة الهاربة من الأوّل إليه، ويتحيّن اللّحظة الّتي ستمرّ بها من عنده، ويكتم أنفاسَه وهي تقتربُ مسرعة، وفي لحظة الصّفر؛ لحظةَ تقاطعها مع زاويته؛ يرمي نفسه فوقَها ويحضنها بين ذراعَيه، ويتدحرج على الأرض جرّاء سرعتها وقفزته، وهو يشدّ عليها وسطَ مُوائِها كي لا تهرب، ثُمّ يصيح صيحةَ ابتِهاجٍ كبيرة، ويجتمع الثّلاثة على الغنيمة الكبيرة، يذبحون القِطّة، يُصفّون دمها، ويسلخون جِلدَها، وينزعون أحشاءَها، ثُمّ يُقيمون عليها وليمةً شهيّة، يَشوُونها، ويأكلونها بتلذّذ!

انتقلَ أمرُ صيدِ القِطط إلى كلّ مَنْ في مصر، هنا في المُنشأة رأيتُهم كذلك يركضون خلفَها، ويُعِدّون لها الكمائن والفِخاخ، وإذا ظفروا ببعضِها، أكلوها نيّئةً دون طبخ، ولقد عاشَ مَن كان يأكل القِطط في المُنشأة شهرًا أو اثنَين إضافِيّين قبل أنْ يفتكَ بهم الموتُ الأسودُ من جديدٍ، وإذا كان أكلُ القِطط يُؤجّل الموتَ شهرَين فستنقرض القِطط بمصر في أقلّ من شهرَين.

طبّقْنا فِكرة عَرْض أسماء المُتوفّين في البيمارستانات بعد التّشاور مع الأطبّاء، اخترْنا طبيبًا نضع بين يدَيه أسماء الموتى كاملةً لكي نقوم بالإحصاء، إنّ مصر تموت دون أنْ نعرفَ أسماء مَنْ ماتوا، ثُمّ وكّلْنا به نسّاخًا تُملَى عليه تلك الأسماء.

اقترحتُ أنْ نضعَ القوائم على سور الباب الرّئيس في البيمارستان، السّور يمتدّ مسافةً طويلةً، يُمكننا أنْ نضع عليه القوائم حتّى ولو كثرتْ، ثُمّ إنّه يُبقي المُراجِعين الّذين يعرفون أسماء ذويهم الرّاحلين بعيدًا عن الدّخول إلى البيمارستان والاختِلاط بالمطعونين، وبذلك يُقلّل نسبة العدوى.

كان النّسّاخ يعمل طَوال اليوم، لقد كنتُ إلى جانبه في اليوم الأوّل بعدَ تنفيذ الفِكرة، يبدو أنّها كانتْ فِكرةً مُتعِبةً بالفِعل، لأنّه عمل على كتابة الأسماء في القوائم الجِلديّة بخطّ واضحٍ كلّ الوقت، وكانتِ الأسماء تأتي تِباعًا في كلّ لحظة، حتّى خُيّل إليّ أنّ كلّ الآلاف الّتي في البيمارستان قد ماتت اليوم. وذلك أمرٌ عَجَبٌ، كان الموتُ اسمًا، حينَ ينزلُ هذا الاسم في الرّقّ تكون الروح قد ارتفعتْ في السّماء، كان على ذوي الميّت الّذين يقرؤون اسم ابنهم أو أخيهم أو أمّهم الميّتة أنْ يأتوا ليستلموا الجُثّة، ويبحثوا لهم عنْ حَفّار قبورٍ، إذْ إنّ حفّاري القبور الّذين تستخدمهم الدّولة لم يعودوا يكفون لحفر قبور بضع مِئات، لقد كان بعضُ هؤلاء الحَفّارين يواصل النّهار باللّيل، وهو يُعمِل فأسه في الأرض، لكي يجد الجسدُ الميّت راحتَه الأبديّة في تلك الحُفرة!

يُمكنكَ إذا وقفْتَ مع الواقفين من المُستفهِمين هنا، أنْ ترى تلك المِئات من النّاس الوالِهة الّتي تنظر بعيونٍ مُوَصْوِصة إلى القوائم، كان هناكَ حَرَسٌ مُوكّلون بمنع أيٍّ من هؤلاء من الدّخول إلى البيمارسان والبَقاء خلفَ السّور الخارجيّ ما لم يكنْ يحمل إثباتًا بأنّ أحدَ أقاربه قد تُوفّي في الدّاخل... وكانَ على مَنْ يقرأ اسم قريبه في قائمة الموتى أنْ يكتري عربةً لنقل الجُثمان، وحَفّارًا من حَفّاري القُبور، وبعدَ أنْ يتأكّد الحارسُ الّذي على الباب من أنّه اكترى هذين الأمرين، يسمح له بالدّخول من أجل استِلام الجُثّة، أمّا مَنْ لم يستطعْ ذلك فكان عليه أنْ يعودَ غدًا أو بعدَ غدٍ وقد استطاع تدبّر أمره بالعربةِ والحَفّار. شريف وماريّة كانا يَقِفان على البَوّابة يحملان في عربتَيهما كلّ مَنْ لا يستطيع دفعَ أُجرة العربة، ويتركان له أمر تدبّر الحَفّار، بعضُهم كان شابًّا يُمكن أنْ يحفر قبر أبيه أو أمّه بيده، فكان يمضي مع ماريّة أو شريف بالجُثّة وهو يرى أنّ الدُّنيا قد حِيزتْ له بحذافيرها لأنّه تمكّن من ذلك. آخَرون كانوا لا يعودون إلاّ بعدَ أسبوعٍ أو اثنَين، حينَها تكونُ الجُثّة قد تعفّنتْ، الجُثث الّتي يمرّ عليها في غرفة التّبريد أكثرُ من ثلاثةِ أيّام كُنّا نضعها في عربةٍ كبيرةٍ يجرّها أربعةُ أحصِنة، ويذهب بها إلى مكانٍ قريبٍ من الرّوضة على النّيل، وتكون هناك قوارب تنتظر لكي تأخذ الجُثث، وتسير بها إلى منتصف النّيل ثُمّ تُلقيها في الماء جُثّةً جُثّة، يُدَلّى الرأس أوّلاً في الماء حتّى يكونَ مركزَ ثِقَلٍ ليجذب الجسد، ثُمّ تُدفَع رِجلاها من

الخلف بسهولة، فتغوص في الماء تاركةً خلفَها دوائر تمتدّ إلى المُطلِق من الحُزن والأسى... أعرفُ أنّ هذا العمل من الفَظاعة بحيثُ لا يُمكن أنْ يكون مقبولاً، ولكنّه في زمن الطّاعون لم يكنْ منه مَناص، بل إنّ دائرة الفتوى لم ترَ به بأسًا إنْ لم يكنْ هناك وسيلةٌ سِواه. كان ديوان القَضاء ومجلس الإفتاء في تلك الفترة يُصدِر كلّ يومٍ فتوى بسبب ما يستجدّ من ظروفٍ وحالاتٍ في تلك الجائحة!

بعضُ القادمين من نواحٍ بعيدةٍ إلى السّور ليقرؤوا أسماء الموتى، كانوا يريدون أنْ يتأكّدوا فقط من أنّهم تخلّصوا من هذا العبء الّذي كان يُثقلهم، وينخز ضمائرهم في مسؤوليّتهم عن ذويهم، لم يكنْ ضميرُهم مُحتاجًا من أجل أنْ يرتاح إلاّ إلى اسمٍ يتأكدّون من أنّهم قرؤوه في قائمة الموتى على ذلك السّور الكئيب!

خرجتُ إلى ساحة البيمارستان، رائحة الموت في كلّ مكان، لا يوجَد أشدّ منها وطأةً على القلب، ولا أشدّ منها سوادًا على الرّوح، شيءٌ ثقيلٌ جدًّا يُسقط قلبي في هذه الرّائحة الّتي تنقلك إلى قاع الأرض في هَبّةِ ريحٍ واحدة... رائحة العقاقير هي الأخرى مُؤذية، تختلطُ بها روائح الطّعام، وروائح العرق الّذي يفوح من أجساد المرضى والقادمين من أمكنةٍ بعيدةٍ لأجلهم، مع روائح الدُّخان، مع روائح صيحات الغضب أو الوجع أو التّفجّع الّتي لا تتوقّف من المطعونين أو مَنْ يعودونهم، كلّ هذه الرّوائح لم تتغلّب عليها روائح الورد المزروعة في بستان البيمارستان، رائحة ميّتٍ مضى على موته يومان أوثلاثة دون أنْ يأتي أحدٌ ليستلم جثّته تتغلّب بالتّأكيد على كلّ روائح الورود في بساتين العالَم كلّه... نعم؛ خرجتُ إلى السّاحة لأحاول أنْ أتملّص من هذه الرّوائح بعيدًا عن البشر، صار البشر غُرباء، مُضجِرين على نحوٍ لا

يُطاق، لولا إنسانيّة الأطبّاء ما احتملهم أحدٌ، ولولا مخافةُ الله ما أقمتُ بمصرَ بعدَ الجوائح يومًا، ولكنّه القلبُ لا يقدر على أنْ يتغيّر، مع أنّ الطّاعون قَلَبَ قلوب كثيرينَ وغيّرها.... السّاحة أقلّ ازدِحامًا بالنّاس من تلك الغرف والأروقة، المكان الخالي من الناس خيرٌ من المُمتلِئ بهم، إنّ النّاس لا يحضرون إلا ومعهم شياطينهم وأمراضهم وحكاياتهم الغريبة؛ ليستْ لديّ القدرة لأُواجه كلّ هذه الشّياطين ولا تلك الحكايات المُمِلّة دفعةً واحدة!!

وافاني شريف وقد انتصفَ اللّيل في ساحة الورود، كان شريف يعمل كلّ الوقت ولا ينام إلاّ قليلاً، كانتْ عربتُه تمتلِئ بالخارجين من البيمارستان إلى القبور، أو القادمين إليه من المُصابين، في اللّيل يحمل الخارجين، وفي النّهار يطوفُ في شوارع القاهرة، وفي أحيائِها، كلّ مرّةٍ يذهبُ إلى حَيّ مُختلِف، ويُنادي في النّاس: «إذا كان لديكم مريضٌ فأعلنْ عن نفسكَ بالوقوفِ على الشّرفة». وكان إذا رأى أحدهم يطلعُ إلى الشّرفة، أو يُطِلّ برأسه من خلفِ النّافذة، يوقِفُ عربته، وينزلُ طارِقًا الأبواب، ويدخل العتبات، ويصعدُ الأدراج، ويحمل المُصابين، وأحيانًا الموتَى بين ذراعَيه، لقد كان مَفتول العَضَلات، أسودَ البشرة، أزرقَ العينَين، جَهْمًا، طُوالاً، كأنّه جِنّيّ، وينزل بالمريض ليضعه في عربته برفق، ويمضي باحِثًا عن آخَرين حتّى تمتلِئ، ويقودها إلى البيمارستان أو إلى مُنشأة القاضي الفاضل أو إلى مصحّات قريبةٍ أخرى، ويُسلّمها إلى الأطبّاء... لم يتوقّف يومًا واحدًا طَوال خمسةِ أشهرٍ حتّى الآن، ولم يَشْكُ مرّة واحدةً، كان دائم البسمة، كثيرَ المرح، ولكنّه رقيق القلب، كانتْ دموعه تنسكبُ على وجنَتَيه كأنّها حبّات لُؤلؤٍ وهو يحمل المطعونين بين يدَيه، وكان لا يُرَى إلاّ مُسرعًا، يمشي بخطواتٍ واسعة، وهو ينثر ذراعَيه الضّخمتَين عن يمينه ويساره... واليوم جاءَ وقد شَحَبَ لونُه، ففزعتُ من أمره، هل يُمكن أنْ يكون قد أُصيبَ هو الآخَر؟ أجبتُ عن تساؤلي: ولِمَ لا؟ لقد نقلَ آلافَ المُصابين أفلا يُمكن أنْ تكون العدوى قد انتقلتْ من أحدهم إليه؟ إنّنا لا نُصدّق أنّ مَنْ نحُبّهم قد يمرضَون؟ أو أنّ مَنْ نَعُدّهم أبطالاً قد ينهزمون! لقد كان ضعيفًا على غير عادته في تلك اللّيلة، وكانتْ ذراعاه مُسبلتَين على جانبيه بخِلافِ عادته في تحريكهما بقُوّة كلّما مشى، ولقد رأيتُ انحناءةً في آخر ظهره، كأنّه قد تقوّس من هَرَمٍ وهو لا يزال شابًّا... فلمّا جلسَ إلى جانبي، نظرتُ في عينَيه الزّرقاوين ووجهه الأسود، فبدا ديكَ الجِنّ على الحقيقة، لكنّ عينَيه قد اختلطَ البياضُ فيهما بحُمرةٍ، فسألتُه: «هل أنتَ مريض؟». ردّ بهزّ رأسِه: «كلا». «وعيناك؟». «متعبٌ قليلاً فقط، أنا بخير». «ولِماذا لا تُحرّك ذراعَيك كما كُنتَ تحرّكها من قبل؟». فَهِمَ إشارتي، ردّ: «تقصد أنّ شيئًا ما تحتَ إبطي يمنعني من ذلك؟». رمشتُ بعينَيّ أنْ نعم، فضحك، وألقَى نظراته بعيدًا: «لا، أنا بخير»

تحدّثْنا في تلك اللّيلة عن القاهرة، عن مصر، عن البِلاد كلّها، كيفَ كانت وكيف أصبحتْ، كان لا يزال يتذكّر سيّده القاضي الفاضل، وتدمع عيناه كلّما قَصّ شيئًا من قِصَصه، نَبَشْنا ذكرياتٍ كثيرةً، كلّها سكبتْ دُموعَنا، الذّكريات أنانيّة في استِئثارها بأحزاننا، هل كانت هذه الذّكريات وتلك القصص هي سببَ دموعنا بالفِعل؟! أمْ أنّنا نبكي على ما نرى؟! نبكي على هؤلاء الرّاحلين لا يجدون مأوى ولا طَعامًا، ولا حتّى كفنًا أو حفرةً في الأرضِ تؤويهم، نبكي على هؤلاء الّذين تبرأ منهم أقربُ النّاسِ إليهم، وجفاهم أعزّ أهلهم... لم يكنْ لنا أنْ نلومَ أحدًا، كانت المصائب أكبر من أنْ تجعلنا نُلقي باللائمة على أحدٍ، كُنّا نبكي على ما فعلتْه المِحن بالنّاس، على ما فعله مَنْ استغلّ هذه الأوبئة فأكل بها وشرب، قال لي شريف: «لقد رأيتُ من سائقي العَرَبات المُستأجرين مَن كان يُغنّي والجُثث المُلطّخة بالصّديد مُلقاةٌ بإهمال في الصّندوق الخلفيّ، ورأيتُهم يضحكون بصوتٍ عالٍ، ويلعنون كلّ شيء، ويسبّون سبابًا بذيئًا، ويُدخّنون الحشيش، والموت في العربة يقبع في جسدِ كلّ جُثّة محمولةٍ في الخلف!!

كانتْ صفحة السّماء في تلك اللّيلة صافِية، نجومٌ تلمعُ على صفيحٍ داكن، وقمرٌ يذوب على قبّة سوداء، وليلٌ غائر، يغزل الحكايا كما تغزل المرأة ثوب الصّوف بكبّة مُتدحرجةٍ من خيوط لا تنتهي!! ❞

(١٠) ❝

هل تَخافين الموت؟

إنها مدينة الموت؛ يملأ كلّ شيءٍ فيها، بأشكالٍ مُتعدِّدة، لكنّه ليس مرئيًّا، وليس سهلاً، ولا يمكن قِتاله، أو حتّى طلب الرّحمة منه... لو كان الموتُ رجلاً لتصدّى له ألف فارسٍ؛ كلّ واحدٍ يريدُ أنْ يكونَ صاحب السّبق في قتله، ولو كان كبشًا أَمْلح في الدُّنيا لتصدّى له ألفُ جزّار؛ كلّ واحدٍ يريدُ أنْ يكون صاحبَ السّبق في جَزّ رَقَبَته، ولكنّه لا يُرى، كيفَ تُقاتل ما لا يُرى؟ كيفَ تدفعُه عنك؟ كيفَ تحمي نفسَك منه؟ إنّه يمشي بلا أرجل، ويطير بلا أجنحة، ويدخل دون استِئذان، ويحملُ حربةً لا تُخطِئ هدَفَها؛ لا زمانًا ولا مكانًا!! مَنْ له قدرةٌ على مجابهة شيءٍ مُرعبٍ مثل هذا؟! قال أحدهم: «هَبْ أنّني لا أستطيع إيقاف الموت، ولكنْ ألا يُمكنني أنْ أختار الطّريقة الّتي أموت بها؟!».

والطّاعون يستدعي الحُمّى دائِمًا، والحُمّى تستدعي الهَذَيان، والهَذَيان يكشف عن عجائب وغرائب لولا هذا الموت الأسود ما كانت لتكون. كان السّمّان ذا العين الحولاء، قد وفدَ إلى هنا؛ إلى مُنشأة القاضي الفاضل منذُ زمنٍ، ماتتْ أسرته كلّها؛ زوجُه العاقر وأبَواه وإخوته، بيتُه نُهِب، ودُكّانه سُرِق منذ الجائحة الأولى، ولم يجدْ من أقربائه مَنْ يُعيله، فكلّ واحدٍ مشغولٌ بمُصيبته، فأتى به (شريف) إلى المُنشأة، كان يعرفه جيّدًا، وحينَ حَمَلَه بالعَرَبة حمَله وحده، ولم يضع معه في الصّندوقِ أحدًا إكرامًا لمعرفته به، لكنّه تمنّى لو أنّه لم يأتِ إلى هذه المُنشأة، كان قد فقد كثيرًا من وزنه، كرشه تهدّلتْ، وخَدّاه المُمتلِئان ضَمُرا فكَشَفا عن وجهٍ صفيق، وعيناه مع ضمور لحم وجهه برزتا، وازداد حَوَلُه وبَياضُ عينَيه، وكان ينام على الأرض مع ثلاثين في غرفةٍ واحدة بائِسًا وحيدًا، زرتُه أكثر من مَرّة، وسقيتُه بعض المُهدّئات، وكنتُ آتيه بطعامٍ من البيمارستان، لكنّ ذلك مع الجوع والطّاعون لم يُؤثّر في جسده، هذا غير أنّ الأمر يحتاج إلى نظامٍ غذائيّ بشكلٍ دوريّ في هذه المُنشأة حتّى تكون فرصة الشّفاء كبيرة، أمّا مع الهَبّات والهِبات فالأمر لا يعدو كونه مُجاملة لطيفة، طلبَ منّي مرّةً أنْ أجلسَ معه قليلاً. جلستُ. كان يبدو أنّه لن يعيشَ طويلاً، يعرفُ المرء ذلك، حتّى ولو لم يكنْ مُصابًا بأيّ مرضٍ، سألني فيما إذا كنتُ قد غضبتُ منه قبل ما يقربُ من أربع سنواتٍ عندما لمّحَ لي بأنّني أنامُ مع درّيّة، رددتُ: «لا، لستُ غاضِبًا». وسأل: «هل تُسامحني؟». «أنا سامحتُكَ من يومِها، عليكَ أنْ تسأل دُرّيّة». «دُرّية شيطانة يا حكيم، أنا لا أريدُ منها أنْ تُسامحني، أمّا أنتَ، فشيءٌ مُختلِف». «الزّمن تغيّر يا صديقي». «إنّها ما تزال إبليسة، أنا أُحذّركَ منها اليوم أكثر

مِمّا حذّرتُكَ منها قبل أربع سنوات... أنا سأموت، لكنّني تمنّيتُ أنْ أرى لي ابنًا يكبر أمامي، وقد صار طبيبًا مثلك».
«الأطبّاء اليوم لا يُحسَدون على وظائفهم يا صديقي». «يُحسَدون على قلوبهم يا حكيم، انظر... أنتَ أمل كلّ هؤلاء اليائسين». أعطيتُه جُرعةً مُهدِّئة، وأردتُ أنْ أمضي، سألني: «إذا مِتّ، فهل ستجدون لي قبرًا لأدفنَ فيه؟». قلتُ: «إنّه صعب يا صديقي، الملوك اليوم لا يجدون هذه الحفرة، ولكنْ لصُحبتنا القديمة بك سأجعل شريف يتولّى الأمر». بكى، نزلتْ دموعه: «أووه شريف... هو الآخَر قلبُه أبيض مثل النّدى، كم استهزأتُ به، وتندّرتُ على لونه الأسود». نظرتُ إليه، قلت: «عليكَ أنْ تطلبَ مُسامَحته؟». «عندما يحملني بين يديه جُثّة هامدة، سيسامحني بالتّأكيد، أنتَ وهو، أمثالكم لا يحملون إلاّ قلوبًا نقيّة، لو كان العالَم فيه مثل هذه القلوب، لَما غضب الله عليه هذه الغضبة الكبيرة».

انتشر الوُعّاظ المُتطوّعون يجوسون الغُرفَ في البيمارستانات: «أكثِروا من قولِ لا إله إلاّ الله... إنّ الموتَ لا يُفرّق بين صغيرٍ أو كبيرٍ... لتكنْ قولتَكم الأخيرة... إنّها ضَمانةُ الدّخول إلى الجنّة... اطلُبوا رحمته... لن يرفَع عنّا هذا البلاء أحدٌ سِواه... إنّه يرى، وإنّه يسمع، وإنّه يُدبّر الأمر من السّماء إلى الأرض، فتضرّعوا إليه...». الصّرخات الّتي تشقّ سكونَ كلّ شيءٍ لا تنتهي... الغَرْغرات... التّأوّهات... التّوسُّلات... الضَّراعات... الهَذَيانات... الكَظّ على الأسنان... العَضّ على الملاءات... ضربُ الرّؤوس في الجُدران... التّلويح في الهواء... التّأرجح في الخُطُوات... الاستِسلام لكلّ شيء... البُكاء بصوتٍ مفجوعٍ... الحفر في التّراب... النّعثُ على الرّؤوس... التّحسّرات... واحسرتاه... واحسرتاه... لم تتوقّف لحظة!!

وسألتُ ماريّة: «لِمَ تُعرّضين نفسكِ للخطر؟ إنّ نقل الموتى سيجعل النّاقل مَنقولاً ذاتَ يوم». ابتسمتْ من خلفِ عينَيها الجميلتَين: «تُخوّفني يا حكيم؟». «أنا فقط أريدُ أنْ أفهم الدّافع إلى ذلك؟».

«لقد رأيتُ شرًّا كثيرًا، منذُ أنْ كنتُ طِفلةً في الرّابعة حتّى ظننتُ أنّ الكون ليس فيه غيرُ الشّرّ، عندما كبرتُ قليلاً اتّسعتْ لديّ المعرفة، فاتّسعتْ زاوية النّظر، فاتّسعتْ دائرة الخير الّتي كانت معدومةً قبل ذلك... أنتَ علّمْتَني أنّ الخير يُمكن أنْ يوجَد في أبسطِ الأشياء، حتّى في تلك النّظرة الّتي نظرتَ بها إليّ يومَ أخرجْتني من دور البغايا، وأخذْتَني إلى بيتِك... تعامُلك... كلماتُك... كانتْ تزيدُ مساحةَ الخير الّذي أعرفُه في العالَم... يومَها قرّرتُ أنّ أكونَ أنا مُساهمةً في زيادة تلك المساحة؛ المشكلةُ يا حكيم ليسَ في وجود الخير أو الشّرّ، فهُما موجودان، لكنْ المشكلة في قُدرة الإنسان العجيبة على زيادة وجودِ أحدهما على حِساب الآخر، مع أنّ الخير أمرٌ هيّنٌ لو أرادَ النّاس...». ابتسمتُ: «لقد أصبحتِ فيلسوفة يا ماريّة؟». «صُحبتكَ يا سيّدي... ثُمّ هذا الّذي نحنُ فيه، إنّه يجعل كلّ أحدٍ فينا فيلسوفًا، إنّنا إذْ نتساوى أمام الموت تصغر في عيوننا كلّ الأشياء الّتي كنّا نراها عظيمة، الموتُ يضعكَ أمام نفسك، أمام حقيقة فاعليّتك، إنّه قادرٌ على أنْ يقصم الجَبّارين، ويشقّ بالقُدرة نفسِها حناجرَ الصّغار النّاغين أسماء أمّهاتهم...». «هل تخافين الموت؟». «لو كنتُ أخافُه لَما حملتُه معي في عَرَبتي كلّ يومٍ... الموتُ ليسَ وحشًا... ليسَ عدوًّا... قد يضعُ نهايةً صادمة ومُفاجِئة لكثيرٍ من الآمال والطّموحات، لكنّه عادلٌ إلى الحدّ الّذي يضع فيه النّهاياتِ نفسَها بالنّسبة للأوجاع والخسارات... لعلّ العدالة الأوضح، والأشدّ يقينًا هي عدالة الموت يا سيّدي». صمتُّ، كنتُ أبكي من الدّاخل إنّها في السّادسةَ عشرة تقريبًا، فهمت الحياة الّتي استغرقني فهمُها أربعين عامًا، لكنّها ما زالتْ صغيرة، ألا يُمكن أنْ يُمارسَ الموتُ معها عدالتَه فيُبقيها حتّى تفرح برفيق دربٍ، حتّى ترى الوجه الأجمل من هذه الحياة، حتّى تعثر على نفسِها بعد أنْ عانتْ ما عانتْ. «بِمَ تُفكّر يا سيّدي؟». سألتْني وقد رأتْ شرودي. أجبتُها: «بِكِ؟». «يا لَسعادتي يا سيّدي، هل يُمكن أنْ أكون موضع تفكيرٍ في خاطر أحدهم، ومَنْ؟ سيّدي عبد اللّطيف... إنّ هذا لشرفٌ كبيرٌ يا سيّدي». بقيتُ صامِتًا، وقفتْ، كأنّما وقفَ الحبّ كلّه، والجَمال، والرّقّة، والأنوثة، والجوانب السّعيدة المُبهجة الّتي لا تجودُ بها الأوقاتُ أبدًا، قالتْ: «عليّ أنْ أُواصل عملي في البحث عن...» وتوقّفتْ قبل أنْ تبلع ريقَها، وتُكمل: «موتى جُدُد».

في الغرفة الّتي تمتلِئ باليائسين راحوا يضربونه، ألَبَهم عليه واحدٌ بعدَ أن ألجأتْه الحُمّى إلى هذَيانٍ مُتواصِل، كان يصيح: «إنّه الأعور الدّجّال... إنّه الأعور الدّجّال...». صَدّقه المخبول الأوّل، والثّاني، فراحوا يضربونه، ولَمّا استوعبَ الآخرون الأمر كانوا قد بدؤوا يُصدّقونه هم الآخرون من أنّه الأعور الدّجّال، وانهالوا عليه بالضّرب، وهو يحاول أنْ يتّقي

الضّربات بوضع أذرعه الضّامرة فوقَ رأسه، ويقول: «أنا جارُكم... أنا ناجي السّمّان... والله أنا ناجي السّمّان...». لكنّ الطّاعون والحُمّى يُعمِيان، كان اثنان قد خرجا خارج الغرفة، وراحا يبحثان عن جذوع صلبةٍ أو حجارةٍ أو قُضبانٍ من الحديد، وعادوا وهم يحملون شيئًا منها، وتوزّعوها، وراحوا يضربونه من جديد، كان يصيح من الألم، وأحدهم يقول: «انظرْ إلى عينه الحولاء كأنها عِنَبةٌ طافية». والآخَر يُؤمّن على قولته: «صحيح... إنّه هو». والثّالث يسأل وهو مُنهمِكٌ في ضربه: «انظروا إلى عينيه، هل تجدون بينهما كلمة كافر مكتوبة؟». رابعٌ يجيب دون أنْ ينظر: «بلى، إنّه مكتوبٌ بينَ عينَيه كافر». والخامس مُهتاجًا، ومُستجمِعًا ما استطاع من قُواه الواهنة: «إذًا علينا أنْ نُخلّص العالَم من شروره». والسّادس مبتهِجًا: «لن تكون كرامة القَضاء على الأعور الدّجّال إلاّ لنا، لا تتركوه من أيديكم حتّى يموت».

لم تعدْ لديه القُدرة على المُقاومة، استسلم، كان الزّبد يسيل من زوايا فمه، ابتسم: «أستحقّ هذا، فليكنْ يا موت، لتأتِ بحربتكِ أيّها الطّاعون، ولتُنهِ هذه الحياة البائسة، لتقطعْ ذلك الخيط يا سيّدي ويا مولاي، ليكنْ هذا العذاب في هذه اللّحظات من أجل التّطهير، التّطهير من تلك الخطايا والذّنوب الّتي ارتكبْتُها وأنا أخوضُ في أعراض النّاس... لتكنْ مشيئتُكَ يا ربّ... ليأتِ قدرُك... وليصحبْني الموتُ معه هذه اللّيلة إلى راحتي الأبديّة». ❞

❝ القسم السّادس

لُحومُ البَشَر على المائِدة

دَهَتْني اللّيالي بالّذي لو كتبْتُهُ

خَشِيْتُ على القِرطاسِ أنْ يتضَرّمَا

فصرتُ غريبًا واغتدَى البينُ قاطِنًا

ورحتُ وحيدًا واغتدَى الحُزنُ تَوْأمَا

خُطُوبٌ تمنّى القلبُ لو كانَ عِندَها

لِسانًا، فأدَّى ما بهِ وتَكَلَّمَا

ولم أرَ مثلَ الدّهر أوعظَ لامرئٍ

وأكرمَ صُنعًا بالرّجالِ وألأَمَا

وأكذبَ في يومٍ وأصدقَ في غدٍ

وأحسنَ أعراسًا وأقبحَ مَأْتَمَا

(أبو بكر الخوارزميّ) ❞

❝ (١)

لو كنتَ مكاني يا حكيم لَبِعتَ أباك!!

ومررتُ ببيتٍ من بيوت تربة الشّافعيّ، تاركًا خلفي درب الملوخيّة، لقد وَجَدْتُني أسيرُ إلى هذا الحيّ الأشدّ فقرًا في القاهرة بدعوى أنّني أريدُ أنْ أُنقِذ المرضَى الّذين لا يجدون أجرةَ عربةٍ يكترونها لمرّة واحدةٍ من أجل أنْ تنقل مرضاهم إلى أحد البيمارستانات، ولكنّ شيئًا ما في داخلي يقول: إنّما جِئتَ إلى هذا الحيّ، من أجل مَنْ يسكنُه، فكأنّكَ والمجنون تردّد:

وما حُبّ الدّيار شَغَفْنَ قلبي

ولكنْ حُبّ مَنْ سَكَنَ الدّيارا

فلا تخدعْ نفسَك، فإنّك تستطيع أنْ تخدعَ كلّ أحدٍ غيرَها. ولا تكذبْ، فإنّ كذبَ الخاطِرِ شيءٌ وصِدقَ القلبِ شيءٌ آخر!!

كان معي سالم على العادة، تركنا (خليل) في المُنشأة، نحن نتنقّل بين البيمارستان والبيوت والمُنشأة، نحاول مع الطّاعون أنْ لا تغوص حربته في الأجساد عميقًا، أو نُطمْئن الرّاحلين بأنّ السّماء الّتي سينتقلون إليها أرحبُ من الأرض، وأنّ عدالة الله في الأعالي ستُنسيهم ظُلمَ البشر.

دخلْنا إلى بيتٍ مُتهالِك، كان الأبُ مُمدّدًا على السّرير، زوجتُه تحتَ السّرير على الأرض ميّتة، قدّرتُ من النّظرة الأولى أنّها ماتت قبل ثلاثة أيّام، «علينا أن نُسارع بدفْنها». قلتُ لسالم، زَمّ شفتَيه: «نحتاج إلى حَفّار قبور». «ابحثْ عن أحدهم». «ليسَ سهلاً أنْ تجد مَنْ يفعل ذلك، ثُمّ إنّهم يطلبون أجرًا لا يُمكن تصديقُه». «لا عليكَ من الأجر، سأتكفّل به، تكفّلْ أنتَ بإيجاد الحَفّار». «الآن؟». «نعم، سأتولّى الأمور الأخرى هنا ريثما تعود».

وضعتُ القُفّازات في يدَيّ ولبستُ لِثامي، وحاولتُ أنْ أحملَ الجُثّة، كانتْ مُتصلّبة، تبدو لوحًا خشبيًّا جامِدًا، جهدتُ في أنْ أنقلها إلى غرفةٍ أخرى. كانت الغرفة الأخرى فارغةً تمامًا، ليسَ بها سرير، ولا فِراش، ولا متاع، ولا أيّ شيء... فقط الفراغ. وضعتُها هناك، وعدتُ إلى الرّجل. كانتْ عيناه تَنُوسان، ما زال حَيّا، غمرتْني موجةُ فرحٍ: «هل يُمكن أنْ ننقذ نفسًا؟». كان في الثّلاثين، مأسوفًا على شبابه، كدتُ أبكي. زوجته في مثل عمره أو أقلّ قليلاً، ماتت إلى جانبه، واضحٌ أنّها لم تُغادره، وأنّها آثرتْه بالسّرير الوحيد الّذي بقي لهما، الأمر لا يحتاج إلى تفسير كبير: «هذه المرأة قدّمتْ زوجَها على نفسِها». تساءلتُ: «نوعٌ من الوفاء؟». أجبتُ: «أين يوجد مثل هذا الوفاء؟ حينَ يصل الأمر إلى الموت لا يُمكن أنْ يكونَ وفاءً، مَنْ يُقدّم روحه من أجل الآخَر؟». «فماذا يُمكن أنْ نُسمّيه؟». «هو نوعٌ من التّضحية؟». «ربّما. تضحيةٌ كهذه تحتاج إلى إيمان الأنبياء وطهارة القدّيسين وقلوب الأولياء».

اقتربتُ من الأب، تحسّستُ نبضَه، ضعيفٌ جِدًّا. أَنْشقْتُه بعضَ المُنشّطات، فتسارعَ نبضُه، وتفصّد عرقُه، قمتُ إلى المطبخ، لم يكنْ فيه شيءٌ هو الآخَر، باستثناء بعضِ الصّحون الصّدِئة والملاعق القديمة، يبدو أنّ أحدهم قد سرقَ ما فيه، بحثتُ عن طعامٍ فلم أجدْ، أيّ شيءٍ يُؤكَل ولو كان حشيشًا، لكنّني لم أجدْ، كنتُ أريدُ أنْ أصنعَ له شرابًا مُليّنًا... من المُؤكّد أنّ مَعِدته فارغة، وعليّ أنْ أُليّنها قبل أنْ أُعطيه شيئًا ليأكله مِمّا معنا، أدرتُ الموقد، ليس هناك حطبٌ كافٍ، ليسَ في البيت شيءٌ!!

عدتُ إلى الرّجل، كنتُ قد تدبّرتُ أمر الشّراب، كان السّرير الّذي ينام عليه من الحديد، ليس في قوائمه أيّ غِطاء أو شرشف، لم يكنْ تحته إلاّ فِراشٌ قد تعفّن، عليّ أن أحمله من أجل أنْ أقومَ بتطهير الفِراش قبل أنْ أُعيده إليه. نظرتُ حولي فوجدتُني وحيدًا، تمنّيتُ للحظةٍ من أنّني لم أبعثْ (سالم) ليأتي بالحَفّار، أو أنّني أخّرْتُه قليلاً ريثما نُتمّ عملنا هنا. لكنّ الأمر على ما أنا عليه، وعليّ أنْ أكسبَ الوقت. حملتُه بين ذراعَيّ، تأوّه آهةً خفيفةً، فَرِحتُ! هل يُمكن أنْ يفرح المرء لسماعة آهةً من رجلٍ مألوم؟ نعم؛ إذا كانتْ دليلاً على أنّه حَيّ. الحياة أثمن من الآهات، ولذلك تُغتفَر الثّانية من أجل الأولى. كان جسده ليّنًا نوعًا ما بخلاف زوجته، رأيتُ شِفاهه تتحرّك، لكنّني لم أسمع ما فاه به، كان قد فتحَ عينَيه، وراح ينظر فِيّ كأنّني هبطتُ عليه من السّماء، كانتا تُشِعّان بفرحٍ وطمأنينة مع أنّ الجسد كان يهوي إلى وادي الموت، كأنّ الموتَ تخفّت وطأته إذا جاءَك إلى جانبك مَنْ ينظر في عينَيك كائِنًا مَنْ كان هذا النّاظر... مشيتُ به وأنا أحمله إلى الغرفة الفارغة، مدّدْتُه إلى جانبِ زوجته، ازدادتْ عيناه اتِّساعًا، واغرورقتَا حينَ رأتاها... مددْتُه على ظهره بمسافةِ ذراعٍ بينهما، رأيتُه يزحف إليها، ثُمّ يميل على جانبه الأيمن ويحتضنها، وراح جسدهُ يرتجّ... أردتُ أنْ أقول له: لا تفعل، إنّكَ تُعجّل بذلك موتَك... لكنْ مَنْ يُقنِع مُحبًّا بمقولةٍ فارغةٍ كهذه، ثُمّ مَنْ قال لكَ إنّه لا يُعجّل بموتِه كي يلحقَ بها إلى عالَمها الّذي غادرتْ إليه قبل ثلاثةِ أيّام! تركتُه يرتَجّ وينتحب بما فيه من دموعٍ أو قوّة، ثُمّ أزحتُه

برفقٍ عنها، كانتْ ذراعاه مُتمسّكتَين بِها لا تريدان تركَها، برفقٍ مرّة ثانية أبعدتُه، وتركتُ بينهما تلك المسافةَ الفاصِلة، أعرفُ أنّه مطعون، وأنّ العدوى قد انتقلتْ إليه، وأنّ الأمر في نهاياته، ولكنْ أنْ أزيدَ أنا بِوَصْفِي طبيبًا الأمر السّيّئ ليصبح أسوأ؛ فهذا ليسَ من أخلاقيّات مِهنتنا.

عدتُ إلى الغرفة الّتي فيها السّرير، أخذتُ الفراش، خرجتُ به إلى الشّارع، فرطتُ خيوطَه، وأخرجتُ ما به من قُطن، وعرّضتُها للشمس بعد أنْ طرقتُها طرقاتٍ قويّةً بالعَصا، ثُمّ عدتُ بالغِطاء والملاءات، فغسلتُها بما في البيت من ماء، وعرّضتُها للشمس والهواء لكي تجفّ بأسرعِ وقتٍ مُمكن.

عدتُ إلى الأب، أو الزّوج، كانتْ عيناه تُحدّقان في السّقف، ويمينه تمتدّ كجسرٍ إلى جسدِ زوجته، وهو غائبٌ عن المكان، حملتُه من جديد، وهمستُ في أُذنَيه: «هل تسمعني؟». ردّ بصوتٍ واضحٍ وإنْ كان واهِنًا: «أسمعكَ وأعرفك».
«تعرفني؟». «أنتَ الطّبيب عبد اللّطيف البغداديّ، لقد كنتَ تشتري من دُكّاني بعضَ الأغراض عندما كنتَ تزور درّيّة في تربة الشّافعيّ». خفق قلبي، لا أدري هل خفق لأنّه نطق باسم درّيّة أمامي، أم لتذكّر ذلك العهد البعيد الّذي كان يُمكن أنْ يكون جميلاً؟ أم لأنّني أخافُ أنْ أُفتضَح أمام مطعونٍ ينتظر الموت؟ لا أدري، غير أنّني تماسكتُ، وسألتُه: «وهل تعرفُ درّيّة؟». «أكثر منكَ يا حكيم، إنّكَ لا تعرفُ منها شيئًا». وتعجّبتُ من جديد، وهممتُ أنْ أسأله عنها، غير أنّني آثرتُ الصّمت، فمعرفة مزيدٍ من أسرارها كان دائِمًا يُشبه تلك الرّيح الّتي تهبّ على شُعلة الحبّ في قلبي فتحاول إطفاءَها.

طرقَ (سالم) علينا الباب، ودخل، كانَ يبدو عليه التّعب، قال: «لم أجدْ حَفّارًا واحِدًا». تذمّرتُ، وقلتُ بصوتٍ حانق: «تعالَ ساعِدْني في إطعامه». سألني: «هل لديه طَعام؟». «ليس لديه شيءٌ، نُطعِمه مِمّا أحضرناه من البيمارستان». جهّزَ سالم الطّعام، كُنّا قد أعدْنا الفرشة الّتي تعرّضتْ للشّمس، فمدّدْناه فوقَها، وأنهضْناه قليلاً ليكون قادِرًا على بَلْع الطّعام، كنتُ أضعُ الطّعام في فمه كأنّه طِفل، مكثْنا حتّى الآن عنده وقتًا أطولَ مِمّا مكثْناه عند سِواه، كان جليدُ الأسرار فيها قد تكسّر، وصار مُمكِنًا طرحُ بعضِ الأسئلة: «هل هذه زوجتك؟». «نعم». «ماتت؟». «اليوم بعدَ أن أتيتُما عرفت». «كيفَ ماتت؟». أرادَ أنْ يشتم أو يلعن، ولكنّه اكتفى ببسمةٍ ساخرة، وبمقولةٍ أشدّ سخريةً: «ما رأيُكَ أنتَ يا دكتور؛ ماتت من الضّحك؟». «أعني، لِمَ لم تطلبْ لها إسعافًا، أو لِمَ لمْ تخرجْ هي لتبحثَ عن النّجاة؟». «لم تقبلْ». «لم تقبلْ؟». «بلى، آثرتْ أنْ تبقَى إلى جانبي، أخوها في القرية طلبَ منها أنْ تأتي إليهم، فالطّاعون في الجنوب أخفّ منه في مصر، لكنّها رفضتْ». «ولكنّكَ لم تفعلْ لها شيئًا، وتركتَها تموتُ بجانبك». دمعتْ عيناه، وغضبَ في الوقتِ نفسِه: «بل فعلتُ ما لم يكنْ في حُسبانك يا حكيم؟». «ماذا فعلتَ؟». «بعتُ ابنتي الوحيدة». وقفتُ على قدَمَيّ، صرختُ مُستنكِرًا: «بعتَ ابنتك؟». نظرَ إليّ نظراتِ احتِقار، وهتف: «لو كنتَ مكاني يا حكيم لَبِعتَ أباك». أطلقتُ شهيقًا مسموعًا، ونظرتُ حولي: «كيفَ طاوعَكَ قلبُكَ على أنْ تبيع ابنتك؟!». «هَدِّئْ من رَوعِكَ قليلاً يا حكيم، يبدو أنّ الحياة لم تُعلّمْكَ الكثير؛ لم يكنِ الخيار شديد الصّعوبة، إمّا أنْ نموتَ جميعًا من الجوع، أو نبيعَ ابنتَنا ونحيا جميعًا، هي تعيشُ عندَ رجلٍ ولو كانتْ جاريته، وأنا وأمّها نعيشُ ما تبقّى لنا من حَياة». «وأمّها قَبِلَتْ؟!». «لم يكنِ الأمر سهلاً عليها بالطّبع، لكنّها في النّهاية قَبِلَتْ». «من أجلك؟». «نعم». «أنتَ لا تستحقّ». «يُمكنكَ أنْ تقول ما تريد يا حكيم، الفلاسفة الّذين تحدّثوا عن النّار لم يُلسَعوا بشُواظِها يومًا». قمتُ أروحُ وأجيءُ في الغرفة، وأضعُ يدَيّ على رأسي، وأفركُ ذقني، وأشدّ على أسناني، توقّفتُ عن حركتي الدّائبة، واقتربتُ من السّرير، وسألتُه: «لِمَنْ بِعتَها؟». «لماذا؟». «لأنّني يُمكن أنْ أشتريها مرّة أخرى وأُعيدها إليك». «لن تستطيع». «لماذا؟». «لأنّني بِعتُها لدريّة وهي لا...» قاطعتُه: «دُرّيّة؟». أجابَني بهدوء وثِقة: «نعم دريّة، إنّها منذُ عشر سنواتٍ تبيع النّساء، لا تقلْ لي إنّكَ لا تعرف، مع الجائحة الّتي أصابتْنا جميعًا ازدهرتْ تِجارتُها، بعضُ المُشترين يعتقدون أنّ دِماء الصّغيرات أحسنُ دواءٍ للطّاعون». سألتُه وأنا مُضطرب: «كم عمر ابنتك عندما بِعتَها؟». «ستّ سنوات». صرختُ: «مُجرِم... كلّكم مُجرِمون...» ورحتُ أمنعُ دموعًا تصعدُ من أعماقي إلى عينَيّ، كان هو صامِتًا، ينظر إليّ بعينَين زُجاجيّتَين دون أنْ يقول شيئًا، هدأتُ قليلاً، وعُدتُ أسأله: «لماذا لا أستطيع أنْ أستعيدَها من دريّة؟». «لأنّ البِضاعة لا تمكثُ عندها شيئًا، هناك طلبٌ كثيرٌ على تجارتها، ولديها زبائن كثيرون، ومنهم عِلْية القوم».

هممتُ بأنْ أُحكِمَ قبضتَيّ على عنقه وأخنقه، وأقضي على ما تبقّى فيها من حَياة... نظرتُ إلى (سالم) كان ذاهِلاً هو الآخَر، يُمسك بصندوق الأدوية، ولا يُحرّك ساكِنًا كأنّه تِمثال، سألتُه السّؤال الاعتِياديّ: «ماذا نُعطيه؟». ردّ دون أنْ ينظر نحوي: «جرعةً مُميتةً من الخشخاش». وافقتُه... غيرَ أنّ صوتَ العقل لن ينتهي بمجرّد مريضٍ في عقله وروحه، نحنُ نعيشُ في وسط هذا النّوع من المرضى: «أعطِه ما يُمكن أنْ يعيشَ به ما تبقّى له من أيّام».

حملْنا الزّوجة، نظرتُ في وجهها المُزْرَقّ، تساءلتُ إذا كانتْ في الأرضِ كلّها أُمٌّ يُطاوِعها قلبُها أنْ تبيعَ ابنتَها. ردّتْ عليّ عيناها الغائِرتان: «ها أنذا أمامك».

أمام البيت، عن يمين عتبته، حفرنا قبرًا للزّوجة، لم يكنْ عندَنا واعِظٌ يقرأ على روحِها بعض الأدعية، ولم يكنْ لدينا ماء لنغسلها، ولا كفنٌ لنغطّيها به، دفنّاها بثِيابها البالية، الّتي يبدو أنّها منذ الجائحة لم تُغيّرها، وبشالِها الّذي تنسربُ من تحته خُصُلاتٍ من الشّعر كانتْ حَيّةً فيما مضى من زمن، واليوم أُلقِمت للتّراب!! ❞

❝ (٢)

هَلُمّوا إليّ

كُنّا نركبُ حِصانَينا، مُتّجهَين إلى المُنشأة، كلّ شيءٍ تغيّر في هذه المُصيبة، الأبلق تغيّر هو الآخَر، لمْ يعدْ مُبتهِجًا كما كان فيما مضى، لم يعدْ يُهملِج، ولا يصهل بتلك الصَّحْلة اللّذيذة، صار صوتُه خافِتًا، ليسَ من جوعٍ، فأنا أؤمّن له طعامًا جيّدًا، ولكنْ ربّما لِما يراه من أفعال البشر، وما يحلّ بهم.

من بعيدٍ رأينا عَرَبة (شريف)، نعرفُها من قفزته، يقفز برشاقةٍ من خلفِ الحصان، وينزل بهمّة من أجل أنْ يُنزِلَ المُصابين، كان مُنهمِكًا في عمَلِه، كان يحمل المرضَى بين يدَيه كأطفال، ينظر في وجوههم بحنوّ وأسًى، ويودّ لو يُقبّلهم، وقد تطفر بعضُ الدّمعات من عينيه... لم يلتفتْ إلينا عندما صِرنا بقربه، وقفتُ أنظر إليه وهو يحمل مرضاه، يعبر بالواحد البوّابة، ويظلّ يحمله حتّى يصل إلى غرفة التّطبيب البسيطة الّتي أنشأناها قربَ المدخل، ويعودَ ليحمل الثّانية، لم يسترحْ، وقفتُ أعدّ له المرضى الّذين حمَلَهم دون أنْ يعرفَ أنّني موجودٌ، كان قد عبرَ بثمانيةَ عشرَ مريضًا، تنهّد بعدَ أنْ سَلّم مريضَه الأخير، وهو يهمّ بركوب العربة ليذهبَ فيحمل فيها غيرهم، صحتُ به: «يا شريف...» انتبه، كُنّا على مقربةٍ لكنّه التفتَ إلى غير جِهتنا، صحتُ من جديد: «شريف... أيّها البطل...». نظر جهتي هذه المرّة، وعندما عرفني، هتف: «سيّدي عبد اللّطيف...». وحَنى رأسَه، وددتُ لو أُقبّل رأسَه، هذا الفتى الأسود ذو العينَين الزّرقاوَين لم يرتحْ طَوال ستّة أشهر من نقل المرضَى والموتَى، لم يقلْ مرّة واحدةً: «أخّ...». اقتربَ منّي، صافحتُه: «عليكَ أنْ تهتمّ بأمور سلامتكَ أكثر... المرضى يُشبهون أبناءَنا أو إخوتنا، وقد نُحبّهم، ولكنّنا لا نريدُ أنْ يقتلونا، وهم لا يريدون ذلك لنا أيضًا». فَهِمَ ما أرمي إليه، فحنى رأسه من جديد، وهتف: «سأفعل يا سيّدي»، ثُمّ قفز خلفَ حِصانه، وغاب في الدّروب الّتي أطلَعتْه!

أصبحتْ مُنشأة العزل صورةً عن القاهرة قبل أنْ يحلّ بها الطّاعون. كانتْ فيها أسواقٌ غير مرئيّة تُقام للبيع والشّراء، وعلاقاتٌ عابرةٌ، وأخرى دائمة، وثالثةٌ على الوعدِ بالزّواج: «لن أتركَكِ حتّى لو نخر الطّاعون عِظامي». فتردّ: «إذا مِتنا، فلْتكنْ نهايتُنا ونحن نضع أيدينا مُتشابِكين، سنطلبُ أنْ يدفنونا في قبرٍ واحدٍ». كانت الوعود في المُنشأة – شأنها شأن

الوعود في المِحن – أصدَقَ الوعود وأوفاها، كان الموتُ المرئيّ في كلّ شيءٍ يجعل من فِكرة الوفاء المستحيلة أمرًا مُمكِنًا, ويجعل من الصّدق النّادر أمرًا مشاعًا.

هنا في المُنشأة كانت الحياة تتحدّى الموت على طريقتها، حفلتْ بعددٍ من النّساء الحوامل، طلبتُ مُمرّضتَين من البيمارستان الرّئيس على وجه السّرعة، أنقذتِ المُمرّضتان امرأةً كانتْ على وشك أنْ تموت، كان اختِبارًا لمواجهة الموت بالحياة، حينَ خرج من رَحِمها وهو يصرخ صرخة الحياة الأولى، كانت أمّه تُطلِقُ صرخةَ الحياةِ الأخيرة، وحينَ رحّبتِ الحياةُ بالطّفل على أحسن ما يكون التّرحيب، كان الموتُ يرحّب هو الآخَر بالأمّ فيحملها عن ابنِها بعيدًا. قلتُ للمُمرّضتَين: «عليكما أنْ تُعلّما قابِلاتٍ يَكُنّ عونًا لَكُنّ مع الأمّهات الحوامل، وتُدرّبْنهنّ على العناية بالأمّ وبابنها». ردّت مُمرّضة: «هذا إذا ظلّتْ حَيّة». أردفتِ الثّانية وهي تزمّ شفتَيها غير راضية: «العناية بالأمّ وابنها؟ إنّ الطّاعون لا يعرفُ أمّا ولا ابنها». سألتِ الأولى: «هل ينتقل الطّاعون من الأم إلى الولد بالدّم؟». «ربّما ينتقل، لكنّ الفرصة في حياته مُمكِنة. هل نبحثُ نحن الأطبّاء عن فُرص الموت أم الحياة؟ هل نتركُ المرضى لأقدارهم أم نُجابه معهم تلكَ الأقدار؟ هل نتركُ أقدامهم تهوي في وديان الموت، أم نأخذ بأيديهم إلى سهول الحياة؟ هل نحن مُستأمَنون على هذه الأرواح أيّتها المُمرّضتان، أم لا نلقي لها بالاً؟». سَكَتتا عندما رأتا نبرة الغضب في صوتي. في الحقيقة كان الغضب على إخفاقنا في الإبقاء على حياة الأمّ، لا على عملهما، فقد قاما به كما ينبغي. لكنّ الموتَ أكبر من الطّبّ وأبيه!

في المُنشأة يحمل الأبناء آباءهم من أجل أنْ يُساعدوهم على قضاء الحاجة، كان يُمكن أنْ يكون هذا المشهد في غير هذا المكان وغير هذا الزّمان غريبًا، لكنّه اليوم مع كلّ هذا الوباءِ صار مألوفًا، ابنٌ في العشرين يحمل أباه الّذي في السّتين بينَ يدَيه، ويتهادَى به في الطّريق ليقضي حاجته في الحمّامات، وكانوا كذلك يحملونهم في اللّيالي المُقمِرة على ظهورهم، ويمضون بهم إلى الحدائق المُقفرة، مقفرةٌ نعم، لكنّها تعشوشبُ بالرّحمة، بالكلمة الدّافِئة، وبالحديث الحلو بين الأبِ وابنِه، قال له: «لم أُصدّقْ أنّنا سنعيشُ أيّامًا كهذه يا أبي؟».

يردّ أبوه: «لو نجوتَ منها، وأرجو أنْ تنجو، فستتعلّم منها ما لم نتعلّمه نحن في خمسين عامًا ماضية، ومع أنّ بلادَنا خاضت عشرات الحروب، وحدثَ فيها انهِيار دول، وقِيام أخرى، وسيادة قوم، وامّحاء آخرين، وذهابُ الفاطميّين، ومجيء الأيّوبيّين، وضياع القُدس، ثُمّ استردادها، ثُمّ ضياعها من جديد، وخسوفٌ بالشّام ومحن لا تُعدّ، ولكنّها كلّها تبدو ضئيلةً أمام ما يحدثُ اليوم يا بُنَيّ. لو قلتُ كما يقول الكثيرون: إنّه غضب الله، فماذا يُخبّئ الله من اختباراتٍ أُخرى لكي نقول إنّ ما مضى كان جزءًا من غضبه وليس غضبَه، وإنّه كان تمرينًا عليه ولم يكنْ هو. ثُمّ يا بنَيّ، إنّ ربّك ذو رحمةٍ واسعة، فلا يُمكن أنْ يُنزل بِنا ما ترى مِمّا لا يُصدّقه العقل، ومِمّا لا يكون إلاّ في الأحلام، أو لا يكون فيها لشدّة غرابته، إنّما هو عمل الشّيطان في الإنسان، وعمل الإنسان في الإنسان، فنحن مَنْ جلبَ الطّاعون بفسادنا، ونحن من قتلْنا إخوتنا بأيدينا، دَعْنا نُنقِذ أنفسنا باللّجوء إلى الله، لكنْ ليسَ برمي الأشياء كلّها على تدبيره، قد يكون عِلمُه أسبَقَ من علمنا، ولكنّه يتركُ لنا حُرّية الفِعل، وليس ما ترى إلاّ من صُنع أيدينا...». وسكتَ، فقال الابن: «تلومُ نفسَكَ يا أبي؟». «فمنْ ألوم يا بُنَيّ...؟ نحنُ صُنعُنا...». كانا يتحدّثان فيما كان كلّ شيءٍ حولهم يُصغي لكنّه لا يستطيع أنْ يُغيّر شيئًا مِمّا قد جرى عليه القَلَم، كان القمر يودّ ذلك، والأشجار تودّ، والأطيار تودّ، والتّراب يودّ، والسّماء تودّ، والسُّحُب تودّ... وكانا يودّان أنْ يعيشا، ولكنّ الأب سقطَ بهدوء بجانبِ ابنه ورحل، أينَ يُمكن أنْ ندفن كلّ هؤلاء الموتى؟!

كان يُمكن أنْ تحزنَ لفقدِ عزيزٍ عليك فيما مضى، وتبكي عليه بكاءً مُرًّا، لكنّ الحُزن على الرّاحلين لم يعدْ يعني شيئًا كثيرًا، لم يعدْ أحدٌ يسأل عنك، ولا يُعزّيك بموت عزيزك، ولا يعرفُ إنْ كان قد ماتَ أبوكَ الذي كنتَ تحمله على أكتافك ليقضي حاجته، ولا إنْ عاش، ولا متى، ولا... وهكذا لم يجدِ الابنُ حتّى من يحفر لأبيه القبر، حفره بنفسِه، وكان دمعه يختلطُ مع التّراب الّذي يعفّر وجهه ويدَيه، فيحول إلى شيءٍ من الطّين، وكانتِ الشّمس تزيدُ من صعوبة الحفر لشدّتها، والعطش، والجوع، والوهن، ولِذا استمرّ الابن ليلتَين كامِلتَين حتّى استطاع أنْ يهبَ أباه حفرةً لائقة، كان آخِرَ ما تبقّى له من أسرته، أمُّه، وأخوه، وثلاثُ أخواتٍ له ماتوا قبل خمسةِ أشهرٍ، لكنّه لم يحزنْ عليهم كلّهم حُزنه على أبيه؛ فلقد كان بمقدور أسرته الثّريّة آنئذٍ أنْ تشتري أكفانًا جيّدة من الكِتّان لهم، وأنْ تُغسّل أجسادُهم على الطّريقة الإسلاميّة، وأنْ يُدعَى

لهم، وأنْ يُحمَلوا وخلفَهم بعضُ المُشيّعين، وأنْ يُدفَنوا في المقبرة الّتي امتلأتِ الآن، وأنْ يحظَوا بقبورٍ عميقةٍ محفورةٍ بشكلٍ طوليّ جيّد، وتتّسع لأجسادهم بسهولة، أمّا الآن، فقد بدا أنّ أباه صاحب هذه الثّروة الزّائلة ليس لائِقًا بموتٍ مثل هذا أو قريبٍ منه!!

غيرَ أنّ اعتِياد الموت فاقمَ في أعداد الموتى، لقد جعل الطّاعون الأجساد ساحةَ اشتِباه، لم يتأكّدْ كثيرٌ من العوامّ أنّ قريبَه هذا مات أو أنّه ما زال على قيد الحياة، كان يُقدّر أنّ عدمَ حركتِه يومَين في سريره هو بمثابةِ إعلانٍ أنّه ميّت، في اليوم الثّالث يكون قد دبّر له عربةً وحفّار قبورٍ ليدفنَه، لكنّ الميّت يستيقظ على اهتزاز العربة به في منتصف الطّريق، فإذا كانتْ لديه قدرة على القفز من العربة، أو على الصّياح، أو على النّطق: «إنّني حَيٌّ ولم أمتْ»، فسينجو، أمّا في غير هذا فقد كان الحَفّار يحمله مثل خرقةٍ باليةٍ، ويُلقِي به في الحفرة كما تُلقَى القواذير، ويبدأ بإهالة التّراب عليه من غير انتِظامٍ، فإذا بدَأ برجلَيه فإنّه يهبه لحظاتٍ أخرى من أجل أنْ يأخذ من هواء الحياة ما تبقّى له، من خلال التّراب يرى الحياة تهربُ منه مع كلّ حفنةٍ تُلقَى فوقَه، يُحاول أنْ ينطق بكلمةٍ، أنْ يستغيث، أنْ يقول للحَفّار لا تُتابع عملك يُمكنكَ أنْ تُنقِذني، إنّني حَيّ... لكنّ الحَفّار لا يرى ذلك ولا يسمعه، إنّه منهمكٌ في عمله لِيُنهِيه بأسرعِ وقتٍ من أجل أنْ يبحثَ عن جُثّةٍ أخرى يردمُ فوقَها التّراب لِقاءَ أجرٍ جيّدٍ... كانتْ عينا المسكين تَنُوسان، ذُبالته تنطفِئ تدريجيًّا... يُقلّب ناظَريه في السّماء الصّافية في اللّحظات الأخيرة، ويرى ذلك العصفور الّذي يحطّ على فرع الشّجرة الّتي تحتها حُفرته، ويُشنّف أُذُنَيه بصوته الجميل، وفجأةً يسقطُ التّراب على فمه فيملؤه، وعلى أنفه فيخنقه، وعلى عينَيه، فيسود الظّلام... إنّه الظّلام، ولا شيءَ سِوى الظّلام، ماذا يُمكن أنْ يكون الموتُ غيرَ ظلامٍ أبديّ؟!!

في نهاية الشّهر السّابع لهذه الجائحة المُستمرّة الّتي لم تتوقّف كان ديوان مصر يُعلن أنّ عدد الوفَيات بلغ أكثر من أربعمئة ألفِ نَفْسٍ، حينَ استطاع الدّيوان قبل أسبوعَين أنْ تصله سفينةٌ إلى الإسكندريّة مُحمّلة بالتّوابيت والأكفان، استطاع أنْ يدفنَ فيها في يومٍ واحدٍ أكثر من خمسةٍ وعشرينَ ألفًا، كانت مواكب الجنازات لا تتوقّف، كانتْ تُحمَل على أكتاف الجنود والمُتطوّعين وذوي الموتى، حتّى إنّه لو قُدّر لكَ أنْ تقفَ على قنطرة باب زويلة على سبيل المِثال وتنظر إلى الجنائز فإنّك سترى بياضًا يُغطّي الأرض كلّها لا يكاد يُظهِر منها شيئًا لكثرة الأكفان المحمولة!!

كانت القبور يومَها تلتهمُ كلّ ما يُلقَى فيها، ولم تأنف من ميّتٍ واحدٍ، كانتْ تصيح: «هَلُمّوا إليّ أيّها النّاس... فإنّ هذه غايةُ آمالِكم... هلمّوا إليّ أيّها الأحياء، فإنّ في حفرتي هذه نهايةُ مآربكم... هلمّوا أيّها العُتاة وأيّها الهُداة... أيّها العُصاة وأيّها التّقاة... أيّها الفُجّار وأيّها الأبرار... أيّها السّادة وأيّها العبيد، فإنّ نهايتكم هنا في جوفي... هلمّوا فإنّه لن ينجو من هذا الموضع أحدٌ». ❞

(٣) ❝

زَمنُ الحِمير الجميل!!

صارَ كلّ ما يمشي على الأرض يُصاد، ويُذبَح ويُؤكل، الفِئران والجراذين والصّراصير والسّحالي والحراذين والقِطط والكِلاب والجَراد والأفاعي والحشرات و... وبعدَ انقِراض القطط بسب التّركيز على صيدِها في بادئ الأمر، صار لا بُدّ من البَحثِ عن مصدرِ غِذاءٍ آخَر، فلجأتِ النّاس إلى الحمير، ذُبحَت الحمير، وشُوِيتْ وأُكلتْ، ثُمّ إنّ الحمير شَحّتْ مثل كلّ حيوانٍ لجأ النّاس لأكله، ثُمّ مضى زمنٌ، فصارت النّاس تتذكّر عهد الحمير بالحنين والشّوق، إذْ كانت الفترة الّتي أُكِلتْ فيها الحمير من أكثر فترات الطّاعون رفاهية، صحيحٌ أنّ الحمير لم تكنْ سمينةً، بل كانتْ عجفاء ضامرة، ولكنْ في النّهاية

كان النّاس يأكلون لحمًا طيّبًا، ولم يكنْ يقفُ بين ذبح الحِمار وأكله إلاّ لحظاتٍ قلائل... أمّا اليوم فالنّاس – ويا للأسى – تضطرّ إلى أنْ تأكل السّحالي والحشرات، وهذا – لَعَمْري - مدعاة إلى الحنين إلى ذلك الزمن الجميل؛ زمن الحمير!!

في مصر، كان لا يركبُ على الخيول في هذه الجائحة إلاّ المَلِكُ أو الأمراء أو الوزراء، فكانوا يتصيّدون خروجهم إذا خرج أحدُهم لحاجته، فيُنزِلون الأمير عن حِصانه، ويذبحون الحِصان، ويتناهشَون لحمه، فانقطع مسير الأمراء بالخيول انقِطاعًا تامًّا، وخافَ كلّ أميرٍ على نفسِه، وعانَى في قصره من الجوع ما عانى النّاس بعدَ أنْ نَفِدَ الطّعام أو شَحّ، ولقد كان الأمير ينتظر من ديوان مصر أنْ يأتيه بالطّعام ما يكفيه أنْ يُقيم به الأَوَد كلّ أسبوع، فإذا انقضى الأسبوع، جلسَ ساهِمًا هو وأهل بيته، ينتظرون آيسين أنْ يطرقَ بابهم وافدٌ من الدّيوان يجودُ عليهم ببعضِ الطّعام، يَقِيهم من الموت أيّامًا أُخَر!!

الحاجة إلى الطّعام أطلعتْ أفكارًا مُذهِلةً للصّيد، صار اللّحم يُباع، أعني لحمَ الكِلاب بأسعارٍ عالية، خُطّافات تُنصَب في الأحياء المهجورة والّتي تتجوّل فيها الكِلاب الضّالة، أو الضِّياع البعيدة، إذ انقطعتِ الكلاب من وسط مصر ومن القاهرة وما حولَها، بسبب اصطِيادها في فترةٍ قصيرة، فلجأ الصّيادون إلى تلك الكِلاب في المناطق البعيدة، وكانوا إذا أرادوا بيَعها طلبوا سِعرًا مُرتفِعًا، مُتعلّلين: «لقد مشينا إلى أماكن خَطِيرة، وقطعنا مسافاتٍ بعيدة، وتربّصْنا بها أيّامًا طويلة، وكِدْنا نهلك حتّى استطعْنا أنْ نصيدَ بعد أسبوعٍ كلبَين أو ثلاثة، هل تظنّون الحصول على كلبٍ أمرًا سَهْلاً؟!!».

وبدأ عهد الكِلاب... تُصاد، تُذبَح، تُشوَى، وتؤكَل... غير أنّ عهد الكِلاب الّذي جاء بعد عهد القِطط والحمير – هنا يُمكن أنْ نقفز عن عهد الحشرات لأنّه لم يكنْ ذا بال – كان عهدًا خطيرًا وقاسِيًا، إنّه العهد الأخير ربّما في خيال القاصِرين عن أنْ يُوسّعوا خيالَهم من عهود اللّحم، ولِذا نشبتْ من أجلِه نزاعاتٌ وحروب، وأنا شهدتُ بعضَها؛ رأيتُ أُناسًا في تربةٍ يتقاتلون على كلب ميّت، أحدهم يقول: «أنا اصطدْتُه، ولن أسمحَ لأحدٍ أنْ يحصلَ حتّى على نابٍ أو مِخلبٍ منه». الآخر يردّ: «كذبْتَ، لقد كان ميّتًا، ووجدتَه بين هذه القبور، وأنا أتربّصُ به منذُ ثلاثةِ أيّام، وأعرفه من ذنبه الأقطش، فلا تحاولْ خِداعي». الثّالث الّذي ظلّ صامِتًا أثناء نزاعهما، يتدخّل بلطفٍ قائلاً: «يُمكننا اقتِسامه، وهكذا يحظَى كلّ واحدٍ مِنّا بوجبةٍ مُمتازة». ينفعل الأوّل من تدخّل هذا الأحمق، ويصرخ: «اسكتْ أيّها الملعون، ما دخلك أنت، أم أنّك ستقول إنّك كنتُ تتربّصُ به لتصطاده...» يبدأ بجرّ ذيل الكلب، الكلبِ الّذي يسيل الزَّبَد الأبيض من زاوية فِمه، والّذي يبدو أنّه جُثّة مُتعفّنة، ويتدهدى رأسُه بين صخور القرافة، تظهر أسنانه البيضاء اللامعة وأنيابه الّتي لم تستطعْ أنْ تحصل على أيّ شيءٍ يُؤكَل من أجل أنْ يظلّ حَيًّا... يستمرّ صاحبه الأوّل في جَرّه وهو يصيح: «لن يأكل منه مُضغةً واحدةً سِواي». ينفد صبر الثّاني، فيتناول حجرًا كبيرًا من الأرض فيهشّم بها رأسه، يتهاوى على الأرض يُرفْرِطُ مثل فَرْخٍ مذبوح، ينظران إليه دون أنْ يفعلا شيئًا، يقول الثّالث: «هل تُعطيني شيئًا من لحم هذا الكلب؟». يردّ عليه الأوّل: «إذا دفنْتَ ذلك الكلب فسأعطيكَ فخذةً من هذا الكلب».

كان الموتى ينتشرون في الشّوارع، من أولئك الّذين خرجوا يطلبون الحياة فطَلَبَهم الموت، فسقطوا في قوارع الطّرق، لكنّ أحدًا لم يأتِ لنقلهم أو لدَفنهم، كانوا يتزايدون في الشّهر الثّامن من الجائحة تزايُدًا مُرعِبًا، مِئاتٌ منهم يملؤون الزّوايا والأحياء، مُلقَيْنَ عرايا، قد سرقَ اللّصوص ثِيابهم، ومُمتلَكاتهم الّتي كانوا يحملونها، لكنّ الميّت لا يعنيه ما أُخِذ منه، كُلّ ما يعنيه أنْ يُوارَى في الثّرى قبل أنْ تأتي صقورٌ من السّماء فتنهشَ ما تبقّى من لحمه... نَشِطتْ في هذه الأوضاع عَرَبات الدّولة، كانوا قد نجحوا في زيادة عددٍ آخَر منها، ورثوها عن مُلاّكها الّذين اخترمهم الموتُ الأسود، وأضافوها إلى عرباتهم، وراحوا يطلبون من جنودهم أو مُتطوّعين أنْ يرفعوا

الجُثث من الطّرقات. كان هذا يتمّ بصورةٍ أبشعَ من الموت نفسه، إذْ كان يتعاون اثنان لرفْع الجُثث من الشّوارع، يقفُ الأوّل في مُؤخّرة العربة وقد حنى جِذعه ليتناول من زميله رأسَ الجُثّة، يسحبُ رأسها على الحافّة الحديديّة للعربة، ثمّ

يتمكّن من وضع ذراعَيه تحتَ إبطِها، بينما يقوم زميله الأوّل في الأسفل، بالإمساك بقدَمي الجُثّة ومُساعدة زميله في إتمام سَحْبِها. ثُمّ جرّها في صندوق العربة إلى الطّرف الأعمق، ويقوم بوضعِها على حرفِها، لكي يكون قادِرًا على تصفيط الجُثث، وتحشيرها، ولَزّها أقصى ما يُمكن حتّى تتّسع العربة لأكبر عددٍ منها!!

في الأماكن الّتي كانت الجُثث تُغطّي فيها الأرضَ، ولا يُوجَد مُتّسع لوقوفِ العربة في الوسط لبدء عمليّة النّقل، فإنّ السّائق كان يُضطرّ إلى همز الحِصان الّذي يجرّ العربة بقوّةٍ ليدوس بحوافرة على بطون تلك الجثث وسيقانِها ورؤوسِها أوّلاً، ثُمّ تُكمِل بعده العَجَلات الحديديّة المهمّة، فتهرس العِظام، وتهشّم الرّؤوس، وتسحق العورات... وتظلّ ماشِيةً ببطءٍ تتهاوَى بين الجثث صاعِدةً وهابِطة، إلى أن تقف في وسطها، حينَها يصيح صاحب العَرَبة، صارخًا في وجه مُعاونه: «هَيّا أيّها الأخرق، علينا أنْ نملأ العربة بالجُثث خمسَ مرّاتٍ على الأقلّ كما طلبَ منّا ديوان مِصر». وفيما هم يملؤون عَرَبتهم بالجُثث الّتي كان بعضُها يستقرّ تحت بطن العربة وبينَ عَجَلاتها، كانتْ هناكَ عشرات العَرَبات الأخرى في هذه السّاحة وحدها تقوم بالمهمّة ذاتِها!!

غير أنّ العَرَبات لو نطقتْ لجاءتْ بأحكم قولٍ يُمكن أنْ تسمعه أُذُن، ولعلّها نطَقتْ ونحن البَشَر المُتعالين المُتعجرفين لم يكنْ بمقدورنا أنْ نسمعها؛ كانت العَرَبات تنقل السّيّد والعبد، المعروف والمُنكَر، الآثِمين والطّاهرين، الكِبار والصّغار، النُبلاء والوُضعاء، التّجّار والعُمّال، الأغنياء والفُقراء، الرُضّع وأمّهاتهم، الآباء وأبناءَهم وبناتِهم... لم تكنْ هناك أيُّ حرمة، كانت الأجساد العارية كلّها تتلاصَق، ولعلّ ذراعَ عاملٍ أو عتّال في السّوق ما زال أثر الحِبال فيها ظاهِرًا كانت تتشابَك في هذه العربة مع ذراع أميرٍ كانتْ فيما مضى مُطوّقة بالذّهب، ورأسَ وزيرٍ تعلوها نعلُ شَحّاذٍ لم يشبع من الخُبز في حياته. وعينَ لِصٍّ تنظر في وجه قاضٍ كان مجرّد النّظر في وجهه يجلبُ الذّعر. وشَفَتا بائعِ وردٍ تلتصقان في الرّمي العشوائيّ بجسدِ أميرةٍ كان مجرّد أنْ يراها حُلُمًا لم يخطرْ في خَياله ولو للحظة... ثُمّ ماذا؟ إنّهم جميعًا يستلقون في بطن هذه العربة، ويمضون إلى بطنٍ أعمق لا يرون فيه الشّمسَ أبدًا حتّى يأذن ربُّ الشّمس!

كانتْ عَرَبات الدّولة ذات دولابَين، ليسَ من أجل أنّها فقيرة ولا يُمكن أنْ توفّر عربةً ذات أربعة دواليب، ولكنّ السّبب يكمن في أنّ العربة ذات الدُّولابَين هي أسهل من أجلِ إمالتها إلى الخلف وإفراغ حمولتها دفعةً واحدةً في الخنادق المحفورة كقبورٍ جماعيّة، والّتي تنتظر مزيدًا من الجُثَث في أسرعِ وقتٍ.

كانتِ الجُثّث في البداية تحَظى وهي تُكدّس باحتِرام النّاقلين، إذْ لم تكنْ جُثّة لتوضَع فوق الأخرى، وإنْ كان صاحب العَرَبة يعمل بوضعها على حرفِها ويكبسها حتّى لا يكون بين جُثّة وأخرى فراغٌ، إلاّ أنّه لم يكنْ يفعل خطيئةً أكبر من ذلك، لكنّ هذا الاحترام الضّئيل عالي التّقدير لم يستمرّ أكثر من بضعة أيّام، إذْ لم يكنْ هناك وقتٌ كافٍ لتكبيس الجُثث، فصارت الجُثث تلقَى اعتِباطًا، مُنفرجة السّاقين، أو مَفغورة الأفواه، أو مكشوفة العورات، وكانتْ تُراكَم بعضُها فوقَ بعضٍ في طبقاتٍ قد تصل إلى أربعِ طبقاتٍ أو خمسٍ، وكان يُلقَى عليها قُماشٌ أسودُ يُغطّيها من الأعلى كلّها، ويُثبَّتُ في أطراف العربة، وتمضي بالحمولة إلى القبور، ولكنّها مع سرعتها قد تُوقِع في اهتزازاتها المُتكرّرة جثّة هنا أو هناك، ولعلّ لِسان الجُثّة الّتي تقع كان يصيح: «خُذوني معكم، لا تتركوني للغِربان.. أرجووكم...». فهل كان سائق العربة يتوقّف؟ لا. وهل كان يعرف أنّ جُثّة من جُثَثه الخمسين الّتي يحملها قد وقعت؟ نعم. فلماذا يمضي؟ لأنّ القبر الجماعيّ لا ينتظر أكثر من ذلك، والعَربات الّتي تجوب شوارع القاهرة هنا وهناك سيكونُ على متنها سائقٌ ولو واحِدٌ رحيمٌ يلتقطها فيما بعدُ!!

لقد استغرقَ نقلُ الجُثث بالعرَبات من القاهرة وحدها شهرًا دون أنْ تنظفَ السّاحات تمامًا، إذْ مع أنّه صارَ هناكَ موطِئ قدمٍ للعابرين، أو راكبي الخيول أو سائقي العَرَبات، إلاّ أنّ الجُثَث لم تنتهِ، وكان يُمكن أنْ تراها في البدايات مع بعضِ

الجوارح وخاصّة الغربان والعِقبان الّتي تتقافز فوقَها، وتُغطّيها بالسّواد، ولم يكنْ مُستغرَبًا أنْ ترى غرابًا مُنهمِكًا باستِلال أحشاءِ جُثّةٍ هنا أو هناك بمِنقاره الحادّ.

غير أنّ الكِلاب نفسَها الّتي كانتْ تنهشُ هذه الجثث لم تسلم من الاصطِياد، ولِذا انتهتْ، بينما ظلّتِ الطّيور الجارحة تحوم حول الجُثَث، وإنْ كانتْ تخشى في أحيانٍ كثيرةٍ الانقِضاض عليها، لِما ينتظرها من الصّيد على أيدي البشر الّذين يمكثون ليلةً كاملة على أمل أنْ يفوزوا بغرابٍ واحدٍ ولو كان مَنتوفَ الرّيش**!!**

أعلن ديوان مصر أنّ الوفيات بالطّاعون بلغتْ ستّمئة ألفِ نفسٍ. صاروا يُفكّرون بجدوى الإعلان عن ذلك. الأطبّاء يهمّهم؟ نعم. المُؤرّخون يهمّهم؟ نعم. مَنْ سِواهما؟ لا أحد؛ فلنتوقّفْ إذًا عن إعلان أعداد الموتى قليلاً ريثما نلتقطُ أنفاسَنا من الجَرْي وراء أعدادٍ يبدو أنّها لن تنتهي! **"**

" (٤)

وِسام الطّاعون

ليسَ بعدَ الطّاعون مرضٌ، إذا وقعَ الإنسان فريسةً له، فلا يُمكن تخيُّل ما هو أسوأ منه، وإذًا فإنّ مرضًا مثل الجُدري أو الحُمّى أو الفالج يبدو مهزلةً أمامه، وعليه فإنّ هذا يُمكن أنْ يكون بارقة طُمأنينة للمطعون؛ يقول لنفسه: «أنا في مأمنٍ من أيّ مرضٍ ما دمتُ مطعونًا**!**». غيرَ أنّ هذا الاعتِقاد لم يكنْ صحيحًا ألبتّة، إذْ إنّ الطّاعون هو جِماعُ أمراضٍ لا يُمكن التّنبّؤ بها، أقلّها الحُمّى والإسهال والطّفح والمِرّة الصّفراء، وغيرها... وعليه فإنّنا كُنّا نبقي بارقة الأمل تلك في نفوس المرضَى، وإنْ كُنّا نعلم أنّها مُطفأة وما من أملٍ في أنْ تكونَ حقيقيّة مهما كانتْ حرارة الاعتِقاد بها، لكنّ مصارحة المريض بخطأ اعتِقاده خطأ آخَر في هذه الظّروف؛ وسيكون بمثابة قتلِ نفسٍ حَيّة أنْ تقتل أملاً يبرعم مثل نبتةٍ صغيرة في نفسِ مريضٍ ما.

استمرّ ديوان مصر الرّئيس في هذه الجائحة يُبخّر مِصر وأهلَها، بدأ ذلك منذ عشرةِ أشهرٍ ولا يزال يفعلها؛ كانت المساجد الموجودة في المرتفعات مثل جبل المُقطّم تُبخَّر، وكانتْ يُوقَد عليها بالطّرفاء واللّبان والمندروس والصّندل والكافور، من أجل طردِ روائح الموت على الأقلّ، إذْ لم يكن نافِعًا في محاولاتنا لدفع الوباء عن أهل مصر إلاّ قيامُنا بذلك.

لكنّ التّبخير وحرق المُعطّرات والمُطهّرات لم تُفِدْ شيئًا؛ كأنّها كانتْ دفعًا لوسواسٍ تشكّل عند النّاس لا لدفع وباءٍ جاثمٍ على كلّ حجرٍ في هذه المدينة، أمّا الطاعون فقد ظلّ يغوصُ بحربته حتّى أخرجَ أحشاء أهل مصر كلّها**!!**

أينَ مَنْ يقرأ على أرواح الرّاحلين، لقد شَحُّوا هم الآخرون مع مَنْ شَحُّوا، ومع ندرة القُرّاء ارتفعتْ أجور المُمتهِنين لهذه القراءة، ولم يكنْ بإمكاني أنا ولا الأطبّاء ولا ديوان مصر بعظَمَتِه أنْ يُوقِفَ تدفّقهم، وهم يتقاضَون أجورًا عالية، ويعتاشون من وراء الكلمات الّتي يتلفّظون بها على الأرواح المُسافِرة، كأنّ عزاء الرّاحلين الوحيد في هذا الموت الفجائعيّ، لم يكنْ أكثرَ من كلماتٍ يتلوها فمُ واعظٍ مجهول رَجاء رحمةٍ مأمولة من رَبٍّ موفودٍ عليه.

ولم تقفْ هذه المهنة المُستحدَثة على الدّخول إلى البيوت والوقوف على رأسِ المطعونين وتلاوة ما تيسّر، بل انتعشت مهنة القراءة على الجنائز كذلك، وصار القارئ يأخذ عشرة دراهم عن كلّ ميّتٍ؛ محظوظون أولئك الّذين وجدوا لأنفسهم قُرّاءً على أرواحهم المُتعطّشة إلى الخَلاص؛ إذْ بينما كان هذا الواعظ يتلو هذه الكلمات القلائل كانتْ هناك مِئاتٌ أخرى على سريرٍ مُشابِهٍ في بيوتٍ أخرى تلفظ أنفاسَها دون أنْ تحظَى بقارِئٍ يقرأ عليها أيّ شيءٍ لأنّها لا تملك المال، فيما كانتْ هناك مِئات الجُثث الأخرى تتساقطُ في الطّرقات، ربّما في هذا الحيّ الّذي ينتهي شارعُه بهذا الباب المفتوح على التّلاوة، لأنّهم خرجوا كذلك يطلبون مَنْ يقرأ على أرواحهم لكنّهم لم يُوفّقوا، فسقطوا.

صحيحٌ أنّ الطّاعون قد أفقر النّاس، وأماتهم من دون أنْ يجدوا مَنْ يُداويهم، ولكنّه على الطّرف الآخَر أغنَى فِئةً أخرى من هؤلاء النّاس، النّاس الّذين سَكَنوا القصور وبيوت الدّولة ولم يتّعظوا بِما يحدث، إذْ استغلّ السلاطين الطّاعون، للاستيلاء على أموال الموتى الذين لا وارثَ لهم، وإيداعها في صندوق ماليٍّ خاصّ بهم، لا يتصرّف بها سِواهم!

مُنِح (شريف) هذه اللّيلة بعد كِفاحِ سنةٍ كاملةٍ مع الطّاعون وِسامًا، حضرتُ حفلَ تتويجه، كان الحفل كئيبًا، ووجه شريف أشدّ كآبة، لكنّني هنأتُه، لا أدري إنْ كانتْ هذه سابِقة، أمّ أنّها حدثتْ من قبلُ؛ أنْ يُعطَى وِسامُ الشّجاعة أو نيشانُ البسالة للّذين يخوضون حروبًا طاحنة، وهل هناك حربٌ أشدّ طحنًا من الطّاعون؟!

قال لي: «إنّ عددًا من المُتنفّذين في الدّولة مِمّن كان يعرفُهم عن طريق سيّده القديم القاضي الفاضل، منحوه وِسامًا، وأعطوه مبلغًا من المال»، وضحك. سألتُه: «لِمَ تضحك؟». «مِن شَرّ البليّة كما يقولون يا سيّدي، أعطوني وِسام الشّجاعة وكان الأحرى بهم أنْ يُعطوني وِسام الطّاعون، أليسَ الطّاعون هو السّبب في هذه المنحة السّخيّة؟ ثُمّ ماذا أفعل بالوِسام في الموت إذا كان في عربتي يتساوَى كلّ شيءٍ مع الموت؟ وماذا أُفيدُ من المال في زمنٍ تكونُ فيه سَلامةُ البدن وصِحّة العقل خيرًا من الدُّنيا وما فيها». كان يتحدّث بهدوء، ويبدو أنّه يُخفي خلفَ كلماته أشياءَ لا يبوح بها، سألتُه: «على سيرة سلامة البدن، كيفَ هي صِحّتك؟ إنّ عملكَ الدّؤوب مع المرضَى يجعل الطّاعون أقربَ إليك من شِراكِ نعلِك». ضَحِكَ من جديد، فبانتْ أسنانه البيضاء نهارًا في ليلِ وجهه البريء، هتف مع بقايا ضحكته: «لا تقلق؛ المرضُ لن يُصيبني.

إنّه لا يعرفني! أنا أعرفه؟ نعم، أعرفه جيّدًا، أمّا هو فلا يعرفُ منّي غير أصواتِ دولاليب عَرَبتي على الأرصفة الباكية، ليستْ بيننا أيّ عداوة، نحن صديقان فكيف يُنشِب مخالبَه في روحي؟ سيظلّ إلى جانبي يحرسني حتّى من الأمراض الأخرى. أنا في عافية يا سيّدي، لا تقلق...». لكنّ كلماته الأخيرة كانتْ مهزوزةً إلى الحدّ الّذي بدا فيها أثرُ البُكاء!

نَقْصُ الأطبّاء جعل من الحمقى أطبّاء!! نُدرتهم جعلتْ كلّ مَنْ يملك مِشرطًا طبيبًا، كان كلّ مَنْ يأتي إلى البيمارستانات عارِضًا خدماته على أنّه طبيب مُقابل أنْ يأكل ويبيت في المشفى يُصَدّق، كانتْ هُناك حاجةٌ مُلِحّة إليهم، ولم نكنْ نملك وفرةً في الوقت حتّى نتأكّد من صِدقِ دعواهم. بعضُهم كنتُ أعرفُ من النّظر إلى يدَيه أنّه ليسَ طبيب، وإنّما هو جَزّار أو لَحّام، ومع ذلك، كنتُ أُدرّبهم لفترةٍ وجيزةً وأُوكل إليهم مَهمّاتٍ بسيطة، مثل فَصْد الدّمامل، وتنظيف القروح، وإزالة الصّديد. ومع ذلك بعيدًا عن البيمارستانات، فقد كان يفدُ إلى البيوت الحَدّادون واللّحّامون والحَذّاؤون الّذين كانوا يدقّون حذوات الخيول، ويُقدّمون أنفسهم لأهل البيت على أنّهم أطبّاء، ولم يكنْ أحدٌ ليتأكّد من دعواهم تلك، حتّى لو أراد ذلك فإنّه لا يملك الوسيلة الصّحيحة الّتي تُمكّنه من ذلك، وكانوا موضعَ ترحيب من النّاس، لأنّ النّاس كانتْ تحلم بأنْ يزورها طبيبٌ يحمل حقيبةً جِلديّة، يضع فيها مطارق ومشارط وخلاّعات، ويسأل بكلّ ثقةٍ: «أينَ مريضُكم عافاكم الله؟»

زادَ عددُ الموتى، كأنّ الطّاعون كانتْ تنقصه تلك الزّيادة؛ بسبب فصد المطعونين على أيدي الجَهَلةِ المُدّعين بذات الأدوات الّتي كانوا يُقطّعون بها أشلاء الأنعام والدّوابّ عندما كانوا يعملون في الجِزارة!! كان ذلك عامًّا طامًّا، غير أنّنا يُمكن أنْ نستثني من ذلك صديقنا القديم صِدقي اللّحّام، ذا الشّاربَين الغليظَين، بالمُناسبة لم يعودَا يهتزّان مع حركته أو حينَ يتحدّث كما كانا في السّابق، علَّمْتُه الطّريقة الصّحيحةَ في الفصد، وصارَ يتولّى بعضَ الأمور المُساعِدة، وقد هلكتْ عائلتُه كلُّها، ولم ينجُ سِواه هو وابنُه، وقال لي: «جِئتُ لأعيشَ ما تبقّى لي معك!».

الجوعُ رفيقُ الموت، لم يُبقِ الموتُ للّذين تركهم خلفَه شيئًا، لقد حزّ الجوع أرواح الناس حتى تجرّدوا من كل فضيلة واستسهلوا كل رذيلة. بدأتْ بعدَ مرور سنةٍ على الطّاعون تظهر مُشكلةٌ جديدةٌ، صار النّاس من الجوع الشّديد ينتظرون خارج القبور حتّى يحلّ الظّلام، وكانوا يعرفون القبور الجديدة، فيأتونها، وينبشونها تحت جُنح الظّلام، ويستخرجون الجُثّة، ويأتون بالمناشير والمطارق، ويبدؤون بنشر القفص الصّدري، ويخلعون العِظام بالمطارق ويُفتّتونَها، حتّى يصلوا إلى الكبد لأنّه يكون لا يزال طريًّا، فيستخلصونه من بين الأحشاء، ويَشْوُونه عند القبر نفسِه، ويأكلونه!! ولقد كانتْ تمرّ أيّامٌ تُنبَشُ فيه أكثرُ من عشرةِ قبورٍ من هؤلاء، ثُمّ تنبّهتِ الدّولة إلى ذلك فصارتْ تضعُ حُرّاسًا على تلك المقابر، ولكنّ صيّادي الجثث لم تكنْ تُعوزهم الحيلة، فقد كانتْ لهم طرائقهم في إقناع هؤلاء الحُرّاس؛ إمّا بقليلٍ من المال، أو بإغرائهم بوجباتٍ لا يُمكن تخيّل لذّتها، يقول أحدهم له: «إنّكَ جائعٌ مثلي، وإنّك لن تدركَ كم هو الكبدُ طريّ، وكم هو القلبُ شهيّ، وكم هو البلعوم لذيذ، حتّى تُجرّب مِثلَنا، وإنّكَ إنْ سمحتَ لنا بنبشِ القُبور، قاسمْناكَ ما نستخرجُه منها كأنّكَ واحدٌ مِنّا». وكان يقبلُ تحتَ تلك الإغراءات، وأحيانًا تحتَ التّهديد، وأحيانًا يقولون له: «إنّ هذا الّذي سنمضغ كَبِدَه المَشويّة ميّت لا يُحِسّ، وبعد أيّامٍ لن يبقى منه شيء، سيأكله الدّود، فلماذا نتركه للتراب والدّود ليأكله ولا نأكله نحن؟! التراب لا يجوع ونحن نجوع، التراب لا يموت من الجوع ونحن مُتنا من الجوع ألف مرّة». وصار الحَرَسُ بعدَ ذلك ينتظرون آكلي أكبادِ الموتى حتّى يُقاسمونهم وجَباتهم اللّذيذة، حتّى إذا وصلَ خبرُهم إلى الدّولة، أعدّت لهم السّيف والنّطع، فأعدمتْ منهم في يومٍ واحدٍ ثلاثين حارسًا ونَبّاشًا، ومع ذلك لم يتوقّف أكل أكباد الموتَى يومًا واحِدًا!!

نعم، حدث هذا؛ اشتدّ الصراع على خطف جُثث الموتى ونبشِ قبورهم، وصار المُتعب ليس دفنها فحسب، بل حمايتها من النّهب، وصارتْ حِراسةُ الموتى أصعبَ من موتِهم ذاته، ثُمّ في فترةِ ارتِخاء قبضة الدّولة الّتي أصابَها الطّاعون كما أصابَ النّاس لم تعدْ حماية تلك الجُثَث مُهمّة، إذْ لم تعدْ لها حُرمة!

ثُمّ عَرَض النّاس في طوفان الجوع أمتعتهم للبيع، فلم يجدوا من يشتريها، وعَرَضوا أبناءَهم للبيع لِقاءَ رطلٍ من القمح فلم يجدوا مَنْ يشترونهم؟! وعَرضَتْ كثيرٌ من الفَتَياتِ أجسادَهنّ مُقابل رغيفِ خُبزٍ واحدٍ، ولم تحصل على ذلك الرّغيف المُشتَهى، إلاّ من كانتْ ذات حَظٍّ عظيم!! ”

”

(٥)

بعضُ الأحلام تتحقّق بالموت

كان الدُّمَّل يكبر تحت إبطيه فلا يرفعهما حتى لا أراه، وكان يتظاهر بالسّعادة وهو حزين، ويبدو قويًّا وهو ينهار من الدّاخل، ويضحك وقلبُه باكٍ، ويصطنع التّفاؤل وهو يائسٌ أشدّ ما يكون اليأس؛ لم يكنْ من قبلُ كذلك، ولكنّ المرضَ صنَع فيه كلّ ذلك!!

كان مُنهمِكًا في نقل المرضى من البيوت إلى البيمارستان بأقصَى ما يستطيع دون أنْ يتوقّفَ يومًا أو يأخذ استراحةً أو إجازة، كأنّه يُسابق الموت، وكأنّه يريدُ أنْ يُريح أكبرَ عددٍ من الأجساد في محنتها الصّعبة مع المرض قبل أنْ يرتاح هو. وكان يبكي مع كلّ جُثّة يضعها في صُندوق عَرَبته، كأنّه يعلم أنّه يومًا ما، وربّما يكونُ قريبًا سوفَ يضعه أحدهم في ذلك الصّندوق... استمرّ في هذه الدّوّامة كأنّه الشّمس لا يُغيّر حركتها مَرّ الأيّام، من البيوت إلى البيمارستان، ومن البيمارستان إلى مُنشأة الحجر، ومن المُنشأة إلى القبور، ثُمّ تحوّلتِ المُنشأة نفسُها إلى قبرٍ كبير.

سقطَ أمامي فجأةً ونحن في البيمارستان، قال لي وهو بين الصّحو والإغماءة: «تعبتُ يا سيّدي». كانتْ عيناه تنطفِئان، ويداه مرتُخيتَين، وجسده ذاويًا على الأرض، ذُعِرتُ، لقد كُنّا نتحدّث عن تحسين ظروف نقل الجُثث قبل قليلٍ، وكان يتحدّث بعفويّة وابتِهاج، فما الّذي حدَثَ له فجأة؟ في الحقيقة لم يكنْ هذا فجأة، لقد كان ساكِتًا عن مرضه طَوال الشّهرَين الأخيرَين، كان جسدُه الفتيّ والقويّ قد قاوم المرض كثيرًا، لكنّ الطّاعون لم يرحمْه، ظلّ ينخر في لحمه وعَظمِه، وهو يُكابِر على فِعله فيه حتّى وقع أمامي... حملناه إلى الدّاخل، كان يلفظُ فيما يبدو أنفاسَه الأخيرة، كان صدره يعلو ويهبطُ ببطء شديد، كأنّ ما تبقّى فيه من أنفاسٍ معدودة، كانتْ شَفَتاه تتحرّكان، اقتربتُ منه وهو مُسجًّى على سرير التّطبيب لأسمع، هتفَ بصوتٍ خفيضٍ جِدًّا: «لا تنسَني من دُعائِكَ يا سيّدي، يشهدُ الله أنّني أحببتُك... ويشهدُ الله أنّني أحببْتُ مصر، وأهل مصر، وأنّني سعَيتُ من أجل أنْ أُنقِذَ ما أستطيع إنقاذه.. إذا...» وتوقّف عن الكلام، وراحَ في غيبوبة... ارتَخى جسدُه تمامًا، وسقطتْ ذِراعاه على جانبه. «لم يمتْ» صرختُ في المُسعِفين دون وعي. «هَيّا... تحرّكوا... هاتوا أيّ شيءٍ لإنعاشِ قلبِه». أنشقناه بعضَ المُنبّهات، فصحا شيئًا فشيئًا، راحَ يفتحُ عينَيه بالتّدريج، وحينَ وقعتْ عيناه عليّ ابتسم، كانتْ عيناه سماءً بعيدة، زرقاء كأنّها تريدُ أنْ تحتضنَ العالَم، لكنّهما كانتا مُتعبتَين جِدًّا، ووجهُه ليلٌ كأنّه يريدُ أنْ يحنو على أهل الأرضِ كلّهم، هتفتُ به وأنا أقتربُ منه: «لن تموت... أنتَ قويّ... وستتعافَى بسرعة...». ازدادتْ ابتِسامته اتّساعًا هذه المرّة: «لم يبقَ الكثير يا سيّدي... كنتُ أتمنّى أنْ أحيا حتّى أرى بعينَيّ انتِهاء هذا الوباء، وأشاهدَ رحمة الله تنتشر على ربوع مصر... لكنْ يبدو أنّني لن أعيشَ حتّى تلك اللّحظة..». «لا تَقُلْ ذلك، الآنَ سننشّط لك القلب، علينا أنْ نُخفّضَ درجةَ حرارتك... وعليكَ أنْ ترتاح... ترتاح كثيرًا». «سأرتاح... سأرتاح اليوم يا سيّدي... أرى السّماء تُناديني... كنتُ أتمنّى أن...». وغابَ عن الوعي مرّة ثانية... سارعتُ بالضّغطِ جهةَ قلبِه لكي يفيق، سكبْنا الماء على وجهه، وضربْنا عليه ضرباتٍ خفيفة، وقرّبنا من أنفِه رائحةً مُنشّطة، فصحا... «ها قد عُدتَ يا شريف... لن تموتَ حتّى تفرحَ بانِجلاء البلاء عن مصر وأهلِها بإذن الله...». وابتسمتُ، وتابعتُ: «جُملتان لم تُكملهما يا شريف...». «لا أدري ماذا كنتُ أقول يا سيّدي». «كنتَ تقول في الأولى إذا...». «نعم، كنتُ أريدُ أنْ أقول إذا مِتّ فسامحني... حاولتُ أنْ أنقذَ معك أكبر قدْرٍ مُمكِنٍ من الأرواح، لكنْ ما باليدِ حيلة». بكيتُ. انحدرتْ دموعٌ بصمتٍ على خَدّي: «أسامحك؟ بل أنتَ مَنْ يجبُ عليه أنْ يُسامحني، لقد أقحمْتُكَ في هذا العمل حتّى أهلكْتُك». شددتُ على يده، كانتْ يده قد وهنتْ، كلّ شيءٍ يتغيّر يا ربّ في هذا الوباء، الطّاعون لم يدع شيئًا على حاله، مسحتُ دموعي، وأردفتُ: «والثّانية؟». «ماذا قلتُ يا سيّدي؟». «كنتَ تقولُ: كنتُ أتمنّى أن...». ابتسم وخفضَ طرفَيه، وهتف: «لا أخبِّئ عليكَ يا سيّدي؛ كنتُ أتمنّى أنْ أتزوّج ماريّة...». هتفتُ: «ماريّة؟». «نعم يا سيّدي، ماريّة». «ولكنّها صغيرة في السّادسة عشرة!». «وهل هذه السّنّ صغيرة يا سيّدي؟ يبدو أنّكَ تتذكّرها وهي ما تزال طِفلة، لم تكبر في ذاكرتكَ أبدًا، ثُمّ إذا كانتْ صغيرة هل أنا عجوز؟ أنا في أواخر العشرين من عمري يا سيّدي». «ولماذا ماريّة يا شريف؟». «لا أدري، لقد أحببتُها يا سيّدي... أنتَ تدري؛ الحبُّ ليس له تفسير... تخيّلْ أنّ كلّ الجواري الّذين رأيتُهنّ في مُنشأة القاضي الفاضل أيّام الهناءة لمْ يُحرّكْنَ في قلبي ما حرّكتْه ماريّة... إنّها...» عادَ إلى جُمَلِه المبتورة، وسقطَ في غيبوبةٍ ثالثة.

أيقظْناه، كانتْ عيناه تتحرّكان في محجريهما ببطء، كان يشدّ على أسنانه من الوجع، ويقبضُ بأصابعه الواهنة على ملاءة السّرير من الألم: «لو كان بيدي يا شريف، لزوّجتُها لك اليومَ قبلَ غدٍ». «آلآن يا سيّدي؟ لقد فاتَ كلّ هذا، لقد أكل المرضُ عافيتي، أنا راحلٌ اليوم، أعرفُ ذلك وأحسّ به، كلّ ما أريدُه هو أنْ تُزوّجها أنتَ لِمَنْ يستحقّ، دَعْكَ من أمّها، درّيّة...». وسقطَ في إغماءةٍ رابعة، تارِكًا جملته الأخيرة مفتوحةً على عادته.

عبرتْ طيُورٌ فُسحةَ السّماء، كانتْ تُحلّق على ارتفاعٍ مُنخفِض، حَطّ عددٌ منها على نوافذ البيمارستان من جهاته الأربع، كانتْ تُغنّي، نَظَر إليها المرضَى من فوقِ أسرّتهم، لم يسمعوا صوتًا جميلاً كهذا منذُ عهدٍ طويلٍ، ابتسموا، لقد عرفوا أنّ السّعادة تتحقّق في أبسطِ الأشياء، تمنّوا لو أنّهم كانوا طيورًا، الطّيور تُغنّي بالطّبيعة، ولديها سماءٌ لتحلقّ فيها دائمًا.

كنتُ لا أزال أسمعُ غناء الشّحرور الّذي وقفَ على شُبّاكنا، أيقظَ الصّوتُ العذب (شريف) ففتحَ عينَيه، كانَ يريدُ أنْ ينهضَ بجذعه ليرى مصدر الصّوت، لكنّ الألم منعه. «لا عليك يا شريف». «صوتُه جميل، سيُرافقني هذا المساء». «كيفَ تشعر يا شريف؟». «ماذا تقصد يا سيّدي؟». «المرض، كيفَ تشعر به؟». «أشعرُ يا سيّدي كأنّ رُمحًا طويلاً غاصَ في أحشائي... تلكَ الطّعنة المُفاجِئة، ضربَتْ ضربَتها القويّة، فأصابني اختِناقٌ شديدٌ، انحبستْ أنفاسي رغمًا عنّي، رحتُ أرتجف وما زلتُ أشعر بالاختِناق، ثُمّ لَمّا أردتُ أنْ أتنفّس وأُخرِجَ الهواء المحبوسَ في أعماقي جرّاء الطّعنة تَفلْتُ دمًا، ثُمّ هَبّتْ في أحشائي النّار، وفي مفاصلي، فلا أنا أقوى على الحَراك ولا على الكلام... هل الحُمّى تفعل ذلك كُلّه؟! مرّتْ فترةٌ لم أكنْ أستطيعُ الكَلام، ثُمّ لم أعدْ أُحِسّ بما يجري حولي، ثُمّ بدوتُ أنّني أميل إلى النّوم، ثُمّ صرتُ بالفِعل أغرقُ في نومٍ عميقٍ جِدًّا، فإذا استيقظتُ منه اكتشفتُ أنّني لم أنمْ إلاّ ساعة أو بعضَها، ثُمّ صار لِساني يتيبّس في فمي كأنّه قِطعة خشب، وصار تَحرُّكُه صعبًا، ثُمّ جفّ حلقي، ونشف ريقي فلم أعدْ أستطيع ابتِلاع شيءٍ، ثُمّ هذا القلب، هذه الأوجاع الكامنة فيه، هذه الأعصاب الّتي أشعر أنّها أفاعٍ تنهشُ رأسي، ثُمّ هذه الآلام في السّاقَين، ثُمّ هذا الدُّمّل الّذي يكبر تحتَ الإبطَين، ثُمّ هذه الحَكّة الّتي لا تتوقّف في أسفل البطن، وهذه الهرشة الّتي تُسيل الدمّ، ثمّ هذا الدّم الّذي ينفجر من فمي بين فترةٍ وأخرى في دُفُقاتٍ شديدة، ثُمّ... هل الطّاعون يفعل ذلك كلّه؟». «سأفصد لكَ الدّمامل، عليكَ أنْ ترتاح الآن ريثما يُعِدّون المشارط ويُعقّمونها». «لا يا سيّدي، لا أريدُ أنْ تفصِدوا لي شيئًا؛ إنّني هامةٌ عن قريب، لم تعدْ لي رغبةٌ في الحياة، أشعرُ أنّ النّهايات تأتي سريعةً دائِمًا، وها هي نهايتي أراها في نهاية هذا النّفق الطّويل الّذي مشيتُه، إذا متّ اللّيلة فادفنّي إلى الموضع الّذي كان يُصلّي فيه سيّدي القاضي الفاضل في المُنشأة. الأرواح تعودُ إلى موضع سُجودِها».

يرى الموتَى موتَهم، لم يمرّ عليه المساء، لم يُبقِ له الطّاعون شيئًا لم يطعنه بذلك الرّمح الّذي وصَفَه لي، لكنّه كان مُطمئِنًّا، كأنّما كان يريدُ أنْ يسير بخُطُواتِه الأخيرة إلى حتفه، كان بطَلاً من أبطال هذه الجائحة، لكنّ الأبطال يموتون أيضًا، والجوائح تموت، لم يكنْ عليه أنْ يعيشَ حتّى يرى انتِصار العافية على الدّاء، والحياة على الموت، والتّضحية على الأنانيّة.

شَيّعه أطبّاء البيمارستان جميعهم، لقدْ كانوا هم الطّيور الّتي غَنّتْ له على النّوافذ، نوافذ الروح العتيقة، كان يحلم أنْ يطير، وها هو قد فعل، بعضُ الأحلام تتحقّق بالموت.

دفنّاه تحتَ شجرةِ النّخل العالية، النّخلة الّتي كان تحتَها موضعُ السّجود، وكانتْ خلفَها المكتبة الضّخمة، أيّام كان القاضي الفاضل يستريح أحيانًا عندها من عمله الدّؤوب في كتابة التّاريخ. "

" (٦)

طالَ علينا الأَمَدُ

لم يعدْ بإمكاننا أنْ نحفر مزيدًا من القبور، الإفتاء يقول: «أَلْقُوا موتاكم في النّيل». النّيل يقول: «لم أعدْ أحتمل مزيدًا من الموتى». حَفّارو القبور يقولون: «ادفعوا ونحن جاهِزون. الرّفش على الأكتاف دائِمًا!».

هربَ الأمراء وتركوا النّاس أو ما تبقّى منهم يُواجِهون الطّاعون وحدهم، دبّتِ الفوضَى، لم يكنِ الطّاعون ينقصه فوضى جديدة، الطّاعون فوضَى. ونهشَ وحشُ الجوع كلّ حَيّ. أَكَلهم وطَحَنهم وأَحْرَقهم وذَرّ رمادَهم في الفَضاء. ثُمّ جَعَلهم زبدًا يسيلُ فوقَ الماء. جُنّ النّاس. الطّاعون جنون، الجوع جنونٌ أشدّ! الطّاعون فسحةُ الموت، الجوع هو الموت!

كانت العَرَبات تنقل في اليوم ما بين ثمانية آلاف إلى عشرة آلاف جُثّة، ليسَ بمقدور دولةٍ حتّى ولو كانتْ بحجمِ مصر أنْ تدفنَ كلّ هؤلاء في يومٍ واحدٍ، الموتَى يُؤكَلون، تُنبَشُ قُبورهم، ولا يُمكن أنْ تُعيّن الدّولة حُرَّاسًا للموتى في حين أنّ الأحياء لا يجدون مَنْ يحرسهم من الموت!

مَنْ عاشَ في القاهرة مثلي لا يُصدّق أنّ هذه هي القاهرة، كانت القاهرة تنعتُ بالنّاس نعتًا، لم تكنْ أسواقُها تخلو من الحياة في نهارٍ أو ليل، كانت الأزقّة ملأى بالصّغيرات اللّواتي يُطلِلْن من الشّرفات مُتهامِسات، والحواري ملأى بالأولاد الّذين يتراكضون ويَتصايَحون، والمساجد ضاجّة بالمُصلّين والعُلماء والدّروس، وحتّى المُناظرات والمُنافَرات، والجسور الّتي تربطُ ضِفَّتَي النّيل عامرةٌ بالعَرَبات الّتي لا تتوقّف عجَلاتُها عن الدّوران بالخيول الصّاهِلات والنّساء البائِعات والشّباب المُتسكّعين، كان أهل القاهرة يقضون حياتَهم في الشّوارع والأسواق أكثرَ مِمّا يقضونه في بيوتهم، وكانت الجدران تُردّد صدَى حوافر الخيل الناقرة على الأرصفة، ونِداء الباعة، وتكبيرات الأذان، وصِياح المُتقاضِين، وهتاف الدّلاّلين، ونهيق، وزعيق، ونقيق، وصفيق الدّوابّ والأبواب... واليوم؟ انقطعَ شِريان الحياة من القاهرة، وأقفرَ كُلّ هذا، وحَلّ السّكون الرّهيب، والصّمت الطّويل، كأنّ الضّجيج سقطَ في جُبٍّ عميق، وذاب في أغواره ولم يخرجْ من هناك أبدًا!! لم تعدِ الأقدام تعبر شيئًا، لا شيءَ هنا غيرُ الجُثث أو ما تبقّى منها، فقد بدأ النّاس بعدَ الجوعِ عهدًا لا يُمكن التكهّن به، ولم يكنْ وصفُه في الاستِطاعة!

الجوعُ الآن يزحفُ على الطّرقات، وحشًا يلتقم كلّ شيءٍ، ودُخانًا مسمومًا يدخل في كلّ أنف. والبوّابات لم يعدْ يعبرها أحدٌ لا داخِلاً إليها ولا خارجًا منها، كان الجوع يقفُ على أوّل البوّابات، مَنْ دخَلها اختَفى، وكانَ بعضُ الّذين لا زالتْ في أجسادهم بقيّة قُوّة من الأثرياء والمُوسِرين يهربون من هذا الوحش الفاغر فاه في كلّ اتّجاه كأنّهم فِئرانٌ مذعورة، هربَ الأمراء، وتَبِعَهم الأعيان، ثُمّ التُّجّار والأثرياء، هربوا من الموت إلى القُرى البعيدة، لا يريدون أنْ يسقطوا في فَخّ الجوع، كان فَخّ الجوع أقسى بكثيرٍ من فَخّ الطّاعون، ولئن كانتْ نِسبة النّجاة من الطّاعون ضئيلةً جِدًّا إنّ نسبة النّجاة من الجوع كانتْ مُستحيلةً كلّ الاستِحالة.

الجميع يهربون، مَنْ كان قادِرًا على الهرب، الجنود، القُضاة، النّساء، اللّصوص، المُجرمون، البُرآء... آخرون... كان الصّوت قد انكتمَ في الأحياء، كأنّما سُحِبَ منه الهواء تمامًا فلم يُصدِر أيّ نأمة، وكان النّاسُ القادِرون على الهرب يركضون في وسطِ هذا الصّمت وهم لا يسمعون شيئًا مِمّا حولهم، فقط يسمعون ذلك الصّوتَ في داخلهم الّذي يحثّهم على الجري بالرّوح بعيدًا... ومِمّ يهربون؟ من الجوع. لقد بدأ اصطِيادُ النّاس لأشباههم من أجل أَكْلِهم حتّى لا يموتوا من الجوع!!

ولقد أتى زمنٌ من الخوف لم تَدْرُجْ فيه قَطاةٌ على الأرض، ولم تحجلْ فيه حَجَلةٌ على الطّريق، ولم تمشِ فيه رجلٌ على السّبيل، وانقطَع صوتُ الأذان من المساجد، بعدَ أنْ كان وحده الصّوت في آبار الصّمت المردومة.

ولقد دبّ الخوفُ في سائقي العَرَبات، ولم يبقَ منهم إلاّ مَنْ كان ذا قلبٍ شُجاع، فراحَ يجوبُ الدّيار يبحثُ عن الموتى لينقل رُفاتهم إلى مثاويهم الأخيرة، غير أنّ ماريّة لم يلتفتْ قلبُها إلى التّطوّر الّذي أدخله الطّاعون، أصبحَ موتى الطّاعون يقلّون، وصار يرتفع عدد الموتَى من المأكولين، ماريّة لم تخفْ، لم تتراجعْ، ولم يُثْنِها الأمر عن مواصلة عمَلِها، لقد كانتْ فارسةً تليقُ بفارسٍ مثل شريف. الآن أتذكّره وتدمع عيناي على رحيله.

ومع انتشار صَيّادي الآدميّين في الطّرقات إلاّ أنّ الدّولة ألزمتْ سائقي عَرَباتها بمُواصلة التّجوال في شوارع القاهرة المُقفِرة للبحثِ عن الموتى ونقلهم، ولِذا لم يُراعُوا بعدَ إجبارهم على هذا حُرمةً لميّت، فقد كانوا يحملون الجُثث على ظهورهم كأنّها حقيبةٌ أو جُوال من الشّعير العَفِن، ويرمونها في قعر الصّندوق رميًا دون مراعاةٍ لرأسٍ ترتطم بحافّة الصّندوق، أو كتفٍ تنخلعُ من شدّة السّحب، وكان سائقُ العربة يرمي

الكتف المخلوعة بعيدًا، ويحمل معه الجُثّة الثقيلة، وكان رُبّما يُجهز على رأسٍ ضحيّةٍ فيُتمّ إزالتها عن العنق حتّى لا تُتعبه في الجرّ أو الرّمي. غيرَ أنّ هؤلاء مع قلّة أدبهم مع الموتى انقطَعوا بعدَ فترةٍ وجيزة، فقد تَمّ اصطِيادُهم جميعًا، كانتْ أصواتُ العَجَلات، وصهيل الأحصِنة، وشتائمهم المُتكرّرة المُتطايرة في الفَضاء هي الّتي دلّتْ الأفواه الجائعة عليهم.

ينطبقُ هذا علينا نحن الأطبّاء، بل كُنّا نحنُ المُستهدَفين في هذا بالدّرجة الأولى، وسأُحدّثكم في هذا الشّأن بالذّات بما لا يُمكن أنْ يُصدّقه عقلٌ مهما اشتطّ به الخيال.

غير أنّ الجُثَث كانت تهزأ بناقليها المُعربِدين، وبحَفّاريها المُحشّشين، وبحامليها الأصحّاء، تقول لذلك الجسد الّذي لم يسْكنْه الموتُ بعد: «لقد كُنّا مثلك، ويومًا ما ستكونُ مِثْلَنا. ما تفعله بنا الآن، سيفعله أحدُهم بك عمّا قريب». وكانت الجُثَث الأخرى الّتي تسمع هذه العبارات تغرقُ في الضّحك حتّى تستلقي على ظهورها! لكنْ مَنْ يسمَع صوتَ الجُثَث؟!

كان الطّاعون قد بدأ يتخلّى عن دوره بالتّدريج، ولكنْ ليسَ لِصالح العافية، بل لِصالح موتٍ من نوعٍ آخر، أشدّ وأنكى، ولَئِنْ كان الطّاعون يحمل حربةً وينظر في الوجوه ثُمّ يُغمِدُ تلك الحربة في الصّدور، إنّ الجوع كان مخلوقًا خُرافيًّا ضَخم الجُثّة، أعمى البصر، يحمل بَلْطةً ويمشي بقدَميه العاريتَين فوقَ الجُثث ويُقطّعها إربًا إربًا، لكنْ لِمَ يفعل ذلك؟ هل يموتُ الميّت؟

لم يتركِ الموتُ لي صاحِبًا. قضَى أكثرُهم بالطّاعون، أفاضلُ النّاس كانوا أغراضًا لهذا الموت فاجْتاحهم، كُنّا مُجتمعين في ليلٍ هنيء، نتجاذب أطرافَ الحديث، ونضحك، ونسمر، ونتذاكر المعارف، ونشربُ، ونلهو، ثُمّ سقطتْ علينا سِهامٌ من السّماء، فتوزّعتْنا، فأصابتْ أكثرنا فقضى، وما نجا إلاّ القليل.

ولمّا رأى بعضُ أهل الذِّكر ما حلّ بأقربِ النّاس إليهم، عرفوا أنّ ما أصابَ النّاسَ سيُصيبهم، فكتبَ في ذيل يوميّاته: «كنتُ فتًى قويًّا، أذرع الأرض، وأجوسُ الدّيار، وأحملُ المتاع، وأشتهي النّساء، ثُمّ ها أنا أعيشُ أيّامي الأخيرة ضعيفًا، لا أستطيع أنْ أخطو خطوةً أو اثنتَين، ولا تقوى ذراعاي على حمل نعلي، ولم تعدْ لي رغبةٌ في النّساء، ولا لهنّ رغبةٌ بي، كأنّني لا شيء، كأنّ ما كنتُ فيه لم يكنْ».

واشتدّ عجز النّاس وعجزنا نحنُ عن دفنِ الموتى، وباتَ أهل الميّت مع الميّت في المقبرة ينتظرون دورَهم ليُحفَر قبر ميّتهم، ولم يتوقّف الحَفّارون عن حفر القبور حتّى في اللّيل، ولم تسلم الجُثث من أنياب الكلاب الضّالّة الّتي لم يتمكّن الجوعى من اصطِيادِها، فراحتْ تنهشُ تحتَ مرأى أهل الميّتِ أطراف الموتى، ولا يستطيعون لها دفعًا ولا معها حِيلة لشِدّة ضعفهم، وخُوار قُواهم، كانتْ عنق الميّت تتقطّع تحت أنياب الكِلاب أمام النّاس الخائرة على الأرض ولا أحدَ يقوَى على القِيام لِنَهْرها، ولقد عرفتِ الكِلاب ذلك، فكانتْ تأكل باطمِئنان، وتمزّق أفخاذ الميّت دون أنْ تخشَى أهله ولا نظراتِه البائسة.

ومع الجوع وضعف القوّة وكثرة الجُثث، راح المُقيمون في القبور يرون أشياء غريبة، أقسمَ كثيرون مِمّن وفدُوا إلى البيمارستان أنّهم رأوا شياطين تأكل الجُثَث، ومخلوقات غريبة تحاول انتزاع حناجرهم بمِذراة من حديدٍ في أيديها، ووحوشًا بلا عيون تبتلع الآدميّين بلقمةٍ أو اثنتَين، وأنّهم باتوا ليلتهم تلك مذعورين، يرتجفون من الرّعب، وأنّ بعضَهم هربَ وتركَ جُثّة قريبِهِ للشّياطين تفعل بها ما تشاء!!

أمّا النّيل، فصار سيرُه بطيئًا لكثرة ما أُلقِي فيه من جُثثٍ لموتى لم يسأل عنهم أحدٌ، ولانتِفاخ تلك الجُثَث مع وجود مُستنقعات القصب، ازداد بُطء النّيل، وكثر حولَه الصّيادون، وكانوا يرون في هذه الجُثَث النّافقة المُنتفِخة فرائسهم المُشتهاة!

بلغ عددُ الموتى الّذين أعلن عنهم ديوان مصر ثمانمئة ألفِ نسمةً، إنّه رقمٌ ربّما يزيدُ عن نصفِ عدد سُكّان البِلاد كلّها. هل ينزل بمصر ما نزل بقومِ عادٍ، فنهلكَ حتّى لا تبقى مِنّا باقية؟! يا ربّ ما الّذي أوصلَنا إلى هذا؟!

أنا باقٍ في مصر، لن أتركها حتّى يرتفع عنها هذا الوباء، كثيرون يئسوا من رحمة الله، يقولون: طالَ علينا الأمد، أما من رحمةٍ بعدَ نقمةٍ؟! أنا أرى أنّ رحمة الله قد حلّتْ مذ تزلزلت الأرض، وأنّها قريبةٌ، وأنّ مِصر ستعودُ كأيّام الفتح الأولى، أشدّ ما تكون بهجةً ورونقًا.

مع آلاف الموتَى الّذين رأيتهم، لم أجدْ معنًى حقيقيًّا للحبّ إلاّ في نظرات المُودِّعين الأخيرة، كأنّ الأحياء لا يُدركون قيمة الرّاحلين إلاّ حينَ تحلّ المحن بهم، أيّها النّاس؛ أنْ تهبوا أحبّاءكم أضاميم الورد في حياتهم خيرٌ من أن تضعوها على قبورهم بعد أنْ يرحلوا! ❞

❝ (٧)

بائعةُ الورد

لقد انضمّتْ إلى صفوف صيّادي البشر، تحوّلتْ إلى امرأةٍ أخرى، ليسَ لها وجهُها القديم، لم تعدْ تنهضُ في عينَيها العميقتَين غيرُ آلافِ الذّئاب الّتي لا تعرفُ الرّحمة، نحتاجُ إلى آلاف القُرون لنفهمَ الإنسان!!

كانتْ تصيدُ البشر، صَيْدُ البشر جاء في أعقابِ رحيلِ وحشِ الطّاعون، كان الطّاعون في تلك الأيّام يُلملِمُ أذياله، وينسحبُ من السّاحاتِ رويدًا، لا أحدَ يعرفُ بالضّبطِ كيفَ جاء، ولا كيفَ يرحل الآن!! أمّا الجوع الّذي أعقبَه فكان طاعونًا أشدّ، ولم أدرِ أنّ الجوع يفعل هذا كلّه إلاّ بعدَ أنْ عاينْتُه.

كانتْ مُنشأة القاضي الفاضل قد تحوّلتْ إلى مقبرةٍ جماعيّة، عشرات الألوف دُفِنوا في حدائقها، لم يكنْ أحدٌ من هؤلاء الموتى المَرميّين في حُفَر كبيرة يدري أنّه فوقَ هذه الحُفرة العِملاقة الّتي رُمُوا فيها كانتْ تُدار الكُؤوس وترتفع الضّحكات، وتُمدّ الموائد، وتُغنّي المُغنّيات، وتصدح بالألحان ألفُ حنجرة!! مَنْ يستطيع أنْ يُخبِر هذه العُيون المُطفأة الّتي عميتْ من الطّاعون في آخر حياتها، والّتي فقدت السّمع، أنّها الآن تملأ أفواهها من ترابٍ كان يمشي فوقَه قبل أربعِ سنواتٍ فقط أصحُّ النّاس، يلبسون أزهى الثّياب، وينظرون إلى أجمل الزّهور، ويستمعون إلى أعذب الألحان، ويملؤون أفواههم بأشهى المأكولات وأطيبها!

بدأتُ أبحثُ مع رئيس دواوين مصر أمرَ إغلاق المُنشأة أو رَدْمها، أو تسويرها وجعلها قرافة، فاستمْهلني حتّى ينظر في أمرها، وكان لا يزال فيها عددٌ من المُتطوّعين، وقد فرّ عددٌ آخَر، ولم يكنْ أحدٌ بعدَ اليوم ليقفَ في وجه فِرارهم، فإنّ الشّرطة والوالي ورؤساء الدّواوين وأمير الجند كلّهم قد باتوا عاجزين عن أنْ يفعلوا شيئًا. أمّا الهاربون فقد اصطادَهم صَيّادو البشر، وذَبَحُوهم وأكلوهم. ولَمّا وصل الخبر إلى مَنْ تبقّى في المُنشأة آثر أنْ يموت فِيها جائِعًا عاجِزًا مريضًا بالطّاعون على أنْ يقع في أيدي هؤلاء المُتوحّشين، ولكنّهم لو علموا ما يُخبّئه لهم الغيب لَفَرُّوا من لحظتهم لا يَلوون على شيء!!

ولَمّا لم يجدِ النّاس ما يأكلون أكلوا ورقَ الشّجر، ثُمّ عَزّ ذلك على بعضِهم فأكل رَوْثَ الدّواب وشَرِبَ بَوْلَها، ولَمّا عَزّ ذلك عليهم أكلوا التّراب، ولَمّا عَزّ عليهم التّراب، تركوا أنفسهم تموت بين يدَي خالِقها، ولقد بدأ النّاس في المُنشأة يموتون من الجوع والطّاعون، ولم نعدْ ندري - نحن الأطبّاء الّذين عَجِزنا عن أنْ نُعالِجَ هذه الأعداد كلّها، بعدَ أنْ مات أكثرُ من نِصفنا أيضًا – إنْ كانَ مَنْ يموت، ماتَ جوعًا أم ماتَ مطعونًا!!

شيءٌ من المجهول، من القَدَر الغامض كُتِب على الناس أن يعيشوه... المرض جُزءٌ من هذا القَدَر، لكنّه لم يكنْ كُلّ شيءٍ، المرض وجه من وجوه الموت، الموت الذي هو اليد الّتي تُحرّك تلك الحياة وشخوصها في كل مكان؛ ساحات البيوت، وساحات الحرب، وساحات الجامع، وساحات دور البغايا على حد سواء!!

لقد صارتْ تُسمَع أصواتٌ تقول: «مَنْ يشتري جسدَ ابنتي مُقابل كِسرةِ خُبز؟»، بل صارتِ الصبيّة تقول: «مَنْ يستحلّ جسدي مُقابل نصف رغيف ولو كان يابِسًا...؟». ولم يجدْ ربّ الأسرة مَنْ يشتري منه أبناءه، فاعتذر إليهم بالموت، وقَضى معهم في مكانٍ واحدٍ. ولقد دخلتُ بيوتًا رأيتُ فيها أُسَرًا بأكملها قد ماتتْ، وبدا من إحدى هذه المَوْتات أنّ ربّ الأسرة طلبَ منهم أنْ يَستلقُوا جنبًا إلى جنب، ويُمسكَ كلّ واحدٍ بيد أخيه أو أخته، كي يُعطي مَن فيه بقيّةٌ من حياةٍ جُزءًا من هذه البقيّة للشّخص الّذي يُمسك بيده إلى جانبه. ولربّما عاشوا بعضًا من النّهار زِيادةً على ما كانوا يتوقّعون، لكنّهم حين ماتوا، ماتُوا مُتماسِكين على هذه الهيئة... ولقد رأيتُ جُثُثًا أخرى قد مرّ عليها أكثر من شهرَين أو ثلاثة، لم يطرق بابَها أحدٌ، وقد بَلِيَ اللّحم ولم تبقَ إلاّ ثيابٌ رَثّة على كومةٍ من العِظام!!

وعرفتُ في حَيّنا، حيّ زويلة، فتاةً كانتْ تبيعُ الورود في السّاحات، وقد كانتْ يتيمةً ولكنّها ذكيّة، وعاشتْ بما كانتْ تبيعُه من تلك الورود، ولعلّ الوردَ جلبَ لها القليلَ من المال مع الكثير من السّعادة، وكانتْ ورودُها تهبُ البسمة للقلوب العاشقة، ولربّما تُؤلّف بين حبيبَين، وهذا ما كانتْ تتخيّله، بل ما كانتْ تودّ حدوثه. واليوم رأيتُها مُلقاةً في الشّارع لا يكترثُ لَها أحدٌ، ويبدو أنّها لم تُؤكَل حتّى الآن لأنّ صيّادي البشر لم يهتدوا إليها بعدُ، وخِفتُ بالفِعل أنْ تتناهَبَها أفواهُهم، فترجّلتُ عن الأبلق، وحملتُها بين يدَيّ، وكانتْ لا تزال طريّة الجسد، ويبدو أنّها ماتت اللّيلة الفائتة، وأردفتُها على ظهر الحصان، وسِرتُ به وبِها وأنا أتلفّتُ حولي في كلّ خُطوةٍ خشيةَ أنْ يُعثَر علينا، إلى أنْ دخلتُ بها بيتي، ولقد أقفرَ هو الآخَر، وصار مُوحِشًا، فوضعتُها على الأرض في ساحة الزّهور، وتأمّلْتُها مُلقاةً بلا حِراك، وتخيّلْتُها مُفعمةً بالحيويّة أيّام كانتْ تصيح في

السّوق: «يا وَرْد مِينْ يِشتريكْ؟». وكنتُ أراها وردةً تبيع الوَرْد، واليوم لم تعدْ تحمل في يدها الّتي اسودّتْ بالموت غيرَ العدم.

أَيُّها الوَرْدُ الّذي ماتَ صَغِيرًا وَهُوَ لَمّا يتفتّحْ... طَعْنَةٌ فِي القَلْبِ تَجْرَحْ... لا تَبِيْعِي الوَرْدَ فَالوَرْدُ مَعَ المَوْتِ هُوَ المَوْتُ... وَهَذَا جَسَدٌ غاضَ بَهَاهُ وتَقرَّحْ... كَيْفَ تَفْرَحْ؟ كانَتِ العَيْنانِ فِيها بَهْجَةَ البائِسِ والحُلمِ المُجَنَّحْ... وَهُمَا الآنَ ظَلامٌ حالِكٌ.. لَيْسَ فِيها لِبَقايا النُّوْرِ مَلْمَحْ... وَنِداكِ العَذْبُ هَذَا سَكَنَتْ أَوْتارُهُ اليَوْمَ فَمَا عَادَتْ لِتَصْدَحْ...

لم يُعنِّي أحدٌ في الحَفْر، كنتُ وحدي وجسدُها المُسجّى قريبًا منّي. شريف مات، وماريّة ما زالتْ تُقاتِلُ بعَرَبتِها رغم آكلي لحوم البشر، وسالم ما زال يُقاتل هو في البيمارستان الرّئيس، وخليل اختفَى، لا ندري... فجأةً لم يعدْ يأتي إلى البيمارستان، قال سالم أمس: إنّني لم أره منذُ أسبوعَين، ربّما مع أبيه اللّحّام يُجري بعضَ العمليّات الجراحية، أو يقوم بِفَصْد الدّمامل، أو بإعطاء الدّواء لمن يحتاج... ولِذا حفرتُ القبر وحدي، استغرقني ذلك عصر اليوم إلى أنْ غربتِ الشّمس، لم تكنْ لِتَنتظر هذا الوقتَ كلّه إلاّ لكي تحظَى بكرامة دفنها في تلك الحُفرة حتّى لا تتَناهش الوحوشُ الآدميّة جسدَها البريءَ. دفنتُها تحتَ شجرةِ البان، هي الأخرى لا تدري وهي تستقرّ في القاع أنّنا أنا ودرّية جلسْنا أماسيّ هنا نتحدّث، وهي لا تدري كذلك أنّ ماريّة تعلّمتْ عند هذه الشّجرة بالذّات كيفَ تصنع الأدوية من الأعشاب، الأعشاب الّتي زرعتْ هي مُعظَمها في هذه السّاحة قبل أكثر من عام... الآن انظروا إلى هذا الثّرى، لكم أنْ تتخيّلوا أنّ هذا الّذي ترونه من الجدب كان يومًا ما قريبًا لا تُرى منه ذرّة واحدة لكثرة ما فيه من الورد والزّهر والأعشاب والنّباتات الطّبّية، وذوات الشّذى والعَبَق!

حينَ أَهَلْتُ آخر رفشٍ من التّراب على جسدها المطعون، ورجعتُ إلى الوراء خُطوتَين، نظرتُ إلى القبر، شيءٌ ما تخيّلتُه يتحرّك، أعرفُ أنّه ليسَ حقيقيًّا، وعليّ الانصِراف من هنا بسرعةٍ قبل أنْ تزداد هذه التّهيّؤات حتّى يخلتط الوهم فيها بالحقيقة، بالفعل تركتُ الرّفش من يدي، وأدرتُ ظهري، ومضيتُ باتّجاه الدّرجات المُفضِيات إلى الطّابق العلويّ، غير أنّني سمعتُها من تحتَ التّرّاب تقول: «قد كنتُ أخرج إلى الشّارع أبيع الورد ليس من أجل أنْ أؤلّف بين قلوب العاشقين يا سيّدي، بل من أجل أنْ أمنع دمعةً ألاّ تسقط على خَدّ أخي الصّغير في المساء إذا قال لي: أنا جائع».

كان الموتُ إذا نهشَ أرواح البشر لم يسألْ عن أسمائهم، ولا عن أعمارهم، ولا عن طبقتهم في المُجتَمع، ولم يكنْ يعنيه مِن هذا الّذي سينهشُ روحَه إنْ كان يحمل وسامًا على صدره في حربٍ خاضَها أو نُدوبًا في الظّهر من جرّةِ ماءٍ حمَلَها سَقّاءً في السّوق، لم يكنْ لِيُفكّر قبل أنْ يقضمَ تُفّاحة هذا الإنسان ما إذا كان أبيضَ أو أسود، له أبناءٌ سيُصبحون أيتامًا من بعده أو ليسَ له. ولم يكنْ ليستجيبَ لطلبِ هذا المنهوشةِ روحُه أنْ يُمهِله قليلاً لكي يتوب من آثامِه، أو يُمهِلَه ليشربَ آخرَ الكأس حتّى لا يموتَ عطشًا!!

صرتُ أسيرُ في الطُّرُقاتِ حَذِرًا، كان الأبلقُ صديقي الوفيّ، يسمعُ من مسافةٍ بعيدةٍ، وكان يُحذّرني بأنْ يُسمّر رِجلَيه في الأرض ويلفّ عنقه، فإذا لفّها جِهةَ اليمين عرفتُ أنّه يُريدُني أنْ ألتفّ إلى تلك الجِهة، أو العكس، وذلك حتّى لا أقعَ لقمةً سهلةً في أيدي صَيّادي البشر. وكان الأبلق من الذّكاء بحيثُ لا يصهل في شارعٍ مهجور، ولا يُصدِر أيّ صوتٍ في حَيّ ليسَ فيه أحدٌ، وإذا مشى على أرضٍ مرصوفةٍ بالحِجارة مَشى مُتمهّلاً حتّى لا يُسمعَ وقعُ أقدامه، فيدلّ ذلك الصّيّادين علينا، وصِرتُ فيما بعدُ أضعُ في حوافره بعضَ القِماش حتّى لا يكونُ لوَقعها صوت. وكان إذا رأى خطرًا يسبقني إلى ذلك بزمنٍ كبير، فعيناه حادّتا البصر، وكان يُغيّر وحده الطّريق، ولا أدري كيفَ كان يراهم من هذه المسافة البعيدة، ولا كيفَ يعرفُ أشكالهم، ويُميّز بينَ من كان منهم صَيّادًا بشريًّا، ومَنْ كان منهم إنسانًا عاديًّا، ألجأتْه الظّروف إلى الخروج من بيتِه في هذه الأوقات الخطيرة! ❞

❝ (٨)

آكِلو لحوم البشر

أشباح، كائِناتٌ بين البشر والوحوش. ليسوا بشرًا خالِصين، إنّهم أنصافُ بشرٍ أو أشباه، وجوههم آخِرُ ما تراه إذا رَماكَ القَدَرُ بين أيديهم؛ لأنكَ لن تبقَى بعدَها حَيًّا. ينتقلون كالرّيح، يُبصِرون في الظّلام كما يُبصِرون في النّهار، يظهرون فجأة. ويختفون فجأة. يبدو الحَيّ خالِيًا منهم، فإنْ عبرتَ زاويةً من زواياه انقضّوا عليك، ليسَ لهم صوتٌ، إلاّ ذلك الصّوت الّذي يُطلِقونه فرحًا عندما يظفرون بلحمِك.

كان الطّاعون سريعًا وخَفِيًّا ولا يُبقي مِنْ جسدِ مَنْ حَلّ فيه باقية، وكذلك كانوا، إنّهم طاعونٌ أشدّ، أخرجَهم الجوعُ من جُحورهم، واضطُرّهم إلى أنْ ينزعوا من أرواحهم بعضَ الصّفات الآدميّة، ويُركّبوا بدلاً منها صِفاتٍ أخرى بهيميّة أو حَيَوانيّة. لا يظهرون في كلّ عصرٍ وفي كلّ مصر، بل لهم أوقاتُ ظهوراتٍ مُحدّدة. هم شياطين، ألبسوا أنفسهم قامةَ الآدميّين وانتشروا في الشّوراع، أو هم صورة لظهورات يأجوج ومأجوج، ولِذا أعتقدُ أنا، أنا أعني عبد اللّطيف البغداديّ، أنّهم يحتاجون إلى ألفِ سنةٍ حتّى يظهروا مرّة أخرى لأسباب مُشابِهة، نحن الآن في عام ٦٠٠ للهجرة، سيظهرون إذا قَدّر الله لهم ذلك في عام ١٦٠٠ للهجرة، قبل ذلك بسنة أو بعدَها بسنة. إنّ الظّروف الّتي تُطلِعهم لا يبعثُها الله على البشر إلاّ كلّ ألف سنةٍ أو ألفَي مرّة. على البشر أنْ ينتظروا طويلاً حتّى يروا هذا الصِّنفَ من المخلوقات.

سيأخذون بالتّشكّل في بعضِ الأوقات، سيتشكّلون في هيئةِ أبيكَ أو أخيك أو أمّك، هذه الّتي تفعل ما تراه وتظنّه من الخوارق، إنّها تفعله على الحقيقة، وهي أمّك، ولكنّها ليستْ كذلك تمامًا؛ إنّها من الخارج أُمّك ومن الدّاخل شيطانٌ لعين!!

لا يشبَعون، يأكلون كلّ شيءٍ حتّى مُخّ الرأس وماء العَظم وكُبّة الشَعْر، ولا يشبعون، أجسادُهم نحيلة، وبطونهم ضامرةٌ، وشُعورهم تتدلّى من فوقِ فرواتِ رؤوسهم مُتهدّلةً على أكتافهم، ولهم نظرةٌ مُرعِبة، تراها كما قلتُ لكَ من قبلُ مرّةً واحدةً، لأنّها المرّة الّتي تسبقُ النّهاية، لم يُفلِتْ من قبضتهم أحد، إلاّ في النّادر جِدًّا من الحالات. يستخدمون الخطاطيف والكلاليب لاصطِيادِ فرائسهم، فرائسُهم كلّها من البشر، لأنّ الكِلاب والقِطط والفِئران وسائر الحيوانات كانتْ قد ماتتْ منذ زمنٍ بعيدٍ. يحفرون حُفرًا في الشّارع، ويُعيدون ردمها فتظهر كما لو أنّها سليمةً لم تُمسّ، فإذا مشى فوقَها الصّيد وقعَ فيها، فتُمسِكُ بذراعه أو تنشبُ في عنقه كلاليب، تُغلِق عليه، وتنغرز في جسده، فلا يستطيعُ فِرارًا، فيُهرَعون إليه، يحملون سكاكينهم المشحوذة فيُقطّعونه وهو حَيّ، ويشوونه وما زالَ فيه رَمَق في الحفرة نفسها، ويأكلونه. ثُمّ يستعدّون لصيدٍ آخَر!!

ولقد تعاظَمَ عددُهم، حتّى صارَ كلّ مَنْ لا يجدُ طعامًا يسعى إلى أنْ يصيدَ إنسانًا، فإذا كان رجلاً قادِرًا على الحفر في الطُّرُق، والتّربّص في الزّوايا فعلَ ذلك، وإنْ لم يكنْ قادِرًا لجأ إلى الحيلة، واستِدراج ضحيّته بالقول المعسول ودفع الأموال، وكان أكثرُ من يلجأ إلى الحيلة هُنّ النّساء.

ولقد شاعَ أمر صَيّادي البشر وآكلي لحومهم في القاهرة، حتّى صارَ بعضُهم يصيدُ بعضَه إنْ لم يجدْ ما يأكُله.

صار الوصول بالأبلق إلى البيمارستان خطيرًا، وكان يُمكن أنْ أقعَ فريسةَ هؤلاء في أيّ لحظةٍ، ولِذا صِرتُ أخرجُ في الصّباح الباكر قُبَيل طلوع الشّمس، فأكثرهم يكون نائمًا في هذا الوقت، وأبيتُ تلك اللّيلة أو اللّيالي في البيمارستان ولا أعودُ إلى بيتي إلاّ قُبيل شروق الشّمس حتّى أتجنّب بقدر ما أستطيع الوقوع في أيديهم. وقالتْ لي ماريّة ونحن في البيمارستان مرّة: «إذا شِئتَ يا سيّدي رافقتُكَ في ذهابِكَ وإيابك حتّى أُحافِظَ على حياتك، وإنّني أقطعُ بالسّيف وأطعنُ بالرّمح مثلَ أيّ فارسٍ». فضحكتُ من قلبي: «امرأةٌ تحمي رجلاً!». «وما الغريبُ في الأمر؟ لا تستقلّ بي يا سيّدي، وأنا أعرَفُ بالدّروب منك». فضحكتُ أكثرَ هذه المرّة وسألتها: «وأنتِ ألا تخافينَ على حياتكِ منهم؟». فردّتْ بِثقةً تستقرّ مثل ماءٍ صافٍ في عينَيها الوادِعتَين: «إنّ حياتَك أهمّ من حياتي يا سيّدي، يُمكنك أنْ تجدَ ألفَ امرأةٍ مثلي، لكنّنا لا يُمكن أنْ نجدَ في مصر كلّها مثلك». ودخَلَني الزّهو قليلاً، فشعرتُ بالغِبطة في زمن الموت، وبالفرح في طوفان البُؤس: «ولكنّنا إذا فَقَدْناكِ فقدْنا فارسةً يعزّ نظيرُها». «سيّدي، أنا أعرفهم، أعرفُ هيئاتهم، وأعرفُ أساليبهم». سألتُها مُستغرِبًا: «حَقًّا؟ متىّ عرفتِ ذلك كلّه؟». «أمّي واحدةٌ منهم». «درّيّة؟». «كما تدّعي». «كما تدّعي أنّها واحدةٌ منهم؟». «لا، كما تَدّعي أنّها أمّي». «أليستْ أمّكِ؟». «ليسَ هذا وقتُ التّفتيش عن الماضي، لكنّني أقول إنّها صَيّادةُ بشرٍ مثلهم، وإنْ كانتْ تعمل بأسلوبها الخاصّ، إنّها تصيدُ لتبيع، وهم يصيدون ليأكلوا». «ولِمَ تبيعهم؟». «ليُؤكَلوا يا سيّدي».

«أهي بحاجةٍ إلى المال؟». «كلاّ يا سيّدي، يُمكنها أنْ تعيشَ بقليلٍ منه». «فَلِمَ إذًا تفعل ذلك؟». «إنّها تُسمّي نفسَها مَلاكَ الرّحمة». «ماذا تعني بهذه التّسمية؟». «تعني أنّها تُخلّص النّاس من آثامهم بأكلهم أو بموتهم والقَضاء عليهم». «لكنّها تُشبِعُ آثامَ الآكِلين». «شهوتُها أنْ ترى النّاس يموتون، تقول دائِمًا: الموتُ أرحمُ بالإنسان وبالأرض، أمّا الإنسان فيتخلّص من حَياته البائسة، وأمّا الأرضّ فتتخلّص من شرور هؤلاء النّاس، وتزداد خِفّةً بموتهم فلا يعودون يشغلون فراغًا ولا يعودون يضغطون عليها بأقدامهم، ويُثقلونها بأجسامهم المُترهِّلة». «إنّها على هذا مريضة». «المريضُ من هذا النّوع لا

يعترفُ بأنّه مريضُ، إنّه يرى نفسَه منقذَ العالَم، وأنّه أصحّ هؤلاء البشر البُلَهاء، بل هو يعتبر نفسَه نبيّهم الّذي سيُنقذِهم من ضلالاتهم، ويُخلّصهم من شرورهم!!».

أصدرَ مجلسُ الإفتاء في مصر أمرًا بقطع رأسِ كلّ صَيّادٍ من آكلي لحوم البشر، أو إحراقهم إذا قُبِضَ على عددٍ منهم، ولقد أدّى هذا إلى فتنةٍ عظيمةٍ، إذ إنّ أصدقاء المقبوض عليهم كانوا يتسلّلوون خلفَهم إلى السّجن قبل تنفيذ الحُكم فيهم، لا لينقذوهم، بل ليشهدوا القَضاء عليهم، فإذا قُطِعتْ أعناقهم تناهَبوا الجسد والرأس، وخطفوهما وهربوا بهما إلى مأمنٍ لكي يأكلوه على مَهَل، وإذا أُحِرقَ أصحابهم، فَرِحوا لأنّهم كُفُوا مؤونة شيّهم بعدَ ذبحهم، فكانوا يهجمون على أجسادهم المُحترقة قبل أنْ تتفحّم، ويتخطّفونها، ويتلذّذون بأكل أعضائهم المَشويّة!!

كان بإمكان الرّجال أنْ يُدافِعوا عن أنفسهم إذا ما هاجَمَهم الصّيّادون، وقد تكون لديهم فرصةٌ للهرب، ولكنّ المأساة كانتْ تحدثُ مع الأطفال، أولئك الّذين لم يكنْ لهم حولٌ ولا قُوّة، ولذلك خافَ كلّ ربّ أسرةٍ على أولاده، وألزمهم أنْ يبقوا في البيت لا يُغادرونه ولو ماتوا من الجوع.

وظلّ النّيل على حاله، لم يرتفعْ مقياس الماء فيه لثلاث سنواتٍ مُتتالِياتٍ، فضربَ ذلك الزّروع والضّروع، وماتَ الخلقُ من الجوع، ولم يجدوا ماءً ليشربوا، فشقّقَ العطشُ حلوقهم، ويبَّس بلاعيمهم، فكانوا في بلاءٍ وجَهدْ لا يُطاقان. وعَلّم الجوع أكثر النّاس الأَثَرة، ولم يكنْ فيهم من الإيثار إلاّ مَنْ أرادَ أنْ يموتَ دون أهله أو صَحبِه، وكانت الرّوح غالية، ووقعَ التّفاضُلُ بين الابنِ وأبيه، وبين الزّوج وزوجته، فمَنْ خَصّ نفسَه نَجا، ومَنْ خَصّ غيره هلك.

ولقد ضربَ الجوعُ القُصور، فلا ماء في النّيل، ولا زرع في الغيطان، ولا تجارة في الميناء، والسّفن واقفةٌ قد تمزّقت أشرعتها، وانكسرتْ صواريها، فلم تُبحِرْ من زمنٍ طويلٍ، وخافَ السلطان من أنْ يدخل الموت مع السّفن القادمة فأوقفها، فلّما فعل وقفتْ معها الحياة، وتقدّم الموت آخِذًا أشكالاً مُتعدّدة، فكان الطّاعون بادِئ الأمر، ثُمّ الجوع، ثُمّ الصّيد، ثُمّ المُكث في البيوت. ولقد كان الرّجل يكون إلى جانبك حَيًّا، تنظرُ عيناه في الفراغ لا تقولان شيئًا، ثُمّ تنطفِئان فجأةً ويسقطُ صاحِبُها على جنبه فإذا هو جُثّة هامِدة.

ولَمّا اشتّد الجوعُ بأهل القُصور، خرجتِ نساء الأمراء والوزراء أشباه عرايا من القصور هارباتٍ، دون أنْ يعرفْن إلى أينَ، وهنّ يَصِحْن: الجوع... الجوع... الغَوْثَ... الغَوْثَ... يرفعْنَ أيديهنّ قد كشفْنَ عن بُؤسٍ وألم... وما يدرين أنّهنّ خرجْنَ إلى حتفهنّ، خرجْنَ يبغينَ مَنْ يُطعمهنّ وكُنّ المُنعَّمات المُترَفات، فتلقّاهنّ الصَّيّادون، فقنصوهنّ، فلمْ تنجُ إلاّ أواخرهنّ، وقليلٌ ما هنّ. ولَمّا وقعْنَ بين أيدي هؤلاء الوحوش، اقتُطِعَتْ أعناقهنّ، وسُلِختْ جُلودُهن، وأُكِلنَ، فمنهن مَنْ شُوِيَتْ، ومنهنّ مَنْ أُكِلَتْ نيّئة!!

حَرّم مجلسُ الإفتاء - بعدَ هذه الكارثة - خروج النّساء من القصور أو البيوت، وتركَ أمر القصور للوالي، والبيوت للرّجال. ثُمّ قبضَ الجُندُ على بعضِ هؤلاء الصَّيّادين، وحرّقوهم في ميدانٍ عامّ، فما أدّى ذلك إلى تخويفهم، بل جعلَ شهوتهم إلى لحوم البشر تتعاظَم وتشتدّ ضَراوتُها.

وأعلنَ ديوان مصر اليوم عن أنّ عددَ الموتى في الجوائح منذُ بدئها إلى اليوم ألفُ ألفِ نَفْس. وأظنّ أنّه سيتوقّف عن إعلان المزيدِ بعدَ اليوم، إذ لو قُلتَ إنّه هلكَ من كلّ أربعةٍ ثلاثةٌ فلن تكون جانبْتَ الصّواب. القاهرة صارتْ خالية، خاليةً تمامًا!! ❞

❝ (٩)

هل تريدُنا أنْ نَموت؟!

قلّ جُندُ مصر بالموت، وخلع بعضُ الشُّرَطة زِيّهم، فتابَعَهم على ذلك جنودٌ كثيرون، ولم يكن هناك عددٌ كافٍ منهم كي يحرسَ المواضع الحيويّة التّابعة الدّولة، فاكتفَى رئيس الجُند بتوزيع مَنْ تبقّى من جنوده على البيمارستانات الرّئيسيّة لحِمايتها من الصّيّادين. وكان هؤلاء يشمّون الأخبار شَمّا، فلمّا عَلِموا أنّ الحِماية رُفِعَتْ عن المُنشأة خطّطوا للهجوم عليها.

تسلّلوا في الظّلام، كنتُ حينَها في المُنشأة، لا أدري ما الّذي دفعني أنْ أبقَى فيها حتّى اللّيل، كان يُمكن أنْ أُغادرها، جِئتُ من أجل أنْ أقرأ الكلمات الأخيرة الطّيّبة الّتي تُرافق الأرواح المُسافرة، كنّا قد أعلنّا العَجز التّام عن إنقاذ هذه الأرواح، وكانتْ هذه البقيّة من المرضَى تمنعني من التّفكير بمغادرة مصر لأعودَ إلى مسقط رأسي ومهد نشأتي، وإنْ ظلّتِ الفِكرة في الآونة الأخيرة تحومُ في رأسي. لكنّ الواجب الّذي يحمله كلّ طبيبٍ في قلبِه ويُقسِم عليه أبقاني إلى اليوم، وإنْ كان الأطبّاء الزّملاء قد قُتِلوا أو ماتوا بالطّاعون أو بالجوع، أو ذُبِحوا على أيدي هؤلاء؛ ويبدو أنّه جاءَ اليوم دوري، وسأموتُ وحيدًا دون أنْ يقفَ أحدٌ إلى جانبي.

كنتُ جالِسًا في غرفةِ التّطبيب، أفكّر فيما حلّ بمصر حتّى اليوم، وأفكّر في أنّ كلّ داءٍ لا بُدّ له من دواء، فَلِمَ لم يُعثَر على دواءٍ للطّاعون حتّى اليوم؟ في غمرة تساؤلاتي وشرودي، سمعتُ صَهِيلَ أحصنةٍ جامحةٍ في الخارج، ووَقْعَ حوافر مُسرعة ثُمّ وَقْع أقدامٍ تنهبُ المسافة الفاصلة بيننا، ويبدو أنّ هناك مَنْ ترجل عنها للتّوّ، وكان صوتٌ يصيح: «سيّدي عبد اللّطيف... سيّدي...». دخل الغرفة يلهث، عرفتُه على الفور، كان (خليل)، ومن خلفه أبوه صدقي اللّحّام. هتفَ خليل: «إنّهم خلفَنا...». سألتُه مُضطربًا: «مَنْ؟» ردّ وهو لا يزال يلهث: «صَيّادو البشر». «ولِماذا يُهاجموننا؟». قال وهو يسحبني من يدي: «ليسَ هذا وقتُ مثل هذه الأسئلة، هَيّا يا سيّدي، علينا أنْ نهرب». حينَ صِرْنا في مُوازاة النّافذة رأيناهم؛ كانوا بالعَشَرات، وكانوا يحملون المشاعل في أيديهم، ويندفعون باتّجاهنا، أصابنا الذُّعر، همس خليل: «لم يعدْ مُمكنًا الهرب». سألتُ: «فهل سنُواجههم؟». ردّ: «لا نستطيع ذلك، علينا أنْ نختبِئ في مكانٍ ما هنا في المُنشأة». تدخّل الأب، قال صدقي وشارِباه اللّذان وَخَطهما الشّيب يتهدّلان على شفتَيه: «سأُشاغلهم أنا ريثما تَجِدون مكانًا تختبِئون فيه». جذبه ابنه من يده، ونظر في عينَيه: «كَلاّ يا أبي... ستكون لقمةً سائغة لهم». «نُضحّي بواحدٍ من أجل اثنَين». صرخَ ابنُه هذه المرّة بقُوّة: «كلا، لن نُضحّي بأحدٍ، هَيّا... هل تعرفُ سيّدي مكانًا للاختِباء؟». رددتُ وأنا أُشير بيدي: «اتبعوني». تبِعَني خليل، فيما تلكّأ صِدقي، تظاهر بأنّه تعثّر، سقطَ على الأرض، وراحَ يقفُ ببطءٍ ويضع يده على رُكبته، ويُطلق تأوّهًا مصنوعًا. كان الصّيّادون قد صاروا على البوّابة، وبدؤوا ينهمرون منها كالموج، أوّلَ ما هَجَموا هجموا على حِصانَي خليل وأبيه، فبقروا بطنَيهما، وبدؤوا ينهشون اللّحم النّيّئ، صرخَ صِدقي في تلك اللّحظة عندما رأى حِرابهم تغوصُ في بطنِ حِصانه، وهو هاجمٌ عليهم: «يا قَتَلة... تريدون المُواجهة؟ ها أنذا». كُنّا نبتعدُ أنا وخليل باحثَين عن مَخبأ، كان الابن يبكي، ويتوسّل بصوتٍ لا يكادُ يُسمَع: «يا أبي... لِماذا فعلتَ ذلك...؟».

كان صِدقي قدِ استلّ حرْبتَه وانقضّ عليهم صارخًا، عندما رأوه استبشروا؛ لحم البشر أطيبُ من لحم الخيول، ولحم البشر الأحياء أطيبُ من لحم الأموات. طاعنَ يمنةً وشِمالاً، وراوَغَ، وأصابتْه طَعَناتٌ، حتّى قضتْ عليه واحدةٌ غاصتْ في عنقه، فخرّ على الأرض، فتكاثَروا عليه وأكلوه وهو ينظر إليهم.

كُنّا قد قَطَعْنا مسافةً بعيدةً عنهم، كنتُ أعرفُ أنّ أحسنَ مكانٍ للاختِباء، هو الأسطحِ الّتي يُوصَل إليها عبر درَجٍ سِرّيّ لا يعرفهُ سِواي. في كلّ خطوةٍ كان صوتُ نَشَقات خليل وهو يسير إلى جانبي مسموعةً، أرادَ أكثر من مرّةٍ أنْ يعودَ إلى أبيه، وأنا كنتُ أجذبه من يده، وأقول: «لقد مات... ستموتُ أنتَ بدوركَ إذا عُدتَ». «لا أستطيع أنْ أتركه بين أيديهم يأكلونه حَيًّا». «لقد مات... عليكَ أنْ تُفكّر بنفسَكَ الآن، العودة إليهم يعني أنْ تُعدِمَ نفسَك، عودتُكَ هذه لن تُرجِعَ إليكَ أباك». «ما يُعذّبني يا سيّدي أنّه أرادَ ذلك، كان يُمكن أنْ يأتي معنا، ولكنّه مشى إلى الموت برجلَيه... لِماذا فعَلَ ذلك؟ لِماذا أرادَ أنْ يموت؟». «لقد فعل ذلك من أجلك، من أجل أنْ تظلّ حَيًّا». «أنا لا أفهم شيئًا كهذا». «لقد ضَحّى بنفسه من أجل ألاّ تموت أنتَ». «أنا لا أؤمن بهذا النّوع من التّضحية، كان يُمكن أنْ ينجو كِلانا». «ربّما كانتْ لديه مُعادلة مُختلِفة، كان يرى أنّنا أمام خيارَين: نموتُ جميعًا، أو يموتَ واحدٌ منّا من أجل الآخَرَين، اختار الخَيار الثّاني وبدأ بنفسه».

كُنّا نمرّ في طريقنا على مَنْ تبقّى في المُنشأة، لم يكونوا كثيرين، كانوا عشراتٍ يتوزّعون على غُرَف المكتبة، أو الغُرَف الّتي كانتْ فيها كُتُب القاضي الفاضل، الّذين بقوا على قَيد الحياة هم أولئك الّذين قاوموا الطّاعون لأجسادهم القويّة وأعمارهم الفتيّة، بعضُهم هَزَم الطّاعون بالفِعل، لكنّه لم يستطعْ أنْ يهزمَ الجوع... كانوا ينظرون إلينا بعيونٍ ملؤها الرّجاء أنْ نُساعِدهم، كانوا ينتظرون الموت وكُنّا نهربُ من الموت، كان بودّنا أنْ نفعل، كم يشعر المرء بالعجز حينَ يرى يدًا تستغيثُ به ولا يستطيع المُساعَدة، اجتزنا غُرَف المكتبة، كان صوتُ الصّيّادين في الأسفل وهم يتناهبون الحِصانَين وجسد صدقي يصل إلينا عابرًا كلّ هذه الطّوابق والممرّات، بعضُ الباقين هنا كانوا قد سَمِعوا عن انتشار آكلي لحوم البشر في الفترة الأخيرة، فازداد ذُعرهم مع هذه الأصوات، وراحَ من استطاع منهم أنْ يتكلّم، يهتفُ بصوتٍ واهنٍ: «لا تتركونا وحدنا، خُذُونا معكم». آخَر قال: «لقد استعجلتَ الموت، وها هو قد جاءَ إليك... ألم تكنْ تريدُ ذلك؟». ثالثٌ كان يهمس: «أخيرًا سينتهي كلّ هذا، لقد انتظرتُ هذه اللّحظة طويلاً».

كُنّا أنا وخليل قد بدأنا نصعدُ أولى الدّرجات السّريّة المُفضِية إلى الأسطح، في وسط الصّعود كُنّا نرى كتبًا مُتناثرة، يبدو أنّها سَلِمتْ من الحرق ومن الزّلازل ومن بَيْع شريف لها، ومن المجموعة الّتي أخذتُها، إنّها بقايا، لكنْ لا أدري ما الّذي أوصلها إلى هنا، كُنّا نتّكِئ على الجِدار الّذي بدأتْ عتمته تزداد كلّما واصلْنا الصّعود، حينَ انهارتْ علينا خَزانةٌ لم نلحظْها، فشجّتْ رأسَ خليل، وانفتَح بابُها فاندلقتْ منها كتُبٌ كثيرةٌ، غشتْ ألوانُها المُذهّبة عيونَنا، الضّوء الشّحيح القادم من إحدى النّوافذ العالية سقطَ عليها فلمعَ ذَهَبُها، كدتُ أصرخُ من الرّوعة، إنّها خَطفةُ الكتب أوّلَ ما تراها! كانتْ - فيما يبدو - خِزانة الكتب الخاصّة للقاضي الفاضل، إنّها الكتب الّتي لمْ يطّلعْ عليها أحدٌ سِواه، ويبدو كذلك أنّ (شريف) لم يكنْ يعلم بأمرها، وإلاّ لَباعَها بأثمانٍ مُرتفِعة في ذلك اليوم الّذي رأيتُه يبيعُ فيها الصّندوق بدرهم!! توقّفتُ قليلاً، وانحنيتُ ألتقطُ كتابًا، كان لِجودتِه كأنّ النَّسّاخ قد انتهَى منه اللّيلة، فتحتُ صَفَحاته، كانتْ رقوقًا مَلْساء، والخطّ مكتوبًا بماء الذّهب، لا بُدّ أنّ هذه النُّسخ كانتْ أثيرةً جِدًّا لدى القاضي الفاضل ليعتني بها هذه العِناية، قرّبتُ الكتاب من شفَتَيّ، وهممتُ بتقبيله، لولا أنّ (خليل) جذبني من يدي: «علينا أنْ نُتِمّ صعودَنا ونختبِئ... لن يمرّ وقتٌ طويلٌ قبل أنْ يكتشفوا مكاننا، وحينَها لن يُبقوا حتّى على عِظامنا». أجبتُه وأنا أنظرُ في وجهه نظرةَ عِتاب: «قليلٌ من الوقتِ مع كتابٍ يُساوي حياةً بأكملها». زَمّ شفتَيه. واتّكأ بظهره المُتعَب على الجِدار، وقال: «كما ترى يا سيّدي، لكنْ لو أسرعتَ قليلاً... الكِتابُ لن يدفع الحَرْبة الرّاكضةَ خلفَ ظهورنا», «بل يدفعها يا خليل، ويدفع الحربة الرّاكضة خلفَ ظهر الأمّة كلّها، الكِتاب هو النّجاة». «هل هذا وقتُ الفلسفةِ يا سيّدي؟ تبدو مناقشة هذا الأمر عدميّة في ظلّ الموت الّذي يتقصّى أثَرَنا». «ليأتِ الموتِ... الموتِ آتٍ لا محالة، لكنْ أنْ يأتيَ الموتُ وأنتَ تحمل الكِتاب، وتقرأ الكتاب، وتنظر في صفحات الكِتاب خيرٌ ألفَ مرّة من أنْ يأتي وأنتَ تنظر في الفراغ، وتُحدّق في الظّلام». تأفّف: «أنا معك... لكنْ ما اسمُ هذا الكِتاب الّذي جعلَ نهر الفلسفة يتدفّق إلى عقلكَ في هذه اللّحظةِ الحَرِجة يا سيّدي؟». «ليسَ المهمّ اسمُ الكِتاب يا خليل... المهمّ أنْ يُعيدَ ما في الكِتاب صِياغَتَك... الكلمة تُحدّد صُورَنا، وتُعيد تشكيل حَيَواتِنا». هَزّ رأسَه مرّاتٍ مُتتابعاتٍ، ورَجاني هذه المرّة: «أتوسّل إليكَ يا سيّدي...

هل تريدُنا أن نموت؟!». تجاهلتُ تساؤله الأخير، وأجبتُه عن سؤاله السّابق: «ما دُمتَ مُصِرًّا على معرفة اسم الكتاب، فهو الطّبقات الكُبرَى لابن سَعد». «هيّا يا سيّدي... ستنهار الطّبقات الكُبرَى على رؤوسنا إنْ لم نُسرع!».

من هنا فوق الأسطح، بدت السّماء وادعةً، اللّيل ساجٍ، النّجوم تضحك، كان يبدو أنّها لا تُبالي بما تُشاهده على هذه البُقعة من هذا الكوكب، على هذا الجُزء من هذه البُقعة، القاهرة كلّها بكلّ ما يحدثُ فيها من أهوال لم تكنْ في حِساب هذه النّجوم الضّاحكة، تمنّيتُ لحظتَها لو أنّني نجمة، أحسنُ ما يُمكن أنْ يعيشَ به المرء في الحَياة هو قلبٌ خالٍ كالنّجوم تمامًا، يعيشُ راضِيًا، ويموتُ هانِئًا، يعرفُ أنّ قَدَرَه لن يُغيّره حِرصُه، وأنّ رِزقَه لن يجلبه طمَعُه، وأنّ الكون يتّسع للجميع.

مشيتُ أنا وخليل على أطرافِ أصابِعنا، كُنّا بمحاذاة الطّفّ في الأعلى، ظللْنا نمشي مُتّجهين غربًا حتّى نصل إلى موضع فوقَ غرفة التّطبيب. من هنا كان يُمكن أنْ تُشاهِدَ هذه الفَظائع، كان جسدُ صِدقِي قد تقطّع إلى أشلاء، يداه في جهة، ورِجلاه في جهة، ورأسُه في جهةٍ أخرى، وقد أخذَ كلّ واحدٍ من آكلي لحومِ البشر قطعةً من أطرافه وراحَ ينهشُها، فيما كانتْ وجوهم تلمعُ على ضوء الشُّعَل الّتي أحضروها معهم، وكانتْ أشداقُهم تسيل بالدّماء ونُتَفِ اللّحم، كان منظرًا فوق الاحتِمال، غطّيتُ بكفّي على عَينَيّ خليل، كي لا يرى أباه في هذه الهيئة، وتراجعتُ به إلى الوراء قليلاً واحتضنْتُه، وبكَى هو على صدري، حتّى إذا استعادَ رَباطةَ جأشِه، سألني: «هل يُمكن أنْ يحصل أبي بعدَ أنْ يشبعوا منه على قبرٍ لائق». بكيتُ أنا الآخَر: «لم يعدْ لأبيك منه شيءٌ حتّى يُدفَن يا بُنيّ، إنّه في طريقه أنْ يصير حتّى مُخّ عظمه في أمعائهم!!».

ظللْنا على السّطح اللّيل كلّه، لم نستطعْ أنْ نتحرّك من هنا، الحِصانان عُلّقا من أطرافهما إلى جذع نخلةٍ مُعمّرة، وبُقِر ما في بطونها، وشُرِب... فلمّا أناخوا قليلاً، وارتاحوا من لُهاثهم المحموم، رأيناهم من هُنا، يعبرون البوّابة الرّئيسيّة إلى داخل المُنشأة، كانوا كالنّمل يَنسِلون من كلّ حدبٍ، وأصابَنا الذُّعر، وبدا ذلك في عينَي خليل، حينَ سألني: «هل يمكن أنْ يهتدوا إلى مكاننا؟». أجبتُه: «لِندعو الله ألاّ يفعلوا، الدّرج سِرّي، والباب أغلقتُه بالمِزلاج من جهة السّطح، وأشكّ أنّهم سيكونون قادِرين على معرفة مكاننا إلاّ إذا كانتْ لهم أنوف الكِلاب، واهتدَوا إلينا عن طريق الشّمّ».

من هنا كان يُمكننا أنْ نسمعَ الصّرخات الأخيرة للّذين يُؤكلون مِمّن تبقّوا على قيد الحياة في الأسفل، ومن هنا أيضًا كنّا نسمع صيحات الابتِهاج والهِياج بالحصول على كلّ هذه اللّحوم البشريّة مُجتمِعةً في مكانٍ واحد!

كانوا يَجُرّون الأحياءَ من أرجلهم، وقد أنشبوا فيهم الكلاليب، يجمعونهم في السّاحة، ثُمّ يُوقِدون نارًا عظيمةً، ثُمّ يُعلّقون الأجسادَ واحِدًا واحِدًا على عمودٍ من الحديد، وقد لَفّوه عليه، وراحوا يُقلّبونه، ويُديرونه، حتّى يُشوَى لحمُه من كلّ جِهة، ومن هنا شَمَمْنا رائحةَ شواءِ اللّحوم البشريّة، ومن هنا رأيناهم يأكلونها وسعادةٌ لا يُمكن وصفُها تُخدّر أجسادَهم!! ”

(١٠) ”

إنّه الجُوع!!

دَعاني الوالي، أسرعتُ إليه: «هل تعرفُ دُرّيّة الّتي تسكنُ في تربة الشّافعيّ؟». أجبتُه: «نعم، ما شأنُها؟». «عليكَ أنْ تدُلّنا عليها؟». «لماذا؟». «إنّها تصطادُ الأطفال وتبيعهم». «أعرفُها، وأعرفُ ذلك، ولكنّني لا أعرفُ أينَ هي... أعني

كنتُ أعرفها في السّابق، هي امرأةٌ غريبةٌ منذ أنْ تعرّفتُ إليها، بدأتْ علاقتي بها منذُ أنْ كانتْ تطبخ لي أوّل قدومي بمصر، ثُمّ... لم تعدْ لي بها اليوم أيّة علاقة». سألني الوالي مُتشكّكًا: «ماذا كانتْ تطبخُ لك؟». أيقظني السّؤال على ما يقصدُ من ورائه، همستُ لنفسي: «بالفِعل أنتَ لم تكنْ تدري ماذا كانتْ تطبخ لك، لعلّها كانتْ توهمك بأنّها تطبخ البامية أو الملوخيّة بالأرانب، لكنْ هل كانتْ تضع أعضاء الأطفال مع المَرَق بدل الأرانب، أو لحمًا بشريًا مع البامية؟! المرء صار يشكّ في هذا الزّمن بكلّ شيءٍ». أخذتُ نَفَسًا عميقًا لأطردَ هذا الخاطر المُقزّز، وأقول: «كانتْ تطبخ لي ما أطلبه منها». حَكّ الوالي ذقنَه، ونهضَ من مكانه حتّى صارَ إلى جانبي: «إنّ القبضَ عليها يا حكيم، سوفَ يُنهي أكبر حركةِ تجارةٍ بالأطفال، وبأكل لحومهم، إنّها سَفّاحة، وأنتَ تعرفُها وتعرفُ شكلَها، وعليكَ أنْ تُساعِدَنا في القبضِ عليها».

انتشرَ أكل لحم الصّغار إلى الحدّ المُذهِل. قد لا تصدّق ذلك. أنا أعرفُ ما أقول، وأدركُ أنّ الأمر يفوق قدرة البشر على التّصديق، أعني البشر الأسوياء، ولكنْ هل تعلمون بأنّ الكوكب يضجّ بالبشر المجانين، وأنّ الجوائح قمينةٌ بأنْ تخرجَ أسوأ ما فيهم؟!

كَثُر تَردُّدي على مجلسِ القَضاء أو دار الوالي، كان يطلبني إلى ذلك رئيس دواوين مصر، هو الآخَر يكادُ يفقد عقله، لم يُصدّقْ أنّ هذا يحدثُ حتّى رآه بأمّ عينَيه، جلستُ أنا وهو مرّة عند رئيس مجلس القَضاء ومعنا صاحب الشُّرَطة، وكانَ قد طلبَ أنْ يُحضَر إلى هنا كُلّ مَنْ يُلقَى عليه القبض من آكلي لحوم البشر، كان ذلك ظُهرَ أحدِ الأيّام من صيفِ عام ٦٠٠ للهجرة، كنّا صامِتين، قليلي الكَلام، شعرتُ أنّ الكَلام قد انتهَى دورُه، في المصائب ينعقدُ اللّسان، يُصبح الصّمتُ الوسيلة الأقلّ بلاهةً من سِواها في مواجهة بشاعةٍ كهذه. لم يكن الصّمتُ هنا عن حِكمة، بل كان عن ذهولٍ تامّ، وعَجزٍ أتمّ.

دخل شُرَطيّ علينا وهو يحمل قُفّة، فإذا بها طفلٌ صغيرٌ لا يتجاوز عمره ثلاث سنواتٍ، وإذا هو مَشويّ، قد قُلِعتْ عيناه، وقُطّعتْ أطرافُه، ودخل من بعده رجلٌ وامرأة، فأمّا الرّجل حينَ سُئل فقال: «أنا أبوه». وأمّا المرأة فقالتْ: «أنا أُمّه». وسألهما القاضي: «هل قُمتما بِشَيّه؟». فقال الأب: «هي الّتي شَوتْه». وقالت الأمّ: «بل هو». وأرادا أنْ يتنازَعا، فقالت الأمّ: «لستُ أنا الّذي شويتُه، أنا أُمّه، ولو كنتُ أريدُ أنْ أشويَه لشويتُه دون أنْ أفقأ عينَيه، أنا أُمّ، وأنتَ تعرفُ قلبَ الأمّ». وكان الأب يهزّ رأسَه هازِئًا. فسألتُهما: «فما الّذي دَفعَكَ أنتَ أو دَفعَكِ أنتِ إلى قتلِ ابنكما وشَيّه؟». فأجابَا بصوتٍ واحدٍ: «إنّه الجوع».

كتبَ القاضي إلى صاحب الشّرطة: «أحرقْهما». فأُحرِقا، والرّجل ينظر إلى المرأة يشدّ على أسنانه من الألم، ثُمّ ينفجر بالضّحك، والمرأة تنظر إلى الرّجل وتنفجر بالضّحك مثله!!

أرسل الوالي معي بعضَ رجال الشُّرَطة كي يكونوا في حِمايتي بعدَما شاع من أمر هؤلاء، فصرتُ لا أخرجُ إلى حاجةٍ إلاّ ومعي اثنان بكامل سِلاحهما يُرافقانني في أموري كلّها. وحلّتْ وخمة الصيف، وكان الجوع قد بلغَ مبلغًا أذهلَ النّاس عن رُشدِهم، وفتكَ بصوابهم، وأطاشَ عقولهم، واجتمعَ جوعٌ شديد في شهرِ عطشٍ أشدّ، وقلّ ذهابي إلى البيمارستان في تلك الأيّام، غيرَ أنّني خرجتُ إلى السّوق، وكان خالِيًا، وكان في طريقي إلى الدّيوان، ولو أنّكَ فُهتَ بكلمةٍ في ذلك الخُواء، لوجدتَ ألفَ جِدارٍ يُردّد صَدى كلمتك، كيفَ يُمكن أنْ تكون القاهرة بهذا الهدوء؟ تلك من عجائب هذه الجائحة. لقد كان كلّ شيءٍ صامِتًا حتّى كأنّ الزّمنَ توقّف فتوقّف معه قلبُ الحِياة، كانتْ هناك حياة ولكنّها ذاتُ قلبٍ لا ينبض، سكونٌ مُطلَق.

كنتُ قد اجتزتُ آخَر سوق زويلة، مررتُ بالموضع الذي كان فيه دُكّان صِدقي اللّحّام، وتذكّرتُ كيفَ قضى فترحّمْتُ عليه، وتذكّرتُ ابنَه الّذي عادَ إلى غِيابه المُفاجِئ، ولم أعدْ أراه منذ موتِ أبيه. لقد كانتْ هنا حياة، كانتْ هنا آلاف الأفواه الّتي تمرّ بالدُّكّان في اليوم الواحد، بعضُها يمرّ ليسَ له في مروره من حَظٍّ سِوى النّظر إلى اللّحم المُتدلّي الّذي ينتظر البائعين، وبعضُهم لم يكنْ يعنيه من أمر الشّراء شيءٌ، وبعضُهم مِمّن كان يملك المال كان يقفُ هنا، يتأمّل اللّلحوم المَعروضة، ويدخل في تفاوضٍ مع صِدقي على أسعارِها، ويُدهَش وهو يرى يدَيه الضّخمتَين كيفَ تُجرّدان اللّحم عن العَظم، وتُقطّعانه بمهارةٍ كبيرة....

اليوم كلّ هذه الصُّور الّتي تتدَاعَى مثل البرق إلى ذاكرتي، تُضيء وتنطفِئ... صارتْ من الماضي، لا أدري ما الجدوى مِن تذكّرها؟ بينما الأجدَى أنْ ينظر الإنسان كيفَ ينجو من الموت على أيدي أكَلة لحوم البشر فيما تبقّى له من عمر.

كنتُ بالأبلق قد تركتُ الدُّكّان خلفَ ظهري، عندما سطعتِ الشّمس من جديدٍ، ونحن نخرج من نفق السّوق، رأيتُ من بعيدٍ شيئًا مُعلّقا يتدلّى من تحتِ سارية، قدّرتُ على الفور أنّها بقرةٌ أو ربما شاةٌ أو أيّ شيءٍ يُؤكَل قد ذُبِحَ وسُلِخَ في هذا الموضع، ومع أنّ وجودَ شاةٍ مَسلوخةٍ في هذا المكان يُعدّ شيئًا غريبًا، إلاّ أنّه لم يعدْ في زماننا هذا شيءٌ مُستغرَبًا!

واصلتُ السّير بحذر ومن خلفي الحارِسان، وهما يتلفّتان حولنا ويتبعانني كظلّي كما أُمِرا حتّى لا يُصيبني أذًى. صرتُ على مقربةٍ من ذلك الشّيء المُتدلّي، وصار بإمكاني تمييزه، كدتُ في اللّحظةِ الّتي تبيّنتُ حقيقتَه أنْ أسقطَ مَغشيًا عليّ من فوقِ الحِصان، إنّ هذا الشّيء لا يعودُ لشاةٍ ولا لبقرةٍ ولا حتّى لكلبٍ أو ضبعٍ... بل يعود لجُثّة إنسانٍ. كانوا قد علّقوه من رِجلَيه، ورأسُه إلى الأسفل، وقد حُزّتْ عنقه، وأُبقِي على شيءٍ من تلك العُنُق حتّى لا تنفصل عن الجسد تمامًا، وقد جُرّد من الثّياب، وسُلِخَ جِلده، ثُمّ قُطِّع لحمه، وأزيل كلّه، ولم يبقَ إلاّ العظم، ومن هنا يُمكنُ أنْ ترى القفص الصّدريّ له بكامل ضلوعه وعِظامه ليسَ عليها مُزعةٌ من لحمٍ، كأنّ الّذي فعلَ ذلك جَزّارٌ خبيرٌ، وكانت العِظام بيضَاء لا تكادُ ترى عليها قطعةً حمراءَ من اللّحم ولو كانت نُتفة، كأنّ الأكَلَةَ لم يكتفوا بأكل اللّحم المجروم بالسّكاكين، بل مدّوا أسنانهم إلى القفص الصدريّ وبقيّة العِظام فتناهَشوا ما عليها. كان شَعرُ رأسِه قد أُحرِق، وسُلِخَ لحمُ وجهه عن عظمه، وبرزَ مكانُ العينَين الجاحِظتَين على لحظةِ الموت، وأسنانُ فَكّيه تلمعان على شمسِ الضُّحى... ولم يتحمّل الحارسان اللّذان معي المشهد بعدما عايناه عن قُربٍ فتقيّآ، ونزلا عن جَوادَيهما، وجلسَا على الأرضِ يتجشّآن!

هتفتُ بهما غاضِبًا: «هَيّا... هَيّا... هل تريدان أنْ نُعلّق على خُطّافٍ مثل هذا الّذي ترونه أمامكم...؟ هَيّا... لا بُدّ أنّهم في مكانٍ قريبٍ هنا... إنّهم يَشُمّون رائحة ضحاياهم كما تشمّها الكِلاب... هَيّا...». وتباطآ، كانا لا يزالان تحتَ تأثير الصّدمة، غير أنّني صرختُ بهما من جديدٍ: «هل جِئتما معي لكي تحمياني أم لكي أحميكما؟! إذا لم تركبا على جَوادَيكما الآن فسوفَ أتركُكما هنا تتدبّران أمركما...». ونفّذتُ على الفور، فإنّ بين انغِراز السّهم في العنق والنّجاة لحظة، ولا بُدّ أنّ هؤلاء السّفّاحين يروننا من على ظهر أسطح البيوت المُحيطة بالمكان، وسوفَ تكون نهايتنا كلمح البصر أو هي أقرب... وهمزتُ جَوادي وانطلقتُ، فركبا من فورِهما وعَدَوَا خلفي.

وصلتُ إلى البيمارستان والأبلقُ لم يقفْ في الطّريق لحظةً واحدةً، ترجّلتُ عنه، وأوكلته إلى السّائس، ودخلتُ إلى غرفة التّطبيب الأوّلي، منذ زمنٍ لم أدخلْها، كنتُ أنشغل طَوال الوقت في غُرَف الجِراحة، هذه المرّة أردتُ أنْ أعرفَ الحالات الّتي تَفِدُ هذه الأيّام إلى البيمارستان... من خلال مُعاينة عشرة مرضى بوجهٍ سريع، تبيّن من الفحوص الأولى، أنّ الطّاعون بالفعل قد نزعَ حربته من صدور النّاس، ورحل، أو هو يكادُ يرحل... كانتْ أكثر الحالات تعودُ إلى هؤلاء المُتوحّشين... كان المرضى الّذين يُعالَجون هنا قد فقَدوا بعضَ أعضائهم، أكثرُهم فقدوا ذراعًا أو قدمًا، وكانوا من فِئة الشّباب أو صِغار السّنّ، أولئك الصّنف الّذي استطاع أنْ يتخلّص من الخُطّاف أو الكُلاّب النّاشب في ساقِه بقطع ساقِه أو

قدمه، أو جزءٍ من ذراعه والإفلات بِما تبقّى منه حَيًّا... بالطّبع هذه نسبتهم قليلةٌ جِدًّا، لأنّ كلاليب هؤلاء السّفّاحين كانتْ لا تترك ضحيّتها إلا بين أنيابهم!! ❞

❝ القسم السّابع

الخُرُوج مِن مِصر

أُؤمِّلُ أنْ أَحْيا وفِي كُلِّ ساعَةٍ

تَمُرُّ بِيَ المَوْتَى تُهَزُّ نُعُوشُها

وَهَلْ أنا إلاّ مِثْلُهمْ غيرَ أنَّ لِي

بقايا لَيالٍ فِي الزَّمانِ أَعِيْشُها

(ابن أبي عصرون) ❞

❝ (١)

ما لم يشْهدْه جالينوس!

لو أنّ جالينوس هنا لِما وجدَ عِلمُ التّشريح لديه سبقًا كهذا، إنّ أجسادَ البشر تُعرَض كالذّبائح في الطّرقات. لقد جُنّ أهل القاهرة، أو السّفّاحون منهم، أو هذا الصّنف من البشر الّذي أعيا القاموس أنْ يجدَ لهم اسمًا أو وصفًا. لقد كانوا يصيدون ليأكلوا اللّحم البشريّ عن جوعٍ، فلمّا قويتْ صِحّتهم، وعفيتْ أبدانُهم، صاروا يصيدون البشر للتّلذّذ بأكلهم لا لسدّ جوعهم وإبعادِ شبح الموتِ عنهم، فقد اشتدّ إلى اللّحم قَرَمُهم، وإلى الدّم أُوامهم، كأنّ تتابع النّهش بعدَ النّهش من اللّحم البشريّ يصنعُ نوعًا من الإدمان عليه، فلم تعدِ المسألةُ مسألةَ دفْعِ جوع، بل صارتْ مسألةَ إشباع شَهوة. إنّني إذْ أقول إنّ آكلي لحوم البشر في مصر قد اتّخذوه معيشةً ومطيبةً ومُدّخَرًا، وتفنّنوا فيه، وفشا عنهم، ووُجِدَ في كلّ مكانٍ من ديار مصر لا أكون قد جانبتُ الصّواب بكلمة، ولا حِدتُ عن الحقيقةِ بحرف!!

ولقد كان يلقَى أَكْلُ لحوم البشر في البداية استِهجانًا واستِفظاعًا واستِنكارًا كبيرًا، ثُمّ لَمّا شاع الخبر وتُنُوقلتْ أحاديثُهم، راحَ هذا الاستِهجان مع الزّمن يخفت، وذلك الاستِفظاع يختفي، وتلك الاستِنكارات تنتهي، حتّى صار الخبر مألوفًا، ثُمّ انتقلَ الأمر إلى المُعايَنة فصارتْ مُشاهدةُ الذّبائح البشريّة والأجساد المسلوخة مألوفةً هي الأُخرى. ولم أرَ في حياتي أفظعَ من ذلك، ولَعَمري إنْ كان في هذه الحياة ما هو أفظع مِمّا رأيتُ فلْيأخذْني الله إليه عاجِلاً قبل آجِل، وليشملْني برحمته قبل أنْ تقع عيناي على ما هو أَنْكى وأَضْرى!

ولكنّ الله إلى اليوم مَدّ في عمري، وأبقاني هذه السّنوات العِجاف في مصر أمّ الدُّنيا وأمّ العجائب لأرى الدّنيا كما لم أرها في أيّ بلدٍ آخَر، ولكي أُعاين العجائب كما لم أعاينْها في أيّ مِصرٍ آخَر.

ولقد مررتُ بسوقِ الشّمّاعين، السّوق الّتي ربّما تعطّل فيها كلّ شيءٍ إلاّ دور البغايا، فإنّها ظلّتْ تعمل وإنْ قلّ مُرتادوها، ولم تُغلَق تمامًا كما أُغلقتْ دور الطّعام والشّراب! وفي حارةٍ مُتفرّعة عن تلك السّوق، في زُقاقٍ ترابيّ، رأيتُ امرأةً دون الثّلاثين قد شُجَّ رأسُها فالدّم يسيل منه رَعَفًا، وقد قُيّدتْ من أيديها، يسحبها الرّعاع في الزُّقاق، ورأسها المُتعفِّر المُلطَّخ بالدّم يترجرجُ على الحجارة، وهي مُستسلِمةٌ لا تأتي بحركة، ولا أدري إنْ كانتْ حَيّةً أو ميّتة. ورأيتُ خلفَها فتيانًا دون العشرين يتناهَبون بينهم جسدَ صغيرٍ مَشويّ يتناقلونه بين أفواههم، كلّما فرغَ منه نابٌ نهشَه نابٌ آخَر... فهممتُ أنْ أصرخَ فيهم، ولكنّني خِفتُ أنْ أُذبَح وأُشوَى من فوري، فعدلتُ عن الفِكرة، وكان الأبلقُ قد سَمّر قدمَيه في أوّل الزُّقاق وهو يُحاول معي أنْ نُغادر المكان قبل أنْ تُحيطُ بنا الخطاطيف والكلاليب، وأنا أستمهله حتّى أرى ما أرى، وأُحدّث به الوالي. فلمّا اختفوا في آخر الزّقاق. طِرتُ بالأبلق إلى دار الوالي، فاستقبلنَي وهو مُرهَق لم ينمْ ليلته، فحدّثتُه حديثي، فما استغربَ منه شيئًا، وقال وهو يشير إلى رأسِه: «إنّني لم أنم من اللّيلة الفائتة مِمّا جاءني من مثل هذه الأمور وأنا أبعثُ بها إلى دار القَضاء، وإنّ دار القَضاء تتكوّم فيها الحالات الّتي يُنظَر فيها تكوّم المطعونين على أبواب البيمارستانات، وإنّنا يا حكيم لفي كربٍ شديد». ثُمّ استأذنني أنْ يدخل فيرتاحَ قليلاً، وطلبَ منّي أنْ أسبقه إلى مجلسِ القَضاء، وسوفَ يُوافيني هناك مع الظّهر.

فاستجبْتُ له، وطِرتُ بالأبلق إلى مجلسِ القَضاء، فلمّا دخلتُ من الباب العالي، ونظرتُ عن يميني وعن يساري إلى مواضع سجن أهل الجرائم المعروضة على القَضاء هالَني أنّ الزّنازين في الدّربَين تمتلِئ عن بكرةِ أبيها بالسّفّاحين، وهم في لغَطٍ وهرجٍ ومرجٍ.

فلمّا عاينني رئيسُ حرس المجلس وعرفني أفسحَ لي، وأخذ بخِطام الأبلق، وقال لي: «إنْ رئيس المجلس ينتظرك». فلمّا دخلتُ عليه وجدتُه يقضي ومعه رجاله ومُساعدوه وهم في قلقٍ وضِيقٍ مِمّا يرون، فسلّمتُ عليهم، وأفسح لي رئيس المجلس فاتّخذتُ موضعي عن يمينه، فلو حَدّثْتُكم بكلّ ما سمعتُ وشاهدتُ في ذلك المجلسِ سحابةَ النّهار وطرفًا من اللّيل لكذّبتموني، ولكنّني فاعلٌ وأمري إلى الله!!

لقد جِيءَ بصبيّ نحو الرّهاق في الثّانية عشرة من عمره أو الثّالثة وهو مَشويّ وقد أخذه شابّان أقرّا بقتلِه وشَيّه وأكلِ بعضِه، ولا أدري كيفَ قَدِرا عليه وهما في مثل سِنّه أو يكبرانه بقليلٍ، وله من الجسم بسطةٌ كما لهم، فقلتُ في نفسي:

«إنّهم لم يقدروا عليه إلاّ بالحِيلة، أو ربّما أغرَوه بالمال، أو بالنّساء، أو ببعضِ الشّهوات، فأسلَمَ أمرَه لهم، فإنّ الشّهوة أيًّا كانَ وجهُ دعوتِها تُغري صاحِبها، وتُورده مَوارِدَ الذُّلّ».

فأمر القاضي بقتلهما بالسّيف، وأمرَ بإكرام الجسد المَشويّ بتكفينه، ودَفْنه في مقبرة المجلس، وكانت هذه المقبرة مُستحدَثةً لم تُفتَح إلاّ من شهرٍ أو أقلّ، ألجأ إليها تزايدُ هذه الأمور، فصار يُدفَن فيها الضّحايا للإسراع بذلك قبل أنْ تتعفّن أجسادُهم، وتحدث الطّوامّ. ولقد زرتُ هذه القرافة، فرأيتُ رئيس المجلس قد أمر بحفرِ عشرةِ آلافِ قبرٍ فيها، مُجهّزة للّذين اعتدى عليهم آكلو لحوم البشر، وكان يُدفَنُ فيها في اليوم الواحد أكثرُ من مئة!

ثُمّ إنّهم جاؤوا بفتاةٍ هي في السّابعةَ عشْرةَ أو نحوها، مليحة الوجه والقَدّ، يبدو عليها الوَقار، والهدوء، وكانتْ مُطرِقةً في الأرض لا ترفعُ إلينا نظَرَها، فسألها القاضي أنْ تعرضَ مَسألتَها، فقالتْ: «إنّ أُمًّا من أهل اليَسار خرجتْ إلى بعضِ شأنِها، فعَهِدَتْ إليّ برعايةِ ابنِها الفَطيم داخلَ بيتِها، وكان يبكي في حِجري، وأنا أُلاعبه، فطرق عليّ الباب وقتَ الغروب طارقٌ فخرجتُ فإذا هي امرأةٌ لم أرَها من قبل، مُمتلئة الجسم غليظة العنق، فدفعتِ الباب، فوقعتُ على الأرض من لَحظتي لشدّة دَفْعِه، فركضتْ إلى الدّاخل، واهتدتْ إلى الفطيم من بُكائه، فركضتُ خلفَها، فلمّا وصلتُ إليها كانتْ قد بَقَرتْ بطنَ الطّفل، وجعلتْ تأكل منه نيئًا». وغَلَبَ البُكاءُ الفتاة وهي لا تزال تنظر في الأرض، فسألْتُها أوصافَ المرأة الّتي بقرتْ بطن الفطيم، فإنّني فكّرتُ أنْ تكون درّيّة، فقالتْ ما قالتْ من امتِلاء الجسم، وعِظم الرّقبة، وقوّة الذّراع، فسألتُها عن لونِ عينَيها، فما اهتدتْ إلى وصفِهما، لكنّها قالتْ: «كان الموتُ يسيل منهما». ولا أدري ما تعني، ولكنّ أحاسيسي كلّها صارتْ تقول لي: «إنّها دُرّيّة». ولم يدرِ القاضي ما يفعل بمثل هذه المَظْلَمة، فصرفَ المرأة، ودفعَ دِيَة الذّبيح لأهلِه، وأمر بدفنِه!

وإذا عَنّ ببالكَ في أحد الأماسي الهادِئة اللّطيفة أنْ تمشي على ضِفّة النّيل فاحرصْ ألاّ يكونَ معكَ أو مع زوجك أو أيّ أحدٍ فطيمًا، فإنّني رأيتُ بعضَ هؤلاء السّفّاحين يخرجون فجأةً، كأنّما انشقّت عنهم الأرض فيهجمون على هؤلاء الرُّضّع فيختطفونهم من بين أيدي ذويهم، ولقد شاهدتُ رجلاً أمسكَ بذراع فطيمٍ يريد استِلاله من ذراعَي أمّه، وهي تُجاذِبه، ثُمّ ارتمتْ على الرّضيع نحو الأرض حتّى لا يُفلِت من بينِ يدَيها، والرّجل مُمسِكٌ بقوّة بذراع الفطيم، يشدّها إليه حتّى انخلعتْ في يده، فطار بها وهو يرقصُ من الفرح، وراحَ ينهشها ويمضغُها بين أنيابه!!

وأصدر القاضي قانونًا غريبًا حتّى يقضي على هذه الظّاهرة، كان القانون يأمر بإحراق مَنْ يُقبَض عليه في خطفٍ كهذا أمام العامّة، ويكون ذلك بدعوتهم إلى ساحةٍ كبيرةٍ، يُنصَب في وسطها عمودٌ عالٍ من حديدٍ، ويُثَبّتُ فيه جَسَدُ الخاطِف، ويُعرَّى وهو حَيّ من أوّل النّهار، وتبدأ النّاس في حِماية الشُّرَطة بالتّوافدِ على السّاحة، حتّى إذا امتلأتْ عن بَكرةِ أبيها، تقدّم القاضي الّذي أمر بإعدامه حرقًا فيرتقي عتبةً قدْرَ ذراع حتّى يراهُ النّاسُ المُتجمهِرون، فيتلو عليه نَصّ الحُكم، ويقرأ عليه: «ومَنْ قتَلَها فكأنّما قَتَلَ النّاسَ جميعًا». ولا يسأله رغبتَه الأخيرة قبل الحَرق، بل ينزلُ عن العتبة، ويرجع إلى أوّل الصّفوف، فتبدأ صيحات النّاس: «قاتل... قاتل...». وآخرون: «إلى جهنّم...». وثالِثون: «ولْيشفِ صدورَ قومٍ مؤمنين». ثُمّ يتقدّم شُرَطِيٌّ مُلَثَّم فيسكب النّفط والزّيتَ والقَطِران على جسد الوحش، ويُغطّيه من رأسِه بالنّفط والقَطِران الأسود حتّى أخمصِ قدمَيه حتّى تبدو عيناه كأنّهما عينَا شيطان تدوران في المحجرَين مرعوبتَين. فإذا تَمّ ذلك، ألقَى أحد الشُّرَطة شُعلةً مُلتهِبةً من النّار على الجسد المَطليّ بالزّيت فيلتهبُ مرّة واحدةً، ويهيجُ النّاس، ويعلو هياجهم، ويُحيطُ رجالٌ من الجُندِ والشُّرطةِ بالمُجرِم في دائرةٍ قُطرها ستّة أذرعٍ يمنعون النّاس الهائجةَ من أنْ تصلَ إلى الجسد المُشتعِل، لكنّهم لا يمنعون الأحذية المُتطايرة من فوقهم أنْ تهوي على رأسِ القاتل، وكذلك العصيّ والحِجارة.

ولقدْ أخمدَ مثلُ هذا الإعدام الجماهيريّ نوعًا ما حركةَ هؤلاء السّفّاحين وأخملَ ذِكرَها، وأخافَ آخرين، لكنّه لم يكدْ يمرّ على اليوم المشهود أسبوعٌ أو عشرةُ أيّامٍ حتّى عادتْ حركة الخطف والذّبح والسّلخ تظهر من جديد! ”

”(٢)

لا دليلَ لديّ

قلتُ لرئيس مجلسِ القَضاء: «إنّها هي، الطّاعون الجديد، إنّ لها أتباعًا وأشياعًا، وإنّها تُعيشهم في الوَهم والخَيال حتّى يتّبعوها، وإذا ما ظلّتْ طليقةً فستقضي على ما تبقّى من أهل مصر». سألني مُستغربًا: «مَنْ تعني يا حكيم؟». أجبتُ بلا تردّد: «دُرّيّة، لقد أنشأتْ جماعةً من الحَشّاشين من أتباع حسن الصّبّاح، ومَنْ تبقّى من ذيولهم وأعادتْ بهم عهدَ القتل». ضَيّقَ القاضي عينَيه: «يا عبد اللّطيف، هذا اتّهامٌ خطيرٌ، انظر ما تقول!». «إنّني مُتأكِّد يا سيّدي مِمّا أقول، هؤلاء المُتوحّشون لا يأكلون لحم البشر إلاّ إذا غُرسَ في عقلهم أنّهم في الجنّة، وأنّ الله أمرهم بهذا، ولا بُدّ أنّها تفعل بأتباعها ما كان يفعله الصّبّاح بأتباعه، يسقيهم شرابًا مُخدّرًا من زهرة الخشخاش ويُهيّئ لهم أنّهم في الجنّة من حدائق وخمرٍ وجَوارٍ وقِيان، ثُمّ يُعيدهم منها، ولا يُرجِعهم إليها إلاّ إذا نفّذوا له طلبه». «الحشّاشون مضى عهدهم يا حكيم». «لم يمضِ يا سيّدي، إنّهم باقون، ويتشكّلون من جديد، ولا أظنّ أنّ عصرًا من العصور سيخلو منهم، في كلّ زمنٍ هناك مَنْ يَقتُل لأنّ الحُور العِين تنتظره في الجنّة». حَكّ القاضي ذقنه، كان يميل إلى رأيي، ولكنّه يحتاج أكثر من ذلك، فسألني: «فما ترى؟». «ألقِ القبضَ عليها بتهمةِ القتل والخطف والذّبح». «وهل لديكَ دليل؟». أجبتُ: «لا دليلَ لديّ، ولكنني أُحِسّ». استنكر قولي، وهتف: «هل يمكننا إقامة الدليل على الأحاسيس؟ أنتَ حكيم وتعرف أنّ هذا غيرُ منطقيّ». رددتُ بثقة: «أعتقد أن الأحاسيس تكون أحيانًا أقوى من ألف دليل». «لا... لا يا حكيم، لن أفعل ذلك». «فأنا أقترحُ عليكَ أمرًا فانظر فيه». «قُلْ». «ابعث مَنْ يُراقبها، فإذا تبيّن لك من خروجها ودخولها وحَرَكاتها وأفعالها ما قلتُه لك فألقِ القبضَ عليها». «رأيٌ لا حرجَ فيه. سنفعل يا حكيم».

كانتْ دُرّيّة تخرج ليلاً، أوّل مغيب الشّمس ولا تعودُ إلاّ قُبيل بداية شروقها في رحلتها الأزليّة. بعثَ صاحب الشُّرَطة اثنَين يراقبونها، اختفى أحدُهم دون أثر، عادَ الحَيُّ منهما إلى صاحب الشّرطة، حضرتُ شَهادته: «كان صاحبي إلى جانبي في دَوْرنا في مراقبتها، نحنُ نُراقبها في اللّيل، اللّيل أعمى، ونحن بين القبور، وظِلال الأشجار فوقَها تبعثُ الرّهبةَ في النّفوس. بينما نحن كامِنون اختفَى صاحبي، كلّ ما سَمِعتُه هو حفيفُ أوراق الشّجر لكنّه كان قويًّا على غيرِ العادة، ارتعتُ تمامًا، إنّهم أشباح، يتحرّكون بسرعة، حينَ اختفَى لم أسمع له صوتًا، ولا صرخةَ استِغاثة، مجرّد صوتٍ مرّ بجانبي كأنّه تَيّارٌ أو ريحٌ سريعة. بعدَها سَكَن كلّ شيءٍ، بقيتُ جاثِمًا مكاني من الرّعب. توقّعتُ أنّهم أكلوه، أو قطّعوه إرْبًا، ما لم أتأكّد منه: هل فعلوا ذلك على مقربةٍ منّي أم أخذوه بعيدًا؟ لأنّ صوتَ أنفاسٍ لاهِثة أو مُختنِقة، كنتُ أسمعها من خلفي، فألتفتُ وأنا أرتعشُ من الخوف فلا أرى إلاّ الظّلام، إنّهم يرون في الظّلام، وإلاّ فما كانوا ليعبثوا بي بهذه الطّريقة. قرّرتُ أنْ أتحرّك من مكاني، لو بقيتُ – هكذا قَدّرْتُ – لأُكِلتُ كصاحبي، إذا كان لا بُدّ من الموت، فلْيأتِ وقد فعلتُ شيئًا. توجّهتُ إلى غرفتها، الجِدارِ عن يساري، والدّرجات النّازلات إليها عن يميني، نظرتُ من النّافذة، رأيتُها، كانتْ تُقطّع طِفلاً قدّرتُ أنّه في السّادسة من عمره أو السّابعة...» قاطَعْتُه: «هل تستطيع أنْ تقول لي ما لونُ شعره؟». «أظنّ أنّه أشقر، كان الضّوء الّذي في الغرفة يقع على وجهه أكثر مِمّا يقع على شَعره». تابعتُ أنا: «وله غَمّازَتان، وفي وسط ذقنه شامةٌ سوداء، وأُذُنه اليُسرَى تحمل في أعلى الصّيوان حبّةً حمراء صغيرة». كانتْ عينا الشُّرَطي تزدادان اتّساعًا: «كيفَ عرفت؟». «إنّه ابنها كرم». توجّهتُ بالكلام إلى رئيس مجلس القَضاء: «لقد أكلتِ ابنَها يا سيّدي، يجب أنْ نُلقي عليها القبضَ فورًا». أجابَ رئيس المجلس: «دَعْهُ يُكمِلْ» ثُمّ خاطبَ الشُّرَطيّ: «وماذا بعد؟». «لقد بقرتْ بطنَه، وأخرجتْ أحشاءَه، وقطّعتْهُ بساطورٍ على وَضَمٍ خشبيّ، ثُمّ وضعتْهُ في قِدر وأوقدتْ عليه النّار». وهربتُ بعدَها، كان هذا أمس، ومن الخوف لم أنمْ حتّى هذه اللّحظة.

أُلقي القبضُ على دُرّيّة وجِيء بها إلى مجلس القَضاء مُقيّدةً بالجنازير، سألها القاضي: «هل أنتِ دُرّيّة؟». أجابتْ وهي ترفعُ رأسَها وتنظر إليّ بفخر: «أنا هي، وقد علّمتُ هذا القابع بينكم ما لم يعلم». وأشارتْ إليّ. نَهَرَها القاضي: «أجيبي على قَدْر السّؤال». ردّتْ وهي ترفعُ عقصة شعرها من فوقَ عينَيها، فتبدو فيهما الذّئاب القديمة بأنيابٍ أشدّ طولاً: «إنّ السّؤال يبعثُ الكلامَ سيّدي القاضي». «أنتِ مُتّهمة بذبح ابنك كرم، وطبخه، فهل هذا صحيح؟». «نعم صحيح».

شهقتُ بصوتٍ عالٍ وأنا في مكاني، نظرتْ إليّ وابتسمتْ؛ خِلتُها تقول: «ما زلتَ طِفلاً، أعرفُ ذلك من اليوم الأوّل الّذي رأيتُكَ فيه، ولولا أنّ ماريّة أحبّتْكَ لكنتَ صيدي من زمانٍ بعيدٍ». نفضتُ رأسي وأنا لا أصدّق ما أسمع، وسألها القاضي وهو يبلع ريقَه: «تقولين أنّكِ ذبحتِه وطبختِه، هل أنتِ مُتأكّدةٌ من ذلك؟!». «نعم أيّها القاضي، لقد فصلتُ رأسَه عن جسدِه، وقطّعْتُه إلى أجزاء، وطبختُه في القِدْر، وأكلتُ من ليلتي، ومَلَّحْتُ ما زادَ عن حاجتي، وقَدّدْتُه، ووضعتُه في أكياسٍ ودفنتُه في غرفتي، لأعودَ فآكل منه وقتَ الحاجة؟». «هل أنتِ صحيحة العقل يا امرأة؟». «ليسَ في مِصر كلّها امرأةٌ أعقلُ منّي». «فلماذا ذبحتِ ابنكِ وأكلْتِه؟». «لقد حاولتُ أنْ أحميه، ولكنّ القَرَم إلى اللّحم البشريّ أصابَ أفواه الآكِلين، فراوَدوني عنه أكثر من مِئة مرّةٍ وأنا أصّدُهم، وآتيهم بلحوم الصّغار الآخَرين دِفاعًا عن ابني فلمّا أيِسْتُ من ذلك، وزادَ إلحاحهم وسعيُهم إلى قنصِه فعلتُ فيه ما فعلتُ». «وتأكلينَه؟». «خيرٌ من أنْ يأكُلَه الغُرباء». «هل تعرفين عاقبةَ ما فعلتِ؟». «ليسَ أحسنَ من عاقبةِ ما فعلتُم؟». «وماذا فعلْنا؟». «جَوّعْتُم أهلَ مِصر حتّى أكل بعضُهم بعضًا». ضَحِكَ القاضي: «تتّهمينا إذًا؟». «أنتم تتّهمون أنفُسَكم، وليأتِينّ عليكم زمانٌ تقولون فيه: كان بمصر ناس». «وتُرعبيننا؟». «ولينقبنّ كلّ جائعٍ بطنَ كلّ شَبِع، ولتُنقبنّ بيوت الأغنياء، وليموتنّ كلّ الأصحّاء، ولا تبقّى إلا الخائنات من النّساء». «من أينَ ما تقولين؟». «أنا عَرّافة، وهو يعرفُ ذلك عنّي، وما أخطأتُ في حرفٍ». لم يُمهلْها القاضي كثيرًا، كتبَ ونحنُ جلوسٌ حُكمَه فيها: «تُصلَّب في ساحة المشهد، حيثُ يراها أكبر عددٍ من النّاس». قالتْ للقاضي: «حقِّقْ لي أمنيةً واحدة». أجابَها القاضي إلى ما طلبتْ: «لكِ ذلك». «أريدُ أنْ أقولَ شيئًا بيني وبين الطّبيب عبد اللّطيف». نظَرَ إليّ عبد اللّطيف، رأى الخوفَ في عَينَيّ، وسألني: «ها أنتَ تسمع، فهل تُجيبُها؟». نظرتْ إليّ مُباشرةً فرأيتُ ذلك القطيع من الذّئاب يعبُر ثلوج بلاد النيروز من مَجاثمه كأنّه يبدأ عهدًا جديدًا من الذُّعر، فقلتُ وأنا لا أكادُ أنطقُ الكلمة: «نعم، أجيبُها إلى ما طلبتْ يا سيّدي». «ففُمْ إليها». قمتُ إليها، لَمّا صارتْ أذني عند فمها، خُيّل إليّ أنّني أسمع أصوات استِغاثات كلّ الّذين رحلوا وكانتْ آخَر ما رأوه في حياتهم هي عُيُونها الذّئبيّة هذه. قالتْ لي بهمسٍ لا يسمعه سِواي: «سأموت، لكنّ موتي انبِعاث. أنا لستُ دُرّيّة. أنا فِكرة. فكرةٌ تخمدُ زمنًا لكنّها تُعاود الظّهور. أنا صورة الشّيطان في الإنسان لَمّا قال له: اكفُر. وصورته في قول قابيل لأخيه: لأقتلنّك. وصورته في قول الحكيم الأوّل: أنا خيرٌ منه. وصورتُه في قول الإخوة: اقتلوا يوسف. وصورته في قول أبي الحَكَم: لأقتلنّه السّاعةَ. وصورتُه في قول الحَجّاج: إنّي لأرى رؤوسًا قد أينعتْ... ثُمّ... إنّني سأُبعَث من على الصّليب كما بُعِثَ عيسى، وسأعودُ كما عادَ السَّعَف، ثُمّ إنّ دمي سيُتمّ اللعنةَ عليكَ وعلى مِصرَ كلّها... وأنتَ ستعيشُ عليلاً وستموتُ عليلاً، وسترتحل ولا جارحة في جسدك إلاّ وهي تَئِنّ، ولن تُحقّق ما تريد في رؤية مَنْ تُحبّ». ثُمّ إنّها رفعتْ رأسَها، وخاطبت القاضي: «لقد بلغتُ غايتي فيما كنتُ أريدُ قولَه للطّبيب».

ورُفِعَتْ صَباح الجُمعة على الصّليب، وجاء النّاس ليشهدوا موتَها، وكان فيهم كثيرٌ مِمّن يعرفُها ويُحبّها، وتوافَدوا إلى المشهد حيثُ الحُسين، وحيثُ رأسُه، وكان بعضُهم يهمسُ وهو في الطّريق: «رأسٌ برأس». وآخَرون يهتفون بينهم وبينَ أشياعهم: «يا لَثارات الحُسين!». حتّى إذا جاء المُصلِّبون، وفردوا ذراعَيها على الخشبة، طاوَعَتْهم دون أنْ تُبدي أيّ مقاومةٍ، وهي تبسمُ عن رِضًا وراحة، فدُقّتِ المسامير في أكفّها حتّى سالَ الدّم، وهي لا تئنّ ولا تتأوّه، ثُمّ شُدّتْ ساقاها إلى الخشبة، وثُبّتَتْ قدماها بمسامير كبيرةٍ، وبذل الدّقّاقون جُهدًا، وعَرقوا وهم يفعلون ذلك، وكانوا يشتمونها في سِرّهم بأقذع الشّتائم، فيما استمرّت هي في ابتِسامتها مُتعالِيةً على أيّ أنّةٍ تخرج منها، فلّما أكمل المُصلِّبون عمَلَهم، ونزلوا من هناك، بدا منظرها وهي تمدّ يدَيها كأنّها مَلاكٌ يُرحّب بالّذين قَدِموا ليشهدوا نَهايَتها، أو كأنّها عروسٌ تهمّ بأنْ تطير بثوبها الأبيض إلى السّماء، وسُمِعَ أحدهم، يقول: «عُلُوٌّ في الحياةِ وفي المَماتِ».

وفيما كانتْ روحُها تُغادر جسدَها مع الوقتِ، لم تتخلّ عن ابتِسامتها لحظة، وكانتْ تُدير نظراتها في النّاس، فلمّا وقعتْ نَظَراتُها عَلَيّ بَكتْ! ❞

” (٣)

تاهَ الدّليل!!

فرّ مَنْ بقي إلى اليوم جهةَ بِلاد الشّام، كانوا يخرجون وهم ألوفٌ من بيوتهم حَذَر الموت، ولم يكنْ من جسدهم ما يُعينهم على أنْ يقطعوا الفَيافي، ولكنّهم جُعِلوا بين اضطِرارَين، وبينَ موتَين، فاختاروا موتًا في الهرب، على موتٍ في البَقاء.

كان النّاس يحملون أحمالَهم وبعضَ ما سَلِمَ من متاعهم بحراسةِ بعضِ الرّجال الّذين استُؤجِروا لهذه المَهمّة خوفَ أنْ يقعوا في أيدي صَيّادي البشر، وساروا في اتّجاهاتٍ شَتّى، أكثرُهم ذَهَب شرقًا باتّجاه بِلاد الشّام، فما كادَ يخرجُ من مصر، حتّى تلقّتْه صَحراءُ سيناء، وفيها ضَلّ قومُ موسى أربعين عامًا، فما بالُ هؤلاء الفارّين من كلاليب الوحوش، يقطعون الفَيافي وفيهم الصّغار والأطفال والرُّضّع والنّساء، وقليلٌ من الرّجال فإنّ أكثرهم ماتوا من قبل.

كانوا يسيرون في قوافلَ مُتهادِيةٍ على الرّمال، ليس في وجوههم ماء، غير النّظرات البائِسات، والأمل المنقطع، والرّجاء الميؤوس، وهم يُؤمّلون ما استطاعوا أنْ يجدوا عندَ أحدٍ أيًّا كان هذا الأحدُ ملاذًا. وكان قد قيل لهم إنّ أرضَ الشّام مُبارَكة، وإنّ العذاب لا ينزلُ بأهلها، وإنّ فيها من الخيرات ما يكفي النّاسَ كُلّهم، وإنّهم ليُرحّبون بمن جاء من أهل المِحن والمصائب فيُنزِلونهم ضِيفانًا حتّى يجدوا سبيلهم إلى رِزقهم. وعلى هذا ساروا... ولكنّ الشّامَ بعيدةٌ على الرّاكبين فكيفَ بالرّاجِلين، والأمل أبعد، والصّحراء لا ترحم، والعطش قاتل، والدّرب طويلة، والرّمال لاهبة، ولَفْح الشّمس لا يكفّ في النّهار، ولَسْع البرد لا ينثني في اللّيل، وهم يُعانون كلّ هذا من أجل أملٍ مصنوعٍ من القول، ولو كان القول يُغني لطلبوا الرّحمة من القَتَلَةِ الأكلَةِ في القاهرة.

سقطَ أوّل مُنهَك، كان رجلاً هَرِمًا، لم يحتملْ، دُفِنَ في مكانه، سَقَطَ الثّاني من لفحة الشّمس، تعاونوا على دفنِه حيثُ قضى، سَيْناء تتحوّل إلى قبورٍ على طول خَطّ الرّحلة، من قبلُ تحوّلتِ القاهرة كلّها إلى قبر. مَشوا، الأمل يدفعهم إلى مُواصَلة السّير، والخوف من كلاليب الأكَلَة وحِرابهم يدفعهم هو الآخَر من ظهورهم إلى الأمام، الأمل حبلٌ غليظٌ يغلّ أيديهم ويشدّ أعناقَهم، لكنّ أجسادَهم لا تستجيب لأنّها ضعيفة، وخائرة، وحزينة، ومُتفجّعة، لكنّ حبل الأمل المُعلّق هذا لا يزال له تأثيره في شَدّ تلك الأيدي ولَيّ تلك الأعناق لحثّ السّير من أجل النّجاة. هل يقطعون الصّحراء؟ أيّ صحراء تقصد؟ صحراء اليأس، أم صحراء النّفس، أم صحراء الموت، أم صحراء الخوف، أم صحراء الذّكريات المُوجِعة... كلّ هذه صحارى، إذا كنتَ تقصدُ صحراء سيناء؛ فهي أقلّ هذه الصّحارى أثرًا، كان يُمكن أنْ تُقطَع لولا بقيّة الصّحارى المُهلِكة!

سَقَطَ الثّالث، كانت امرأة، ليسَ لدينا ماء لغسلها، مَنْ يعرفها من أجلِ رَشَقاتٍ على الوجه على الأقلّ؟ لا أحد، إنّها غريبة ووحيدة، ولا أحدَ يدري مَعَ مَنْ خرجتْ. اسألوا هؤلاء المُرتحِلين كلّهم؟ لا أحدَ يعرفها. تعاون ثلاثةُ رِجالٍ على حفر قبرها، ثُمّ دَفنوها في الموضع نفسِه. سقطَ الرّابع والخامس والسّادس، وحفروا لهم قبورًا على عَجَل، ودفنوهم في أماكنهم. بكتِ امرأةٌ وهي تدفنُ السّابع؛ كانَ طفلَها الوحيد. كيفَ يُمكن أنْ تدفن مَن انتظرتَه عشرةَ أعوامٍ لكي ترى بسمتَه؟! كيفَ يدفنُ الإنسانُ جُزءًا منه في الثّرى وهو يرى؟! مضتِ القافلة إلى مصيرها المجهول.

ضربتِ الشّمسُ عقولَ بعضِهم فذُهِلوا، وآخَرين فجُنّوا، وغيرَهم فأبوا أنْ يُتِمّوا السير مع القافلة، قال رجلٌ في السّتينات: «لم أعدْ أقوى. لقد خرجتُ حذر الموتِ فوجدتُ أنّني خرجتُ إليه». وقضى مُرتاحًا، هكذا قال عِبارته الأخيرة، تلكّأ القادِرون في القافلة على حَفر قبرٍ له، إنّ حفر القبر يستنفدُ قُوانا، نحنُ بحاجةٍ إلى هذه القُوى من أجل أنْ نظلّ قادِرين على السّير، عُقِدَ مجلسٌ للتّشاور في الأمر حول دفنِ الجُثّة، قال أحدهم: «نُوفّر قُوّتنا من أجل أنْ يعيشَ مَنْ تبقّى». اعترضَ آخَر: «ونتركه للوحوش وللطّيور الجارحة؟!». «أمرُ الله، وماذا نستطيع أنْ نفعل؟! هل تريدُ أنْ نحفر له قبرًا لكي ندفن معه أحدَ الحَفّارين؟! إنّنا لا نملك تلك القُوّة للمشي حتّى نُهلِكَها في الحفر». «إنّها حُرمة الجسد، كيفَ تتركونه عاريًا للهواء دون أنْ تُكرموه بالدّفن، هل جُننتم؟». «سيُصيبنا الجنون بعدَ قليل». «لستم مُسلمين ولا مؤمنين إنْ طاوَعتْكم أنفسُكم بتركه دونَ مُواراة». «إذًا احفرْ قبرَه بيدك». «وأنتم؟». «سنواصل السّير؟». «لا يُمكنني ذلك، هل ستتركونني وحدي هنا؟». «إذًا لا تتفلسفْ كثيرًا، الضّرورة تقتضي أنْ نمضي، ولا نُرهق أنفسَنا وقُوانا بحفر قبرٍ له»....

وهكذا مضى الجِدال بين أهل الرّأي، الّذين جعلوا من أنفسهم بأنفسهم أهلاً للرّأي، إذ كانت القافلة تسير وحسب من قبلُ دون أنْ يكونَ لها مَنْ يبتّ في شؤونها، كان هذا في السّابق أوّل ما خرجتْ من مصر وهي آمنةٌ نِسبيًّا، أمّا الآن وقد صارتْ في جوف الصّحراء، فقد تحوّلتْ إلى مجتمعٍ مُتعدّد مُتنوعٍ قائمٍ بذاته، وله تطلّعاتٌ وأحكامٌ وضرورات، ويجب أنْ تضبط حركتَه وإيقاعَه بعضُ القوانين أو التّوافُقات، ولِهذا ظهر مجلس الرّأي هذا.... انبرى في نهاية الجِدال مَنْ رأى أنّه توصّل إلى رأيٍ يُوفّق بين الآراء كلّها: «نُهيل فوقَ التّراب دون أنْ نحفر له حُفرة». استُحسِن الرّأي، وتابعَ هو: «عشرةٌ يفعلون ذلك، كلّ واحدٍ يُهيلُ فوقَه قبضتَين أو ثلاثًا حتّى نوزّع الطّاقة المُستنفَدَة على الكلّ فيقلّ أثرها». ومَضَوا.

لكنّ أمدَ الصّحراء طويل، ونَفَسَها أطول، ودروبَها غامِضاتٌ يضلّ فِيها الدّليل الخِرّيت، وأسهل ما يكون الضّياع فيها، وهي بابٌ مُشرَعٌ على الجِهات كُلّها، تظنّ الباب يُفضي إلى الشّرق فإذا هو يُفضي إلى الشّمال، وحينَ تُدركُ ذلك لا تُدركه إلاّ بعدَ فَوات الأوان، وحيثُ يقتضي الأمر أنْ تُنفقَ أيّامًا أخرى لتعودَ إلى الجادّة الصّحيحة. لم يكنْ هناك دليلٌ حاذق، أحدُهم أوهمَهم أنّه كذلك، وثانٍ قال إنّه يعرفُ بالنّجوم، وقد مَضَوا على سُنّة الأوّل، وعلى رأيه وهَدْيه، لكنّ الدّليل تاه، فانظر كيفَ يكون الأمر حينئذٍ، وهَمّ به جَماعةٌ لولا أنّه حَذّرهم: «أنا لم أقلْ لكم إنّني خبير، قلتُ لكم إنّني أعرف». وهَجَمَ عليه أحدُهم يريدُ أنْ يُنشِبَ ذراعَيه ويضغطَ على عنقه ليخنقه، فرفَع في وجهه حربةً وصرخ: «مَنْ يقتربُ منّي سأطعنه بهذه». ودَبّ الذّعر، لم يخرجوا ليقتتلوا، خرجوا ليهربوا من القتل، فإذا به يلحقهم إلى هنا. باتوا عاجِزين، انبرى مَنْ يُمكن أنْ يكون رئيسَ أهل الرّأي: «لقد فعَلَ جُهدَه، ويُمكن أنْ ننجو، وليس من الحِكمة أنْ نُحمّله المسؤوليّة وحده، نحنُ كُلُّنا صنعْنا هذا». ولكنّ أحدهم قال: «لقد وضعْنا أرواحَنا جميعًا في قبضةِ كَفّه». ردّ عليه ثالث في المجلس: «لقد كان هذا من الغَباء بِمكان. مَنْ يُسلّم روحَه لاحتِمالٍ كهذا؟». قال رابع: «إذا لم يكنْ من الموت بُدّ، فلْيكنِ الموتُ بشرفٍ، لا خصومة، لا نِزاع، السّلام الدّاخليّ يجعل قُدوم الموتِ سَهْلاً، نحنُ بحاجةٍ إلى موتٍ مُريح!».

ومَضَوا. سقطَ الحادي عشر، والثّاني عشر، والثّالث عشر في يومٍ واحد، كان أحدهم عُضوًا في مجلسِ الرأي، فحفروا له قبرًا، ثُمّ حفروا للآخرين لموتهم بمعيّته، كان ذلك تكريمًا لن يحصل عليه الآخرون فيما لو ماتوا وحيدِين! أنْ تموتَ مع رجلٍ مُهمّ قيمةٌ مُضافَة! لكنْ مَنْ كان ذا حَظٍّ ليموتَ في اليوم الّذي يموتُ فيه هذا النّوع من الرّجال؟!

كان خيطُ القافلة قد نقص، صار أقصر، مِن على جبلٍ في الصّحراء إذا نظرتَ إليه، وجدتَ أنّه خيطٌ أسودُ ينقطعُ في أجزاءٍ منه بسبب أولئك المُتأخّرين غير القادرين على اللّحاق بالرّكب من الضّعف أو الإشفاء على الموت، وبعدَ قليل بالفعل سيقسطُ مَنْ في المُؤخّرة ليلفظَ أنفاسَه الأخيرة، والقافِلة؟ لن تنظر إلى الوَراء. ستسير؟ نعم!! كان هذا أوّل ميّتٍ يُترَكُ دون أنْ يُدفَن، سيكون صيدًا سهلاً للوحوش بعدَ أقلّ من نصفِ نَهار، وللطّيور الجارحة.

نظرةٌ أخرى إلى القافلة من الجبل الّذي يليه، إنّها تزدادُ قِصَرًا مع الوقت، الدّليل طعنَ نفسَه بحربته، لقد أشبعوه لومًا، لم تمرّ ساعةٌ إلاّ ورَمَوه بأوجع العِبارت: «لولاكَ لنَجونا... لقد وَثِقنا بكَ وأنتَ خُنتَنا... لو قلتَ لنا من البداية لعرفنا كيفَ نتصرّف...» أنهى حياته كما يليق، أمسكَ الحربة وحَزّ بها عُنُقَه، فراحَ دمه يشخبُ وينفرُ ويتدفّق، لم يكدْ يُغطّي صدره وثيابه حتّى ترنّح وسقط. لم يمسّه أحدٌ، القافلة مَضَتْ، غير أنّ بُقعةً سوداء من هنا تبدو لطخةً في مدًى مَسموم!

القافلة تتناقَصُ مع الدّرب، تنبعج، تنفلت، تنشقّ، تترنّح، تتباطأ، ينفرطُ عِقدُها، يتناثرُ أعضاؤها، يموتُ أهل الرأي فيها... الموتَى لا يكترثُ لهم أحدٌ، سواءٌ أكانوا عاديّين أم من أهل الرّأي... الموت ساوى بين الجميع في هذه المرحلة، لم يعدْ أحدٌ يلتفتُ إلى الوراء أبدًا، يُمكن بالخُطوات الأخيرة المُتّجهة إلى الأمام أنْ تنتهي الرّمال الصّفراء وتبدأ الرّمال الحمراء، يُمكن أنْ ينجلي المدى عن واحةٍ، عن ماءٍ يروي الشّفاه المُتشقّقة، عن أُناسٍ لديهم كِسرةُ خبز، أو نواةُ تمرٍ صالحة لأنْ تُمَصّ... لكنْ لا شيءٍ من هذا يلوح في الأفق.

القافلة تتناقَصُ حتّى لا تكادُ ترى لها خيطًا من هنا من هذا الموقع المُرتفِع الّذي يُمكن أنْ تراها فيه... أصبحتْ مُجرّد نُقَط مُبعثرة، تتتحرّك في اتّجاهات مُتباينة، ثُمّ تسقط هذه النُقَط دون حراك!! ❞

(٤) ❝

مع العُجبِ العِثار، ومع الاستِبداد الزّلل

أيّها الإنسان؛ هذا هو الموت، لا تترفّع بحيثُ تُستَقَلّ، ولا تتنازل بحيثُ تُستَحسَن وتُستَحقر. انتزحْ عن عادات الصّبا، وتجرّدْ عن مألوفات الطّبيعة، واجعلْ كلامَكَ لاهوتيًّا.

إنّني أسعى إلى أنْ أكتبَ كلّ ما رأيتُ، فهل يُعين العقل والوقتُ على ذلك؟ ينبغي للإنسان أنْ يقرأ التّواريخ وأنْ يطّلع على السِّيَر وتَجارِب الأمم، فيصير بذلك كأنّه في عمره القصير قد أدركَ الأمم الخالية وعاصَرَهم وعاشَرَهم وعرفَ خيرَهم وشَرّهم. ولقد قربّتِ المِحن في زماننا كلّ هذا، فالطّاعون خلطَ الأمم والأخبار، والزلازل ضربتِ الأفكار والآمال، والجوع أخرجَ في الإنسان أحسنَ ما فيه وأسوأه. تثبّتْ ولا تتعجّلْ ولا تعجب؛ فمع العُجبِ العِثار، ومع الاستِبداد الزّلل.

أيّها الفاني؛ إذا حدثَ لكَ فرحٌ وسرورٌ ببعضِ أمور الدُّنيا فاذكر الموت، وسرعة الزّوال، وأصناف المُنغِّصات. وإذا أحزنكَ أمرٌ فارْجُ، وإذا اعترتْكَ غفلةٌ فاستغفرْ، واجعل الموتَ نُصبَ عينَيك.

أيّها الفاني؛ اعلمْ أنّ النّاسَ عيونُ الله على العبد يُريهم خيرَه وإنْ أخفاه، وشَرّه وإنْ سَتَره، فباطنه مكشوفٌ لله، والله يكشفه لعِباده، فعليكَ أنْ تجعل باطنكَ خيرًا من ظاهرك، وسِرَّكَ خيرًا من علانيتك. ولا تتألّم إذا أعرضتْ عنكَ الدُّنيا، ولو عرضَتْ لكَ لشغَلَتْكَ عن كسب الفضائل.

كنتُ قد نويتُ بعدَ أنْ لملمَ الطّاعون أردانَه وأشلاءَ ضحاياه، أنْ أكتبَ ما حدثَ في هذه السّنوات الأربع الأخيرة، ولقد عزمتُ على ذلك، فإنّني بعدَ انتِشار آكلي لحوم البشر في الطّرقات، أويتُ إلى بيتي، فلزمْتُه أكثرَ الوقت، ولم أعدْ أخرج إلاّ قليلاً، إلى البيمارستان أحيانًا، أو إذا دَعاني أحدُهم إلى بيتِه لأُعاينَ له مريضًا وأصفَ له دواءً. وكان الذّهاب إلى المرضى في البيوت ديدَني من قبلُ، لكنّه اليوم كَثُر لفُسحةٍ في الوقت. أمّا مُنشأة القاضي الفاضل فقد أصبحتْ بلقعًا لا يُزار، وخرابًا لا يُؤمّ، وموتًا أسودَ! صارتْ غرف المكتبة تمتلِئ بِعِظام البشر المأكولين الّتي تحلّلتْ، والحدائق تعجّ بالقبور والحُفر الّتي أُلقِيَ فيها الموتى، ولو رُحتَ تمشي في أنحائها لدُستَ في كلّ شبرٍ على عظمةٍ في موضعٍ كانتْ تنبتُ فيه وردةٌ فَوّاحةٌ أيّام الرّخاء؛ فذلك أمرُ الإنسانِ كلّه!!

ولقد صَدّرتُ كِتاب الإفادة والاعتِبار الّذي أروي فيه هذه الحِكاية، وكتبتُ هذه الكلمات: «اللهمّ أعِذْنا من جموح الطّبيعة، وشُمُوس النّفس الرّديّة، وسَلِّسْ لنا مَقارّ التّوفيق، وخُذْ بِنا سَواء الطّريق، يا هادي العُمي، يا مُرشِدَ الضُّلاّل، يا مُحيي القلوب الميّتة بالإيمان، خُذْ بأيدينا من مهواة الهَلَكة، ونَجّنا من ردغة الطّبيعة، وطَهّرْنا من دَرَنِ الدُّنيا الدّنيّة بالإخلاصِ لكَ والتّقوى، إنّكَ مالكُ الدُّنيا والآخرة، سُبحانَ مَنْ عَمّ بحكمته الوجود، واستحقّ بكلّ وجهٍ أنْ يكونَ هو المعبود، تلألأتْ بنور وجهكَ الآفاق، وأشرقتْ شمسُ معرفتكَ على النّفوس إشراقًا وأيّ إشراق...!». ثُمّ شردتُ وأنا أعودُ إلى أيّام نشأتي في بغداد، أتذكّر فيها أيّام الصّبا، ودربَ الفالوذج، والحلوى الّتي كانتْ أُمّي تشتريها لي، وأبي الّذي كان يأخذني إلى الدّرس، ويحرصُ على ذلك حتّى إنّه اكترى لي بيتًا لكي أكون قريبًا من المدرسة... فاستعبرتْ عيناي، ورحتُ أمسحُ الدّموع بطرفِ كُمّي، فسمعتُ صوتَ طرقِ الباب، فخرجتُ فإذا هو أحدُ الحُجّاب، فذكّرني أنّ عَلَيّ حُضُورَ مجلسَ القضاء كما طلبَ منّي رئيس المجلسِ ما استطعتُ من أيّام الأسبوع، وكنتُ غالِبًا ما أختلفُ إليه يومًا بعدَ يوم.

وقد جلستُ أنظر في مجلس القاضي وأسمع، فجيءَ بامرأةٍ، وقد رَبَطَتْ إلى عُنُقِها طِفلاً مَشويًّا، ويبدو أنّها فعلتْ ذلك حتّى لا يقع منها أو لا يُختَطف، وكانتْ تأكلُ منه كلّما جاعتْ، كانتْ امرأةً في أواسط الثّلاثينيّات كما يبدو من هيئتها، كانتْ تُشبه دُرّيّة، ولا أدري إنْ كانتْ تُشبهها حَقًّا، أمْ أنّني صرتُ أرى كلّ امرأةٍ تأكل البشر هي دُرّيّة، إنّها تُشبهها على الأقلّ في هذا الفِعل الإجراميّ الّذي يُخالِطُ الخَيال. كانتْ رَثّة الهيئة، حاسِرة الرأس، وشَعرها قد تلبّدَ كأنّ الماء لم يمسّه من شهورٍ، ووجهها تعلوه الأوساخ والسّواد والقُروح، كأنّها لم تستحمّ في حياتها، وكانتْ عرجاء عَرَجًا خفيفًا، إذْ إنّها لم تقفْ مُعتدلةً تمامًا، وكانت تميل جِهةَ رجلها الأقصر، الجهة الّتي يتدلّى من عنقها الصّغير المشويّ، وكانتْ تنظر بعينَين فارغتَين كأنّها عمياء، وهي ليستْ كذلك. وكانتْ في سُكوتها تَبين شِفاهُها عن أسنانٍ عريضةٍ حمراء، لا أدري أهي حُمرةٌ تنعكس من لثّتها، أم هي حمرةُ التوحّش والدّم المسفوح؟ وكانتْ تتظاهر بأنّها لا تعرفُ لغتَنا، فسألها القاضي: «مَنْ هذا الّذي في عُنُقِك؟». فلم تُجِبْ. فكرّر السّؤال فظلّتْ صامتة.

ثُمّ هَدّدها: «إنّه دليلٌ على أنّكِ قتلتِه وشوَيتِه، وهذا كافٍ لإعدامك». فلم تنطقْ بكلمةٍ، غير أنّها تحرّكتْ في مكانها، فبان قِصَرُ رجلها، واختلجَتْ شفَتَاها فغطّتا على أسنانها العريضة، ثُمّ انفرجتا من جديدٍ، كأنّها كانتْ تريدُ أنْ تقول شيئًا ثُمّ تراجعتْ. فأمر القاضي أنْ تُضرَب بالسّوط، فضُرِبتْ عشر سِياطٍ، فلم تتكلّمْ، فسألها من جديد: «مَنْ هذا الّذي في عُنقِك؟». فلم تُحِرْ جوابًا. فقال لها مُغضَبًا: «هل أنتِ خرساء؟». فأجابتْ: «لا». ففرد يدَيه وازدادَ غضبُه: «ما دمتِ غير خرساء فَلِمَ لا تُخبرينا مَنْ هذا؟». فظلّتْ صامتةً. فأمر بضربِها، فضُرِبَتْ عشرَ سِياطٍ أخرى، فلم تتحرّك عن موقفِها. فسألها القاضي، وهي تلهثُ، وقد غُطّتْ بالدّم: «أهو ابنُكِ؟». فنظرتْ بعيدًا. «أهو ابنُ جيرانٍ لكم؟ أقمتِ باختِطافه من بينَ يدَي أمّه؟ أم اختطَفتِه من أحدِ البيوتِ وسرَقْتِه؟». فظلّتْ على بَكَمِها، ثُمّ أمرَ القاضي بجلدها من جديد، فُجلِدَتْ حتّى تقطّع نَفَسُها لا تنبسُ بكلمةٍ، لكنّ صوتَ لُهاثِها وانقِطاع نَفَسِها كان مسموعًا. فوددتُ لو أنّ القاضي أمر بقتلها قتلاً سريعًا على أنْ

تُعذَّبَ هذا التّعذيب أمامي. لكنّ سِياطَ الجَلّاد ظلّتْ تهوي على جسدها حتّى ماتتْ، ثُمّ سُحِبَتْ، ودُفِنَتْ دون غُسلٍ ولا صَلاةٍ في مقبرة المُجرمين.

ثُمّ عُرِضَ علينا رَجُلان، فسأل القاضي الأوّل عن الثّاني: «هل تعرفه؟». فأجاب: «أعرفه، وهو أعزّ أصدقائي». فلمْ يُنكِر الثّاني مقولة الأوّل، وهَزّ رأسه بالتّصديق، فبدا التّعجّب على مُحيّا القاضي ومُحيّاي، فجلسْنا أنا والمجلسُ نستمع إلى حكايةٍ جديدةٍ من حكايات آكلي لحوم البشر، قال الأوّل: «إنّ صديقي هذا دَعاني في عام الجوع والجدبِ هذا إلى طعامٍ عنده، فأجبْتُه إلى ما طلب، ومَنْ يرفضُ دعوةً إلى اللّحم في هذه الأيّام؟ فلمّا ولجتُ البابَ إلى منزله وجدتُ في السّاحة مجموعةً من الفُقراء رَثِّي الثّياب، لم أرهم معه من قبلُ، ولم أرهم في حياتي كُلّها، فسألتُه: أهم مَدعوّون إلى الوليمة؟ فقال لي: ستعرفُ عندما ترى. فسألتُ: ومن أينَ لكَ بهم؟ لم ألتقِ بهم معك من قبل؟ فردّ: ستعرفُ عندما ترى. فاستربْتُ قليلاً، وكنتُ قد سمعتُ بعضَ الأهوال في هذا الشّأن مِمّا يتداوله النّاس، فمضيتُ معه إلى الدّاخل تاركين السّاحة وأنا مُتوجّس أشدّ ما يكون التّوجّس، فلمّا صِرنا على الباب وهَمَمْنا بالدّخول، رأيتُ مجموعةً أخرى من هؤلاء المُشرّدين المَرثُوثِين وهم يحملون قُدُورًا فيها طبيخٌ، ولحمٌ كبيرٌ». فقلتُ وقلبي يرتعش: «فما هذا اللّحم يا صديقي؟»، فردّ: «ستعرفُ عندما ترى». ثُمّ إنّني توقّفتُ بُرهةً على الباب أراقبُ هؤلاء المُشرّدين وهم يحملون قدور الطّبيخ يدخلون بها إلى المنزل، فأمعنتُ النّظر في اللّحم، فوجدتُه قِطَعًا كبيرةً لم أعْهَدْها في اللّحم الّذي نأكله عادةً، وليس معه خبزٌ ولا شيءٌ يُؤكَل به، فسألته: «سنأكل اللّحم من دون خبز؟»، فردّ: «ستعرفُ عندما ترى». فدخلتُ وساقايَ لا تقويان على حَمْلي، وفكّرتُ في أنْ أُسلِمهما للفِرار، ولكنّني كنتُ أقول لنفسي: «إنّه صديقي، وإنّه لن يغدر بي، وإنّ بعضَ الأخبار الّتي سمعتُها في شأنِ أكل لحوم البشر فيها تهويل، ولو حدثتْ مع أناسٍ تجرّدوا من الإنسانيّة، فلن تحدثَ مع صديقي هذا الّذي أعرفُه وألزمُ صُحبتَه منذ أكثر من عشرين عامًا...»، فدخلتُ معه إلى المنزل، فما عَتَّمْنا أنْ جلسْنا، والقدور تهوي تِلو القدور مَملوءةً باللّحم الدَّسِم، ولو كان صديقي كريمًا فلن يكونَ بهذا الكرم في مثل هذه القدور المُنتفِخة باللّحم في زمن الجدب هذا، فزادَ ذلك مِنْ شَكّي، ولم تبقَ إلاّ شعرةٌ رفيعةٌ من أجل أنْ أُصدّق الفِكرة المُرعِبة في أنّ هذا الصّديق الوفيّ يُقدّم لي على المائدة لحمًا بشريًّا، وأنّ الّذين صادوه له وباعوه هم هؤلاء المُشرَّدون القَذِرون. فطلبْتُ منه أن أذهبَ إلى الحَمّام قبل أنْ أشرعَ بالأكل، فأجابني، وهو ينظر في عَينَيّ ويرى خوفي ويبتسم، فقمتُ إلى الحَمّام، فوجدتُ فيها خِزانةً مُغلَقة، تقطرُ من جوانبِها على الأرضِ دمًا، فتشجّعْتُ ففتحتُها، فكانتِ الصّدمة الّتي كادتْ تطرحني أرضًا، لقد كانت الخِزانة مليئةً برؤوس آدميّةٍ مقطوعة، وبلحم البشر وقد جُهّزَ قِطعًا، فاتّكأتُ على جِدار الحَمّام لَمّا أحسستُ بدوخة، واستعدتُ قدرتي على الوقوف، وفتحتُ باب الحَمّام، وهربتُ بأسرعِ ما يُمكنني الهرب، وأنا أصيحُ من الذّعر، وصاحبي هذا يصيح: «إلى أينَ يا صديقي؟! أنا جَهّزتُ لكَ طَعامًا لم تأكلْ مثلَه في حياتك».

ثُمّ سكتَ الأوّل، فسأل القاضي الثّاني: «هل ما قاله صاحبك صحيح؟». فردّ الأوّل دون تردّد: «نعم، صحيح». فازدادَ عَجَبُنا منه، فسأله القاضي من جديد: «فما حَمَلَك على ما فعلتَ؟». فردّ وهو ينظر في وجه صديقِه بأسى: «كُنتُ أريدُ أنْ أُكرِمه!!». "

" (٥)

الأطبّاءُ الثّلاثة

أطيبُ القلوب قلوبُ الأطبّاء، وأكثرها رِقّة وحِسًّا، وإذا دُعُوا إلى واجبٍ أجابوا، وإذا لَزَبهم النّداء لَبّوا، ولو كان ذلك على حِساب مشاعرهم ووقتهم، ومع أنّ هذه فضيلة لا يتمتّع بها إلاّ القليل، إلاّ أنّها هي ذاتُها مَثلبتُهم، وموقعُ شَرَكِهم، وحِبالةُ صيدِهم. ولقد قضى في ذلك ثلاثةُ أطبّاء نَحْبَهم!

كان الأوّل (خليل)، إذْ بعدَ موتِ والده بشهرين، زارني ظُهرَ أحدِ الأيّام في بيتي، وقد تغيّر وجهه، وامتقع لونُه، وغاضَ بهاءُ قَسَماته، وخملتْ حركتُه، ولَمّا سألتُه عن ذلك، قال: إنّ موتَ الأب أفظعُ ما مررتُ به في حَياتي، فترحّمْنا عليه معًا، وتذاكرْنا عهده، وأُبنا إلى رُشدِنا؛ فما قضى به الله لا تردّه قُوّة. ثُمّ إنّه راحَ يُحدّثني بِما رأى من غرائبَ وعجائب، فقلتُ له إنّني عاينتُ كما عاينتَ، فهل هذا في مصر أو القاهرة وحدها؟ فردّ: «إنّ البِلاد كلّها اليوم تتحوّل إلى مُتوحّشين، وإنّ الله إذا لم يُهلِك هؤلاء ويأتِ بخلقٍ جديد، فإنّهم سيَأكُلون ويُؤكَلون حتّى يتفانَوا!».

ونحنُ إذْ ذاك، جاء أحدُ معارفه، وطرق الباب وأذنتُ له فدخل، فسألتُ (خليل) عنه، فقال إنّه (صِدقي) ابنُ عمّي، سَمّاه عمّي على اسم أخيه الأكبر، وصارَ وحيدًا من أيّام الخسفِ والزّلازل، بقي حَيًّا لأنّه كان في حاجةِ أهله في السّوق، فلمّا وقع الرّدم على البيت دفنَ أهله جميعًا تحته ونجا هو. قال لخليل: «إنّني أشعرُ بالتّعب». اختبر خليل درجَة حرارته، فوجدَ أنّها مُرتفِعة، وأنّ الحُمّى تستوطن جسده، وكانتْ عيناه ذاويتَين، طلبَ منه أنْ يُقصِي عنه طرف جلبابه، ونظر تحتَ إبطَيه، فإذا هي الدّمامل، فشهق، وإنْ كانتْ لا تزال في أوّل ظهورها، وسألني: «هل عادَ الطّاعون للظّهور من جديد يا سيّدي؟». أجبتُه: «ربّما، مع أنّني أعتقدُ أنّ دمامل ابنَ عمّكَ هذا مؤشّرٌ على رحيل الطّاعون لا على قُدومه، وأنّه من الّذين مَسّتْهم أذيالُه، لكنّ الشّفاء منه الآن مُمكِنٌ، وأقترح أنْ تذهب به إلى البيمارستان، فهناك تجد الأدوات والأدوية المُناسِبة». هَزّ ابنُ عمّه رأسَه بالرّفض، وقال: «يكفي أنْ تُطبّبني في بيتكَ أو بيتنا، أنا لستُ بحاجةٍ إلى مصحّة». وافقه خليل على الفور، لكنّني نصحتُه بالبيمارستان فالظّروف هناك أفضل من أيّ بيت، والبيمارستان الآن ليس فيه اكتِظاظ الأيّام الأولى للطّاعون، لكنّ ابن العمّ أصرّ على ابن عمّه الطّبيب أنْ يكون التّداوي في بيته. استأذنني خليل: «إنّه ابنُ عمّي الأصغر، وإكرامًا لذكرى أبيه وعمّي سأذهبُ معه». وسارا، هتفتُ: «بعدَ أنْ تُجريَ له الأمور اللازمة، عُدْ إليّ لأنّني أريدُ أنْ أُكلّمكَ في أمرٍ مُهمّ. بالمُناسبة أين سالم؟ هو الآخَر لم أعدْ أراه، هل تشتّت شملُنا على هذا النّحو؟ لقد كُنتما أمهر طُلّابي وأعزّهم إلى قلبي». سلّم عليّ خليل وكادَ يُقبّل يدَيّ: «اعذرْ قلّة حيلتنا يا سيّدي، واغفرْ لنا عُقوقَنا»، وغادَر مع ابن عمّه.

انتظرتُ (خليل) حتّى غربتِ الشّمس ولم يعدْ، وانتظرتُه حتّى انتصفَ اللّيلُ ولم يعدْ، فقلِقتُ عليه كثيرًا، وهممتُ أنْ أركبَ الأبلق وأذهبَ إلى بيتِه لأطمئِنّ عليه، ولكنّ اللّيل كان قد مدّ ظِلالَه على كلّ ساكنٍ، والخوفُ من أَكَلة البشر قائمٌ، وهم يَستشرسون في هذه الأوقات أكثرَ من غيرها، فقلتُ إنْ خرجتُ أنا الآن وقعتُ في حِبالهم، وللصّباح عيون، وإنّ غدًا لِناظِره قريبٌ.

فلمّا أشرقتْ شمسُ اليوم التّالي همزتُ الأبلق، وسِرتُ به إلى بيتِ خليل، فطرقتُ الباب فلم يفتَحْ لي أحدٌ، فأعدتُ طرقَه اثنتَين أو ثلاثًا، فما سمعتُ نأمةً، فشككتُ في الأمر، وخفتُ أنْ يكونَ قد أصابَه مكروه، ثُمّ إنّ ابنَ عمّه حسبَ ما دارَ بينهما أمسِ من حِوارٍ أمامي يُفتَرضُ أنْ يكونَ هنا في بيتِه، ولا بُدّ أنّه سَمِعَ طرقي على الباب، أَفَيمنعُه المرض أنْ يقوم فيفتحَ لي؟ كلاّ؛ لا بُدّ أنّ في الأمر شيئًا. فشجّعتُ نفسي، ودفعتُ الباب، فصَرّ كأنّه شخير رجلٍ هَرِمٍ يُذبَح، لا أدري لِمَ صار أمر الذّبح يبرز في خيالي ويدور في خَلَدي كثيرًا هذه الأيّام... لا بُدّ أنّ السّبب مجالس القَضاء الّتي أشهدها لصنفٍ هم أيّ شيءٍ غير أنْ يُسَمَّوا بشرًا...!! المهمّ مضيتُ في دخولي، واجهتْني في البداية غرفةٌ مُتوسّطةٌ بينَ الغُرَف تُفضي إلى أربعٍ على أطرافِها، فنظرتُ في الأولى فلم يكنْ فيها أحدٌ، فهتفتُ بصوتٍ عال: «السّلامُ عليكم... يا أهلَ الدّار...» لكنّ صوتِي ضاع. كنتُ قد فتحتُ باب الغرفة الثّانية، ونظرتُ فيها فلم أرَ فيها بشرًا، ثُمّ أغلقتُ الباب، في أثناء ذلك شعرتُ بحركةٍ غريبةٍ خلفي، استدرتُ بسرعةٍ فرأيتُ صِدقي هاجِمًا ومعه ساطور يُريدُ أنْ يهوي به على رأسي، فتراجعتُ إلى الوراء، وصرختُ من الرّعب، ووقع السّاطور على الباب فَشَقّه بضربةٍ واحدة! فانقطع نَفَسي من الهلع، وركضتُ أبحثُ عن مخرجٍ فحانتْ منّي التِفاتةٌ إلى الغرفةِ الّتي اعتقدتُ أنّه خرجَ منها، فإذا هو خليلٌ مُقطّعًا بذات

السّاطور الّذي يهجم به عَلَيّ صِدقي، وإذا هو قد رمَى أشلاءَه في كلّ مكانٍ من الغرفة، فألجأتْني حلاوة الرّوح إلى الرّكض بسرعة، والخروج من الباب، فوجدتُ الأبلق في الخارج يصهل ويفحصُ الأرضَ بحوافره، فاعتليتُه بقفزةٍ واحدة، وطرتُ به إلى مجلس القضاء، فسمعوا منّي، وبعثوا إلى بيتِ خليلٍ، فقبضوا على صِدقي وأتَوا به، فعرفتُ أنّ الدّمامل كانتْ حيلةً، وأنّه ليسَ مُصابًا بالطّاعون، وحينَ سأله القاضي: «لِمَ فعلتَ ذلك بابن عمّك؟». ردّ بهدوء: «لقد سمعتُ من

أصدقائي أنّ لحمَ الأطبّاء أطيبُ لحمٍ بشريٍّ يُمكن أنْ يُذاق!». فتلَمّسْتُ جنوبي خشيةَ أنْ يكون هذا السّفّاح قد اقتطعَ منه لنفسِه شيئًا!!

ومضى (خليل)، دفنتُه بيدَيّ، أعني دفنتُ ما تبقّى منه مِمّا استطعْنا إنقاذه من بينِ يدَي ابن عمّه المُجرِم، كُنتُ أوسّده، جذعه المنقوب عن يمينه، ليرتاح في هذا المثوى على جنبه، وأتذكّر أبيات عمرو بن معديكرب الزّبيّدي، وأبكي إذْ يقول:

كم من أخٍ لِيَ صالحٍ

بَوَّأتُهُ بِيَدَيّ لَحْدَا

ما إنْ جَزِعْتُ ولا هَلِعتُ

ولا يَرُدُّ بُكايَ زَنْدَا

ذَهَبَ الّذينَ أُحِبُّهم

وَبَقِيْتُ مِثْلَ السَّيفِ فَرْدَا

وأمّا الثّاني، فإنّ امرأةً في الشّارع تعلقّتْ بأذياله، وتوسّلتْ أمامه وبكَتْ، واستحلفتْهُ أنْ يأتِيَ معها إلى دارها ليرى ما حلّ بابنِها الصّغير، كان يرى دُموعَها حقيقيّة، ولم يكنْ يدري أنّ أكذبَ ما في المرأة دموعها، فصَدّقها وإنْ ظَلّ في نفسِه منها شَكّ، فدفعتْ إليه خمسةَ دنانير مُقدّمةً بذلك ثمنَ عِلاجِه لابنِها قبل أنْ يراه، فدَخَله الطّمع، والطّمع شِدّتُه في خَفائه، فقَبِل، وتَبِعها، فمشتْ أمامَه في الطُّرُقات، فتركتْ ما كان منها كبيرًا يتوسّط الدّور، وأخذتْه إلى الأزقّة الضّيّقة الّتي ينتشر على جانِبَيها الهَدْم فاستراب، فنظر إلى الدّنانير الخمسة في يده فسار خلفَها، وكلّما أبطأ الشّكُّ قدَميه أسرعَت الدّنانير بِها، حتّى وصلتْ به إلى مكانٍ لم يعدْ فيه للدّنانير قدرةٌ على أنْ يمشي خلفَها مَزيدًا من الخُطا، فسألها عن البيت، فقالتْ: «إنّه قريب». فردّ: «إنّكِ تقولين إنّه قريبٌ منذ أكثر من أربعة فراسخ، ماذا وراءَكِ يا امرأة؟!». ونظرتْ حولَها، فعرفَ أنّه وقعَ في المصيدة، ثُمّ سَمِعَ أصواتًا كأصوات الوحوش في الفَلاة، فعرفَ أنّه هالِكٌ، فأطلقَ ساقَيه للرّيح، فوضعَ أحدُهم سَهمَه في نُشّابه فأطلَقه عليه، فأصابَ ساقَه، فدحرجَه على الأرض، ثُمّ قامَ يعرج، فكسر النّصل، وركضَ بأقصى ما فيه من قدرة، فنَجا بعدَ أنْ كان بينه وبين الموتِ لَحَظات. وقَصّ الحِكاية على زُملائه الأطبّاء، فبعضُهم صَدّقها، وبعضُهم قال

دودة الكتب حرامية

له إنّه الجُوع والإرهاق، ولكنّ الصّنفَين؛ المُصدِّقين والمُشكِّكين، كانوا إذا طُلِبوا إلى مريضٍ في بيتٍ سارَعوا إليه، يحدوهم نِداءٌ لا يسمعه أحدٌ سِواهم!

وأمّا الطّبيب الثّالث، فكان إلى رِقّة قلبِه، يتأثّر بالموعظة، وتنزل منه منزلةً تُجَلّ فيها وتُعَظّم، وقد عَرَض له رجلٌ قال إنّه إمام المسجد الّذي في أوّل سوق القفيصات، وأنّ جارتَه المريضةَ ليسَ معها درهمٌ واحدٌ تستطبّ به، فضلاً عن أنْ تدعو طبيبًا، وإنّه جاءَ إليه لأنّه توسّم فيه الخير، فصحبه صاحِبُنا إلى جارته المزعومة، فما زال في الطّريق، يَعِظه، ويُمنّيه، ويقول الله: «اليومَ تفوز بالثّواب. إنّ أجركَ وأنتَ تتجشّم كل هذا العَناء من أجل امرأةٍ وحيدةٍ مِسكينة لَهو أجرٌ عظيم». وصاحِبُنا يُطربه القول، ويقع منه في قلبِه على أرضٍ مُخضلّة، والشّيخ الإمام يزيدُ في ترغيبه في الصّبر والأجر والثّواب، وفي ترهيبه عن التّقاعس عن نصرة المُحتاج وإغاثة الملهوف وإعانة ذي الكَلّ، وصاحبُنا يتبعه مُسلِّمًا له كلّ التّسليم، حتّى إذا أشرفا على أمكنةٍ ليسَ فيها مُصوِّت، قال له الإمام: «لقد وصلْنا»، فدخل أمامه إلى الدّار، فإذا هي دارٌ خَربة، وصعد الإمام درجًا مُفضِيًا إلى الطّابق الثّاني، فتوقّف صاحِبُنا الطّبيب الطّيّب في وسطِ الدّرجات عن أنْ يُتِمّ خلفَه الصّعود، فلمّا وصل الإمام إلى الطابق الثّاني، سَمِعَ صاحِبُنا صوتَ بابٍ يُفتَح، وصوتَ رجلٍ يقول للإمام: «لقد تأخّرتَ علينا أيّها اللّعين، لكنْ سنغفر لك ذلك إذا كنتَ جِئتنا بصيدٍ ثمين». فردّ: «جِئتكم بطبيب، لحمٌ ولا أشهى». فعرفَ صاحِبنُا وهو واقفٌ في وسط الدّرج أنّه وقعَ، وأنّ شفرة الذّبح قد اقتربتْ، وراحَ يتلمّس عنقه، ونظر إلى مدخل البيت، فإذا الباب مُوصدٌ، وقد وقفَ أحدُهم عنده، فعرفَ أنّهم يُحكِمون عليه الخِناق، فنظر عن يساره إلى الحائط الّذي يسند الدّرجات، فرأى فيه نافذةً تُطلّ على الشّارع، فخلَعَ خَشبَها، وقفز منها إلى الأرض، وأطلقَ صرخةً عاليةً من الألم، لكنّه تحامَلَ على نفسِه وقامَ، ولم يكدْ يمشي بضعَ خُطُواتٍ حتّى تلقّاه رجلٌ غريبٌ رَثّ الثّياب، فسأله وقد رأى ارتِياعه وعَرَجَه: «هل تريدُ مساعدة؟».

فخافَ صاحِبُنا أنْ يكون هذا الرّجل واحِدًا منهم، فأخفى ما به، وأنكرَ وجَعه، فقال له الرّجل: «إنّني أعلمُ أنّ أهل هذا البيتِ يصيدون الرّجال بالحِيلة، فهل أنتَ خارجٌ من عندهم؟ انجُ بنفسِكَ، فإنّهم لن يتركوك حتّى يشمّوا قُتار لحمك في قُدُورهم!!». "

" (٦)

القُرى المَنكوبة

المِيضأة في القَرافة لم تتوقّف عن استِقبال الموتَى، لا في زمن الطّاعون ولا في زمن الجوع، وليس زمن آكلي لحومِ البشر استِثناءً، وإنْ كانتْ مِعَدُ المُتوحّشين وأمعاؤهم هي الّتي صارتْ قُبورَ الموتى. وعادَتْ إلى العَلَن ظاهرةُ نبش القبور وأكل الموتى وبيعِ لحومهم، وليسَ في مِصر اليوم بلدٌ إلاّ وقد أُكِلَ فيه النّاسُ أكلاً ذريعًا من أسوان وقُوص والفَيّوم والمحلّة والإسكندريّة ودمياط وسائر النّواحي.

أمّا الضّواحي والقُرى فقد هلكَ أهلُها قاطِبةً، وإنّ المُسافرَ ليمرّ بالقرية فلا يسمع في بيوتَها صوتًا ألبتّة، لا صوتَ بشرٍ ولا صوتَ حَيَوان، وتجدُ البيوتَ مفتوحةً وأهلُها موتى من الجوع مَطروحين في الأرض مُتقابِلين، بعضُهم قد رَمّ، وبعضُهم طريّ ينتظرُ آكِلاً يأكلُه، ولقد تدخل البيوت ما فيها إلاّ الصّمت، وقد تُرِكَ الأثاث والمَتاع ليسَ هناك من يأخذه أو يرغبُ فيه؛ لأنّ القرية ليسَ فيها حَيٌّ واحدٌ، وكانت القُرى قد عانتْ من آكلي لحوم البشر لكنْ بصورةٍ أخفّ مِمّا هي في المدن والمَحالّ الكُبرى.

وعَنّ ببالي أنْ أركبَ الأبلق، ومعي الشُّرَطِيّان، وأذهب إلى هذه القُرى القَصِيّة فأنظرَ ما فيها، وفعلتُ، وبقيتُ أنا وصاحِباي طَوال الطّريق الّتي امتدّتْ أكثرَ من عشرين فرسخًا لا نرى إنسانًا حَيًّا واحِدًا، وكانت البيوت صامتةً كأنّ لِسانَها بأُناسِها قد اقتُلِع. والنوافذ مُشرعةً على الخواء، وعيونِ الأحباب مُطفأة.

ودخلنا قريةً في الجنوب فلمْ نجدْ فيها حَيَوانًا في الأرض ولا في السّماء، وتخلّلْنا البيوت فوجدنا أهلَها موتى مُبعثَرين في كلّ مكانٍ، ولربّما تجد البيتَ الواحِد وقد مات الرّجل وزوجته وأولادُه لم ينجُ منهم أحدٌ. وأتينا على قريةٍ كانتْ معروفةً بسوق الحِياكة، كانَ فيها أربعمئة دُكّانٍ لذلك، وقد فَنِيَ أهلُها كلّهم، وإذا هي في الخرابِ كأخواتها من القُرى، وكُنّا نجدُ الحائكَ في موضعِ حِياكته إنْ كان على النّول وقد ماتَ تحته، وبيده النّول.

ثُمّ دخلتُ قريةً ثالثةً تبعدُ عن أُختَيها بضعة فراسخ، فرأيتُ أهلَها كلّهم موتَى، وقد حامت الكِلاب والذِّئاب والضِّباع على جُثثهم ترتعُ في لحومهم، فقلتُ: «إنّ أكلَةَ لحوم البشر إمّا إنّهم لم يصلوا إلى هنا، أو أنّهم فَنَوا فيمن فني بعد أنْ أكلوا ما أكلوا من لحوم إخوتهم في البشريّة، فلمّا هَلَكوا جميعًا، اشتمّتْ روائح أجسادهم ذوات المخالب والأنياب فجاءتْ إلى ولائمها المبذولة!».

ثُمّ رجعتُ مع صاحبي من القُرى المَنكوبة، وأنا أشعرُ أنّني رجعتُ من عالَمٍ غريب عجيبٍ لا يُرى حتّى في الأحلام، ولو قُدّر لي أنْ أُعاينَ أهوال الآخرة، وأشراطَ السّاعة؛ فهل يكونُ فيها ما رأيتُ أو دُونَه؟ ولستُ أدري ما الّذي لا زال في صفحة الغيبِ عندَ الله لم يُطلِعْ عليهِ خلقَه، فإنّني رأيتُ ما لو كنتُ في الجحيم ما رأيتُ أبشعَ منه فيما أظنّ!!

فلمّا وصلتُ إلى القاهرة، وكان الوقتُ ظهرًا، تلقّاني على بابِها أحدُ حُجّاب القاضي يدعوني إليه، فعرفتُ أنّني من أسبوعٍ لم أشهدْ مجلسَ القَضاء، فسارعتُ قبل أنْ أرتاح إلى هناك، فرحّب بي الرّئيس، وجلستُ عن يمينه، فجِيءَ بعَطّار من (إطفيح) ومعه المُدّعِي عليه، فسأل القاضي المُدّعِي: «ما دَعواك؟». فقال الرّجل: «إنّني دخلتُ عندَ هذا العَطّار فوجدتُ عنده خوابِئ مملوءةً بلحمٍ لأذرعٍ ليستْ بأذرع حيوان، وسيقان وأفخاذٍ لا يُمكن أنْ تكونَ إلاّ بشريّة، وعليها الماء والمِلح لحِفظِها، فهالَني ما رأيتُ، ثُمّ قلتُ لنفسي: ما يصنعُ عطّارٌ باللّحم؟ إنّما اللحم اختِصاصُ الجَزّار، فتجرّأتُ وسألتُه: «ما هذا الّذي أراه؟» فردّ: «لحم». فسألتُه: «أيّ لحمٍ؟». فردّ كأنّ عليّ ألا أستغرب الإجابة أو أستنكرها، أو أنّها من المُعتاد أنْ تُسمَع: «بشرٌ ماتوا، وأنا أُخلّل أعضاءَهم وأُملِّحها كي لا تفسد». فارتعتُ، وهربتُ من عنده. وسكت، والعَطّار لا يُفنّد قول الرّجل، فسأل القاضي العَطّارَ: «أصحيحةٌ دعوى هذا الرّجل؟». فردّ: «صحيحةٌ سيّدي القاضي». فسأله القاضي وهو يُقطّب جبينَه ويُضيّق عينَيه: «فَلِمَ فعلتَ ذلك؟». فأجابَه: «لقد خِفتُ إذا دامَ الجدب والقَحط، ولم تفضْ مِياه النّيل، وكَثُر الجوع أنْ يهزل النّاس ولا يَجِدون ما يأكلون، فيكون هذا اللّحم جاهِزًا مُخلّلاً يسهُل شِواؤه. وإنّني سيّدي القاضي لم أكنْ لأبيعه بأكثر مِمّا كان يُباع الدّجاج في الحيّ، وليسَ في البال نِيّةُ سُوء». فلم يعرفِ القاضي أنْ يردّ لعِظَم ما سمع، وأُفحِم. وسكتَ طويلاً، قبل أنْ يأمر به فيُصَلَّب، وتُقطّع أطرافُه من خِلاف، ثُمّ يُحرّق جسدُه أمام العامّة.

وكانت التُّرَب موضع المُتصيّدين، وكان عددٌ منهم يعيشون في بيوتِ الطّين يستترون فيها، يتحيّنون مرور النّاس، وهم يراقِبونهم من خلال سيقان القصب، أو النّوافذ الطّينيّة، أو العُلّيّات، فإذا وقعتْ طريدتُهم في الفَخّ، نشبتْ فيها الكلاليب، الّتي تكون مُتّصلةً بسيورٍ مَتينةٍ من الزّرد، فيسحبون الضّحيّة وهم في أماكنهم لا يبرحونها ولا يراهم أحدٌ، والضّحيّة تكون حَيّة لم تمتْ بعدُ، فتصرخ مُستغيثةً، والزَّرَد العالقُ بها يشدّها إليهم، حتّى تقع بين أيديهم، فيأخذونها، فيفصلون الرأس أوّل

الأمر عن الجسد، ثُمّ يشوون الجسد على السَّفُّود، يُقلّبونه بمقابض في الأطراف على جانبَيه، حتّى يتمّ الشّواء، ثُمّ يتلذّذون بأكله، وأمّا الرّأس، فيسلخونه، ويحتفِظون بجمجمته، ولا أحدَ إلى اليومِ يدري لماذا يحتفظون بتلك الجمجمة. ثُمّ إنّ أمرهم كُشِف، فصُراخ الضّحايا وهم يُسحَبون في الشّارع مُستغيثين دلّ أحدَ المارّة على الأمر، فجاء إلى رئيس الجُندِ وأبلغَ عنهم، فقرّر مُداهَمةَ موقعهم بِقوّة كبيرةٍ، وسألني إنْ كنتُ أرغبُ بمُرافقتهم في تلك القُوّة، فرغبتُ لكي أرى كيفَ هي حياتهم، ولكي أفهم الأسباب الّتي تدفعهم إلى صيد البشر، غير الجوع، فإنّ الجُوع والرّمق يُسَدّ بغير اللّحم، فإنْ كان لا بُدّ فبالمَيْتة، أو بأيّ شيءٍ من خَشاش الأرض، أمّا هذا الصّيد، فإنّه يُعبّر عن خللٍ مُرعبٍ في العقل.

كانتِ القُوّة قد اتّخذتْ لها سِتارًا من اللّيل بحيثُ يكونون قد أووا إلى بيوتهم الطّينيّة ولم ينصِبوا فِخاخهم؛ إذ لا يُتوقّع أنْ تمرّ طريدةٌ في اللّيل من أمام تلك البيوت. عندما اقتحمْنا المكان، لم يكنْ هناك غيرُ عددٍ من الصّعاليك الّذين يعيشون خارج الفهم البشريّ للحياة، أناسٌ عُراة، نَحِيلُون، شُعثُ الرّؤوس، يفترشون التّراب، لا يخرجون من جُحورهم إلاّ نادِرًا، ويعيشون على ما يصيدون. كانتْ بعضُ العِظام مُبعثرةً في الزّوايا أو الأنحاء هنا أو هناك، ولم يكونوا يرمونها خارج الغُرَف إلاّ إذا تراكمتْ وأعاقتِ الحركة، لكنّني لاحظتُ وجودَ خزائن في غُرَفِهم مُغلَقةٍ بالحديد، فطلبتُ من الجُند أنْ يكسروا الحديد ويفتحوها، فلمّا فتحناها هالنَا ما رأينا، كانتْ الخزائن ملأى بالجَماجم، في كلّ خِزانة كان هناك ستّة أرفف، على كلّ رَفّ في صَفَّين مُتتالِيَين ما يقرب من عشر جماجم. قامَ الجُندُ بكسر الخزائن كُلّها، وجلبِ الجَماجم، عددناها يومئذٍ فوجدناها أكثر من أربعمئةِ جُمجمة!!

كان أكثرَ ما يُحتال عليه في أمر البيوتِ الأطبّاء، لكنّ الأطبّاء قَلّوا قِلةَ موتٍ، بعدَ أنْ قضى كثيرٌ منهم بالطّاعون لمُلازمته المَطاعين، ثُمّ كانوا الهدفَ الأكبر لصيّادي البشر، ثُمّ لَمّا أعيا الصّيادين هذا الصّنف، عَمَدوا إلى القابِلات، ولقد سمعتُ شهادَة إحداهنّ وأنا في مجلسِ القضاء، إذْ دخلتْ علينا امرأةٌ سافرةٌ مذعورةٌ تلهث، قد انتثر شَعرُها فوقَ أكتافِها وهي تصرخ، فطلب منها القاضي أنْ تهدَأ، وأمر لها بماء وبعضِ الطّعام، وأجلسَها على الأرض حتّى استعادتْ شيئًا من عافيتها، فلمّا تمّ لها ذلك، سألها: «ما خبركِ؟». فقالتْ: «إنّني قابلةٌ يا سيّدي القاضي، وإنّ رجلاً استدعاني من أجل أنْ أُساعد امرأته على الإنجاب، وكان يبدو صادِقًا، وليس لمثلي أنْ يُكذّب ما يسمع إلاّ إذا وجدَ على الكذب شاهِدًا أو دليلاً، ولكنّ العين تنخدع أحيانًا، وخِداعها القولُ المعسول، فإنّ الكلام المعسول تتلقّاه العينُ أكثر من الأذن، فخرجتُ معه إلى بيته، فلمّا دخلتُه أكرمني، وقدّمَ لي صحنًا فيه سكباجٌ مُكتنِز، مُحكَم الصّنعة، مُكمّل التّوابل، كثيرِ المَرَق، شهيّ الطّعم، لكنّني لاحظتُ أنّ اللحمَ غيرَ اللّحم، أعني كان ذا شحمٍ غير معهود، وإنّني أعرفُ طعم الشّحم وأُحبّه، لكنّه كان هذه المرّة شديد الحلاوة، ينهرسُ تحتَ الأسنان ولا يذوب على علمي به، ورائحته غريبة، فلمّا مضغتُ منه مُضغةً أو اثنتَين أصابني على الفور التّقزّر، وشعرتُ بالغَثَيان، ولا أدري ما الّذي جلبَ ذلك لي، لعلّها الرّائحة. فتركتُه ريثما يعرضُ عليّ الرّجل امرأته فأُساعدها على الإنجاب فأحظَى بالأجرة والحلوى. وبينما أنا أنتظر وأنظر مَنْ يأذن لي بالدّخول على الحامل، جلستْ بجانبي بنتٌ صغيرةٌ، فأردتُ أنْ أعرفَ حقيقةَ الطّعام منها، فسألتُها عن الطّبيخ، فقالت: إنّ جارتَنا السّمينة دخلتْ لتزورَنا فذبَحَها أبي، وها هي مُعلّقةٌ في الخزانة إرَبًا. فقمتُ إلى الخِزانة وأنا أرتجف غير مُصدِّقة، ففتحتُها وأنا وَجِلةٌ، فوجدتُ أنابير لحمٍ مُعلّقة ومُشرّحة على عمودٍ في الخِزانة، فصحتُ حتّى انخلعَ قلبي، وارتجّتْ يدي حتّى كادت الخِزانة تسقطُ عليّ، وهربتُ. ❞

❝ (٧)

إلى أيّ الأوطان أعود؟!

لقد تعبتُ. هذا الموت الّذي لا ينتهي. هذا الصّنف من الوحوش. ليس في طاقتي أنْ أحتمل أكثرَ من هذا. مصر لها الله. يومًا ما ستستعيدُ عافِيتَها. أنا أيضًا أريدُ أنْ أستعيدَ عافيتي. إنّ عافيتي في بلادي، في بغداد. أسمعُ صوتَ بغداد في اللّيالي الدّامسة يُناديني. أيّام أبي وأمّي. رَحْمتُهما الّتي حفظتْ عليّ حياتي وعقلي إلى اليوم. أنا هنا غريب. ليس هنا. أنا غريبٌ فحسب. كلّ بلدٍ ارتحلتُ إليه زادني غربة. أينَ يجدُ المرء نفسَه؟ أيّ المواضع هي الّتي يأنسُ بها ولا يجدُ روحه فيها

غريبة؟ دُلُّوني عل موطنٍ يُعطيني ذلك؟ لقد بحثتُ، بحثتُ كثيرًا، قضيتُ عُمري كلّه إلى اليوم أبحثُ عن هذا النّوع من الأوطان فلم أجدْه. اعذروني. ربّما، يومًا ما شعرتُ بمثل هذه الرّاحة في الوطنِ الّذي فِيّ، أعني في ارتِدادي إلى نفسي، حينَها ربّما حين أعودُ إليّ أشعر بتلك الرّاحة، بذلك الشّعور بالوطن، لكنّني لا أعودُ إلى نفسي دائمًا، بل إنّني أهربُ منها وتهرب منّي، روحي طائرٌ مُهاجر، لا وطنَ لها غير الكُتُب، أبذل لها الكُتُب كما يُبذَل للطّائر الحَبّ. أجلسُ في المكتبة فأعرفني، وحدها المكتبة يمكن أنْ تكون هي الوطن.

زارتْني ماريّة. كانتْ قد ازدادتْ جَمالاً، نضجتْ تمامًا، إنّها في السّابعة عشرة إذا حسبتُ أعوامَها بطريقةٍ صحيحة، سمراء رقيقة، بسمتُها تبين عن صَفٍّ من اللّآلِئ الفاتِنة. لم تكسرها الأيّام، ولا ما حدثَ لها، ولا ما كانت تفعله أُمّها درّيّة، ربّما رأيتُ ذلك الخيطَ من الحزن في عينَيها على أخيها كرم الّذي أكلتْه أمُّه وأمُّها. ماريّة تحبّ الحَياة. ربّما تريدُ بهذا الحبّ تعويضًا عن الخَسارات الّتي لحقتْ بها فيها؛ الحياة الّتي ليستْ كأيّ حياة. إنّها تستحقّ قلبًا كذلك يُشاطِرها هذا الدّرب. كلّ شيءٍ إذا قُسِمَ على اثنَين ينقُص إلاّ الحُبّ فإنّه يزداد. كانتْ تلبسُ فستانًا ورديًّا فضفاضًا، وشالاً خمريًّا يصنعُ من وجهها الأسمر مع قرمزيّة الشّال لوحةً بديعة. سألتُها: «ما رأيُكِ بسالم؟». ردّتْ كأنّها لم تفهم سُؤالي: «وما بالُه سالِم؟». «إنّه يُحبّك». صمتتْ. الصّمت صورةُ الخجل أحيانًا، والغضب كذلك. لا أدري إنْ كان صمتُها خجلاً أم غضبًا. دفعتُ عَجَلَةَ الكلام إلى الأمام قليلاً: «لقد حَدّثَني في أمركِ غيرَ مرّة. الطّبيب الشّاب الوسيم مُغرَمٌ بِكِ أيّتها الصّبيّة الجميلة، أنا أبوكما، وأريدُ لكما الخير». كانتْ تنظر إلى يدَيها المَعقودتَين في حِجرها وهي تفركهما بشيءٍ من الاضطِراب، رفعتْ نَظَراتِها إليّ، كانَ فيهما رجاءٌ جارف، هتفتْ: «ولكنّني أحبّك». وقعتِ الكلمة في قلبي موضعًا طَروبًا. أنْ تُحبّكَ فتاةٌ فاتنةٌ في عمرها فأنتَ ألفُ محظوظ. فركتُ قُمع رأسي، كنتُ أهمسُ في داخلي: «وأنا أحبّكِ... أُقسِمَ بالّذي جعَل القَدَر يَجمعُني بك أنّني أحبّكِ... ولكنْ...». نظرتُ في عينَيها: «ماريّة...». ردّتْ وهي تُقرّب رأسَها إليّ: «سيّدي، ومولاي...». «أنا في سِنّ أبيكِ». تراجعتْ إلى الوراء، ورفعتْ صوتَها غاضبةً: «لا تقلْ ذلك... سَئِمتُ من تَردادِ هذه الكلمة على مسامعي... أنا ليسَ لي أبٌ... أنا جِئتُ لا أعرفُ من هو أبي... ولا أدري كم عمره... ولا إنْ كان حَيًّا أو ميّتًا. لا تقلْ هذه الكلمة مرّة ثانيةً أمامي...» تناثَرَ غضَبُها كِسفًا صغيرة، سقطتْ حولَنا دون أنْ تؤذيَ أحدًا منّا، ثُمّ صمتتْ، وعادتْ إلى هدوئها. قلتُ لها: «يا ماريّة، أنا رجلٌ هَرِم، ولو لم يكنْ في حياتي إلاّ مصائب مصر لكفى ذلك أنْ يُشيب رأسي ويزيدَ هَرمي... وإنّني سأرتحل، ولن أظلّ في مصر...» قاطعتْني: «أنا أريدُكَ أنت... أنتَ لستَ هَرمًا كما تقول عن نفسك... إنّكَ في نظري رجلٌ مكتمل الرّجولة، وشهمٌ كريمٌ لم أحبّ في حياتي سِواه...». «في حياتي؟ تقولوين في حياتي؟». أطلقتُ ضحكةً عالية، قبل أنْ أُتابع: «وماذا رأيتِ من الحياة يا ماريّة؟ ما زلتِ صغيرة». «لستُ صغيرة، أنا كبيرةٌ بما يكفي لأقرّر عن نفسي». وأدارتْ رأسَها إلى الجهة الأخرى مُغضَبة. «أنا مُرتحِل، ولا أبقى في موضع». «أرتحل معك إلى آخر الدُّنيا... ماذا أطلبُ منك؟ أنا أطلبُ منك أنْ أكونَ إلى جانبك، رفيقةَ دربٍ تُعينك... هل ما أطلبه كثير؟». «إنّ هذا الحُبّ غير متكافِئ يا ماريّة، وسالم أفضلُ لكِ منّي». «إنّه مُتكافِئ فلا تُسمِعْني هراءً عن التّكافُؤ مرّة أخرى، ثُمّ إنّني أعرف من هو الأفضل لي». «أنا أكبرُ منكِ بحوالي أربعين عامًا». «إنّ حُبّي لكَ يُلغي السّنوات كلّها. أرجوك لا ترحل عن مصر من دوني». «ربّاه، كيفَ يُمكن أنْ تجري الأمور على هذا النّحو؟!».

***

وجيءَ إلى مجلسِ القضاء وأنا فيه بامرأةٍ حامل، وهي زوجة أحدِ قادة الجُند، ومن أهل اليَسار، كانتْ تمكثُ في البيتِ وحدَها شهرَين أو ثلاثة؛ إذ إنّ زوجَها كانَ في أحدِ المَهمّات في الثّغور، ذاتَ يومٍ شَمّتْ رائحةَ طبيخِ لحمٍ فاشتهتْه، وتوحّمتْ عليه كأيّ حُبلَى، وتمنّتْ لو أنّ زوجَها معها للبّى لها طَلَبَها، وما طلبُها

بعسير، إذْ ماذا سيكلّف قائِدًا في الجيش أنْ يأتيَ زوجته بصحفةِ لحمٍ مطبوخ؟ ولكنّ المُشتَهى اليسير يُصبحُ غايةً كُبرَى إذا عَزّ التّحقيق، ولِذا، صارتْ أمنيةَ الأمنيات أنْ تأكل مُزعةً من ذلك اللّحم، فإنّ الرّائحة تجلبُ الويل، وإنّ الشّهوة لتُوقِع في الفَخّ. فتحاملتْ على نفسِها وسارتْ تظلعُ بحَمْلِها، وهي تضعُ يُمناها على خاصِرتها من الوجع والثّقل، حتّى طرقتْ باب جيرانهم، فخرجَ لها بعضُ الصّعاليك، فلم تفطنْ إلى أنّها لم ترهم من قبلُ، وأنّ جيرانها يُفتَرضُ أنْ يكونوا من ذات الطّبقة

العليّة والمَرتبة السّنيّة، فهل يجاورُ صُعلوكٌ قائِدًا؟ لكنّ الوَحَم أعمى بصيرتَها وأغلقَ أبوابَ تساؤلها، ولم يفتح لها نافذةً إلاّ على الطّلب، فسألتِ الصّعلوك: «قِطعةً من اللّحم المطبوخ أيّها الجار؟». فَسألها: «أنتِ زوجةُ القائد فلان؟». فأومأتْ برأسِها: «نعم». وهي تظنّ أنّ ذلك سيُقرّب مُزعة اللّحم من فمها، فَهَشَّ وبَشّ لجوابها، ونادَى على أحدِ صعاليكه: «أعطِها من أطيبِ ما عندَنا، ومن أنضجه، وأطراه». فقدّم لها صحنًا مُمتلِئًا، فرجعتْ به إلى البيت فالتهمتْه، ولم تُبقِ فيه حتّى المَرَق، وألفتْه ألذّ ما أكلتْ في حياتِها، والطّعام عن شهوةٍ يُستَطاب، فعادتْ إليهم في اليوم الثّاني وقد جرّ رِجلَها وَحَمُ الحَبالَى، فطرقتِ الباب فخرج الصّعلوكُ إيّاه، فسألَها: «أعجبكِ طعامُنا؟». فهزّتْ رأسَها: «هل لي بالمزيد منه؟». فقال: «إنّه نفد، وإنّنا لا نملك المال لشراء المزيد منه». فردّتْ: «المشكلة في المال؟». فهَزّ رأسَه: «نعم». فقالت: «سأدفع لكم مُقابِلَه على أنْ تطبخوا لي مِثله، فإنّني لم آكُلْ في حياتي أطيبَ منه ولا أَمْرَأ». فاقتربَ منها يريدُ أنْ يهمسَ في أذنها، فزكمتْ رائحتُه القذرة أنفَها، فتراجعتْ، فلم يُبالِ، فاقتربَ أكثر، وهمس: «أتعرفين نوع اللّحم الّذي أكلتِه؟». فردّت: «أيًّا كان فإنّني أريدُ مِثله». فاقتربَ أكثر، وازدادتْ رائحتُه القذرة نفاذًا، وهمسَ بصوتٍ أخفضَ من سابِقه: «إنّه لحمُ أصحابِ هذا البيت». فتراجعتْ إلى الوراء، وترنّحتْ، فأمسكَ بها فأسندَها، وأردف: «ولكنّه يُؤكَل، وما في اللّحم للبشر أطيبَ منه، وإنْ عزمتِ نأتيكِ بمثلِه، ولكنْ عليكِ أنْ تدفعي، ليسَ من أجلِنا، بل من أجل هذا الصّغير الّذي ينمو في أحشائِك». فدَعاها القرم إلى اللّحم أنْ تتردّد، ثُمّ تُمالِئ، ثُمّ توافق، فصاروا يطبخون لها كلّ يومٍ من لحوم البشر، فتقول لهم: «اليوم أطيبُ من أمس. وهذا أطرَى من الّذي قبله». فيقولون: «إنّه لحمُ فطيم». فتردّ: «ائتوني بمثلِه». فيردّون: «ولكنّه يكلّفكِ غالِيًا، وإنّ صيدَه ليسَ سهلاً، وإنّه لَنادِرٌ، وما نقدر على الحصول عليه إلاّ بعدَ وقتٍ طويل وتربُّصٍ أطول». فتردّ: «سأدفع ما تريدون، لكنّني لن آكل بعدَ اليوم إلاّ لحوم الرُّضّع».

ثُمّ إنّ شهوتَها غلبتْ على بشريّتها فصارتْ ذِئبة، لا تشبع ولا تنتظر، وصارتْ تضربُ خادِمتَها، وتقول لها: «لو كنتِ أصغرَ من هذا لطبختُكِ». فوقع في قلبِ خادمتها الذّعر، وفكّرتْ بالهرب، ولَمّا عزمتْ على ذلك، عادَ زوجُها من الثّغور بعدَ شهرَين، فأسرّتْ له الخادمة بأمر زوجته ورحلتْ، فلمْ يُصدّقْها، ومَنْ يُريدُ أنْ يُصدّق أنّه يعيشُ مع امرأةٍ يُمكن أنْ تفكّر بأكله في أحدِ الأيّام إذا جاعتْ؟! فراقَبَها، وراقبَ طَعامَها، فخَلُصَ إلى أنّ الجارية أخبرتْه الحقيقية.

وجِيءَ بها إلى هنا فأقرّتْ بكلّ ذلك، فحَبسَها القاضي ولم يأمرْ بحرقِها مباشرةً، وأرجأ ذلك إكرامًا لزوجها وحتّى تضعَ حمْلَها، فلمّا وضعتْه كانتْ أُنثى، فأُخذت الرّضيعة إلى دار الأيتام وهي في القِماط لا تنفكّ تبكي، وأُحرقتِ الأمّ من ليلتها!

****

وجاءني (سالم) يعودُني، فقصَصْتُ عليه أمر ماريّة، وقلتُ له: «إنّني كلَّمْتُها في شأنِك، وإنّها تتمنّع تمنّع الصّبيّة النَّفُور، لكنّها تُحبّك، وهي تتدلّل تدلّل الأنثى الطّروب، وإنّ عليكَ أنْ تعرفَ كيفَ تُميل قلبَها إليك، وإنّ النّساء يتمنّعْنَ وهنّ راغباتٍ حتّى يُظهِر لهنّ الحبيب شِدّة تعلّقه بهنّ، ويُقدّمْنَ مَنْ يسعَى خلفَهنّ لا يمنعه الصّدّ عن أنْ يُلِحّ في الطّلب حتّى يظفر بما يريد، والمرأة تريدُ مَنْ يرغبُ بها أكثر من رغبتِها به، فإنّ رغبتَها تحدثُ كلّ حينٍ، تُطلِعها الكلمة الطّيّبة، والعِشرة الحَسَنة، وإنّ رغبة الرّجل لا تحدث إلاّ مرّة واحدة، فإنْ وُجِدت من البداية استمرّتْ، فإنّ كنتَ يا بُنيّ تُحبّها وترغبُ بها، فقاتلْ من أجل حُبّك، فإنّ سهلَ الحُبّ في السّهل، والصّعبُ في الصّعب، وفي كلّ بقاع الأرض لا تُريدُ المرأة حُبًّا سَهلاً، بل تريدُه صعبًا دائِمًا مُتشبّثًا قويًّا لا فِكَاكَ منه... وإنّني يا بُنيّ كبرتُ، وأهرمتْني الحوادث، وأنتَ وماريّة ما زلِتما في ريعان الشّبان ومَيعة الصّبا، يجرّ عليكما الزّمان البهيج ذُيولَه، فلا تجعلني أخرجْ من مصر قبل أنْ أراكَ تتأبّط ذِراعَها، وإنْ كانتْ من وصيّة أخيرة: إنْ فُزتَ بقلبِها

بذكائك وحُسنِ قولك وطيب مَحتِدك، فحافِظ على هذا القلب حِفاظَك على حياتك؛ فإنّ الفَوز بقلب المرأة أصعبُ من الفوز بجوهرةٍ في قيعان المُحيطات! ❞

❝ (٨)

لا بُدّ من كَنْسِ المَوبُوئين!!

قلّ الخوفُ عندي مِمّا يفعله صَيّادو البشر، لا أدري، الفِعل لم يقلّ بشاعةً، وأفعالُهم لا يُمكن أنْ تُصبح عاديّة أو يتمّ تسويغها أو تجميلُها، ومع ذلك لم يعدْ أمرُ رؤيتهم مُخيفًا كما كان في السّابق! ما الّذي يحدث؟ هل هو الاعتِياد؟ هل يعتادُ الإنسان القَبائح؟ إنّ الموتَ الّذي هو مُصِيبة، يُمكن أنْ يعتادَه الإنسان فيعيش فيه دون أنْ يخافَه، أو يشغلَ بالَه، أو يدوم في تفكيره، الموتُ هنا هو العنوان الأبرز لهذه السّنوات الأخيرة من القرن السّادس الهجريّ، إنّه في كلّ مكانٍ، يمتدّ أكثرَ من الهواء، يجري أسرع من الرّيح، ينتشر أكثر من السّحاب. في الماء، في الطّعام، في نَظرات الجائعين، في خطاطيف الصّيّادين، في غُرفِ المرضى، على بوابات البيمارستانات، في مقابر الأكَلَة، في دُور القَضاء، في الكلمات، في الحَرَكات، في السَّكَنَات، في السّعي وراء الحياة، نمشي على طُرُقِ الحياة حَذرين مُتوجّسين لكي لا نقع في حُفَر الموت! بالنّسبة لي؛ لا أريدُ أنْ أموت قبل أنْ أرى كلّ هذا ينتهي.

سيكون على مثل (سالم) و(ماريّة) إذا تزوّجا أنْ يكونا نموذجًا للأمل؛ أمل البشريّة بغدٍ جديد، بحياة خاليةٍ من هذه الأمراض، أعني هذه الاضطِرارات، ليسَ الإنسان سيّئًا إلى هذا الحدّ، الاضطرار هو السّيّئ، الحاجة، الظّرف الّذي يُلجِئه إلى ذلك هو الأسوأ.

إنّنا نعيشُ عصر القضاء على البشريّة. لن يقضي عليها أيّ عدوّ خارجيّ، عدوّها يعيشُ فيها. إنّه عصر الزّوال البشريّ، ربّما عندما ينتهي وجودُ البشر على الأرض، سيكون هذا الكوكب صالِحًا لنوع آخر من المخلوقات ولحياةٍ أخرى أكثر نظافةً ونزاهةً من الحياة الّتي عشناها. لا بُدّ من كَنْسِ الموبوئين من أجل الصّالحين القادِمين، إنّها سُنّة إلهيّة: «إنْ يشأ يُذْهِبْكُمْ ويأتِ بخلقٍ جديد». ولا أظنّ أنّ عصرًا تحتاج فيه البشريّة إلى خلقٍ جديدٍ أكثر من عصرنا هذا!

واجتزتُ مع الجُندِ الّذين أرسلَهم القاضي إلى جامع ابن طولون، وكان قد هُجِر موضعُه، وخربتْ أنحاؤه، وتهدّمتْ بعضُ شُرُفاته، وساحته الّتي كانت معبر أعظم العُلماء وأجلّهم، وموطِئ أقدام المُصلّين الخاشِعين صارتْ مَخبأً للصّعاليك ولِصَيّادي النّاس. وكان خلفَ الجامع نَشَزٌ من الأرضِ يُطلّ على ساحتِه، فكمنّا هناك نرى ونسمع ما يحدثُ.

رأيتُ كُتُبيًّا اعتدتُ من زمنٍ على شِراء الكتب من عنده، وهو رجلٌ بدينٌ ولحيتُه طويلة، وجاوز السّتّين، ولا أدري كيفَ أقنعه أحد هؤلاء الصّعاليك أنْ يأتيهم ليشتروا منه الكتب، فلمّا عَبَر السّاحة وصار عندَ تلك الأقواس المُفضِية إلى غُرفِ الجامع، خرجَ له أحدُهم، فسأله عن الكتب، وبدا من هنا أنّه يُقلّبها، ويُفاوضُ في سِعرها كما كنّا نفعل نحن، والكُتُبيّ يُكلّمه ويُفاوضه، فوجّه إليه الصُّعلوك على حِين غِرّة طعنةً بحربةٍ أخرجَها من ثِيابه، فتراجَع الكُتُبي إلى الوراء قليلاً وسقطَ ما في يده من كتب، ومسّتِ الضّربة مع تراجعه بطنَه، فتلقّاها شحمُه الكثير، فلم تنفذ إلى مقتلٍ، فهربَ يصيح، وأنجاه شُحمه، ولو كان رقيقَ البدن لسقطَ ميّتًا.

فَهَمّ الجنود الّذين معي أنْ ينزلوا فيُلقُوا القبضَ على كلّ مَنْ يلجأ إلى هناك ويقوم بهذه الجرائم الشّنعاء، غير أنّني استمْهلتُهم وأنا أُشير إلى زاويةٍ أخرى من الجامع، وقد بدا أحدُ الصّعاليك قد وضع الوهق وهو حبلٌ غليظٌ ذو أنشوطةٍ في عنقِ أحدهم، وهو يَجُرُّه إليه، ويصيح بالصّعاليك أنْ يُساعدوه على جَرّ هذه الغنيمة، ويقول: صَيْد... صَيْد... لكنّه يمشي رُوَيْد... فما أجابه أحدٌ، والشّيخ المجرور كالدّابّة من عنقه يحاول التّفلّت وقد اختنق وبرزت عروق رقبته واحمرّ وجهه، ويُعالِجُ الفِكاك من الأنشوطة واللّصّ يصيح بصيحته المعهودة: صَيْد... صَيْد... لكنّه يمشي رُويد... دون أنْ يُلبّي نِداءه أحدٌ. حتّى إذا أرخَى الصّعلوك قبضَته عن الحبل قليلاً لكي يشدّه من جديد، اغتنم الشّيخ الفُرصَة، فحلّ الحبل عن عنقه، وهَرَب بجِلده.

فنزلتُ مع الجُندِ مُغيرين على المكان، ففرّ عددٌ منهم، ووقع في أيدينا عددٌ آخَر، فدخلتُ - بعدَ أنْ انتشر الجند في المكان - إلى الغُرَف، فرأيتُ أهوالاً لا أظنّ أنّ أحدًا سيراها ويُحدّث عنها مِثلي، رأيتُ ثِيابًا مُلطّخةً بالدّم مُلقاةً في كلّ زاوية، رأيتُ عِظامًا من كلّ نوعٍ وصنف، للسّاق والصّدر والحوض والتّرقوة، ورأيتُ عِظام دوابَّ، بعضُها كان على هيئته، فهذه بقرةٌ قد أُكِلتْ ولم يبقَ منها إلاّ هيكلُها العظمي وهي مُضجَعة على الأرض...!!

ومَرَرْنا على امرأةٍ وبين يديها ميّتٌ قد انتفخَ وتفجّر وتفسّخ وأنتنتْ رائحته حتّى ما تُطاق، والمرأة تأكل منه بطيبِ نَفْسٍ، فنزلتُ فأنكرتُ عليها ذلك، فأنكرتْ إنكاري، وقالتْ: «ما شأنُكَ أنت؟ إنّما هو زوجي، وأنا حُرّ به!!». فحُمِلَتْ في عَرَبات السّجنِ مع مَنْ حُمِل.

ومَرَرْنا على عَجوزٍ قد تغضّن وجهُها، وشابَ رأسُها، وهي حاسرةٌ، وبينَ يدَيها طِفلٌ صغيرٌ تأكلُ منه، فسألْتُها: «كيفَ طاوعتْكِ نفسُكِ أنْ تأكلي من لحمه؟». فنَكّسَتْ رأسَها واعتذرتْ، وقالتْ: «إنّما هو ولدُ ابنتي وليسَ بأجنبيّ، ولأنْ آكُلَه أنا خيرٌ من أنْ يأكُلَه غيري». فاستشنعتُ ذلك، فردّتْ: «يا بُنيّ ماذا رأيتَ من الدُّنيا؟». فهممتُ أنْ أقطع رأسَها بالسّيف، ماذا رأينا من الدُّنيا أيّتها العَجوز الشّمطاء؟ بل قولي ماذا لم نَرَ من الدُّنيا؟ أكلّما كبرَ الواحدُ منكم عامًا قال لمن هو أصغرُ منه: ماذا رأيتَ من الدُّنيا إنّ الدّنيا الّتي صفعتْكِ صفعةً واحدةً صفعتْني آلافَ الصّفَعات، فلا يفخرنّ أحدٌ على أحدٍ في المصائب، فإنّها تجمعنا معًا في سَلّةٍ واحدةٍ وتُغرقنا جميعًا في الجحيم!

ثُمّ حَمَل الجُندُ الموتى، فأمر رئيسُهم فَحُفِرتْ لهم حُفرة في السّاحة الكبيرة الّتي أمام جامع ابن طُولون، وأُلقُوا فيها، ثُمّ أُخِذ الأحياء إلى القَضاء، فما زالتِ الشّمس حتّى كان قد حُمِلَ في ذلك اليوم من جامع ابن طولون أكثر من مئةِ رجلٍ وامرأةٍ، ثُمّ قضَى فيهم القاضي بأمره في اللّيل، فلمّا كان الصُّباح، رُفِعَت لهم أعوادُ الحديدِ في ساحةِ المشهد فَخُرّقوا جميعًا.

يا (سالم)، إنّ جيلَك أطلعتْه المآسي لكنّها أَحْكَمَتْه، وهل في التّجاريب مِثلُها؟! أنتَ وماريّة أملُ الجيل القادم، الجيل الّذي سيَنبُتُ من رميم السّابقين، الجيل الّذي سيطلع من الرّماد، لا بُدّ أنّ رمادَ هؤلاء الّذين حُرّقوا سينُظِّف هذه البِلاد، إنّ مصر تُعاني، إنّها سجينة إرادة هذه النّفوس المريضة، إنّها محكومةٌ بالبَلْطة والخُطّاف والنُّشّاب والكلاليب... ومحكومٌ عليها بالموت... إنّ هؤلاء اللّصوص الّذين يسرقونها ربّما هم يتمتّعون الآن، لكنّ زمن المُتعة قصير، وزمن الألم طويل، وليأتينّهم زمن الألم حتّى يقتصّ منهم، فإنِ اقتصّ منهم، فإنّ السّاحةَ لكم، أنتم الوردُ الّذي سيتفتّح في جنائن مصر.

منْ ظلّ حَيًّا في القاهرة؟ أكادُ لا أصدّق أنّها تموتُ بهذا الشّكل، لم أعدْ أرى بشرًا لا في الطّرقات ولا في الأسواق ولا في الجوامع، ولا حتّى في القبور، نَبّاشو القبور هم أيضًا ماتوا، لكنّهم لم يجدوا من ينبشُ عليهم قبورهم إنْ كانتْ لهم قبور... القاهرة تُصبح مدينةَ أشباح، لقد أصبحتْ بالفِعل، ليسَ فيها إلاّ بضعة جنود، وقُضاة، ومجانين، وأحياء لم يجرِ عليهم القَدَر، ولم يشربوا من كأسِ الموتِ بعدِ.

أمسِ كنتُ في ديوان النّفوس، الدّيوان بلا نفوس، رئيس الدّيوان ماتَ من زمنٍ، اختلّ تَعداد الموتى بعدَ موته، لكنّ مَع الزّمن استعادَ الدّيوان شيئًا من عافيته، بعضُ مَنْ جلسَ في موقعه أرادَ أنْ يُعلِنَ عن عدد الموتى في البِلاد، طلبتُ منه أنْ يعطيني رَقّ الإعلان، كان الرّقّ يقول: إنّ تسعة أعشار البِلاد قد هلكوا، لقد ماتَ من كلّ عشرةٍ تسعةٌ. ولمعَتْ في خاطري للحظةٍ كلماتُ دُرّيّة، لقد قالتْ هذا القول من قبل، إنّها تصدق للمرّة العاشرة، هذه اللّعينة ليستْ مجرّد عرّافة ولا ساحرة، إنّها أكثر من ذلك بكثير، وهممتُ أنْ أترحّم عليها وعلى أيّامها، ثُمّ تذكّرتُ ما فعلتْ فتراجعتُ... ثُمّ إنّني أعدتُ الرّقّ إلى صاحب الدّيوان، وقلتُ له: «من الأفضل ألاّ تُعلِنَ هذا». فسألني: «لِماذا؟». فأجبتُه: «لِمَنْ ستُعلِنه؟ هل يُمكن أنْ تُعلِن للميّتِ أنّه ميّت، إنّه لم يبقَ يا سيّدي أحدٌ لتُعلِنَ على مسامعه هذه الأرقام؟ وما الفائدة؟ هل يُقال للميّت يا ميّت؟ ثُمّ فَكّرْ فيما يتضمّنه الإعلان، إنّه إعلانُ إبادة، إنّه إعلانُ عدم. هل من المعقول أنْ يُعلَنَ العَدم؟!». وخرجتُ من عنده كأبأسِ ما يكون.

ثُمّ عرّجتُ على ديوان القَضاء، ولم يكنْ ذلك رغبةً في أنْ أسمع مزيدًا من الحِكايات المريضة، ولكنْ رغبةً في إزجاء الوقت، والسّلام على رئيس القَضاء، فإنّه أكثرُ واحدٍ تعذّب فينا، فإنّ سماع قصص العذاب عذابٌ آخَر... فأتيتُه فسلّمتُ عليه، فلم أجدْ عنده أحدًا، فاستغربتُ، فقلتُ في نفسي: «لعلّها عُطلة القضاء». ثُمّ إنّني سألتُه: «أينَ النّاس يا سيّدي؟». فردّ وهو مُطرِقٌ يعبثُ بلحيته: «كان بمصر ناس». فلمعتِ العبارة من جديدٍ في ذهني، وسمعتُها تقولُها كأنّها أمامي: «وليأتِيَنّ عليكم زمانٌ تقولون فيه: كان بمصر ناس!!». ❞

❝ (٩)

تساقُط النّجوم

اسودّ اللّيل، أظلمَ كلّ شيءٍ، ألقَى اللّيل سِربالاً كثيفًا على القاهرة، فَقَأ كلّ عيونِها، أطفأ كلّ قناديلها، مَحا كلّ نورٍ فيها، طمسَ ضياءَها، وأحالها إلى غرابٍ أسود كبير ينعقُ في كلّ اتّجاه، ويجعل من جناحَيه العِملاقَين اللّذين يُغطّيان ما بين المشرق والمغرب قُبّةً تُخيّم على أهل الأرضِ جميعًا. إنّه يوم الظّلام الكبير. لم يعدْ مَنْ تبقّى من الأحياء يرى شيئًا. لم يعدْ يعرفُ شيئًا. صارَ كلّ دربٍ في القاهرة مُنكَرًا، وكلّ سبيل، وكلّ حارة، وكلّ حيّ، وكلّ سوق؛ لا أحدَ يعرفُ أحدًا، لا حيّ يعرفُ حَيًّا. وأنا؟ غرقتُ في الضّياع والظّلام مثلهم. كان هذا ليلةَ السّبت. لقد سكَنَ كلّ شيءٍ، فلم يعدْ يُسمَع أيّ صوتٍ، لا صوتَ إنسانٍ، ولا كِلابٍ، ولا أيّة دوابّ، لقد فُرّغتِ القاهرة من الصّوتِ تمامًا، حتّى كأنّها جُمِعتْ داخل كرةٍ نُحاسيّة مُصمَتة وأُلقيت في جوفِ بحرٍ عميقٍ جِدًّا. حتّى إذا أرادَ النّاس أنْ يتكلّموا لم يسمعوا شيئًا، لقد كانتْ شِفاههم تتحرّك بما يقولون لكنّهم لا يسمعون ذلك؛ وسكنتِ الرّيح ذلك، فلم يُسمع حفيف الأوراق ألبَتّة!!

آنئذٍ في هذا السّكون الطّاغي، لَمَعتِ السّماء فجأة، ثُمّ أبرقتْ، ثُمّ سُمِعتْ أصواتٌ آتيةٌ من الآفاق البعيدة لا أحدَ يعرفُ إنْ كانتْ أصواتَ رعدٍ أم شيءٍ آخَر. أصواتٌ مُتفجّرة غاضِبة، كأنّ السّماء جَبّارٌ يُريدُ أنْ يفتكَ بأهل الأرض، ثُمّ ارتفعَ الصّوت، وسادتْ لَحَظاتٌ من السّكون مرّةً أخرى، كنتُ أنظر وقتَها وأنا مُرتعِبٌ أشدّ ما يكون الرّعب من نافذة غرفتي في الطّابق الثّاني حيثُ صفحةُ السّماء جهة الشّرق تبدو بكاملها من هنا، في هذا الصّمت المُرعِب أكثر من الصّوت، امتلأتْ

صفحة السّماء الخالية بالنّجوم، نبتتِ النّجوم في كلّ شبرٍ منها، ولم تكنْ قبل سكون الصّوت تُرى أبدًا، راحتِ السّماء تمتلِئ بسرعة، كانت النّجوم تتناثر كأنّها حَبُّ قمح تبذره ألف يدٍ في حقلٍ فسيح، مرّ وقتٌ قبل أنْ تترصّع هذه القبّة السّماويّة عن بكرة أبيها بالنّجوم، ثُمّ توقّفتِ السّماء عن إنباتِ مزيدٍ من النّجوم، فيما يبدو أنّها كانتْ تتهيّأ لحدثٍ جليل، وهتفتُ في أعماقي: «فما الّذي سيحدثُ الآن؟» لم أكدْ أُتِمّ الخاطرَ في نفسي، حتّى ماجتِ السّماء بشهبٍ لا تُحصَى، وراحتَ تتساقط كالجراد على الأرض، لا أدري إنْ كانتْ ستصيب كلّ مَنْ في الأرض، أم مَنْ في مِصر، غير أنّ ما أراه يبدو كونيًّا، يبدو أنّ الأرضَ تتغيّر، وتتهيّأ لعهدٍ جديدٍ، كانت مئاتُ الآلاف من الشُّهُب تتساقط من السّماء هاويةً في كلّ اتّجاه، وسُمِعَ للنّاس ضجيج، ويبدو أنّ صوتَ الإنسان عادَ إليه بعدَ أنْ سُحِبَ منه مع تساقط هذه الشّهب، وسُمِع للدّواب نهيج، وسُمِعَ للسّماء عجيج... وتابعتِ الشّهبُ تساقُطَها علينا، وأصابَنا ما أصابَ غيرَنا، فرأيتُ من هنا ألسنة النّيران تتَصاعدُ في القاهرة، ومن نافذتي، رأيتُ سوق زويلة تلتهمه النّيران، لكنّ ألسنة هذه النّيران لم تكنْ تلك الّتي عهدْناها، كانتْ نيرانًا ذاتَ شُعَلٍ زرقاء لا حمراء، وكانتْ تلحس بلسانها العِملاق الشّوارع والدّكاكين والبيوت كأنّها تمسحُ عليها لا تحرقها، ولا تُنتِج تساقُطًا للبنيان ولا تهاويًا للأخشاب كما تفعل النّيران عادةً، ثُمّ لم ينتجْ عنها رمادٌ بعد أنْ كفّتْ عند حلول الفجر، بعدَ ليلةٍ غريبةٍ عجيبةٍ لم يمرّ على البشر قبل اليوم مثلُها!

حينَ أشرقتْ شمسُ الصّباح، كان يبدو جَلِيًّا أنّ نيران السّماء حينَ رحلتْ أخذتْ معها كلّ الحِيف، والموتى، وكلّ أخباث الإنسان، وأنّها رحلتْ كذلك بالطّاعون وبصَيّادي البشر، وبنَبّاشي القبور... لقد كان صباحًا مُختلِفًا، صباحًا يُعيدُ إلى الحياة لونَها الحقيقيّ، وإلى النّظرات نورَها الحقيقيّ، وإلى الضّحكاتِ بهجتها الحقيقيّة. يبدو أنّ الشّهب في اللّيلة الفائتة قد أعادتْ تشكيلَ الحياةِ في القاهرة من جديدٍ، وأنّ نسمات هذا اليوم تبدو صافية نقيّة مُنعِشة، وأنّها لم تعدْ مُنتِنة، ولا مليئة بالهواء الفاسد الّذي ينقل الطّواعين المُختلفة. إنّه صباح الخَلْق الجديد.

لقد بدأتْ حياةٌ جديدةٌ بالفِعل في القاهرة، رفَعَ الله عنها كلّ المصائب، وبدّل وجهها، وأعادَ لها رونَقها، لكنّ القاهرة الّتي صَحّتْ عِلّلُها، تشكو الآن من قِلّة النّاس، لقد فقدتْهم جميعًا تقريبًا، لا أحدَ فيها اليوم ليُحرّك الحياة المُتوقّفة الّتي عادتْ إليها للتّوّ! ومع أنّ الّذين بَقُوا وَرِثوا كلّ ما تركه الرّاحلون وابتدأ عهدهم بالغِنى، إلاّ أنّ القاهرة من دون ناس لا تُداس!

دعاني رئيس دواوين مصر، وقال: «المَلِك يستشيرك في أمر القاهرة والبِلاد كلّها، إنّه لم يعدْ فيها بشرٌ من أجل أنْ يُؤدّوا فيها حَقّ الله في الحياة، فماذا ترى؟». فسألتُه: «هل اقترحَ عليه مُستشاروه شيئًا لحلّ هذه المُعضِلة؟». فردّ: «بعضُهم قال نُزوّج مَنْ بقي من الرّجال مع مَنْ بقي من النّساء من أجل تكثير النّسل».

فقلتُ: «هذا اقتِراحٌ فيه ثلاثُ مُشكلات، الأولى أنّه لم يعدْ هناك نِساءٌ كافِياتٌ من أجل أنْ يُبنَى بهنّ. إنّ الرّجل ليبحثُ عن المرأة بالمندل، وإنّ الرّجل ليقبل بالعَوْراء والشَّوْهاء والجَرْباء لقلّة ما يجد. والثّانية: أنّ الإنجاب لو كانتْ هناك نِساء سيأخذُ وقتًا، ولو كان بهذا النّوع من النّاس فسيُدمّر النّسل. والثّالثة إنْ تمّت الثّانية فإنّ تنامي أعداد النّفوس سيكون بطيئًا، وهذا يعني بحسبة بسيطةٍ أنّ القاهرة تحتاج إلى مئةِ عامٍ كي تعودَ إلى ما كانتْ عليه قبل أربع سنوات!». ورأيتُ حاجِبَي رئيس الدّواوين ينعقدان فوق جبينه: «أإلى هذا الحَدّ اندثرْنا؟». فقلتُ: «إنّ ما أتلفتْه يدُ الطّاعون وحدها وما أحدثتْه من فراغ في النّفوس خلال سِتّة أشهر يحتاج إلى ستّين سنةً من أجلِ إصلاحه ومَلْئه». فشهق، وهتف: «فماذا ترى؟». فرددتُ وأنا أَحُكّ ذقني: «على المَلِك أنْ يشتريَ شعبًا». قَطّب رئيس الدّواوين حاجبَيه حتّى التقَيا، ثُمّ أمعنَ النّظر فِيّ، ثُمّ أطلقَ ضِحكةً عالية وهو يُرجِع رأسه إلى الوراء هاتِفًا: «يشتري شعبًا؟ هل هناكَ شعبٌ يُشتَرَى؟ أكيد تمزح؟». «كَلاّ. إليكَ ما ستنقله إلى المَلِك: إنّ مصر غنيّة رغم ما أصابها، وإنّ الّذين رحلوا تركوا خلفَهم ضِياعًا وزروعًا ونَعمة، ولم يرثْها من بعدِهم أحدٌ، فَلْيستقدمْ من البِلاد القريبة من الشّام والعراق وفارس ومن المغرب مَنْ أصابتْه الفاقة في بلادِه، ولْيُطْمِعْه في خيرات مصر، ولْيأتوا إلى هنا وينهضوا بهذه البِلاد من جديد. ولْيُسكنْهم في أحسنِ أنحائها، ولْينتقِ نساء فارس الجميلات، ونساء العراق المَلِيحات، ونِساء الشّام الظّريفات، ونِساء المَغرب اللّطيفات. فتحسينُ النّسل يتطلّب انتِقاء الرَّحِم. اليوم لا طاعون، ولا أمراض، وحركةُ السّفن صالحة، والدّروب مفتوحة، والخوفُ انقضى، فهذه فرصةُ الملك الحقيقيّة في أنْ يشتري لمِصر شعبًا، شعبًا عظيمًا، يُعيد لمِصر عَظَمتها». ❞

” (١٠)

لا تبكِ يا صديقي

أيُّ البِلادِ خيرٌ للفتى؟ تلكَ الّتي سقطَ فيها رأسُك فإنّكَ من طينتها خُلِقت. وأيّ البِلاد أجمل؟ تلك الّتي حُلَّتْ فيها تمائمُك؛ فإنّك في ربوعها نشأت، وبين حواريها العتيقة تَرَعْرعتَ، وها هي بغداد؛ قريبةٌ على بعد، حبيبةٌ على هَجْر:

وأبرحُ ما يكونُ الشّوقُ يومًا

إذا دَنَتِ الدّيارُ مِنَ الدّيارِ

ظلّ هذا البيت يتردّد في خاطري حتّى كأنّني فهمتُ أنّها رِسالةٌ إلهيّةٌ من أجل أنْ أسير إلى بغداد، صار أمر العودة محتومًا. كأنّ بعضَ الأشياء لا تقبل التّأجيل. لبغداد حبّة القلب، ونور العين، وقنديل الدّروب، كلّ هذا. هذا الّذي يُحَسّ ولا يُقال، هذا الّذي يجعلني أتقلّب على فِراشي لا أستطيع النّوم، فإذا همزني الشّوق صار كالشّوك في ضُلوعي، فلا يترك لي مُستَقرًّا.

ثُمّ إنّ هذا الشّوق أسكنَ الحُمّى في جسدي، فقلتُ: «أَحُمّى وأنا سائرٌ من مصر؟» فتحايلتُ عليها بالدّواء، وقلتُ أرتاح يومَين، حتّى أبلّ من المرض، ثُمّ أسير. في اليوم الثّالث قمتُ إلى المكتبة، لم يبقَ فيها بعدَ هذا الكثير من الكُتُب، سآخُذُ فقط ديوان المتنبّي بشرح العُكبري، والطّبقات الكبرى الّتي جلبْتها في المرّة الأخيرة من المُنشأة، وسأتركُ بقيّة الكتب هنا، لعابرِ سبيلٍ يدخل إلى البيت فيقرأ فيترّحم عليّ، لناظرٍ في الحروف يُغيّر الله من حاله بكلمةٍ قرأها، لِمُقلِّبٍ للصّفحات يَقلِب الله ليلَه إلى نَهار. سأتركُ كلّ ما في البيت لعابري السّبيل، للّذين سيأتي بهم المَلِك إلى القاهرة، لشعبِ مصر الجديد في مصر الجديدة.

ركبْتُ الأبلق، طلبْتُ من (سالم) أنْ يُوافيني على الدّرب السّائرة إلى العِراق، لم تُغادِرني الحُمّى تمامًا لكنّني تحاملتُ عليها، مشيتُ في الشّوارع، كانتْ خاليةً، لكنّها عن قريبٍ ستمتلِئ، نظرتُ إلى الأسواق كانتْ مُغلَقة، لكنّها عن قريبٍ ستضجّ بِرُوّادها. الحياة لا تنتهي. إذا لم تأتِ السّاعة، فالحياة ستسير، وستبقَى سائرةً إلى أنْ يقضي الله أمرًا كان مفعولاً. قد تتباطأ لكنّها لا تتوقّف، قد تحترق لكنّها تنهضُ من رمادها، قد تبكي لكنّها تمسحُ دموعَها بمنديلٍ يُسَمّى مُرورَ الأيّام.

لم أشأ أنْ أُودّع أحدًا من أصدقائي العتيقين الّذين ظَلّوا أحياءً، كان يكفيهم أنْ يتذكّروني ولو بكلمةٍ طيّبة، لم أُخبِرْ كذلك ماريّة، أعرفُ أنّها ستلحقُ بي، أتمنّى لو كنتُ أصغرَ سِنًّا، أو كانتْ هي أكبرَ قليلاً، أو لو أنّ أُمّها لم تكنْ بهذه الوحشيّة،

لكان الأمر مُختلِفًا. لم أُحصّل في الزّواج ما أريد، ولم أستطعْ أنْ أنجح في الشّروع به، أو الاهتِداء إلى الطّريق الّتي تُفضي إليه. أنا وحيدٌ؛ ولذلك أنا حزين.

كان الأبلق يسير ببطءٍ، كان يعرفُ أنّني أرحل، صُحبتي به كانتْ أوثقَ صُحبة، لم أجدْ أوفَى منه، رافَقَني في هذه الأهوال كُلّها، وصَبَرَ عليّ صَبْرَ الحبيب الوامق الّذي يغفر لحبيبه خطاياه، وتحمّل التّعب والخوف، وتعرّض مثلي تمامًا للأكل من قِبَل الوحوش الآدميّة، ونجا ونجوت، وظلّ شُجاعًا وقويًّا.

كانتْ عيوني تطوفُ في الأنحاء، تُرسِل نظراتها على الشّوارع والأبينة والطّرقات، تُقبّل كلّ حجرٍ فيها، تُسلّم على كلّ موضعٍ منها، تدعو لكلّ ناحيةٍ فيها. مسحتْ ذاكرتي كلّ الذّكريات السّيّئة الّتي رأيتُها في هذه الشّوارع، وملأتُها بالذّكريات الأولى الجميلة، وملأتُها كذلك بالتّخيّلات الأجمل في القادم القريب، تخيّلتُ عالَمًا من الحُبّ والبهجة والسّلام والأمان يملأ هذه الطّرقات ويُعيدُ لها وجهها الحقيقيّ.

التقاني سالم عند العصر في الطّريق الّتي تُفضي إلى الدّيار العراقيّة: «انظرْ يا سيّدي، الحياة تعود إلى القاهرة». «أنا مُرتحِل يا سالم». قلتُ هذا باختِصار ووضوح، العواطف جيّدة لكنّها تَذبَح، تُؤخّر، وتقتل أحيانًا، أريدُ أنْ أتّخذ هذا القرار، صحيحٌ أنّه يُشبه انتِزاع مُضغةٍ من جسدي هي القاهرة الّتي استوطنتْ قلبي، لكنّ مُضغة أخرى ستُنتزَع إنْ لم أُسارعْ باحتِضانها؛ تلكم هي بغداد. قطّب سالم حاجبيه: «لِماذا يا سيّدي؟ أبَعْدَ أنِ انتصرتْ مصر على المِحن تريدُ أنْ تغادرها». «لأنّها انتصرتْ أنا أُغادرها. لو كان المرض لا يزال يفتك بجسدها وينتهكُ أحياءَها لبقيتُ أُقاتلُه معها، لو لم يُقضَ على آكلي لحومنا لبقيت. الآن وقد اطمأننتُ عليها، على هذه الحبيبة، وبعدَ أنْ أدّيتُ واجبي بقدر ما أستطيع، الآن يمكنني أنْ أذهب». «ابقَ هنا؛ إنّ القاهرة قد أحبّتْكَ هي الأخرى. ولن تغفر لكَ هذا الرّحيل». «لا أضحّي بحبٍّ من أجل حُبّ يا سالم، ولكنّ بغداد أيضًا تنتظرني».

كانت الشّمس قد بدأتْ ترحل، وهذا الوقتُ المناسب لبدء المسير في الصّحراء، وضعتُ يدي على قلبي، كان الشّوق الّذي فيه قد زادَ من الحُمّى.

إنّني سأتوجّه إلى بغداد، لأقبّل خَدَّيها، وأجثو تحتَ قدمَيها أطلبُ منها أنْ تُسامحني، ثُمّ أذهبُ إلى مكّة لأحجّ فأغتسل من كلّ الأدران الّتي عَلِقتْ بي كلّ هذه السّنوات، وأعودَ إلى مُهجة القلبِ بغداد كيومَ ولدْتني أمّي، وأكتبَ كلّ ما حصل معي في هذه الأسفار العجيبة طَوال هذه السّنوات.

قال لي سالم: «أمعكَ من الزّاد ما يكفي يا سيّدي؟». قلت: «معي من الشّوق ما يكفي». ابتسم: «فلْتهْنَأ من شاقتْكَ حتّى رضيتَها وتركْتَنا». قلتُ: «إنّه شوقٌ مُبرّح، وهل في الحُبّ ما يؤذي؟!». ابتسم: «كم تحتاج لكي تصل إلى بغداد؟». ناكفْتُه: «من الأيّام أم من الأشواق؟». ضحك. أردفتُ: «من الأشواق ما لا ينتهي، ومن الأيّام القليل».

نزلتُ عن الأبلق، مسحتُ على عنقه، قبّلتُه، وعانقتُه عِناقًا طويلاً، وكان خاشِعًا مُطرِقًا، يعرفُ أنّني سأتركه: «لن أدعكَ تموت في الصّحراء». قلتُ لسالم: «هو لك، أوصيكَ به، لن تجدَ أوفى منه». كان الأبلق يفحصُ الأرض وهو مُدْنٍ عُنقَه إليها، رفعتُها إليّ ونظرتُ في عينَيه، فرأيتُهما تدمعان: «لا تبكِ يا صديقي... لا تبكِ». وعانقتُه من جديدٍ.

اشتريتُ جَمَلاً، القافلة ستُغادر بعدَ قليل، حملتُ على الجَمَل متاعي، كان قليلاً، الكتب وبعض الطّعام. وماذا يريد المُرتحِل إلى النّهاية. قلتُ لسالم: «ماريّة... تعرفُ يا بُنيّ... المرء قد لا يُسعِفُه في مثل هذه المواقف الكثير من الكلمات... ماريّة يا سالم... إنّ قلبَها جوهرة، ولن تجدَ في نِساء الأرض مِثلَها، وإنّكَ تُحبّها، فقاتِلْ من أجل هذا الحُبّ. إذا استطعتَ ألاّ تخرجَ من الدُّنيا إلاّ وهي معك، فاعلمْ أنّكَ ظفرتَ بالدُنيا، وما الدُّنيا إذا لم تكنِ امرأةً جميلة. يا بُنيّ، أنا لي قلبٌ مثلما لكلّ العُشّاق تلك القلوب، لكنّني أضعتُه في الدّروب، لم أستطعْ أنْ أظفر بالمرأة الّتي أريد، وقد كبرتُ، وصار الحصول على رفيقةٍ في هذه الحياة بالنّسبة لي مثل عودة اللّبن إلى الضِّرع، فلا تفعلْ مثلما فعلت. لا تقل أنتظرُ حتّى يُكتَبَ لنا هذا الارتِباط المُقدَّس، اكتبْه أنت، نحنُ نكتبُ أقدارَانا! لا تُصدّقْ أنّنا لا ننال إلاّ نصيبَنا، لم يكنْ هذا النّصيب إلاّ نِتاج شجاعتِنا في النّظر إلى عيونِ مَنْ نُحبّ، واهمس في أذنَيها: أحبّك، ولن تمنعني قُوّة في الكون عن هذا الحُبّ».

كانتِ القافلة تسير في الصّحراء، والحُمّى تسير في الجسد، الدّرب طويلةٌ مع الشّوق، والصّحراء ذابحةٌ مع التّوق، والحُمّى رديفةٌ لهما؛ فأينَ أفرّ؟

لم يقتلْني العَطَش، عَطَشي في القلب، الشّفاه يُمكن أنْ تندَى من بُكاء العيون، ولم يقتلني الظّمأ، أنا لا أظمأ ما دامتْ بغداد غايتي... إنّما هذه الحُمّى اللّعينة ألا يُمكن أنْ تهدَأ قليلاً...؟! هل تَصدُق دُرّيّة للمرّة الألف؟! مضتِ القافلة، كانت الطّريق إلى بغداد تأكل من أخفاف الإبل، وكانت الحُمّى تأكلُ من روحي. ولقد وقفْنا بتُربان كما وقفَ المتنّبي، وأنشدتُ كما أنشد:

وقلتُ لها: أينَ أرضُ العِراق

فقالتْ ونحنُ بتُربان: ها

يااااه... ما أجمل العراق، ما أحلى بغداد! غير أنّ عينَيّ لم يعدْ فيهما كثيرٌ من النّور لتُبصِر كلّ هذا الجَمال، كيفَ أستعيدُ قُدرتي على أنْ أرى مثلما كنتُ أرى في شبابي، كيفَ يخفتُ الضّياء على هذا النّحو المُؤلِم، لا أريدُ شيئًا كثيرًا، أريدُ أنْ أرى بيتي في بغداد؟ هل هذا مُمكِن يا الله!!

انتهتْ ❝

❞ قال الهامش في آخر المخطوطة:

مات عبد اللّطيف أوّل وصوله إلى بغداد، كأنّها لم تقبلْه، أو عتبتْ عليه حدّ الموت.. ودُفِن إلى جانب أبيه، كأنّ روحَه كانتْ تطوفُ في البلدان تبحثُ عن روحِ أبيه، فلّما شارفَه في المكان نزلت الرّوح إلى اللّحد، فتعانقتا.

دُفِنَ عبد اللّطيف البغدادي في المقبرة الوَرْديّة، كأنّه روحه تحنّ إلى الوَرْد، إلى الشّذا، إلى تللك الرّائحة القادمة من شجرة البان في ساحة بيته في مصر، أو من تلك الورود الّتي كانتْ تعبق بها ساحات البيمارستانات الّتي علّم أو طبّب فيها، كأنّ الرّائحة تقول له: إنّ الموت ليسَ قبيحًا إلى هذا الحدّ ولا مُخيفًا، قد يكون جميلاً... وإنّ رائحته ليس شرطًا أنْ تكون كريهةً، فقد تكون طيّبةً ووردّيّة... خاصّة إذا كانت النّهايات تجمعكَ بأبيك، بذلك القلب الّذي آمنَ بكَ حينَ كفر النّاس، وشدّ على يدَيك في أوّل الطّريق حين تركهما النّاس، وقال لهمّتك لا ترضَيْ بما دون النّجوم، فإنّ أصحاب النّفوس العَلِيّة يعرفون كيفَ يختارون حياتهم، ويعرفون أكثر كيفَ يختارون موتهم.

وكانتْ له وصيّةٌ أخيرة؛ أنْ يُكتَب هذان البيتان لأبي العتاهية على قبره:

ما للطّبيبِ يموتُ بالدّاء الّذي

قدْ كانَ يُبرِئُ مِنهُ فيما قَدْ مَضَى

ذَهَبَ المُداوِي والمُداوَى والّذي

جَلَبَ الدّواء وباعَه ومَنِ اشتَرى ❝

❞ قصّة المخطوطات الثّلاث

المخطوطة الثّانية: مخطوطة (عبد اللّطيف بن يوسف البغداديّ)

كتبتُ هذه الرواية في أوج انتشار (فيروس الكورونا) الّذي طَغى على كلّ شيءٍ، وعَطّل الحياة، وشلّ أركانَها في العالَم كلّه، وانقسمَ النّاس فيه إلى فريقَين: مَنْ يقول إنّه مرضٌ فَتّاك أهلكَ من النّاس أكثرَ مِمّا أهلكتِ الحروب والقنابل الذّرّية، وفريقٍ ثانٍ يرى أنّها مُؤامرة، وأنّ المرض لا يعدو رشحًا يُمكن أنْ ينجو منه أيّ أحدٍ، وأنّ الأمر استُغِلّ سياسيًّا واقتِصاديًّا من دُولٍ عُظمى. أنا لا أميلُ إلى أحدٍ بقدر ما أصف، والوصف هنا بسيطٌ، وليسَ هذا موضع التّفصيل. والنّاس منذُ أنْ خَلَقهم الله لا يجتمعون على رأي، وهم أجناس، ويذهبون مذاهبَ شَتّى، وهذا من الطّبيعة الّتي طَبَعَهم الله عليها.

المهمّ أنّني أنهيتُ الرّواية في الوقت الّذي أعلنتْ فيه منظمّةُ الصّحّة العالَميّة أنّ عدد الإصابات في العالَم يقرب من عشرة ملايين إصابة. توقيتُ الرّواية الّتي تتحدّث عن الأوبئة وفَتْكِها بالنّاس ليس له علاقةٌ بانتِشار الفيروس، فالرّواية كانتْ فكرةً مُختمِرةً في ذهني من أكثر من سنتَين مع أخُتَيها في المخطوطات الثّلاث الّتي حصلتُ عليها، وهي تتحدّث عن الطّواعين والأمراض الفَتّاكة والجوع وآثارها على البشريّة، وفيها مِمّا حصل في زمننا مَشابِهُ ونقاطُ التِقاء، وكأنّها جاءت من تلك البلاد البعيدة ونهضتْ من قبرها ليُعيد القلم لها الحياة من جديد، ولكي تقول إنّ سُنن الله الّتي تُصيب البِلاد والعِباد هي سُنَنٌ ثابِتة لا تتغيّر بتغيّر الزّمان أو المكان، ولا التّقدّم العِلمي أو التّقنيّ، وأنّ أمر الله في خُطّته نافذٌ رغم كلّ الحذر والحرص.

ولْنعدْ إلى المخطوطة، هي المخطوطة الثّانية في عِدادهنّ، كانتْ مكتوبةً بخطّ عبد اللّطيف البغداديّ نفسِه، فقد عُرِفَ عنه في حياته أنّه كتبَ أكثرَ كُتُبِه الّتي زادتْ عن الخمسين كتابًا بيده، فقد كان نَسّاخًا إلى جانب كونه طبيبًا ومُهندِسًا ونَحْويًّا. المخطوطة الّتي تشرح رِحلته إلى مصر وخروجه منها، وتذكر يوميّاته في البيمارستانات الّتي عمل فيها، ووصفه الدّقيق للأهرامات، وطبائع الزّراعة والنّباتات والحيوانات في مصر لم يكنْ فيها ما ليسَ مألوفًا فيما يكتبه الرّحّالة في أسفارهم الكثيرة، إلاّ ذلك الجزء الّذي يبدو غيرَ قابلٍ للتّصديق ألبَتّة؛ الجزء الّذي يتحدّث فيه عن المجاعة الكُبرَى بمصر والّتي لم تُلجِئ النّاس إلى أكل الحيوانات من الكِلاب والقِطط والضّباع وغيرها كما في حدث الشّدّة المُستنصريّة فحسب، بل جعلتْهم يصيدون إخوتهم من البشر ويطبخونهم ويأكلونهم، والأب يذبح ابنه والأمّ تُساعده في طبخه، والمرأة تشوي ابنَها أو ابنتَها الرّضيعة وتتلذّذ بنهشِه... في قصصٍ لا يُمكن أنْ تدخل العقل، وتصطدم مع الفِطرة الإنسانيّة السّليمة اصطِدامًا شنيعًا... في الحقيقة توقّفتُ عن الأخذ بهذه الأخبار الّتي وردتْ في المخطوطة حتّى أجدَ دليلاً عليها، فذهبتُ أبحثُ في كتب التّاريخ الّتي تحدّثتْ عن هذه الفترة الّتي تمتدّ ما يقرب من أربع سنواتٍ من أوّل عام ٥٩٧ هجريّة إلى أواخر عام ٦٠٠ هجريّة، وقابلتُ تلك الأخبار بأهمّ ثمانية مصادر تتحدّث عن هذه السّنوات نفسها، وهي: البداية والنّهاية لابن كثير، والكامل في التّاريخ لابن الأثير، وكتاب المواعظ والاعتِبار المعروف بالخطط المَقريزيّة للمقريزيّ، وشَذَرات الذّهب في أخبار مَنْ ذهب لابن العِماد، والنّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة للأتابكي، وتاريخ ابن الورديّ، والعبر في خَبَر مَنْ غَبَر للذّهبي، وكتاب الرّوضتَين في أخبار الدّولتَين... أقول قابلتُ هذه المصادر بالمخطوطة الّتي سَمّاها عبد اللّطيف البغداديّ بكتاب الإفادة والاعتِبار فوجدتُ أنّها جميعَها تُصدّق ما ذَكَره في المخطوطة؛ من أنّ النّاسَ صادت النّاسَ من الجوع وأَكَلَتْهم!!

وبعدُ، فأنا نَبّاشُ تاريخ، أذهبُ إلى بطون الكتب، فأستصفي منِها ما كان قَصَصًا حَقًّا، وأستخلصُ ما كان في هذا القصص من عِبرة، وأُقدّمه فيما أكتب. وهذا ما حدث مع هذه الرّواية.

أمّا قِصّة المخطوطة الثّالثة الأخيرة، الّتي تَسردُ حِكاية أحمد بن الحُسين، فسأعرضُ لَها في موضِعها إن شاء الله.

أيمن العتوم